ديليب هيرو

الحربُ الباردَة في العالم الإسلامي

ترجمة
حسام نبيل طه

مركز الرافدين للحوار

الحربُ الباردَة في العالم الإسلامي

الحربُ الباردَة في العالم الإسلامي

ديليب هيرو

ترجمة: حسام نبيل طه

الطبعة الاولى، بيروت/النجف الاشرف، 2026

First Edition, Beirut/Najaf, 2026

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

إن جميع الآراء والمعلومات الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر (المركز).

ISBN: 978 - 9922 - 772 - 13 - 4

آذار/مارس 2026

ديليب هيرو

الحربُ الباردَة في العالم الإسلامي

ترجمة

حسام نبيل طه

مركز الرافدين للحوار
Al-Rafidain Center For Dialogue
R.C.D

الفهرس

مقدمة مركز الرافدين للحوار 7
توطئة 9
تمهيد 21
الفصل الأول: مقدمة في التاريخ المتناقض بين إيران والسعودية من خلال متاحفهما الوطنية 27
الفصل الثاني: دور أمريكا والنفط في تشكيل كل من إيران والمملكة العربية السعودية51
الفصل الثالث: بصمة فيصل في المنطقة وطموح الشاه 73
الفصل الرابع: الثورة الإسلامية في إيران: قراءة أولية خاطئة من قبل السعوديين 93
الفصل الخامس: ثورة إيران الثانية وتحدي الألفية لآل سعود 109
الفصل السادس: الحرب الإيرانية العراقية تقويض نظام الخميني 133
الفصل السابع: سباق سعودي إيراني نحو العالم الإسلامي 153
الفصل الثامن: المملكة في قلب آخر حرب كبرى في القرن العشرين 169
الفصل التاسع: انفراج سعودي إيراني 187
الفصل العاشر: خصوم الخليج يتجهون شرقاً 213
الفصل الحادي عشر: ملحمة إيران النووية والعراق يتجنب حرباً طائفية 259
الفصل الثاني عشر: ربيع عربي تقابله ثورة مضادة بدعم سعودي 311
الفصل الثالث عشر: حرب باردة متعددة الجبهات بين الرياض وطهران 355
الفصل الرابع عشر: ترامب يغذّي الحرب الباردة بين خصومه في الخليج 405
الفصل الخامس عشر: الاستنتاجات 457
الفصل السادس عشر: الخاتمة 473
مركز الرافدين للحوار:(R.C.D) 511

مقدمة مركز الرافدين للحوار

يأتي هذا الكتاب بوصفه إحدى الدراسات التحليلية الرصينة التي تتناول بنية الصراع الإقليمي في الشرق الأوسط من زاوية تاريخية–سياسية معمّقة، تتجاوز التوصيفات السطحية والاختزالات الأيديولوجية التي غالبًا ما تطغى على تناول العلاقات السعودية–الإيرانية في الأدبيات السياسية والإعلامية. فالكتاب لا يكتفي بتتبع مسار التنافس بين دولتين محوريتين في المنطقة، بل يسعى إلى تفكيك العوامل البنيوية التي جعلت من هذا التنافس إطارًا ناظمًا للسياسة الإقليمية في الخليج والعالم الإسلامي على امتداد أكثر من سبعة عقود.

تنطلق أطروحة المؤلف من فرضية مفادها أن الخلاف الايراني–السعودي لا يمكن فهمه خارج سياقه التاريخي والدولي، ولا بمعزل عن دور القوى الكبرى، وفي مقدمتها الولايات المتحدة، وتأثير النفط، والتحولات في بنية النظام العالمي. فقبل الثورة الإسلامية في إيران عام 1979، كانت طهران والرياض تتحركان ضمن منظومة أمنية إقليمية واحدة، وإن اختلفت أدوارهما الوظيفية، إلا أن انهيار هذا التوازن مع قيام الجمهورية الإسلامية أعاد تعريف مفهوم النفوذ والشرعية والقيادة في المنطقة، وفتح المجال أمام تنافس طويل الأمد اتخذ شكل «حرب باردة» بأدوات غير مباشرة.

ويُظهر الكتاب أن المقاربة الإيرانية لهذا التنافس لم تكن ثابتة أو أحادية البعد، بل خضعت لتحولات داخلية عميقة، فرضتها طبيعة النظام السياسي، وتفاعلات الهوية الثورية مع متطلبات الدولة، وضغوط البيئة الإقليمية المعادية في مراحل متعددة، ولا سيما خلال الحرب العراقية–الإيرانية وما بعدها. وفي هذا السياق، يتعامل المؤلف مع إيران بوصفها فاعلًا عقلانيًا يسعى، مثل غيره من الفاعلين الإقليميين، إلى حماية أمنه القومي وتوسيع هامش نفوذه، مستخدمًا أدوات أيديولوجية وسياسية وأمنية تتلاءم مع موقعه الجغرافي وتركيبته الداخلية وتجاربه التاريخية.

كما يسلّط الكتاب الضوء على أن التنافس السعودي الإيراني لم يكن في جوهره صراعًا مذهبيًا بقدر ما هو صراع على المكانة والشرعية في العالم الإسلامي، حيث جرى توظيف البعد الديني في سياق سياسي أوسع، تداخلت فيه الاعتبارات الاقتصادية، ولا سيما النفط،

مع هواجس الأمن الإقليمي، والتحالفات الدولية المتغيرة. ومن هذا المنظور، يقدّم المؤلف قراءة نقدية للسرديات التي تُرجع مجمل أزمات المنطقة إلى الانقسام الطائفي، معتبرًا أن هذه المقاربات تُغفل الفعل السياسي للدول، وتُسهم في تبسيط مفرط لصراعات ذات جذور مركّبة.

وفي تناوله لمرحلة ما بعد عام 2011، يبيّن الكتاب كيف شكّل «الربيع العربي» لحظة مفصلية أعادت إنتاج الحرب الباردة السعودية–الإيرانية على نطاق أوسع وأكثر تعقيدًا، حيث تحولت عدد من الدول العربية إلى ساحات تنافس غير مباشر، وبرزت أنماط جديدة من الصراع تجمع بين القوة الصلبة والحروب بالوكالة وأدوات النفوذ الناعم. كما يتوقف عند الملف النووي الإيراني بوصفه عنصرًا مركزيًا في إعادة تشكيل موازين القوى الإقليمية، لا باعتباره قضية تقنية فحسب، بل باعتباره تعبيرًا عن سعي إيران إلى تثبيت موقعها كقوة إقليمية معترف بها ضمن النظام الدولي.

إن مركز الرافدين للحوار(RCD)، من خلال نشر هذه الدراسة وترجمتها إلى اللغة العربية، ينطلق من قناعة معرفية مفادها أن فهم الصراعات الإقليمية لا يتحقق عبر الانحياز أو التجييش، بل عبر القراءة التحليلية المتوازنة التي تضع الوقائع التاريخية والسياسية في سياقها الصحيح. كما يأتي هذا الجهد في إطار سعي المركز إلى تعزيز ثقافة الحوار، وتشجيع المقاربات المقارِنة، وفتح المجال أمام القارئ للاطلاع على دراسات تحليلية تتعامل مع الفاعلين الإقليميين، بما في ذلك الجمهورية الإسلامية في إيران والمملكة العربية السعودية، بوصفهما أطرافًا إقليمية ودولية تتحرك وفق مصالح وطنية واستراتيجيات قابلة للفهم والتحليل.

وتكتسب هذه الدراسة أهمية خاصة في السياق العراقي، حيث يشكّل العراق إحدى ساحات التفاعل الأكثر حساسية بين طهران والرياض، وحيث تفرض الجغرافيا والتاريخ والمصالح المشتركة مقاربة عقلانية تسهم في تقليل منسوب الاستقطاب وتعزيز فرص الاستقرار. ومن هذا المنطلق، يرى المركز أن نشر هذا الكتاب لا يهدف إلى إعادة إنتاج خطاب الصراع، بل إلى تفكيكه معرفيًا، وفتح أفق جديد للتفكير في إمكانيات الانتقال من منطق المنافسة الصفرية إلى صيغ أكثر توازنًا في إدارة الخلافات الإقليمية.

وفي الختام، يؤكد مركز الرافدين للحوار(RCD) أن هذا العمل يمثّل إضافة نوعية للمكتبة العربية في مجال دراسات العلاقات الإقليمية، ويأمل أن يشكّل منطلقًا لحوارات بحثية أوسع، تسهم في بلورة فهم أعمق للتحولات الجارية في الشرق الأوسط، وتدعم جهود بناء سياسات أكثر عقلانية، قائمة على المعرفة، لا على الانفعال أو الاستقطاب.

توطئة

يهدف هذا الكتاب لدراسة تاريخ التنافس بين المملكة العربية السعودية وإيران، وذلك عبر تتبع جذور هذا التنافس، وتحليل مسار تطوره. فلم تزل السعودية، على امتداد ثلاثة عقود مضت، دولة محافظة مستقرة كصخرة صامدة في قلب منطقة مضطربة. بيد أنه مع بداية عهد الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود، الذي استمر حكمه ثلاث سنوات، بدأ اسم المملكة العربية السعودية يظهر على عناوين الأخبار ووسائل الإعلام الدولية.

آثَرتُ استهلالَ الكتاب بمقدمة تتناول أحداث الصعود المتسارع لوليِّ العهد السعودي، محمد بن سلمان، ليصبح وريثاً للعرش بدلاً من ابن عمه، محمد بن نايف آل سعود في حزيران-يونيو 2017. وسنتناول أيضاً إعفاء محمد بن نايف من منصبه في وزارة الداخلية التي تولّى إدارتها على مدار خمس سنوات.

تخدم مقدمة الكتاب وظائفَ عدةً، فهي تقارن بين السعودية وإيران؛ من حيث أن كلاً منهما عندما ينسب لنفسه التميز يستند إلى ركائز مختلفة، إذ يمتد تاريخ دولة إيران لقرابة 6000 عام، طوّر هذا التاريخ الضارب لدى الإيرانيين إحساساً متأصّلاً بالهُوية، مقارنة بنظيرتها المملكة العربية السعودية التي تُعَدُّ كِياناً حديثاً نسبياً، تأسس عام 1932. حتى سلَفها البعيد، إمارة الدرعية التي تصغرها بكثير، تأسست في عام 1744 وسط الجزيرة العربية على يد محمد بن عبد الوهَّاب مؤسس المدرسة الوهَّابية(*) الذي استمد أفكاره من الفقه الحنبليّ السنيّ المتزمّت.

كان العَداء للإسلام الشيعيّ عنصراً أساسياً في الوهَّابية، المذهب الرسميّ في المملكة العربية السعودية. وسنستعرض في المقدمة أوجه الاختلاف بين الشيعة والسُنّة في مجالات العقيدة، والممارسات، والقوانين، والمعتقدات الدينية، والتنظيم الديني.

(*) حركة دينية سُنّية قامت في منطقة "نجْد" وسط شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. ووَفق رأي أتباعها الأصوليين فقد جاءت لتصحيح «الأوضاع الدينية الفاسدة والأحوال الاجتماعية المنحرفة» في وسط الجزيرة العربية، وتنقية عقائد المسلمين والتخلّص من العادات والممارسات المخالفة. ويصفها أتباعها بأنها دعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويصفها آخرون بالتطرف [المترجم].

وسنتحدث في الفصل الثاني عن اكتشاف النفط في "إيران" عام 1908، واكتشافه لاحقاً في المملكة العربية السعودية، وسنبين كيف ساهمت شركة النفط الأنجلو-فارسية، نتيجة عدم اهتمامها بأراضي شبه الجزيرة العربية، في دخول شركات النفط الأمريكية إلى المملكة في عام 1933. ومنذ ذلك الحين، كان النفط السعودي هو السبب الرئيسُ لقوة العلاقة بين "الولايات المتحدة" والمملكة العربية السعودية.

نظراً للأهمية التي اكتسبتها صناعة النفط في إيران، فقد تنازعت على ملكية شركة النفط الوحيدة في البلاد، شركةِ النفط الأنجلو-إيرانية، كلٌّ من بريطانيا، التي كانت تملك الشركة، وإيران التي يحكمها رئيس الوزراء القومي، المنتخب ديمقراطياً، "محمد مصدق" الذي بادر بتأميم الشركة، فأطاحته وكالةُ المخابرات المركزية الأمريكية بمساعدة جهاز المخابرات البريطانية "إم آي 6".

ولسد النقص في إمداد النفط إلى الغرب، بعد تأميم النفط الإيراني، لجأت شركة النفط السعودية، أرامكو إلى زيادة إنتاجها، حيث شكّلت خسارة إيران مكسباً لـلسعودية. وعلى النقيض من ذلك، استفادت كلٌّ من إيران والسعودية من وقف ضخّ النفط العربي بقيادة الملك السعودي فيصل، خلال الحرب العربية الإسرائيلية عام 1973، لما نتج عنه من ارتفاع كبير في أسعار النفط في الفترة بين عامي 1973-1974.

سنتناول في الفصل الثالث عواقب هذه الوفرة بشيء من التفصيل؛ فقد ارتفعت بعدها طموحات الشاه محمد رضا بهلوي، واكتسب نفوذاً في أفغانستان. وفي سياق مماثل، وضع فيصل بصمة سعودية في الباكستان.

اِغتِيلَ الملك فيصل على يد ابن أخيه فيصل بن مساعد البالغِ من العمر سبعة وعشرين عاماً، والذي تلقى تعليمه في الولايات المتحدة، وكان والده مساعد، الولد الثاني عشر لابن سعود. وقد ساد اعتقادٌ في العالم العربي بأنّ فيصل قُتل بسبب قراره قطعَ النفط عن الولايات المتحدة في عام 1973، وأن وكالة المخابرات المركزية كانت متورطة في عملية الاغتيال.

مدعوماً بعائدات النفط المزدهرة، عكف شاه إيران على تسريع مسارَي التصنيع والعسكرة في بلاده، مما زاد من زحف أبناء الريف نحو المدن، وعوض أبناء الريف المحافظون شعورهم بالغربة ضمن بيئة حضَرية غير مألوفة باللجوء إلى المساجد. ومن المفارقات أيضاً أن المعارضة العلمانية التي قمعها الشاه الدكتاتوري لما يقرب من ربع قرن، بدأت هي الأخرى في تلك الفترة بالمطالبة بالإصلاح السياسي. وقد اجتمعت آراء هذين التيارين المناهضين للشاه على دعم آية الله روح الله الخميني الذي طالب بإنهاء النظام الملكي.

استغل الخميني بذكاء تاريخ الشيعة والقومية الإيرانية لتعميق التشدد المناهض للملكية لدى دائرة متسعة من الإيرانيين. وبعد سقوط الشاه، في شباط-فبراير 1979، تأسست جمهورية إيران الإسلامية اللاحقة بناءً على تعاليم كتاب الخميني السابق: "الحكومة الإسلامية، حكم الفقيه العادل".

ويلخص الفصل الرابع من هذا الكتاب أساسيات الجمهورية الإسلامية والمَهامَّ الضخمة التي تواجهها، مع الإشارة إلى كلام نائب رئيس الوزراء السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود عندما أعلن أن كل عقبة تُزال من طريق التعاون الشامل بين المملكة والجمهورية الإسلامية هي بمنزلة خطأ فادح في قراءة الثورة الإيرانية.

عقب سقوط الشاهَ الموالِيَ لـواشنطن، بدأ الخميني بتطهير الدولة والمجتمع الإيراني من النفوذ الأمريكي، وساعده على ذلك اقتحام مجموعة من الطلاب المتشدّدين مبنى السفارة الأمريكية في طهران في تشرين الثاني-نوفمبر 1979. آنذاك، استولى أولئك الطلاب على مجموعة تقارير سرية تابعة لوكالة المخابرات المركزية تتحدث عن الشرق الأوسط. بعد اطّلاعه على هذه التقارير، وصف النظام الإيراني الجديد السفارة الأمريكية في طهران بأنها "عشٌ للجواسيس"، وشكلت التقارير مبرّراً منطقياً لأخذ 52 دبلوماسياً أمريكياً كرهائن. استمرت أزمة الرهائن 444 يوماً، وانتهت بتنصيب رونالد ريغان رئيساً لـلولايات المتحدة في كانون الثاني-يناير 1981، بعد أن هُزم الرئيس الديمقراطي جيمي كارتر.

على الجانب الآخر من الخليج، كان الملك السعودي خالد يواجه تحدّياً غير مسبوق لشرعية أسرة آل سعود عندما استولى مئات المسلحين الوهَّابيين بقيادة جهيمان بن محمد العتيبي على الحرَمِ المكّيّ عشية رأس السنة الهجرية الجديدة 1400، الموافق لـ 20 تشرين الثاني-نوفمبر 1979. دعا المهاجمون إلى إسقاط العائلة المالكة لابتعادها عن التعاليم الوهَّابية. لكن الحكومة السعودية تمكنت من استعادة السيطرة على الحرم بمساعدة وكالتَي الاستخبارات الأمريكية والفرنسية، والقوات المسلحة الباكستانية. وبعد استعادة الأمن في مكة، استعرض النظام انتقادات العتيبي، فيما جاء رأي المفتي العام عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مؤيداً لمعظم هذه الانتقادات. ونتيجة لذلك شهدت أولى سنوات الثمانينيّات فرض قواعدَ وهابيّةٍ صارمة على الحياة الاجتماعية والثقافية لمواطني المملكة.

يناقش الفصل الخامس هذه الأحداث، ويتناول بإيجاز قضية أسلمة الدولة والمجتمع داخل إيران، وكيف ركز الخميني خارج إيران على دفع الغالبية الشيعية في العراق للثورة ضد نظام الرئيس السنّيّ صدام حسين، زعيم حزب البعث العربي الاشتراكي.

في أيلول-سبتمبر 1980، قام صدام حسين بغزو إيران بتشجيع من حكام المملكة العربية السعودية والكويت. وبعد تلقيه تقارير تتحدث عن انخفاض الروح المعنوية للجيش الإيراني المستنزف، تصور صدام أن الأقلّية العِرْقيّة في مقاطعة خوزستان الإيرانية سترحب بجنوده وستستقبلهم كمحررين، وأن نظام الخميني سينهار في غضون بضعة أشهر. تلك الحرب التي استمرت قرابة ثماني سنوات ستكون موضوع الفصل السادس من هذا الكتاب.

خاضت إيران هذه الحرب بموارد محدودة، بينما تلقى العراق مساعداتٍ ماليّةً ضخمةً من السعودية والكويت اللتين تعهدتا بتعويض صادرات النفط العراقي، كما تلقى "العراق" قروضاً من الدول الغربية واليابان، وكذلك ساعدته أمريكا، المحايدة اسمياً، عبر تمريرها صور أقمار صناعية عالية الدقة لمواقع القوات الإيرانية. في الواقع، كانت أمريكا تُسلِّم هذه الصور لـلرياض، مع علمها التام بأن السعودية كانت بدورها تنقلها إلى العراق. في النهاية لم تفقد إيران ولا العراق الكثير من الأراضي، ولم يحدث تغيير في أيٍّ من نظامي طهران وبغداد، بل كانت نتيجة أطول حرب في القرن العشرين هي أنها مكّنت الخميني من توطيد الثورة الإسلامية.

خلف الكواليس اشتد التنافس بين الرياض وطهران للتأثير على باكستان وأفغانستان (انظر الفصل السابع). دعمت الرياض حملة الأَسْلَمة التي قادها الجنرال الباكستاني السنّيّ ضياء الحق. وتلقت إسلام آباد مساعدات رسمية من الرياض، بالإضافة إلى تبرعات الجمعيات الخيرية الإسلامية، والمؤسسات، والمساجد، وصدقاتٌ الأمراء السعوديين.

في تموز-يوليو 1980، أصدر "ضياء الحق" مرسوماً يقضي بإلزامية تحصيل ضريبة الزكاة الخيرية، فنظَّم الشيعة في باكستان مظاهراتٍ احتجاجيّةً، وقالوا: إنهم، كشيعة، مطالَبين فقط بدفع خُمس أرباحهم فقط لـ "آية الله" الذي يختارونه هم.

لاحقاً أعفى ضياء الحق الشيعة من دفع هذه الضريبة، فعادت الحياة الطبيعية لـباكستان، لكن الحاكم العسكري ووكالة الاستخبارات الباكستانية شجعا عناصر متطرِّفة داخل جماعة "علماء الإسلام" السياسية على تشكيل فصيل سنّي مسلح تحت اسم "جيش الصحابة"، وقد حصل أولئك على دعم مالي إضافي من مديرية المخابرات العامة بـالرياض؛ فقامت في عام 1986 أعمال شغب خطيرة مناهضة للشيعة في لاهور قُتلت خلالها شخصيات شيعية بارزة. وفي المقابل شكل المسلحون الشيعة جماعة "جند محمد" لتنفيذ عمليات اغتيال انتقامية. وأظهر مقتل المستشار العام الإيراني في لاهور في كانون الأول-ديسمبر 1990، حقيقة حرب الوكالة التي كانت تخوضها كلٌّ من السعودية وإيران في باكستان.

أمّا ما تبقّى من الفصل السادس، فسيتناول التدخُّل العسكري الروسي في أفغانستان في كانون الأول-ديسمبر 1979. لقد أدان الخميني بشدة تدخل الكرملين في أفغانستان، واتّبعت حكومته إستراتيجية خاصة، فأعلنت مناهضتها للسوفييت في أفغانستان، ولكنها في الوقت نفسه نأت بنفسها عن المشاركة في الحملة الأمريكية-السعودية ضد النظام المدعوم من موسكو في كابُلْ.

في آب-أغسطس من عام 1990، هيمن غزو صدام حسين للكويت على عناوين الأخبار الدولية، ولم يخفَ على الرئيس الأميركي جورج بوش الأب، الذي كان يعمل في مجال النفط، أن صدام حسين بضمه للكويت سيسيطر على 20 % من احتياطيات النفط العالمية، وسيضعه هذا على قدم المساواة تقريباً مع المملكة العربية السعودية؛ وهذا من شأنه أن يحرم الرياض من كونها المنتج المتأرجح القادر على تعديل ارتفاع أو انخفاض أسعار النفط. فكان لا بدّ من إنهاء مثل هذا الاحتمال بدعم من المجتمع الدولي، وكان من المقرر أن تكون المملكة العربية السعودية لاعباً رئيساً في هذا المشروع.

بعد أن نجح الأمريكيون في إقناع الملك فهد بنيّة صدام حسين واستعداده لغزو المملكة، وافق الملك فهد على دخول القوات الأمريكية إلى بلاده، وبذلك أصبحت المملكة في قلب هذه الحرب الكبرى التي اختتم بها القرن العشرين.

وبحلول كانون الأول-ديسمبر 1990، قام البنتاغون، بقيادة تحالف مكوَّن من 28 دولة، 13 منها عربية أو إسلامية، بتجميع التحالف العسكري المسلَّح الأكبر والأفضل منذ الحرب العالمية الثانية لمواجهة 545.000 جندي عراقي في الكويت وجنوبيّ العراق، وانتهى القتال بين 6 كانون الثاني-يناير و18 شباط-فبراير1991(*) بهزيمة العراق وتحرير الكويت. وستشكل هذه الحرب الجزء الأكبر من الفصل الثامن من هذا الكتاب.

أدّت نفقات الحرب الضخمة التي تحملتها المملكة، وإعادة التسلح اللاحقة، والانخفاض الحاد في أسعار النفط، إلى اضطرار حكومة فهد إلى جمع القروض الأجنبية لموازنة الميزانية في عام 1994. وكانت هذه الحرب مقدمة لاستعادة العلاقات الدبلوماسية بين الرياض وطهران، التي كانت قد انقطعت منذ عام 1987. وسيكون هذا الانفراج بين العاصمتين المتنافسين، موضوع الفصل التاسع من هذا الكتاب.

دخل التقارب حيِّز التنفيذ عام 1994 أثناء رئاسة علي أكبر هاشمي رفسنجاني الذي عمل

(*) يَظهر أن التاريخ الوارد في النص الأصلي غير دقيق، والصحيح إن العمليات القتالية قد امتدت بين يومي 16 كانون الثاني-يناير حتى 28 شباط-فبراير1991 [المركز].

مبعوثوه الشخصيون بشكل وثيق مع ولي العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز. وخلال الولاية الثانية للرئيس الأمريكي بيل كلينتون (1997-2001)، استضافت إيران، بطلب من السعودية، قمة منظمة التعاون الإسلامي التي تُعقد كل ثلاث سنوات، برئاسة الرئيس المعتدل محمد خاتمي، ونشأ تقارب مؤقت بين واشنطن وطهران. ولكن في كانون الثاني-يناير 2002 تلقت إيران صفعة قوية عندما أدرج الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش اسم إيران إلى جانب كلٍّ من العراق (الذي كان لا يزال يحكمه صدام حسين) وكوريا الشمالية في جزء مما أسماه محور الشر، وكان ذلك بعد أن تعاونت إيران سرّاً مع الولايات المتحدة في سعيها لإطاحة حكومة طالبان في أفغانستان في أعقاب هجمات 11 أيلول-سبتمبر عام 2001. وسيتم تناول هذه الأحداث في الفصل التاسع من الكتاب.

سارع خاتمي لإدانة هجمات 11 أيلول-سبتمبر، ودعا المجتمع الدولي إلى التحرك للقضاء على مثل هذه الجرائم، بينما انتشرت رواية تقليدية على لسان كبار الأمراء السعوديين مفادها أن تلك الأحداث كانت جزءاً من مؤامرة صهيونية أوسع لخداع الإدارة الأمريكية ودفعها لإطلاق حملة عالمية ضد الإرهاب الإسلامي.

وخلال حملة "البنتاغون" ضد طالبان (بين تشرين الأول-أكتوبر وتشرين الثاني-نوفمبر 2001) زوّدت طهران الإدارة الأمريكية سراً بمعلومات استخباراتية عن طالبان. أمّا الرياض، فقد أبقت خِياراتِها مفتوحة، وسرعان ما تكيفت مع سقوط طالبان في أفغانستان، وفي الوقت نفسه بقيت باكستان ساحة المعركة المفضَّلة، حيث اندلعت حرب بالوكالة بين طهران والرياض متخذةً شكل أعمال عنف بين مختلف الطوائف، حيث ارتكبت الجماعات المسلحة عمليات اغتيالات انتقامية لزعماء الطوائف.

يسجِّل الفصل العاشر هذه الأحداث، ويتحدث أيضاً عن صدمة الرياض عندما علمت في آب-أغسطس من العام 2002 أن إيران كانت تخفي منشأة ضخمة لتخصيب اليورانيوم، من بين مواقع أخرى عدّةٍ، عن الوكالة الدولية للطاقة الذرية، مما أدى إلى القضاء على الانفراج بين الدولتين الرائدتين في منطقة الخليج.

وبصفته الحاكم الفعلي لـلمملكة العربية السعودية، عارض عبد الله العدوان الخارجي على أي دولة عربية، بما في ذلك العراق في عهد صدام حسين. ولكن موقفه هذا لم يُحدث فرقاً كبيراً بالنسبة للرئيس جورج بوش الابن الذي قرّر غزو العراق في آذار-مارس 2003. وأدت إطاحة بوش الابن صدام حسين إلى سلسلة من الأحداث التي أفادت إيران، عن غير قصد، وأضرت بمكانة الرياض في المنطقة.

وفي الفصل الحادي عشر، سنرى كيف عززت المملكة العربية السعودية علاقاتها مع باكستان، القوة النووية المعلنة، لمواجهة احتمال نجاح إيران ببناء قنبلة ذرية. وقد امتد النفوذ السعودي ليصل إلى السياسة الداخلية لباكستان بعد انقلاب قائد الجيش الجنرال برويز مشرّف ضد الحكومة المنتخبة ديمقراطياً في تشرين الأول-أكتوبر 1999.

ومع انتخاب الرجل المحافظ محمود أحمدي نجاد رئيساً لإيران في آب-أغسطس 2005، تحوّلت قضية برنامج إيران النووي لأزمة دولية أُحيلت لمجلس الأمن، فشعرت الرياض بشيء من الراحة رغم علم المملكة بأن أية انتخابات حرة ونزيهة ستوفّرها الولايات المتحد، كسلطة احتلال في العراق آنذاك، ستؤدي حتماً إلى فوز الأغلبية الشيعية التي ما انفكّ حكام العراق السُنّة يقمعونها، وهذا ما حدث بالفعل في أواخر عام 2005. عقب الفوز المتوقع للعراقيين الشيعة في تلك الانتخابات، سارع العديد من المتشددين السُنّة الذين خسروا السلطة للانضواء تحت لواء تنظيم القاعدة في بلاد ما بين النهرين ليرتكبوا العديد من أعمال العنف، وكان من بينها تفجير ضريح شيعي مقدس في "سامراء" في شباط-فبراير 2006 [*]، وهو ما أدّى إلى اندلاع حرب منخفضة الحدّة بين الشيعة والسُّنّة. وقد عملت واشنطن وبغداد معاً لتهدئة العنف الطائفي، ونجحتا معاً بكسب ولاءات زعماء العشائر السنية عبر دفع الأموال. وفي برقية سرية إلى وزارة الخارجية في أيلول-سبتمبر 2009، اعترف السفير الأمريكي في بغداد بأن النفوذ الإيراني في العراق لا يزال ينتشر بقوة. وهذا يعني أن ميزان القوى في الحرب الباردة السعودية الإيرانية تحوَّل بشكل حاسم لصالح طهران، وهذا الواقع لم يكن مقبولاً لدى الرياض، ولكنها لم تستطع فعل الكثير لتغييره.

وفي المقابل، أدت المملكة العربية السعودية دوراً مهِمّاً في عهد الملك عبد الله[**]، كما شاركت في دحر موجة المظاهرات السلمية التي طالبت بالديمقراطية وحقوق الإنسان، والتي اندلعت في أوائل عام 2011 في كلٍّ من تونس ومصر والبحرين واليمن. وسيتناول الفصل الثاني عشر ثورات "الربيع العربي" والثورات المضادة اللاحقة، والمواقف المتناقضة التي اتخذتها الرياض وطهران. انتُخِبَ محمد مرسي، أحد زعماء جماعة الإخوان المسلمين، رئيساً لمصر في أول انتخابات حرة ونزيهة تجري في البلاد في حزيران-يونيو 2012، فكان وقع نبأ انتخابه سيئاً جداً على الرياض. وسرعان ما رحب السعوديون بالانقلاب العسكري الذي

(*) عُرف هذا الحدث لاحقاً بتفجير ضريح الإمامين العسكريين (ع) في مدينة سامراء عام 2006[المترجم].

(**) حكم الملك عبد الله بن عبد العزيز المملكة لمدة عشر سنين، وامتدت مدة ولايته من عام 2005 حتى العام 2015 [المترجم].

جرى ضد مرسي في 3 تموز-يوليو 2013، وقد ساعد الملك عبد الله شخصياً على جمع حزمة تبرعات بقيمة 12 مليار دولار كمساعدة للمجلس العسكري في القاهرة.

وصفت إيران التظاهرات الشعبية في مصر والبحرين بأنها "صحوة إسلامية"، ولكنها أحجمت عن هذا الوصف عندما اندلعت احتجاجات سلمية في سورية ضد نظام الرئيس بشار الأسد، وهو من أتباع الطائفة العلوية التي تتفرع عن الإسلام الشيعي.

بعد العراق، انتقلت جبهة الحرب الباردة الدائرة بين إيران والسعودية إلى سورية، حيث فشلت أمريكا في آب-أغسطس 2013 بمعاقبة نظام الأسد الذي استخدم الأسلحة الكيميائية في سورية متجاوزاً "الخط الأحمر" الذي رسمه الرئيس الأمريكي باراك أوباما آنذاك، مما خيب أمل الملك عبد الله الذي لم يكن يعول كثيراً على نجاح استراتيجية تشديد العقوبات الأمريكية والأوروبية في دفع إيران نحو التفاوض للوصول إلى تسوية حول ملفّها النووي، بينما ظل أوباما مصمماً على تقليص برنامج إيراني عبر وسائل غير عسكرية.

ومع ظهور داعش، "تنظيم الدولة الإسلامية في سورية والعراق"، واستيلائه في حزيران-يونيو 2014 على مدينة الموصل الكبرى شمالي العراق، جعل الرئيس أوباما القضاء على تنظيم داعش على رأس أولوياته، وباتت إطاحة الأسد قضيةً ذات أهمية ثانوية.

كان استيلاءُ حلفاء إيران الحوثيين على العاصمة اليمنية صنعاء، وطَردُهِم الرئيس السنّيّ عبد ربه منصور هادي من البلاد في أيلول-سبتمبر 2014، الحدث الذي دق ناقوس الخطر في المملكة العربية السعودية؛ التي لم تكن لتسمح بوصول قوة شيعية موالية لإيران بالوصول إلى السلطة في منطقة شبه الجزيرة العربية. وفي آذار-مارس 2015، قاد وليُّ وليِّ العهد آنذاك، محمد بن سلمان، تحالفاً من الدول العربية الصديقة لشن غارات جوية خاطفة على اليمن، مع توفير الولايات المتحدة معلوماتٍ استخباراتيةً.

تعهد الحلف بطرد الحوثيين من صنعاء خلال ستة أشهر، وفي كانون الثاني-يناير 2016، أعدمت الحكومة السعودية آيةَ الله الشيخ نمر النمر الذي يحظى باحترام كبير بين الشيعة في شرقي المملكة. فهاجم حشد غاضب السفارة السعودية في طهران، وحطّموا الأثاث وأجهزة الكمبيوتر، وأحرقوا جزءاً من المبنى، وتم قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

ويتتبع الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب الجبهات الثلاث للحرب الباردة بين الخصمين في كلٍّ من العراق وسورية واليمن؛ فقد أرسلت "إيران" متطوِّعين مدرَّبين من الشيعة لمحاربة داعش في العراق، أمّا الرياض، فكل ما فعلته هو أنها أعارت البنتاغون أربع طائرات مقاتلة لتساهم في العمليات القتالية ضد داعش.

وعندما دعم بن سلمان قواتِ المعارضة السورية بالمال والسلاح، تدخل الرئيس الروسي فلاديمير بوتين عسكرياً فأرسل وَحداتٍ من القوات الجوية الروسية إلى سورية، وقام بتعزيز مخزون الأسلحة المستنفد لدى الحكومة السورية، كما أرسلت إيران وَحداتٍ أخرى من المتطوعين الشيعة للقتال إلى جانب الأسد. وفي كانون الأول-ديسمبر 2016 استعادت الحكومة مناطق شرقيّ حلب، التي كانت معقلاً لقوات المعارضة على مدار ثلاث سنوات، مما شكل نقطة تحول في الحرب حققت إيران من خلالها تفوّقاً على السعودية في سورية.

ظلت السعودية تراقب عن كثب مفاوضات إيران مع دول مجموعة 5 + 1 (*)، وعلى عكس بقية دول العالم، قابلت المملكة نبأ الاتفاق الذي جرى التوصل إليه في 14 تموز-يوليو 2015 تحت عنوان: "خطة العمل الشاملة المشتركة"، بالرفض القاطع، ولم يساندْها في هذا الرفض سوى [كيان] إسرائيل، في حين عمَّت الاحتفالات العفوية أرجاء العاصمة الإيرانية طهران.

طَمأن أوباما المملكة العربية السعودية ودول الخليج الأخرى بأن إدارته تسعى فقط لعقد صفقة مع طهران حول ملفّها النووي، وبأنها، أي الإدارة الأمريكية، لا نيةَ لديها من وراء الاتفاق لتحقيق تقارب أوسع مع طهران.

وصبَّت القوات الجوية السعودية جام غضبها على المدنيين بعد فشلها في هزيمة الحوثيين في اليمن، فراحت تضرب أهدافاً مدنية، وشمل ذلك مرافق إنتاج الغذاء وتوزيعه وتخزينه، فأدى هذا إلى تشويه صورة المملكة العربية السعودية في الغرب والعالم الإسلامي الكبير.

ويصف الفصل الرابع عشر كيف أشعل الرئيس الأمريكي المنتخب حديثاً، دونالد ترامب، حرباً باردة بين دول الخليج المتنافسة عندما ساوى بين التطرف الشيعي المدعوم من طهران والجهادية السنية، متجاهلاً الصراع العقائديَّ بين السنّة والشيعة؛ ففي خطابه، أمام القمة العربية الإسلامية في الرياض، جمع ترامب بين إيران والجهاديين السُنّة، ووضعهم معاً في بوتقة واحدة واصفاً إيّاهم بقوى الإرهاب في المنطقة. وبعد يوم من إعادة انتخاب حسن روحاني رئيساً لإيران، أشار ترامب إلى أن الإيرانيين هم الضحايا الأطول معاناة من سياسات النظام في إيران.

(*) الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة: (الولايات المتحدة وروسيا والصين وبريطانيا وفرنسا) إلى جانب ألمانيا [المترجم].

بعد خطاب ترامب قاد بن سلمان حملة مقاطعة دبلوماسية وتجارية ضد قطر التي حافظت على علاقات طبيعية مع طهران، بيدَ أنّ هذه المقاطعة جاءت بنتائجَ عكسيةٍ، إذ إنها ألقت قطر في أحضان إيران، وعززت تعاونها العسكري مع تركيا الدولة السنية الكبرى.

في 7 حزيران-يونيو 2017 أدّى هجوم مسلحين ومفجرين انتحاريين ينتمون إلى تنظيم داعش على البرلمان الإيراني وضريح الخميني إلى تحطيم نظرية ترامب حول أن الراديكالية الشيعية المدعومة من إيران والجهادية السنية هما وجهان لعملة واحدة. ومن الجدير بالذكر أن تنظيم داعش سبق له أن انتقد إيران لأنها لا تزال تؤوي 9000 يهودي على أرضها، وتمنحهم مقعداً لتمثيلهم في البرلمان.

وبعد إعلان حزب الله اللبناني كمنظمةٌ إرهابيّةٌ في آذار-مارس 2016، ضغط بن سلمان على سعد الحريري، رئيس الوزراء السنّيّ، لإقالة وزيري حزب الله في حكومة الوحدة الوطنية. وبدلاً من ذلك، دعا سعد الحريري إلى الحوار مع حزب الله، فاستدعاه بن سلمان إلى الرياض في أوائل تشرين الثاني-نوفمبر 2017، ليعلن الحريري استقالته المفاجئة عبر الفيديو من الرياض احتجاجاً على تدخل إيران غير المبرر في السياسة اللبنانية، مضيفاً بأنه يخشى على نفسه من الاغتيال.

ومن الأسباب التي أدت إلى فشل ولي العهد المتهور والمتسرع وهزيمته الدبلوماسية أنه لم يُطلِع فرنسا والولايات المتحدة على خطته فيما يتعلق برئيس حكومة لبنان، ولعله لم يلاحظ أن القوى الغربية كانت حريصة على عدم زعزعة استقرار لبنان، الدولة التي تستقبل أكثر من مليون لاجئ سوري، والتي يبلغ عدد سكانها 4.3 مليون نسمة فقط.

وفي 6 كانون الأول-ديسمبر 2017، فجّر ترامب مفاجأة مثيرة باعترافه بـالقدس عاصمةً لـ[كيان] إسرائيل، منتهكاً القانون الدولي والاعتراف العالمي بتل أبيب عاصمةً لدولة [الكيان]؛ وبذلك أضفى ترامب الشرعية على ضم الإسرائيليين للقدس الشرقية واستعمارها منذ عام 1967 إبّان حرب النكسة العربية الإسرائيلية.

قوبل اعتراف ترامب بانتقادات واسعة من قبل الأمين العام للأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي، وفي 13 كانون الأول-ديسمبر، دعت تركيا لعقد قمة طارئة لمنظمة التعاون الإسلامي في إسطنبول، من حيث هي الرئيس الدوري للمنظمة، وحضر هذه القمة أكثر من خمسين رئيس دولة أو حكومة، كان من بينهم الأمير القطري تميم آل ثاني والرئيس اللبناني المسيحي ميشيل عون، في ظل غياب لافت للملك السعودي سلمان خادم الحرمين الشريفين، وولي عهده محمد بن سلمان، وكان حَرِيّاً بهما المشاركة لحماية المسجد الأقصى، ثالث أقدس

موقع في إسلام. وبدلاً من ذلك، أوفدوا وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد لحضور القمة. وبذلك خلعت المملكة العربية السعودية عملياً عباءتها كمدافع عن المصالح الإسلامية.

أعلن البيان الختامي للقمة القدس الشرقية عاصمة لدولة فلسطين، ودعا الدول كافةً إلى الاعتراف بدولة فلسطين والقدس الشرقية عاصمةً محتلَّة لها، ووصف خطوة ترامب بأنها لاغية وباطلة من الناحية القانونية.

وسيقدم الفصل الأخير من الكتاب نظرة عامة إضافة إلى مجموعة من الاستنتاجات.

تمهيد

بتاريخ 21 حزيران-يونيو 2017، قبل أربعة أيام من نهاية شهر رمضان المبارك[1]، وبعد جلسة لمجلس الوزراء استمرت يومين في قصر الصفا في مكة المكرمة، أصدر الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود، البالغ من العمر 81 عاماً، مرسوماً ملكياً أُعتبر من أكثر المراسيم أهميّةً في تاريخ المملكة المعاصر، عزل من خلاله ابن أخيه محمد بن نايف البالغ من العمر 57 عاماً عن ولاية العهد، ورفع نجله محمد بن سلمان البالغ من العمر 31 عاماً من وليٍّ وليٍّ العهد إلى وليٍّ العهد. ولإتاحة الوقت الكافي لاحتفال رعاياه بالخبر المذهل، قام سلمان بتمديد عطلة عيد الفطر من ثلاثة أيام في نهاية شهر رمضان إلى أسبوع كامل.[2]

وإلى جانب مرسومه بترقية ابنه محمد، أصدر العاهل السعودي أمراً يدعو كبار أفراد العائلة المالكة إلى مبايعة ولي العهد الجديد. امتثل محمد بن نايف على الفور وبايع محمد في قصر الصفا، وفي المقابل قَبَّل محمد يد عمه باحترام أمام الكاميرات الرسمية، وقد بثت القنوات الإخبارية السعودية طقوس التقبيل الملكية مراراً، وشددت على أن جميع أعضاء هيئة البيعة البالغ عددهم 34 عضواً من كبار الأمراء قد وافقوا على قرار الملك باستثناء ثلاثة[3]

وفي واشنطن، سارع الرئيس دونالد ترامب إلى الاتصال بـابن سلمان لتهنئته على "ترقيته الأخيرة"[4] دون أن يتصل بوالده أولاً، بينما قدّم حكام دول الخليج المجاورة تهنئتهم للملك سلمان أولاً مراعاةً منهم للبروتوكول الدبلوماسي، حتى أمير قطر تميم بن حمد آل ثاني، لم يتوانَ عن التهنئة، رغم القطيعة الدبلوماسية والاقتصادية التي فرضتها السعودية، ومعها أربع دول عربية، على مملكته في الخامس من حزيران- يونيو، فأرسل آل ثاني برقية تهنئة إلى الملك سلمان "بمناسبة اختيار صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان آل سعود ولياً للعهد"، معرباً عن "آفاق العلاقات الأخوية بين البلدين الشقيقين".[5]

على الجانب الآخر من مياه الخليج وصفت قناة برس تي في، التي تديرها الدولة في إيران، قرار الملك سلمان المفاجئ بأنه انقلاب ناعم، ووصفت وكالة أنباء فارس الإيرانية شبه الرسمية، التابعة لقوات النخبة في الحرس الثوري الإسلامي، الحدث بأنه زلزال سياسي،

وصرّح سيد حسين نقوي حسيني، رئيس اللجنة البرلمانية الإيرانية المعنية بالأمن القومي والسياسة الخارجية، حول ذلك الموضوع بقوله: «بعد تعيين بن سلمان وليّاً للعهد، نحث المسؤولين السعوديين على التصرف بحكمة وحذر وَفقاً للأعراف الدولية، وعليهم أن يعرفوا حدودهم»[6]، وكان ذلك بعد مقابلة أجراها محمد بن سلمان في 1 أيار-مايو مع قناة العربية -وهي قناة فضائية مقرها دبي ومملوكة للسعودية- صاغ من خلالها التوترات بين الرياض وطهران بعبارات طائفية، وقال: إن هدف إيران هو «السيطرة على العالم الاسلامي»، وتعهَّد بنقل "المعركة" لداخل إيران.[7]

استمرت المعركة من أجل التفوق الإقليمي بين البلدين في عهد بن سلمان؛ فلجأت الرياض وطهران إلى دعم المتحاربين في كل من سورية واليمن، مع دعم الخصوم السياسيين في كلٍّ من البحرين والعراق ولبنان[8]. أما خارج الشرق الأوسط العربي، فقد عمل البلدان على دعم فصائل متناحرة في أفغانستان وباكستان.

سلمان يقلب التقليد الأسَري

لما كان الابن المفضل لدى العاهل السعودي، حصل محمد بن سلمان على أعلى منصب في المملكة، وكان ذلك على مرحلتين تزامنَتا مع خطوات لاحقة اتخذها الملك سلمان لتنفيذ مراده.

بُعَيد اعتلاء الملك سلمان للعرش، بثَّت وسائل إعلام المملكة صوراً تجمع الملك سلمان مع ولي عهده الأمير مقرن إلى جانب الأمير الذكي والطموح محمد بن نايف. وقد فاجأ الملك سلمان الجميع بإبعاد مقرن عن العرش وتسميته وليّاً لوليِّ العهد، في 23 كانون الثاني-يناير 2015، زاعماً أنه حصل على موافقة أغلبية أعضاء هيئة البيعة، وكانت تلك المرحلة الأولى من انقلاب قصر سلمان.

وُلِد مقرن لأم يمنية، وهي الزوجة الثامنة عشرة للملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (المعروف أيضاً باسم ابن سعود)، مؤسس المملكة السعودية، لذا كان يُنظر إليه على أنه أضعف نسباً من نسل باقي زوجات ابن سعود السعوديات. ومع ذلك عيّن الملك عبد الله الأمير مقرن نائباً لولي العهد في آذار-مارس 2014، ولكن ما إن أصبح سلمان ملكاً للبلاد حتى قام بترقية محمد بن نايف لمنصب ولي العهد بدلاً من مقرن، كما أنه اختار ابنه الأصغر محمد بن سلمان لشَغل منصب وليِّ وليِّ العهد (نائب وليِّ العهد)، قالِباً بذلك مبدأ الأقدمية الراسخ في تقاليد العائلة المالكة، ومتجاهلاً أهليّة أبنائه الأربعة الأكبر سناً الباقين. ولما كان

محمد هو الابن الأكبر للملك سلمان من زوجته الثالثة والأخيرة فهدة بنت فلاح بن سلطان آل حِثلين، فقد كان الولدَ المفضل لديهم منذ الطفولة.

ومن حيث الأسرة الحاكمة حقق سلمان بتعييناته الجديدة ثلاثة أهداف رئيسة: فقد أعاد السلطة الملكية إلى العشيرة السديرية[9] التي تعطلت قبضتها على السلطة بتولي الملك عبد الله العرشَ في عام 2005، والذي كان من غير السديريين، كما أنه مهّد الطريق لنقل السلطة المطلقة إلى الجيل الأصغر سناً بعد أكثر من ستة عقود من وفاة عبد الله مؤسس السلالة في عام 1953، ومع عدم إنجاب الأمير محمد بن نايف لأولاد ذكور، فقد ضمن سلمان مستقبل ابنه المفضل محمد كملك للبلاد في نهاية المطاف.

وقد نفّذ سلمان الجزء الثاني من انقلاب قصره بالتخلي عن بن نايف وحرمانه حتى من وزارة الداخلية التي أدارها بكفاءة كبيرة لسنوات عديدة. وليس هذا فحسب؛ فقد وضعه لاحقاً تحت الإقامة الجبرية وجمّد حساباته المصرفية.

ويبدو أن هناك جزءاً ثالثاً للخطة الكبرى أيضاً، وهو تنازل الملك سلمان المريض عن العرش لصالح ابنه محمد في المستقبل القريب. كما حدث مع الأمير القطري حمد بن خليفة آل ثاني الذي تنحّى عن منصبه في حزيران-يونيو 2013 تاركاً العرش لولي عهده تميم البالغ من العمر 33 عاماً.

الملاحظات

1 في ليلة 26-27 رمضان نزل الوحي الإلهي لأول مرة على النبي محمد (ص).

2 Staff writer, Al Arabiya English, 21 June 2017, http://english.alarabiya.net/en/News/ gulf/201721/06//Saudi-Arabia-extends-Eid-Al-Fitr-religious-holiday-by-a-week-.html

3 Ben Hubbard, New York Times, 21 June 2017, «Saudi King Rewrites Succession, Replacing Heir with Son, 31, » https://www.nytimes.com/201721/06//world/middleeast/saudi-arabia-crown-prince-mohammed-bin-salman. html

4 Martin Chulov and Julian Borger, Guardian, 21 June 2017, «Saudi king ousts nephew to name son as first in line to throne, » https://www.theguardian.com/world/2017/ jun/21/saudi-king-upends-tradition-by-naming-son-as-first-in-line-to-throne

5 AFP, 22 June 2017, «Qatar's Emir congratulates Saudi crown prince Muhammad bin Salman,» http://www. financialexpress. com/world-news/qatars-emir-congratulates-saudi- crown-prince-Muhammad-bin-salman/730098/

6 Martin Chulov and Julian Borger, Guardian, 21 June 2017, ««Saudi king ousts nephew to name son as first in line to throne,» https://www.theguardian.com/world/2017/jun/21/saudi-king-upends-tradition-by-naming-son-as-first-in-line-to-throne

7 Ben Hubbard, New York Times, 2 May 2017, «Dialogue With Iran Is Impossible, Saudi Arabia's Defense Minister Says, » https://www. nytimes.com/201702/05//world/mid- dleeast/saudi-arabia-iran-defense-minister. Html

8 Al Jazeera, 21 June 2017, «Muhammad bin Salman named Saudi Arabia's crown prince,» http://www.aljazeera.com/news/201706//saudi-arabia-appoints-king-salman-son-crown-prince-170621033707437. html

9 يشير مصطلح عشيرة السديري إلى سبعة أبناء وُلدوا للملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود من زوجته حصة بنت أحمد السديري، وكذلك ذريتهم.

الفصل الأول

مقدمة في التاريخ المتناقض بين إيران والسعودية من خلال متاحفهما الوطنية

يتضح التاريخ المتناقض الذي مرّت به كل من إيران والمملكة العربية السعودية بزيارة المتاحف الوطنية لكل منهما.

يقع المتحف الوطني الإيراني في شمال طهران ويتكون من بناءين مستقلّين: مُتحف إيران القديمة، (افتُتِحَ في عام 1937)، ومُتحف العصر الإسلامي، (افتُتح عام 1972). ويتكون متحف إيران القديمة، الذي تبلغ مساحته 11 ألف متر مربع، من ثلاث قاعات تحتوي على قِطَع أثرية وحفريات تعود لآلاف السنين، وتغطي عصوراً عِدةً، بدءاً من العصر الحجري القديم، وانتهاءً بالإمبراطورية الساسانية. وقد تغيّر التصميم الداخلي لمتحف العصر الإسلامي مراراً، وأُعيد تصميمه بعد ثورة 1979.

تمتلئ طوابق المتحف الثلاث بفخّاريات رائعة تعود لعصور ما قبل التاريخ، بالإضافة لبعض الأعمال الحديثة. وبصفةٍ عامةٍ، يحوي المتحف قِطعاً أثرية مختلفة تتنوع بين الفخّاريات، والمنسوجات، والمخطوطات، والأعمال الفنية، والأسطرلاب، والبَلاط الطيني، وفن الخط، وجميعها أعمال تعود لما بعد الحقبة الكلاسيكية في "إيران".

وليس من المستغرب أن يتمتع الإيرانيون بإحساس راسخ بالهُوية الوطنية نظراً لتراثهم التاريخي الطويل والمتميز، وقد تجلى حسّ الإيرانيين العالي بالهُوية عندما تطوّع عشرات آلاف من الشباب الإيرانيين ذوي العقلية العلمانية للانضمام إلى جيش جمهورية إيران الإسلامية المنشأة حديثاً لصد غزو الرئيس العراقي صدام حسين لبلادهم في عام 1980.

وعلى الطرَف الآخر يقع المتحف الوطني السعودي شرقيَّ ساحة المربع الرئيسة في الرياض، وتبلغ مساحته سبعة فدانات، ويتكون من ثماني صالات عَرْضٍ، وهو يمثِّل جزءاً من المركز التراثي الواسع الذي افتتحه الملك فهد بن عبد العزيز، في 23 كانون الثاني-يناير عام

1999، بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس الدولة السعودية الثالثة الحالية على يد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، في 15 كانون الثاني-يناير 1902.[1]

لا يحوي الجناح الشمالي للمُتحف الوطني بـالرياض سوى على ثلاث صالات عرضٍ صغيرة تعود لعصر ما قبل الإسلام، قبل ميلاد النبي محمد عام 570م. وثَمة جسرٌ يربط الجناحَ الشماليّ بالجناح الجنوبيّ الأكبر بكثير، والذي يعرض التاريخ الإسلامي لشبه الجزيرة العربية. فبعد عرض قصة النبي محمد، تأتي قصة صعود الخلافة الإسلامية وسقوطها، انتهاءً بالدولة العثمانية، ووصولاً إلى الدولة السعودية الأولى عام 1744، والتي استمرت حتى عام 1818. أما الدولة السعودية الثانية (1824-1891)، فهي موضوع المعرض التالي. ثم يأتي انهيار الدولة السعودية الثانية في نهاية المعرض السادس، ليلِيَه ما يسمى بفترة "التوحيد"، في إشارة إلى معارك توحيد نجد وتوابعها ومنطقة الحجاز الغربية في 23 أيلول-سبتمبر 1932.

ونظراً لهذا التاريخ العريق للبلدين، فمن المتوقع أن تتمتع المملكة العربية السعودية بعلاقات وُدّيةٍ مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية، التي تأسست في نيسان-إبريل 1979. وتختلف الجمهورية الإسلامية الإيرانية جذرياً عن نموذج الملكية المطلقة في السعودية، أما العلاقات بين المملكة السعودية وإيران الملكية، فقد كان لها تاريخ متقلب.

ادّعاءات التفرّد والاستثناء

يكمن القاسم المشترك بين السعودية وإيران في ادّعاء كلا البلدين التفرّدَ والاستثناء، إذ تعود جذور الهُوية الإيرانية، كأمّة ذات تاريخ مدوّن، إلى ستة آلاف عام، وتعود أصول اللغة الفارسية الحديثة إلى الفارسية القديمة المكتوبة بالأحرف المسمارية المستخدمة حتى القرن الثالث قبل الميلاد، والفارسية الوسطى المكتوبة بالخط الآرامي الذي كان رائجاً بين القرنين الثالث والتاسع قبل الميلاد. وبعد ذلك أصبحت اللغةُ الفارسية الحديثة، التي تستخدم الأحرف العربية، هي اللغة الأدبية والإدارية في الإمبراطوريات التي حكمها المسلمون، من شبه القارة الهندية إلى تركيا العثمانية. ويمكن للراغب اليوم رؤية تأثير إيران في فنّ العِمارة من آسيا الوسطى وصولاً إلى جنوبيّ آسيا.

في 15 تشرين الأول-أكتوبر 1971 احتفل محمد رضا شاه بهلوي باستمرار الملكية في إيران على مدار 2500 عام متواصلة في برسيبوليس، التي كانت ذات يوم عاصمة الإمبراطورية الأخمينية القديمة، التي تأسّست عام 530 قبل الميلاد؛ فباستثناء فترة وجيزة من الاحتلالين البريطاني والروسي خلال الحرب العالمية الثانية، تتمتع إيران بكونها إحدى الدول الإسلامية الأربع، أفغانستان والسعودية وتركيا، التي لم تستعمرها القوى الأوروبية.

وفي تاريخ إيران الحديث أطاح الإيرانيون بنظامَ الملك العلماني، الشاه محمد رضا بهلوي، بثورة سلمية في عام 1979 يزعم قادتها أنهم تمكنوا من إنشاء حكومة تمثيلية منتخبة شعبياً ومنسجمة مع المبادئ الإسلامية.

تجري جمهورية إيران الإسلامية انتخاباتٍ برلمانيةً ورئاسيةً بصفةٍ منتظمةٍ، ومع ذلك صَنّفت منظمة مراسلون بلا حدود إيرانَ في المرتبة 165 من بين 180 دولة فيما يتعلق بحرية الصِّحافة، بينما احتلت روسيا المرتبة 148 والهند في المرتبة 136.[2] وإيران هي واحدة من الأعضاء الأربعة الوحيدين ذوي الأغلبية الشيعية في منظمة التعاون الإسلامي المكونة من 57 دولة.[3]

أمّا المملكة العربية السعودية، فترتكز ادّعاءات التفرد لديها على ركائز مختلفة؛ فبخلاف أيِّ دولة أخرى على وجه الأرض، يرتبط اسمها بلقب عائلة آل سعود، وهي تعوم فوق بحر من النفط، إذ يأتي احتياطي النفط السعودي في المرتبة الثانية بعد فنزويلا. وتعد شركة النفط العربية السعودية الأمريكية أرامكو، المملوكة للدولة، شركة النفط الأكبر والأعلى إنتاجاً أيضاً حول العالم، ومع ذلك فهي الشركة الوحيدة التي لا تنشر حساباتها المالية. وعلى الصعيد العالمي، فـ "السعودية" هي المصدّر الأول للنفط، حيث تساهم بواحد من كل أربعة براميل نفط يجري تداولها في السوق العالمية، ومن ثَمّ فهي العضو الأكثر أهمية في منظمة البلدان المصدِّرة للنفط "أوبك". وهناك ميزة أخرى تتمتع بها السعودية، وهي الأهمية الحيوية للبترول في اقتصادها؛ إذ تُعَدّ كمياته كبيرةً بما يكفي لإدراجها في مجموعة العشرين ضمن أغنى عشرين دولة في العالم.

ويُستخدم النفط وَقوداً لتوليد الكهرباء، كما تدعم الدولة أسعار الطاقة اللازمة لمصانع الأسمنت، ومصانع صهر الألمنيوم، ومحطات تحلية المياه. ويجري تبريد مراكز التسوق المترامية الأطراف في المملكة، إذ ترتفع درجات الحرارة في الخارج إلى 100 درجة مئوية، ويتزلّج الأطفال في مدينة الثلج وسط مدينة الرياض، وتتكدّس سيارات الدفع الرباعي في شوارع المملكة، فسعر البنزين أرخص من المياه المعبأة.

وفي عام 2015، سجلت المملكة العربية السعودية رقماً قياسياً جديداً بعد أن أنفقت 13.7 % من ناتجها المحلي الإجمالي على الدفاع؛ وبذلك كانت ميزانيتها الدفاعية ثالث أعلى ميزانية بعد الولايات المتحدة والصين.[4]

ومن الناحية السياسية، فوَفقاً لوحدة استخبارات الإكونوميست تحتل السعودية المرتبة 43 من بين الـ 51 نظاماً الأكثر استبداداً في العالم[5]؛ فهي لم تَحظر الأحزاب السياسية والنقابات

العمالية فحسب، بل حتى نوادي التصوير الفوتوغرافي.[6] وقد صنفت منظمة مراسلون بلا حدود المملكة العربية السعودية في المرتبة 168 من بين 180 دولة فيما يتعلق بحرية الصِّحافة[7]؛ فلا عجب إذاً أنها مثال راسخ للرجعية، إذ تعارض المملكة بإصرار الديمقراطية والعلمانية والمساواة بين الجنسين.

إن السعودية هي الدولة الأكثر ثيوقراطيةً في العالم، إذ يعاقب القانون على إظهار أي دين ما خلا الإسلام، أو حتى ارتداء مسيحيٍّ للصليب، أو هندوسيٍّ لعلامة "أوم".[*] ويستند السعوديون في هذا التقييد إلى كلام النبي محمد بأن جميع أراضي المملكة تُعَدّ مسجداً، ووصيتِه الأخيرة بشأن عدم وجود ديانتين في شبه الجزيرة العربية.

وتطبِّق المملكة العربية السعودية فصلاً صارماً بين الجنسين في الأماكن العامة، ويجب أن يكون لكل أنثى بالغة قريبٌ ذكَر بصفته "وليَّ أمرها" عليها الحصول على إذنه لسفرها أو دراستها أو عملها. ويحق للولي، قانوناً، اتخاذ عدد من القرارات الحاسمة نيابة عن المرأة[8]، إلا أنها أُعفِيت من إذن وليّها عندما ترغب في ارتياد منشأة صحية عامة أو مؤسسة تعليمية. ومن المقرر أن يُنفَّيذ المرسوم الملكي برفع الحظر على قيادة المرأة الصادر في أيلول-سبتمبر 2017.

وعلى النقيض تماماً، يمكن رؤية النساء المحجّبات في إيران الإسلامية وهن يعملن في البنوك، والمطارات، والمصانع، والمستشفيات، والمكاتب العامة والخاصة، ومحلات السوبر ماركت، وكذلك وهن يقُدْن السيارات الخاصة، ويذهبن للتزلج. ويمكنهن العمل في مؤسسات إنفاذ القانون أيضاً، وكوَزيراتٍ في الحكومة، ويمكنهن ركوب المواصلات العامة على طول الطرق الرئيسية في "طهران"، والجلوس فيها جنباً إلى جنب مع الذكور.

ما تزال السعودية واحدة من بين 58 دولة تطبق عقوبة الإعدام، إلا أنها تبرزها بقطع رؤوس المجرمين المُدانين علناً، إحياءً لممارسة يعود تاريخها لعهد النبي محمد في القرن السابع.

والسعودية هي موطن لأقدس بقعتين في الإسلام وهما: مكة والمدينة. وأثناء الصلاة يستقبل المسلمون في أنحاء العالم الكعبة الموجودة في حرم مكة. وعلَمها هو العلم الوحيد الذي يحمل نصّاً دينياً، فقد كُتب عليه باللغة العربية «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وبمبادرتها أُنشئت، في عام 1969، أول منظمة إسلامية رسمية للتعاون الدولي بين الدول

(*) يشير الرمز إلى لفظة "أوم" وهي الصوت المقدس عند الهندوس، لأنه مفتاح للتنوير والكمال الروحي حسب تصورهم، وهو الصوت الذي يربط الهندوس بالكون والإله. ويُقال إنه صوت الخلق الذي يكمن وراء الوجود كله [المترجم].

ذات الأغلبية المسلمة، وهي التي تُسمى: "منظمة المؤتمر الإسلامي" (أعيدت تسميتها لاحقاً لتصبح منظمة التعاون الإسلامي).

الصحراء العربية، مهد ولادة الوهَّابية

ساد اعتقاد حتى القرن التاسع عشر بأن شبه الجزيرة العربية تتألف من منطقتين: اليمن والصحراء العربية. وكان جنوبي غربي الجزيرة العربية ينعم بالأمطار الموسمية، لذا كان منطقة زراعية تؤوي مجتمعاتٍ مستقرةً، مما أكسبها لقب اليمن السعيد. وقد ارتبط اسم اليمن بملكة سبأ الأسطورية، المذكورة في العهد القديم، أو بلقيس في التقليد العربي، التي وصلت إلى بَلاط سليمان في القدس على رأس قافلة طويلة مثيرة للإعجاب.

وفي تناقض صارخ، كانت الصحراء العربية، الجزءُ الداخلي من شبه الجزيرة، تؤوي قبائل بدوية اشتهرت بغاراتها المتكررة على بلاد ما بين النهرين في الشمال واليمن في الجنوب. ولم يتنبّه العالم لوجود ذلك المكان إلا في عام 1888، عندما نشر تشارلز دَاوْتي(*) كتابه الشهير "رحلات في صحراء العرب" الذي وثّق من خلاله رحلاته إلى تلك المنطقة. ومن الجدير بالذكر أن الرحالة ريتشارد فرانسيس بيرتون (1821-1890) كان قد سبق دَاوْتي إلى ذلك المكان، وحقق كتابه "رواية شخصية عن الحج إلى المدينة ومكة"، الذي نُشر لأول مرة في 1855-1856 مبيعاتٍ كبيرةً حينها.

يُظهر وصف بيرتون لرحلة الحج أنه حصل على رحلة غير عادية، وكتب يقول: «طُفت سبعة أشواط حول الكعبة، في طَقْس يسمى الطَّواف، وبعد ذلك تمكّنت من شق طريقي عبر الحشد الهائل لتقبيل الحجر الأسود. وبينما كنت أقبله، وأفرك يدي وجبهتي به، راقبته عن كثب، وخرجت مقتنعاً بأنه نيزك حجري. ومن الغريب أن الجميع تقريباً يتفقون على أنه حجر بركاني... كتل من البازلت البركاني الداكن، إلا أن منها واحدةً ضاربةً إلى الحمرة مثبتة على خلفية من الحجر المخملي الداكن بلون الفحم، في محيطها بلوراتٌ صغيرةٌ مدبَّبةٌ على شكل معينات قرميدية من الفلسبار (صخور نارية كثيفة)، وتوصف أيضاً بأنها "حمم بركانية تحتوي على عدة جزيئات صغيرة غريبة من مادة بيضاء وصفراء».

والكعبة اليوم، كما تُرى من بعيد، هي عبارة عن هيكل مربع الشكل من الحجر الرمادي يبلغ ارتفاعها 50 قدَماً، فوق قاعدة يبلغ طولها 40 قدماً، وعرضها 35 قدماً، مغطاة بقطعة قماش سوداء وذهبية منسوجة من الحرير والقطن، ومزينة بآيات من القرآن الكريم، تسمى

(*) شاعر وكاتب ورحالة بريطاني، عاش بين عامي (1843-1926) [المترجم].

الكسوة.[9] وتقدَّس الكعبة لأنها تقع تحت عرش الله، وفيها الحجر الأسود المقدس، ومَن قَبّله، فكأنما قَبّل يمين الله. وخلال موسم الحج السنوي يطوف ما يُقدَّر بنحو ثلاثة ملايين مسلم، رجالاً ونساءً، بشكل جماعي حول الكعبة سبع مرات، كما تطوف الملائكة في الجنة.

وحتى يومنا هذا لا تزال مكة والمدينة، مثوى النبي محمد (570-632 م)، مكانين لا يدخلهما غير المسلمين. وهذا يتعلق بالآية القرآنية التي تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(9: 28)، إلا أن الحكومة السعودية تجاوزت الأمر القرآني، ففرضت حظراً شاملاً على دخول غير المسلمين إلى مكة بأكملها، وهي مدينة تبلغ مساحتها 850 كيلومتراً مربعاً، ويبلغ عدد سكانها مليونين و35 ألف نسمة، وكذلك إلى المدينة المنورة، التي تحتل مساحةً تقدر بـ 590 كيلومتراً مربعاً، وهي موطن لـمليون و200 ألف نسمة.

وثَمةَ نِقاط تفتيش للشرطة على الطرق المؤدية إلى مكة، على بعد أميال قليلة من المدينة المقدسة، يتحقق عندها رجال القانون من وثائق المسافرين، ويُستبعَد أولئك الذين لا يثبت أنهم مسلمون. وعند الوصول إلى المطار السعودي، غالباً ما يُبلَّغ الأجانب، سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين، بضرورة الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية.

تنتمي العقيدة السعودية إلى مذهبٍ سنّيٍّ محدد، متفرع من المدرسة الحنبلية الأصولية للإسلام السنّيّ[10]، ويُعرف هذا المذهب بالوهَّابية، رغم أن أتباعه يُطلقون على أنفسهم رسمياً اسم "الموحِّدين"، أي: المؤمنين بوحدانية الله.

العقيدة الوهَّابية

تأسست الوهَّابية على يد محمد بن عبد الوهَّاب (1703–1792)، وهو رجل طويل القامة، خشن المظهر، ذو خدين بارزين، يعود أصله لواحة العُيَيْنَة في جنوب نجد، التي تعتنق المذهب الحنبلي في الإسلام كما أوضحه تقي الدين بن تيمية (1263–1328).

وكما فعل مارتن لوثر (1483-1546) دعا محمد بن عبد الوهَّاب إلى العودة إلى تعاليم العقيدة القديمة متحرراً من التراكمات اللاحقة في العصور الوسطى. وهكذا كانت تعاليمه أقرب إلى السلفية، وهي العقيدة التي تتطلب من المؤمنين اتباع ممارسات المسلمين الأوائل، الذين يُطلق عليهم السلف الصالح.

وكانت العناصر الأساسية لنسخة محمد بن عبد الوهَّاب من الإسلام هي احترامُ الله الواحد

وعبادته، والامتناعُ عن عبادة غير الله أو الوسطاء البشريين، ورفضُ البِدَع، ومحاكاةُ طريقة السابقين الأوائل إلى الإسلام، وتعزيزُ الفضيلة والأخلاق، ومنعُ الرذيلة. وقد خرج عبد الوهَّاب عن الممارسات الحنبلية، كما حدث مثلاً عندما جعل حضور صلوات الجماعة إلزامياً، ونهى عن بناء مآذنَ للمساجد.

نجح حاكم نجد محمد بن سعود (حكم من سنة 1745 إلى 1765)، في الدفاع عن مزارع النخيل المحلية في وسط نجد ضد هجمات القبائل المُغيرة، واتخذها معقِلاً له. وفي عام 1744م أعطى حق اللجوء لـمحمد بن عبد الوهَّاب الذي أتى من قرية مجاورة طُرِد منها بسبب دعوته الإسلامية. وتبنّى ابن سعود مذهب عبد الوهّاب الدينيَّ، وتزوج ابنته، وأسَّسا معاً إمارة الدرعية التي تُعَدّ الدولة السعودية الأولى.

استمر هذا التحالف الأَسَريّ وترتيب تقاسم السلطة بين العائلتين حتى يومنا هذا؛ فمقابلَ سماح آل سعود لآل الشيخ، نسل عبد الوهَّاب، بالاحتفاظ بالسلطة الدينية، دعم آل الشيخ سيطرة آل سعود على شؤون البلاد السياسية، وأضفَوا بذلك على سلطة آل سعود السياسية شرعية دينية إسلامية. وقد ظل محمد بن إبراهيم آل الشيخ (1893–1969) محتفظاً بمنصب المفتي العامّ في المملكة العربية السعودية منذ عام 1953 حتى وفاته عام 1969.[11]

شن أتباع الوهَّابية وابن سعود، المعروفين بالوهَّابيين، حملة دينية شملت هدمَ المقابر والأضرحة وحتى شاهداتِ القبور، وتطهيرَ الإسلام من الشيعة لأن تبجيلهم المفرط لآل بيت النبي محمد عُدَّ -في رأيهم- بمنزلة عبادة الأصنام. واستناداً إلى أحاديثَ نُسِبت للنبي محمد، حظروا الموسيقى، والرقص، وحتى الشعر، وهو جزء لا يتجزأ من الحياة العربية، ومنعوا ارتداء الحرير والذهب والحُليِّ والمجوهرات. ورأَوا أنفسهم أتباع الإيمان الحق منتقدين جميع أشكال الإسلام الأخرى.

وقد ذهب الحاكم الثاني لإمارة الدرعية، عبد العزيز بن محمد بن سعود، إلى أبعدَ من مجرد هدم مزارات الأولياء الشيعة المحليين؛ ففي نيسان-أبريل 1802، قاد قوة مسلحة قِوامها 12000 مقاتلٍ، للهجوم على مدينة كربلاء المقدسة لدى الشيعة في العراق، ونهبوا قبر الإمام الحسين بن علي (ت: 680م)، ذي القبة الذهبية وذبحوا حوالي 5000 شيعي، بينهم نساءٌ وأطفال. يقول عثمان بن بشر النجدي، مؤرخ إمارة الدرعية: «سيطرنا على كربلاء فذبحنا من ذبحنا، وأخذنا أهلها سبايا. وبإذن الله، لن نعتذر عما فعلناه. ونقول لجميع الكفار: سوف تلقَون المصير نفسه».[12]

الانقسام التاريخي بين السُنّة والشيعة

يعود العداء بين الشيعة والسُنّة إلى الأحداث التي أعقبت وفاة النبي محمد عام 632 م؛ فقد توفي خليفته الأول أبو بكرٍ، الذي اختاره جماعة من أنصار النبي، بعده بعامين، وقبل وفاته رَشَّح للخلافة عمرَ بن الخطاب، أحدَ كبار صحابة الرسول، فوافق قادةُ الصحابة على عمر لاحقاً، وهو ما خيّب أمل عليّ بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة. ثم تعرّض عمر للطعن على يد العبد الفارسي الغاضب أبي لؤلؤة فيروز نهاوندي في عام 644 م، فرَشَّح عمر، وهو على فراش الموت، هيئة انتخابية مكونة من ستة أفراد لتسمية خليفة للمسلمين، كان منهم عليّ بن أبي طالب وعثمان بن عفان، الذي تزوج بنتين من بنات الرسول، فعُرضت الخلافة على عليّ بن ابي طالب شرط أن يحكم وَفقاً للقرآن والسُنّة النبوية، وسُنّة الخليفتين السابقين أبي بكر وعمر، فرفض عليّ الشرط الثاني، فذهبت الخلافة إلى عثمان الذي قبل بالشرطين. وفي حزيران-يونيو 656م هاجمت مجموعة من الجنود المتمردين منزل عثمان، وقتلوه، وأدان علي عملية الاغتيال، لكنه لم يبذل أيّ جهد للقبض على قتَلة عثمان(*).

وأطلق المتمردون ومعظم سكان المدينة المنورة على عليّ اسم "أول المسلمين"، وانتخبوه خليفة. وأولئك الذين اعترفوا بـعليّ الخليفة الشرعيّ الوحيد للنبي محمد سُمّو بالشيعة أو شيعة عليّ، أي أنصار عليّ، أمّا أولئك الذين اعترفوا أيضاً بأبي بكر وعمر وعثمان خلفاءَ شرعيين أصبحوا يُعرفون بالسُنّة، أو أهل السُنّة، أي أهل نهج النبي محمد. ومنذ ذلك الحين اتسعت الخلافات بين السُنّة والشيعة، وتعمّقت.

وقد أثبت عليّ أنه خليفة مُلهَم وقائد حربي محنك، وكان يحمل سيفاً ذا رأس متشعب سمي بـذي الفقار؛ فأصبحت صيحة الحرب لدى شيعة عليّ: "لا فتى إلا عليّ، لا سيف إلا ذو الفقار". ومع ذلك قُتل عليّ في كانون الثاني-يناير 661 م بسيف مسموم استخدمه عبد الرحمن بن ملجم، وهو عضو في طائفة الخوارج التي استنكرت مطالبة عليّ بالخلافة،(**) معلنة أن أي مسلم تقي يستحق أن يصبح خليفة.

اتسعت الخلافات بين السُنّة والشيعة منذ ظهور الانقسام الأصلي حول خلافة عليّ حتى

(*) بذل الإمام علي (ع) قصارى جهده للحفاظ على أمن الدولة الاسلامية واستقرارها بعد موجة من الاضطرابات الكبرى أواخر العهد السابق، وقد وضع الاقتصاص من قتلة الخليفة الثالث ضمن مهامه لكن الاحداث العاصفة آنذاك لم تتح له الفرصة لإتمام عمله [المركز].

(**) يؤثَر وبشكل مؤكّد إن الإمام علي (ع) لم يطالب بالخلافة في عهد الخليفة الثالث، وكان زاهداً فيها إلى درجة كبيرة لكن أكثرية الأمة الاسلامية آنذاك ضغطت عليه لقبول المنصب بعد شغوره [المركز].

وصلت لطريقة أداء الصلاة. ويشكِّل الشيعة اليوم ما بين 10 إلى 13 % من مسلمي العالم البالغ عددهم ملياراً و600 مليون نسمة. ويتركز معظم شيعة العالم في الشرق الأوسط، وجنوبيّ آسيا، وأذربيجان. وفي عام 2013، مع وجود 70 مليون شيعي من بين مواطنيها البالغ عددهم 77 مليوناً ونصف المليون نسمة، ضمّت إيران وحدَها 40 % من المسلمين الشيعة حول العالم.

اختلافات متعددة

يختلف الشيعة عن السُنّة في العقيدة، والطقوس، والشريعة، والتنظيم الديني، بالإضافة إلى شعائر الصلاة. وتتكون عقيدة الشيعة من خمسة أركان أساسية وعشَرة واجبات، وهم يشتركون مع السُنّة في ثلاثة أركان: (التوحيد): عبادة الله وحده، و(النبوَّة): نبوَّة محمد كونه وسيلة التواصل بين الله والبشر، و(البعث): حين يبعث الله أرواح الموتى من البشر في يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم في الدنيا. ثم يضيف الشيعة ركنين آخَرين: (الإمامة): أي إمامة أهل بيت محمد، و(العدل): طبيعة الله العادل. ويعتقد الشيعة أن أولئك الذين ينتمون إلى نسل النبي محمد -ومن ثَمّ ابنته فاطمة وزوجها عليّ- هم وحدَهم القادرون على حكم المسلمين نيابة عن الله، وأن الأئمة[13]، الملهَمين إلهياً، معصومون من الخطأ. وعلى النقيض من ذلك، يعتقد السُنّة أن الله وحده هو المعصوم من الخطأ، دون أي استثناء حتى للنبي محمد. وأخيراً، يرى الشيعة أن حاكم المسلمين لا بدّ أن يكون عادلاً.

وتشمل الواجبات الدينية للشيعة الصلاةَ اليومية، وصيامَ شهر رمضان، والخُمُسَ (تشبه ضريبة العشور التي كان المؤمنون يدفعونها للكنيسة)، والزكاةَ (ضريبة الزكاة)، والحجَّ، والأمرَ بالمعروف، والنهيَّ عن المنكر، وحُبَّ أئمة الشيعة وأتباعهم.(*)

يَعُدّ السُنّة التقليديون سبَّ بعضِ رجال الدين الشيعة الثلاثةَ الأوائل من الخلفاء الراشدين الأربعة -أبا بكر وعمر وعثمان وعلي- ممارسةً غير إسلامية، إذ لا يجوز للمسلم أن يسب أصحاب النبي.

تجد العاطفة الشيعية متنفَّساً لها في بكاء الأئمة ونعيهم عليّاً (الذي اغتيل على يد أحد الخوارج)، والحسن (التي مات مسموماً)، والحسين (الذي قُتل في معركة غير متكافئة)، وفي التوسُّلات التي تمزق القلب عند أضرحتهم. ويعتقد الشيعة أنه من خلال الزهد والمعاناة

(*) إن الفرعين الآخرين اللذين لم يذكرهما المؤلف ضمن فروع الدين لدى الشيعة "الإمامية" هما: الجهاد والبراءة من أعداء أهل البيت (ع) [المركز].

يمكن إزالة الآثار السيئة للإذلال والاضطهاد الذي تعرض له أولئك الأئمة. وخلال طقوس يوم عاشوراء (العاشر من شهر محرم)، يُعاد سنوياً تمثيل مشهد استشهاد الإمام الحسين يومَ العاشر من محرم، في السنة الحادية والستين بعد الهجرة[14] الموافق لـ 17 أيار-مايو 681م حيث يوفِّر جلد المؤمنين لذواتهم وسيلة للتعبير عن الألم، والتكفير عن ذنب سكان مدينة الكوفة جنوبيّ العراق لتخليهم عن الإمام الحسين بعد أن دعَوه للقدوم إليهم ليحاربوا تحت لوائه قواتِ يزيد بن معاوية الكبيرة والمدججة بالسلاح[15]، في حين لا يوجد في الإسلام السنّيّ مثل هذه الطقوس، بل يعتقد أهل السُنّة أن جلد الذات إحياءً لذكرى وفاة الإمام الحسين يتعارض مع نهي النبي محمد للنساء الثكالى عن النُّواح وتمزيق ثيابهن وضرب صدورهن حزناً.

وأخيراً، فثمة اختلاف بين الشيعة والسُنّة من الناحية التنظيمية، إذ يُرجِعُ السُنّة إدارة الشؤون الدينية للدولة (الإسلامية) بشكل حصري، فهم قلَّما يتولَّون تنظيم الشؤون الدينية للدولة بأنفسهم، بل يفضلون الاضطلاع بأدوار أخرى تحت كنف الدولة، كالقضاء، والدعوة، والتعليم. بينما يحتفظ كبار المجتهدين الشيعة في إيران لأنفسهم بحق إدارة المؤسسات الدينية وأنشطة الرعاية الاجتماعية بشكل مستقل عن الدولة مقابل تلقيهم أموال الخُمس.

ويؤكد علماء الشيعة استقلال الهرمية الدينية عبر استمرار التقليد المتمثل بمنحهم لقب "مرجع التقليد" للشيخ الأقدم والأجدر من بينهم، ولا بد من الوقوف عند رأيه حول مدى توافق قرارات الدولة الكبرى مع أحكام الإسلام. ويتدرّج رجال الدين الشيعة في التصنيفات من ثقة الإسلام، إلى حجة الإسلام، إلى آية الله، إلى آية الله العظمى. أمّا عند أهل السُنّة، فإن التسلسل الهرمي الديني يسير على النحو التالي من أعلى إلى أسفل: المجتهد، شيخ الإسلام، المفتي الأعظم (المفتي الأكبر، مُصدر الفتاوى والأحكام الدينية)، المفتي، القاضي (القاضي الديني)، والشيخ. ويعين الحاكمُ المسلم، في الدول ذات الأغلبية السنية، شيخَ الإسلام أو المفتي العام.[16]

التباين في طريقة أداء الصلاة

وثمة أيضاً اختلافات في طريقة أداء الصلاة بين السُنّة والشيعة؛ ففي منشور لها على الإنترنت كتبت سمراء حسين -وهي سيدة سنية دخلت أحد مساجد الشيعة لأداء صلاة الجمعة في القسم النسائي- تقول: «حان وقت أداء صلاة الجمعة، فنهضنا... كان هناك حوالي 15 امرأة. وَقَفتُ في الصف، ولاحظت أن الجميع يضعن حجراً صغيراً مستديراً على الأرض [أو سجاد الصلاة] أمامهن. وقفت في الصف، وكان موضع سجودي بلا حجر. شعرت بشيء

من التوتر، وتساءلت عما إذا كان أحد سيسألني عن حجر الصلاة الخاص بي، لكن المفاجأة أن أحداً لم يسألني عنه! كانت صلاتهم مختلفة بعض الشيء. فعلى سبيل المثال، لم يضعن أيديهن على صدورهن كما تفعل نساء السُنّة، بل كانت أيديهن مسبلة بارتياح على جانبي أجسادهن. كما أنهن لم يدخلن مباشرة في الركوع بعد انتهاء القراءة كما اعتدت أن أفعل في المسجد السني! بل رفعن أيديهن، وتلَيْنَ دعاء قبل أن يدخلن في الركوع (الانحناء جزئياً مع وضع اليدين على الركبتين). كانت التلاوات أيضاً مختلفة قليلاً أثناء الركوع والسجود (السجود الكامل مع وضع الرأس على الأرض). فبمجرد جلوسه مع ثني الساقين، ذهب الإمام مباشرة لتلاوة الشهادة (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله). والفرق الأخير الذي لاحظته هو أنه عند الانتهاء من الصلاة، بعد أن سلّم الإمام على الملائكة، لم يُدِر أحد رأسه من جانب إلى آخر كما يفعل أهل السُنّة. أنهين الصلاة مباشرة، وهو أمر غير معتاد بالنسبة لي لأنني لم أفعل ذلك من قبل. فكَّرت في المغادرة، فسمعت أذاناً آخر للصلاة! نهض الجميع، فنهضت محتارةً، وانضممت ببساطة إلى صلاة جماعة أخرى. هل كانت هذه الصلاة زائدة؟ أوضحتْ لي شابة أن الصلاة الثانية كانت "صلاة العصر". استبان لي حقاً أن المسلمين الشيعة يصلون العصر بعد صلاة الجمعة مباشرة بالجمع بين صلاتين في صلاة واحدة».[17]

أمّا "الحَجَر" الذي ذكرته السيدة سمراء الحسين، فكان في الواقع لوحاً صغيراً من الطين المشويِّ من تراب كربلاء، المكانِ الذي استشهد فيه الإمام الحسين في العاشر من محرم من السنة الحادية والستين للهجرة، أو السابع عشر من أيار-مايو سنة 681 للميلاد".[18]

ورغم أن الشيعة يجمعون بين صلواتهم، فإن التجار الشيعة في السعودية يُجبَرون على إغلاق متاجرهم، خلال أوقات إقامة الصلاة خمس مرات يومياً، على تقليد أهل السُنّة. ويُطلب من المساجد الشيعية في الأحياء المختلطة دينياً رفع الأذان السنّيّ، الذي يختلف عن الأذان الشيعي، في أوقات الصلاة.[19]

الشيعة في شبه الجزيرة العربية

عندما استولى ابن سعود على منطقة الأحساء شرقيّ شبه الجزيرة العربية في عام 1913، كان عليه أن يجد حلاً للممارسات الدينية الشيعية، نظراً لانتمائه الوهَّابي، لكنه أرجأ المهمة لحين إتمام سيطرته على المزيد من الأراضي. وفي وقت لاحق، بعد سيطرته على الحجاز على طول البحر الأحمر في عام 1924، هدم المقابر التي يتعبّد عندها الشيعة. وفي أواخر عشرينيات القرن الماضي، راح (الإخوان) المسلحون من أتباع ابن سعود يَحثّونه على تحويل

شيعة الأحساء قسراً إلى الإسلام الوهَّابي، فاختار ابن سعود أن يرسل إليهم دعاةً وهابيين لإقناعهم بالتحول. ولمّا باءت خطته بالفشل قرر ابن سعود السماح للشيعة بإدارة مساجدهم الخاصة، وأعفاهم من قواعد الميراث التي نص عليها المذهب الحنبلي. وقد استمر هذا النهج على مدى عقود انتشرت خلالها بين السعوديين السُنّة مفاهيم خاطئة حول الشيعة، إذ يعتقد العديد من السعوديين السُنّة أن الشيعة يُخْفون ذيولهم تحت ثيابهم، وأنهم ينغمسون في ممارسات جنسية غير طبيعية قبيل يوم عاشوراء، فيجتمع الرجال والنساء في الحسينيات (أماكن الاجتماعات)، ويتجردون من ثيابهم، ويمارسون الجنس الجماعي. ويجري لاحقاً تبجيل الأطفال الناتجين ليصبحوا ملاليهم عندما يكبرون.[20]

طوّر الشيعة ممارسة تُدعى "التَّقِيّة" ليتمكنوا من العيش وسط أغلبية سنية معادية، وهي ممارسة تقوم على إخفاء الشيعة لهُويتهم الطائفية كإجراء وقائي أو اتقائي، وتكتيك دفاعي أقره الملالي. وقد بقي الشيعة السعوديون في عهد ابن سعود بعيدين عن الأنظار، في حين كان رجال الدين الشيعة يمارسون التَّقِيّة. لكن هذا الوضع ما لبث أن تغير في عام 1975، عندما تجمّع شباب الشيعة حول الشيخ حسن الصفَّار -وهو رجل دين شاب فصيح اللسان- ليشكِّلوا سراً ما عُرف بـ "حركة الإصلاح"، وكان هدفها مكافحة التمييز ضد الشيعة وتحسين وضعهم الاجتماعي والاقتصادي. وتضمنت مطالب شباب الحركة أيضاً ضمان حق الشيعة في نشر الكتب الدينية، ووضع حدٍّ لإدانة الدعاة الوهَّابيين للشيعة. وقد بقي الشيخ الصفَّار ملتزماً في خطبه بالشق الديني في حديثه عن مقاومة الإمام الحسين. ولكنْ بعد قيام جمهورية إيران الإسلامية في عام 1979 تزايدت حدّة الخطاب الشيعي في المنطقة الشرقية جذريّاً.

تقلبات آل سعود

وصل اتساع أراضي الدولة السعودية الأولى إلى حدود العراق وسورية، وشملت منطقة غربي الحجاز، التي تضم كلّاً من مكة والمدينة، وهذا ما دفع السلطان العثماني -وهو من أتباع المذهب الحنفي السنّيّ- إلى أن يأمر والي مصر، محمد علي باشا، بقمع الحركة الوهَّابية.

بعد أن هزمته القوات العثمانية انسحب عبد الله بن سعود بن عبد العزيز آل سعود، الحفيدُ الأكبر لمؤسس الدولة السعودية الأولى، من منطقة الحجاز نحو الدرعية، وبعد سنوات عِدّةٍ سار القائد العثماني إبراهيم باشا إلى الدرعية، وحاصرها عام 1818، فاستسلم عبد الله آل سعود، فنُفِي، ورُحِّلَ إلى إسطنبول. ومن الجدير بالذكر أن المحكمة الشرعية هناك أدانته بالهرطقة وقطع الطريق، وحكمت عليه بالإعدام. وقُطِع رأسه عند بوابة قصر السلطان، وعُرِضَ

جسده مقطوع الرأس على عمود طويل في ساحة عامة، وقد عُلِّقت عقوبة الردة على صدره بخنجر ملطَّخ بالدماء.[21]

وفي وقت لاحق، تمكن تركي، نجل عبد الله آل سعود، من جمع جيش كبير في معقل الوهَّابيين في نجد لاستعادة الدرعية والرياض من القوات المصرية في عام 1824، وأنشأ إمارة نجد التي سُمّيت فيما بعد بالدولة السعودية الثانية.

امتلأ تاريخ الدولة الثانية بالخلافات؛ ففي عام 1875 اشتعلت حرب ضروس بين ابني فيصل بن تركي آل سعود، عبد الله وسعود،[*] مما أتاح لتابعهم غير الوهَّابي في الشمال، محمد بن عبد الله الرشيد، فرصة السيطرة على معظم نجد. وتحالف الرشيد مع الأتراك العثمانيين، فتمكن عام 1891 في معركة المليدة، من هزيمة حاكم آل سعود عبد الرحمن بن فيصل الذي لجأ إلى إمارة الكويت المستقلة المجاورة. وهكذا انتهت الدولة السعودية الثانية.

قرر عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود -(المعروف أيضاً باسم ابن سعود) البالغ من العمر 26 عاماً- استعادة الرياض بعد الاستيلاء على الدرعية. وفي ليلة 15 كانون الثاني-يناير 1902 انطلق عبد العزيز من الكويت برفقة خمسين رجلاً مسلحاً، وتمكن هو وأربعون آخرون من اجتياز أسوار مدينة الرياض بعد أن صعِدوا على ألواح مجمَّعة من جذوع النخيل. وحاصروا حصن المصمك في منتصف الليل، ففوجئت بهم قوات الأمير عجلان، المعين من آل الرشيد. وانتهت مقاومة عجلان بوفاته أمام الحصن. وبعد أسبوع، واعترافاً بقدرات الابن المقدام ابن سعود الذي أُصيب في الغارة، تنازل له أبوه عبد الرحمن عن الحكم.

في البداية، عزز ابن سعود سلطته في نجد بمساعدة سكان الواحات، ثم ركّز على كسب تأييد زعماء القبائل البدوية من خلال إشراك المطوّعين، (أي المتطوعين الدينيين)، وإرسالهم لاحقاً إلى مختلف القبائل لتعليمهم مبادئ الإسلام لإحلال أحكام الشريعة الإسلامية محَلّ قانونهم العرفي، والروابط الدينية محَلّ روابطهم القبلية التقليدية.

وهكذا قام نظام ابن سعود على ثلاث ركائز: التعليم الإسلامي، وتطبيق الشريعة، وحماية الأخلاق العامة، وظل هذا القالب ثابتاً من غير أي تغيير طوال عهد خلفاء ابن السعود الستة. ولكن في نيسان-أبريل 2016، في عهد الملك سلمان، جرى إصلاح هذا النظام على النحو الذي أوضحه وليُّ وليِّ العهد آنذاك الأميرُ محمد بن سلمان، إذ أصدرت الحكومة مجموعة من التوجيهات قلّصت بموجبها صلاحيات فريق المطوّعين الذي كان يعمل آنذاك كقوة شبه

(*) كانت المنافسة بين الأخوين قد اندلعت منذ 1865 وليس 1875 [المركز].

مستقلة قوامها 5000 رجل، كانوا يخرجون دوريات إلى الحدائق، والشوارع، ومراكز التسوق لمكافحة تعاطي المخدرات، ومنع الرجال والنساء غير المرتبطين من الاختلاط في الأماكن العامة، والتأكد من إغلاق المتاجر ضمن أوقات الصلاة. وقاموا أيضاً بمراقبة العديد من الجهات الحكومية، إلى جانب النشاط عبر الإنترنت. وقد حرَمت التوجيهات الجديدة المطوّعين من سلطة التحقق من الهُويات الشخصية أو غيرها من الوثائق، وتتبع الناس واعتقالهم، فأصبحت هذه الإجراءات محصورة برجال الشرطة والمسؤولين عن إنفاذ قوانين المخدرات.[22]

ومن أجل حماية مملكته الناشئة، أراد ابن سعود تشكيل قوة قتالية دائمة، فشجع القبائل البدوية على الهجرة والاستقرار في مستوطنات هُجُر الإخوان، وتحتوي كلُّ مستوطنةٍ مؤلفةٍ من حوالي 2000 شخص أو نحوهم أراضيَ زراعيةً، ومراعيَ، وإمدادات مياه. وفي غضون وقت قصير أصبحت تلك المستوطنات مراكز دينية، وسياسية، وعسكرية، وإدارية، وتعليمية للوهَّابيين الذين مكَّنوا بدورهم ابن سعود من تحقيق شيء لم تتمكن أيُّ قوة ولا أيُّ زعيم من تحقيقه حتى الآن: فرض حكم مركزي على القبائل الأربعين الكبرى التي تسكن نجد. وقد أبقى ابن سعود العديد من زعماء القبائل تحت رقابته في العاصمة الرياض بحجة تثقيفهم وإطلاعهم على مبادئ الوهَّابية.

كانت الحياة في مستوطنات الإخوان، التي يديرها أميرٌ ووالٍ، تتمحور حول المساجد، وقد أدى العلماء فيها دوراً مهماً، كما فعل المطوَّعون الذين كانوا يتلقَّون التدريب في الرياض. وعاقب المطوَّعون كلَّ من يدخّن، أو يغني، أو يرقص، أو يرتدي الذهب أو الحرير، أو يمتنع عن أداء الشعائر الإسلامية. يقوم الأمير، الذي ينتخبه مجلس الشورى المحلي، برفع التقارير إلى الإمام، وهو اللقب الممنوح لابن سعود، وإلى الوالي الذي يختص بأمور الشريعة، ويقدّم بدوره التقارير إلى شيخ الإسلام الذي كان مقرّه في الرياض.[23]

وقد ارتفع عدد المستوطنات إلى 200، واستمرت في تقديم الرعاية والدعم للإخوان ليُرسلوا لاحقاً لنشر تعاليم الإسلام الوهَّابي إلى أقصى أركان الجزيرة العربية وخارجها. وكان لهم أيضاً دور فعّال في تأمين سيطرة ابن سعود على منطقة الأحساء في عام 1913. وبعد ثلاث سنوات نجح ابن سعود في فرض استسلام سعود بن عبد العزيز الرشيد، أقوى أفراد آل رشيد.

وبعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، مع نهاية الحرب العالمية الأولى في عام 1918، تمكّن ابن سعود من ضم منطقة عسير على البحر الأحمر، التي كانت تتبع لـليمن، في عام 1920. وفي العام التالي هزم منافسه محمد بن عبد الله بن علي الرشيد، وبذلك استولى أخيراً على منطقة حائل التي كانت تتبع لآل الرشيد.

وفي سنة 1924 تمكن ابن سعود أخيراً من هزيمة الشريف حسين بن علي آل هاشم في الحجاز، وقام بعزله. ورغم أن جنوده الوهَّابيين لم ينهبوا مكة والمدينة، فإنهم هدموا الآثار وشواهد القبور التي كان الشيعة يستخدمونها للصلاة على الأولياء المسلمين. [*]وقد أثارت هذه الممارسات غضب ملك إيران الشيعي، رضا شاه بهلوي (حكم من 1925 إلى 1941)، وتساءل: هل سيسمح ابن سعود للشيعة بأداء فريضة الحج إلى مكة وَفقاً لشعائرهم الخاصة بعد أن أصبح ابن سعود الوهَّابي حارساً لأقدس موقعين في الإسلام؟

وقد أعرب الشاه عن مخاوفه علانية، فنتج عنها مفاوضات مطولة بين الملكين شملت قضايا الوصاية على الحرمين في مكة والمدينة، ومنع التدخل في الشؤون الداخلية لكلا البلدين، ووضع البحرين، حيث كانت سلالة سنّيّة تحكم الأغلبية الشيعية منذ عام 1783. وقد تولدت عن هذه المفاوضات معاهدة ودّية بين المملكتين، جرى التوقيع عليها في طهران في عام 1929، ونصّت المعاهدة على أن تقع مسؤولية رعاية الأماكن المقدسة على عاتق الدولة السعودية، وأن يكون الحج مفتوحاً لجميع المسلمين؛ وأن يجري وَفقاً لأحكام الشريعة، وألا يكون هناك أيُّ تدخل في الشؤون الداخلية لكلا البلدين. وبما أن البحرين لم تكن إمارة إيرانية أو سعودية، فقد كانت تتمتع بوضع سيادي.[24]

واصل ابن سعود إضفاء الطابع الإسلامي على حملاته، بعَدّها جهاداً يهدف لمعاقبة الذين حادوا عن الإسلام الحق مُمَثَّلاً بالمذهب الوهَّابي، ومن هنا جاءت الادّعاءات الرسمية التي تقول: إن المملكة العربية السعودية هي الدولة الحديثة الوحيدة التي تدين بوجودها للجهاد.

وبعد أن أعلن نفسه ملكاً على الحجاز وسلطنة نجد في كانون الثاني-يناير 1926، سعى ابن سعود للحصول على الاعتراف الدَّوْليّ. وفي العام التالي اعترفت به بريطانيا، القوة الأجنبية الأقوى في منطقة الخليج، حاكماً لـلحجاز ونجد. وفي المقابل قَبِل حماية بريطانيا لكلٍّ من عُمان وإمارات الخليج، وأقرَّ كذلك بضمان سلامة أراضي العراق وإمارة شرق الأردن، اللتين كانتا آنذاك تحت الانتداب البريطاني.

استمر بعض قادة الإخوان بمداهمة الأراضي الواقعة خارج سيطرة ابن سعود في تجاهل واضح للاتفاق الذي جرى بين ابن سعود وبريطانيا، وأدى ذلك إلى نشوب معركة بين الإخوان المسلحين وابن سعود في آذار-مارس 1929 في السبيلة، حيث واجه 8000 من الإخوان على

(*) اضطر الشريف حسين بن علي حاكم الحجاز إلى التنازل عن منصبه لولده الأمير علي تحت ضغط بريطانيا وضربات الجيش السعودي، ولم تكن شواهد القبور والأضرحة المقامة في الحجاز خاصة بالشيعة حصراً بل هي محترمة ومقدسة لدى أبناء المذاهب الاسلامية الآخرين [المركز].

ظهور الجمال -اختاروا استخدام الرماح والسيوف فقط كما كان الحال في أيام النبي محمد- في مواجهة 30000 جندي مع ابن سعود مجهزين بأسلحة آلية قدّمها البريطانيون. وقد هُزم المتمردون في تلك المعركة، لتتبعها لاحقاً عدة معارك، ولم يستسلم آخر زعماء الإخوان إلا في كانون الثاني-يناير من العام 1930.[25]

وفي 23 أيلول-سبتمبر 1932 وَحَّد ابن سعود مناطق نفوذه التي استولى عليها على مدى العقود الثلاثة الماضية، لتشمل حوالَي ثلاثة أرباع مساحة شبه الجزيرة العربية (3.1 مليون كيلومتر مربع)، تحت اسم المملكة العربية السعودية، وأعلن نفسه ملكاً على المملكة العربية السعودية.

لأكثر من سبعة عقود أخفق النظام السعودي في الاحتفال في الثالث والعشرين من أيلول-سبتمبر باليوم الوطني لتأسيس المملكة، إذ لم يسمح العلماء الوهَّابيون بذلك، وجادلوا بأن الله وحده هو من يمنح الأعياد للمسلمين، مشيرين إلى الحديث الذي وبَّخ فيه النبي أتباعه عندما رآهم يحتفلون لدى وصولهم إلى المدينة المنورة بعيدَين محلِّيَّين يعود تاريخهما إلى عصر الجاهلية -وهو المصطلح المستخدم لعصر ما قبل الإسلام- ونصّ الحديث: «إن الله قد أبدلكم خيراً منهما: يوم الأضحى، ويوم الفطر».

وقد عارض العلماء الوهَّابيون أيضاً الاحتفال بيوم ميلاد النبي محمد كعطلة وطنية، ومع ذلك، قرر الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، بعد فترة وجيزة من اعتلائه العرش في 1 آب-أغسطس 2005، صياغة هُويّة سعودية متميزة، وأعلن يوم 23 أيلول-سبتمبر عطلة وطنية بَدءاً من عام 2006، على النقيض من ذلك كله، تُعدّ القومية جزءاً متجذراً في الحمض النووي لإيران، ولها تاريخ مُسجَّل يعود إلى العصور القديمة.

اختلافات اجتماعية واقتصادية واسعة

تأسست المملكة العربية السعودية من دمج أربع مناطق رئيسة: الأحساء في الشرق، التي تضم عدداً كبيراً من السكان الشيعة، وعسير في الغرب، وهي منطقة قريبة من اليمن مادياً وثقافياً، والحجاز في الغرب، التي يتدفق إليها الحجاج من بقية العالم الإسلامي، ونجد في الوسط، التي تشكل معقل الإسلام الوهَّابي.

في عام 1950، شكل البدو الرُّحَّل، أو شبه الرحل، ما لا يقل عن نصف سكان المملكة البالغ عددهم ثلاثة ملايين و200 ألف نسمة. وكان للانتماء القبلي بناءً على الأصل المشترك أهميةٌ قصوى. والقبيلة هي تنظيم سياسي يفوق كلّاً من الفخذ، والعائلة الممتدة، والعشيرة، وتحافظ

على تماسكها من خلال روابط الدم. وفي العالم العربي غالباً ما تُصنف القبائل على أنها نبيلة أو عامة. وتتحد القبائل من الفئة نفسها لتشكل اتحاداً أو كونفدرالية.

في المملكة العربية السعودية كان هناك حوالي 40 قبيلة أو اتحاد قبلي. وينتمي آل سعود إلى قبيلة الروَلة التابعة لاتحاد قبائل عِنزة المنتشرة في نجد والعراق وسورية. ويعتبر أعضاء هذا الاتحاد نبلاء بسبب ادِّعائهم النسبَ إلى يعرب أبي العرب جميعاً. أمّا الاتحادات القبلية العامة (أو غير النبيلة) مثل العوازم، التي يعود تاريخها إلى القرن الخامس عشر في منطقة نجد، فهي لم تتعرَّب الا من خلال التزاوج مع السلالات النبيلة.[26] ومع إدخال التعليم الممول من القطاع العامِّ، والذي بدأ في عام 1941، والتطور الاقتصاديّ الناجم عن نمو صناعة النفط، بدأت الأوضاع الجديدة في تقويض أهمية الانتماء القبلي لصالح المكانة والوضع الاجتماعي.

تأسست جامعة "طهران" عام 1934 في إيران، في حين تأسس أول معهد سعودي للتعليم العالي الديني ممولاً من القطاع الخاص، تحت اسم "مدرسة أصول الدين" بالطائف بعد أحد عشر عاماً. وتلاها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض عام 1953. وفي عام 1954 أُنشِئت وِزارة المعارف. وفي عام 1957 أُنشِئت أول جامعة غير دينية في العاصمة تحمل اسم الملك سعود.

وفي حين قُبلت النساء في جامعة طهران في عام 1937، لم يبدأ التعليم الابتدائي الممول من القطاع العام للفتيات السعوديات إلا في عام 1960. وبعد عقد من الزمان كان معدل محو الأمية لدى الرجال بنسبة 15 %، وللنساء بنسبة 2 %، هو ثاني أدنى معدل في منطقة الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا، بعد اليمن.[27]

يبدأ التركيز على الدين-"الإيمان" بـ(لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإسلام كمنهاج حياة) من المرحلة الابتدائية [في السعودية]. في المتوسط تُخَصص تسع حصص أسبوعية للدين ومثلها للغة العربية، بينما يخصص ما مجموعه اثنتا عشرة حصة فقط لموادّ الجغرافيا والتاريخ والرياضيات والعلوم والفنون والتربية البدنية. وفي المرحلة الإعدادية فالأرقام المقابلة هي تسع حصص للدين، واثنتا عشرة حصة للغة العربية، وتسع عشرة حصة للعلوم الكونية، والفنون، والتربية البدنية. أما في المرحلة الثانوية، فتُقلَّص عموماً الفترات المطلوبة للدراسة الدينية، بينما يُتاح للتلاميذ خيار التفرغ للتركيز عليها.[28]

يستمر هذا التحيز للتعليم الديني وصولاً إلى التعليم العالي، وقد حال دون إنتاج عدد كافٍ من الكفاءات السعودية المتمرسة في العلوم والتكنولوجيا للعمل في قطاع النفط والصناعات

المرتبطة به. ولسد هذه الفجوة، بدأت شركة أرامكو، التي تأسست عام 1933، في استقدام العمال الأجانب ومعظمهم من مصر واليمن والأراضي الفلسطينية. ومع توسع الصناعات البترولية والصناعات المرتبطة بها، استمرت أرامكو وخليفتها أرامكو السعودية على هذا النهج.

وفي تناقض صارخ، قامت الحكومة الإيرانية بتأميم شركة النفط الأنجلو-إيرانية المملوكة لبريطانيا في عام 1951، وطردت موظفيها الأجانب.(*) وصحيح أن الشركة الإيرانية منحت بعد مرور ثلاث سنوات شركات النفط الغربية عقداً يخوِّلها إدارة صناعة النفط الإيرانية، إلا أن عدد العمال غير الإيرانيين في هذا القطاع كان محدوداً للغاية. ومع بدء الثورة الإسلامية عام 1979، أصبحت صناعة الهيدروكربونات تدار حصرياً من قبل الإيرانيين.

وقد تضمنت الخطة الخمسية الأولى في القطاع العام السعودي (1970-1975) إنفاق 8 مليارات دولار، ثم تضخمت الخطة الخمسية اللاحقة لتصل إلى 142 مليار دولار. وقد أُنفِقَت معظم هذه الأموال لبناء البنية التحتية وتوسيعها من الطرق، والموانئ، والاتصالات، والمواصلات، ومحطات الطاقة والمياه. ولما كانت أعداد السكان الأصليين قليلة جداً، ونظراً لخلفيتهم البدوية، ولم يكن باستطاعتهم العمل من ثماني إلى عشر ساعات يومياً، فقد لجأت الحكومة إلى استيراد مجموعة كبيرة من العمال الأجانب ليس فقط من العالم العربي، ولكن من شبه القارة الهندية وتايوان وكوريا الجنوبية أيضاً.(29)

أدى هذا التدفق غير المسبوق للعمالة غير السعودية لتحوّل القوى العاملة السعودية إلى أقلية في بلدٍ لم يبلغ عدد سكانه أكثر من تسعة ملايين و74 الف نسمة في عام 1980. وبعد خمس سنوات قُدّر عدد الأجانب المقيمين في البلاد بنحو أربعة ملايين و563 ألف، وإجمالي اليد العاملة الأجنبية بنحو ثلاثة ملايين و523 ألف شخص.(30)

ويتناقض مسار التنمية الاقتصادية في "المملكة العربية السعودية" أيضاً مع مسار إيران؛ فنظراً لتاريخ إيران الطويل الذي يمتد لستة آلاف سنة، أصبحت أقرب إلى مصر، منها إلى المملكة العربية السعودية، وهذا هو الحال أيضاً فيما يتعلق بحجم السكان الإيرانيين والمصريين. وقد انتهى آخر أثر للقبلية في إيران، عندما جرى إنهاء وجود قبيلة بختياري الصغيرة، المتمركزة في جنوبي غربي إيران الغني بالنفط، على يد رضا شاه بهلوي.

أدى الدافع الثابت لإنشاء صناعة محلية، مع انتشار محو الأمية في عهد رضا شاه بهلوي وابنه محمد رضا شاه بهلوي، إلى تشكل مجموعات اجتماعية مميزة في إيران. وقد افتتح

(*) لم تطرد إيران موظفي الشركة البريطانية، لكونها كانت بحاجة لهم لتسيير صناعتها النفطية، في المقابل فإن حكومة بريطانيا هي من سحبتهم لإحراج الحكومة الإيرانية وإحباط قرارها بتأميم النفط [المركز].

رضا شاه بهلوي جامعة طهران في عام 1934. وعندما تنازل رضا عن العرش لصالح ابنه بعد سبع سنوات، كان هناك 3300 طالب مسجلين في التعليم العالي.[31] وارتفعت أعداد خريجي الجامعات بين عامي 1963 و1977 من 24,885 إلى 154,215 طالباً في 16 جامعة. وبلغة الأرقام، فقد ارتفع عدد الطلاب الإيرانيين الذين يدرسون في الخارج من 18 ألفاً إلى 80 ألفاً، كما ارتفع معدل الالتحاق بالكليات المهنية ودور تدريب المعلمين خلال تلك الفترة من 14,240 إلى 227,500. وقد وفّرت زيادة عائدات النفط والمساعدات الأمريكية التي لم تتوقف حتى عام 1972 التمويل اللازم لتوسيع المرافق التعليمية.[32]

وهذا ما يفسر سبب تضاعف أعداد المنتمين إلى الطبقة الوسطى الحديثة في إيران، والتي بلغ عددها في غضون جيل واحد فقط 650 ألف نسمة من بين 7 ملايين أسرة، وأصبح هناك 304.000 موظف حكومي، و208.000 معلم، و61.000 من المهنيين والمديرين ذوي الياقات البيضاء، وشكّل هؤلاء 6.5% من إجمالي القوى العاملة البالغ عددها 10 ملايين نسمة.[33]

وبحلول أواخر سبعينيات القرن العشرين كان هناك 60 عائلة مرتبطة بالبهلويين في القمة، وتحتهم 200 من السياسيين الأرستقراطيين المسنين، وضباط الجيش والشرطة السابقين. يليهم في التسلسل الهرمي رجال الأعمال غير الأرستقراطيين، بينما ينتمي حوالي مليون أسرة إلى الطبقة الوسطى التقليدية، نصفهم من البازار.[*] وتحت هؤلاء مباشرة كان أولئك التجار الذين يعملون خارج الأسواق الحضرية، يليهم أصحاب الورش القرويون الذين يعملون في صناعة السجاد بشكل رئيسي. وأخيراً يمكن ضم رجال الدين وطلاب العلم الديني إلى الطبقة الوسطى التقليدية في إيران.

وفي غضون جيل واحد تضاعفت أعداد الطبقة العاملة الحضرية خمسة أضعاف، 900 ألف منهم يعملون في الصناعة، و400 ألف يعملون في تجارة التوزيع، و1.2 مليون في أعمال البناء والأعمال اليدوية. وقد بلغ مجموعهم 23% من السكان العاملين.[34] كما ازداد دخل النفط السنوي إلى 20 مليار دولار في عام 1977، وبات يشكل 79% من إجمالي الإيرادات الحكومية، و34% من إجمالي الناتج القومي.[35]

اضطُرّت الحكومة الإيرانية بين عامي 2006 و2012 لتنويع اقتصادها بعد العقوبات التي فرضتها عليها الولايات المتحدة والأمم المتحدة بسبب برنامجها النووي المثير للجدل، فأصبح

(*) طبقة اجتماعية تتألف من تجار الأسواق التقليدية العريقة في إيران [المترجم].

دخل إيران من النفط والغاز (41 مليار دولار في عام 2016)، يمثل 10 % من ناتجها المحلي الإجمالي البالغ 412 مليار دولار.[36]

ظلت السعودية تعتمد بشكل كبير على العمالة الأجنبية، وهو ما لم يحدث أبداً مع إيران. وفي عام 1977، بلغ دخل السعودية من النفط 21.5 مليار دولار، أي 28.9 % من الناتج المحلي الإجمالي. وفي عام 2016، شكّل قطاع النفط حوالي 87 % من إيراداتها و42 % من ناتجها المحلي الإجمالي، أي أربعة أضعاف الرقم الذي حققته إيران.[37]

وما يتقاسمه البلدان هو الدور المهيمن الذي يؤديه النفط في تشكيل تاريخ كل منهما، وقد بدأ إنتاجه بكميات تجارية في إيران أولاً ثم في المملكة العربية السعودية.

الملاحظات

1 ولما كانت السنة القمرية الإسلامية أقل من السنة الشمسية بـ 11 يوماً، فإن القرن الإسلامي يساوي 97 سنة شمسية.

2 Reporters Without Borders, 2017 RSF ranking, https://rsf.org/en/ranking

3 أما الدول الأخرى ذات الأغلبية الشيعية فهي أذربيجان والبحرين والعراق.

4 SIPRI, 5 April 2016, «World military spending resumes upward course, » http://www.converge.org.nz/pma/milexrel2016.pdf and http://www.sipri.org/

5 Democracy Index 2015, http://www. yabiladi.com/img/content/EIU-Democracy-Index-2015. pdf. The Index is composed of electoral process and pluralism, functioning of government, political participation, political culture and civil liberties.

6 Karen Elliot House, On Saudi Arabia: Its People, Past, Religion, Fault Lines—and Future, Alfred A. Knopf, 2012, p. 9.

7 Reporters Without Borders, 2017 RSF ranking, https://rsf.org/en/ranking

8 Karen Elliot House, On Saudi Arabia, p. 100.

9 يتم تجديد الكسوة كل عام.

10 مصطلح الوهّابية صاغه في الأصل الأتراك العثمانيون، أتباع المذهب الحنفي للإسلام السني.

11 بعد وفاة محمد بن إبراهيم آل الشيخ، بقي منصب المفتي العام، الذي يسمّيه الملك، شاغراً حتى عام 1993. لكن ولديه بقيا يديران وزارة العدل حتى عام 2009، ثم شغل عبد العزيز بن عبد الله بن باز منصب المفتي الأكبر منذ عام 1993 حتى وفاته بعد ست سنوات.

12 Sami Moubayed, Under the Black Flag: At the Frontier of the New Jihad, I. B. Tauris, London and New York, 2015, p. 29.

13 كلمة "إمام" تعني حرفياً النموذج والقدوة الذي ينبغي اتباعه.

14 بدأ التأريخ الإسلامي عند غروب شمس يوم 15 يوليو 622 م، بهجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة المنورة؛ يُشار إلى السنة الإسلامية بالسنة الهجرية. [تشير مصادر إلى إن الرسول الأكرم ص قد خرج من مكة يوم 13 أيلول-سبتمبر وليس في 15 يوليو]

15 For the narrative about the Ashura, see Dilip Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, Interlink Publishing Group, Northampton, MA, 2013, pp, 67–68.

16 Dilip Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 676.

17 Samra Hussain, 5 July 2014, «A Sunni Muslim prays at a Shia mosque,» http://www. nairaland.com/1800031/experience-sunni-muslim-woman-praying

18 Differences in Prayer between Sunni and Shia, http://people.opposingviews.com/shia-mosque-vs-sunni-mosque-9660.html

19 US State Dept Report on Human Rights in Saudi Arabia, http://www.state.gov/doc- uments/organization/171744. pdf

20 Robert Lacey, Inside the Kingdom: Kings, Clerics, Modernists, Terrorists, and the Struggle for Saudi Arabia, Arrow Books, London, 2010/Penguin Books, New York, 2010, p. 40).

21 Max Rodenbeck, «Unloved in Arabia, » New York Review of Books, September 30 2004. http://www.network54. com/Forum/242875/message/1096582797/Unloved+in+Arabia

22 Will Worley, Independent, 14 April 2016, «Saudi Arabia strips religious police of pow- ers of arrest and says they must be 'kind and gentle', » http://www.independent.co.uk/ news/world/middle-east/saudi-arabia-strips-religious-police-of-powers-of-arrest-and-says-they-must-be-kind-and-gentle-a6983816.html)

23 Dilip Hiro, Holy Wars: The Rise of Islamic Fundamentalism, Routledge, Abingdon and New York, 2013, pp. 110–111.

24 Awadh Al Badi, «Saudi-Iranian Relations: A Troubled Trajectory.» http:// futureislam. com/blog/saudi-iranian-relations-a-troubled-trajectory-2/

25 Dilip Hiro, Holy Wars: The Rise of Islamic Fundamentalism, Routledge, Abingdon and New York, 2013, p. 115.

26 Dilip Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, Interlink Publishing Group, Northampton, MA, 2013, pp. 681–682.

27 Education in Saudi Arabia, US Library of Congress, 1993, http:// countrystudies. us/saudi-arabia/31.htm

28 Ibid.

29 Dilip Hiro, Inside the Middle East, Routledge and Kegan Paul, London, 1982/McGraw Hill, New York, 1983, pp. 14–15.

30 U. S. Library of Congress, 1993, Population, Saudis and Non-Saudis, http://coun- trystudies.us/saudi-arabia/19.htm

31 Ali M. Ansari, Modern Iran Since 1921: The Pahlavis and After, Routledge, Abingdon and New York, 2007, p. 62.

32 Dilip Hiro, Iran Under the Ayatollahs, Routledge, Abingdon and New York, 2011, p. 53

33 Ibid., p. 61.

34 Ibid., pp. 60–61.

35 Misagh Parsa, Social Origins of the Iranian Revolution, Rutgers University Press, New Brunswick, NJ, 1989, p. 64.

36 World Bank Overview of Iran, 1 April 2017, http://www. worldbank.org/ en/coun-try/iran/overview

37 Forbes. com, December 2016, Saudi Arabia Profile, https://www.forbes. com/places/saudi-arabia/

الفصل الثاني

دور أمريكا والنفط في تشكيل كل من إيران والمملكة العربية السعودية

خلال رحلتي التي قطعت ثلاثة آلاف ميل عبر إيران في صيف عام 2004 تبين أن عبور جبال زاغروس كان بمنزلة درس جيولوجيا في الهواء الطلق، حيث تغير شكل سطح سلسلة الجبال من ذرات مغبرّة صفراء، إلى صخور داكنة اللون تتخللها بعض الشجيرات، إلى تربة مغطاة بأشجار الصنوبر، إلى صخور مستقرة من نوع صخر الأردواز، طبقة بعد طبقة، كقطع كبيرة من الجبن الصلب. وبالقرب من مدينة تُستُر(*)، تبدو الصخور الجبلية في معظمها رمادية اللون، وأحياناً حمراء. قلت لمرافقي في الرحلة، نعمت علي: «إنها تبدو كالجبن الأحمر»، فأجابني بصوت لم أستطع تبينه بينما كان يناور بخبرة على الطريق الضيق المتعرج المؤدي إلى مسجد سليمان -الرجل المقدس الشهير الذي عاش هناك ذات يوم- وهي بلدة يبلغ عدد سكانها 200 ألف نسمة، وغير بعيد عن المدينة يوجد مطار عسكري قريب.

وفي البلدة، استقبلني ميرزا جواد أحمدي، مدير العلاقات العامة في مقر شركة النفط الوطنية الإيرانية(NIOC) ، ثم اصطحبني رجل عريض المنكبين، متوسط القامة، ذو لحية داكنة، إلى موقع بئر النفط الرائد الذي يحمل لافتة باللغتين الفارسية والإنجليزية كتب عليها: "بئر مسجد سليمان رقم 1. أول بئر نفط في الشرق الأوسط".

ويتضمن الموقع بئر النفط، وآلة حفر يبلغ طولها 75 قدماً، بالإضافة لمحرك بخاري وآلة غلي، وجميعها مطلية حديثاً باللون الأزرق الداكن، وترتكز على منصة مرتفعة محاطة بسياج عالٍ، وخلف بوابة فولاذية منخفضة توجد بجانب الدرج المؤدي إلى منصة الحفر لافتة كبيرة كتب عليها بحروف زرقاء وحمراء باللغتين الفارسية والإنجليزية:

(*) هي مدينة إيرانية تقع شمال مدينة الأحواز التابعة لمحافظة خوزستان في جنوب غرب إيران وتبعد عنها حولي 81 كيلومتراً [المترجم].

"البئر رقم 1، مسجد سليمان، بدأ العمل فيه في 23 كانون الثاني-يناير 1908.
جرى الانتهاء حفر البئر واستخراج النفط في 26 أيار-مايو 1908،
العمق 1179 قدماً / 360 متراً".

يعود الفضل في هذا الاكتشاف الرائد إلى جورج برنارد رينولدز، وهو جيولوجي ومهندس بترول بريطاني. كان جورج طويل القامة، قوي البنية، ذا وجه سمين، ونادراً ما كان يُرى في الأماكن العامة دون غليونه وقبعته الشمسية، أو كلبه الصغير.

تمكن جورج من نقل معدات تزن 40 طناً من حقل جياسورخ بالقرب من الحدود العراقية الإيرانية إلى منطقة ميدان نفتى الجبلية، (تعني حرفياً: حقل النفط)، على بعد حوالي 330 ميلاً، وشحن المعدات أولاً إلى بغداد عن طريق البر، مستخدماً 900 بغل، ثم نقلها إلى البصرة بالقارب، بالقرب من مدينة خرمشهر في إيران، نحو المحطة ما قبل الأخيرة من الرحلة: قرية شاردين في ريف محافظة خوزستان الإيرانية. وقد استغرق الأمر سنة كاملة ليصل جورج مع رجاله إلى ميدان نفتى التي كان قد زارها في وقت سابق ليكتشف صخورها "المشبعة بالنفط". ومرت سنة أخرى قبل أن يصل الفريق إلى المواقع القريبة من مسجد سليمان.

أثناء مرحلة الحفر كان الجو حاراً جداً لدرجة أن جورج اضطر للنوم خارج خيمته في المعسكر بعيداً عن مواقع العمل الصاخبة حيث استمرت أعمال الحفر على مدار الساعة. وفي ليلة 25 أيار-مايو 1908، ذهب جورج للنوم في وقته المعتاد، لكنه استيقظ حوالي الساعة الرابعة صباحاً على ضوضاء صاخبة، استفاق على أصوات صرخات الرجال، وقعقعة الآلات، وصوت تدفق النفط في ارتفاع 50 قدماً فوق سطح البحر، فنهض جورج، وارتدى ملابسه بسرعة، واندفع إلى موقع العمل ليستمتع بكل لحظة.

كان عمق الحفرة أقل من 1200 قدم، أي ثلاثة أرباع العمق الذي افترضه مديروه في جلاسكو؛ وبذلك حفر جورج حقلاً مساحته 100 ميل مربع، وكان أكبر حقل في العالم جرى اكتشافه في ذلك الوقت، ويحتوي على قرابة ملياري برميل من النفط.[1]

مع بدء تنفيذ قرار الأميرالية البريطانية في آذار-مارس 1913 بالتحول من الفحم إلى النفط من أجل جعل سفنها الحربية أقوى وأسرع من السفن الألمانية، ازدادت أهمية النفط بشكل كبير. ولضمان إمدادات كافية للبحرية الملكية قررت الحكومة البريطانية الاستحواذ على حصة قدرها 51 % في شركة النفط الأنجلو-فارسية (APOC)، التي نشأت كشركة تابعة لشركة نفط بورما في غلاسكو في عام 1909. وبذلك حصل الأسطول الملكي على إمدادات

وفيرة من النفط من مصدر يقع فعلياً تحت السيطرة البريطانية. وهكذا بدأ الرابط بين النفط والقوات المسلحة، وسيزداد شدة وخطورة مع مرور الوقت.

أدركت بريطانيا أن استغلال موارد النفط الإيرانية من قبل شركة تسيطر عليها بريطانيا لن يكون سهلاً إلا عندما تكون هناك دولة مركزية قوية في إيران. وكان أحمد شاه قاجار حاكماً ضعيفاً، لذلك شجع البريطانيون العقيد رضا خان، قائد لواء نخبة القوزاق، للقيام بانقلاب ضد حكومة شاه قاجار المدنية، في شباط-فبراير 1921. وتمكن رضا من إجبار الملك على تعيين مرشحه رئيساً للوزراء، فأصبح رضاً وزيراً للحرب في الحكومة الأولى، ثم تولى بنفسه رئاسة الوزراء فيما بعد. ورفع رضا مكانته شعبياً عبر سحق التمردات القبلية منها وغير القبلية. وفي تشرين الأول-أكتوبر 1925، عزل المجلس قاجار، وعيّنه وصياً على العرش، وبعد شهرين أعلنت الجمعية التأسيسية المنتخبة حديثاً رضا خان بهلوي شاهاً لإيران.[2]

بعد أن عزز رضا شاه بهلوي سلطته في طهران اتبع سياسة صارمة تجاه شركة النفط الإيرانية (APOC)، التي دفعت 75 ألف دولار فقط (40 ألف جنيه إسترليني) لقاء الامتياز الأصلي الذي شمل مساحة شاسعة من الأراضي ولمدة ستين عاماً، ومقابل حصة صغيرة من الأرباح للحكومة.[3] ووقّع رضا اتفاقية جديدة مع الشركة تحت رعاية عصبة الأمم، وقد خفّضت هذه الاتفاقية مساحة امتياز الشركة بنسبة 80 % على مرحلتين. وفي عام 1935 جرى تغيير اسم الشركة آبكو (APOC) إلى شركة النفط الأنجلو-إيرانية (AIOC) . واستخدم رضا شاه بهلوي زيادة عائدات النفط لتحديث الاقتصاد والحد من نفوذ الملالي التقليدي من خلال تشجيع العلمانية.

تداعيات اكتشاف النفط في إيران على المنطقة

أثار نجاح بريطانيا في استخراج النفط من إيران اهتمام الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة. انحصرت جميع الامتيازات النفطية آنذاك في المحافظات الشمالية الخمس، وفشلت محاولات شركتي ستاندرد أويل أوف نيوجيرسي، إكسون الآن، في 1920-1921، وسنكلير أويل في عام 1923، لتأمين امتيازات نفطية في شمالي البلاد، فقد كان البريطانيون حريصين على إبعاد الأمريكيين والسوفييت.

أما في المملكة العربية السعودية، فقد كان ابن سعود يتوق بشدة لاستخراج النفط من منطقة الأحساء الشرقية، ففي شباط-فبراير 1933 طرح الملك امتيازات للتنقيب عن النفط تغطي 300 ألف ميل مربع من أراضي المملكة، وطالب بريع سنوي قدره 5000

جنيه إسترليني، وقرض فوري بقيمة 100000 جنيه إسترليني. وقد لقيت شركة نفط العراق (IPC)، المملوكة في معظمها لبريطانيا، منافسةً قوية من شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا (SOCAL). ولما كانت احتمالات وجود النفط في شبه الجزيرة العربية ضئيلة في نظر جيولوجيّي شركة نفط العراق، قدّمت شركة نفط العراق عرضها بالروبية الهندية بدلاً من الذهب الذي طالب به ابن سعود، وبذلك أخرجت نفسها ضمنياً من اللعبة.

ومع أن شركة سوكال وجدت أن طلب ابن سعود مبالغ فيه، لم تتردد في إرسال ممثل لها للتفاوض مع الملك بعد أن اكتشفت شركة نفط البحرين، التابعةُ لها، كمياتٍ من النفط في البحرين المجاورة في حزيران- يونيو 1932، وقد عُقدت الصفقة على يد أمين صندوق الملك، عبد الله سليمان.

وُلِد عبد الله لعائلة تمتهن التجارة، وتعلّمَ المحاسبة ومسك الدفاتر خلال عامين قضاهما في مومباي، وكان (سليمان) موهوباً في التعامل مع الأرقام، فأقنع ابن سعود بقبول سلفة قدرها 5000 جنيه إسترليني من الذهب مقابل تخصيص ريوع ثابتة لاحقاً عندما يجري استثمار النفط، وقرض بقيمة 30 ألف جنيه إسترليني. وفي 29 أيار-مايو 1933 شهد عبد الله سليمان توقيع عقد امتياز لمدة ستين عاماً، وكان حدثاً تاريخياً.

اشترت الشركة 35000 قطعة ذهبية من لندن مقابل 170,327 دولاراً، قامت شركة سوكال بنقلها على متن باخرة P&O، وصلت إلى ميناء جدة في 25 آب-أغسطس، وسلّمت النقود الذهبية إلى البنك السعودي الهولندي(*)، كفرع للشركة التجارية الهولندية، وكان المصرف الوحيد في المملكة آنذاك، وقام سليمان بعدّ الأموال يدوياً وهو جالس على طاولة المدير.[4]

أرسل مديرو سوكال إلى المملكة العربية السعودية الجيولوجيَّين روبرت ب. (بيرت) ميلر، وشويلر ب. (كروج) هنري اللذين كانا يعملان في البحرين آنذاك، وقد أطلقا لحيتيهما، وتعلّما اللغة العربية. وفي يوم 23 أيلول- سبتمبر، الذكرى الأولى لتأسيس المملكة، هبط الرجلان في قرية الجبيل الساحلية الهادئة، وقد ارتديا زِيَّ العرب البدو: قمصاناً طويلة، وعباءاتٍ خفيفةً، وأغطيةً قماشية للرأس.

قدّم ابن سعود فريق عمل مكوناً من سبعة أفراد، مع ثلاثين مرافقاً، وأربعة حداة للإبل. وتضمّنت وسائل نقل المؤسسة النفطية 25 جملاً للركّاب، و12 جملاً لحمل المعدات، والخيام،

(*) يعرف اليوم باسم "البنك الأول"، وقد انتهت أعماله يوم الأحد 14 آذار-مارس 2021، بعد اكتمال اندماجه مع بنك ساب [المترجم].

والأثاث، والمؤن. وشرع ميلر وهنري يبحثان عن مجموعة من التلال الجيرية، كما فعلا في البحرين، وانتهى المسح الاستكشافي الأول في حزيران-يونيو 1934.[5]

ركزت شركة كاليفورنيا أرابيان ستاندرد أويل (CASOC)، التابعة لشركة سوكال، البحثَ عند قبة الدمام، على بعد خمسة وستين ميلاً جنوبي الجبيل. وفي السنوات اللاحقة، حُفِرت سبع آبار استكشافية في المنطقة. وفي 4 آذار-مارس 1938 خرج النفط من البئر رقم 7 الموجود أعلى تل جبل الظهران، فجرى اختبار الاكتشاف أياماً عدّةً حيث استقر العائد اليومي للبئر على 3810 براميل.

ومن مقرها الرئيسي في سان فرانسيسكو أرسل مديرو شركة كاليفورنيا تكساس أويل -كالتكس لاحقاً (Caltex)[*]-برقية مفادها أنه لم تعد هناك حاجة لمزيد من الاختبار. وقد ترددت أصداء البهجة من مخيم الدمام إلى الرياض وسان فرانسيسكو، وَفقاً لما كتبته ماري نورتون في مجلة عالم أرامكو، احتفالاً بالذكرى الخمسين للاكتشاف التاريخي.[6]

لقد أدى النجاح التجاري الذي حققته شركة النفط الأمريكية إلى قيام وزارة الخارجية الأمريكية باعتماد ممثلها الدبلوماسي في مصر كرئيس للبعثة الدبلوماسية الأمريكية إلى المملكة العربية السعودية، وكانت تلك رسمياً بداية العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية. وظل ابن سعود محايداً في الحرب العالمية الثانية التي أدت بدورها إلى انخفاض حاد في أعداد الحجاج، ومن ثَمّ تدمير الموارد المالية للمملكة.

ناشد ابن سعود رؤساء سوكال وتكساكو للحصول على مساعدة مالية، وقد أدرك هؤلاء أن بإمكانهم تقديم المساعدة عبر قانون الإعارة والتأجير الصادر في آذار-مارس 1941. [**] ونتيجة لضغوطهم افتتحت إدارة فرانكلين روزفلت مفوضية من رجل واحد في جدة تحت قيادة جيمس موس كقائم بالأعمال في أيار- مايو 1942.

وفي اجتماع جرى بحضور ممثلين عن الشركتين، وبرعاية وزارة الخارجية، بهدف مناقشة سياسة النفط الدولية في منتصف شهر شباط-فبراير 1943، أقنع ممثلو شركتي تكساكو وسوكال المشاركين في الاجتماع بضرورة مساعدة ابن سعود وإبعاد المصالح النفطية البريطانية عن المملكة لضمان استمرار الاحتكار الأمريكي للصناعة النفطية هناك، كما أقنعوا وزير الداخلية آنذاك، هارولد إيكيس، بحكمة سياستهم.

(*) نتجت شركة كالتكس Caltex عن شراء شركة تكساس (التي سميت فيما بعد بتكساكو Texaco) نصف أسهم شركة كاسوك CASOC [المترجم].

(**)صدر هذا القانون تحت عنوان رسمي: "قانون تعزيز الدفاع عن الولايات المتحدة" [المترجم].

وخلال مأدبة غداء جرت يوم 16 شباط-فبراير ساد رأي الوزير إيكيس على رأي الرئيس روزفلت الذي كان مشككاً في جدوى مساعدة دولة ملكية مطلقة، بينما كان الحلفاء يقاتلون من أجل الديمقراطية في جميع أنحاء العالم. وبعد يومين وقّع على أمر تنفيذي جاء فيه: "ومن هنا فإنني أجد أن الدفاع عن المملكة العربية السعودية أمر مُهِمّ وحيوي للدفاع عن الولايات المتحدة"، مانحاً الإذن بتقديم مساعدة لحكومة المملكة العربية السعودية عبر قانون الإعارة والتأجير. وبعد فترة وجيزة، جرت ترقية البعثة الأمريكية في جدة، وعُيِّنَ العقيد ويليام إيدي، الذي يجيد اللغة العربية، برتبة وزير مفوض للولايات المتحدة.[7]

وفي أيلول-سبتمبر 1943 دُعي الأمير فيصل (مواليد 1904)، والأمير خالد (مواليد 1913) إلى واشنطن حيث نظم نائب الرئيس الأمريكي هنري والاس حفل عشاء لهما في البيت الأبيض، فأقاما في بيت الضيافة الرسمي، بلير هاوس، ثم زارا الساحل الغربي بقطار خاص وفرته لهما الحكومة.[8]

وبحلول ذلك الوقت، كانت كفة الحرب تميل بشكل حاسم لصالح الحلفاء، وخاصة في شمال أفريقيا.

التنافس بين شركات النفط البريطانية والأمريكية

خلال الحرب العالمية الثانية استمر التنافس بين شركات النفط البريطانية والأمريكية في الشرق الأوسط، وإنْ كان بوتيرة أخفض، رغم أن الدخل السنوي لشركة كالتكس كان ما يزال متواضعاً: مليونين و800 ألف دولار في عام 1944.

وفي واشنطن أوصى إيكيس بإجراء محادثات ثنائية للتوصل إلى تفاهم مع لندن بشأن النفط، لكن نتائج مناقشات اللورد هاليفاكس -سفير بريطاني في واشنطن- مع وزارة الخارجية الأمريكية كانت محبطة للغاية لدرجة أنه سعى للقاء روزفلت. وخلال محادثتهما في 18 شباط-فبراير 1944 عرض الرئيس روزفلت أمام محاوره رسماً تقريبياً للشرق الأوسط، وقال له: «النفط الفارسي لكم»، وأضاف: «ونحن نتقاسم النفط في العراق والكويت، أما النفط السعودي، فهو لنا».[9]

لقد كان لملك السعودية تاريخ طويل من العلاقات السياسية والعسكرية مع لندن، وهذا ما دفع روزفلت إلى إخفاء اجتماعه المخطط له مع ابن سعود خلال المؤتمر الذي جمعه مع كل من ونستون تشرشل وجوزيف ستالين في منتجع يالطا البحري السوفييتي في أوائل شباط-فبراير 1945.

سافر روزفلت والوفد المرافق له على متن طائرته الخاصة إلى منطقة قناة السويس في مصر، حيث كان الطراد الأمريكي يو إس إس كوينسي راسياً في البحيرة المُرَّة الكبرى(*)، وهناك التقى بالملك ابن سعود والوفد المرافق له قادمين من جدة على متن المدمرة الأمريكية يو إس إس مورفي، وأمضى الزعيمان في 14 شباط-فبراير خمس ساعات معاً تخللتها وجبة غداء، وتولّى الوزير الأمريكي العقيد إيدي، الذي يثق بابن سعود كثيراً، مهمة ترجمة الحوار الدائر خلال الاجتماع، وقد نشر إيدي مجريات هذا الاجتماع التاريخي في كتاب بعنوان: "روزفلت يلتقي ابن سعود" صدر عام 1954.[10]

ذكر ابن سعود، وهو يمشي بصعوبة متكئاً على عصاً، أن الاثنين كانا في العمر نفسه، ويعانيان من إعاقات جسدية، وأن إعاقته نتجت من تلقيه جروحاً في ساقيه خلال المعارك منعته من صعود الدرج، أما روزفلت، فقد جعله شلل الأطفال حبيس كرسي متحرك:

روزفلت: «أنت أكثر حظاً مني لأنه لا يزال بإمكانك المشي، بينما أُضطَر أنا للتنقل على الكرسيّ حيثما أذهب».

ابن سعود: «لا يا صديقي. أنت أكثر حظاً؛ فالكرسيّ يأخذك إلى أي مكان تريد الذهاب إليه، وأنت تعلم أنك ستصل إليه. أمّا أنا، فساقاي تزدادان ضعفاً كل يوم».

روزفلت: «إن كان هذا الكرسيّ يعجبك، فسأعطيك واحداً مثله، فلدي اثنان منه على متن السفينة».

قبل ابن سعود العرض رغم أن الكرسيّ كان صغيراً جداً بالنسبة لجسمه الكبير.[11]

وقد ناقشا موضوع النفط، وإقامة وطن لليهود في فلسطين، والمشهد ما بعد الحرب في المنطقة، وإنشاء قاعدة عسكرية أمريكية في الظهران وسط حقول النفط في الأحساء.

لقد تأثر ابن سعود بفظائع النازية ضد اليهود، حتى إنه في 1 آذار-مارس، بعد وقت قصير من عودته إلى الوطن، أعلن الحرب على ألمانيا؛ وبذلك حصل على مقعد للمملكة العربية السعودية في المؤتمر التأسيسي للأمم المتحدة في سان فرانسيسكو في نيسان-أبريل 1945. وقبل ذلك بشهر كان له دور فعال في إنشاء جامعة الدول العربية، وهو مشروع ظهرت فكرته في لندن، وأنشئ في القاهرة.(**)

(*) تقع البحيرة في منتصف قناة السويس بين البحر المتوسط والبحر الأحمر [المترجم].

(**) إلى جانب المملكة العربية السعودية، كان الأعضاء المؤسسون الآخرون هم: مصر، العراق، لبنان، اليمن الشمالي، سورية [المترجم].

أسس اجتماع ابن سعود-روزفلت لإقامة توافق سعودي أمريكي يضمن استمرار هيمنة الشركات الأمريكية على صناعة النفط مقابل حماية واشنطن للمملكة العربية السعودية، ولا يزال هذا التوافق صامداً منذ ذلك الحين، وقد تغلب على عدة نقاط حرجة، كان آخرها الهجمات الإرهابية التي وقعت في نيويورك وواشنطن العاصمة في أيلول-سبتمبر عام 2001.

وحدثت قفزة في إنتاج النفط السعودي بعد الحرب العالمية الثانية بين عامي 1945 و1949 بمقدار عشرة أضعاف، وأدى ذلك إلى ارتفاع الإيرادات السنوية إلى 115مليون دولار، ولم يكد عدد سكان المملكة يزيد عن 3 ملايين نسمة إلا بقليل[12]، وكان هذا نتيجة شراكة أرامكو مع شركتي ستاندرد أويل شركة نيو جيرسي (إكسون لاحقاً)، وستاندرد أويل في نيويورك (موبايل لاحقاً)، في عام 1948.

وفي وقت لاحق من ذلك العام، حققت شركة أرامكو أعظم اكتشاف لها: حقل الغوار الذي تبلغ مساحته 3300 ميل مربع، وتقدر احتياطياته بأكثر من 100 مليار برميل، وهو رقم قياسي عالمي. وبعد سبعة عقود أصبح إنتاج الحقل، 5 ملايين برميل يومياً، يمثل أكثر من نصف إجمالي إنتاج النفط السعودي.[13]

انتهت مرحلة تأسيس المملكة بوفاة ابن سعود في 9 تشرين الثاني-نوفمبر 1953. لقد تصرف ابن سعود كحاكم مستبد لكونه زعيماً قبلياً متسلطاً وقائداً عسكريّاً ناجحاً؛ ففي أعقاب الارتفاع الكبير في إنتاج النفط بعد الحرب أدى الازدهار الاقتصادي إلى إرهاق مؤسسات الدولة السعودية البدائية، التي كان يشرف عليها هو ومساعدوه المقرّبون فقط، ومع ذلك لم يقم ابن سعود بتعيين مجلس وزراء إلا في تشرين الأول- أكتوبر 1953، برئاسة ابنه الأكبر، سعود، وكان للمجلس مجرد صفة استشارية.

تزوج ابن سعود اثنتين وعشرين مرة -مع إبقاء عدد الزوجات أربعاً بما يتماشى مع الشريعة الإسلامية- وأنجب 44 ابناً، بقي منهم 35 على قيد الحياة بعده، وكان عدد أبنائه وفيراً جداً لدرجة أنه حتى بعد 62 عاماً من وفاته بقي العرش بيد واحد منهم، وهو الملك سلمان.

النفط يغير وجه السياسة الإيرانية

بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، في أيلول-سبتمبر 1939، أبقى رضا شاه بهلوي إيران على الحياد. رأى الحلفاء أن غزو ألمانيا النازية للاتحاد السوفييتي في حزيران-يونيو 1941 كان جزءاً من خطة الكماشة، وكانت ذراع الكماشة الأخرى هي التوغل الألماني في شمالي أفريقيا.

وفي أواخر آب-أغسطس قامت القوات السوفيتية والبريطانية بتنسيق غزوها لإيران، مع

دخول السوفييت إلى المقاطعات الشمالية لأذربيجان وخراسان. وفي أيلول-سبتمبر أجبرت القوتان الملك [الشاه] على التنازل عن عرشه لابنه محمد رضا، وقد نشأ محمد رضا في كنف أب متسلط.

ولتشجيع الاتحاد السوفييتي على سحب قواته من أذربيجان، مع نهاية الحرب في أيار-مايو 1945، أبرم رئيس الوزراء أحمد قوَّام السلطنة اتفاقاً مع موسكو لتشكيل شركة نفط سوفييتية إيرانية مشتركة بحصة أرباح سوفييتي بلغت نسبة 51 %، وقد وَقعَ الاتفاق محمد رضا شاه بهلوي. وسحب الكرملين قواته من أذربيجان في الشهر التالي على أن يقوم البرلمان أو المجلس بالتصديق النهائي على الاتفاق بحلول شهر تشرين الأول-أكتوبر. وبدعم من الولايات المتحدة قمعت القوات الإيرانية حكومتي الحكم الذاتي القائمتين في كردستان وأذربيجان في كانون الأول-ديسمبر؛ وعندها فقط تمكن الشاه من بسط سلطته على كامل إيران.

وبسبب تعمد إطالة أمدِ انتخابات المجلس الخامس عشر تأخر عرض الاتفاقية مع الاتحاد السوفييتي للتصديق النهائي حتى شهر تشرين الأول-أكتوبر 1947. وفي النهاية رفضها النواب بأغلبية 102 صوتاً مقابل صوتين. ولم يكن رفض المجلس للاتحاد السوفييتي سوى جزء من القانون ذي البنود الخمسة الذي أقره المجلس آنذاك؛ فقد طالب البند الأخير منه الحكومةَ باتخاذ الإجراءات اللازمة لتأمين "الحقوق الوطنية... فيما يتعلق بثروات البلاد الطبيعية، بما في ذلك نفط الجنوب".[14] وكان هذا القانون بمنزلة البذرة الأولى لحركة التأميم الكامل لقطاع النفط وجلب السياسي القومي محمد مصدق إلى السلطة.

وفي عام 1947 اشتعل الرأي العام الإيراني أكثر فأكثر ضد شركة النفط الأنجلو-إيرانية (أيوك) عندما أعلنت تحقيق أرباح قدرها 40 مليون جنيه إسترليني (112 مليون دولار)، مع حصول إيران فقط على 7 ملايين جنيه إسترليني كريوع. وكانت الشركة تبيع النفط الإيراني للبحرية الملكية بخصم كبير لأن بريطانيا كانت المالك الأكبر لشركة النفط الإيرانية.[15]

لقد كانت الظروف المعيشية للإيرانيين العاملين في مصفاة النفط التابعة لشركة النفط الإيرانية في عبادان صادمة. كذلك وصفها مانوشير فارمانفارمايان خبير النفط الإيراني الذي ذكر أن «أجورهم كانت 50 سنتاً في اليوم»، وأنه «لم يكن هناك إجازات مدفوعة، ولا إجازة مرضية، ولا تعويض عجز بسبب العمل. كان العمال يعيشون في مدينة من أكواخ الصفيح تسمى كاغاز آباد، أو مدينة الورق، بدون مياه جارية ولا كهرباء... كانت رائحة الكبريت الكريهة المنبعثة من النفط المحترق تملأ أركان المدينة، فقد كانت الشركة تستهلك 20 ألف

برميل يومياً: مليون طن سنوياً لتشغيل المصفاة، دون أن تدفع للحكومة سنتاً واحداً مقابل هذا النفط. في كاغاز آباد لم يكن هناك أي مرافق: لا مقهى، ولا حمام، ولا شجرة واحدة، وكانت الأزقة غير المعبدة تعج بالفئران».[16]

كان هذا هو الحال قبيل إضرابات عمال النفط التي نظمها حزب توده الإيراني، حزب الطبقة العاملة الإيرانية في عام 1946، وكان لحزب توده في المجلس ثمانية مقاعد و24 عضواً متعاطفاً. وجاءت أولى المطالبات بتأميم النفط من قبل الجبهة الوطنية، وهو ائتلاف شُكِّل في عام 1949.[*] وكان أحد مؤسسي ائتلاف الجبهة الوطنية، محمد مصدق، قد انتُخب لعضوية المجلس في شباط-فبراير 1950، وقد أكسبه تأكيده ضرورة تأميم شركة النفط الأنجلو-إيرانية AIOCشعبية معتبرة.

وبحلول أواخر نيسان-أبريل 1951 كان المجلس ومجلس الشيوخ قد أقرا مشروع قانون تأميم النفط، وأوضحا تفاصيل استيلاء شركة النفط الوطنية الإيرانية المنشأة حديثاً (NIOC) على شركة النفط الأنجلو-إيرانية، بما في ذلك امتيازها النفطي الذي يغطي مساحة واسعة من إيران. وعندما اختار المجلس محمد مصدق رئيساً للوزراء في 28 نيسان-أبريل 1951 بأغلبية 79 صوتاً مقابل 12، قبل الشاه على مضض تعيينه في هذا المنصب الرفيع. وفي 1 أيار-مايو، أصبح مشروع قانون تأميم النفط قانوناً نافذاً، وتولى مصدق مهمة تشكيل الحكومة التالية.

وسرعان ما استجابت معظم الدول الغربية لدعوة بريطانيا لمقاطعة النفط الإيراني؛ ونتيجة لذلك انخفضت عائدات طهران من صادرات النفط في عام 1951 من 45 مليون دولار في العام السابق بمقدار النصف، وقد كانت عائدات تصدير النفط تمثل سبعة أعشار عائدات التصدير الإيرانية.

وما إن قام مصدق بطرد آخر موظف بريطاني من شركة النفط الوطنية الإيرانية، في تشرين الأول-أكتوبر 1952، حتى تعاقدت موسكو على شراء النفط من شركة النفط الوطنية الإيرانية، كما وقعت موسكو اتفاقية تجارية مع إيران.[17] ولكن مصدق -وهو مناهض قوي للشيوعية- امتنع عن تعزيز العلاقات الاقتصادية مع موسكو خوفاً من أن تؤدي هذه الخطوة إلى تدمير أي فرصة للحصول على مساعدات اقتصادية وعسكرية من واشنطن، وقد كان مصدق في أمسّ الحاجة إليها للحفاظ على معيشة 19 مليون إيراني.

ولما كان ديمقراطياً ودستورياً، ظل مصدق متفائلاً حتى النهاية بإمكانية فصل علاقاته مع

(*) لم يكن لحزب تودة الشيوعي ممثلين داخل مجلس النواب الإيراني بل متعاطفين معه فقط، كونه كان محظوراً بشكل رسمي، أما الثمانية المشار إليهم فهم أعضاء كتلة الجبهة الوطنية النيابية [المركز].

الولايات المتحدة عن علاقاته ببريطانيا، وكذلك إمكانية تحقيق هدفه بتدمير هيمنة بريطانيا الاقتصادية على إيران بمساعدة الولايات المتحدة، ولكن ثبت أن ذلك كان مجرد حلم كاذب.

ولسد الفجوة في إمدادات النفط إلى الغرب زادت شركة أرامكو في السعودية إنتاجها، مما أسعد ابن سعود، خاصة بعد أن استمرت أزمة تأميم النفط الإيراني لأكثر من عامين. لقد ثبت أن خسارة إيران هي مكسب للسعودية.

ولمواجهة تضاؤل عائدات النفط سعى مصدق للحصول على سلطات طارئة من المجلس الذي وافق في النهاية على منحه إياها، ولكن سرعان ما أدى أسلوب حُكم مصدق المتشدد إلى تنفير العديد من الإيرانيين. وبلغت الأزمة المتفاقمة ذروتها في صراع على السلطة بينه وبين الشاه ربحه مصدق في النهاية، وفرّ الشاه وزوجته فرح ديبا إلى روما في 16 آب-أغسطس1953.(*)

لكن مدة إقامة الشاه في روما لم تدم طويلاً، فبعد ثلاثة أيام فقط من وصوله إلى روما، قامت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) بالتعاون مع جهاز المخابرات البريطانية (MI6) وضباط الجيش الملكي الإيراني، بانقلاب ضد مصدق وعاد الشاه إلى إيران. كان أفراد العائلة المالكة السعودية سعداء برؤية الشاه يعود إلى عرشه. وقام خليفة ابن سعود، الملك سعود (حكم من 1953 إلى 1964)، بزيارة إلى نظيره الإيراني في عام 1955.

الشاه يصبح الشخصية الأعلى في إيران

ومع عودة الشاه إلى إيران بدأت مرحلة تاريخية حلّت فيها الولايات المتحدة محل بريطانيا من حيث هي القوة الغربية المهيمنة. وفي الفترة ما بين آب-أغسطس 1953، وكانون الأول-ديسمبر 1956 زودت واشنطن إيران بمساعدات عسكرية واقتصادية بقيمة 414 مليون دولار.(18)

لقد اكتسبت الولايات المتحدة نفوذاً بارزاً في كل من إيران والمملكة العربية السعودية. ودخل آلاف الأميركيين المدنيين والعسكريين إلى إيران، وهو تطور استاء منه القوميون، والعلمانيون، والمتدينون على حد سواء.

بناءً على نصيحة واشنطن أبقى الشاه على قانون تأميم النفط، ولكنه قلل من دور شركة

(*) لم يكن الشاه محمد رضا بهلوي سنة 1953 قد اقترن بعد بزوجته الثالثة والأخيرة (فرح ديبا)، وإنما حصل ذلك سنة 1959. أما الزوجة التي كانت على ذمته حينذاك فهي ثريا إسفنديارى [المركز].

النفط الوطنية الإيرانية. وفي عام 1954 قام الشاه بتأجير حقوق النفط الإيراني وإدارة قطاع النفط للسنوات الخمس والعشرين التالية إلى كونسورتيوم غربي وفق النسب التالية: شركة النفط الإيرانية40 (AIOC) %، وشركة رويال داتش شل 14 %، وخمس شركات نفط أمريكية كبرى (إكسون، وجلف، وموبيل، وسوكال، وتكساكو) 8 % لكل منها، و6 % للشركة الفرنسية للبترول. وبعد ذلك بعامين قفز الدخل النفطي الإيراني من 34 مليون دولار في الفترة 1954-1955 إلى 181 مليون دولار. ومع حصول الدولة على مثل هذه المبالغ الضخمة، ازداد الفساد، كما ازدادت ثقة الشاه وطموحه المتعاظم في الاستيلاء على كل السلطات، وبدأ يقيل رؤساء الوزراء حسبما شاء.

وفي عام 1955، وتمهيداً لتأسيس جهاز السافاك للأمن القومي والاستخبارات، شكّل الشاه قوة شرطة سياسية تحت قيادة ضباط عسكريين بهدف جمع المعلومات الاستخبارية وقمع المعارضة. وقد أضفى القانون الذي صدر في آذار-مارس 1957 طابعاً رسمياً على ترتيبات الشاه الخاصة، حيث أُلحِق جهاز السافاك بمكتب رئيس الوزراء، ومُنِح رئيسه منصب نائب رئيس الوزراء. وقد حافظ الجهاز على صلات وثيقة مع وكالة المخابرات المركزية، التي تولت مهمة تدريب موظفيه، وكذلك مع وكالة الاستخبارات الخارجية الإسرائيلية: الموساد.

وبحلول عام 1957 كان الشاه قد سحق حزب توده وكذلك جميع ناخبي الجبهة الوطنية بزعامة مصدق، ولكن خلع ضباط وطنيين جمهوريين للملك العراقي فيصل الثاني في تموز-يوليو 1958 الذي أدى لنهاية النظام الملكي الموالي للغرب في العراق، أثار قلق الشاه.

دعا الشاه الرئيس دوايت أيزنهاور (حكم من عام 1953 إلى عام 1961) لتوقيع اتفاقية دفاع مشترك، ولكن أيزنهاور وافق على توقيع اتفاق تنفيذي أكثر محدودية لمساعدة الشاه في مواجهة "العدوان المسلح العلني من أي دولة تسيطر عليها الشيوعية الدولية" إذا تعهد الشاه بإنفاق المساعدات الأمريكية غير العسكرية على التنمية الاقتصادية بدلاً من واردات السلع الاستهلاكية، وتحرير النظام السياسي.[19] وقد مهّد هذا الطريق لظهور سياسة حزبية تسيطر عليها الدولة في عام 1959، مع ظهور حزب حاكم سمي حزب ملّيون أو (حزب القوميين)، وحزب مردوم المعارض (حزب الشعب).[20]

في آذار-مارس 1959 أنشأت اتفاقية التعاون العسكري بين طهران وواشنطن قنوات رسمية للتعاون الوثيق بين البلدين في مجال الاستخبارات العسكرية، وبحلول نهاية ذلك العام أصبحت الولايات المتحدة منخرطة في جوانب الحياة الإيرانية كافةً باستثناء الدين، فأصبحت سفارة الولايات المتحدة في طهران مركزاً مهماً للسلطة مثل بلاط الشاه. أما في

السياق الإقليمي، فقد غدت طهران متحالفة مع واشنطن في مجال الدفاع كما حدث مع الرياض قبل قرابة عقد من الزمن.

الروابط العسكرية السعودية الأمريكية

مع استئناف صادرات النفط السعودي في عام 1946 وصل وفد استشاري عسكري أمريكي إلى الرياض لإعادة تنظيم جيش ابن سعود النظامي بعد منح الأخير عقد إيجار، لمدة خمس سنوات، لمطار الظهران العسكري للبنتاغون. وفي عام 1950 نُشرت أول مهمة للقوات الجوية الأمريكية في قاعدة الظهران، وحصل البنتاغون، في العام التالي، على عقد إيجار آخر لمدة خمس سنوات لقاعدة الظهران الجوية. ولكن، نظراً لحساسية موقفه تجاه المدّ القومي العربي المتصاعد في المنطقة وفي بلاده، سمح الملك سعود بإنهاء اتفاقية الظهران في عام 1956، وشرع بتجديدها على أساس شهري.

أمّا على صعيد النفط -وعلى غرار فنزويلا- فإن المملكة العربية السعودية حقّقت صيغة تقاسم لدخل النفط بنسبة 50:50 مع شركة أرامكو، فأدى ذلك إلى زيادة دخلها النفطي من 39 مليون دولار إلى 110 مليون دولار في عام 1951.[21]

وبعد أن ضغط الرئيس أيزنهاور على بريطانيا وفرنسا لإخلاء الأراضي المصرية التي احتلتها خلال حرب السويس عام 1956 بين مصر والتحالف الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي، وقّع سعود اتفاقية تعاون عسكري جديدة مع الولايات المتحدة في شباط-فبراير 1957، ووافق البنتاغون على المساعدة في مضاعفة قوات الجيش السعودي إلى 15.000 جندي، وإضافة قوات بحرية وجوية إلى القوات المسلحة الملكية مقابل الحصول على عقد إيجار لمدة خمس سنوات لقاعدة الظهران الجوية.

لقد باتت الولايات المتحدة الآن منخرطة بشكل كامل في الجغرافيا السياسية لمناطق توزع النفط. وفي أعقاب تدفق الأسلحة الأمريكية وغيرها من المساعدات العسكرية إلى الخليج، أنشأت البحرية الأمريكية لها وجوداً بحرياً دائماً في البحرين في أوائل عام 1949[22]، وكان هدفها الأساسي هو حماية إمدادات النفط إلى الغرب.

وبسبب الحرب الباردة المستمرة بين الكتلة التي تقودها واشنطن والكتلة التي تقودها موسكو ازداد اهتمام البنتاغون بإيران، التي تتقاسم حدوداً مشتركةً طويلةً مع الاتحاد السوفيتي، أكثر من اهتمامه بالمملكة العربية السعودية.

حرب السنوات الست الملكية في الرياض

عند اعتلائه العرش، وبناءً على توجيهات ابن سعود قبل عشرين عاماً، عيَّن الملك سعود شقيقه الأصغر فيصل البالغ من العمر تسعة وأربعين عاماً ولياً للعهد، فأصبح أقرب وريث للعرش، على افتراض أن الولاء العائلي يترسخ أكثر عبر إقامة شراكة عائلية بدلاً من وجود زعيم وحيد.

لقد تميز فيصل بن عبد العزيز آل سعود بكونه أول فرد من عائلة آل سعود يزور لندن كضيف رسمي، وذلك إبان دعوة الحكومة البريطانية ابن سعود إلى لندن تقديراً للمساعدة التي قدمها لبريطانيا ضد الأتراك من عام 1917 فصاعداً، وقدمت له معونة سنوية قدرها 77 ألف جنيه إسترليني.[23] ولكن، لما كان ابن سعود مشغولاً في الاستعداد للاستيلاء على منطقة عسير على طول البحر الأحمر، أرسل ابنه فيصل إلى بريطانيا بالنيابة عنه، وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاماً، فقضى الأمير المراهق خمسة أشهر في بريطانيا، والتقى هناك بالملك جورج الخامس.[24]

وهكذا تأثر فيصل خلال فترة مراهقته بجوانب عِدّةٍ من الحياة الغربية مثل شرب الكحول وممارسة الجنس خارج إطار الزواج. واستمرت تجاوزاته للتعاليم الإسلامية حتى منتصف عمره، وكان محمياً بجدار من الحراس الشخصيين وفريق من المساعدين المخلصين. وعَقِبَ عودته إلى الوطن اختاره والده ليكون محارباً شجاعاً. وحين أثبت همته في ساحة المعركة عُيَن نائباً للملك على منطقة الحجاز في أوائل عام 1926.

وخلال زيارته الثانية إلى لندن في الخريف أسس لمعاهدة صداقة لمدة سبع سنوات مع بريطانيا، ووقع ابن سعود على تلك المعاهدة في أيار-مايو 1927. وبعد خمس سنوات أرسله والده في مهمة دبلوماسية أخرى إلى موسكو، وهناك نجح في إقناع رئيس الوزراء السوفييتي جوزيف ستالين بالسماح للمسلمين في الاتحاد السوفييتي بأداء فريضة الحج في مكة.[25] ولكن عندما أصبح فيصل العاهل السعودي، اتبع سياسات معادية للسوفييت والشيوعية في جميع أنحاء العالم.

وفي أيلول-سبتمبر 1943 أصبح فيصل، برفقة شقيقه الأصغر خالد، أول فرد من العائلة المالكة السعودية يزور الولايات المتحدة كضيف رسمي. وكوزير للخارجية قاد فيصل الوفد السعودي في المؤتمر التأسيسي للأمم المتحدة الذي استمر لمدة شهرين في سان فرانسيسكو في نيسان-أبريل 1945. وفي كانون الثاني-يناير 1946 مثل المملكة العربية السعودية في الجلسة الافتتاحية للجمعية العامة للأمم المتحدة في وسط لندن، ولكن حين جاء وقت كلمته تعذَّر العثور عليه! وبعد بحث الشرطة عنه عثروا عليه في بيت للدعارة في غربي لندن.[26]

وبصفته ولي العهد في الرياض شعر فيصل بخيبة أمل عندما لاحظ أن شقيقه الأكبر الملك سعود احتفظ لنفسه بمنصب رئاسة الوزراء. على أن سعود لم يستطع التعامل مع التعقيدات المالية والإدارية الناجمة عن النمو الحاد في عائدات النفط الناجم بدوره عن زيادة الطلب على النفط السعودي بعد أزمة تأميم النفط في إيران من 1951 إلى 1953.

لقد كان سعود مسرفاً فيما يتعلق بنفقاته الشخصية؛ فقد بنى مجمع قصور الناصرية على مشارف الرياض، وأحاط المجمع بسور بارتفاع سبعة أميال يُضاء ليلاً بآلاف المصابيح الكهربائية الملونة لحراسة القصر. وبجانب القصر الملكي الواسع والمكيف، الذي يحتوي على قاعة استقبال خاصة تستوعب 500 شخص، احتوى المجمع على العديد من المباني المكيفة الأصغر حجماً لزوجات سعود الأربع والعديد من زوجاته السابقات، وسط الحدائق وبساتين النخيل والنوافير التي تسحب المياه من الآبار الارتوازية التي حفرها الأمريكيون. ويحتوي القصر أيضاً على إشارات مرور لتنظيم تدفق مئات سيارات كاديلاك المكيفة. تجاوزت الطاقة اللازمة لإضاءة قصور وأراضي المجمع وريّها وتبريدها ما يكفي لاستعمال 150.000 شخص من سكان الرياض.[27]

واصل سعود عادة والده ابن سعود في صرف النقود كما يشاء دون وجود نظام محاسبي. وبعد حل أزمة النفط الإيرانية عام 1954، والانخفاض اللاحق في دخل الرياض النفطي، تدهورت الحالة المالية للمملكة. وبحلول عام 1955 غدا إدمان سعود على الكحول حديث الناس في الدائرة الدبلوماسية. وفي أواخر عام 1957 أدت معاقرته المفرطة للشراب إلى تفاقم مشاكل معدته وارتفاع ضغط الدم لديه، فلم تعد ساقاه المترهّلتان تستطيعان حمل وزنه الزائد بسبب ضعف الدورة الدموية، كما أصبح قصر محظِيّاته والعديد من ذريته مدعاةً للتعليقات السلبية.

لقد أدت ممارسات سعود إلى ظهور أزمة اقتصادية في البلاد، مع غياب الميزانية، وتوقفٍ فعليٍّ لإدارة الدولة في أوائل عام 1958، وبعد ذلك بوقت قصير تلطخت سمعته إثر كشف مؤامرته الفاشلة لاغتيال الرئيس المصري جمال عبد الناصر -عميد القوميين العرب ذي الشخصية الجذابة الذي تجاوزت شعبيته حدود دولته- أثناء زيارته إلى دمشق في 24 شباط-فبراير 1958، وقد ألحق ذلك أضراراً بالغة بمكانة المملكة العربية السعودية في المنطقة وخارجها. أما في الداخل، فقد شكلت هذه الظروف المبرر الذي كان يبحث عنه أفراد آخرون في العائلة المالكة، فدعوا لنقل كامل صلاحيات سعود الداخلية والخارجية والمالية إلى ولي العهد الأمير فيصل، وأُعلن ذلك بعد أيام في إذاعة مكة.

يبدو أن سن فيصل، إذ كان في منتصف العمر، ومظهره الخارجي منحاه طابعاً صارماً وقاسياً يتناسب مع صورته المعروفة للعامة كرجل مسلم تقي زاهد ومخلص. وفي الواقع، كان وجهه الماكر علامة على انحلاله وتجاوزِه لتعاليم الإسلام التي تحرِّم شرب الخمر وممارسة الجنس خارج نطاق الزواج منذ أيام شبابه خلال مهامه الرسمية في الخارج وحتى منتصف عمره.

وفي عام 1957 أمضى فيصل فترة ستة أشهر في أمريكا أجرى خلالها عمليتين جراحيتين كانت إحداهما لإزالة قرحة في المعدة. واضطر بعد ذلك إلى الإقلاع عن الشرب، وتحول إلى تناول الطعام المسلوق غير اللذيذ.

وعند توليه زمام السلطة قلّص فيصل الميزانية بشكل كبير، وفرض إجراءات تقشف، بينما عكف سعود على تمويل مشاريع شعبية لتبييض صفحته لدى القبائل من أمواله الخاصة، ووعد بتشكيل حكومة تمثيلية، مما أدى إلى تآكل دعم فيصل الشعبي لدرجة أنه استقال من رئاسة الوزراء في كانون الأول-ديسمبر 1960، ولكن هذا لم يضع حداً للحرب الملكية الضروس.

في أيلول-سبتمبر 1960، وفي خضم هذا الصراع، التقى ممثلو المملكة العربية السعودية مع نظرائهم، من إيران والعراق والكويت وفنزويلا في بغداد، لتشكيل منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) لتحقيق أقصى استفادة من موارد بلدانهم النفطية من خلال تنسيق سياساتها الهيدروكربونية. ورغم أن وكالة المخابرات المركزية في البداية أولت اهتماماً ضئيلاً بولادة منظمة أوبك، ولم تخصص لها سوى أربعة أسطر فقط في تقريرها، فقد أصبحت في العقود التالية تلعب دوراً مهماً في الاقتصاد العالمي.

وشكّل الملك سعود حكومة جديدة في الرياض، ونصّب نفسه رئيساً للوزراء، واستمر هذا لمدة عام قبل أن يجبره تدهور حالته الصحية على السفر للعلاج في الخارج، فتولى فيصل زمام المسؤولية تحت ضغط من كبار الأمراء.

كان عام 1962 عاماً حاسماً في مسيرة آل سعود؛ فقد اقترح الأمير طلال، الابن الخامس والعشرون لابن سعود، إنشاء مجلس وطني في عام 1958، ولكن دون جدوى. ورغم تصريح عبد الناصر أنه «من أجل تحرير القدس، يجب على الشعوب العربية أولاً تحرير الرياض»[28]، فقد انشق الأمير طلال وهرب إلى القاهرة، وكان ذلك في أوائل عام 1962. وفي الرياض أعرب عبد المحسن، الأخ غير الشقيق لطلال، عن تأييده لدعوة طلال لتحويل السعودية إلى ملكية ديمقراطية دستورية، إلا أن اقتراحه هذا لم يلق آذاناً صاغية، فراح يبث خطابات مناهضة للملكية عبر إذاعة القاهرة.

أدى الانقلاب الجمهوري في شمالي اليمن في أيلول-سبتمبر 1962 إلى رفع معنويات القوى الليبرالية والديمقراطية في المملكة العربية السعودية؛ فانشق تسعة طيارين سعوديين، وهربوا بطائراتهم إلى شمالي اليمن، في حين قام طلال بتشكيل حكومة سعودية في المنفى.

وفي تشرين الثاني-نوفمبر 1962 قرر مجلس كبار الأمراء (أثناء غياب سعود الذي كان يعالج في الولايات المتحدة) منح فيصل السلطة التنفيذية العليا، وأعلن فيصل على الفور برنامجاً من عشر نقاط. وإلى جانب وعده بصياغة دستور مكتوب وتأسيس مجلس شورى، تضمن برنامجه تعزيز لجان الأخلاق العامة، وزيادة استثمار رأس المال، والنمو الاقتصادي. وقد لاقى برنامجه ذاك ترحيباً من مختلف شرائح المجتمع.

وبعد أن حشد كل هذه القوى أصدر فيصل في آذار-مارس 1964 وثيقة إنذار نهائي ذكر فيها أنه ينوي الاحتفاظ بالسلطة الكاملة، ويريد أن يُسمى وصياً على العرش، وأن يصبح دور سعود شرفياً بحتاً. وقد سُلمت الوثيقة إلى العاهل السعودي من قبل المفتي العام محمد بن إبراهيم آل الشيخ، أعلى مرجعية دينية، وقريب والدة فيصل طرفة بنت عبد الله آل الشيخ.

رفض سعود كل ما جاء في المذكرة، فتصاعدت التوترات، وبلغت ذروتها مع المواجهات التي دارت بين الحراس الموالين للملك سعود ورئيس الوزراء فيصل، والتي انتصر خلالها أنصار فيصل. وقد آثر العلماء، وعلى رأسهم المفتي العام، منح السلطات التنفيذية لفيصل مع بقاء لقب الملك بيد سعود، ولكن سعود لم يتقبل دوره الجديد كرئيس صوري.

وفي 29 تشرين الأول-أكتوبر اجتمع كبار العلماء برئاسة المفتي في الرياض، كما اجتمع أبناء ابن سعود الثلاثون، وأحفاده الخمسة عشر بشكل منفصل في فندق قصر الصحراء، وخلصت كلتا المجموعتين إلى أن فيصل يجب أن يكون الملك الجديد. ثم سافر وفدٌ صغير من رجال الدين والأمراء لرؤية فيصل الذي كان يخيم شمالي العاصمة لينقلوا له قرارهم بالإجماع، فسألهم فيصل إن كانوا قد استنفدوا كل الوسائل لإقناع سعود بالتنازل عن العرش، فلمّا أكدوا له أنهم فعلوا، أعلنوه ملكاً عليهم.

وعقب عودتهم إلى الرياض سعوا للقاء سعود، لكنه رفض. وخلال الأيام الثلاثة التالية أقسم القادة العسكريون، وزعماء القبائل، وحكام المحافظات يمين الولاء لفيصل، ثم اقتحم محمد بن عبد العزيز، أكبر الأمراء بعد فيصل، قصر سعود، وحذره من أنه إن لم يتنح، فستُصادر أملاكه، وسيوضع تحت الإقامة الجبرية.

تجاهل سعود تحذيرات محمد بن عبد العزيز، وأمر الحرس الملكي الموالي له بمحاصرة مقر إقامة فيصل، فأمر فيصل بدوره الحرس الوطني السعودي الأقوى بكثير بمحاصرة قوات

سعود. وفي النهاية استسلم الحرس الملكي، وأصدر العلماء فتوى بنقل السلطات التنفيذية إلى فيصل مع احتفاظ سعود بلقب الملك، وعندئذ فقط وقّع سعود على مرسوم تنازله عن العرش[29]، وسافر إلى منفاه في أثينا باليونان.

ضمّت قوات الحرس الوطني، الذي نشأ باسم الحرس الأبيض في عام 1932، أعضاءً سابقين من مقاتلي الإخوان الوهَّابيين المتعصبين، الذين مكنوا ابن سعود من توسيع مملكته لتشمل ما نسبته ثمانية وسبعين بالمئة من أراضي شبه الجزيرة العربية في عام 1932.

وفي أعقاب استيلاء الجمهوريين على السلطة في شمال اليمن وُضع الحرس الأبيض تحت قيادة الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، وجرى تغيير اسمه إلى الحرس الوطني، وكُلِّف خبراء عسكريون بريطانيون بتسليحهم وإعادة تدريبهم، وانضم إليهم الأمريكيون فيما بعد. وقد أقام مقاتلو الحرس الوطني خارج المراكز الحضرية الرئيسية، وتمتع ضباطه بمكانة عالية بعد أفراد العائلة المالكة.

انتصر فيصل أخيراً في معركة الحكم، وساعده على ذلك غياب سعود الطويل عن المملكة بسبب اعتلال صحته. وقد حصل على الدعم، ليس فقط من غالبية أفراد العائلة، ولكن من كبار العلماء الوهَّابيين أيضاً. وحتى النهاية حافظ فيصل على اللياقة في الامتناع عن مطالبة الملك سعود علناً بالتنازل عن العرش، الأمر الذي أثار إعجاب عامة الناس بشكل كبير.

الملاحظات

1 Dilip Hiro, Blood of the Earth: The Battle for the Earth's Vanishing Oil Resources, Nation Books, New York, 2007/ Politico's Publishing, London, 2008, pp. 19–20.

2 Dilip Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, Interlink Publishing Group, Northampton, MA, 2013, pp. 516–517.

3 John Leyne, BBC News, 18 August 2008, «Oil discovery transformed Iran, » http:// news. bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/7569352.stm)

4 David Holden and Richard Johns, The House of Saud, Sidgwick & Jackson, London, 1981, p. 118.

5 Aramco World, February 1963, http://archive. aramcoworld.com/ issue/196302/the.search. began.in.1933.htm

6 Mary Norton, Aramco World, May–June 1988, «Well Done, Well Seven, » http://archive. aramcoworld.com/issue/198803/well.done.well.seven.htm

7 Hiro, Blood of the Earth, p. 86.

8 David Holden and Richard Johns, The House of Saud, Sidgwick & Jackson, 1981, pp. 128–129.

9 Cited in Daniel Yergin, The Prize: The Epic Quest for Oil, Money and Power, Simon & Schuster, New York and London, 1991, p. 401.

10 William Eddy, F. D. R. Meets Ibn Saud, American Friends of the Middle East, New York, 1954, p. 34; Holden and Johns, The House of Saud, p. 138; Robert Lacey, The Kingdom, Hutchinson, London, 1981, p. 272.

- وبحسب مذكرة المحادثة التي استمرت خمس ساعات، والتي تمت أرشفتها في وقت

لاحق، تبين أن روزفلت وعد بأنه لن يفعل "أي شيء قد يكون معادياً للعرب"، وأنه لن يغير سياسة أمريكا الأساسية في فلسطين دون تشاور كامل مع كل من اليهود والعرب. لكن روزفلت توفي في 12 نيسان- أبريل 1945.

11 Yergin, The Prize, p. 404.

12 Dilip Hiro, Inside the Middle East, Routledge and Kegan Paul, London, 1982/McGraw Hill, New York, 1983, pp. 79–80.

13 Rasoul Sorkhabi, GeoExPo, Issue 4, Volume 7, 2010, «The King of Giant Oil Fields,» http://www.geoexpro.com/articles/201004//the-king-of-giant-fields

14 Cited in L. P. Elwell-Sutton, Persian Oil: A Study in Power Politics, Lawrence & Wishart, London, 1955/ Greenwood Press, 1976, Santa Barbara, CA, 1976, p. 119.

15 Yergin, The Prize, pp. 451–452.

16 Manuchehr Farmanfarmaian and Roxane Farmanfarmaian, Blood and Oil: Inside the Shah's Iran, Modern Library, New York, 1999, pp. 184–185.

17 Dilip Hiro, The Iranian Labyrinth: Journeys through Theocratic Iran and Its Furies, Nation Books, New York, 2005/Iran Today, Politico's Publishing, London 2006, p. 195.

18 Dilip Hiro, Iran Under the Ayatollahs, Routledge and Kegan Paul, London and Boston, 1985, p. 40.

19 لم يتطلب هذا الاتفاق الأميركي الإيراني، الذي صدر بأمر تنفيذي من الرئيس الأميركي، موافقة مجلس الشيوخ، فقد كان ضمن إطار مبدأ أيزنهاور الذي أُعلن في كانون الثاني- يناير 1957.

- For this doctrine, see Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 167.

20 Hiro, The Iranian Labyrinth, p. 195

21 Hiro, Blood of the Earth, p. 91.

22 Dilip Hiro, The Essential Middle East: A Comprehensive Guide, Carroll & Graf Publishers, New York, 2003, p. 269, p. 560.

23 Hansard 1803–2005, 12 March 1928, «King Ibn Saud: HC Deb 12 March 1928, Vol 214 cc1495-«, http://hansard.millbanksystems.com/commons/1928/mar/12/king-ibn-saud

24 Leon Hesser, Nurture the Heart, Feed the World: The Inspiring Life Journey of Two Vagabonds, BookPros, Austin, TX, p. 104.

25 Sanderson Beck, Mideast & Africa 1700–1950: Ethics of Civilization, Volume 16, World Peace Communications, Santa Barbara, CA, 2010, http://www.san.beck.org/16–4-Arabia, Iraq.html

26 Holden and Johns, The House of Saud, p. 202.

27 Robert Morse, «The Rich, Royal Way of King Saud, » Life Magazine, 9 November 1962, p. 21, antiques. gift/life-magazine-november-91962--cover-u-thant-with-british-ambassa- dor_5875518. html

28 Farrukh Abbas 31 March 2015, «To liberate all Jerusalem, the Arab peoples must first liberate Riyadh, » Gamal Abdul Nasser, https://twitter.com/farrukh_abbas12/status/5 82882928209723392?lang=en

29 Mark Weston, Prophets and Princes: Saudi Arabia from Muhammad to the Present, John Wiley, Hoboken, NJ; and Chichester, UK, 2008, pp. 179–180.

الفصل الثالث

بصمة فيصل في المنطقة وطموح الشاه

ينفرد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود في كونه العاهل السعودي الوحيد الذي جرى قتله اغتيالاً، وكان ذلك في الخامس والعشرين من شهر آذار-مارس 1975، وهو يوم ميلاد النبي محمد. اغتيل فيصل في بلاطه في قصر المربع التاريخي بالرياض على يد ابن أخيه فيصل بن مساعد بن عبد العزيز آل سعود البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً.

وبالتقدم عبر الزمن سريعاً إلى شهر أيار-مايو 2017، ففي قصر المربع نفسه، اختتم رئيس الولايات المتحدة دونالد ترامب يومه الدبلوماسي الحافل مع الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود بالانضمام لمأدبة احتفالية بعد مشاركته الغريبة في رقصة بالسيوف يرقصها الذكور فقط[1]، وأكادُ أجزم أنه لو فُتِحَت جميع غرف قصر المربع للمشاركين، لاختار المؤرخون التوجه فوراً إلى غرفة الاستقبال حيث تلقى الملك فيصل ثلاث رصاصات من مسدس من عيار 0.38.

بعد أربع سنوات من النهاية العنيفة لفيصل فُتحت بوابات قصر نياوران الخاص بآخر الملوك البهلويين، محمد رضا شاه، أمام العامة. يقع القصر في الضواحي الغنّاء لقرية نياوران الواقعة على سفوح جبال ألبرز شمالي طهران. وتتألف أراضي هذا المجمع من ممرات ذات تصميم يثير الإعجاب، ولا سيما أضواء الشوارع الخضراء التي تشبه إلى حد بعيد أضواء شوارع باريس في أواخر القرن التاسع عشر. وتتضمن المنطقة أيضاً مروجاً ومساحات خضراء جرت هندستها بشكل رائع. للوصول إلى المنزل الذي بناه الشاه الأخير لعائلته عام 1957، كان عليَّ أن أمر بالمنزل الذي بناه والده رضا شاه بهلوي، وهو رجل طويل الشارب، ذو مظهر صارم، ووقفة مهيبة رغم ساقيه النحيلتين.

يجتاح معظم أركان قصر الابن جوٌّ من الحزن ما عدا قاعة البلاط التي تمتلئ باللونين الفيروزي والأصفر. كان هذا البلاط ذات يوم مقر إقامة العائلة المالكة، وقد زينت جدران غرفه بمرايا فسيفسائية تعكس الضوء، كتلك التي توجد عادة في المزارات الدينية في إيران.

وفي الطابق السفلي ثمة كراسيٌّ منجدة بألوان الأحمر، والأخضر، والذهبي، والأبيض تحيط بطاولة طعام كبير؛ فقد مزج الشاه وزوجته الثانية ثُريا إسفنديارى قطع الأثاث القديمة من الحقبة الإمبراطورية الفرنسية الثانية مع قطع الأثاث الفرنسي العصري. وعلى الجدار توجد لوحة توثِّق مشهد انسحاب نابليون من موسكو، مما يؤكد حب الزوجين للفرانكوفونية. ومن الأمكنة الأخرى التي تلفت الانتباه في القبو غرفة نوم الشاه الأخير المتواضعة، وفيها مذكراته اليومية المكتوبة على ورق ذهبي كبير باللغتين الفارسية والإنجليزية، ومجموعة صغيرة من الكتب، من بينها كتاب "ماراثون"(*) وكتاب "نقطة الأفضلية".(**)

بعد زيارتي لغرفة نوم الشاه في قصر نياوران قمت بجولة في مجمع قصر سعد آباد في شمالي طهران، الذي يضم مساحات واسعة من أشجار الأرز، والصنوبر، والسرو، والبتولا البيضاء، وأشجار الدلب الشاهقة، والمروج والمساحات الخضراء، والجداول اللطيفة. وقد غدا مجمع هذا القصر اليوم متنزَّهاً شهيراً، خاصة في أشهر الصيف الحارة. وبعد اجتياز المدخل المسوّر لفت انتباهي وجود تمثال بشكل أحذية برونزية ضخمة بطول يزيد على ستة أقدام، وهو من بقايا تمثال ضخم لرضا شاه بهلوي أسقطه الثوار في عام 1979.

وفي وسط المجمع يقع القصر الذي بناه ابنه محمد رضا ليكون بمنزلة مكتبٍ ومقر إقامة له خلال فصل الصيف. وبدلاً من محاولة إظهار فن العمارة الإسلامية الفارسية، التي بلغت وجها في طراز قصر تاج محل في الهند، اختار آخر ملوك إيران بناء قصره على شكل صندوق خرساني بسيط. وقد جرى تأثيث قاعة الانتظار الخاصة بالقصر لمحاكاة الطراز المعماري الفرنسي في عهد الملك لويس السادس عشر باستخدام ورق حائط ذي نقوش ذهبية وثُريات كريستالية مصنوعة في إيطاليا، وزُينت الجدران بلوحات طبيعة للفنان الإسكتلندي هنري هادفيلد كوبلي (توفي عام 1934). أما غرفة نوم فرح ديبا، زوجة الشاه الثالثة والأخيرة، فتتضمن سريراً مؤثثاً باللونين الكريمي والأزرق، وتلفازاً كبيراً، وسجادة حريرية متناهية

(*) كتاب "ماراثون": هو جزء من سلسلة "معارك غيرّت العالم" للكاتب الأمريكي الدكتور ديفيد ج. كاليف. يوثق الكتاب قصة المعركة التي وقعت في سشهل ماراثون على بعد بضعة أميال من أثينا، كجزء من الحروب الميدية في 490 ق.م بين الإغريق والفرس، تمكن فيها جيشا أثينا وبلاتايا من صد محاولة الملك الفارسي داريوس الأول للاستيلاء على ما تبقى من اليونان وضمها إلى الإمبراطورية الفارسية [المترجم].

(**) كتاب "نقطة الأفضلية: تصورات حول الرئاسة 1963-1969": من تأليف الرئيس السادس والثلاثين للولايات المتحدة، ليندون جونسون، ويتحدث عن الفترة التي قضاها كنائب للرئيس كينيدي، ثم كرئيس للولايات المتحدة، ويتناول الكتاب أيضاً تفاصيل حرب فيتنام، ويُعدّ من أفضل المراجع وأكثرها تفصيلاً لتاريخ حرب فيتنام [المترجم].

التفاصيل تبلغ مساحتها أكثر من 273 متراً مربعاً. أما سرير زوجها المؤثث بقماش الساتان الذهبي، فهو نسخة مطابقة لسرير نابليون بونابرت.

واللافت في تلك القصور هو الغياب التام لأية صور أو أنماط إسلامية، فلم تكن هنالك صور للكعبة في مكة، ولا لضريح الإمام علي في النجف، أو الإمام الحسين في كربلاء، ولا وجود لأية لوحات أو مجسمات لكلمات "الله" أو "علي" باللغتين العربية أو الفارسية، بل إن مجمعات القصور تلك لا يوجد فيها مسجد صغيراً كان أم كبيراً، ولا حتى غرفة متواضعة مخصصة للصلاة. وإنه ليصعب على المرء التوفيق بين غياب المظاهر الإسلامية في تلكم المباني والمادة (39) من دستور إيران لعام 1907 التي تُلزم الملك بـ "تعزيز المذهب الجعفري (للشيعة الاثني عشرية)"، "والتحلي "بروح أئمة الإسلام الأطهار لخدمة ازدهار إيران وتقدمها.[2]. ولم يكن بوسع أحد في المملكة العربية السعودية أن يلوم الملك فيصل على مسألة مماثلة كهذه، لأن المملكة كانت تفتقر إلى دستور مكتوب.

فيصل ملكاً

بعد اعتلائه للعرش احتفظ فيصل بمنصب رئاسة الوزراء مع تعيين شقيقه الأصغر خالد ولياً للعهد ونائباً لرئيس الوزراء. ونكث فيصل بوعده الذي قطعه في العام 1962 بالإصلاح السياسي، ولا سيما إصدار دستور مكتوب يحدد مجلس شورى منتخباً بأغلبية ساحقة. وعندما ذُكِّر بوعده أجاب قائلاً: «دستورنا هو القرآن».[3]

كذلك فقد رفض فيصل اقتراحاً بدمج الجيش والحرس الوطني، وذلك لأن وجود جهازين مسلحين منفصلين مكّنه من الحفاظ على التوازن بين العشائر المتنافسة داخل مملكته. وكان دور الحرس الوطني مهماً لدفع التهديدات الداخلية والخارجية للنظام.

وفي عام 1965 دعم فيصل رئاسة المخابرات العامة، وهي وكالة المخابرات الرئيسية في المملكة، وعيّن صهره كمال أدهم رئيساً لها، وكان مسؤولاً أمامه مباشرة. ومن خلال العمل الوثيق وتبادل المعلومات مع وكالة المخابرات المركزية ساعد أدهم فيصل في سحق المعارضة، وقمع فيصل احتجاجات الموظفين السعوديين في أرامكو والنقابات العمالية المحظورة في عام 1965. وعلى مر السنين، أصبح أدهم الأب الروحي للاستخبارات في الشرق الأوسط، وأصبح بمنزلة صلة الوصل بين وكالة المخابرات المركزية وعملائها المحتملين والفعليين فيما يتعلق بالأجور والنواحي المالية.[4]

منذ عام 1962 أرسل الرئيس جمال عبد الناصر قواتٍ مصريةً إلى شمالي اليمن لمساعدة

المعسكر الجمهوري الذي وجد نفسه في موقف دفاعي عندما حصل الملكيون على دعم من المملكة العربية السعودية؛ وكانت تلك خلفيات العداء المتصاعد بين فيصل "الإسلامي"، وناصر "القومي المتعصب".

قمع ناصر جماعة الإخوان المسلمين، المدافعة عن الوحدة الإسلامية، بعد أن قام نشطاؤها بثلاث محاولات فاشلة لاغتياله بين عامي 1964 و1966، في حين تبنّى فيصل عباءة الوحدة الإسلامية، وروّج لها في منتصف الستينيات على أنها أيديولوجيا منافسة للقومية العربية، وطفق يمول فروع جماعة الإخوان المسلمين، المحظورة في مصر، في مختلف الدول العربية.

وفي مواجهة انجراف عبد الناصر نحو موسكو، عزز فيصل علاقاته مع واشنطن، وتجنب إقامة علاقات دبلوماسية أو تجارية مع الاتحاد السوفييتي أو غيره من أعضاء الكتلة السوفييتية بحجة أن الشيوعية والإسلام ضدان لا يتفقان؛ فعارض بشدة الاتحاد السوفييتي والاشتراكية، وعزز علاقات المملكة العربية السعودية مع الولايات المتحدة عبر إضافة تبادل المعلومات الاستخبارية إلى المزيج السابق من التعاون التجاري والعسكري.

وكان فيصل معارضاً للصهيونية ومدافعاً عن القضية الفلسطينية، والغريب أنه كان يؤمن بوجود تحالف بين الشيوعية والصهيونية، وكان يعارضه بشدة. وقد دفعته تلك القناعة المهووسة، التي تفتقر إلى الأدلة، إلى الادعاء بأن الصهاينة هم الذين دعموا الإرهابيين الفلسطينيين.

اشتد عداء فيصل لناصر بعد أن دعا الأخير سعود المنفي للمجيء إلى القاهرة في كانون الأول- ديسمبر 1966. وعند وصوله إلى هناك ادعى سعود أنه لم يتنازل عن العرش، وندد بفيصل ووصفه بأنه "حليف للاستعمار"، وادعى أن وكالة المخابرات المركزية ساعدت فيصل على عزله، ودعا السعوديين إلى إطاحة "المغتصب".[5]

أدت هزيمة عبد الناصر المذلة في حرب الأيام الستة في حزيران-يونيو 1967، فيما عُرف بنكسة حزيران، إلى تحطيم مكانة ناصر في المنطقة. وقطع علاقات مصر الدبلوماسية مع الولايات المتحدة لدعمها [كيان] إسرائيل في الحرب. وعاد سعود إلى أثينا حيث توفي في شباط-فبراير 1969.[6]

وفي آب-أغسطس من ذلك العام أنهى ناصر عداءه مع فيصل في القمة العربية في الخرطوم. كما قام بسحب القوات المصرية من شمالي اليمن. وبحلول نهاية عام 1968 كان فيصل قد أنهى دعمه العسكري للملكيين، وقَبِلَ لاحقاً قيام نظام جمهوري معتدل في الدولة المجاورة.

وخلال حرب الأيام الستة قام وزراء النفط العرب، المجتمعون في بغداد، بقطع إمدادات النفط عن أمريكا، وبريطانيا، وألمانيا الغربية لمعاقبتهم على دعمهم لـ[كيان] إسرائيل. وفي مظاهرة ضد دعم واشنطن غير المشروط لـ"إسرائيل" هاجمت قوى المعارضة في المملكة العربية السعودية النوادي، والمراكز الثقافية الأمريكية، والثكنات العسكرية الأمريكية في الظهران أيضاً، ودعت العاهل السعودي إلى وقف إمدادات النفط للولايات المتحدة؛ مما اضطر فيصل إلى الانضمام إلى الحظر النفطي[7] الذي استمر حتى نهاية آب-أغسطس. على أن هذا الحظر مهد الطريق لتأسيس منظمة الدول العربية المصدرة للنفط (أوابك) المكونة من خمس دول في كانون الثاني-يناير في الكويت (وفي وقت لاحق ارتفع عدد أعضائها إلى عشرة، بما في ذلك مصر).

تحرك الملك فيصل بسرعة للاستفادة من الصدمة والغضب الذين اجتاحا العالم الإسلامي بسبب المحاولة الفاشلة التي قام بها المسيحي الأصولي الأسترالي مايكل روهان لإشعال النار في المسجد الأقصى في القدس، ثالث أقدس المواقع الإسلامية بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة، في 21 آب-أغسطس 1969. وفي 22 سبتمبر من ذلك العام عقد الملك الحسن الثاني ملك المغرب، بناءً على طلب فيصل، مؤتمراً في الرباط لمناقشة الهجوم الفاشل، وحضر المؤتمر مسؤولون كبار من عشرين دولة إسلامية، بما في ذلك مصر، يمثلهم محمد أنور السادات، أحد نواب الرئيس المصري آنذاك.

ودعا المشاركون [كيان] إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضي العربية التي احتلتها في عام 1967، وأُعلِن عن إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي (منظمة التعاون الإسلامي فيما بعد) وأمانتها العامة في جدة. وقد مكّن هذا فيصل من ادعاء قيادة المملكة العربية السعودية للعالم الإسلامي (منذ ذلك الحين تعقد منظمة التعاون الإسلامي مؤتمرات قمة كل ثلاث سنوات في عواصم إسلامية مختلفة).

قليلون ممن حضروا مؤتمر الرباط كانوا على علم بمحاولة الانقلاب التي جرت في حزيران-يونيو من ذلك العام في المملكة العربية السعودية، ذلك الانقلاب الذي كان بقيادة سعوديين منتمين لحركة القوميين العرب.

نشأت حركة القوميين العرب في السعودية كمجموعة سرية في مدينة الظهران في عام 1964، ثم تنامت في أوائل عام 1966، وخلال السنوات الثلاث التالية استطاعت الحركة بناء قاعدة من المؤيدين تضم ضباطاً في الجيش، وعمال نفط، وموظفين حكوميين، ومعلمين. وقد أحبطت محاولة الانقلاب التي قامت بها الحركة قبل ساعات قليلة من تنفيذها المقرر

في حزيران-يونيو 1969 نتيجة لبلاغ من وكالة المخابرات المركزية بعد أن تمكنت الوكالة من زرع متسلل بين المتآمرين. اعتقل 200 متآمر، ونُفِّذت عشرات الإعدامات، مما أدى إلى تدمير الحركة، ولجأت الحكومة السعودية إلى إقامة قواعد عسكرية بعيداً عن المراكز الحضرية لمنع حدوث انقلاب عسكري في المستقبل.[8]

بعد وفاة عبد الناصر، إثر نوبة قلبية، في أيلول-سبتمبر 1970 أصبح السادات رئيساً لمصر بالنيابة، وفي منتصف تشرين الأول-أكتوبر أنتُخِب رئيساً للجمهورية في استفتاء كان هو المرشح الوحيد فيه.

نفوذ فيصل يمتد إلى مصر بعد عبد الناصر، وبدء الطفرة النفطية في المملكة

كان السادات مسلماً تقياً، وكان لديه نتوء طفيف على جبهته بسبب كثرة صلواته. ولحشد الرأي العام الإسلامي خلفه، عُيِّن أميناً عاماً للمؤتمر الإسلامي الذي أسسه عبد الناصر في القاهرة عام 1965.(*) وآنذاك كان السادات أحد نواب الرئيس الأربعة. وفي وقت لاحق اتخذ ناصر منعطفاً حاداً نحو اليمين في سياسته الداخلية، إذ جعل السادات نائباً وحيداً للرئيس. وعندها بدأ أدهم بتحويل مدفوعات وكالة المخابرات المركزية إلى السادات، الذي كان يعاني من مشاكل مالية، وفي وقت لاحق حرصت الحكومة السعودية على تأمين دعم مالي منتظم للسادات.[9]

في الداخل قام فيصل في آب-أغسطس 1971 بإضفاء طابع مؤسسي على الحكم الديني عبر إصدار مرسوم بتشكيل مجلس كبار العلماء)هيئة كبار العلماء) المكون من عشرين عضواً يعينهم شخصياً، واللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء التي بدورها تستمد أعضاءها من مجلس كبار العلماء، وجرى ربط مجلس كبار العلماء بالمجلس الأعلى للقضاة، بمعهد الدراسات العلمية، وهيئة الإشراف على الشؤون الدينية، وهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد استندت المؤسسة الأخيرة على الآية القرآنية التي تقول: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.(3: 104)

في العقود التالية أصبح الملك يستشير مجلس كبار العلماء في القضايا الحيوية، ويثبِّت أعضاءه المطواعين، فهم جميعاً في النهاية يعتمدون على حُسن ظن الملك لبقائهم على رأس عملهم طيلة فترة ولايتهم التي تمتد لأربع سنوات. ومع وصول الإنترنت إلى المملكة، في عام

(*) تأسست منظمة المؤتمر الاسلامي سنة 1969 في جدة في المملكة العربية السعودية، وليس الأمر كما ذكر المؤلف [المركز].

2001، بدأ العديد من العلماء بنشر فتاواهم عبر الإنترنت، مما سبب مشكلة كبيرة للملك في وقت لاحق من هذا العقد. وفي آب-أغسطس 2010، سيقرر الملك عبد الله حصر سلطة إصدار الفتاوى بأعضاء المجلس الاستشاري الإسلامي[10] ليحد من سلطة رجال الدين خارج تلك المؤسسة مهما بلغت شعبيتهم.

وفي مصر بدأ الرئيس السادات يكثر من الاستشهاد بآيات من القرآن في خطاباته ليؤكد التزامه بتعاليم الدين وتوسيع قاعدته الشعبية، وصار يعرف بـ "الرئيس المؤمن". وسمح للعديد من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين المنفيين بالعودة إلى الوطن من المملكة العربية السعودية، وبث برامج إسلامية على التلفاز الحكومي، كما قام بتعديل الدستور بحيث أصبحت الشريعة المصدر الأساسي للقانون. وازداد إيمان المصريين العاملين في المملكة بأن الثروة والقوة الجديدة التي حباها الله للمملكة العربية السعودية ما هي إلا دليل إلهي على تقوى المملكة السعودية والتزامها الصحيح بتعاليم الدين. كما قامت الرياض بتمويل العديد من المشاريع الاجتماعية والجماعات الإسلامية المحلية داخل مصر.

حث فيصل الرئيس السادات على طرد 15 ألف جندي سوفييتي ما زالوا في مصر مع طائراتهم وعتادهم منذ الحرب العربية الإسرائيلية في عام 1967، فانصاع السادات لرغبة فيصل في تموز-يوليو 1972. وفي أوائل العام التالي، عندما بدأ السادات بتنفيذ إستراتيجية عسكرية سرية لاستعادة شبه جزيرة سيناء التي خسرها إبّان حربه مع [كيان] إسرائيل في عام 1967، سافر في زيارة سرية إلى الرياض في 27 آب-أغسطس 1973 لإبلاغ فيصل بخطته. وهذا التحالف الوثيق بينه وبين السادات هو ما دفع فيصل إلى استخدام سلاح النفط خلال الحرب العربية الإسرائيلية في أكتوبر 1973، التي اندلعت خلال شهر رمضان، والتي وصفها الزعيم المصري بالجهاد.

خلال الحرب العربية الإسرائيلية[11]، اجتمع وزراء نفط الدول الأعضاء في منظمة أوابك في الكويت، بتاريخ 16 تشرين الأول-أكتوبر، وقرر المجتمعون في اليوم التالي أن «على جميع الدول العربية المصدِّرة للنفط أن تخفّض إنتاجها على الفور بما لا يقل عن 5 % مقارنة بإنتاج شهر أيلول-سبتمبر، وأن تحافظ على هذا التخفيض كل شهر إلى أن تنهي القوات الإسرائيلية انسحابها الكامل من كافة الأراضي العربية المحتلة منذ حرب عام 1967، واستعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني». وصنّف المجتمعون الدول المستهلكة للنفط كصديقة أو محايدة أو معادية للقضية العربية، على أن يتم تزويد الدول الصديقة بمستويات إنتاج شهر أيلول-سبتمبر، والدول المحايدة بمستوى أقل، وعدم تزويد الدول المعادية بأي نفط على

الإطلاق. وأكدوا أيضا الارتفاع الحاد في أسعار النفط، الذي قررته منظمة أوبك في وقت سابق. وأمر الملك فيصل بخفض الإنتاج السعودي بنسبة 25 % ليصل إلى 8 ملايين برميل يومياً.[12]

أما في طهران، فقد أُحبط فيصل من رفض الشاه الانضمام إلى المقاطعة التي قررتها منظمة أوابك، خاصة عندما برزت إيران كمورد رئيسي للنفط إلى [كيان] إسرائيل. علاوة على ذلك، فقد ضغط الشاه من أجل إعادة التفاوض على اتفاقية التأجير التي عقدها الكونسورتيوم الغربي(*) مع حكومته مستفيداً من سياسات الاعتماد على الذات التي دعت إليها منظمة أوبك. وفي الذكرى العاشرة للثورة البيضاء(**) في كانون الثاني-يناير 1973 أعلن الشاه عن تأميم كونسورتيوم النفط الغربي. وفي تموز-يوليو تولت شركة النفط الوطنية الإيرانية (NIOC) إدارة جميع عمليات الكونسورتيوم بالإضافة إلى ملكيته، وفي تشرين الأول-أكتوبر 1973 أيد الشاه بقوة قيام أوبك برفع أسعار النفط.

بعد قيادته للحظر النفطي العربي، رداً على المساعدة العسكرية الهائلة التي قدمتها الولايات المتحدة لـ[كيان] إسرائيل خلال حرب تشرين الأول-أكتوبر، ارتفعت مكانة فيصل بين العرب، وصار عندهم بطلاً قومياً عربياً رائداً؛ لقد كان استخدامه لسلاح النفط خلال نزاع مسلح إنجازاً غير مسبوق، وقد أتاحت له القفزة اللاحقة في أسعار النفط أموالاً ضخمةً استخدمها لتوسيع نفوذ المملكة العربية السعودية خارج العالم العربي، وتعزيز التضامن الإسلامي في الشرق الأوسط وخارجه. ومع تزايد نفوذ إيران في العالم العربي، لجأ حكام السعودية إلى تأكيد الانتماء الطائفي. وباختصار: فتح عهد فيصل فصلاً جديداً في تاريخ المملكة السعودية، سعى خلاله جميع خلفائه إلى تعزيز الانتماء الطائفي في العالم الإسلامي، مانحين هذا الهدف دوراً رئيسياً رائداً في سياستهم الخارجية.

وقبل أن تتمكن إستراتيجية مقاطعة النفط من تحقيق كامل أهدافها بدأ تصميم فيصل على التراجع عنها بعد أن أرسل له رئيس الوزراء البريطاني إدوارد هيث مبعوثاً خاصاً في أواخر كانون الأول-ديسمبر 1973 ليشرح للملك أن أي مقاطعة نفطية طويلة الأمد من شأنها أن تضعف الغرب، وتقوي المدّ الشيوعي، الذي كان فيصل من أشد الرافضين له. وفي النهاية نجح الرئيس السادات في إقناع فيصل بالعدول عن موقفه وإنهاء المقاطعة، خاصة بعد

(*) هو ائتلاف يضم مجموعة من الشركات تعمل في مجالات مختلفة، ومنها التنقيب على النفط [المترجم].

(**) صاغ شاه إيران هذا المصطلح للإشارة إلى حزمة الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي أوصت بها الولايات المتحدة [المترجم].

تصريح وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر الذي حذر من أن الولايات المتحدة لن تتردد في استخدام القوة لتأمين إمدادات النفط من منطقة الخليج. ثم تمكن كل من السادات وكيسنجر من إقناع أعضاء منظمة أوابك الآخرين بإنهاء الحظر الذي دام خمسة أشهر في 18 آذار-مارس 1974 قبل انسحاب الإسرائيليين من الأراضي العربية المحتلة، وقبل استعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. إن استخدام فيصل سلاح النفط غير المتوقع بشكل فعال أثار ذعراً كبيراً في واشنطن، ولكنه، بعدوله عن قرار المقاطعة، أضاع فرصة لا تتاح إلا مرة واحدة في كل جيل.

وفي يوم المولد النبوي، في 25 آذار-مارس من عام 1975، كان فيصل يعمل في قصره الملكي، إذ إن مملكته لا تحتفل إلا بعيدي الأضحى والفطر فقط، وكان من المقرر أن يستقبل صباح ذلك اليوم وزير النفط الكويتي، عبد المطلب الكاظمي. وفي غرفة الانتظار ظهر فيصل بن مساعد ذو السبعة والعشرين ربيعاً مرتدياً الزي الملكي السعودي، واستقبل الكاظمي الذي كان قد التقى به أول مرة خلال فترة دراسته في جامعة كولورادو، بولدر، في عام 1968. وهكذا دخل بن مساعد بصحبة الضيف المرموق إلى غرفة الاستقبال الملكية.

وبينما كان وزير النفط السعودي زكي يماني يقدم الكاظمي إلى فيصل، أطل بن مساعد من خلف يماني، وأطلق ثلاث طلقات من مسدسه! أصابت الأولى الملك في حلقه، وأصابت الرصاصتان الأخريان رأسه وأذنه. وعلى الفور تصارع الحضور مع القاتل على أريكة قريبة، وفشلت جهود إنعاش الملك فيصل، وتوفي في المستشفى.[13]

أعلنت الحكومة السعودية الحداد لمدة ثلاثة أيام، كما أعلن الشاه الحداد في إيران لمدة سبعة أيام. ولاحقاً كشفت التحقيقات أنه، خلال دراسته للحصول على البكالوريوس في العلوم السياسية في كولورادو، ارتدى بن مساعد ملابس غربية، وحظي بتسريحة أنيقة، وتعرّف هناك على صديقته، كريستين سورما. ثم التحق بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس كطالب دراسات عليا، وقضى بعض الوقت مع سورما، التي كانت آنذاك ممثلة سينمائية طموحة، قبل أن يعود إلى وطنه في تموز-يوليو 1974.

وقد انتشرت تكهنات عدة حول دوافع القتل، وساد اعتقاد في العالم العربي أن فيصل اغتيل بسبب قراره بقطع النفط عن الولايات المتحدة في عام 1973، وأن وكالة المخابرات المركزية كانت متورطة بهذا الاغتيال، مما جعله شهيداً في عيون محبيه. على عكس التلميح الذي أشارت إليه سورما عندما توقعت أن فيصل بن مساعد سينظر إليه في النهاية "كمحرر لشعب بلاده".[14] وكان لدى بن مساعد دافع انتقام محتمل بسبب مقتل شقيقه الأكبر، خالد،

الأكثر محافظة، على يد الشرطة السعودية في الرياض، خلال مشاركته في مظاهرة ضد خدمة التلفاز التي أُطلقت حديثاً.

قُطع رأس فيصل بن مساعد على يد جلاد في ساحة مركزية أمام قصر الأمير سلمان، أمير الرياض. وحضر سلمان إلى جانب 10000 مشاهد عملية الإعدام.[15]

بداية عهد خالد

دُفنت جثة فيصل في مقبرة العود، التي تبعد حوالي كيلومتر واحد عن وسط مدينة الرياض، بحضور العديد من أبناء ابن سعود الباقين بقيادة خليفة فيصل، الملك خالد، والعديد من الشخصيات الأجنبية البارزة بما في ذلك الرئيس السادات، ورئيس وزراء باكستان، ذو الفقار علي بوتو، والرئيس الأفغاني محمد داود خان.

وقد دُفن ابن سعود في مقبرة العود، التي تعني العضو الأكبر في العائلة. وكما فُعل مع ابن سعود، وجه رأس فيصل نحو مكة في قبر غير مميز تصادف أنه بجوار قبر مؤسس الأسرة. وعند عودته إلى قاعة الاستقبال غلب الحزن خالد فبكى وواساه السادات.

وبصفته رئيساً لمصر، منذ أيلول-سبتمبر 1970، أقام السادات صداقة وثيقة مع فيصل، وكان السادات يطلق على فيصل لقب أمير المؤمنين.[16] وقد منحت هذه العلاقة الوثيقة السادات نفوذاً في تعاملاته مع الولايات المتحدة وأوروبا الغربية؛ ومن هنا لم يعد من المستغرب أن يصاب السادات بقلق شديد، ويشتبه بوجود مؤامرة تحاك ضده حتى وضع الجيش المصري في حالة تأهب، وأرسل سفناً بحرية إلى البحر الأحمر، ولم يهدأ إلا بعد أن أكد له القصر الملكي في الرياض أن من قام بعملية الاغتيال إنما كان قاتلاً فرداً، وأن الأسرة السعودية ليست مهددة.[17]

كان الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود مختلفاً عن سلفه من وجوه عِدّة، فقد كان رجلاً ذا مظهر لطيف وهادئ يعاني من اعتلال صحي، بعد أن خضع لعملية قلب مفتوح في عام 1972. وعند صعوده إلى العرش أطلق خالد سراح مئات السجناء السياسيين، وعيّن حكومة تتضمن 15 وزيراً من أصل 25 وزيراً من عامة الناس، بينما بقيت وزارات الخارجية، والدفاع، والداخلية، والحرس الوطني بيد أفراد العائلة المالكة.

خضع خالد لعملية جراحية ثانية لتغيير شرايين القلب في تشرين الأول-أكتوبر 1978، وبعد ذلك أصبح ولي العهد الأمير فهد بن عبد العزيز آل سعود (مواليد 1921) رئيس الوزراء الفعلي، بينما أمضى خالد المزيد والمزيد من وقته في تربية صقور الصيد وتدريبها.

الأهمية المتزايدة لمنظمة أوبك

في منتصف السبعينيات ازدادت أهمية منظمة أوبك بشكل كبير، ففي عام 1976 كانت دولها تنتج أكثر من نصف الإنتاج العالمي، وتصدّر سبعة أثمان صادرات النفط العالمية[18] وشهد ذلك العام أول إنتاج لنفط بحر الشمال من حقل فورتيز قرب إنجلترا في أسواق النفط العالمية. وبعد فترة وجيزة، اكتسب نفط بحر الشمال اسم نفط برنت، على اسم أكبر حقل نفطي في بحر الشمال. في البداية، استخدم سعر خام برنت في بورصة النفط المحلية في لندن، "البورصة الدولية للبترول"، لكن خام برنت أصبح على مر السنين السعر المعياري الدولي الرئيسي، متقدماً على خام غرب تكساس الوسيط سابقاً، وخام دبي لاحقاً.[19]

داخل منظمة أوبك ظهرت المملكة العربية السعودية كـ "منتج متأرجح"؛ فنظراً للاحتياطي الهائل الذي تملكه، كانت السعودية قادرة على زيادة إنتاجها أو خفضه بسرعة لتحقيق التوازن في السوق الدولي للمساعدة في الحفاظ على السعر الذي تحدده أوبك، وقد منحها هذا الكلمةَ الفصل في تحديد الأسعار.

وفي الداخل السعودي استحوذت الحكومة السعودية، بعد أن أثراها الارتفاع الكبير في أسعار النفط، على 25% من شركة أرامكو في عام 1974. ثم استكملت عملية الشراء في عام 1980. وأحد أسباب إطاحة الشاه محمد رضا شاه بهلوي في إيران، في أوائل عام 1979، هو إضراب عمال النفط الذي أدى إلى ارتفاع السعر من 14 دولاراً إلى 28 دولاراً للبرميل في غضون بضعة أشهر. وقد ضمنت شركة أرامكو السعودية التي أُعيدت تسميتها الإمدادات إلى المكونات الأمريكية الأربعة لأرامكو من خلال منحها الأولوية في شراء نفطها.

في ذلك الوقت كانت أوبك قوية للغاية لدرجة أنها تمكنت من تثبيت أسعار النفط بعد رفعها، وكانت الولايات المتحدة في موقف ضعيف حيث تزايد اعتمادها على النفط المستورد، وكان سدسه يأتي من المملكة السعودية في عام 1978. وقد توقع الرئيس ريتشارد نيكسون أن الولايات المتحدة ستصل إلى الاكتفاء الذاتي من النفط بحلول عام 1979، بيد أنه في منتصف ذلك العام أدى حدوث نقص بسيط في استهلاكها بنسبة 2%، أي ما يعادل 400 ألف برميل يومياً، إلى إيجاد حالة ذعر عارمة ووقوف طوابير طويلة أمام محطات البنزين[20] لكن سنة 1979 شهدت بالفعل بداية تعاظم إنتاج الدول غير الأعضاء في أوبك بسبب الاستثمارات الضخمة الذي قامت به شركات النفط الغربية العملاقة في مجال التنقيب بعد فورة أسعار النفط. ومع ذلك، فقد بقي إنتاج الدول غير الأعضاء في أوبك عندها متخلفاً كثيراً عن إجمالي إنتاج أوبك، ولكن ليس لفترة طويلة.

تدهور العلاقات بين طهران وواشنطن والرياض

في أوائل الستينيات، وبينما كان التنافس على السلطة في الرياض شأناً داخلياً سعودياً محضاً، كانت شؤون إيران الداخلية تدار من واشنطن؛ فمع وصول جون كينيدي إلى البيت الأبيض، في كانون الثاني-يناير 1961، تزايد تدخل الولايات المتحدة في شؤون إيران الداخلية. حث الرئيس كينيدي الشاه على معالجة الفساد بين حاشيته وعائلته، وإطلاق مجموعة إصلاحات اجتماعية مثل منح النساء حق التصويت، وأخرى اقتصادية تتعلق بإصلاح قطاع الزراعة. في الواقع، أصبح استمرار توريد الأسلحة الأمريكية لإيران مشروطاً بالتزام الشاه بالمسار الإصلاحي؛ فمنذ عام 1952 استمرت أمريكا بإرسال مساعدات عسكرية وأخرى اقتصادية لإيران بما يعادل 20 دولار أمريكي للفرد.[21]

وفي منتصف عام 1964 ساءت العلاقة بين واشنطن وإيران على خلفية تمرير مشروع قانون للبرلمان الإيراني، المجلس، يمنح الحصانة لجميع المواطنين الأمريكيين العاملين في مشاريع عسكرية داخل إيران. وكان لا بد من إقرار هذا القانون لتُقرِضَ الولايات المتحدة إيران 200 مليون دولار كي تتمكن الأخيرة من شراء الأسلحة الأمريكية[22]، وكان من أشد المعارضين لهذا القانون آية الله روح الله الخميني، قائد الحركة الثورية الشعبية التي أطاحت، بعد أربعة عشر عاماً، بأسرة بهلوي في إيران.

بدأ تباعد المصالح الجيوسياسية لطهران والرياض منذ أوائل ستينيات القرن الماضي؛ فبعد انسحاب بريطانيا من الكويت، وسماحها بإنشاء إمارة مستقلة هناك، ظن الشاه أنها ستنسحب خلال العقد المقبل من كامل الخليج، وليتمكن من نقل قواته العسكرية من شمالي إيران إلى جنوبيها، بدأ بتحسين علاقاته مع الاتحاد السوفييتي. نُقِلت القوات في آذار-مارس 1965، ودخلت إيران في سباق تسلح مع دول الخليج العربية المستقلة مثل العراق والمملكة العربية السعودية. وليسدد الشاه تكاليف هذا التحشيد الكبير، وليسد، في الوقت نفسه، فجوة الإنتاج التي خلّفها حظر منظمة أوابك بعد حرب الأيام الستة، ضغط الشاه على كونسورتيوم النفط الغربي ليرفع الأخير معدلات الإنتاج. استجاب الكونسورتيوم برفع الإنتاج السنوي من 770 مليون برميل في العام السابق إلى 950 مليون برميل، مضيفاً 751 مليون دولار أمريكي لخزانة إيران.[23] ولأول مرة سمح الكونسورتيوم لشركة النفط الوطنية الإيرانية بتسويق 100 ألف برميل يومياً بمفردها.

وفي كانون الثاني-يناير 1968 قررت حكومة حزب العمال البريطاني الانسحاب من منطقة الخليج بحلول نهاية عام 1971 كجزء من الانسحاب العام من مناطق شرق السويس عقب الانخفاض الذي شهده الجنيه البريطاني.[24]

عملت أمريكا وبريطانيا على تقييم قوة اقتصادات كل من المملكة العربية السعودية (5.8 مليون نسمة) وإيران (28.5 مليون نسمة) وقوة جيوشهما، فوجدتا أن إيران تتفوق على السعودية من جميع النواحي. لذا قررت واشنطن ولندن تحويل الشاه إلى شُرطيِّها في منطقة الخليج، وأصبحت الروابط الاستخباراتية بين إيران والولايات المتحدة وثيقة للغاية لدرجة أن الشاه كان يعقد صباح كل يوم سبت جلسة إحاطة لمدة ساعتين مع رئيس مكتب وكالة المخابرات المركزية في طهران.[25]

أنهت بريطانيا انسحابها من البحرين وقطر في آب-أغسطس وأيلول-سبتمبر 1971، على الترتيب، بعد أن أشرفت على تشكيل دولة الإمارات العربية المتحدة في 2 كانون الأول-ديسمبر 1971.[26] وقبل شهر من ذلك التاريخ طالب الشاه، بدعم من بريطانيا، بثلاث جزر تقع عند مدخل مضيق هرمز الإستراتيجي. استولت إيران على جزيرتي طنب الكبرى والصغرى، واحتلت جزيرة أبو موسى جزئياً، مما أثار استياء الإمارات العربية المتحدة. وسرعان ما أبدت الرياض استغرابها وأسفها، ودعت الشاه إلى إعادة النظر في خطواته، ولكن دون جدوى.

وعندما طلب السلطان قابوس، سلطان عُمان، المساعدة من إيران لسحق الانتفاضة اليسارية في محافظة ظفار عام 1972، أرسل الشاه وحدات بحرية إلى جزيرة أم الغنم العُمانية عند مدخل مضيق هرمز، وعرض على السلطنة توقيع اتفاقية دفاع مشترك عن القنوات الملاحية في المضيق.[27]

وفي عام 1971 طلب الشاه أسلحة متقدمة من الولايات المتحدة، وحصل عليها بفضل مبدأ نيكسون، الذي بموجبه شجع الرئيس الأمريكي حلفاء أمريكا في العالم الثالث على استخدام المساعدات العسكرية والاقتصادية التي تقدمها واشنطن لتعزيز قواتهم المسلحة. وآنذاك كان من المقرر أن تصبح أمريكا مجرد مورد للأسلحة، وليس شرطياً خارج منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو)، مما أدى إلى تعاظم مكانة إيران في واشنطن بعد انقلاب عام 1953؛ فمنذ ذلك الحين وحتى عام 1969 تلقت إيران مساعدات عسكرية أمريكية تعادل ما تلقته جميع الدول الأخرى مجتمعة. وبحلول أواخر عام 1971 اكتفت إيران، فطلبت من واشنطن وقف المساعدات.[28]

وفي تشرين الثاني-نوفمبر 1972 أعلن الشاه أنه سيوسع "المحيط الأمني" لإيران إلى ما هو أبعد من الخليج ليغطي الربع الشمالي الغربي من المحيط الهندي، بالتزامن مع خطة لتوسيع البحرية الإيرانية بمقدار خمسة أضعاف، وقد أثار هذا قلق الحكومة السعودية، خاصة بعد أن أرسل الشاه قوات قتالية إلى منطقة ظفار.[29]

ورغم رفض الشاه الانضمام إلى الحظر النفطي الذي فرضه منتجو النفط الخليجيون على الدول الغربية التي دعمت [كيان] إسرائيل في حرب عام 1973، فقد أيد بقوة فكرة رفع أسعار النفط. وفي 23 كانون الأول- ديسمبر 1973، خلال اجتماع لمنتجي النفط الخليجيين في طهران، قُبِل اقتراحه بمضاعفة سعر النفط مرة أخرى، وتبنته أوبك لاحقاً.[30] ونتيجة لذلك رفعت أوبك سعر النفط من دولارَين و55 سنتاً إلى 11 دولاراً و65 سنتاً للبرميل (43 دولاراً بالأسعار الحالية) بين منتصف تشرين الأول-أكتوبر 1973 و1 كانون الثاني-يناير 1974، مع ارتفاع متوسط الأرباح الحكومية في الدول المضيفة بمقدار خمسة أضعاف، من دولارٍ واحد و38 سنتاً إلى 7 دولارات للبرميل[31]، وكان للطفرة النقدية الناتجة تأثير هائل في كل من المملكة العربية السعودية وإيران.[32]

كان التأثير الأكبر للطفرة في إيران، حيث قامت شركة النفط الوطنية الإيرانية، بدعم من الشاه، عبر زيادة إنتاجها إلى مستوىً قياسي بلغ 6 ملايين برميل يومياً في عام 1974، من خلال الاستغلال المفرط لآبار النفط، وقفزت عائدات النفط في طهران من أربع مليارات و600 مليون دولار في عامي 1973-1974 إلى 17 ملياراً و600 مليون دولار بعد سنة واحدة فقط. وقد ذكر الشاه لأحد زائري قصر نياوران أنه «خلال السنوات العشر المقبلة أريد أن يكون مستوى المعيشة في إيران مساوياً لمستوى المعيشة في أوروبا اليوم. وفي غضون 20 عاماً سنكون متقدمين على الولايات المتحدة».[33]

وفي عام 1975 تزايد فائض النقد الأجنبي في خزانة طهران لدرجة أن الشاه منح قرضاً بقيمة مليار دولار لبريطانيا ومثله لفرنسا، بعد أن عانى كلاهما من أزمة ركود تضخمي بسبب الارتفاع الهائل في أسعار النفط.[34] ومن فرط ثقته بدأ الشاه يتحدث عن تحويل إيران إلى خامس أقوى دولة في العالم بعد أمريكا والاتحاد السوفييتي واليابان وألمانيا الغربية.

في قمة أوبك التي عقدت في الجزائر في آذار-مارس 1975 توصّل الشاه وصدام حسين، نائب رئيس العراق آنذاك، إلى اتفاق حول الحدود البرية والنهرية لبلديهما. وقد وافق العراق على طلب إيران، الذي يعود تاريخه إلى عام 1914، ترسيم ممر شط العرب المائي وفقاً لخط القعر أو التالوك (أي على طول الخط الذي يتوسط البر الملاحي الرئيسي للشط)، كما اتفق الموقِّعان على إنهاء جميع عمليات التسلل ذات الطبيعة التخريبية. وقد صودق هذا الاتفاق بعد ثلاثة أشهر تحت اسم معاهدة الحدود الدولية وحسن الجوار بين إيران والعراق (1975).[35]

لم يبدِ ملوك الخليج أي موقف يذكر تجاه التقارب بين إيران الموالية لواشنطن والعراق

الموالي لموسكو، ويرجع ذلك إلى خوفهم وكراهيتهم للنظام البعثي المتطرف في بغداد. ولكن ساد في المنطقة شعور عام بأن العراق بموافقته على تقاسم ملكية شط العرب مع إيران، يكون قد تنازل عن الحقوق العربية التاريخية.

عين الشاه على الشرق

بينما كان الملك الأفغاني ظاهر شاه في زيارة إلى إيطاليا لتلقي العلاج في 17 تموز-يوليو 1973، استولى ابن عمه القائد الأعلى للجيش، محمد داود خان، على السلطة تحت شعار إعادة أفغانستان إلى القيم الإسلامية، فألغى النظام الملكي، وأنشأ جمهوريةً عيَّن نفسه رئيساً تنفيذياً[*] لها.

وقد سعى الشاه إلى التأثير في السياسات والأحداث في كابُلْ مدعوماً بالثروات التي حققها ارتفاع أسعار النفط أربع مرات بين عامي 1973-1974. ونظراً لهشاشة الوضع الاقتصادي في أفغانستان بين عامي 1977-1978[**]، فقد رحب داود خان بعرض الشاه للمساعدة، الذي جاء مشروطاً بتصفية القادة الماركسيين الذين دعموا إطاحة النظام الملكي. وبتشجيع من وكالة المخابرات الإيرانية، السافاك، قام عملاء الأمن التابعون لداود خان باغتيال شخصيات ماركسية عِدّة.

وفي عام 1978 اغتيل مير أكبر خيبر على يد عملاء الدولة، وهو زعيم نقابي مرموق، ورئيس تحرير سابق لصحيفة بارشام اليسارية، وقد قلبت عملية اغتياله الطاولة على النظام في كابُلْ، فنظّم الحزب الديمقراطي الشعبي الماركسي الأفغاني (PDPA) مظاهرة ضخمة مناهضة للحكومة في العاصمة، فأمر داود خان بسجن جميع موظفي حزب الشعب الديمقراطي. بيد أن القيادي نور محمد تراقي نجا من الاعتقال. وبمشورة زميله الراديكالي حفيظ الله أمين، نشَّط نور شبكة أنصاره الماركسيين في الجيش، وقام ضباط يساريون بانقلاب في 27 نيسان-أبريل 1978، فيما سُمي رسمياً بثورة ساور (أبريل). وخلال المواجهات التي دارت في القصر الرئاسي قُتل داود خان، وآلت مناصبه كرئيس للدولة ورئيس للوزراء إلى نور محمد تراقي، بينما أصبح حفيظ الله أمين نائباً لرئيس الوزراء.[36]

كان هذا الانقلاب تتويجاً لجهودٍ بذلها الماركسيون على مدى عقدين سابقين في تجنيد

(*) الرئيس التنفيذي: هو رئيس يجمع بيده كافة الصلاحيات القيادية ويمارس سلطته على الحكومة وكافة أجهزة الدولة [المترجم].

(**) في تلك الفترة، كان أكثر من 60 % من ميزانية أفغانستان عبارة عن منح وقروض أجنبية [المترجم].

ضباط عسكريين، وقد جاءت سياسات حكومة كابُلْ في صالحهم؛ ففي منتصف الخمسينيات أرسل داود خان ضباطه للتدريب في جمهوريات آسيا الوسطى التابعة للاتحاد السوفييتي، فشعروا بانتماء عنصري وثقافي لتلك البلدان، وشاهدوا الفرق بين التقدم الاقتصادي والاجتماعي والتعليمي الذي عاشه السكان (المسلمون) في تلك الجمهوريات، والأوضاع التي عاشها بنو جلدتهم في أفغانستان. وقد جعلتهم هذه التجارب موالين للسوفييت، كما أنهم باتوا أكثر قابلية للتجنيد ضمن شبكة العسكريين الماركسيين الأفغان.

وفي منطقة الخليج، توجهت أنظار الملوك العرب نحو الأوضاع السياسة المضطربة في إيران، والتي أججتها حملة الشاه المحمومة لتحويل إيران إلى بلد صناعي، وتضخيم ترسانة أسلحتها. ورداً على ذلك، بدأ الملك فيصل بتقوية علاقاته مع ممالك الجزيرة العربية.

وفي ربيع عام 1978، احتدم الصراع الداخلي بين الشاه والحراك الشعبي المناهض للملكية، وفي نهاية المطاف تمكن الأخير من إطاحة سلالة بهلوي مولداً نظاماً جمهورياً ثورياً هدد الوضع الراهن في المنطقة.

الملاحظات

1 NBC News, 21 May 2017, «Trump Receives Royal Welcome in Saudi Arabia,» http://www.nbcnews. com/slideshow/president-trump-s-royal-saudi-welcome-n762616

2 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 20.

3 King Faisal's statement is recorded in the official Saudi journal Umm Al Qura, Issue 2193, 20 October 1967, http://www. muqatel. com/openshare/ Wthaek/Khotob/Khotub13/ AKhotub119_61-. htm_cvt. htm#أم القرى 20%

4 Kerry-Brown BCCI Report, BCCI, the CIA and Foreign Intelligence. https://fas. org/ irp/congress/1992_rpt/bcci/11intel. htm

5 Weston, Prophets and Princes, p. 180.

6 مثل والده ابن سعود، أنجب الأمير سعود الكثير من الأبناء: أنجب 121 طفلاً عاش منهم 52 ابناً و55 ابنة.

7 Hiro, Inside the Middle East, p. 82.

8 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 46.

9 Kerry-Brown BCCI Report, BCCI, the CIA and Foreign Intelligence. https://fas.org/ irp/congress/1992_rpt/bcci/11intel.htm

10 Al Arabiya News, 12 August 2010, «Saudi king limits clerics allowed to issue fatwas.» https://www.alarabiya. net/articles/2010116450/12/08/.html

11 نظرًا لأن الحرب بدأت بعد غروب الشمس في 5 تشرين الأول-أكتوبر 1973، فقد كان التاريخ يوم 6 تشرين الأول-أكتوبر حسب التقويمين الإسلامي واليهودي. بالنسبة لليهود، كان يوم 6 أكتوبر هو يوم الغفران: يوم الكفارة؛ وهكذا أصبحت الحرب معروفة في [كيان] إسرائيل باسم: حرب يوم الغفران.

12 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 508.

13 Holden and Johns, The House of Saud, p. 380.

14 Juan De Onis, «Faisal Killer Is Put To Death, » New York Times, 19 June 1975. http:// www.nytimes. com/197519/06//archives/faisals-killer-is-put-to-death-prince-is-beheaded-before-a-crowd-of.html

15 Ibid.

16 Laudan Nooshin (ed.), Music and the Play of Power in the Middle East, North Africa and Central Asia, Ashgate Publishing, Singapore, p. 94.

17 Joseph Finklestone, Joseph Finklestone Obe, Anwar Sadat:Visionary Who Dared, Routledge, Abingdon and New York, 1996, p. 158.

18 Hiro, Blood of the Earth, p. 115.

19 Clifford Krauss, «Oil Prices Explained: Signs of a Modest Revival, » New York Times, June 2.2016, http://www.nytimes.com/interactive/2016/business/energy-environment/ oil-prices.html

20 Steven Emerson, The American House of Saud, Franklin Watts, New York and London, 1985, p. 136.

21 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, pp. 302–303.

22 Ibid., p. 303.

23 Ibid., p. 304.

24 Anthony Lewis, New York Times, 2 March 1971, «British Reaffirm a Firm Persian Gulf Plan.» http://www. nytimes.com/197102/03//archives/british-reaffirm-persian-gulf-plan assert-they-will-terminate. html?mcubz=0

25 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 307.

26 انضمت رأس الخيمة إلى الإمارات المتحدة في شباط- فبراير 1972.

27 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 333.

28 Ibid., p. 304.

29 Ibid., p. 333.

30 Andrew Scott Cooper, The Fall of Heaven: The Pahlavis and the Final Days of Imperial Iran, Henry Holt, New York, 2016, p. 263.

31 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 499.

32 Iran's oil income shot up from $450 million in 1963 to $4. 4 billion in 1974. See Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 54.

33 Scott Cooper, The Fall of Heaven, pp. 263–264.

34 Marvin Zonis, Majestic Failure The Fall of the Shah, University of Chicago Press, 1991, p. 66.

35 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, pp. 271–272.

36 Dilip Hiro, Holy Wars: The Rise of Islamic Fundamentalism, Routledge, New York, 1989, p. 249.

الفصل الرابع

الثورة الإسلامية في إيران:
قراءة أولية خاطئة من قبل السعوديين

"مرحباً بكم في مسقط رأس الخميني". كتبت هذه العبارة الترحيبية على قوس خرساني بالأحرف الفارسية والإنجليزية عند مدخل مدينة الخمين الواقعة على بعد 290 كيلومتراً جنوبي غربي طهران.

والخميني هو رجل دين قاد، وهو في السادسة والسبعين من عمره، آخر حركة ثورية كبرى في القرن العشرين، وقد نجحت ثورته من خلال حشد مجموعة متباينة من القوى المناهضة للوضع الراهن وراء مطلب واحد، وهو إنهاء حكم سلالة بهلوي في إيران.

وبعد قطع نصف ميل عبر الطريق الرئيسي للمدينة توجد لوحة إعلانية ضخمة أخرى طبعت عليها صورة آية الله روح الله الخميني، بملامح وجهه الحادة ولحيته الرمادية وعينيه الصارمتين، وعمامته السوداء التي تشير إلى انتسابه إلى سلالة النبي محمد[1]، وتقول العبارة المطبوعة على الصورة باللغتين بالفارسية والإنجليزية: "الإمام الخميني (ع)(2) مُحيي الحكومة الدينية في العالم المعاصر".

وعلى مسافة غير بعيدة يوجد قصر يطلق عليه بحسب لافتة مرورية اسم "بيت النور". وهو مجمع بمساحة 4,326 متراً مربعاً يتكون من أربعة منازل متجاورة، لكل منها فِناء خاص فيه حوض سباحة صغير، مع مساحة مزروعة بالزهور في الوسط، وبعض الأشجار على المحيط، وبرج مراقبة من ثلاثة طوابق.

وبينما كنت أتجول في غرف المنزل الرئيس في عام 2004، رأيت تحية للخميني كتبت باللغتين الفارسية والإنجليزية «فتح الإمام الخميني عينيه على الدنيا ليضيء العالم الإسلامي بنوره وبهائه في عام 1902 (1279 بالسنة الإيرانية)». ولفت انتباهي أيضاً وجود نسخة مؤطرة من وثيقة الهوية الخاصة بالخميني، والصادرة عن وزارة الداخلية في جمهورية إيران الإسلامية: "رقمA/12 / .514514باسم سيد روح الله مصطفوي، ولد سنة 1279 (السنة الإيرانية) صادرة عن عليّ أكبر رحماني بتاريخ 20.11.1358".

لم يعش روح الله طفولة عادية، فقد كان عمره خمسة أشهر فقط عندما قُتل والده السيد مصطفى هندي في شباط-فبراير 1903. ولكونه ينحدر من عائلة شديدة التدين فقد بدأ تعلم القرآن في سن السادسة. وبعد أن أنهى تعليمه الفارسي في سن الخامسة عشرة، تلقى دروساً في الإسلام لمدة أربع سنوات على يد أخيه الأكبر مرتضى باسنديده، ثم التحق بالحوزة العلمية في آراك التي كان يديرها آية الله عبد الكريم الحائري اليزدي. وفي عام 1922، انتقل الخميني مع أستاذه إلى قُم، وهي مدينة شيعية مقدسة تقع على بعد 90 ميلاً جنوبي طهران، وبعد ثلاث سنوات حصل الخميني على إجازة في الشريعة والأخلاق والفلسفة الروحية.

صعود الشيخ الثائر

نشر الخميني كتابه الأول "كشف الأسرار" دون ذكر اسمه في عام 1942، وقد أيد فيه مشاريع قطاع الخاص وعارض العلمانية. وجاء في الكتاب: «نحن نقول إنه من أجل خير البلاد يجب أن تدار الحكومة وفق شريعة الله. والناس يطالبون بذلك»، وفيه أيضاً: «وهذا لا يمكن تحقيقه إلا بإشراف الزعماء الدينيين. وفي الواقع، لقد جرت الموافقة والمصادقة على هذا المبدأ في الدستور (الإيراني)، وهو لا يتعارض بأي حال من الأحوال مع النظام العام، أو استقرار الحكومة، أو مصالح البلاد».[3]

تخرّج الخميني في عام 1945 بمرتبة "حجة الإسلام"، وفقاً للهرمية الدينية الشيعية. وقد أتاح له ذلك أن يجمع من حوله دائرته الخاصة من التلاميذ والمريدين الذين يأخذون عنه تفسيراته للشريعة. وجاء هذا في وقت حث فيه رجل الدين الأعلى في إيران، آية الله محمد حسين بروجردي، رجال الدين في إيران على تجنب السياسة. وقد حظي موقفه هذا بقبول محمد رضا شاه. وعقب محاولة فاشلة لاغتيال الخميني في عام 1949، ضغط الشاه على بروجردي ليوقف الأخير الدروس التي كان يلقيها الخميني في مدرسة دينية مرموقة في قم، فبدأ الخميني بإلقاء محاضراته أولاً في مسجد سلماسي ثم في مسجد المحمودي.

شجب الخميني الصفقة التي أبرمها محمد رضا شاه مع اتحاد النفط الغربي في عام 1954، معرباً عن أسفه من اعتماد الحكومة المفرط على الاستثمارات الأجنبية. وبعد وفاة بروجردي عام 1961، حث أتباعُه الخمينيَّ شيخهم على البدء بنشر تفسيراته للشريعة الإسلامية، فاستجاب لهم، ونشر كتاباً بعنوان "بيان نقاط الشريعة"، عرض فيه «أحكام الشريعة فيما يتعلق بكافة نواحي الحياة، بدءاً بأحكام الطهارة وأحكام الجماع، وصولاً إلى أحكام الأكل وتنظيف الأسنان»[4]، وقد أدى صدور الكتاب إلى ترقية الخميني إلى مرتبة "آية الله".

بعد وفاة آية الله أبو القاسم كاشاني في عام 1962 تُرك رجال الدين بلا قيادة. ونظراً للمكانة التي اكتسبها الخميني آنذاك، بعد أن بلغ من العمر ستين عاماً، فقد ظهر كخليفة لكاشاني. وفي سلسلة من خطبه في مدرسة الفيضية المرموقة، في أوائل عام 1963، تحدّى الخميني الشاه، وانتقد ثورته البيضاء واصفاً إياها بالزائفة، ولكنه خسر التحدي، ونُفِي إلى العراق في عام 1965، فأقام في النجف، ثاني أقدس المدن الشيعية بعد كربلاء.(*) وهناك واصل الخميني حملته ضد الشاه، وقد تناسبت حملته تلك مع توجهات البعثيين اليساريين(**)لأنهم كانوا أيضاً معارضين للشاه الموالي للغرب.

واستغل الخميني في عام 1971 احتفالات عيد برسيبوليس بمناسبة مرور 2500 عام على تأسيس الإمبراطورية الفارسية الساسانية(***) التي كان مقرها في مدينة برسيبوليس "تخت جمشيد"، لمهاجمة المؤسسة الملكية بشكل شديد وعلني. وأعلن أنه «وفقاً لحديث النبي محمد فإن لقب "ملك الملوك"، الذي يحمله ملوك إيران، هو أبغض الألقاب إلى الله»، وأضاف: «إن الإسلام يعارض فكرة الملكية برمتها... فالملكية هي واحدة من أكثر المظاهر الرجعية والبغيضة».(5)

تناول الخميني أيضاً موضوع المَلَكية في سلسلة محاضرات نشرها عام 1971 تحت عنوان "الحكومة الإسلامية، ولاية الفقيه"، وقال فيها: إنه بدلاً من إملاء ما يجب فعله وما لا يجب فعله على المؤمنين، والإشراف على رعاية الأرامل والأيتام، وانتظار عودة الإمام الغائب (الثاني عشر)، يجب على رجال الدين الشيعة أن يعملوا جاهدين لإطاحة المسؤولين الفاسدين والأنظمة القمعية، واستبدالها بأخرى يقودها فقهاء مسلمون عدول.

في عام 1972، وبسبب عدم رضاه عن طريقة معاملة النظام العراقي البعثي لرجال الدين الشيعة، طلب الخميني الإذن بالمغادرة إلى لبنان، لكن طلبه جوبه بالرفض. وبعد ثلاث سنوات، شجب تأسيس "حزب رستاخيز (****) [حزب بعث الأمة الإيرانية]، من حيث هو الحزب الحاكم الوحيد في إيران. وقد وجدت دعواته آذاناً صاغية لدى العديد من رجال الدين والطلاب.

(*) مدينتا النجف الأشرف وكربلاء المقدسة على التوالي هما الأقدس شيعياً [المركز].

(**) كان البعثيون اليساريون قد استولوا على السلطة في العراق في عام 1968 [المترجم].

(***) كان قصد الشاه هي الإمبراطورية الفارسية الأخمينية (وليس الساسانية) بوصفها أولى وأكبر إمبراطورية فارسية وأكثرها تقدّماً، أسسها كورش الكبير حوالي عام 550ق.م. وقضت عليها غزوات الإسكندر المقدوني 330 ق.م [المركز].

(****) ظل حزب رستاخيز، الذي أسسه محمد رضا شاه، الحزب الوحيد المرخص في إيران منذ 2 آذار-مارس 1975 وحتى 1 تشرين الثاني-نوفمبر 1978، [المترجم].

بعد توقيع المعاهدة بين إيران والعراق في عام 1975 ازدادت أعداد الحجاج الإيرانيين الشيعة إلى النجف وكربلاء ازدياداً كبيراً، لتصل إلى 2500 حاج في الأسبوع، وقد سهّل ذلك على الخميني توجيه مناصريه في حملتهم المناهضة للشاه عبر أشرطة تسجيل مهربة. وعلى مدى عامين، بدءاً من شباط-فبراير 1977، ازدادت أهمية هذه الأشرطة الصوتية بعد أن بدأت العملية الثورية تكتسب مزيداً من الزخم عبر عدة مراحل تكونت من مظاهرات وإضرابات حاشدة ومتكررة. وطوال ربع القرن الماضي أدت ظروف الغليان الاقتصادي والقمع المستمر إلى تشكل معارضة علمانية صامتة بين أفراد الطبقة الوسطى المتنامية في إيران(*)، وسرعان ما انضمت إلى صفوف المهمشين من المهاجرين الريفيين الجدد ليشكلوا معاً حركة احتجاجية بدأت من المسجد بشبكاته الواسعة في خريف عام 1977.

احتجاجات الشوارع تتحول إلى ثورة

مع صعود جيمي كارتر، المدافع القوي عن حقوق الإنسان، إلى رئاسة الولايات المتحدة في كانون الثاني-يناير 1977 طالب المثقفون الإيرانيون بإلغاء الرقابة، فوافق الشاه المتردد على طلبهم مما شجع المعارضين العلمانيين والمتدينين على حد سواء. وبعد عام من بدء الاحتجاجات شَهَّرت صحيفة اطّلاعات الموالية للحكومة بالخميني، وتناولته بكلام بذيء، مما أدى إلى تأجيج المشاعر الشعبية ووقوف الناس خلف آية الله. وبعد قمع النظام الملكي كل سبل المعارضة العلمانية لجأ المزيد والمزيد من الإيرانيين إلى المساجد ورجال الدين للتعبير عن سخطهم المتزايد. وبذكائه المعهود وظّف الخميني التاريخ الشيعي والقومية الإيرانية لشحذ المشاعر المناهضة للملكية وتأجيجها بين شريحة متنامية من الإيرانيين. أعطى الخميني المتظاهرين الذين قُتلوا برصاص الشرطة في الشوارع لقب الشهداء، وهي مرتبة شرف في الإسلام الشيعي مرتبطة بالإمام الحسين، الذي قُتل في معركة غير متكافئة في كربلاء عام 681، ثم دعا أتباعه لإحياء ذكرى أربعينية وفاتهم عبر تنظيم مظاهرات حاشدة أدت لسقوط مزيد من الشهداء.

في حزيران-يونيو 1978 خطا الشاه خطوة باتجاه المحتجين عبر عزل نعمة الله ناصري، رئيس جهاز السافاك منذ عام 1965، وتعيينه سفيراً في باكستان. وأصدر تعليمات لأقاربه الملكيين بوقف جميع نشاطاتهم التجارية. وقد جاءت خطوات الشاه هذه متأخرة؛ إذ انتهت

(*) في تلك الفترة ازداد عدد المنتمين إلى الطبقة الوسطى بعد تحسن مستويات المعيشة في إيران وارتفاع معدلات محو الأمية [المترجم].

فترة الازدهار الاقتصادي التي استمرت خمسة عشر عاماً في إيران، وانخفض النمو السنوي إلى 2 % فقط.[6]

وعشية شهر رمضان المبارك وعد الشاه بإجراء انتخابات برلمانية حرة وشاملة في حزيران-يونيو 1979، ولكن لم يصدقه أحد. وعلى مدى الأيام التسعة والعشرين التالية، استمر المؤمنون بالصلاة يومياً في المساجد، والاستماع لخطب الوعظ، التي كان تتخللها أحياناً خطب مسجلة للخميني، قبيل فترة الإفطار. وقد أشار محررو كتاب "فجر الثورة الإسلامية، المجلد الأول" إلى أن «الدعاة كانوا يتناولون في خطبهم موضوعات تخص الشيعة مثل النضال والاستشهاد. ولم يكن من الضروري ذكر البهلويين بشكل مباشر، إذ لم يكن من الصعب إجراء مقارنة بين الشخصيات المكروهة مثل يزيد ومعاوية والشاه، أو بين الدولة الأموية، التي تميل إلى الترف والأبهة، وسلالة بهلوي».[7]

ازدادت حدة التيار المناهض للملكية، ولمعالجة الوضع المتأزم غيّر الشاه مسار التهدئة الذي كان يتبعه، وفرض على مجلس الوزراء تصديق مرسوم لتفعيل الأحكام العرفية، وحظر التجول لمدة ستة أشهر في عشرات المدن الإيرانية. وفي يوم الجمعة الموافق لـ 8 أيلول-سبتمبر، اجتمع حشد كبير في ساحة جاله شرقي طهران، غير عابئين بحظر التجول، وقُتل عدد من المتظاهرين برصاص جنود يركبون الدبابات. ولم يجرِ فض المظاهرات وإخلاء الميدان، إلى أن قُتل نحو 1600 شخص، ثم توفي أكثر من 2300 شخص متأثرين بجراحهم خلال الأيام القليلة التالية.[8]

اقتنع الإيرانيون بعد مذبحة الجمعة السوداء بأن الشاه سوف يبذل قصارى جهده للحفاظ على سلطته المطلقة، ولكنهم لم يخافوا حتى عندما أعاد الشاه فرض الرقابة، واعتقل زعماء المعارضة، ووسع الأحكام العرفية لتشمل مزيداً من المدن.

وفي منتصف شهر أيلول-سبتمبر، أصدر موظفو البنك المركزي الإيراني بياناً يوضح أن 177 إيرانياً ثرياً قاموا مؤخراً بتحويل أكثر من ملياري دولار إلى الخارج، وتضمنت القائمة كبار السياسيين، وضباط الجيش، وموظفين حكوميين رفيعي المستوى. وبحلول أواخر أيلول-سبتمبر بلغ معدل هروب رؤوس الأموال من إيران إلى 50 مليون دولار كل يوم[9]، مما يوضح أن النخب الكبرى بدأت تفقد ثقتها في ديمومة سلالة بهلوي.

وبإيعاز من الشاه طُرِد الخميني من العراق، وبعد محاولته الفاشلة للعبور إلى الكويت عن طريق البر سافر جواً من بغداد إلى فرنسا في 6 تشرين الأول-أكتوبر، بعد أن تلقى الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان موافقة ضمنية من الشاه. وما إن استُقبِل الخميني في بلدية

نوفل لوشاتو بالقرب من باريس، حتى راح يجري أربع إلى خمس مقابلات يومياً مع وسائل إعلام دولية.

وبحلول الأسبوع الثالث من شهر أكتوبر-تشرين الأول امتدت الإضرابات داخل إيران لتشمل البنوك، والوزارات الحكومية، ومكاتب البريد، والسكك الحديدية، والصحف، والرحلات الجوية الداخلية، ومحطات الإذاعة والتلفاز، والمستشفيات الحكومية، والجامعات، والمدارس الثانوية، والبازارات. وفي 31 تشرين الأول-أكتوبر، دعا الخميني عمال النفط إلى التوقف عن العمل، فبدؤوا إضراباً مفتوحاً، وقد عنى هذا وقوع خسائر لخزانة الدولة، بمعدل 74 مليون دولار يومياً معظمها بالعملة الصعبة.

في 4 من تشرين الثاني-نوفمبر حاول الطلاب المحتجون في جامعة طهران هدم تمثال الشاه عند مدخل الجامعة الرئيسي. وخلال الاشتباكات سلّم أحد المجندين في الجيش بندقيته للمتظاهرين، فأثار هذا غضب الرقيب المسؤول عنه، فأطلق عليه النار من بندقيته الرشاشة، مما أسفر عن مقتل ثلاثين إلى ستين طالباً ذلك اليوم[10]، وقد كان هذا حدثاً حاسماً لأنه أشار إلى تراجع ولاء قوات الجيش للشاه، لا سيّما المجندين. ثار غضب الشاه عقب تلك الحادثة، فردّ بتعيين حكومة عسكرية، فدعا الخميني الناس في 23 تشرين الثاني-نوفمبر إلى حرمان هذه الحكومة من الضرائب والمساعدات واصفاً إياها بأنها «مخالفة لقانون الأرض والشريعة»، وقال: «من واجب جميع المسؤولين والعاملين في شركات النفط منع تصدير هذا المورد الحيوي». وفي إشارة إلى شهر الحداد المقبل، محرم (الذي يبدأ في 2 كانون الأول-ديسمبر)، دعا الخميني المؤمنين لتنظيم تجمعاتهم دون الرجوع إلى السلطات.[11] وخلال الليالي الثلاث الأولى من شهر محرم، تحدى آلاف الرجال حظر التجول في مدن مختلفة، وقد ارتدوا أكفاناً بيضاء تعبيراً عن استعدادهم للموت، ولقي أكثر من 700 شخص حتفهم نتيجة إطلاق الجيش للنار.

وافق رئيس الوزراء الجنرال غلام رضا أزهري على السماح بإجراء مسيرات العاشر من محرم، وهو يوم عاشوراء، بشرط أن تقود شخصيات المعارضة تلك المسيرات على طول الطريق المحدد. وفي نهاية مسيرة شارك فيها مليونا شخص في طهران يوم الحادي عشر من كانون الأول-ديسمبر، تبنت قوى المعارضة ميثاقاً مؤلفاً من 17 بند بالإجماع. وطالب الميثاق بإنهاء الملكية في إيران، وقبول الخميني كزعيم للبلاد، وتأسيس جمهورية إسلامية.[12] وقد لاقت الدعوة إلى الإضراب العام في 18 كانون الأول-ديسمبر نجاحاً منقطع النظير، وبدأت تظهر على الجيش علامات التصدع الخطيرة، خاصة عندما بدأ الجنود في مراكز المحافظات بالانشقاق والهرب والانضمام إلى صفوف المعارضة.

وبعد أن وصلت حكومة الشاه العسكرية إلى طريق مسدود، بدأ بالبحث عن رئيس وزراء مدني. وفي 29 كانون الأول-ديسمبر وافق شهبور بختيار، زعيم الجبهة الوطنية، على العمل كرئيس للوزراء بشروط (غير مكتوبة) مفادها أن يسافر الشاه فوراً إلى الخارج في إجازة مفتوحة، وأن يصبح الشاه ملكاً دستورياً في المستقبل.

لم يقتنع الخميني بكل هذه الإجراءات. ولكن بعد أن أدرك المعاناة التي سيسببها حرمان ملايين الأسر من وقود التدفئة في منتصف فصل الشتاء أصدر تعليماته إلى عمال النفط بإنتاج ما يكفي لتلبية الاحتياجات المحلية، وذلك يعني إنتاج 700 ألف برميل يومياً بدلاً من 5.3 مليون برميل يومياً كانت إيران تنتجها قبل الاضطرابات الثورية، وكانت تَدُرّ إيرادات قدرها 19.5 مليار دولار، تمثل ثلاثة أرباع الدخل السنوي للحكومة.[13]

لم يسافر الشاه في إجازة على الفور. بل، كما سيتضح لاحقاً، بقي في البلاد لوضع اللمسات الأخيرة على خطة انقلاب عسكري تهدف إلى إطاحة بحكومة بختيار واستدعاءه من الخارج. وأعلن بختيار في 11 كانون الثاني-يناير، بعد نفاد صبره، أن الملك سيغادر البلاد في الأسبوع التالي، وأعلن عن تشكيل مجلس وصاية مكون من تسعة أعضاء. ورداً على ذلك أعلن الخميني بعد يومين إنشاء مجلس الثورة الإسلامية وفقاً «للحقوق التي تمنحها الشريعة الإسلامية، وعلى أساس الثقة الممنوحة لي من الأغلبية الساحقة من الشعب الإيراني». وكُلِّف مجلس الثورة بتعيين حكومة مؤقتة، وعقد جمعية تأسيسية لوضع دستور للجمهورية الإسلامية، وإجراء انتخابات رئاسية ونقل السلطة إلى الرئيس المنتخب.[14] وفي 16 كانون الثاني-يناير، غادر الشاه وحاشيته لقضاء عطلة في منتجع أسوان المصري.[15]

وفي مساء يوم 31 كانون الثاني-يناير استقل الخميني ومساعدوه والصحفيون طائرة مستأجرة خصّيصاً في باريس، ووصلوا في صباح اليوم التالي إلى مطار طهران. واصطف ثلاثة ملايين شخص في الشوارع لتحية الخميني، وعندما وجدوا الشوارع مغلقة، قام مسؤولو اللجان الثورية بنقل الخميني بطائرة هليكوبتر إلى مدرسة ثانوية في شرق طهران، وأقام فيها لمدة شهر. وعلى الفور قام الخميني بتعيين مهدي بازركان، زعيم حركة التحرير الإيرانية، رئيساً لوزراء الحكومة المؤقتة.

ولتجنب الاصطدام المباشر مع الخميني، وافق بختيار على عدم اعتقال حكومة آية الله المؤقتة والاكتفاء بتسميتها "إدارة ظل"، ولكن الجيش كان يتفكك بسبب تزايد حالات الفرار من الخدمة. وفي 9 شباط-فبراير، تصاعد التمرد في قاعدة دوشان تاب الجوية شرقي طهران. وعندما أمر بختيار النخبة الإمبراطورية بالاستيلاء على القاعدة الجوية، وجدوا في طريقهم

رجال حرب عصابات مدنيين هاجموا دباباتهم بالقنابل اليدوية والمدافع الرشاشة. وبعد أن استولى رجال العصابات على مستودع الأسلحة في القاعدة الجوية، سارع شبان مسلحون للسيطرة على حرم جامعة طهران. وخلال الأربع والعشرين ساعة التالية، (10-11 شباط-فبراير)، تمكن الثوار المسلحون، والقوات الجوية، والفارون من الجيش من تدمير ما تبقى من آلة حرب الشاه الهائلة.

في الساعة الثانية من ظهر يوم 11 شباط-فبراير أعلن الجنرال عباس كريم القره باغي، رئيس المجلس العسكري الأعلى، حياد القوات المسلحة في الأزمة السياسية الحالية، وأمر القوات بالعودة إلى حامياتها[16]، بعد أربع ساعات، قُطِع بثّ الموسيقى في الإذاعة الوطنية الإيرانية، ليعلن مذيع أن المحطة قد تمّت السيطرة عليها من قبل «قوات الثورة».

شنّت فلول الحرس الإمبراطوري هجوماً على محطات الإذاعة والتلفاز في 14 شباط-فبراير، فتصاعدت دعوات للحصول على الدعم الشعبي لصد الهجوم، فظهر آلاف الثوار المسلحين للمؤازرة، وتمكنوا من هزيمة الملكيين في غضون ساعة. وأخيراً سقطت طهران بأكملها تحت سيطرة الثوار. واستمر القتال في إحدى عواصم المحافظات، بين القوات الموالية للخميني والقوات الموالية للشاه حتى 16 شباط-فبراير، ولكنه انتهى لصالح الثوار.

منذ بدء المواجهات، عندما أطلقت قوات الشرطة النار على المتظاهرين في كانون الثاني-يناير 1978، وإلى أن تمت إطاحة سلالة بهلوي في شباط-فبراير 1979، فَقَد المناهضون للملكية نحواً من 10.000 إلى 40.000 رجل، وانخفضت قوى الجيش من حوالي 300 ألفاً إلى أقل من 100 ألف، معظمهم بسبب الفرار.

وبعد أشهرٍ من الاضطرابات المدنية والعسكرية، وزيادة إنتاج النفط، وما تبعها من ركود، أصيب الاقتصاد الإيراني بالشلل التام، ناهيك عن الإضراب المفتوح الذي أعلنه عمال النفط تحت تأثير حزب تودة السري. ومع ذلك، لم يستسلم الشاه حتى الرمق الأخير! ولو لم يعمل المناهضون للملكية تحت قيادة شخص ذكي وصامد مثل الخميني، الذي كان يقيم في الخارج آنذاك، لكانوا سيفشلون على الأرجح في إنهاء سلالة بهلوي.

لقد كان من الصعب تصديق أن حركة من المواطنين العاديين العُزَّل تمكنت من إطاحة أقوى ملك في المنطقة، مدعوم بقوة عسكرية موالية قوامها أكثر من 400 ألف جندي.[17] فبين عامي 1972 و1978، رفع الشاه الميزانية العسكرية من مليارٍ و345 مليون دولار إلى تسع مليارات و94 مليون دولار، ولم يستهلك الجيش سوى ربع إجمالي الميزانية، كما أنه أبرم خلال تلك الفترة عقود تسليح بقيمة 20 مليار دولار مع شركات أمريكية.[18] وقد

أثار هذا قلق الرياض، رغم أن مملكة الصحراء كانت على وشك تحقيق مكاسب مالية وإستراتيجيّة.

ومع خسارة إيران، كمورد مهم وموثوق للنفط، أصبحت واشنطن أكثر اعتماداً على نفط المملكة العربية السعودية، التي كانت آنذاك ثاني أكبر منتج للنفط في العالم بعد الاتحاد السوفياتي (11.4 مليون برميل يومياً)، ومتقدمة على الولايات المتحدة (8.5 مليون برميل يومياً). ومع وصول واردات النفط الأمريكية إلى حوالي 8 ملايين برميل يومياً، كان من المتوقع أن تدفع الولايات المتحدة مبلغاً قياسياً قدره 61 مليار دولار مقابل وارداتها النفطية في عام 1979، وأن تكسب المملكة العربية السعودية أكثر من 66 مليار دولار من صادرات النفط.[19]

أركان الجمهورية الإسلامية

إن ما يميز التحول التاريخي في منطقة الشرق الأوسط من الناحية السياسية، بالإضافة إلى التغيرات الجذرية التي طرأت على المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية، هو أن نهاية النظام الملكي في إيران تحققت عبر خروج ملايين الناس إلى الشوارع، فقد سقطت السلالات الحاكمة في مصر والعراق نتيجة انقلابات عسكرية، ثم حظيت بدعم شعبي لاحق. ولم تخرج أية مظاهرات احتجاجية شعبية استمرت على مدى أشهر عديدة في أي من مصر والعراق الملكيّتين؛ فبعد ثورة إيران تزايدت موجات المقاومة المسلحة، وتحولت الجيوش المحلية إلى مجرد مراقب سلبي.

أخفق النظام الملكي في السعودية في إدراك الفارق الحاسم بين الانقلابات التي نفذها ضباط عسكريون، كما كان الحال في مصر والعراق، والحركة الثورية الشعبية الحقيقية، التي اكتسبت مزيداً من الزخم شهراً بعد شهر، ونجحت في إسقاط النظام بشكل كامل، مع اضعاف قواته المسلحة، كما حدث في إيران بين خريف عام 1977 وشباط-فبراير 1979، وظنّ الملك المعلول خالد، وأخوه الأصغر غير الشقيق فهد ولي العهد، أن بإمكانهم معالجة تداعيات الإطاحة الثورية للنظام الملكي في طهران بشكل هادئ، تماماً كما فعلوا مع الانقلابات المناهضة للملكية في كل في بغداد والقاهرة، ولهذا السبب لم يُعرب فهد، رئيس الوزراء الفعلي منذ كانون الثاني-يناير 1979، عن أي انزعاج علني، واكتفى بالقول: إن ما يحدث في إيران هو مشكلة داخلية ومن الأفضل ترك حلها للإيرانيين أنفسهم.[20]

ضمن سلسلة محاضرات لتفسير القرآن الكريم نشر الخميني، في فصل حمل عنوان "النظام"، أن الحكم الملكي الأسري هو حكم غير إسلامي، وقد أثار هذا قلق أسر الخليج

الحاكمة التي استمدت شرعيتها من أحكام الشريعة الإسلامية، وبشكل خاص أسرة آل سعود. فبالنسبة لهم شكلت أطروحة الخميني، التي رددتها وسائل الإعلام التي تديرها الدولة في إيران، تحدياً إيديولوجياً خطيراً.

عرف الملك فيصل، وكذلك مؤسسته الوهّابية، أنه سيكون من الصعب عليهم نشر عقيدتهم في الخارج، نظراً لضيق قاعدة مؤيديهم، فقرروا الانفتاح على المذهب السلفي الذي نشأ، وتطور في أقدم جامعة إسلامية، جامعة الأزهر في القاهرة، تحت قيادة جمال الدين الأفغاني (1838-1897)،(*) الذي نوه بتشدد السلف في صدر الإسلام، بينما أبرز تلميذاه المصريان، محمد عبده ومحمد رشيد رضا، كيفية تطبيق أقوال النبي محمد وأتباعه الأوائل وأفعالهم على الحياة المعاصرة. وبذلك وضع النظام السعودي أسس "الوحدة الإسلامية" كنظير سياسي في مواجهة "الوحدة العربية" التي نشرها الرئيس المصري جمال عبد الناصر. وهكذا نجح فيصل في نزع فتيل التهديد الأيديولوجي الذي كان يمثله عبد الناصر، خاصة بعد اعتناق الأخير إيديولوجيا الاشتراكية العربية.

في أواخر السبعينيات وجد الملك خالد ومستشاروه أنه من الصعب التقليل من أهمية شخصية إسلامية بارزة كالخميني، ولكنهم تذرعوا بأن كل ما يقوله الخميني ينطبق على الشيعة وحكامهم فقط، ولا علاقة له بالسُنّة وعقائدهم. وقد أثبتت هذه الإستراتيجية فعّاليتها نظراً لانتشار المشاعر المناهضة للشيعة في منطقة الخليج.

أما نظام الخميني، فقد واجه تحديات ضخمة تتمثل في هزيمة محاولات فلول النظام القديم لاستعادة السلطة، وتوطيد دعائم الثورة التي ضمت الكثير من القوى العلمانية واليسارية، على الرغم انطلاقها وقيادتها من المسجد عبر لجان إسلامية محلية. وكان على الخميني أن يخرج إيران من حضن الولايات المتحدة، وأن يمحو التأثير الأمريكي في المجتمع الإيراني، وكذلك تحييد بقايا النظام الملكي. وقد حافظ النظام الجديد على ما تبقى من جيش الشاه، مع تطهيره من جميع الضباط الذين عدَّهم غير إسلاميين. ولم تكن تلك مهمة سهلة؛ فإلى جانب الـ 11 ألف ضابط الذين خضعوا لتدريب طويل في أمريكا، كان هناك عدة آلاف آخرين خضعوا لدورات تدريبية قصيرة هناك[21]، كما تقرر أيضاً استبدال تشريعات مستمدة من الشريعة بعشرات القوانين العلمانية.

وكانت الأولوية الأولى هي إطلاق استفتاء عامّ لتسمية النظام السياسي الجديد في مرحلة

(*) جمال الدين الأفغاني: من زعماء الإصلاح في العصر الحديث، سعى إلى بثّ روح الثورة على الفساد والاستبداد والجمود الفكري في المجتمعات الإسلامية، ولم يؤثر عنه إنه من أنصار السلفية [المركز].

ما بعد الشاه، فأزال الخميني مقترحات "الجمهورية الديمقراطية الشعبية" و"الجمهورية الإسلامية الديمقراطية" من صيغة الاستفتاء، واختار بدلاً منها السؤال: "هل ينبغي لإيران أن تصبح جمهورية إسلامية؟"، فقاطعت الأحزاب اليسارية، والعلمانية، والمناطقية الاستفتاء، فرد النظام بخفض سنّ التصويت من 18 إلى 16 عاماً. وصوت أكثر من 98 % لصالحه. وفي 1 نيسان-أبريل 1979 وُلدت جمهورية إيران الإسلامية.

وفي 6 أيار-مايو أمر الخميني بتشكيل قوات الحرس الثوري الإسلامي، وهي قوة خاصة مسؤولة أمام اللجنة الثورية المركزية عن حماية الثورة، وعملت تلك القوات على مراقبة أنشطة اليساريين والليبراليين، وفض المظاهرات والإضرابات التي نظموها، كما قاموا بمراقبة ثكنات الجيش ومراكز الشرطة.[22] وقد تكونت نخبة قوات الحرس الثوري من أبناء الطبقة المتوسطة الدنيا والعائلات الحضرية الفقيرة المخلصة تماماً للخميني والثورة، ورأى مراقبون أن الحرس الثوري أُنشِئَ كقوة مضادة لقوات الجيش التي غالباً ما يقودها ضباط مشكوك بولائهم للجمهورية الإسلامية.

بعد ستة أشهر من نجاح الثورة أنشأ نظام الخميني مؤسسات جديدة في مختلف المجالات الإدارية، والسياسية، والقضائية، والاقتصادية، والأمنية: اللجان الثورية، والحزب الجمهوري الإسلامي، والمحاكم الثورية، ومؤسسة المستضعفين (التي استولت على أصول مؤسسة بهلوي، والإيرانيين الأثرياء الذين فروا من البلاد)، والحرس الثوري.

وفي المجال الثقافي أوقف النظام الجديد عملية تطهير اللغة الفارسية من الكلمات العربية، التي أُطلقت بأمر شخصي من الشاه. وبدلاً من ذلك شجع النظام الجديد على تعلم اللغة العربية عبر عرض دروس في اللغة العربية على إحدى القنوات التلفازية التي تملكها الدولة، وكان جميع رجال الدين الإيرانيين يتقنون اللغة العربية، كمادة إلزامية في مناهجهم الدراسية، وكانوا يدرسون القرآن بلغته الأصلية.

وبعد اعتراف السعودية بنظام الخميني التقى نائبَ رئيس وزرائها الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، وقال في حديث له لوكالة أنباء الخليج: إن «النظام الجديد في إيران أزال العقبات والتحفظات أمام أنواع التعاون كافةً بين السعودية والجمهورية الإسلامية الإيرانية... القرآن الكريم هو دستور بلدَينا، وبالتالي، بات ما يجمعنا أكثر من مجرد المصالح المادية أو الجغرافيا السياسية».[23] وكان هذا تصريحاً متسرّعاً، وقد تبين أنه قراءة خاطئة للعوامل التي هزت إيران.

وفي طهران كانت أولى مَهامّ الحكومة المؤقتة هي الترتيب لانتخاب مجلس خبراء لوضع

دستور للبلاد، فأجريت الانتخابات في 1 آب-أغسطس، وقد تألف المجلس من ثلاثة وسبعين عضواً، كان خمسة وأربعون منهم من رجال الدين، والباقي من العلمانيين.[24] وفي أولى مهامه ناقش المجلس، في منتصف حزيران-يونيو، مسودة دستور أُدخِل فيها لأول مرة مفهوم ولاية الفقيه الذي طوّره الخميني. ففي كتابه "الحكومة الإسلامية"، الذي نُشر عام 1971، قال الخميني: إن إقامة نظام إسلامي يستلزم وجود حاكم مسلم ملمّ تماماً بأمور الشريعة، عادلٍ في تطبيق تعاليمها، بوصفه فقيهاً عادلاً يحمل، وفق التسلسل الهرمي الديني الشيعي، لقب "مرجع التقليد". ويساعد الحاكمَ العادل فقهاءُ من مختلف الهيئات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

كما نصت مسودة الدستور على إنشاء برلمان منتخب شعبياً، مفتوحٍ لكل من المؤمنين ورجال الدين، وظيفته حل النزاعات التي قد تنشأ خلال تطبيق تعاليم الشريعة، بينما يقتصر تولي الوظائف القضائية على الفقهاء المطّلعين على أمور الشريعة. وتقع مسؤولية الإشراف على البرلمان والسلطة القضائية على عاتق الفقيه العادل، الذي يجب عليه أيضاً التأكد من عدم تجاوز السلطة التنفيذية لصلاحياتها.[25]

استُكمل إعداد الدستور الجديد في 15 تشرين الثاني-نوفمبر، وجرت الموافقة على نسخته النهائية بنسبة 98% من الناخبين، ضمن استفتاء عام أجري في 2 و3 كانون الأول-ديسمبر. وقد نص الدستور على أن «الدين الرسمي لإيران هو الإسلام، والمذهب الجعفري الاثني عشريّ، مع الاحترام الكامل للمذاهب الحنفية، والشافعية، والمالكية، والحنبلية في الإسلام السني، وكذلك المذهب الشيعي الزيدي»، كما اعترف الدستور الجديد بالمسيحيين، واليهود، والزرادشتيين كأقليات دينية، وخَصص لهم أربعة مقاعد في المجلس.

وبما أن «الله منح الإنسان حرية تقرير مصيره الاجتماعي»، فقد أقرّ المبدأ (56) أنه «ليس لأحد أن يحرم الإنسان هذا الحق الإلهي، وربطها بمصالح فرد أو مجموعة معينة»، وكانت هذه إدانة واضحة للملكية، ودكتاتورياتها المدنية والعسكرية، وعصابات الجنرالات.

وقد منح الدستور الجديد الفقيه العادل لقب "قائد الثورة"[26]، وأعلن أن الخميني هو الفقيه العادل والمرشد الأعلى للثورة الإسلامية مدى الحياة، على أن يتولى مجلس خبراء منتخب شعبياً تسمية المرشد أو مجلس القيادة، الذي يتولى منصبه لمدة ثماني سنوات، بعد وفاة المرشد الأعلى. ونص الدستور أن السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية للحكومة مستقلة بعضها عن بعض.

ومباشرة بعد الفقيه العادل يقع رئيس الجمهورية الذي يجري اختياره بالانتخاب المباشر

كرئيس تنفيذي، وقد يكون رجل دين، أو شخصاً عادياً. وقد نص البند السابع من دستور الجمهورية الإسلامية أنه «عملاً بنص القرآن الكريم: ﴿أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ و﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، تَعدّ المجالس والهيئات الاستشارية جزءاً لا يتجزأ من أجهزة صنع القرار والأجهزة الإدارية في الدولة»، وتستشيرها في جميع شؤونها. ويضمن مجلس صيانة الدستور، الذي يرشح الفقيه العادل جزءاً منه، وينتَخب المجلس الجزء الآخر، عدم تعارض مشاريع القوانين التي يقرها المجلس مع مبادئ الشريعة والدستور، كما يقوم بفحص المرشحين للمناصب العامة.

ونصت مواد الدستور التي تتناول الحقوق الفردية الأساسية على المساواة في الحقوق الإنسانية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية بين الرجل والمرأة، وسمحت بتكوين الأحزاب والجمعيات السياسية والمهنية، وكذلك الجمعيات الدينية، شرط ألا تنتهك مبادئ الاستقلال، أو الوحدة الوطنية، أو المعايير الإسلامية.[27] إلا أن هذه المبادئ لم تُنفَّذ عملياً إلا تنفيذاً جزئياً.

ويبدو أن كبار أمراء الرياض لم يكلّفوا أنفسهم عناء ترجمة الدستور الإيراني إلى العربية أو الإنجليزية من أجل الاطّلاع عليه، وكان هذا هو الاستنتاج الوحيد الذي يمكن استخلاصه مما قاله ولي العهد الأمير فهد بن عبد العزيز آل سعود في مقابلته مع مجلة الحوادث بتاريخ 10 كانون الثاني-يناير 1980: «ليس من مصلحتنا أن يكون هناك سوء فهم... خاصة أن النظام الإيراني الجديد أصبح يعمل تحت راية العقيدة الإسلامية التي هي شعارنا في المملكة العربية السعودية»[28]، ولو أنهم كلّفوا أنفسهم عناء تصفح الدستور الإيراني، لكان تبين لهم وجود هُوّة واسعة بين السعوديين والإيرانيين من حيث تطبيق تعاليم الإسلام المتصلة بإدارة الدولة وتسيير شؤون مواطنيها؛ فقد جاء في المادة 152 من الدستور الإيراني الجديد أن السياسة الخارجية للجمهورية الإسلامية تقوم على «رفض كافة أشكال الهيمنة، والمحافظة على الاستقلال التام ووحدة أراضي البلاد، والدفاع عن حقوق جميع المسلمين... [و] عدم الانحياز للقوى العظمى المهيمنة».

وفي الواقع، كان الخميني قد وضع الجمهورية الإسلامية بالفعل على طريق عدم الانحياز؛ ففي 10 آب-أغسطس أنهت حكومته اتفاقية التعاون العسكري مع الولايات المتحدة لعام 1959، كما انسحبت من منظمة المعاهدة المركزية المناهضة للسوفييت (CENTO)، التي تشكلت في عام 1959، وكانت بريطانيا العضو المؤسس لها، وألغت ثلاثة أرباع طلبيات الأسلحة الأمريكية البالغة 12 مليار دولار في المجمل[29]، وقطعت علاقات إيران مع [كيان] إسرائيل، واعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية.

عطلت هذه الإجراءات إستراتيجية واشنطن المناهضة للسوفييت في الشرق الأوسط التي ارتكزت منذ قيام دولة [كيان] إسرائيل عام 1948 على ثلاث ركائز: [كيان] إسرائيل، والسعودية، وإيران؛ فلطالما اطمأنّ أفراد العائلة المالكة السعودية، رغم خلافاتهم الدورية مع الشاه، لحقيقة أن كلاً من السعودية وإيران الشاه كانتا تستظلان معاً تحت المظلة الأمنية الأمريكية، أمّا الآن، وعقِب توتر العلاقات بين نظام الخميني وأميركا، فقد بدأ القلق يقضّ مضاجع أمراء العائلة المالكة في السعودية.

بدأت علاقات طهران مع واشنطن تتدهور خلال الاضطرابات التي صاحبت الثورة، وتقلص عدد موظفي سفارة الولايات المتحدة في طهران بعد أن بلغ 1000 موظف في ذروة حكم الشاه، ليصل إلى 60 موظفاً في ربيع عام 1979. وفي 17 أيار-مايو أعرب مجلس الشيوخ الأمريكي عن "اشمئزازه" من "عمليات الإعدام التي كانت تجري دون اتباع الإجراءات القانونية الواجبة"، ورد راديو طهران بأن مجلس الشيوخ نفسه لم يقل شيئاً إزاء المذابح التي تعرض لها مئات الثوار الإيرانيين في الشوارع في وقت سابق من أحداث الثورة.

وفي 25 أيار-مايو، خرجت مظاهرات في جميع أنحاء البلاد ضد قرار مجلس الشيوخ، لتعلن أن "أمريكا هي العدو الأول للثورة الإسلامية"، وبعد 22 تشرين الأول-أكتوبر تدهورت الأوضاع بشكل كبير، عندما سمحت إدارة كارتر للشاه المخلوع بدخول أمريكا لتلقّي العلاج، بعد أن شُخِّصت إصابته بمرض السرطان في مرحلة متقدمة، وبذلك خرقت الولايات المتحدة وعدها الذي قطعته لإيران، فطالب نظام الخميني بتسليم الشاه لمحاكمته بتهمة الخيانة العظمى لخرقه دستور 1907، عندما أمر بقتل آلاف المتظاهرين السلميين، فرفضت إدارة كارتر تسليمه.[30]

وفي الأول من تشرين الثاني-نوفمبر تظاهر ثلاثة ملايين شخص في إيران للمطالبة بتسليم الولايات المتحدة للشاه، وفي اليوم التالي حث الخميني الطلاب على تكثيف حملتهم ضد أمريكا لحين إعادة الشاه إلى إيران، وأعلن يوم الرابع من تشرن الثاني-نوفمبر يوماً للطلاب.

وفي اليوم المحدد لإقامة التجمع الطلابي المخطط له في حرم جامعة طهران نَقل حوالي 450 ناشطاً من الجمعيات الإسلامية في الجامعات المحلية وجهتهم نحو السفارة الأمريكية، واستولوا عليها في غضون ثلاث ساعات.

الملاحظات

1 يرتدي رجال الدين الشيعة، الذين لا يدّعون النسب إلى النبي محمد، عمائم بيضاء.

2 (ع) تعني «سلام الله عليه».

3 Ruh Allah Khumayni, Islam and Revolution (tr. Hamid Algar), Mizan Press, Berkeley, CA, 1981, p. 170.

4 Hiro, The Iranian Labyrinth, p. 120.

5 Khumayni, Islam and Revolution, p. 170.

6 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 73.

7 Ministry of Islamic Guidance, The Dawn of Islamic Revolution: Volume I, Tehran, nd, pp. 254–255.

8 Ali-Reza Nobari (ed.), Iran Erupts, The Iran-America Documentation Center, Stanford, CA, 1979, p. 196.

9 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, pp. 78–79.

10 Ibid., p. 81.

11 Ibid., p. 83.

12 Ibid., pp. 84–85.

13 Ibid., pp. 86–87.

14 Khumayni, Islam and Revolution, pp. 246–247

15 في مارس 1980، دعا الرئيس أنور السادات الشاه إلى القاهرة. وتوفي هناك بسبب مرض السرطان في 27 تموز/يوليه تاركاً وراءه أرملته فرح ديبا وابنهما الوحيد رضا سايروس.

16 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 93.

17 عندما سُئل آية الله مرتضى باسنديده، الأخ الأكبر للخميني، عن الوقت الذي توقع فيه بالضبط نجاح الثورة، أجاب آية الله مرتضى باسنديده، قائلاً »لم أتوقع نجاح الثورة على الإطلاق. « مقابلة في قم، ديسمبر 1979.

18 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 95.

19 Hiro, Inside the Middle East, p. 337.

20 Awadh Al Badi, «Saudi-Iranian Relations: A Troubled Trajectory. » http://futureislam. com/blog/saudi-iranian-relations-a-troubled-trajectory-2/

21 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 154.

22 Ibid., p. 110.

23 Al Badi, «Saudi-Iranian Relations. » http://futureislam. com/blog/saudi-iranian-relations- a-troubled-trajectory-2/

24 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 119.

25 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 704.

26 المعنى الحرفي لكلمة »رهبر انقلاب« هو قائد الثورة. ولكن من أجل تمييزه عن الاسم الشائع »القائد«، تستخدم وسائل الإعلام باللغة الإنجليزية مصطلح (القائد الأعلى.)

27 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, pp. 120–122.

28 Al Badi, «Saudi-Iranian Relations. » http://futureislam. com/blog/saudi-iranian-relations- a-troubled-trajectory-2/

29 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 318.

30 Ibid., p. 318.

الفصل الخامس

ثورة إيران الثانية
وتحدي الألفية لآل سعود

يتناسب حجم المجمع الدبلوماسي الأمريكي المترامي الأطراف، وموقعه في وسط طهران عند تقاطع شارع تخت جمشيد وشارع روزفلت، مع مكانة الولايات المتحدة وأهميتها، تقع السفارة الأمريكية ضمن مجمع محاط بجدران عالية من الطوب، على امتداد ربع ميل في كل اتجاه، يتضمن المجمع الدبلوماسي المبنى الإداري الرئيسي، والمكاتب، وقصر السفير، ومنازل لكبار الدبلوماسيين، ومستودعاً، ومحطة كهرباء وملاعب تنس، وملعب كرة قدم، وحمام سباحة، وموقف سيارات، وحديقة واسعة.

"وكر الجواسيس"

في الوقت الحاضر، يضم المجمع الذي تبلغ مساحته 30 فداناً، جامعة الإمام الحسين والمدرسة المهنية لمنظمة الحرس الثوري الإسلامي، وقد حُوِّلت السفارة السابقة إلى فصول دراسية للحوسبة. ونظراً لعدم سماح السلطات الإيرانية للصحفيين والكتاب الأجانب بدخول موقع المبنى، فإن الطريقة الوحيدة لتكوين فكرة عن ضخامة المكان هي النظر إليه من نوافذ مطعم في الطابق الثالث من فندق مشهد عند شارع طالقاني (تخت جمشيد سابقاً)، وكان هذا ما فعلته خلال زيارتي لطهران قبل بضعة أسابيع من الذكرى العشرين للاستيلاء على السفارة الأمريكية في تشرين الثاني-نوفمبر 1979.

وقد تناولت موضوع العلاقات الإيرانية الأمريكية خلال حديثي مع كبير النادلين، شهريار أصفهاني، وأحد موظفي المطبخ، أمير زركش الذي قال لي، بينما كان يسترجع ذكرياته دون أي انفعال: «استمرت المظاهرات لأسابيع عدةٍ، وكان بعض المتظاهرين ينامون في الشوارع رغم الجو البارد. وقد أغلقت المتاجر المحلية أبوابها لأيام عدةٍ بسبب المظاهرات».

ومع أنني كنت هناك يومها أغطي الحدث لصحيفة صنداي تايمز، فقد كنت أفتقر لموقع

مميز كموقع زركش، فلم يكن بإمكاني إلا رؤيةُ ما يحدث على مستوى الشارع وسماعه، كحال العديد قنوات التلفزة الأمريكية والأوروبية التي كانت تخيّم أمام المدخل الرئيسي، الذي كان حينها عند منتصف الجدار المواجه لشارع طالقاني، وليس في الزاوية عند تقاطع شارع طالقاني وشارع الشهيد مفتاح (روزفلت سابقاً) حيث هو الآن.

بعد الأسابيع الأولى لاحتلال السفارة خاضت الأمة الإيرانية ثورة ثانية ركزت على تطهير إيران من النفوذ الأمريكي المتغلغل في جميع جوانب الحياة، باستثناء المساجد؛ ولذلك أُسقِطت حكومة مهدي بازركان المؤقتة التي يهيمن عليها العلمانيون في 6 تشرين الثاني-نوفمبر، إذ أمسك المجلس الثوري الإسلامي(*) بجميع مقاليد السلطة.

أصبحت السفارة الأمريكية المحتلة نقطة تجمع ومقصداً للمحتجين، ووُضعت صور ضخمة للخميني على السور المحيط بمبنى السفارة والمباني التي تقع خلفه، قبالة شارع طالقاني، وزُيِّنت بالعديد من اللافتات باللغات الإنجليزية والفارسية والعربية، أبرزها عبارة "الله أكبر"، و"لا تفاوض حتى تسليم الشاه"؛ لقد كانت المنطقة كلها تعج بالحيوية على مدار الساعة، إذ كانت أضواء التصوير تمحو عتمة الليل.

ويغدو المكان في النهار أشبه بركن المتحدثين في لندن، حيث يجتمع الناس في حلقات، ويتحدثون معاً في أمور السياسة، ويتناقشون، ويوزعون منشورات تحتوي على معلومات حول أنشطة الأحزاب أو الفصائل المعنية، بينما يبيع بعضهم المجلات والأدبيات السياسية، ويشاهدون المتظاهرين المارين من أمام السفارة وهم يهتفون ويرفعون اللافتات.

وفي أحد الأيام مرت مظاهرة لعمال المصانع من أمام مبنى السفارة، ثم مرت مظاهرة لتجار البازار ومساعدي المبيعات، ثم جاء دور طلاب المدارس الثانوية من البنين والبنات، ليليهم موظفو المستشفيات، وموظفو الخدمة المدنية، والصحفيون، وموظفو شركة النفط الوطنية الإيرانية.

وقد أظهر استطلاع للرأي أجريته على مدى أسبوع في مناطق عدةٍ من طهران في أواخر تشرين الثاني-نوفمبر لصحيفة صنداي تايمز أن غالبية السكان البالغين في طهران زاروا السفارة الأمريكية مرة واحدة على الأقل، إما بشكل فردي، أو كجزء من مسيرة. وكانت الشعارات الأكثر تكراراً على مسامعي: "أعطونا الشاه الشرير [وكان حينها يرقد في مستشفى أمريكي]"، و"الله أكبر". "الخميني القائد"، و"الموت لأمريكا".

وبعد قرابة عقدين من الزمن ذهب زركش، العامل في فندق مشهد، إلى أبعد من ذلك

(*) يتألف المجلس من 13 عضواً بقيادة آية الله محمد بهشتي، وبعضوية ستة رجال دين آخرين [المترجم].

في ذاكرته، فقال: «ما زلت أتذكر الفترة التي كان فيها الأميركيون يأتون إلى طهران، وينزلون في فندقنا، في عهد الشاه. كنا نرى النساء الأمريكيات نصف عاريات في حمام السباحة هنا. كان أولئك الأمريكيون صاخبين للغاية. لم يستطع بعض الضيوف النوم بسبب الضوضاء التي أحدثوها». وما يزال زركش يستمتع باسترجاع المشهد الذي رآه من شباك مطبخه عندما "قفز فيها الطلاب فوق الجدار، وهُرعوا إلى مبنى السفارة".

حاول الموظفون داخل السفارة تدمير أكبر عدد ممكن من الأوراق السرية، إما بإحراقها، أو باستخدام آلات تمزيق الورق، ولكن الطلاب المهاجمين تمكنوا من دخول مبنى السفارة الرئيسي بسرعة ودقة مذهلتين، واستولوا على معظم الوثائق بحالتها السليمة، واحتفظوا أيضاً ببقايا الورق ليعاد جمعها لاحقاً ونشرها في سلسلة من أربعة وخمسين مجلداً باللغتين الفارسية والإنجليزية تحت عنوان وثائق وكر الجواسيس.[1] وقد شكلت هذه الوثائق، خلال الأشهر التالية، كنزاً ثميناً للزعماء الإسلاميين الذين وصفوا السفارة بأنها "وكر للجواسيس"، وقد استخدموا الأوراق المضبوطة لتشويه سمعة معارضيهم والقضاء عليهم.

وبعد احتجاز سبعة وستين دبلوماسياً أمريكياً كرهائن، وانخفاض العدد لاحقاً إلى اثنين وخمسين، بعد إطلاق سراح خمسة عشر امرأة ورجلاً أمريكياً سوداً بأمر من الخميني، أعلن الخاطفون، الذين يطلقون على أنفسهم "أنصار الإمام" (الخميني)، أنهم سيتبادلون رهائنهم بالشاه، وقد رفضت إدارة كارتر تلك الصفقة قائلة: إنها غير واردة. إلا أن الإدارة، في محاولة يائسة لإطلاق سراح الرهائن الأمريكيين، ضغطت على الشاه لمغادرة البلاد، ولكن لم تكن أية دولة مستعدة لاستقباله. ومع ذلك، واستسلاماً للضغوط الأمريكية، وافق حاكم بنما: الجنرال عمر توريخوس، على استقباله في بلاده، فغادر الشاه نيويورك في 15 كانون الأول-ديسمبر.

وفي خضم هذه الأزمة الحرجة تلقت إدارة كارتر صدمة أخرى من الدولة التي لم تزل تؤثرها في المنطقة، المملكة العربية السعودية؛ ففي كل عام يستنفد الحج موارد المملكة العربية السعودية إلى الحد الأقصى. وبغض النظر عن موقفها الثورة في إيران فقد كان على السعودية أن تتعامل مع الحجاج القادمين من ذاك البلد، وقد حاول الزعيم الإيراني الجديد آية الله روح الله الخميني، استخدام طقوس الحج السنوية، المقرر إجراؤها في 30 تشرين الثاني-أكتوبر 1979، لتعزيز مفهوم الثورة الإسلامية في أرجاء العالم الإسلامي. وهكذا عمد الحجاج الإيرانيون، بناءً على تعليمات الخميني، لتوزيع منشورات دعائية حول الثورة، ولم تكن السلطات السعودية مستعدة للتعامل مع هذا التكتيك غير المسبوق. وبعد نحو ثلاثة أسابيع، أُلقي القبض عليهم فجأة، وتبين أنهم يشكلون تهديداً وجودياً لآل سعود.

الاستيلاء على الحرم المكي

في يوم الثلاثاء، عشية رأس السنة الهجرية الجديدة من عام 1400 للهجرة الموافق لـ 20 تشرين الثاني-نوفمبر 1979، وقع أخطر تحدٍّ أيديولوجيٍ محلّي على النظام الملكي السعودي؛ ففي ذلك اليوم كان من المتوقع أن يؤدي الملك خالد صلاة الفجر في المسجد الحرام بمكة المكرمة رغم تدهور حالته الصحية، فاجتمع مئات المتمردين المنظّمين بشكل محكم، واندسوا بين جموع المصلين في المسجد الحرام لأداء أول حج في مستهل القرن الإسلامي الجديد. وكان على رأس أولئك جهيمان بن محمد العتيبي ومحمد بن عبد الله القحطاني. ينتمي جهيمان، البالغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً، إلى قبيلة عتيبة العريقة والأكبر في المملكة، فقد كانت تضم ثلاثة ملايين فرد، أما صهره القحطاني، البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، فكان طالباً سابقاً في الجامعة الإسلامية بالرياض، وكان لقبه مشتقاً من قحطان: الجد الأسطوري للعرب.

وُلد جهيمان في الساجر، وهي مستوطنة إخوانية في منطقة القصيم الشمالية، وكان حفيداً لأحد مقاتلي الإخوان الذي توفي عام 1929 في معركة ضد ابن سعود. وفي عام 1954 انضم جهيمان، وكان في الثامنة عشرة من عمره، إلى الحرس الوطني الذي شجع التعلم الديني بين مجنديه. ترك جهيمان الحرس الوطني عام 1973، وانضم لجماعة سلفية في المدينة المنورة جرى تمويلها من المؤسسات الخيرية، وأصبح تلميذاً للشيخ عبد العزيز بن باز الذي دعا للعودة إلى حرفية القرآن.

وفي أوائل عام 1977 أصدر وزير الشؤون الدينية تعليماته لعدد قليل من العلماء الموالين للحكومة بإبعاد أعضاء جماعة العتيبي السلفية، لكن معظم أعضاء الجماعة استطاعوا البقاء في المدينة، ونصّبوا جهيمان زعيماً لهم. وكان جهيمان وهَّابياً متطرفاً لدرجة أنه رفض استخدام الأوراق النقدية لأنها تحمل صور الملوك، وقصر استخدامه على العملات المعدنية. وفي نهاية ذلك العام هرب جهيمان وأتباعه إلى منطقة القصيم بعد أن علموا بأن السلطات تريد اعتقالهم، وهناك أصدر جهيمان كتيباً بعنوان "الدولة والولاء وطاعة الحكام"، هاجم فيه حكام السعودية لانحرافهم عن الشريعة، وجشعهم، وفسادهم، وإساءة استخدام القوانين لمصلحتهم، ومخالطة الملحدين والكفار.[2]

وفي صيف عام 1978 اعتقلته الحكومة هو وأتباعه الثمانية والتسعين. وبعد مقابلتهم، وجد الشيخ ابن باز، عضو هيئة كبار العلماء، أن مزاعمهم ربما لا تكون مغلوطة جميعها، ثم أُفرج عنهم بعد أن وعدوا بعدم ارتكاب أنشطة تخريبية. وفي وقت لاحق، ورغم أنهم كانوا تحت المراقبة، تمكنوا من الفرار من الرياض.

طوّر جهيمان مفهوم المهدي المنتظر، ونشر رسالته في كتيب "دعوة الإخوان" في آب-أغسطس 1979. ووجد أن صهره، محمد بن عبد الله القحطاني، الذي يحمل اسم النبي نفسَه، هو المهدي المنتظر، وقد ألحق بهذا المذهب الفكرة التي يتبناها أهل السُنّة بأن المجدّد سيظهر مع بداية القرن الإسلامي لإحياء الدين ونبذ البدع.

وكانت السنة الهجرية الجديدة 1400 على وشك أن تبدأ في 1 محرم الموافق لـ 20 تشرين الثاني-نوفمبر 1979. وفي ذلك اليوم توقع جهيمان وآخرون أن يحضر الملك خالد صلاة الفجر في المسجد الحرام، الأمر الذي سيتيح لهم فرصة أخذه كرهينة، بحسب خطة جهيمان. وفي بداية الشهر السابق، الذي يؤدي فيه المؤمنون فريضة الحج، من اليوم الثامن إلى الثاني عشر من ذي الحجة، أصدر جهيمان تعليماته لأتباعه بالاجتماع في المسجد الحرام بمكة ليلة رأس السنة الهجرية[3]، وكانوا قد بدؤوا في الأسابيع السابقة بتخزين الأسلحة والذخيرة والمواد الغذائية والمياه في أقبية وخلوات المسجد الحرام، واستخدموا التوابيت لتهريب الأسلحة، بما في ذلك بنادق كلاشينكوف الهجومية؛ فقد جرت العادة على أن يحضر المسلمون المتدينون نعش قريبهم المتوفى على نقالة مغطاة بملاءة إلى المسجد الحرام للصلاة عليه قبل دفنه. وكانت "الجثة" في هذه الحالة عبارة عن مجموعة من الأسلحة الصغيرة.

وبعد صلاة الفجر تغلّب المسلحون بسرعة على الحراس، ومع غياب الملك خالد عن الصلاة في المسجد الحرام، دعا جهيمان الإمام لقراءة بيان إدانة لفساد العائلة المالكة وانحرافاتها الدينية، وإعلان قبول القحطاني باعتباره المهدي المنتظر الذي أتى ليطهر المسجد الحرام والعقيدة الإسلامية مما أصابها من انحراف. وحين رفض الإمام قراءة البيان، أغلق المتمردون جميع أبواب المسجد التسعة والثلاثين، وفتحوا النار على كل من في المسجد، ثم سمحوا للحجاج الأجانب الذين يبلغ عددهم نحو 100 ألف بالمغادرة، وأمروا السعوديين بالبقاء. ومع اقتراب صلاة العصر كانوا قد تمركزوا على المآذن وعلى الأقواس المسقوفة في الرواق العلوي. وعلى الفور اتصل الملك خالد بهيئة كبار العلماء لطلب مشورتها حول عملية اقتحام المسجد الحرام، فاستشهدت في فتواها الطارئة بالآية القرآنية[*]: ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[4] ولم تشر الفتوى إلى أن هؤلاء المتمردين المسلحين كانوا كفاراً.

ونشرت الحكومة قوات للحرس الوطني مدعومة بدبابات ومروحيات، ولكن المتمردين، الذين كانوا يحتلون مواقع مراقبة على المآذن التسع، نجحوا في استهداف كل شخص يقترب

(*) في سورة البقرة، الآية: 191 [المترجم].

من موقع الحرم. في البداية تردد رماة الجيش في إطلاق النار على المتمردين خوفاً من تدمير المآذن، ولكن سرعان ما أدت سلسلة من الهجمات، شاركت فيها قوات من الشرطة، والحرس الوطني، والجيش، إلى وقوع كارثة على القوات الحكومية نظراً لاستخدامها موجات راديو مختلفة. والأمر المثير للدهشة هو أن الحكومة لم يكن بحوزتها أية مخططات معمارية للمسجد، إلا أنه كان ثمة مخططان، أحدهما لدى شركة إنشاءات تدعى مجموعة بن لادن السعودية، والآخر لدى مركز أبحاث الحج في جدة، فسارع مدير المركز لتسليم المخطط لقائد القوات المهاجمة.

وفي 24 تشرين الثاني-نوفمبر أمر خالد الحرس الوطني باستعادة السيطرة على المسجد، ولكن عندما فشل تفجير المآذن واقتحام المظليين في طرد المتمردين، لجأ الجيش إلى المدفعية بينما شق الحرس الوطني طريقه ببطء إلى وسط المجمع الذي تقع فيه الكعبة. وكان القحطاني من بين الذين قتلوا، فانسحب المتمردون إلى الطابق السفلي المتشعب حيث جرى ربط حوالي ألف غرفة بممرات وأزقة، فهناك كان المسلحون قد خزنوا أسلحتهم وذخائرهم، وطعامهم وماءهم. وقد أخفقت هجمات الجيش المتكررة في تحرير الحرم من المتمردين. وبعد أسبوع لم يجد السعوديون بدّاً من طلب العون، من الولايات المتحدة التي لم تتردد في عرض خدمات وكالة المخابرات المركزية.[5]

وبحسب لياروسلاف تروفيموف، مؤلف كتاب "حصار مكة: الانتفاضة المنسية في أقدس بقاع الإسلام وولادة تنظيم القاعدة"، فقد أعلن عملاء وكالة المخابرات المركزية إسلامهم على الفور، ودخلوا مكة لتقييم أرض المعركة، وأوصوا باستخدام الغازات الكيميائية، فقام السعوديون بضخ الغاز المسيل للدموع تحت أرض الحرم عبر مداخل مختلفة، ولكن دون جدوى؛ فقد منع المتمردون انتشار الغاز إلى الممرات الجوفية الضيقة باستخدام مفارش سميكة وكرتون وقماش. واستطاعوا التنفس من خلال نقع أغطية رؤوسهم بالماء، بينما فشل الجنود السعوديون الذين كانوا يرتدون أقنعة الغاز، في حماية أنفسهم عندما انجرف الغاز إلى داخل المجمع. ومع انتشار الغاز المسيل للدموع في المناطق المحيطة كان لا بد من إجلاء السكان المحليين. وبعد أن يئست الحكومة السعودية لجأت إلى فرنسا وفيلقها الأجنبي. وللسماح لقواتهم بدخول مكة، سمح ابن باز باعتناقهم المؤقت للإسلام. وقد اختار الكابتن الفرنسي بول باريل إحدى مركبات غاز الكلور المعروفة بغاز سي إس، وهو مادة مهيجة تمنع التنفس، وتؤدي إلى الإغماء، وهي قاتلة إذا جرى تناولها بشكلها المركز. قدّر بول أنه بحاجة إلى طن واحد، أو 1000 كجم من الغاز، ولكن لم يكن بحوزته سوى 300 كجم فقط. ولتحقيق

أقصى استفادة من المخزون المحدود حُفِرت ثقوب عدة في أرض الحرم لضخ الغاز عبرها بينما يدخل الجنود إلى القبو من طرفي المسجد.[6]

ووجه ولي العهد السعودي الأمير فهد نداءً عاجلاً إلى الجنرال ضياء الحق، الحاكم العسكري لباكستان منذ تموز-يوليو 1977، فاستجاب الأخير بنقل وحدة كبيرة من مجموعة الخدمات الخاصة إلى مكة بقيادة العميد طارق محمود[7]، فنجحوا بمساعدة القوات السعودية في التغلب على المتمردين والقبض على جهيمان في 4 كانون الأول-ديسمبر. ولاحقاً نُشِرت هذه القوات الباكستانية، التي لا تنتمي إلى المجتمع القبلي السعودي، لحراسة المواقع الإستراتيجية وقصور كبار الأمراء.

أُدين جهيمان أمام محكمة شرعية، ثم مثل أمام الشيخ ابن باز لإصدار الحكم النهائي. وبعد أن تليت التهم الموجهة إلى المتهمين، حكم ابن باز بأن المتهمين كانوا على حق في الإشارة إلى أن الدولة الوهَّابية الحقيقية لا ينبغي أن تخالط الكفار، وأنه ينبغي إزالة البدع والانحرافات عن الإسلام النقي، وأن الصور بجميع أنواعها محظورة، وأن النزعة الاستهلاكية وحب المال أصبحا منتشرَين في المجتمع. أما الخطأ الذي ارتكبه المتمردون، فهو تحدي آل سعود وإعلان وصول المهدي؛ ولذلك حكم ابن باز بإقامة "حد الله" عليهم وقطع رؤوسهم.[8] وقد وافقت المؤسسة الدينية الوهَّابية على حكم ابن باز، وحصل في العام التالي على جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام.

الخميني يصطاد في الماء العكر

كانت إدارة كارتر تعاني من فشل ذريع على خلفية أزمة دبلوماسييها المحتجزين في طهران، وما إن علمت بخبر الاستيلاء على الحرم المكي، حتى سارعت إلى استنتاج أن أولئك المتمردين كانوا من الشيعة، وأن تصرفهم جاء رداً على دعوات الخميني لانتفاض المسلمين الأصوليين في الشرق الأوسط. ونقلاً عن مسؤول استخباراتي أمريكي، فقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز على صفحتها الأولى في 21 تشرين الثاني-نوفمبر خبراً بعنوان: "مسلحون يُعتقد أنهم متشددون إيرانيون يستولون على مسجد مكة".[9] وليس من المستغرب أن يثير خبر كهذا غضب طهران؛ فبثت الإذاعة الإيرانية الرسمية بياناً للخميني يتهم فيه أمريكا و[كيان] إسرائيل بتدبير هذا الحادث الدنيء في مكة. وأمر كارتر مجموعة قتالية، موجودة في خليج سوبيك في الفلبين بما في ذلك حاملة الطائرات كيتي هوك، بالتوجه إلى الخليج لتعزيز أمن المملكة العربية السعودية.[10]

وفي ظل غياب نفي قاطع من جانب المملكة، اكتسب تأكيد بيان الخميني رواجاً واسعاً في العالم الإسلامي؛ فبدأت حشود في كل من باكستان، وبنغلاديش، وتركيا، وليبيا، والكويت باستهداف البعثات الدبلوماسية الأمريكية ومراكز المعلومات والمراكز الثقافية الأمريكية. وخلال حصار فُرِضَ على السفارة الأمريكية في إسلام آباد لمدة خمس ساعات، أحرق المتظاهرون الغاضبون مبنى السفارة، وقتلوا اثنين من جنود مشاة البحرية الأمريكية كانوا يحرسون المبنى.[11] وقد أعرب الخميني عن "فرحته البالغة" بالأخبار الواردة من باكستان، وأضاف أن أمريكا و[كيان] إسرائيل تحاولان الاستيلاء على أقدس مسجدين إسلاميين في مكة والمدينة، وقال: «أيها المسلمون، انهضوا ودافعوا عن الإسلام». وأضاف: «إن أحد أكبر الأخطاء التي يرتكبها كارتر وأمثاله هو أنهم لا يدركون عمق الحركة الإسلامية المعاصرة»، و«إن حركتنا إسلامية قبل أن تكون إيرانية».[12]

وبتشجيع من أجواء التحدي الناجمة عن الأزمة المستمرة في مكة كسرت الأقلية الشيعية، المتمركزة في محافظة الأحساء في المملكة، الحظر المفروض على إحياء طقوس عاشوراء. ونظّمت مواكب عاشوراء في القطيف وعدد من المدن الأخرى ذات الأغلبية الشيعية، في تحدٍ للحظر المستمر منذ 65 عاماً على جميع الطقوس الشيعية في المملكة. وكان هذا التحدي بقيادة منظمة الثورة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية (OIRAP) التي نشأت كحركة إصلاحية سرية بقيادة رجل دين شيعي شاب يدعى حسن الصفار. وقد تضمنت مطالب الحركة الحق في نشر الكتب الدينية الشيعية، ووضع حد لإدانة الدعاة الوهَّابيين للشيعة.

وكان الصفار قد التزم الجانب الديني المعتدل في خطبه عبر تأكيد المقاومة الباسلة التي أبداها الإمام الحسين ضد الظلم، ولكن لهجته غدت أكثر تصلباً بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران، ويمكن رؤية ذلك بعد قراءة فقرة من أحد مؤلفاته يقول فيها: «عندما ينظر الناس إلى الأموال التي تهدر في كل مكان، ومناطق [الشيعة] ما زالت تعيش البؤس والحرمان والمعاناة، أفليس من الطبيعي أن يثوروا، وأن يمارسوا العنف، ويستمروا في النضال من أجل نيل حقوقهم وحماية ثرواتهم من خيانة المجرمين من آل سعود؟».[13] لقد كان الصفار ومن ورائه الشيعة السعوديون يشعرون بالمرارة إزاء حقيقة أن جميع حقول النفط الأربعة عشر الرئيسة في المملكة تقع تقريباً في المنطقة الشرقية، حيث كان ثلث السكان من الشيعة.

وقد حصلت منظمة الثورة الإسلامية في جزيرة العرب على دعم نشط من وسائل الإعلام الرسمية ووزارة الخارجية الإيرانية. وفي آب-أغسطس 1979، أعلن زعماء الشيعة في القطيف

أنهم سيحتفلون علناً بذكرى عاشوراء في تحدٍّ صريح للحظر الرسمي المفروض على جميع الطقوس الشيعية.

كانت تلك أول عاشوراء في العام الإسلامي الجديد، وقد أتت الأحداث الدرامية الأخيرة التي شهدتها إيران لتزيد من أهميتها. ففي نهار 30 تشرين الثاني-نوفمبر ارتدى آلاف الشيعة في القطيف الملابس السوداء، وبدأ بعضهم بضرب صدورهم بشكل إيقاعي، وجعل البعض الآخر يضربون ظهورهم بالسلاسل، واتجهوا إلى مسجد الفتح (الشيعي) قرب السوق الرئيس للمدينة. وتأججت مشاعرهم بعد استماعهم لخطب عاشوراء الحزينة. ثم تجمع الحشد خارج المسجد، وهم يضربون صدورهم، وينتحبون، ويصرخون: «لا سني، لا شيعي! كلنا مسلمون»، ثم صاح أحدهم "جمهورية إسلامية". وبدأ شخص بتوزيع صور للخميني على الحاضرين الذين رفعوها عالياً؛ وكان ذلك كافياً لاستفزاز قوات الحرس الوطني المصطفة خلف حواجز خشبية وأيديها على النخازات الكهربائية. فقفزوا فوق الحواجز وبدؤوا باستخدام عصيِّهم بعنف، فكسروا عظام ورؤوس أولئك الذين يدينون بالولاء لـ "الفرس"، على حد تعبيرهم.[14]

وسرعان ما اندلعت أعمال شغب واسعة، إذ هاجم المتظاهرون قوات الحرس الوطني بالحجارة، والعصيِّ الخشبية، والقضبان الحديدية، وأضرموا النار في مكتب شركة الطيران السعودية المملوكة للدولة، ولجأ الجنود لإطلاق الذخيرة الحية. وقد استمرت هذه الأحداث على مدار ثلاثة أيام.

وفي 3 كانون الأول-ديسمبر نظّم الشيعة مسيراتٍ احتجاجيةً كبيرة أدت إلى اعتقال العديد منهم؛ فوفقاً لمنظمة الثورة الإسلامية في جزيرة العرب، قُتل ستون شخصاً، وأصيب 800، واعتقل (1200)[15]، أما الرقم الرسمي للضحايا، فكان أربعة وعشرين قتيلاً. وبعد فترة وجيزة فرّ الصفار وقادة آخرون في منظمة الثورة الإسلامية في جزيرة العرب إلى إيران وبريطانيا حيث بدأت المنظمة بنشر مجلة شهرية باللغة العربية من لندن.

وفي السياق الإقليمي الأوسع قال آية الله في أحد دروسه المسجلة: إن حكم الأسرة السعودية القائم غير إسلامي، وأعادت الإذاعة الإيرانية بث الدرس باللغة العربية مراراً، وهو ما جعل أفراد الأسرة الحاكمة في الرياض يستشعرون التهديد الوجودي الذي يشكله النظام في إيران على آل سعود.

وكان الخميني يوجه انتقاداتٍ لاذعة لسياسة ملوك الخليج المتمثلة في استنزاف مواردهم النفطية لتلبية مطالب الولايات المتحدة، التي اعتاد أن يصفها بأنها الشيطان الأكبر، بينما كانت بريطانيا هي الشيطان الأصغر، كما استنكر آية الله حرمان حكام الخليج رعاياهم من

ممارسة أي دور في عملية صنع القرار. وفي المقابل جذب إنشاء نظام تمثيلي في الجمهورية الإسلامية، مع رئيس وبرلمان منتخبين شعبياً، أنظار الكثيرين في شبه الجزيرة العربية، بغض النظر عن انتماءاتهم الطائفية، ودعم حجته الداعية إلى استبدال الجمهوريات بالممالك.

مهمة كارتر العسكرية الفاشلة في إيران

انتهت أزمة الاستيلاء على المسجد الحرام في مكة، لكن الأزمة الناجمة عن احتجاز الدبلوماسيين الأميركيين في طهران استمرت حتى بعد سفر الشاه إلى خارج الولايات المتحدة. ولم يكن لدى نظام الخميني أي نفوذ لمطالبة بنما بتسليم الشاه، فلجأ إلى التمسّك بأقوى ورقة مساومة لديه مع واشنطن.

وفي آذار-مارس 1980 اكتشفت حكومته وجود شبكة سرية من الضباط الملكيين الموالين لأمريكا في طهران، فأدى هذا بدوره إلى اكتشاف المزيد من الشبكات خلال الأشهر الأربعة التالية، وهي عملية سرّعتها إدارة كارتر في محاولتها الفاشلة لإنقاذ الرهائن عبر شن هجوم عسكري داخل إيران في ليالي 24-25 من نيسان-أبريل.

وكانت الخطة تقضي بتسلل ست مروحيات إلى مطار مهجور بالقرب من طبس، على بعد 380 ميلاً جنوبي شرقي طهران، ونقل 90 جندياً من قوات الكوماندوز الأمريكية المدربة تدريباً خاصاً على متن ست طائرات نقل من طراز (سي 130) من قاعدة قنا الجوية في مصر، وبعد ذلك تتوجه قوات الكوماندوز إلى دماوند، على بعد 30 ميلاً شرقي طهران، حيث يجتمع العديد من عملاء أمريكا الإيرانيين، وهناك يستقل رجال الكوماندوز والعملاء الإيرانيون شاحنات ليتوجهوا إلى السفارة الأمريكية في طهران، التي سيكون عملاء إيرانيون آخرون قد اخترقوها. وسيستخدم الكوماندوز غاز الأعصاب لإعاقة الحراس الإيرانيين في السفارة. وبمجرد تأمين سيطرتهم على السفارة سيقومون باستدعاء المروحيات من دماوند لتقوم بنقل الرهائن والقوات الخاصة الأمريكية إلى مطار منظرية (Manzariyeh Airport)، على بعد 70 ميلاً جنوبي طهران. ومن هناك ينتقلون جميعاً إلى طائرات (سي 130) ليطيروا معا خارج إيران حيث ستقوم طائرات أمريكية أخرى، مجهزة بأجهزة متطورة، بالتشويش على أنظمة الرادار الإيرانية.

لكن الأمور سارت بشكل كارثي؛ فقد تعطلت إحدى المروحيات الست بعد أن هبطت بسلام في مطار طبس، ولم يعد من الممكن إصلاحها، ثم اصطدمت إحدى طائرات النقل القادمة بمروحية متوقفة، مما سبب انفجاراً أدى إلى مقتل ثمانية عسكريين. وعلاوة على ذلك

تعرضت سرّية المهمة للخطر بسبب المرور المفاجئ لحافلة كانت تقل 50 راكباً، فاحتجزها الضباط الأمريكيون في الموقع.

بعد هذه الكارثة وجّه الرئيس كارتر أمراً إلى قائد المهمة بإجهاضها. ولأن الأميركيين تعجَّلوا إخلاءَ المطار تركوا وراءهم الكثير من المواد التي تدينهم، بما في ذلك مبلغ بالعملة الإيرانية يعادل مليون دولار، وكان هذا المبلغ مخصصاً لعملاء أمريكا في إيران الذين كانوا يشعرون بالاستياء من عدم دفع أجورهم منذ حادثة الاستيلاء على السفارة في تشرين الثاني-نوفمبر 1979.[16]

ذكر تقرير مفصل عن الحادثة نشرته صحيفة واشنطن بوست، بعد ذلك بعامين، أنه جرى تسهيل العملية عبر وجود فجوة كبيرة في الرادار والدفاعات الإيرانية بعد أن جندت وكالة المخابرات المركزية "مسؤولاً إيرانياً رفيع المستوى" يعمل في الدفاعات الإيرانية، وقد أرسل هذا المسؤول إلى كردستان صواريخ أرض-جو متنقلة، وبطارياتٍ مضادّةً للطائرات، وبعض مرافق الرادار المتعلقة بمناطق المهمة الأمريكية المخطط لها. ومن المرجح أنه كان اللواء أمير بهمن باقري: قائد القوات الجوية الإيرانية. ولم يُقبض عليه إلا في أوائل حزيران-يونيو 1980.

وخلافاً للتسريبات الأمريكية الرسمية، فقد كان تَعداد القوة الاحتياطية المنتظرة في مصر كبيراً بنحو "2500 رجل"، وكان كارتر على استعداد للسماح بفرض غطاء جوي أو شن ضربات جوية على أهداف عسكرية حول طهران لضمان نجاح المهمة. وفي حالة تجمع الحشود خارج السفارة الأمريكية، كانت الخطة أن تقوم طائرات (سي 130) بإطلاق النار عليهم عبر مدافعها الرشاشة.

لقد كانت العملية برمتها معقدة للغاية لدرجة أنها تطلبت تعاوناً نشطاً من كل من مصر، وعُمان، والبحرين، وتركيا، و[كيان] إسرائيل، ومع ذلك فوَفقاً لخبراء خارجيين، لم يكن من الممكن إنقاذ أكثر من نصف الرهائن الـ 52، في أحسن الأحوال.[17] وقد أكدت هذه الحادثة مخاوف الخميني حول نوايا أمريكا تجاه الجمهورية الإسلامية؛ وبهذا تحولت طهران وواشنطن إلى أعداء. ولم يكن هذا العداء موضع ترحيب لدى أي من الأنظمة الملكية في المنطقة، وخاصة المملكة العربية السعودية.

الآثار الارتدادية في مكة

بُعيد إحياء الشيعة في شرقي المملكة لذكرى عاشوراء، رعى السعوديون اجتماعاً لوزراء إعلام دول الخليج في الرياض في أواخر كانون الأول-ديسمبر من عام 1979، واتفقوا على مبادئ توجيهية لوسائل الإعلام التي تديرها أو توجهها الدولة حول الثورة الإيرانية، وشدد هؤلاء

على «التقليل من شأن الأخبار الواردة من طهران»، و«إنزال مرتبة الثورة الإيرانية من ثورة إسلامية خالصة إلى ثورة شيعية خالصة، ومن ثم تخفيضها إلى ثورة إيرانية شيعية خالصة».[18]

وفي الداخل، أمر الملك خالد بتعديل سبعة عشر منصباً مدنياً وعسكرياً رفيعاً في حكومته من أجل تلميع صورتها المشوَّهة، وشكل لجنة لإعداد مسودة للدستور. في حين وعد ولي العهد ورئيس الوزراء الفعلي فهد بتشكيل مجلس شورى وقانون أساسي "خلال فترة لن تتجاوز الشهرين".[19] ولكن ستمرّ ثلاث عشرة سنة قبل أن يتحقق هذا العهد، وذلك في أعقاب حرب الخليج عام 1991.

وبعد أن سحق النظام السعودي أخطر تهديد أيديولوجي لسلالة آل سعود منذ عام 1932، وقضى على تهديد المتمردين المسلحين في مكة، رأى النظام أن الانتقادات التي وجهها إليه جهيمان وأتباعه، والتي أيد ابن باز معظمها، هي أمر جديرة بالمراجعة. وقد لاحظ النظام حقيقة أن الرأي السائد بين مواطنيه هو أن القدرة الإلهية تدخلت في أول يوم من العام الهجري 1400 لوقف رفع صور الخميني في المملكة.[20]

وفي أعقاب الاستيلاء على المسجد الحرام قام العديد من الرجال السعوديين بقصّ لحاهم لتمييز أنفسهم عن جهيمان ذي الشعر الكثيف، ولكن في السنوات اللاحقة عاد الرجال المحافظون لإطلاق لحاهم المرتبطة بالمذهب السلفي كدليل على التقوى وكأداة للترهيب؛ فقد أصبحت اللحية من المتطلبات الأساسية لأعضاء فرقة المطوعين والشرطة الدينية.[21] أما على مستوى الدولة، فقد دخلت المملكة العربية السعودية في سباق مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية يتمحور حول أي البلدين أكثر إسلاماً من الآخر.

وقد اتسع تطبيق التعاليم الوهَّابية الصارمة داخل المجتمع السعودي، بعد أن اقتصر على منطقة وسط نجد، ليشمل بقية أنحاء المملكة، وكان التغيير أكثر دراماتيكية في جدة، تلك المدينة الساحلية الواقعة على ساحل البحر الأحمر، والتي تميزت بكونها العاصمة الدبلوماسية للمملكة العربية السعودية منذ إنشائها حتى عام 1985. فقبل فرض التعاليم الوهابية في المدينة كان في جدة خمس دور للسينما ومسرحان، وكانت مركزاً لإقامة المعارض الفنية، وكانت تقام فيها احتفالات عيد الحب، والهالوين، وعيد الميلاد، فقد كانت الأشجار الصغيرة تُضاء خلف أسوار المجمع بحيث لا يمكن رؤيتها من خارجها. وتتذكر سمر فطاني، التي عادت إلى جدة في كانون الثاني-يناير 1980 بعد أن أنهت دراستها الجامعية في القاهرة للانضمام لقسم اللغة الإنجليزية في إذاعة جدة، قائلة: «كان هناك بازارات، ومسرحيات، وعروض أزياء، ومناسبات دولية، مع وجود نساء من مختلف البلدان يرتدين أزياءهن الوطنية».[22]

أما الآن، فحتى مجمع الظهران السكني التابع لشركة أرامكو، والذي يقع داخل مجمع مسوّر تبلغ مساحته 22.5 ميلاً مربعاً، ويسكنه 11 ألف شخص، لم يعد محصَّناً ضد طفرة الأسلمة الأخيرة، وكان في الماضي معفًى من القواعد الاجتماعية للمملكة منذ إنشائه في عام 1939.

كان المجمع يحاكي إحدى ضواحي كاليفورنيا الواسعة بأشجار النخيل المستوردة، والمروج الخضراء أمام الأكواخ المنخفضة المتباعدة بشكل مريح، والشوارع الواسعة المسفلتة، وكان للمجمع مدارسه الخاصة، ومسجد صغير بدون مئذنة، وسينما، وحمامات سباحة، وملاعب غولف، وصالات للألعاب الرياضية، ومكتبات، ومحلات سوبر ماركت حيث يختلط الرجال بالنساء بحرية، وكان للنسوة حرية قيادة السيارة وركوب الدراجة. وكانت اللغة الإنجليزية هي اللغة المشتركة، وكانت لافتات الشوارع باللغتين العربية والإنجليزية. تقول عائشة مالك، وهي مصورة مقيمة في نيويورك، في مقابلة لها مع مجلة تايم في شباط-فبراير 2015: «عندما أفكر في نشأتي في مجمع الظهران السكني يبدو الأمر وكأنه حلم»، وتضيف: «يقع مخيم الظهران السكني داخل المملكة العربية السعودية، لكنه في الواقع لم يكن يشبه المملكة العربية السعودية».

ألغت السلطات الإعفاءات السابقة الممنوحة للمجمع في أعقاب أزمة الاستيلاء على المسجد الحرام، وحظرت تناول المشروبات الكحولية ولحم الخنزير، وكذلك الاحتفال المفتوح بالأعياد المسيحية.[23] وقد استمرت هذه العملية في باقي أنحاء المملكة لسنوات عدةٍ. وفي النهاية نجح النظام في سد الفجوة التي نشأت على مدى عقود بين إدارته والمذهب الوهَّابي عبر فرض الملك خالد وخليفته الملك فهد سلسلةً من الخطوات الاجتماعية والتعليمية، كما جرى التشديد على أداء الصلوات اليومية؛ فبدلاً من السماح لصاحب المتجر بأداء الصلاة خارج متجره، صار لزاماً عليه إغلاق متجره والصلاة في أقرب مسجد.

ومن حيث هم موظفون في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد حرص المطوعون، المزودون بسيارات فان كبيرة من نوع جنرال موتورز، على تطبيق القواعد تطبيقاً صارماً، كما حرصت المطوعات على ارتداء النساء للعباءات، وهو ما لم يكن إلزامياً قبل حادثة الاستيلاء على المسجد الحرام، فقد كان الشال الذي يلقى على الكتفين كافياً، فبدأت النسوة اللاتي يرتدين النقاب بالظهور في الأماكن العامة.

وامتد الفصل بين الجنسين في الأماكن العامة أيضاً إلى بقية أنحاء المملكة بعد أن كان مقتصراً على معقل الوهابية في نجد فقط، فوضعت حواجز بين أقسام الرجال والنساء في

المطاعم والمقاهي، مع اشتراط أن يكون لها مداخل منفصلة لكلا الجنسين. وبدأت هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بفحص خطط البناء للتأكد من امتثالها لـ "المبادئ الأخلاقية" للمملكة، ولم يعد بإمكان دار الأوبرا التي بنيت في الرياض قبل عام 1979 تقديم أي عروض[24] وكان على الأزواج والزوجات أن يحملوا بطاقاتهم الشخصية معهم لإثبات زواجهم. وبما أن النساء العربيات والإيرانيات يحتفظن بألقابهن بعد الزواج، فقد ثبتت صعوبة التحقق من حالة الزواج. كما منعت الحكومة عرض صور النساء غير المحجبات في الصحف وعلى شاشات التلفاز، وأدخلت المزيد من البرامج الإسلامية والدينية في وسائل الإعلام التي تديرها الدولة، وأبعدت المذيعات عن الشاشة، وأغلقت جميع دور السينما والمسارح، ومنعت الموسيقى والغناء في التلفاز.

واستمرّ الحظر المفروض على دور السينما والمسارح سارياً حتى أواخر عام 2017، فقد كان من المقرر افتتاح دور السينما في نيسان-أبريل من عام 2018. على أن مدمني الأفلام الشباب وصانعي الأفلام ظلوا يتحايلون على الحظر السعودي من خلال تمرير الأفلام بطرق مختلفة بعيداً عن أعين الرقابة من خلال بث الأفلام عبر الإنترنت ومشاهدة الأفلام على القنوات الفضائية. كما كان من السهل السفر إلى البحرين أو الإمارات العربية المتحدة المجاورتين لارتياد دور السينما هناك.[25]

وما إن أُعيد افتتاح دور السينما والمسارح مع بداية عام 2018، حتى قامت عازفة منفردة بالغناء أمام جمهور من النساء معلنة إنهاء قطيعة استمرت لسنوات، وقد حدث هذا في 6 كانون الأول-ديسمبر 2017 مع الفنانة اللبنانية هبة طوجي في مركز الملك فهد الثقافي بالرياض. [26]

صدر مرسوم في عام 1982، في عهد الملك فهد، يلزم رجالَ الدين الذين يلقون الخطب في المساجد الحصولَ على شهادة ترخيص من وزارة الحج والأوقاف. وتحت ضغط العلماء الوهَّابيين أُدخلت تغييرات جذرية على المناهج الدراسية في المدارس والكليات بدءاً من أوائل الثمانينات، فألغيت دراسة الجيولوجيا، وتاريخ الحضارة، والتاريخ الأوروبي، كما قُلِّص عدد الساعات المخصصة للرياضيات، والعلوم، واللغة الإنجليزية من أجل إفساح المجال لدراسة تاريخ الإسلام وتاريخ عائلة آل سعود، ولإدخال جرعة أكبر من الدراسات الإسلامية؛ وهكذا أصبح طلاب المدارس الثانوية يمضون نحو ربع وقتهم في الدراسات الدينية الإجبارية.

وقد طُبِّق نهج مماثل في التعليم الجامعي، ففي الثمانينيات استعادت الجامعات المناهج القديمة التي تحتوي على جرعة كبيرة من الدراسات الإسلامية، كما كان الحال في الخمسينيات

عندما أُدخِلت الدراسات العليا لأول مرة إلى المملكة. ونتيجة لذلك، ففي عام 1986، أصبح واحد من كل ستة من طلاب جامعيين يتابع دراساته في المجالات الدينية. وكان عدد الطلاب آنذاك 100.000 طالب.[27] وفي الوقت نفسه توقفت الحكومة عن إرسال الطلاب إلى الدول الغربية؛ وهذا يفسر سبب عدم إرسال الأمير محمد بن سلمان، المولود عام 1985، إلى جامعة غربية، على عكس أخويه غير الشقيقين اللذَين يكبَرانه في السن، وانتهى به الأمر بدراسة القانون في جامعة الملك سعود بالرياض.[28]

ونتيجة هذه التغييرات تخصص معظم خريجي الجامعات السعودية خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، في الدراسات الإسلامية، أو الدراسات الأدبية، أو علم الاجتماع، أو التاريخ الإسلامي، وذلك وفقاً لعبد الله دحلان: مدير معهد التدريب المهني في جدة. ويتوافق هذا مع نتيجة مفادها أن حوالي 20 % فقط من خريجي المملكة تخصَّصوا في الموادّ التقنية والعلمية منذ العام 2009.[29]

وفي السياق الديني ساعدت حملة إعادة الأسلمة "حركة الصحوة الإسلامية" في بداياتها على النمو، وهي حركةٌ تعود أصولها إلى وصول نشطاء من جماعة الإخوان المسلمين من مصر في أعقاب حملة القمع التي شنها الرئيس عبد الناصر على تنظيمهم في عام 1954. وقد ساعد المتعلمون والمثقفون منهم في بناء البنية التحتية التعليمية والمالية واستدامتها في المملكة. وقد أقسم أعضاء الحركة بالولاء للعاهل السعودي، وعملوا على ربط النزعة المحافظة في العقيدة الوهابية وتوظيفها في خدمة مشاريع الإخوان المسلمين السياسة في مصر، وبات الهجين الناتج يعرف باسم: "حركة الصحوة".

نمت الحركة بسرعة في الثمانينيات، وخرَّجت اثنين من القادة البارزين: سلمان العودة (من مواليد 1955)، وسفر بن عبد الرحمن الحوالي (من مواليد 1950). كان "عودة" رجل دين وعالماً، وكان من مواليد مدينة بريدة الشمالية، أما "الحوالي"، فكان عميد الدراسات الإسلامية في جامعة أم القرى في مكة.

الأسلمة في ظل نظام الخميني

أدى حصار السفارة الأمريكية في طهران إلى توحيد الأمة الإيرانية وتعزيز المتطرفين على حساب المعتدلين في الجمهورية الإسلامية؛ فقد أثبت الحصار للشباب الإيراني أن الخميني وأتباعه كانوا مناهضين للإمبريالية، مثلهم مثل منظمة مجاهدي خَلْق اليسارية وفدائيّيها، مما أدى إلى استنزاف دعم الإيرانيين لليساريين العلمانيين، وفي الوقت نفسه مكّن هذا

الجو النظام من إشراك الجماهير سياسياً وحشد الدعم الشعبي للدستور الإسلامي الذي تمت الموافقة عليه في استفتاء عام أجري يومي 1 و2 كانون الأول-ديسمبر.

وعلى المستوى الشعبي، أدى الحزب الجمهوري الإسلامي (IRP) والجمعيات الإسلامية دوراً قيادياً في أسلمة الدولة والمجتمع، والتي ظهرت في أماكن العمل والمؤسسات التعليمية وقوات الأمن، وشكّل رجال دين بارزون الحزبَ الثوريّ الإسلامي في آذار-مارس 1979، ومن بين هؤلاء علي الحسيني خامنئي وعلي أكبر هاشمي رفسنجاني، وكان الهدف الرئيس للحزب حماية الثورة، وغرس المبادئ الإسلامية في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية للمجتمع، بالإضافة إلى تشجيع الأفراد الجمعيات الإسلامية المحلية على الانضمام لصفوف الحزب.

وفي انتخابات مجلس الخبراء المكلَّف بصياغة الدستور، والمؤلف من 73 عضواً، كان 47 عضواً إما أعضاءً في الحزب الجمهوري الإسلامي أو متعاطفين معه، وكان لهم دور فعال في إدراج مفهوم ولاية الفقيه العادل الذي أسسه الخميني في الدستور الجديد.

وفي الاستطلاع الذي أُجري في أول جلسة عقدها المجلس الإسلامي، بين آذار-مارس وأيار-مايو 1980، فاز الحزب الثوري الإسلامي بأغلبية المقاعد المعلنة البالغ عددها 216 مقعداً. وفي وقت سابق، في أواخر كانون الثاني-يناير 1980، جرت الانتخابات الرئاسية، ففاز فيها أبو الحسن بني صدر—ابن الأربع والثلاثين عاماً لآية الله، بنسبة 76% من الأصوات. وقد كان أحد مساعدي الخميني المقربين خلال فترة منفاه التي قضاها في إحدى ضواحي باريس، وكان يدين بفوزه هذا للدعم الذي قدمه له الخميني، وبعد انتخابه عيّنه الخميني قائداً أعلى للقوات المسلحة.

وكان الجيش الإيراني تحت قيادته عندما هاجم العراق في أيلول-سبتمبر 1980، وفي وقت لاحق ابتعد بني صدر عن الخميني، وحاول تعزيز قاعدته الخاصة، ولكن دون جدوى. وقد دفعه ذلك إلى بدء تحالف مع منظمة مجاهدي خلق اليسارية التي عارضت الخميني بعد أن رفضت تسليم أسلحتها للنظام عقبَ إنشاء الجمهورية الإسلامية.

بلغ التوتر بين نواب بني صدر والمجلس ذروته في 20 حزيران-يونيو 1981 بإقالة المجلس لبني صدر الذي أقاله الخميني بعد ذلك مباشرة. وفي الانتخابات الرئاسية اللاحقة في تشرين الأول-أكتوبر، فاز علي الحسيني خامنئي بحصوله على أكثر من 16 مليون صوت من أصل 16.847 مليون صوت، ووافق المجلس على تعيين مير حسين موسوي رئيساً للوزراء.

وكثفت حكومة موسوي من عملية تطهير المؤسسات الحكومية والثورية من جميع أولئك الذين "ليس لديهم خلفية إسلامية كافية"، فقامت بطرد ضباط الحرس الثوري الإسلامي الذين كان أبناؤهم أو بناتهم أعضاء في منظمة مجاهدي خلق. كما نُفِّذ القانون الذي صدر مؤخراً حول فرض اللباس الإسلامي للنساء في الأماكن العامة بشكل صارم. ومُدِّدت حملة تطهير القضاة ووُسِّعت، وقد طالت حتى آنذاك ثلاثين قاضياً بسبب قبولهم رشاوى لتخفيف عقوبة الإعدام إلى السجن المؤبد. وعُيِّن قضاة خاصون لمكافحة الأفعال الشائنة مثل الزنا، والمثلية الجنسية، والقمار، والتعاطف مع الملحدين والمنافقين، والخيانة.[30]

سُنّة العراق يشنون هجوماً دفاعياً ضد طهران

بعد استيلائهم على السلطة في العراق في تموز-يوليو 1968، فرض الزعماء السُنّة لحزب البعث العربي الاشتراكي رقابة شديدة على المطبوعات الدينية، وأغلقوا العديد من المؤسسات الإسلامية، وبدؤوا بمضايقة رجال الدين الشيعة، وهم الأغلبية في العراق. فحثّ الملالي أتباعهم على الاحتجاج، وتبع ذلك مزيد من القمع. وفي هذا السياق تأسس "حزب الدعوة الإسلامية" سراً في كربلاء العراق.

وبينما كانت الحكومة البعثية تحاول التدخل في بعض الشعائر وإضعاف سلطة الهرمية الدينية الشيعية، كان حزب الدعوة يحقق مكاسب مُهِمّة على الأرض. وفي كانون الأول-ديسمبر 1974، تحولت المواكب الدينية الشيعية إلى مظاهرات مناهضة للحكومة، ورداً على ذلك أعدمت السلطات خمسة من قادة حزب الدعوة، وحاولوا، في الوقت نفسه، تهدئة الجماهير الشيعية عبر زيادة أموال التنمية العامة في الجنوب الذي يهيمن عليه الشيعة.

وفي رسالة التهنئة التي بعث بها إلى الخميني قال آية الله محمد باقر الصدر، الفقيه والمفكر الشيعي البارز ومؤلف العديد من المؤلفات المُهِمّة حول الدولة الإسلامية والاقتصاد: «إن الطغاة الآخرين لم يروا يوم حسابهم بعد»؛ وكان يقصد بـ "الطغاة الآخرين" الحكام البعثيين، وخاصة صدام حسين، الذي كان نائباً للرئيس آنذاك. ووصفت إذاعة طهران الناطقة بالعربية الصدر بأنه "خميني العراق"، ودعت المؤمنين إلى استبدال "قطاع الطرق والطغاة في بغداد" في سبيل تحقيق "العدالة الإلهية".[31] ولم يكن في بالِ إيران أن هذه الخطوة تشكل انتهاكاً لمعاهدة إيران مع العراق لعام 1975، والتي نصت على عدم التدخل في الشؤون الداخلية لكلا البلدين.

وفي 10 حزيران-يونيو 1979 قدم صدام حسين قائمة بأسماء الرجال الذين سيقع إعدامهم

ليوقعها الرئيس أحمد حسن بكر، ولم تقتصر تلك القائمة على قادة المظاهرات الشيعة فحسب، بل ضمت أيضاً عدداً من كبار الضباط العسكريين الذين زُعم أنهم كانوا على اتصال بهم سراً. غير أن البكر اعترض على ضم ضباط عسكريين إلى القائمة، فأجبره صدام حسين على الاستقالة لأسباب صحية، وأصبح هو رئيساً للعراق عشية الذكرى الحادية عشرة لاستيلاء البعثيين على السلطة في 14 تموز-يوليو 1968.(*)

وفي آذار-مارس 1980 أُعدِم 97 مدنياً وعسكرياً، نصفهم من أعضاء حزب الدعوة، فهاجم نشطاء حزب الدعوة مراكز الشرطة، ومكاتب البعث، ومراكز التجنيد التابعة للجيش الشعبي. وبعد قمع الدولة للمسلحين الشيعة أصدر آية الله الصدر فتوى مفادها أن النظام البعثي غير إسلامي، وأن التعامل معه حرامٌ شرعاً.

انتقاماً لإعدام كوادرهم، حاول نشطاء حزب الدعوة في الأول من نيسان-إبريل، اغتيال طارق عزيز نائب رئيس الوزراء المسيحي في العراق، وقد باءت المحاولة بالفشل، لكنها جعلت صدام حسين أكثر قسوة في حملته ضد الحراك الشيعي السري، وأمر بإعدام الصدر وشقيقته بنت الهدى، فنُفذت هذه الأحكام في سرية تامة في 8 نيسان-إبريل. وقد استغرق الأمر حوالي أسبوع حتى تسربت أخبار الصدر، ووصلت إلى طهران.

أُصيب الخميني بصدمة شديدة عند سماع الخبر، وقال: إن «الحرب التي يريد البعث العراقي إشعالها هي حرب على الإسلام»، ودعا شعب العراق وجيشه إلى إسقاط النظام البعثي لأنه «يهاجم إيران، ويهاجم الإسلام والقرآن»، وأضاف: إن «إيران اليوم أرض رسول الله، وثورتها وحكومتها وقوانينها إسلامية».(32)

في ذلك الوقت كانت بغداد مركزاً مهماً لنشاط الشخصيات الإيرانية الكبرى السياسية والعسكرية من العهد البهلوي، فحصل شهبور بختيار والجنرال غلام علي أويسي، رئيسا الأركان في عهد الشاه المخلوع، على محطة إذاعية خاصة بهم في العراق، وقد بثت هذه المحطة نصائح موجهة لأنصار بختيار وأويسي بين القوات المسلحة والقبائل الإيرانية إلى جانب بثها دعايةً سياسية مناهضة للخميني. لقد أراد حلف بختيار-أويسي إقامة قاعدة مناهضة للخميني بهدف إشعال حرب أهلية داخل إيران.

وبعد فشل عملية الإنقاذ المسلحة، التي قامت بها واشنطن لاستعادة دبلوماسييها في 24-25 نيسان-أبريل 1980، حاول المعسكر الموالي للشاه القيام بانقلاب عسكري في 24-25

(*) كان الانقلاب الذي قام به البعثيون ضد الحكم السابق (حكم الرئيس عبد الرحمن عارف) قد وقع يوم 17 من شهر تموز-يوليو 1968 وليس 14 منه [المركز].

أيار-مايو، وأحبطها أنصار الخميني. وفي 9-10 تموز-يوليو فشلت محاولة أخرى قام بها ضباط عسكريون مؤيدون للشاه لإطاحة نظام طهران، وكانت من تنظيم بختيار وتمويله.

توفي الشاه في 27 تموز-يوليو بعد معاناة مع مرض السرطان في القاهرة[33]، ولم يحدث ذلك أي فرق في موقف إيران حول الرهائن الأمريكيين. ومع استمرار عجز واشنطن عن إطلاق سراح دبلوماسييها ألحق نظام الخميني ضرراً بمكانة واشنطن في المنطقة، مما أضر بمصالح السعودية التي كانت مرتبطة بشكل وثيق بالولايات المتحدة تجارياً وعسكرياً واستخباراتياً.

وكان لموت الشاه أثر في صدام حسين الذي كان يعوّل على نجاح المحاولات المتكررة التي بذلتها الولايات المتحدة والقوات الإيرانية المناهضة للخميني لإطاحة الأوليغارشية الدينية في طهران، أو على الأقل زعزعة استقرارها. وبعد وفاة الشاه لم يعد هناك خيار أمام الرئيس العراقي سوى أن يتولى المهمة بنفسه.

كان صدام مدفوعاً بأنباء التدهور العسكري، والسياسي، والاقتصادي السريع في إيران؛ فقد وضعت تقارير متلاحقة على مكتب الرئيس صدام حول وجود صراع بين الرئيس الإيراني أبي الحسن بني صدر والزعماء الدينيين، وحول انخفاض الروح المعنوية بين ضباط الجيش الذين شهدوا مقتل الآلاف من زملائهم السابقين، وذلك جنباً إلى جنب مع أنباء تفيد بوجود نقص السلع الاستهلاكية، وتزايد البطالة، وتزايد السخط بين صفوف الطبقات المهنية، وكذلك الأقلّيات العرقية، مثل الأكراد والعرب، المتمركزين في المناطق المجاورة للعراق. ولا شك في أن إيران كانت معزولة دبلوماسياً، فقد أدى رفضها لإطلاق سراح الدبلوماسيين الأمريكيين إلى فرض الدول الغربية حظراً اقتصادياً عليها، وكانت علاقاتها مع موسكو قد توترت بسبب تدخل الكرملين العسكري في أفغانستان، كما أن مهاجمتها المتكررة لملوك الخليج وحكامه ووصفهم بالحكام الظالمين والفاسدين تركتها بلا أصدقاء في المنطقة.

قرر صدام حسين التحرك قبل الانتخابات الرئاسية الأمريكية المزمع إجراؤها في أوائل تشرين الثاني-نوفمبر خوفاً من أن ينجح الرئيس الجديد بتسوية أزمة الرهائن وإقامة علاقات طبيعية مع إيران. وبعد الانتهاء من وضع خططه العسكرية حصل على دعم حكام الكويت والمملكة العربية السعودية عبر توقيع اتفاقيات سرية معهم، واتفقت السعودية والكويت فيما بينهما على زيادة إنتاجهما النفطي بمقدار مليون برميل يومياً و800 ألف برميل يومياً على التوالي لتوظيف العائدات لدعم المجهود الحربي العراقي.[34]

وفي 2 أيلول-سبتمبر اندلعت اشتباكات على طول الحدود العراقية الإيرانية، وفي 17 أيلول-سبتمبر مزّق صدام اتفاق الجزائر المتعلق بالحدود بين البلدين خلال خطابه أمام

الجمعية الوطنية المنتخبة مؤخراً، وطالب بالسيادة الكاملة على شط العرب، وفي 22 أيلول-سبتمبر قام بغزو إيران من ثماني نقاط على الحدود المشتركة التي يبلغ طولها 1200 كم، مستخدماً ثلث قواته البالغ عددها 240 ألف جندي، وبدأ بقصف المنشآت العسكرية والأهداف الاقتصادية الإيرانية.[35] وكان لدى إيران آنذاك 100 ألف جندي فقط في جيشها، يقودهم ضباط ذوو معنويات منخفضة، وترسانة أسلحة مستنفدة.

وفّر كلٌ من بختيار وأويسي الغطاء اللازم ليبدو صدام حسين كمحرر، ليس فقط للعرق العربي في مقاطعة خوزستان الإيرانية الغنية بالنفط، بل لجميع الإيرانيين الذين يعانون من حكم الملالي المتعصبين، وقد تصور كلٌ من صدام وبختيار وأويسي أن يرحب أولئك بالقوات العراقية كمحرر لعرب خوزستان، وأن تتمكن القوات من الاستيلاء على الإقليم الغني بالنفط في خلال أسبوع، لترتبط لاحقاً مع المتمردين الأكراد الإيرانيين، وتعلن قيام جمهورية إيران الحرة تحت قيادة بختيار؛ وهذا من شأنه أن يشعل انتفاضة واسعة ضد نظام الخميني من قبل المدنيين الساخطين وكذلك ضباط الجيش، ونتيجة لذلك ستجري إطاحة الخميني وملاليه خلال ستة إلى ثمانية أسابيع. أما من حيث الواقع، فقد استمرت الحرب العراقية الإيرانية خمسة وتسعين شهراً، وأصبحت أطول حرب تقليدية في القرن العشرين، ومرت بمراحل عديدة قبل أن تنتهي في 20 آب-أغسطس 1988 بهدنة توسطت فيها الأمم المتحدة.

فمن ناحية، على الرغم من أن الاقتصاد الإيراني كان لا يزال يكافح للتعافي من فترة طويلة من عدم الاستقرار، فإن دخله من صادرات النفط كان أعلى مما كان عليه قبل الثورة، ذلك أن فقدان السوق العالمية لإمدادات النفط من إيران أدى إلى ارتفاع سعر البرميل من 13 دولاراً إلى 20 دولاراً. ومع استئناف التصدير بمعدل 3.2 مليون برميل يومياً في ربيع عام 1979، كسبت إيران أكثر بكثير مما حققته من تصديرها للنفط قبل عام 1979.[36] وكان ذلك الارتفاع مفيداً للمملكة العربية السعودية أيضاً؛ فلسد الفجوة التي خلقتها الثورة الإيرانية زادت الرياض إنتاجها من 9 ملايين ونصف مليون برميل يومياً في عام 1979 إلى 10 ملايين برميل يومياً في العام التالي. ومع ارتفاع سعر برميل النفط من 13 دولاراً إلى 28 دولاراً في آذار-مارس 1980، ارتفع دخل الرياض من النفط إلى مستوى قياسي بلغ 106 مليارات دولار في عام 1980[37]؛ فلا عجب أن أفراد العائلة المالكة السعودية كانوا سعداء بمهاجمة صدام حسين لإيران في أيلول-سبتمبر.

الملاحظات

1 تم نشر المجموعة الكاملة لاحقاً في 54 مجلداً باللغتين الإنجليزية والفارسية.

2 Lacey, Inside the Kingdom, pp. 16–17

3 Hiro, Holy Wars: The Rise of Islamic Fundamentalism, pp. 129–130

4 Holden and Johns, The House of Saud, p. 522

5 Ziauddin Sardar, Mecca: The Sacred City, Bloomsbury, London, 2015, pp. 330–331

6 Yaroslav Trofimov, The Siege of Mecca: Mecca: The Forgotten Uprising in Islam's Holiest Shrine and the Birth of al-Qaeda, Doubleday, New York, 2007/Allen Lane, London, 2007

p. 173; and pp. 188–197, and 209–213

7 Irfan Husain. Fatal Faultlines: Pakistan, Islam and the West, Arc Manor Publishers, Rockville, MD, 2011, p. 129

8 Sardar, Mecca, pp. 331–332

9 Philip Taubman, New York Times, 21 November 1979, «Mecca Mosque Seized by Gunmen Believed to Be Militants From Iran. » http://www. nytimes. com/197921/11//archives/ mecca-mosque-seized-by-gunmen-believed-to-be-militants-from-iran. html?mcubz=0

10 Yaroslav Trofimov, Macrohistory and World Timeline, «The Siege of Mecca: The Forgotten Uprising in Islam's Holiest Shrine and the Birth of al Qaeda. » http://www. fsmitha. com/review/trofimov2. html

11 BBC News, 21 November 1979, «Mob destroys US embassy in Pakistan.» http://news. bbc. co. uk/onthisday/hi/dates/stories/november/21/ newsid_41870004187184/. stm

12 John Kifner, New York Times, 25 Nov 1979. «Khomeini Accuses US and Israel Of Attempt to Take Over Mosques. » http://www. nytimes. com/197925/11//archives/khomeini- accuses-us-and-israel-of-attempt-to-take-over-mosques. html?mcubz=0

13 Lacey, Inside the Kingdom, p. 44

14 Ibid., pp. 40–41

15 Falah Abdullah al Mdaires, Islamic Extremism in Kuwait: From the Muslim Brotherhood to Al-Qaeda and other Islamic Political Groups, Routledge, Abingdon, 2010, p. 200

16 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 319, citing Guardian, 30 April 1980

17 Washington Post, 25 April 1980; Daily Telegraph, 26 April and 2 May 1980; and Guardian, 2 May 1980

18 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 335

19 Karen Elliot House, On Saudi Arabia: Its People, Past, Religion, Fault Lines—and Future, Knopf, New York, 2012/Vintage, London, 2013, p. 48

20 Ibid., p. 47

21 Lacey, Inside the Kingdom, p. 85

22 Ibid., p. 49

23 Paul Aarts and Carolien Roelants, Saudi Arabia: A Kingdom in Peril, Hurst, London, 2015, p. 34.

24 Aarts and Roelants, Saudi Arabia, p. 11

25 Abduallah Al Shihri and Aya Batrawy, Independent, 11 December 2016, «Saudi Arabia to allow cinemas to open in kingdom for first time in 35 years. » http://www. inde-pendent. co. uk/news/world/middle-east/saudi-arabia-cinemas-opening-35-year-ban-movies-films-theatres-freedoms-conservatism-islam-a8103216. html

26 Lydia Smith, Independent, 9 December 2017, «Saudi Arabia hosts first-

ever concert by female performer. » http://www. independent. co. uk/ news/world/middle-east/saudi- arabia-first-female-performer-concert-hiba-tawaji-womens-rights-middle-east-a8099646. html

27 Sardar, Mecca, p. 48

28 See Chapter 13, p. 277

29 Aarts and Roelants, Saudi Arabia, p. 41

30 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 199, citing Sunday Times, 26 Sept. 1981

31 Dilip Hiro, The Longest War: The Iran-Iraq Military Conflict, HarperCollins, London, 1989/ Routledge, New York, 1991, pp. 26–27

32 BBC Foreign Broadcast Information Service, 18 April 1980; Washington Post, 18 April 1980.

33 Hiro, The Longest War, p. 36

34 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 337, citing Daily Telegraph, 4 Feb. 1981

35 Hiro, The Longest War, pp. 38–39

36 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 487

37 Ibid., pp. 494–495

الفصل السادس

الحرب الإيرانية العراقية تقويض نظام الخميني

لم تكن معركة التل 270 التي جرت في أيلول-سبتمبر 1986 بالقرب من بلدة مهران الحدودية في إيران سوى فصل في قصة الحرب العراقية-الإيرانية، إلا أنها عكست صورة الصراع المستمر. فبعد وقت قصير من غزو العراق لإيران في أيلول-سبتمبر 1980 استولت القوات العراقية على مدينة مهران، وهي مستوطنة تضم 25 ألف شخص، ودمرت وخربت 2500 منزل و550 متجراً و14 مسجداً. وفي تموز- يوليو 1982، كان الجيش العراقي قد احتل المدينة مع التلال المحيطة التي تمتد لأميال عديدة داخل العراق. وفي أيار-مايو 1986 استعاد العراقيون السيطرة على مدينة مهران وضواحيها، واقترحوا مبادلتها بجزيرة الفاو التي استولت عليها إيران في شباط-فبراير من ذلك العام، فرفضت طهران العرض، ثم تمكنت من استعادة مدينة مهران في 30 تموز-يوليو. ولتعزيز مكاسبها كان على إيران استعادة التلال المحيطة بالمدينة. وفي ليلة 26-27 من أيلول-سبتمبر، استخدم الإيرانيون تكتيك حرب العصابات الضاربة لمهاجمة التل 270 الشديد التحصين، وتمكنوا في النهاية من السيطرة على التل.

رواية شاهد عيان

في صباح مشمس، وصلت إلى موقع المعركة بعيد انتهائها بوقت قصير برفقة عدد من المراسلين الأجانب، وأخذنا نتفقد الأشياء التي تركها العراقيون المطرودون خلفهم: علب حليب مجفف فارغة فرنسية الصنع، ولحماً بقرياً مع البطاطس من النمسا، وصحفاً عراقية. لكن ما لفت انتباهنا هو وجود صناديق قذائف هاون كتب عليها: "القيادة العامة للقوات المسلحة الأردنية (س ن 1860101)، مديرية التخطيط والتنظيم، عمَّان، الأردن"، بالإضافة إلى قنابل مصرية ذات أغلفة صفراء. ومما لفت أنظارنا أيضاً غلاف بلاستيكي رمادي كتب عليه: ألغام مضادة للأفراد من طراز فاليمارا 69، عقد رقم 1654/ أ.س/84، دفعة رقم 85/004، مع الإشارة إلى بلد المنشأ.

كانت الأسلحة ما تزال في مكانها إلى جانب العديد من الألغام والقنابل اليدوية. ومن بين الأشياء المتروكة كان ثمة لفائف أسلاك شائكة معززة بمسامير فولاذية، كان على القوات الإيرانية اجتيازها للاستيلاء على التل. كان بإمكاننا رؤية المخابئ العراقية على بعد نحو 500 ياردة من الخنادق الموجودة في أعلى التل. وبين حين وآخر تصل إلينا رائحة نيران البنادق الرشاشة عبر نسيم الخريف بينما كان الجانبان يتبادلان رشقات نارية كلٌّ نحو الآخر.

كانت زيارتنا للتل 270 بترتيب من المقر العسكري للقوات الإيرانية في مدينة صالح أباد، التي تقع على بعد 45 دقيقة بالطائرة، وقد ذكر لنا متحدث إيراني هناك أن العراقيين كانوا نائمين عندما هاجمت قواتهم التل 270 في جوف الليل، وأضاف: «وكان هذا هو الحال أيضاً في الفاو»، وهي شبه جزيرة تقع في أقصى جنوب العراق كان الإيرانيون قد استولوا عليها قبل سبعة أشهر.

في وقت لاحق تجمع حوالي ثمانين جندياً ومدنياً لأداء صلاة العشاء خلف رجل دين يدعى الحاج مجتبى نمدار، وألقى نمدار بعد الصلاة خطبة قال فيها: «إذا أعلنّا سلاماً مع صدام، فإنه سيصبح قوياً، وسيهاجمنا مرة أخرى. فماذا الذي سنقوله حينها لأهالي الشهداء والجرحى؟ الشعب الإيراني يهتف: "حرب، حرب حتى النصر". فحتى لو استغرق الأمر عشرين عاماً لتحقيق النصر، فسوف نستمر. الموت في سبيل الإسلام بالنسبة لنا أحلى من العسل». وفي اليوم التالي رأينا رجل الدين البالغ من العمر 32 عاماً في مركز قيادة زالو آب على مقربة من التل 270، وقد خلع سترته وعباءته ليرتدي زي جندي باللون الخاكي. كان الشيخ يخدم في قسم التوجيه السياسي والإيديولوجي في الجيش، حيث كان يعلم الضباط والأفراد التاريخ الإسلامي والعقيدة الإسلامية.

وقد أكد علي أكبر هاشمي رفسنجاني، المتحدث باسم مجلس الدفاع الأعلى ورئيس المجلس، أهمية وجود رجال الدين على جبهات القتال. وسبق أن قال لفرقة من رجال الدين كانت على وشك التوجه إلى ساحة المعركة: «إن وجودكم على جبهات الحرب أكثر فعالية من إرسال مليون شريط فيديو إلى المقاتلين هناك»، وأضاف: «إن ظهور رجل الدين وهو يحمل قذيفة آر بي جي 7 (قاذفة صاروخية)، أو يركب آلية على طول الجبهة يعزز من معنويات الناس، ويشجعهم على التجنّد والمشاركة في الحرب».[1] وهذا ما يفسر النشاط الكبير الذي شهده مسجد مقر قيادة الجيش في صالح آباد؛ فقد عُلقت على حائط المسجد صورة لآية الله روح الله الخميني رافعاً يده، وفي أقصى الردهة يوجد سهم أخضر يشير لاتجاه القبلة في مكة، حيث يجب على جميع المسلمين أن يتوجهوا أثناء الصلاة. كانت جدران المسجد مغطاة

بآيات قرآنية مطبوعة على أقمشة، ورايات سوداء، للدلالة على حلول شهر محرم: الشهر الذي استشهد فيه الإمام الحسين في مدينة كربلاء العراق قبل حوالي ثلاثة عشر قرناً.

كانت وحدات الباسيج التطوعية تتوجه إلى جبهات الحرب من مناطق إيران النائية تحت اسم "قوافل كربلاء"، بينما كانت البيانات الرسمية تطلق على القوات الإيرانية المشاركة في هذه الحرب لقب "السائرون إلى كربلاء"، وهي مكان في جنوب العراق يحكمه "الكافر" صدام حسين.

تاريخياً، يعود التنافس بين إيران والعراق إلى أيام الإمبراطورية العثمانية (1517-1918)(*) والإمبراطورية الفارسية في عهد الصفويين (1501-1732)، عندما كان العراق، الذي كان يسمى آنذاك ببلاد الرافدين، مقاطعة تقع في أقصى شرق الدولة العثمانية، بينما كانت إيران مركز المملكة الصفوية.

العراق يغزو إيران وسط استمرار أزمة الرهائن الأمريكيين

في 22 أيلول-سبتمبر 1980، تقدمت القوات العراقية نحو مقاطعة خوزستان الإيرانية الغنية بالنفط، وبعد ستة أيام دعا مجلس الأمن الطرفين لإعلان هدنة، فأعلن العراق استعداده لوقف إطلاق النار إن أقرت إيران بحقوق العراق المزعومة في شط العرب، بيد أن إيران رفضت الاعتراف بتلك الحقوق.

صرح الخميني بأن صدام اعتدى على الإسلام بمهاجمته "حكومة الله" في إيران، ويجب بالتالي على كل مسلم أن يحارب نظام صدام، وأن يستشهد في سبيل ذلك إذا لزم الأمر. يحظى مفهوم الشهادة باحترام كبير في الإسلام الشيعي، حيث يُطلق على الإمام الحسين لقب سيد الشهداء. وقد وردت آيات في القرآن (3: 169-170) تقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.(2)

على صعيد الرهائن، توصّل المسؤولون الأميركيون إلى اتفاق سري مع نظرائهم الإيرانيين في مقر الأمم المتحدة في نيويورك، وقال الرئيس الأمريكي جيمي كارتر في 18 تشرين الأول-أكتوبر: إن الولايات المتحدة ترغب في "انسحاب القوات الغازية لإيران". وفي 26 تشرين

(*) بدأ الاحتلال العثماني للعراق فعلياً عام 1534م وليس 1517م عندما استولى السلطان سليمان القانوني على بغداد، طارداً الحامية الصفوية منها، مما أدى إلى ضم العراق إلى الدولة العثمانية لحوالي أربعة قرون، ما عدا فترة قصيرة امتدت بين عامي (1624-1538) [المركز].

الأول-أكتوبر، قرر المجلس الإيراني النظر في توصيات لجنته حول موضوع الرهائن. وبعد يومين وعد كارتر بأن إدارته ستنقل لإيران الأسلحة وقطع الغيار التي كانت الأخيرة قد دفعت ثمنها في وقت سابق، ولكن المناقشة تأخرت بسبب فارق التوقيت بين واشنطن وطهران وحلول عطلة نهاية الأسبوع في إيران. أما المجلس الإيراني، فلم يناقش هذه القضية إلا في 2 تشرين الثاني-نوفمبر، وقد قبل النواب بأغلبية 185 صوتاً توصية اللجنة، وقرار الإفراج عن الرهائن في حال قبلت واشنطن بمطالب الخميني. وفي اليوم التالي وصف كارتر القرار بأنه «يشكل أرضية إيجابية» يمكن البناء عليها لإنهاء الأزمة. وقد سلم الطلاب الخاطفون الرهائن إلى الحكومة[3]، ولكن موعد التسليم كان قريباً جداً من يوم الانتخابات الرئاسية المزمع إجراؤها في 4 تشرين الثاني-نوفمبر، وبالتالي لم يعد بإمكان كارتر توظيف هذا الإنجاز في الانتخابات، فخسر أمام منافسه الجمهوري رونالد ريغان.

وبعد أن أدى ريغان اليمين الدستورية رئيساً للولايات المتحدة، في 21 كانون الثاني-يناير 1981، أنهت الحكومة الإيرانية أزمة احتجاز الرهائن الأمريكيين عبر تسليمهم للمسؤولين الأمريكيين في الجزائر العاصمة بعد مضي 444 يوماً على احتجازهم، فساد الارتياح في العديد من العواصم بعد هذه الأزمة، ولكن ليس في الرياض، حيث اشتبه أفراد الأسرة السعودية المالكة بعقد صفقة سرية بين ريغان ونظام الخميني.

عدَّ معظم الإيرانيين هزيمة كارتر من دروس العدالة الإلهية؛ فقد فرضت أمريكا الشاه محمد رضا بهلوي فرضاً على الإيرانيين في آب-أغسطس 1953، وأخضعتهم لحكمه القمعي الاستبدادي لمدة ربع قرن، وها هم الآن يقررون نتيجة الانتخابات الرئاسية الأمريكية، ويثأرون من كارتر، الذي لطالما أطنب في مدح الشاه، ولطالما قدم له الدعم خلال الثورة الإيرانية، وسمح له أخيراً بدخول الولايات المتحدة، كما حاولت إدارته جاهدة زعزعة استقرار إيران وتركيب حكومة تتوافق مع المصالح الأمريكية، وذلك خلافاً للوعود التي قطعتها الإدارة الأمريكية بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للنظام الإسلامي.

وفي منطقة الخليج، فبعد اندلاع حرب إيران مع العراق، خفّضت السعودية أعداد الحجاج الإيرانيين إلى مكة في منتصف تشرين الأول-أكتوبر 1980، لنحو 10 آلاف حاج فقط.

ولم تستجب منظمة التعاون الإسلامي لمطالب الخميني بإدانة العراق بسبب عدوانه على إيران، إلا أن الخميني تمكن من تحقيق نجاح مهم في الداخل عبر تصعيد الحرب باسم الإسلام، وقد كُتبت على جدران الشوارع عبارة "تصبح الحرب مقدسة كالصلاة عندما تخاض باسم الإسلام".

لم تفلح كل مناشدات الخميني وحثه للإيرانيين على الدفاع عن بلادهم، وقرار الحكومة بتحويل قوة الباسيج التطوعية إلى قوة رديفة للحرس الثوري الإسلامي، في إخفاء ضعف الجيش الإيراني، الذي كان قد ازداد ضعفاً بعد أحداث إطاحة الشاه. وبحلول منتصف تشرين الثاني-نوفمبر تركت القوات الإيرانية مدينة خرمشهر النفطية للعراقيين الذين كانوا يحاصرون مدينة عبادان القريبة، وهي موقع مصفاة نفط كبيرة. وبذلك بات العراقيون يحتلون 25900 كيلو متراً مربعاً من الأراضي الإيرانية في القطاعين الجنوبي والأوسط. ولكن سرعان ما اجتمعت عوامل الطقس والجغرافيا وقيادة صدام الضعيفة لتصب في صالح الإيرانيين، فراوح الجيشان في مكانهما من غير تقدم.

في ذلك الوقت كانت واشنطن تمرر للرياض صور أقمار صناعية للقوات الإيرانية على الأرض، وكانت واشنطن تعلم جيداً أن السعودية كانت تنقل هذه الصور للعراق، وذلك بالإضافة إلى المعلومات التي كانت السعودية تجمعها عبر أربع وحدات من أنظمة الإنذار والمراقبة المحمولة جواً (أواكس)، كانت الولايات المتحدة قد أجَّرتها للسعودية في أيلول-سبتمبر 1980، بهدف مراقبة مياه الخليج على مدار الساعة، وهي حقيقة أكدها صدام حسين فيما بعد.[4]

خلال الحرب انخفضت صادرات أوبك نتيجة الأضرار الجسيمة التي لحقت بصناعة النفط في كل من إيران والعراق، وأدّى ذلك إلى ارتفاع أسعار النفط، حيث وصل سعر البرميل إلى 47 دولار للبرميل في عام 1981 (125 دولاراً بسعر اليوم)، وفي الوقت نفسه وصل دخل أرامكو السعودية من النفط إلى مستوى قياسي بلغ 119 مليار دولار[5]، ليستقر لاحقاً عند حوالي 34 دولاراً للبرميل في أوائل الثمانينيات.

وكان من نتائج تلك الحرب تسريع النظر في اقتراح السعودية توقيع اتفاقية أمن داخلي بين الأنظمة الملكية في شبه الجزيرة العربية، وخاصة بعد حادثة الاستيلاء على المسجد الحرام في مكة. وفي اجتماع لهم في أبو ظبي قرر حكام كل من البحرين، والكويت، وعُمان، وقطر، والسعودية، والإمارات تشكيل مجلس التعاون الخليجي في 25 أيار-مايو 1981 بهدف تنسيق الجهود الأمنية، وتعزيز الأمن الداخلي لدول المجلس، وشراء الأسلحة، ودعم اقتصادات الدول الأعضاء، وتسوية النزاعات الحدودية بقيادة المجلس الأعلى المكون من رؤساء الدول الأعضاء.

وفي تلك الأثناء تمكنت القوات الإيرانية من إيقاف تقدم القوات العراقية، وفكّت الحصار عن عبادان في أيلول-سبتمبر. وقد تعثرت الجهود التي بذلتها الأمم المتحدة ومنظمة التعاون

الإسلامي، بدعم من المملكة العربية السعودية، لوضع حد للصراع العراقي الإيراني، إذ رفضت إيران التفاوض ما دام العراق يحتل أراضيها. ونتيجة لانحياز المملكة العربية السعودية للعراق تصاعد التوتر بينها وبين إيران؛ ففي 23 أيلول-سبتمبر 1981 ألقت قوات الأمن السعودية القبض على إيرانيين كانا يسجدان لضريح النبي محمد في المدينة المنورة،(*) وهو أمر محظور تماماً، فتظاهر مئات الزوار الإيرانيين في اليوم التالي، ورددوا شعارات مناهضة لأمريكا و[كيان] إسرائيل، وأُصيب 22 إيرانياً وستة جنود سعوديين في قتال دار لاحقاً.(6) ونتيجة لذلك أخضع نحو 75.000 حاج إيراني لتفتيش دقيق عند وصولهم لأداء فريضة الحج، في 7 تشرين الأول-أكتوبر، وصودِرت كتبهم ومنشوراتهم. وفي كانون الأول-ديسمبر، قال وزير الداخلية السعودي الأمير نايف بن عبد العزيز آل سعود، في كلمة له خلال اجتماع وزراء داخلية دول مجلس التعاون الخليجي في المنامة بالبحرين: «إن الإيرانيين، الذين قالوا بعد ثورتهم: إنهم لا يريدون أن يكونوا شرطي الخليج، أصبحوا الآن إرهابيّي الخليج».(7)

خلال زيارته للرياض في 8 شباط-فبراير 1982 أقنع وزير الدفاع الأمريكي كاسبر واينبرجر الحكومة السعودية بتشكيل لجنة عسكرية سعودية أمريكية مشتركة، ولم تكن السعودية سابقاً قد اقتنعت بضرورة تشكيل تلك اللجنة، لكن تغيير موقفها جاء بسبب خوفها من التهديد الإيراني. وفي ظل هذه الأجواء أصدر البنتاغون توجيهاً سرياً، في شهر آذار-مارس الماضٍ بتعزيز التواجد العسكري الأمريكي في الخليج(8)، بعد أن أجازه ولي العهد الأمير فهد، الحاكم الفعلي للمملكة، نظراً لتدهور صحة الملك خالد، الذي ما لبث أن توفي إثر نوبة قلبية في حزيران-يونيو 1982.

فهد يتوج ملكاً على العرش

استلم فهد عرش المملكة عام 1981 في وقت حققت فيه السعودية رقماً قياسياً من دخل النفط قدره 113.2 مليار دولار.(9) وسرعان ما انغمس فهد في الإسراف في الملذات من دون رادع، والاغتراف من أموال الدولة بلا حسيب ولا رقيب. ولم يبدأ في إصلاح عاداته تلك إلا في عام 1974، بعد أن مُني بخسائر فادحة في المقامرة، تلقى على إثرها توبيخاً شديداً من الملك فيصل. لكن مشكلة السمنة استمرت لديه، ولمعالجتها، انتقل في آذار-مارس 1979 إلى مجمع

(*) هذا الامر لا يقع في الغالب، إذ يرفض الشيعة السجود لغير الله تعالى، لكنهم في المقابل يقبّلون أضرحة أئمة أهل البيت والأولياء الصالحين أو يتمسّحون بها طلباً للبركة أو ينحنون ويطأطئون رؤوسهم احتراماً لصاحب المقام [المركز].

صحي بالقرب من ماربيا بإسبانيا، ليخضع لبرنامج علاجي لفقدان الوزن، ولكن دون جدوى. وعندما أصبح فهد ملكاً ازداد وزنه كثيراً، وأصبح يعاني من مرض السكري، وتفاقم مرضه بسبب عادته اليومية السيئة، فعلى سبيل المثال: كان يشرب الكثير من الشاي الحلو يومياً.

افتقر فهد للتأييد الشعبي الذي تمتع به فيصل بسبب زهده، أو لعلاقة المحبة التي كانت تربط خالد برعاياه، وقد حالت مركزيته الشديدة دون وصول النصح إليه ممن حوله، إذ اعتمد على الإكراه كوسيلة لضمان الولاء. وبسبب غيابات فهد الطويلة خارج المملكة وقضائه فترات طويلة خارج الرياض بعيداً عن أعين العلماء، أو في يخته الفاخر قبالة سواحل جدة، حيث يمكنه متابعة أسلوب حياته الفاسد دون أن يلاحظه أحد، كل هذا جعله في عين رعاياه "أسيراً للغرب"، في حين رآه آخرون "كمنافق مارق يتنكر بهيئة مسلم تقي"، و"سكير مولع بالنساء الأجنبيات".[10]

بنى فهد سلسلة من القصور الرائعة في الداخل والخارج: في ماربيا في إسبانيا، وفي جنيف، وقصر السالم في جدة ذي الرمال البيضاء المستوردة من اليونان، بالإضافة إلى قصر في الطائف، وقصر آخر بين الرياض والدرعية؛ فتسببت كل تلك القصور في استنزاف أصول مؤسسة النقد العربي السعودي. وفي النهاية صبّت إخفاقات فهد الشخصية وأسلوب حكمه الفاشل في مصلحة الدعاية الإيرانية على الجانب الآخر من الخليج، خاصة عندما استمر بدعم حكومة صدام حسين في بغداد.

إيران تقلب الكفة في حرب العراق

على جبهة الحرب استعادت إيران مدينة خرمشهر في 24 أيار-مايو 1982، ثم كسرت حصار عبادان، وأرجعت العراقيين إلى الحدود الدولية، وغرقت بغداد في أزمة عارمة، فأعلن العراق في 9 حزيران-يونيو استعداده للهدنة، لكن إيران اشترطت إزاحة صدام حسين عن السلطة، وكانت طهران تعلم أن هذا الخيار غير وارد. وفي 20 حزيران-يونيو أعلن الرئيس العراقي أن انسحاب العراق الطوعي من إيران سيكتمل في غضون عشرة أيام، وفي 30 حزيران- يونيو، أخلت القوات العراقية بعض المواقع التي يتعذر عليها الدفاع عنها، لا لشيء إلا لإعادة تجميع صفوفها في مكان آخر. وقد رأى الخميني أنه إذا قبل وقف إطلاق النار، فسيرجع السياسيون في إيران، من رجال الدين وغيرهم، إلى خلافاتهم مما سيزيد من إضعاف الجمهورية الإسلامية التي أسسها.

قررت الحكومة الإيرانية التغلغل في الأراضي العراقية، بما ينسجم مع تفكير قيادتها

الإستراتيجي الذي خلص إلى أن الطريقة الفعالة للدفاع عن الثورة هي الهجوم لتوسيع نفوذ إيران في الخارج. وفي شرحه لهذه السياسة لاحقاً قال الرئيس علي خامنئي: «إذا بقيت الثورة داخل الحدود الإيرانية، فستصبح عرضة للخطر».[11]

وكان من بين الحركات التي دعمتها إيران في ذلك الوقت منظمةُ الثورة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية(OIRAP) ، والرابطة الإسلامية لطلبة البحرين، وبات القادة الإيرانيون، من دون قصد، يحذون حذو قادة الثورة البلشفية العلمانيين بعد نجاح ثورتهم في روسيا، حين أسس نظام فلاديمير لينين الشيوعية العلمية في آذار-مارس 1919 للقتال «بكل الوسائل المتاحة، بما في ذلك القوة المسلحة»، من أجل إطاحة النظم البرجوازية العالمية وإنشاء جمهورية سوفيتية دولية.

وفي منتصف عام 1982 دفع تغلغل إيران في العراق الكرملين لتغيير سياسته التي انتهجها منذ عام 1972 فتراجع عن موقفه بشأن وقف إمدادات الأسلحة إلى العراق بعد أن أوقفها بسبب غزو العراق لإيران. وقد شملت شحنات الأسلحة الجديدة صواريخ أرض-أرض من طراز سكود-بي يصل مداها إلى 300 كيلومتر. وفي المنطقة أيضاً بدأت المملكة العربية السعودية والكويت بدعم العراق علناً، مالياً ولوجستياً، مع استمرار تبادل المعلومات الاستخبارية حول إيران بين الولايات المتحدة وبغداد، وبدأت الرياض والكويت بتوريد شحنات النفط التي وقع عليها العراق مع الدول الغربية واليابان، والتي لم يتمكن من توريدها بنفسه.

وحاولت إيران، في تموز-يوليو 1982، احتلال مدينة البصرة جنوبي العراق، فأشعل ذلك حرباً ضروساً بين تسع فرق خاضت أكبر معركة مشاة منذ الحرب العالمية الثانية، واستمرت المعارك الضارية لمدة أسبوعين، وفي النهاية تمكنت إيران من السيطرة على 83 كيلومتراً مربعاً فقط من الأراضي العراقية. ومع ذلك بقيت إيران متمسكة بشروطها السابقة للانسحاب من العراق، ألا وهي إطاحة صدام حسين من الرئاسة، وتعيين محكمة دولية لتحديد المعتدي ومعاقبته، وقبول مطالبتها بمبلغ 150 مليار دولار كتعويضات عن أضرار الحرب.

وفي ربيع عام 1982 أعطى الخميني تعليماته لرئيس لجنة الحج، محمد موسوي خوينيها، ليقوم الأخير بتعريف حجاج مكة بما كان يحدث في كلٍ من إيران وأفغانستان، وإبلاغهم بواجبهم الديني في مواجهة المعتدين الدوليين، وفي المقابل، ردت السلطات السعودية بتأكيدها ضرورة الحفاظ على السلم خلال موسم الحج، وأكدت بأن ترديد الشعارات السياسية يشكل انتهاكاً لحرمة الحرم وقداسته. بيد أن أتباع الخميني تجاهلوا التعليمات السعودية. وبعد أن دخل إلى ساحة الحرم دعا خوينيها لإقامة صلاة جماعة شجباً لمؤامرات "المنحرفين"،

في إشارة إلى آل سعود، وكرّر ذلك داخل المسجد النبوي بالمدينة المنورة، فاشتبكت قوات الأمن السعودية مع الحجاج الإيرانيين لخرقهم قرار منع التجمعات العامة داخل الحرمين الشريفين، واعتقلت 100 حاج إيراني، من بينهم خوينيها [12]، فأصدر الخميني إثر ذلك تعليماته للحجاج الإيرانيين بالحفاظ على سلمية احتجاجاتهم، والامتناع عن توزيع المنشورات السياسية المطبوعة وانتقاد الحكومات الإسلامية، وفي مقابل ذلك خففت السلطات السعودية من حدة موقفها، وسمحت بالتظاهر خارج الحرمين الشريفين ضمن أماكن متفق عليها سلفاً.

وفي آذار-مارس 1983 خسرت منظمة أوبك احتكارها لتحديد أسعار النفط؛ ففي ذلك الشهر، طرحت بورصة نيويورك التجارية (نايمكس) عقوداً آجلة للنفط الخام، وهذا يعني أن سعر النفط سيحدد يومياً في السوق المفتوح من خلال تجار البورصة الذين يعملون في قاعة مزايدة داخل مبنى تجاري، حيث يقوم المشترون والباعة بمراقبة الشاشات لمتابعة الأسعار في جميع أنحاء العالم. وقد جاء هذا التطور على خلفية تراجع الطلب على النفط في الغرب، وكان سبباً في إضعاف نفوذ منظمة أوبك في تحديد أسعار النفط؛ فبدأت الأسعار بالتدهور. وفي عام 1984 قامت المملكة العربية السعودية، التي كان يحكمها الملك فهد آنذاك، بتقليص إنتاجها بشكل حاد لضمان استقرار سعر خام النفط عند 29 دولاراً للبرميل.

وفي الوقت نفسه واصلت إيران شن هجمات دورية على العراق مدعومة بدخلها النفطي القياسي الذي بلغ 23 مليار دولار في عام 1983. وفي الذكرى الثالثة للحرب، في أيلول-سبتمبر 1983، بلغ تعداد الجيش الإيراني 320 ألف جندي، و70 ألفاً في القوات الجوية، و23 ألفاً في البحرية، ليصل العدد الإجمالي إلى تعداد الجيش نفسه ما قبل الثورة، كما ارتفع عدد قوات الحرس الثوري ليصل إلى 150 ألفاً.[13]

عزز العراق أيضاً جيشه عبر تجنيد عدد كبير من الرجال العراقيين ضمن القوات المسلحة، واستيراد أعداد من العمال الأجانب لتعويض نقص الأيدي العاملة. وفي ذلك الوقت بلغت القوة الإجمالية لجيوش دول مجلس التعاون الخليجي 150 ألف جندي فقط، وبالإضافة إليها بلغ قوام الحرس الوطني في الرياض 41 ألف فرد.[14]

بدأ العراق باستخدام أسلحة كيميائية في الحرب منذ تشرين الأول-أكتوبر 1983، ومع ذلك، تمكنت القوات الإيرانية عقب هجومها على هور الحويزة من الاستيلاء على جزر مجنون العراقية الغنية بالنفط في شباط-فبراير 1984. وبحلول الذكرى السنوية الرابعة للحرب، في أيلول-سبتمبر 1984، أصبح عدد الجيش العراقي 500 ألف جندي، بينما ضم الجيش الشعبي المساعد 560 ألف جندي مسلح.[15]

كان من نتائج استمرار الحرب تمكن العديد من الصناعات الإيرانية من تحقيق الاكتفاء الذاتي، ولكن كان على إيران اللجوء إلى مخزون فيتنام الهائل من بقايا الأسلحة وقطع الغيار الأمريكية لتأمين قطع غيار لأسلحتها الأمريكية الصنع. وفي وقت لاحق اتصلت إيران بشركات خاصة في أمستردام، وأثينا، ومدريد، وسيول، وسنغافورة للحصول على هذه القطع. وقد شجعت إدارة ريغان سراً هذه المبيعات للسماح للحرب بالاستمرار وجعل الممالك العربية، التي كانت تخشى جمهورية إيران الإسلامية، أكثر اعتماداً على واشنطن لضمان أمنها، بيد أن تهاونها هذا تغير في كانون الثاني-يناير 1984 بعد أن أدرجت واشنطن إيران ضمن قائمة الدول الداعمة للإرهاب الدولي.

وعلى النقيض من ذلك، حققت بغداد مكاسب دبلوماسية عندما أزالت إدارة ريغان العراق من قائمة الدول الداعمة للإرهاب الدولي في تشرين الثاني-نوفمبر 1983، فاستعادت بغداد، بعد شهرين، علاقاتها الدبلوماسية مع واشنطن بعد انقطاع دام سبعة عشر عاماً.

حرب الناقلات وحرب المدن

صعّد العراق هجماته على ناقلات النفط الإيرانية مستخدماً صواريخ جوّ-بحر فرنسية الصنع من طراز إكسوسيت، وكثّف غاراته الجوية على محطة خَرْج النفطية، التي يمر عبرها 85% من صادرات النفط الإيرانية، مفتعلاً ما يعرف بحرب الناقلات، فردت إيران بضرب السفن التي كانت تخدم موانئ الكويت والمملكة العربية السعودية.

وفي آذار-مارس 1984 انخفض دخل إيران النفطي إلى 14.7 مليار دولار، أي إلى مستوًى أقل بكثير من الميزانية المقررة والبالغة 21.1 مليار دولار. وفي النهاية انخفضت صادرات النفط الإيرانية إلى 1.6 مليون برميل يومياً نتيجة لهجمات العراق المتواصلة على الناقلات الإيرانية ومحطة نفط الخرج، وهو مبلغ بالكاد يكفي لتغطية تكاليف الحرب.

وفي آذار-مارس 1985 ضرب العراق هدفاً مدنياً، وهو مصنع للصلب في الأهواز، وأعلن الجيش العراقي أن كامل المجال الجوي الإيراني بات يُعَدّ منطقة حرب، كما ضربت صواريخه المعدلة من طراز سكود-بي مدينة طهران. وكان سبب استهداف المدن، كما عبر عنه اللواء ثابت سلطان، هو أننا «نريد جلب الشعب الإيراني إلى الخطوط الأمامية للحرب أملاً في أن يثور هذا الشعب ضد حكومته، ويدفعها لإنهاء الحرب». وبدورها ردت إيران بضرب بغداد بصواريخها. وفي المحصلة استهدفت الطائرات الحربية العراقية مدينة طهران ثلاثاً وأربعين مرة بين شهري آذار-مارس وحزيران-يونيو من عام 1985؛ ورداً على ذلك أطلقت إيران 12

صاروخاً إيرانياً على بغداد. وما إن تجاوز سكان بغداد الصدمة الأولى، حتى أدركوا أن الضرر الناجم عن هذه الهجمات كان محدوداً، ويمكن احتماله. وهكذا انتهت حرب المدن في شهر تموز-يوليو من العام نفسه.[16]

ومع ذلك استمرت حرب الاستنزاف على نطاق أوسع، وبدأت واشنطن بالتدخل في الحرب إلى جانب العراق. ولكن سرعان ما أدى هجوم إيراني شُنّ في شباط-فبراير 1986 إلى كسر الجمود والاستيلاء على 310 أميال مربعة في شبه جزيرة الفاو. وقد باءت كل الجهود التي بذلها العراق لاستعادة شبه الجزيرة بالفشل، بعد أن شن 18.648 مهمة جوية بين 9 شباط-فبراير و25 آذار-مارس 1986، مقارنة بـ 20.011 مهمة طوال العام 1985[17]، في حين زعم الإيرانيون أنهم دمروا 141 دبابة عراقية و86 طائرة ومروحية عراقية طوال الهجوم العراقي المضاد الهادف لتحرير شبه الجزيرة، وقدروا عدد الضحايا العراقيين بـ 35 ألف جندي.[18]

وفي آذار-مارس 1986، عقب صدور تقرير خبراء الأمم المتحدة حول استخدام العراق للغازات السامة، أدان مجلس الأمن استخدام العراق للأسلحة الكيميائية، كما اعترض على إطالة أمد الصراع من جانب إيران.

السعوديون يوجهون ضربة للاقتصاد الإيراني

في الشهر التالي أدى تدفق النفط من جانب الكويت والمملكة العربية السعودية إلى انخفاض أسعار النفط إلى أقل من 10 دولارات للبرميل، بعد أن كانت 27 دولاراً في كانون الأول-ديسمبر الماضي، وقد فعلت كلّ من السعودية والكويت ذلك أولاً للحفاظ على حصتهما في السوق العالمية بعد إستراتيجية خفض الأسعار التي اتبعها المنتجون من خارج أوبك مثل بريطانيا والنرويج، ثم انصاعت أوبك، وبدأت هي الأخرى بإغراق سوق النفط لمواجهة إستراتيجية المنتجين من خارج أوبك أولاً، ولتدمير الاقتصاد الإيراني ثانياً؛ فأدى هذا التخفيض إلى انخفاض السعر من 28 دولاراً إلى أقل من 10 دولارات للبرميل بحلول تموز-يوليو 1986، وتقلصت عائدات طهران من النفط إلى النصف لتصل إلى 7.2 مليار دولار سنوياً. كما عانى العراق مالياً أيضاً، ولكن خَفَّفت معاناته المساعدات البالغة 12 مليار دولار التي كان يتلقاها سنوياً من حلفائه في الخليج والغرب والاتحاد السوفييتي.[19]

وخلال زيارة وزير الخارجية الإيراني، علي أكبر ولايتي، إلى موسكو في منتصف شهر شباط-فبراير 1987، حاول الكرملين التوسط بين الطرفين المتحاربين، ووافق صدام حسين على تعليق حرب المدن إذا وافقت موسكو على إعطائه طائرات مقاتلة سوفيتية متقدمة بدل

طائرات العراق الحربية المدمرة، فقبل الكرملين بدوره العرض العراقي. وفي 18 شباط-فبراير 1987، عندما عُلِّقت أعمال الحرب، كانت قد خلّفت أضراراً في 35 مركزاً حضرياً إيرانياً، وقتلت 3000 شخص، بينما أدَّت الهجمات الصاروخية الإيرانية وحصار مدينة البصرة إلى مقتل 300 عراقي فقط.[20]

قرر الخميني، على إثر جولات حرب المدن المتكررة التي شنها صدام حسين، رفع الفيتو الذي كان قد فرضه على تطوير أسلحة الدمار الشامل وتصنيعها، تلك التي كان قد وصفها بأنها "غير إسلامية" بسبب عدم تمييزها بين المقاتلين والمدنيين. وقد تواصلت الحكومة الإيرانية مع باكستان لشراء تكنولوجيا دورة الوقود النووي، فرفضت باكستان، التي كان يحكمها آنذاك الجنرال ضياء الحق. ولم تستسلم طهران فوقعت اتفاقية تعاون مع باكستان حول الطاقة النووية للأغراض المدنية، وقام أحد كبار العلماء النوويين الباكستانيين سراً بتمرير تقرير حساس حول أجهزة الطرد المركزي المستخدمة في تنقية اليورانيوم. وفي وقت لاحق اعترف عبد القدير خان، "عرّاب القنبلة النووية الباكستانية"، بنقل أسلحة نووية إلى إيران وتزويد طهران بعدد من أجهزة الطرد المركزي.[21]

صِدامٌ إيراني-سعودي في مكة

كان لحرب طهران مع العراق أثر مباشر في العلاقات السعودية الإيرانية، إذ إنها أدت إلى انخفاض أسعار النفط بفعل الإستراتيجية السعودية الكويتية التي طُبقت في ربيع عام 1986، وأدى هذا بدوره إلى شل المجهود الحربي الإيراني. ومع ذلك رفض الخميني قرار مجلس الأمن الدولي رقم 598، الذي جرى تبنّيه بالإجماع في 20 تموز-يوليو 1987، والذي دعا لوقف إطلاق النار وانسحاب القوات المتحاربة من الأراضي الأجنبية المحتلة. وقد تضمن نص القرار المكون من عشر مواد بنداً يقضي بإنشاء لجنة محايدة لتحديد المسؤول عن هذه الحرب، وهو أحد المطالب الرئيسية لإيران، وقال العراق: إنه سيقبل القرار شرط أن تفعل إيران الشيء نفسه بيد أن طهران رفضت القرار.

وفي 24 تموز-يوليو، اصطدمت ناقلة نفط كويتية عملاقة، ترافقها سفن حربية أمريكية، بلغم يُعتقد أن زورقاً إيرانياً سريعاً زرعه في المنطقة. وخلال موسم الحج الذي تزامن مع الحرب الإيرانية العراقية حثّ الخميني 155000 حاج إيراني على أداء طقوس "البراءة من الشرك"، وعقدِ "مسيرة وحدة" لطلب "الخلاص من الكفار"، وقد تجلى ذلك في شعار "الموت لأمريكا! الموت للاتحاد السوفييتي! الموت لإسرائيل!" لأن أمريكا هي المصدر الرئيسي "للفساد

في الأرض"، ولأن الاتحاد السوفييتي كان قد تدخَّل عسكرياً في دولة أفغانستان المسلمة، ولأن [كيان] إسرائيل اغتصب فلسطين المسلمة. وفي رحلة الحج تلك تولّى مهدي كروبي، الممثل الشخصي للخميني، مهمة قيادة الحجاج الإيرانيين وتخطيط طريق سير الحجاج في مكة، حيث تقع نقطة النهاية على بعد حوالي ميل من المسجد الحرام.

في 31 تموز-يوليو، بعد صلاة ظهر الجمعة، وصل الحجاج الإيرانيون إلى نقطة النهاية المتفق عليها، تتقدمهم النساء والمقعَدون على الكراسي المتحركة، يرفعون صور الخميني عالياً، وواجهوا هناك كتيبة من شرطة مكافحة الشغب السعودية تتمترس خلف حواجز خرسانية، ورَشَق الحجاجَ بالحجارة حشدٌ من الغوغاء تجمعوا عند موقف سيارات مجاور، ثم تصاعدت الأحداث عندما استخدم رجال الشرطة الهراوات والعصي الكهربائية لتفريق الحشد. وبعد فترة هدوء قصير وصلت قوات الحرس الوطني. ووفقاً لتقارير للمخابرات الأمريكية، ظهرت لاحقاً، أطلقت قوات الحرس الوطني قنابل الغاز المسيل للدموع، ثم استخدمت الذخيرة الحية ضد الحجاج، فأدى ذلك إلى تدافع لاحق أودى بحياة 402 شخصاً، من بينهم 275 حاجاً إيرانياً، و85 مدنياً، ورجل أمن سعودي، و42 حاجاً غير إيراني. وقد نفت السلطات السعودية مزاعم إطلاق النار، وأكدت أن جميع الوفيات نتجت عن عملية التدافع، ولم تأمر السلطات السعودية بإجراء تحقيق رسمي في تلك الحادثة الدموية.[22]

تصاعد الغضب في إيران، فاقتحمت حشود في طهران السفارتين السعودية والكويتية، وحطموا الأثاث وأضرموا النيران، فأدى هذا إلى مقتل دبلوماسي سعودي. وقال الرئيس الإيراني علي خامنئي: «إن هذه المؤامرة من تصميم الولايات المتحدة، ولا شك أن الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية ذلك. وبالطبع فإن الحكومة السعودية مسؤولة أيضاً، لأن الاعتداء وقع على أيدي السعوديين وشرطتهم».[23] وفي رسالته إلى كروبي، بدا على الخميني الغضب حين انتقد «السعوديين المتعصبين الذين دفعتهم معتقداتهم المضللة لقتل الحجاج الشيعة، ووصف حكام السعودية بالوهَّابيين الخسيسين والفجار، الذين لطالما تمادوا في قتل المسلمين»، وأعلن أن مكة أصبحت في أيدي «عصابة من الزنادقة».[24]

نفت السلطات السعودية مزاعم استخدامها الغاز المسيل للدموع وقيام الشرطة بإطلاق النار، وزعمت أن الوفيات حدثت عندما تدافع المتظاهرون هاربين، وداسوا بعضهم بعضاً. وزعم وزير الداخلية نايف بن عبد العزيز آل سعود أن الهدف الحقيقي للحجاج الإيرانيين كان خلق "فتنة" داخل المسجد الحرام، مما يعطل طواف الحجاج غير الإيرانيين حول الكعبة، التي هي جوهر مناسك الحج[25]، لكن نايف لم يقدّم أي دليل يؤيد كلامه.

لجأ كل جانب لنشر روايته حول الحادثة في أنحاء العالم، وقد اكتسبت الرواية السعودية مصداقية أكبر لأن غالبية الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي كانوا من السُنّة، واتضح هذا خلال اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامي في عمّان في آذار-مارس 1988. حيث حصلت السعودية على موافقة المنظمة لتحديد حصة قدرها 1000 حاج فقط لمليون مسلم يعيشون خارج المملكة، وفي الشهر التالي قطعت السعودية علاقاتها الدبلوماسية مع إيران، وردت إيران بالمثل.

الحرب تراوح في مكانها، والنظام الإسلامي يترسّخ في إيران

بعد تعرض ناقلة النفط الكويتية العملاقة لأضرار كبيرة بسبب لغم بحري زرعته إيران، أرسلت أمريكا وبريطانيا وفرنسا حشداً بحرياً إلى مياه الخليج شاركت فيه ستين سفينة حربية. وفي تشرين الأول-أكتوبر 1987، أغرقت البحرية الأمريكية ثلاثة زوارق إيرانية بالقرب من جزيرة فارسي في عملية "الرامي الذكي" بدعوى أن إيران أطلقت النار على طائرة هليكوبتر أمريكية. كما دمرت السفن الحربية الأمريكية منصتين نفطيتين بحريتين إيرانيتين في مياه الخليج السفلى رداً على هجوم صاروخي إيراني على ناقلة عملاقة ترفع العلم الأمريكي كانت راسية في المياه الكويتية. ثم تقلصت قدرة طهران على شن هجمات كبيرة بسبب نقص النقد الأجنبي اللازم لشراء المعدات العسكرية الأساسية والجنود المدربين المحترفين، إلى جانب الأضرار التي لحقت بالجسور والمصانع ومحطات الطاقة بفعل القصف العراقي المتواصل الذي ازداد فعالية بفضل خبرة أفراد القوات الجوية الأمريكية المنتدبين إلى العراق.

وفي شباط-فبراير 1988، جدد العراق حرب المدن، مستهدفاً هذه المرة طهران بصواريخ بعيدة المدى، مما أدى لنزوح سكان طهران إلى المناطق النائية. وردّت إيران باستهداف بغداد بصواريخها. تسببت حرب المدن الثانية بنزوح ما لا يقل عن ثلث سكان طهران. وقد ازداد خوفهم بعد ما سمعوه حول الأحداث التي وقعت في حلبجة في كردستان العراق.

ففي 13 آذار-مارس 1988، استولت إيران وحلفاؤها العراقيون الأكراد على مدينة حلبجة ذات الأغلبية الكردية، وهي بلدة يبلغ عدد سكانها 75000 نسمة، تقع على بعد 15 ميلاً من الحدود الإيرانية. وبعد ثلاثة أيام، هاجمت القوات الجوية العراقية البلدة بالغاز السام، ما أسفر عن مقتل ما بين 3200 و6800 شخص، وإصابة 10 آلاف آخرين.[26] صدمت أخبار حلبجة العالم بأسره عندما نشرت وسائل الإعلام الإيرانية صور القتلى من الرجال والنساء والأطفال. بقتله مواطنيه العزل بالأسلحة الكيميائية، ارتكب نظام صدام حسين جرماً مقيتاً غير

مسبوق، واستغل قادة إيران هذا الفعل لدعم دعايتهم، لكنهم من حيث لا يعلمون، عملوا على إحباط معنويات شعبهم، وخاصة في طهران، حيث خشي السكان أن تُضرب المدينة بصواريخ عراقية تحمل رؤوساً حربية مملوءة بالغاز السام. وفي منتصف نيسان- إبريل، استخدم النظام العراقي الأسلحة الكيميائية مرة أخرى لاستعادة شبه جزيرة الفاو.

وبعد أن تضررت الفرقاطة الأمريكية يو إس إس صامويل بي روبرتس بسبب لغم إيراني، ردت البحرية الأمريكية بشن عملية مانتيس، ففجرت منصتين نفطيتين إيرانيتين، ودمرت فرقاطة إيرانية وشلت أخرى، وأغرقت زورقاً صاروخياً إيرانياً وزوارق حربية أصغر. وفي الفترة من 23 إلى 25 أيار-مايو، شن العراق هجمات في شمال ووسط وجنوب إيران باستخدام الغاز السام، وتمكن من استعادة الشلامجة. وفي الفترة ما بين 19 و25 حزيران-يونيو، تمكّن النظام العراقي أيضاً من استعادة مهران في المنطقة الوسطى ثم جزر مجنون في الجنوب، مستخدماً الأسلحة الكيميائية في كلتا الحالتين.

وفي الوقت ذاته، حاول العراق الاستيلاء على عدة أراضٍ إيرانية لكنه فشل. وفي 3 تموز-يوليو، أسقطت السفينة الأمريكية يو إس إس فينسين طائرة إيرباص تابعة لشركة إيران للطيران وكان على متنها 290 راكباً فوق مياه الخليج السفلى.[27] وأوضح البنتاغون أن قائد الطرّاد ظن أن الطائرة كانت حربية، بينما اعتبر القادة الإيرانيون أن هذا الحدث يدل على أن الولايات المتحدة دخلت بشكل مباشر في الحرب.

وبعد مشاورات مكثفة بين القيادة العليا في طهران، في 20 تموز-يوليو 1998، قبلت إيران قرار مجلس الأمن الدولي رقم 598 دون قيد أو شرط. وبعد يومين، صرح الخميني أن قبول الهدنة كان «في مصلحة الثورة والنظام في هذا المنعطف».

وفي الفترة من 22 إلى 29 تموز-يوليو، شن العراق هجمات أخيرة للاستيلاء على أراضٍ إيرانية في القطاعات الشمالية والوسطى والجنوبية، ففشل في الشمال لكنه نجح في أماكن أخرى. لكن إيران تمكنت من استعادة أراضيها في غضون أسبوع. وفي 20 آب-أغسطس، دخلت الهدنة حيز التنفيذ تحت إشراف الأمم المتحدة. وبحلول ذلك الوقت، كان العراق قد استخدم 110.000 صاروخاً كيميائياً ضد إيران.[28]

وبحسب الإحصائيات الرسمية، فقد تكبدت إيران 194.931 قتيلاً خلال الحرب، منهم 183.931 مقاتلاً و11.000 مدني. بينما أشارت التقديرات غير الرسمية بسقوط نحو 160.000 إلى 240.000 قتيل في العراق. ووفقاً لمعهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام، فقد أنفقت إيران بين 74 إلى 91 مليار دولار على الأسلحة، بالإضافة إلى 11.26 مليار دولار على الواردات

العسكرية. وكانت الأرقام المقابلة في العراق تتراوح بين 94 إلى 112 مليار دولار، بالإضافة إلى 41.94 مليار دولار على الواردات العسكرية. لكن نائب رئيس الوزراء العراقي طارق عزيز قدر فاتورة الواردات العسكرية في تموز-يوليو 1990، بحوالي 102 مليار دولار.[29]

وفي النهاية، لم يخسر أي من البلدين الكثير من الأراضي، ولم يحدث تغيير في النظام في أي من طهران أو بغداد. وكانت النتيجة غير المباشرة لأطول حرب في القرن العشرين هي أنها مكّنت الخميني من ترسيخ الثورة الإسلامية. فبحسب التركيب الديموغرافي لإيران، كان 422.000 ذكراً يصلون إلى سن التجنيد، ثمانية عشر سنة، كل عام، أي حوالي 1% من إجمالي السكان. ناهيك عن أعداد قوات الباسيج التطوعية، التي تعمل من خلال أكثر من 9000 مسجد في أنحاء إيران، وكانت قوات الباسيج تستقبل حتى من هم دون الثامنة عشرة وفوق الخامسة والأربعين، بما فيهم النساء. بينما كان الرقم المقابل في العراق 161.000 مجند فقط. وبحلول ربيع عام 1983، كانت قوات الباسيج قد دربت 2.4 مليون إيراني على استخدام السلاح، وأرسلت 450 ألفاً إلى الجبهات.[30]

عززت قوات الباسيج التديّن العميق لدى العديد من الإيرانيين الشيعة، وقوّت لديهم عقيدة الاستشهاد في المقام الأول. فقد اعتبروا أن من واجبهم الديني محاربة الشر والظلم، الذي كان هنا متجسداً في شخص صدام حسين. لكنهم نظروا أيضاً إلى النضال كجزء من مشروع آخر أكثر طموحاً: تحرير القدس من أيدي الصهاينة المحتلين والمضطهدين، وأن الوصول إلى النجف وكربلاء في جنوب العراق، أو بغداد في وسط العراق، سيفتح الباب نحو القدس، ثالث أقدس مدينة في الإسلام، والتي تسمى باللغة العربية بيت المقدس.

كانت سورية، الأشد عداءً للصهيونية، حليفة لإيران. وبالتالي، لم يعد هنالك من يحول بين الجمهورية الإسلامية والقدس سوى نظام صدام حسين. وكان الموت في سبيل إزالة هذه العقبة بمثابة باب للوصول إلى الجنة في الحياة الآخرة. وقد تم تذكير الجماهير الإيرانية مراراً عبر الإذاعة والتلفاز الإيراني، بقول النبي محمد للمؤمنين: «اطلبوا الشهادة ولكم الجنة». ويمكننا لمس عقيدة حب الشهادة لدى الشيعة الإيرانيين من خلال التفاوت الكبير في أعداد الأسرى من كل جانب. ففي أوائل عام 1984، كان لدى العراق 7300 أسير حرب إيراني فقط، في حين كان لدى إيران أكثر من 50000 أسير عراقي. ولكن لا بد من الاعتراف بما تسببت به هذه الحرب من خسائر فادحة في الأرواح والأطراف والممتلكات والإنتاج. لقد شوهت الاقتصاد، ووجهت مبالغ كبيرة نحو الجيش والتسليح، مما أدى لتعطيل وتأخير التنمية الاقتصادية، وتزايد عزلة إيران على الساحة العالمية[31].

ومن ناحية أخرى، أدت تلك العزلة إلى تسريع وتيرة الاكتفاء الذاتي في إيران. فقد وحّدت الحرب الأمة وعززت الدعم الشعبي للحكومة بعد وقوف أعداء الثورة ومجاهدي خلق إلى جانب بغداد، مما أيد وصف النظام الإيراني لهم بأنهم غير وطنيين، وحَدَّ بالتالي نفوذهم داخل البلاد. وأخيراً، خلقت هذه العوامل بيئة مواتية لسيطرة الحكومة على الاقتصاد، وقد عملت الحكومة بشكل عام لصالح المحرومين من فئات الشعب.

وعلى صعيد العراق، فمع وجود جيش يبلغ عدده نحو مليون جندي، برز العراق كأقوى دولة في المنطقة، متفوقاً على تركيا ومصر. وفي حين فشل هدف صدام حسين في إنهاء نظام الخميني، إلا أنه تمكن من عرقلة مسيرة الثورة الجمهورية الإسلامية في طهران. بذلك، فإنه لم يخدم المصالح الحيوية لممالك الخليج فحسب، بل مصالح الولايات المتحدة أيضاً. وقد شكل هذا الصراع المسلح النواة لأكبر تجمع للقوات المسلحة منذ الحرب العالمية الثانية تم حشده لاحقاً لطرد الغزاة العراقيين من الكويت.

خلال الحرب، انخرطت كلٌ من السعودية وإيران في سباق لبسط نفوذهما على العالم الإسلامي الكبير. وكانت لدى المملكة العربية السعودية أموال أكثر بكثير، نظراً لقلة عدد سكانها، وعظم حجم صادراتها النفطية. فكانت بالتالي أقدر على إنفاق هذه الأموال في سبيل ترسيخ وجودها في الخارج مقارنة بإيران التي يبلغ عدد مواطنيها أربعة أضعاف عدد مواطني المملكة العربية السعودية، والتي كانت تشن حربها دون الحصول على أي قروض أجنبية.

الملاحظات

1 Toronto Star, 28 September 1986

2 See also «martyrdom» in Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 406

3 Hiro, The Iranian Labyrinth, pp. 251–252

4 The Guardian, July 22, 1983; New York Times, 29 March, 1984

5 Hiro, Blood of the Earth, p. 129

6 UPI, 24 September 1981, «Saudi Arabian security forces Thursday attacked Iranian pil-grims in…. » http://www. upi. com/Archives/198124/09// Saudi-Arabian-security- forces-Thursday-attacked-Iranian-pilgrims-in/4372370152000/

7 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 337, citing The Times (London), 21 December 1981

8 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 338, citing the Daily Telegraph, 19 January 1983

9 John Roberts, Los Angeles Times, 17 January 1988, «With Oil Income Slashed, Saudis Also Drill a Deficit. » http://articles. latimes. com/1988–01–17/opinion/op-36465_1_ saudi-arabia

10 Sandra Mackay, The Saudis: Inside the Desert Kingdom, Houghton Mifflin, Boston, MA/ Harrap, London, 1987, p. 378

11 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 248, citing Islamic Republic News Agency, 2 November 1983

12 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 339

13 Hiro, The Iranian Labyrinth: Journeys through Theocratic Iran and Its Furies, pp. 221–222

14 Hiro, Inside the Middle East, p. 85

15 Hiro, The Longest War: The Iran-Iraq Military Conflict, p. 132

16 Ibid., pp. 135–136

17 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 202

18 Toronto Star, 28 September, 1986

19 Hiro, Blood of the Earth, pp. 124–125

20 Hiro, The Longest War, p. 183

21 BBC News, 10 March 2005, «Iran 'given Pakistan centrifuges'. » http:// news. bbc. co. uk/1/hi/world/south_asia/4336559. stm

22 Itamar Rabinovich (ed.), Middle East Contemporary Survey, 1987, Moshe Dayan Center, Tel Aviv University, p. 173, https://books. google. co. uk/books/about/Middle_East_ Contemporary_Survey_1987. html?id=CKNrjrfWJ90

23 John Kifner, New York Times, 2 August 2, 1987, «400 Die as Iranian Marchers Battle Saudi Police in Mecca; Embassies Smashed in Tehran. » https://www. nytimes. com/198702/08//world/400-die-iranian-marchers-battle-saudi-police-mecca-embas- sies-smashed-teheran. html

24 Sandbox: Martin Kramer on the Middle East, http://martinkramer. org/ sandbox/reader/archives/khomeinis-messengers-in-mecca/, citing Radio Tehran, 3 August 1987, quoted in BBC Summary of World Broadcasts, 5 August 1987

25 Martin Kramer, Sandbox: «Khomeini's messengers in Mecca. » http:// martinkramer. org/sandbox/reader/archives/khomeinis-messengers-in-mecca/

26 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 225

27 Ibid., p. 203

28 Ibid., p. 204

29 Ibid

30 Tehran Times, 21 April 1983

31 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 237

الفصل السابع

سباق سعودي إيراني نحو العالم الإسلامي

كان الملك السعودي فيصل أوّل المتجهين شرقاً نحو باكستان، فقد كان له إرث جلي في تلك الدولة الواقعة في جنوب آسيا، من خلال بنائه مسجداً مميزاً في العاصمة الباكستانية إسلام آباد. فما إن يقترب المسافر ليلاً بالسيارة من إسلام آباد حتى يصيبه الذهول عند رؤيته لهذه التحفة المعمارية الفريدة، وهي تتلألأ من بعيد على سفح التل كجوهرة تحرسها أربعة أبراج عالية، نحيلة، مشرقة. وقد يستبعد الزائر أن يكون المبنى مسجداً نظراً لعدم وجود قبة للمسجد، لكنه حقاً مسجد جميل صممه مهندس معماري ذو خيال خصب بأن دمج بين أساليب معمارية معاصرة عِدّة بشكل مبتكر ليبدو المسجد على شكل خيمة بدوية تقليدية تحيط بقاعة صلاة كبيرة مثلّثة الشكل، وزرع حولها أربع مآذن مستدقة الشكل كقلم الرصاص، يبلغ ارتفاع كل منها 80 متراً، وهي الأطول في جنوب آسيا.

مسجد شاه فيصل في إسلام آباد

اقتُرِح إنشاء مسجد كبير في العاصمة الباكستانية إسلام آباد، والتي تعني باللغة الأردية "مكان الإسلام"، خلال زيارة الملك فيصل إلى العاصمة الباكستانية في نيسان-أبريل 1966، وقد تعهد فيصل بتمويل المشروع بيد أن التقدم كان بطيئاً، فقد مر عقد من الزمن قبل أن يقع اختيار اللجنة النهائي على تصميم المهندس المعماري التركي، فيدات دالوكاي، من بين 43 تصميماً مقترحاً، وقد استمر المشروع عشر سنوات، وبلغت تكلفته 120 مليون دولار.

ما إن انتهى بناء المسجد حتى تلاشت كل الانتقادات التي طالت تصميمه غير التقليدي وافتقاره لقبة تقليدية، بعد أن رأى المشككون عظم حجم هذا المسجد وشكلَه وهو يمتد على مساحة 54000 قدم مربع بين تلال مارجالا الخضراء. زُيِّن الجزء الداخلي لقاعة المسجد بالرخام، والفسيفساء، والخط العربي الجذاب، ويوجد في سقف المسجد ثريا ضخمة مثيرة للإعجاب، كما زُيِّن الجدار الغربي المواجه للقبلة بآيات كتبت بالخط الكوفي القديم. أما

في الداخل، فيبلغ ارتفاع سقف المسجد 40 متراً. ونظراً لقدرة قاعة الصلاة الرئيسية وباحة المسجد على استيعاب 100.000 مصلي، فقد أصبح مسجد شاه فيصل أكبر مسجد في باكستان، بيد أنه لم يحافظ على لقب أكبر مسجد في العالم سوى لسبع سنوات فقط. ومع ذلك ظل هذا المسجد نقطة الجذب الأولى للسياح المحليين والأجانب.

في أيلول-سبتمبر 1965 ارتفعت مكانة فيصل بين الباكستانيين بعد وقوفه إلى جانب بلادهم في حربها مع الهند من خلال تقديم بلاده التمويل اللازم لشراء أسلحة باكستان.[1] وأثناء زيارة العاهل لمدينة كراتشي، العاصمة الأولى لباكستان، في نيسان-أبريل 1966، أبدى الرئيس أيوب خان إعجابه الشديد بالعاهل السعودي، حيث هتف له الحشد باللغة الأردية: «تحيا الوحدة الإسلامية»[2]، وجرى تغيير اسم الطريق الرئيسي في المدينة إلى شارع فيصل.

وبالمقابل قام فيصل بتوسيع التعاون العسكري وتعزيزه بين بلاده وباكستان، وساعدت القوات الجوية الباكستانية السعوديين على تشغيل مقاتلاتهم النفاثة التي حصلوا عليها حديثاً وصيانتها. وخلال الصراع الذي دار بين السعودية واليمن الجنوبي بقيادة الماركسيين، في تشرين الثاني-نوفمبر 1969، عمل المدربون الباكستانيون كطيارين مقاتلين لمساعدة السعوديين على استعادة بلدة الوديعة المتنازع عليها بين اليمنيين الجنوبيين والشماليين.[3]

تُعدّ باكستان، بجناحيها الشرقي والغربي، أكبر دولة إسلامية من حيث عدد السكان، تليها إندونيسيا؛[*] ولذلك استحق هذا البلد اهتماماً خاصاً من العاهل السعودي أثناء محاولته الترويج للوحدة الإسلامية خارج العالم العربي قبل شهرين في مؤتمر جمع عشرين ممثلاً من قادة الدول الإسلامية في الرباط بناءً على طلب فيصل.

وفي كانون الأول-ديسمبر 1971، عندما اندلعت الحرب بين باكستان والهند شرقي باكستان، وصفت حكومة فيصل الفعل الهندي بأنه «عمل غادر ومخالف لكل المواثيق الدولية والقيم الإنسانية»، مضيفة أنها لا تجد أي مبرر للعدوان الهندي سوى «رغبة الهند في تجزئة باكستان للقضاء على عقيدتها الإسلامية».[4] إضافة لما سبق، وضع فيصل تحت تصرف باكستان خمسة وسبعين طائرة حربية إبان هجوم الهند على غربي باكستان عقب انتصارها في شرق باكستان. [5]

سبق لشاه إيران محمد رضا بهلوي أن أعار باكستان طائرات حربية أمريكية الصنع بناءً على طلب الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون الذي كان مصمماً على منع تقطيع أوصال

(*) تتفوق إندونيسيا على باكستان بعدد سكانها وليس العكس، وتمثّل اكبر دولة مسلمة من حيث عدد السكان [المركز].

باكستان، ففي 4 كانون الأول-ديسمبر 1971 قال نيكسون لهنري كيسنجر رداً على مناشدة الجنرال يحيى خان: «إذا سربت المعلومات، يمكننا إنكارها. فقط افعل ما طلبته منك». وفي الواقع، كانت عمليات نقل الأسلحة الأمريكية إلى إيران ثم إلى باكستان غير قانونية؛ «فقد كان على الولايات المتحدة نفسها أن تنقل الأسلحة مباشرة إلى باكستان». ولكن في 5 كانون الأول-ديسمبر التقى رئيس وكالة المخابرات المركزية بالشاه في طهران، وحصل على موافقته بعد أن أكّد له قبول نيكسون للعملية، وفي 10 كانون الأول-ديسمبر أخبر كيسنجر السفير الصيني لدى الأمم المتحدة، هوانغ ها، أن الولايات المتحدة ستزود باكستان بالأسلحة عبر أطراف ثالثة بما في ذلك إيران.[6] إلى أن انتهت تلك الحرب في 16 كانون الأول-ديسمبر.

وفي ربيع عام 1972 استضاف فيصل الرئيس الباكستاني ذو الفقار علي بوتو، الذي كان يسعى للحصول على المال من أجل تطوير سلاح نووي بعد أن رفض شاه إيران تمويل بوتو للغرض نفسه، ولكننا لا نعلم يقيناً كم كانت مساهمة فيصل في هذا الصدد؟ وقد لاحظ بوتو، زعيم حزب الشعب الباكستاني العلماني رغبة العاهل السعودي في إعادة صياغة دستور باكستان بعد عام 1971؛ فغُيِّر الاسم الرسمي لباكستان، بناءً على توجيهاته، ليصبح جمهورية باكستان الإسلامية بدلاً من جمهورية باكستان، وهو الاسم الرسمي لباكستان وفق دستور عام 1962. في المقابل، وافق فيصل على استضافة باكستان للقمة الثانية لمنظمة المؤتمر الإسلامي في لاهور في شباط-فبراير 1974، وذلك على الرغم من دعم بوتو الصريح للاشتراكية الإسلامية، وأسلوب حياته المترف واشتهار معاقرته للكحول. وبعد أن تمكن بوتو من توسيع القوات المسلحة الباكستانية، التي تقلصت كثيراً بعد عام 1971، وقع اتفاقية تعاون فني مع حكومة فيصل سمحت للمملكة السعودية بالاستفادة من خدمات الطيارين وفنيي الطائرات والدبابات الباكستانيين بالإضافة إلى المدربين العسكريين. [7]

خالد يحذو حذو فيصل في الخارج

عندما اعتلى ولي العهد الأمير خالد بن عبد العزيز آل سعود العرش أطلق الخطة الخمسية الثانية الطموحة (1975-1980) بقيمة 142 مليار دولار، وكان تأثير التحسن الاقتصادي الذي غذّته القفزة الحادة في أسعار النفط محسوساً في جميع مجالات الحياة السعودية. وأمام التدفق غير المسبوق للعمال الأجانب سرعان ما تحولت القوى العاملة المحلية إلى أقلية، فأدّى ذلك إلى إضعاف النسيج الاجتماعي والثقافي الوهَّابي المحافظ في المجتمع السعودي.

تباينت ردود الفعل على هذه الظاهرة بين كبار الأمراء، ففي حين أجمع الأمراء والملك

جميعاً على تأييد التنمية الاقتصادية والتكنولوجيا الحديثة في المملكة، فقد اختلفوا حول سرعة هذه التنمية ومدى مواءمتها للقيم والممارسات الوهَّابية؛ فأولئك الذين فضّلوا تباطؤ وتيرة التصنيع والتنمية والالتزام الوثيق بالتعاليم الوهَّابية في الداخل دعوا أيضاً لدعم أكبر للقضية الفلسطينية، وكان هؤلاء بقيادة، الملك خالد والأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، الذين مثلوا معاً الاتجاه القومي العربي. أمّا أولئك الذين دافعوا عن وتيرة أسرع للتصنيع والتنمية وقدر أكبر من التحرر الديني والثقافي، فقد فضلوا إقامة علاقات أوثق مع أمريكا وصولاً إلى توقيع معاهدة أمنية طويلة الأمد مع واشنطن، وقد مثل هؤلاء الاتجاه المؤيد لأمريكا داخل الأسرة الحاكمة. وبالطبع لم تكن العلاقات مستقرة بين هذين النهجين.

ظل خالد ثابتاً على خطا فيصل في سياسته تجاه الدول الإسلامية العربية منها وغير العربية، فعلى سبيل المثال، رفض خالد الاعتراف ببنغلاديش عندما تبنت دستوراً علمانياً ديمقراطياً في تشرين الثاني-نوفمبر 1972 بقيادة مؤسسها الشيخ مجيب الرحمن، ولكن هذا الوضع تغير جذرياً عقب انقلاب عسكري وقع في آب-أغسطس 1975، جرى خلاله اغتيال الرئيس عبد الرحمن وعائلته، واستولى الجنرال ضياء الرحمن على السلطة. وما إنْ بدأ التأكيد على إبراز الإسلام في الحياة العامة في بنغلاديش، حتى منح خالد اعتراف المملكة بنظام ضياء الرحمن؛ وبهذا اكتسبت المملكة العربية السعودية بصمة ثابتة في بنغلاديش، ومن ثَمّ بسطت نفوذها في جنوب آسيا. وفي وقت لاحق ارتفع عدد البنغاليين العاملين في السعودية تماشياً مع ارتفاع عائدات المملكة من النفط.

تحسنت العلاقات بين الرياض وإسلام آباد بعد إطاحة الجنرال بوتو على يد الجنرال الإسلامي محمد ضياء الحق في تموز-يوليو 1977، وقد تفوق ضياء الحق على بوتو في تملّقه للملك الراحل فيصل عندما غيّر اسم مدينة ليالبور، ثالث أكبر مدينة في باكستان، إلى فيصل آباد في أيلول-سبتمبر.

وفي أفغانستان، لم يكد الانقلاب العسكري الماركسي الذي وقع في نيسان-أبريل 1978 ينتهي، حتى بدأت بوادر التقاتل والانقسام تظهر في كابُلْ بين المتطرفين والمعتدلين من أعضاء حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني اليساري الحاكم. ولإنهاء الاقتتال حاول الكرملين التدخل، بدايةً عبر إرسال مستشارين عسكريين وقوات نخبة، ثم ما لبث أن أرسل قوات لهم مقاتلة يوم عيد الميلاد من عام 1979، وبذلك، ساعد الكرملين الجناح المعتدل في الحزب على إحكام قبضته على السلطة. وقد رأت إدارة كارتر أن خطوة موسكو تشكل انتهاكاً للاتفاق الجاري بين القوتين العظميين، والذي يستبعد بسط إحداهما نفوذها باستخدام

القوة العسكرية؛ ونتيجة لذلك، أصبحت باكستان دولة على خط المواجهة في الحرب الباردة، مع بروز المملكة العربية السعودية كجزء من التحالف المناهض للسوفييت بقيادة الولايات المتحدة.

بدأت عناصر الاستخبارات الباكستانية الداخلية (ISI) بتسليح المجاهدين الأصوليين الأفغان وتدريبهم، وكانت وكالة المخابرات المركزية تمدهم بالأسلحة، كما تعهدت الرياض بالمساهمة بقدر كبير من المال عبر مديرية المخابرات العامة التي يديرها الأمير تركي بن فيصل، منذ أوائل عام 1979، الذي عمل بشكل وثيق مع وكالة المخابرات المركزية.

وخشية أن تُستبعَد من المفاوضات التي ترعاها الأمم المتحدة بين كابُلْ، وموسكو، وإسلام آباد، وطهران، وافقت الأحزاب الإسلامية الأفغانية السنّية السبعة، في أيار-مايو 1983، على تشكيل التحالف الإسلامي للمجاهدين الأفغان، المعروف باسم "المجاهدين الأفغان" بقيادة عبد الرسول سياف، وبدأ التحالف أعماله انطلاقاً من مدينة بيشاور الباكستانية[8]. وكان سياف أكاديمياً من أتباع الإسلام الوهَّابي. وكانت مجموعته "الاتحاد الإسلامي"، تمول بسخاء من الرياض، وقد اشتبكت لاحقاً مع الميليشيات الموالية لإيران في أفغانستان خلال الحرب الأهلية منذ عام 1992 إلى عام 1996.

السعوديون يدعمون أسلمة ضياء الحق

ذكرنا سابقاً أن إرسال ضياء الحق قواتٍ خاصةً إلى مكة ساعد نظام خالد في التغلب على المتمردين المسلحين، وهو ما عزز مكانة باكستان لدى الرياض. [9]

وقد أتاحت حملة الكرملين في أفغانستان فرصة مثالية ليعمل النظام السعودي على تحشيد المسلمين سواء في العالم العربي أو خارجه، للمشاركة في الجهاد ومواصلة نشر الإسلام الوهَّابي، ولا سيما في البلدان الفقيرة المكتظة بالسكان مثل باكستان ومصر. وقد حدث ذلك عبر تمويل بناء مساجد ودعاة وهَّابيين، وإنشاء مدارس دينية. فقد كانت المدارس الدينية الموجودة عشية تأسيس باكستان عام 1947، وعددها 181، عبارة عن مؤسسات قديمة يعمل بها رجال دين ذوو مستوى تعليمي متواضع. وسرعان ما أدى فشل الحكومة الباكستانية في توفير مرافق تعليمية كافية إلى التحاق عدد كبير من الطلاب الفقراء بالمدارس الدينية، التي كانت تدار من مذاهب ومدارس دينية إسلامية مختلفة.

تُعَدّ مدرستا الديوبندية والبريلوية من المدارس السائدة بين المسلمين السُنّة أتباع الفقه الحنفي في باكستان، وتُعَدّ البريلوية، التي أسسها أحمد باريلوي (1786-1831)، أكثر شعبية

من الديوبندية التي تتسم بالأصولية المتصلبة لأنها عملت على تسخير الطرق الصوفية المتسامحة لتعاليم الشريعة ضمن إطار إصلاحي، بينما ركزت الديوبندية، التي نشأت في مدرسة دار العلوم في مدينة ديوبند في شمال الهند، على الجوانب الخارجية للشريعة بدلاً من تركيزها على المعاني الداخلية التي يفضلها معظم الصوفيين. لقد آمن الديوبنديون بالتطبيق الصارم لشعيرة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وهكذا كان المذهب الديوبندي قريباً من المذهبين الوهَّابي والسلفي، من حيث نفوره من الصوفية والشيعة. وكانت المعاهد الدينية الديوبندية تابعة لحزب "جمعية علماء الإسلام" وهو حزب سياسي إسلامي.

وفي أواخر السبعينيات أُسست 893 مدرسة دينية في باكستان، كان حوالي 40 % منها ديوبندية، وحوالي 30 % منها باريلوية.[10]

بشكل عام، شمل منهج المدارس السنّية دراسة حياة النبي محمد، وأقواله، وأفعاله، وحفظ القرآن وتفسيره، والشريعة، والفقه، والأدب العربي، وعلوم المجادلة، والمنطق، والنحو، والرياضيات. وكانت الوظيفة الأساسية للمواد الكونية هي تمكين الطالب من فهم الأدب الديني فهماً كاملاً، وكانت هذه المدارس تزود الطلاب الفقراء بالكتب المدرسية، والطعام، والسكن مجاناً مع راتب متواضع. ومع تدفق الأموال السعودية إلى هذه المؤسسات في الثمانينيات بدأ المنهج الدراسي يجمع بين الأيديولوجية السنية المحلية والوهَّابية المعتدلة كنتيجة طبيعية لتداخلها مع العقيدة السلفية.[11]

لكن هذه النسخة من الإسلام المتشدد لم تتوافق مع نمط حياة كبار أفراد العائلة المالكة السعودية؛ ومع ذلك واصل الملك خالد دعمه القوي لأسلمة الدولة والمجتمع في باكستان على يد ضياء الحق الذي عكف على تنفيذ رغبة خالد خلال أحد عشر عاماً من الدكتاتورية العسكرية إلى أن توفي في حادث تحطم طائرة عسكرية في عام 1988. وفي تلك الأثناء ازداد عدد المدارس الدينية من 893 إلى 2,801 مدرسة[12]. وجرى تمويل ثلثي هذه المدارس الديوبندية بأموال سعودية.

وقد ترافقت المساعدات الرسمية المقدمة لباكستان في المجال الاجتماعي والثقافي مع تبرعات كبيرة من الأمراء السعوديين والمؤسسات الوهَّابية. وفي وقت لاحق بدأت الجمعيات الخيرية والمواطنون الأثرياء السعوديين بتمويل منظمات متطرفة سنية مسلحة مثل "جيش الصحابة" الباكستاني (SSP). وبشكل عام، يمكن القول إن التقارب المجتمعي الوليد بين المملكة العربية السعودية وجمهورية باكستان الإسلامية قد ساهم في تعزيز التحالف الدبلوماسي بين حكومتي البلدين.

وعندما انسحب السوفييت من أفغانستان، في شباط-فراير 1989، كانت وكالة المخابرات المركزية قد ضخت ما بين 3 إلى 3 مليارات و30 مليون دولار لدعم المجاهدين الأفغان. ولا تزال القبائل الممتدة على طول الحدود الأفغانية الباكستانية معقلاً للإرهاب الجهادي إلى الآن بعد مرور ربع قرن.

واصلت دائرة المخابرات العامة السعودية مباشرةً تمويل حزبها المفضل "الاتحاد الإسلامي"[13]. وبالإضافة إلى المساعدات السعودية الرسمية كانت هناك مساهمات من جمعيات خيرية إسلامية، ومؤسسات، ومساجد، وصدقات من الأمراء. وقد شكلت دائرة المخابرات العامة، بالتعاون مع كبار رجال الدين الوهَّابيين، العديد من الجمعيات الخيرية الدينية في هذا الصدد. وكانت أسرة بن لادن قريبة من الأسرة السعودية الحاكمة، وكان أسامة بن لادن من بين أولئك الذين تواصلوا شخصياً مع مصادر التمويل الخاصة السعودية.

ولد أسامة في منزل محمد عوض بن لادن، الرئيس التنفيذي لمجموعة بن لادن السعودية، وهي شركة بناء متعددة الجنسيات، مقرها في جدة.

نفوذ السعودية يضعف في مصر

واصل الملك خالد سياسة فيصل في مساعدة مصر مالياً، وقد بلغ إجمالي المساعدات المالية التي قدمتها الرياض للقاهرة بين عامي 1973 و1978 7 مليارات دولار، خُصِّص نصفها تقريباً لشراء الأسلحة.[14] وإلى جانب المساعدات الرسمية مول السعوديون العديد من الجماعات الإسلامية والمشاريع الاجتماعية في المناطق الإستراتيجية الفقيرة. وفي آذار-مارس 1979، قرر قادة جامعة الدول العربية قطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر بعد أن وقَّعت معاهدة سلام مع [كيان] إسرائيل تعبيراً عن رفضهم لاتفاق السلام الثنائي الذي توصل إليه الرئيس أنور السادات مع [كيان] إسرائيل في أيلول-سبتمبر 1978. ومع ذلك كان لقطع العلاقات مع القاهرة تأثير ضئيل على تدفّق المصريين إلى المملكة العربية السعودية للعمل كأطباء، وممرضين، ومحاسبين، ومدرسين بالإضافة إلى العمالة الماهرة أو وشبه الماهرة. وجاء ذلك استجابة للطلب المتزايد في المملكة على المغتربين الناطقين بالعربية في أعقاب الارتفاع الكبير في أسعار النفط في الفترة بين 1973-1974.

كان الفارق في مستويات المعيشة بين مصر والمملكة العربية السعودية كبيراً جداً، لدرجة أن المعلم المصري الذي يعمل في المملكة بعقد مدته خمس سنوات كان يكسب نفس المبلغ الذي كان سيكسبه طوال حياته المهنية في مصر[15]؛ فقد ارتفع التضخم في

مصر عقب تحرك السادات المفاجئ لتحرير اقتصاد السوق، مما أدى لإفقار غالبية المصريين العاديين ذوي الأجور الثابتة. وقد عَدَّ العديد من المصريين العاملين في المملكة أن ثرواتها وقوتها المتعاظمة كانت بمنزلة مكافأة إلهية لعيش السعوديين حياةً تقيةً وفقاً لتعاليم الوهَّابية، وتوافق هذا مع قول النظام بأن الله تعالى قد اختص هذه الأرض المقدسة وحباها بثروات باطنية هائلة. لكن العلاقات الدبلوماسية بين الرياض والقاهرة ظلت مقطوعة حتى عام 1989. وبحلول ذلك الوقت كانت المملكة قد اكتسبت موطئ قدم ثابتٍ لها في باكستان.

التنافس السعودي الإيراني في كل من باكستان وأفغانستان

انتهت فترة نفوذ شاه إيران محمد رضا بهلوي في أفغانستان فجأة بعد الانقلاب العسكري الماركسي الذي وقع في نيسان-أبريل 1978. وعندما تدخل الكرملين عسكرياً في أفغانستان، في كانون الأول-ديسمبر1979، أدان آية الله روح الله الخميني الغزو السوفييتي بشدة. وقد تبنت حكومته إستراتيجيةً مناهضةً للسوفييت في الدولة المجاورة، بينما تجنبت تناول الحملة الأمريكية السعودية المشتركة ضد نظام كابُلْ، كما دعمت حكومة الثورة في إيران المجلس الثوري للاتحاد الإسلامي الأفغاني بالسلاح والمال.

وقد ضم المجلس الثوري عناصر معتدلة ومتطرفة من عرقية الهزارة الشيعية التي تمثل 15 إلى 18 % من سكان أفغانستان، ويعيش معظمهم في منطقة مرتفعات هزارجات الوسطى. وفي الوقت نفسه وفّرت الحكومة الإيرانية ملاذاً آمناً لتدفق اللاجئين الأفغان، حيث استضافت إيران مليون لاجئ أفغاني معظمهم من السُنّة.

تقع المناطق التي تحكمها المنظمات الشيعية في أفغانستان فوق مرتفعات هزارجات الوسطى بمحاذاة المناطق التي تسيطر عليها الأحزاب السنية المتمركزة في بيشاور، ولديهم أيضاً مكاتب في المدن الإيرانية وكذلك في مدينة كويتا في مقاطعة بلوشستان الباكستانية.

ويتألف المجلس الثوري للاتحاد الإسلامي الأفغاني، الذي نشأ في أيلول-سبتمبر 1979، من إسلاميين شيعة معتدلين وراديكاليين. وفي ربيع عام 1985 حثّت إيران الجماعات الشيعية الأفغانية على التوحد[16]. وهو ما لم يحدث إلا بعد رحيل القوات السوفييتية في شباط-فبراير 1989؛ وكانت النتيجة تأسيس حزب الوحدة الذي يتألف من مسلحين وعسكريين بقيادة كريم الخليلي، وهو من عرقية الهزارة، وكان له ميليشيا خاصة تلقت تدريبها في إيران.

بعد الانسحاب السوفييتي، انقسم المجاهدون الأفغان على أسس عرقية، فأصبحت

الفصائل الأفغانية السبع، التي رعتها في الأصل قوىً أجنبية، تتمتع بالحكم الذاتي؛ ومن هنا عاد التنافس التقليدي بين البشتون والطاجيك إلى الواجهة.

يتحدث البشتون لغة الباشتو، ويشكلون 40-45% من الأمة الأفغانية. بينما يشكل الطاجيك نحو 25-27% من السكان. وعلى مستوى العالم، برز قلب الدين حكمتيار من بين البشتون السُنّة بوصفه الزعيم الأبرز. ورغم أن معظم الطاجيك كانوا من السُنّة، فإن لغتهم، الطاجيكية، كانت أقرب إلى الفارسية التي كانت اللغة اليومية في هرات التي تقع على بعد سبعين ميلاً من الحدود الإيرانية، وكانت ثالث أكبر مدينة في البلاد، وكان معظم سكانها من الطاجيك.

أضاف القتال الطائفي بين اتحاد سياف الإسلامي الموالي للرياض ومقاتلي الوحدات الموالين لطهران بعداً آخر للصراع المستمر بين أنصار حكمتيار وأحمد شاه مسعود. ولما كانت باكستان والمملكة العربية السعودية تدعمان الجماعات السنية الأفغانية مالياً وعسكرياً، فقد تلقى كل من حزب الوحدة والفصيل الطاجيكي بقيادة مسعود دعماً نشطاً من طهران.

ولما يئست باكستان من إمكانية حسم الاقتتال العرقي المستمر بين الأفغان، لجأت في خريف عام 1994 لمساعدة جماعة أصولية سنية ناشئة تدعى طالبان، (التي تعني بلغة الباشتو: طلاب الدين)، كوكيل لها في البلاد، وشجعت حكومتها طلاب المدارس الدينية في مخيمات اللاجئين الأفغان في باكستان، والتي تضم أكثر من 3 ملايين شخص، على الانضمام لصفوف طالبان، كما استمرت الجماعة بتلقي الدعم النشط من المملكة العربية السعودية.

وعندما استولت طالبان على كابُلْ، في أيلول-سبتمبر 1996 خلال الحرب الأهلية، تعززت سيطرتهم على معظم أنحاء أفغانستان، بينما اتّحد خصومهم ليشكلوا تحالف الشمال الذي يضم حزب الوحدة، ويهيمن عليه الطاجيك بقيادة مسعود، وقد دعمت إيران تحالف الشمال بالسلاح والمال. وهكذا أصبحت المملكة العربية السعودية وإيران تدعمان معسكرين متعارضين في أفغانستان.

حرب بالوكالة في باكستان

وصل وزير خارجية باكستان، آغا شاهي إلى طهران بعد أسابيع من اعتراف بلاده بنظام الخميني، والتقى بآية الله الخميني الذي أعلن بدوره أن العلاقات مع باكستان "تقوم على الإسلام"، ولكن هذه العلاقات الودية ما لبثت أن ذبلت في عام 1980 عندما وجدت إيران أن الجنرال ضياء الحق يسعى لإحلال باكستان محل الركيزة الثالثة في إستراتيجية واشنطن

في الشرق الأوسط، التي فقدتها مع سقوط الشاه، والركيزتان الأخريان هما المملكة العربية السعودية و[كيان] إسرائيل.

محلياً، أصدر الرئيس ضياء الحق في أواخر عام 1979 مرسوم الزكاة والعُشر ليصبح ساري المفعول بدءاً من 20 حزيران-يونيو 1980، وبموجب هذا القانون أصبح جمع الضرائب الدينية إلزامياً لتَستخدمها الدولة في الأعمال الخيرية. ويبلغ مقدار الزكاة في الإسلام 2.5 % من أصول المسلم ومدخراته المتراكمة، أما العُشر فهي ضريبة على الأراضي تبلغ 10 % من الإنتاج. وبموجب القانون الجديد بات لزاماً خصم الزكاة من حسابات المواطنين الباكستانيين المصرفية سنوياً عشية شهر رمضان المبارك، بدءاً من 14 تموز-يوليو 1980.

احتج الشيعة على هذا القانون، إذ تشير التقديرات إلى أنهم يمثلون ما بين 10 إلى 15 % من سكان باكستان، وفقاً لكتاب حقائق العالم الصادر عن وكالة المخابرات المركزية. [17] ونظراً لكونهم من سكان المدن في الغالب، ويشكلون جزءاً كبيراً من المجتمع التجاري، فقد كانوا أفضل تنظيماً كطائفة من الأغلبية السنّية، وقد جادلوا بأنهم، كشيعة، مأمورون بدفع خمس أرباحهم التجارية إلى آية الله العظمى الذي يقع عليه اختيارهم، فنظموا احتجاجاً على مستوى البلاد بقيادة عارف حسين الحسيني، وبلغ هذا الاحتجاج ذروته بنزول عشرات الآلاف إلى إسلام آباد بالحافلات والمركبات، ومحاصرة أمانة الحكومة الفيدرالية في يومي 4 و5 تموز-يوليو. وهكذا أعفى ضياء الحق الطائفة الشيعية من دفع الزكاة، مما أعاد السلام إلى البلاد. لكن هذه الحادثة شكلت نقطة بداية للتوترات الطائفية التي ستزداد دمويةً في العقد المقبل.

وبعد هذا النجاح واصل الحسيني والعلامة المفتي جعفر حسين تأسيس حركة تنفيذ الفقه الجعفري (TNFJ) -سُمِّي تيمناً باسم الإمام السادس للشيعة جعفر الصادق- وقد اعتبرت حكومة ضياء الحق صعود هذه المنظمة جزءاً من مؤامرة دبرتها طهران لتصدير ثورتها للخارج، فحاولت حكومة ضياء الحق خلق انقسام في حركة تنفيذ الفقه الجعفري، ونجحت في مسعاها. وبعد الانقسام الذي حدث أعادت الأغلبية تشكيل نفسها تحت اسم الحركة الجعفرية في باكستان (TJP).

غضب العديد من السُنّة المتشددين من إعفاء الشيعة من دفع الزكاة، وتصاعدت التوترات بين الطوائف في عام 1983، وأدت إلى أعمال شغب بين السُنّة والشيعة في كراتشي، ولجأ ضياء الحق والمخابرات الباكستانية إلى تشجيع العناصر المتطرفة ضمن جماعة العدل والمساواة على تشكيل مجموعة سنّية متشددة تسمى جيش الصحابة بقيادة حق نواز جهانجوي، وهو

رجل دين ديوبندي من منطقة جهانج في وسط البنجاب، حيث كان اللوردات الإقطاعيون من الشيعة، وتجار البازار من السُنّة. وزعم جيش الصحابة أن طبقة الإقطاعيين الشيعية تستغل فلاحيها اجتماعياً واقتصادياً، وتقودهم إلى الضلال في المسائل الدينية. وقد أكسب هذا حزب جيش الصحابة دعماً مالياً إضافياً من مديرية المخابرات العامة في الرياض.

وفي المقابل، افتتح جيش الصحابة المزيد من المساجد والمدارس المؤيدة للوهابية بتمويل من الرياض، واستمر بترهيب الشيعة باستخدام العنف، وأشعل أعمال شغب خطيرة مناهضة للشيعة في لاهور عام 1986، كما اغتال نشطاؤها الحسيني عام 1988، وأجبر ذلك قيادة حركة تطبيق الفقه الجعفري على تشكيل جناح مسلح أُطلق عليه (جند محمد) لتنفيذ عمليات قتل انتقامية.

وفي شباط-فبراير 1990 أطلق أربعة مسلحين من جند محمد النار على جانجوي، فأردوه قتيلاً خارج منزله في جهانج[18]، وأدى ذلك إلى اشتباكات طائفية عنيفة وإحراق العديد من المنازل والمتاجر في جهانج. وفي كانون الأول-ديسمبر أُغتيل المستشار العام الإيراني في لاهور، صادق غانجي[19]، واحتل خبر الاغتيال عناوين الأخبار في الصحف الدولية، مما سلط الضوء على انخراط السعودية وإيران في حرب بالوكالة في باكستان. وبعد شهرين قُتل إيزار قاسمي، خليفة جهانجوي، على يد متطرفين في جهانج.

وعزز خليفته ضياء الرحمن فاروقي علاقاته مع سياسيين في البرلمان، مما أدى إلى توسيع قاعدة حزب الصحابة، ففازت ببضعة مقاعد في الجمعية الوطنية عام 1993 على أساس برنامج تحويل باكستان إلى دولة سنية، وتحالفت مع حزب الشعب الباكستاني الذي مارس السلطة من 1993 إلى 1996.

وأدت هجمات متفرقة على الشيعة أثناء صلاة الجمعة في البنجاب إلى مقتل 73 شخصاً وإصابة أكثر من 300 آخرين في عام 1994[20]. ومع ذلك فإن سياسة الفاروقي الشاملة تعارضت مع رغبة العناصر المتطرفة داخل حزب الصحابة الذي فضل العنف المطلق.

في عام 1996 غادر المتطرفون حزب الصحابة، بقيادة رياض بصرة، رئيس الدعاية في الحزب، وأحد قدامى المحاربين في الجهاد ضد السوفييت، لتشكيل حركة جيش جهانجوي (LeJ)كموالين لـ حق نواز جهانجوي، ولجأت لتكتيك الإرهاب للضغط من أجل تحقيق مطلبها بإعلان عدم انتماء الشيعة للإسلام، وإقامة نظام إسلامي سنّي متشدد في باكستان. وبرز جيش جهانجوي من حيث هو الفصيل الأكثر فتكاً في باكستان، وكان يعمل بسرّية تامة، إذ كانت خلاياه الصغيرة تتجمع معاً بشكل مفاجئ لتنفيذ عملية، ثم تتفرق على الفور.

وعلى عكس جميع الجماعات المشابهة، لم يكن لجيش جهانجوي أي روابط مع وكالة الاستخبارات الباكستانية؛ لذلك وجدت الحكومة صعوبة بالغة في القضاء عليه. وكان الأساس المنطقي وراء هجمات المسلحين السُنّة على تجمعات الشيعة وأفرادها هو استفزازهم ودفعهم للانتقام، ما جعل السُنّة عموماً يشعرون بالتهديد والقلق لأنهم يشكلون أغلبية في البلاد، وبالتالي يضربون بقوة.

كانت النتيجة النهائية للعنف المتبادل بين جيش جهانجوي وحزب جيش الصحابة تصاعد التوترات الطائفية، وتفاقم العداء بين المجموعات العرقية في كراتشي، أكبر مدن البلاد، فقد بلغت أعداد القتلى سنوياً من مختلف الطوائف 800 شخص في العاصمة فقط، وألقت الحكومة اللوم على جناح الأبحاث والتحليل الهندي، المكلّف بجمع المعلومات الاستخبارية الأجنبية، وأغلقت القنصلية الهندية في كراتشي[21]، ولكن الفوضى استمرت.

وفي 18 كانون الثاني-يناير 1997 قُتل فاروقي في انفجار قنبلة مثبتة على دراجة نارية لدى وصوله إلى محكمة لاهور، حيث كان يُحاكم بتهمة قتل زعيم شيعي منافس، وأدى التفجير إلى مقتل 25 شخصاً وإصابة العشرات، بمن فيهم الرجل الثاني في جماعة جيش جهانجوي، محمد عزام طارق. ورداً على ذلك أشعل مسلحو حزب جيش الصحابة النيران في المراكز الثقافية الإيرانية في لاهور وملتان، وقاموا بأعمال شغب في أجزاء من البنجاب.

وفي الفترة بين كانون الثاني-يناير وأيار-مايو 1997 قُتل خمسة وسبعون شخصاً من قادة الشيعة[22]، واستمرت الإدانات المتعصبة ضد الشيعة. وبعد أن أصبح رئيساً لحزب جيش الصحابة قال طارق: «إذا كان للإسلام أن يستقر في باكستان، فيجب عَدُّ الشيعة كفاراً».[23] واستمرت المدارس الديوبندية في إنتاج المجندين وتجنيدهم لصالح حزب جيش الصحابة.[24]

وفي هذه الأثناء خلق الرئيس صدام حسين أزمة كبرى في الشرق الأوسط بغزوه للكويت في آب-أغسطس 1990، ولم يكن أمام الملك فهد أي خيار سوى التدخل لصالح الكويت نظراً لتقاسم بلاده حدوداً مشتركة مع كل من الكويت والعراق. وتحرك الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب بسرعة لحمل مجلس الأمن الدولي على إدانة العدوان العراقي والمطالبة بانسحاب العراق فوراً من الكويت بأغلبية أربعة عشر صوتاً مقابل لا شيء.

الملاحظات

1 Time, 1 October 1985, «Asia: Silent Guns, Wary Combatants, » http:// content. time. com/time/magazine/article/0, 9171, 834413, 00. html

2 From the past pages of The Dawn: 1966 Fifty years ago, Tribute to Saudi King Faisal, www. dawn. com/news/1253124

3 Karl R. DeRouen, Defense and Security: A Compendium of National Armed Forces and Security Policies, ABC-CLIO, Santa Barbara, CA, 2005, p. 572

4 Sabha E. Nagib, «Impact of Indo-Pakistani Wars on the Middle East, » World Affairs, Vol. 135, No. 2, Fall 1972, p. 131

5 S. M. Burke, Pakistan's Foreign Policy: An Historical Analysis, Oxford University Press, London and New York, 1973, p. 214

6 Roham Alvandi, Nixon, Kissinger, and the Shah: The United States and Iran in the Cold War, Oxford University Press, New York, 2014, pp. 61–62

7 Michael T. Kaufman, New York Times, 6 February 1981, «22 Countries Avail Themselves Of Pakistani Soldiers»

8 Dilip Hiro, Apocalyptic Realm: Jihadists in South Asia, Yale University Press, London and New Haven, Conn., 2012, p. 62

9 Irfan Husain. Fatal Faultlines: Pakistan, Islam and the West, Arc Manor Publishers, Rockville, MD, 2011, p. 129

10 Tariq Rahman, «Madrassas: Religion, Poverty and the Potential for Violence in Pakistan», http://ipripak. org/journal/winter2005/madrassas. shtml

11 See Chapter 5, p. 83يحدد رقم الصفحة بعد إنجاز النسخة الأخيرة قبل النشر

12 Hasan Mansoor, Dawn, 31 July 2015, «Report on the state of madressahs in Pakistan launched, »https://www. dawn. com/news/1197466

13 Neamatollah Nojumi, The Rise of the Taliban in Afghanistan: Mass Mobilization, Civil War, and The Future of the Region, Palgrave-Macmillan, Basingstoke, UK, and New York, 2002, p. 188. Between 1980 and 1992, the aggregate sum of $10 billion would be funneled to the Afghan Mujahedin, Ahmed Rashid, Taliban: The Story of the Afghan Warlords, Pan Books, London, 2011/Taliban: Militant Islam, Oil and Fundamentalism in Central Asia, Yale University Press, New Haven, Conn., 2011, p. 18

14 Gad G. Gilbar, The Middle East Oil Decade and Beyond, Routledge, Abingdon, UK, and New York, 1997, p. 67

15 Laudan Nooshin (ed.), Music and the Play of Power in the Middle East, North Africa and Central Asia, Routledge, Abingdon, UK, and New York, 2009, p. 95

16 Dilip Hiro, Holy Wars: The Rise of Islamic Fundamentalism, Routledge, New York, 1989/ Paladin Books, London, 1989; Re-issued, 2013; p. 260

17 CIA: The World Factbook, Pakistan, 2010 estimate, Muslim (official) 96. 4 per cent (Sunni 85–90 per cent, Shia 10–15 per cent), other (Christian and Hindu) 3. 6 per cent, https://www. cia. gov/library/publications/the-world-factbook/fields/ 2122. html

18 Stanford University, Mapping Militant Organizations: Sipah-e-Sahaba Pakistan, http:// web. stanford. edu/group/mappingmilitants/cgi-bin/groups/view/147

19 Abbas Rashid. 01 December 1996, «The Politics and Dynamics of Violent Sectarianism, » https://www. tni. org/en/article/the-politics-and-dynamics-of-violent-sectarianism

20 Abbas Rashid. 01 December 1996, «The Politics and Dynamics of Violent Sectarianism, » https://www. tni. org/en/article/the-politics-and-dynamics-of-violent-sectarianism

21 Dilip Hiro, Apocalyptic Realm: Jihadists in South Asia, Yale University Press, London and New Haven, Conn., 2012, p. 201

22 S. V. R. Nasr, «The Rise of Sunni Militancy in Pakistan: The Changing Role of Islamism and the Ulema in Society and Politics, » Modern Asian Studies, Vol. 34, No. 1 (2000), p178.

23 Hassan Abbas, Pakistan's Drift into Extremism: Allah, the Army, and America's War on Terror, M. E. Sharpe, New York, 2005, p. 205

24 Zahid Hussain, Frontline Pakistan: The Struggle with Militant Islam, Columbia University Press, New York, 2007, p. 94

الفصل الثامن

المملكة في قلب آخر حرب كبرى في القرن العشرين

لقد بلغت المساعدات التي قدمتها السعودية للعراق خلال الحرب العراقية الإيرانية أكثر من 25 مليار دولار، بينما بلغت قيمة مساعدات الكويت للعراق 10 مليارات دولار فقط، وكان ذلك يجري من خلال تصدير نفط العراق إيفاءً بالتزاماته تجاه عملائه الأوربيين. ومع ذلك كان أمير الكويت جابر بن أحمد الصباح أول من طالب بسداد ديونه في صيف عام 1990، وذلك على خلفية نزاع حول ترسيم الحدود بين الكويت والعراق.

حرب نظام صدام حسين البائد على الكويت

بعد نقاش طويل حول المشكلات العالقة بين الدولتين رشّح ولي العهد، الأمير جابر الصباح، الأمير سعد بن عبد الله الصباح لرئاسة الوفد الكويتي المتوجّه للقاء الوفد العراقي برئاسة نائب الرئيس، عزت إبراهيم في جدة، وبعد اجتماع استمر لساعة ونصف عُلّقَ الاجتماع لأداء الصلاة، ثم تناول المجتمعون العشاء بضيافة العاهل السعودي الملك فهد، ثم استأنف الطرفان المفاوضات، وأصرّ الأمير الكويتي على مناقشة مسألة ترسيم الحدود قبل أي أمر آخر، فأثار ذلك غضب رئيس الوفد العراقي. وبحسب ما ورد فقد قال سعد: «لدى الكويت أصدقاء أقوياء للغاية، وستضطرون في النهاية لسداد جميع الأموال التي تدينون بها لنا».[1]

وكان الرئيس العراقي صدام حسين قد رفض في وقت سابق سداد القروض التي حصل عليها من كل من الكويت والسعودية، بحجة أن حربه مع إيران لم تكن فقط لحماية بلاده، بل أيضاً لحماية عروش ملوك الخليج التي شكل المد الثوري القادم من طهران أكبر تهديد لها، ورداً على ذلك قام أمير الكويت، بدعم من دولة الإمارات العربية المتحدة، بإغراق سوق النفط في ربيع عام 1990، فانخفض السعر من 18 دولاراً إلى 11 دولاراً للبرميل، مع العلم أن كل دولار نقَص من سعر برميل النفط نتج عنه انخفاض عائدات بغداد السنوية بمقدار مليار

دولار، وهي خسارة أضْنَت نظام صدام حسين أمام المطالب الملحّة لإعادة إعمار البلاد وتوفير فرص العمل لمليون جندي مسرح من الجيش بعد انتهاء الحرب.

ولنعد إلى مدينة الكويت، فقد كتب المقدم فريد إل. هارت جي آر، مستشار أمريكي للقوات البرية الكويتية: «قيل لنا إن أكثر من 100 ألف جندي عراقي [مجهزين بـ 2000 دبابة] احتشدوا في جنوبي العراق على بعد دقائق من الحدود [الكويتية]» وأضاف: «في مساء الأول من أغسطس شاهدنا جميعاً بث الأخبار المحلية باللغة الإنجليزية الذي أظهر عودة ولي العهد الكويتي الأمير سعد الصباح من جدة بخبر انسحاب عزت إبراهيم من المحادثات لأنه لم يكن مستعداً لتلبية مطالب صدام حسين بدفع مليارَين و400 مليون دولار مقابل النفط العراقي المزعوم سرقته عبر الحدود، وقرض بقيمة 10 مليارات دولار من الكويت».[2]

وتابع هارت: «بحلول الساعة 23:00 في 1 آب-أغسطس عام 1990 بدأ رئيس مكتب الاتصال الأمريكي في الكويت، العقيد جون مونيهام، في تلقي تقارير هاتفية من فنيي وستنجهاوس الأمريكيين الذين يحرسون موقع منطاد المراقبة الرادارية شمالي موتلا ريدج مباشرةً» وأظهرت تقاريرهم تشكيلاً ضخماً من الدروع يشبه أنبوباً حديدياً يبلغ طوله عدة كيلومترات يتدحرج إلى أسفل التل. وقد وُجِّهت نصيحة للفنيين بقطع الحبل والخروج بذكاء... صعدت إلى سطح الفيلا الخاصة بنا حوالي الساعة 00:30، يوم 2 آب-أغسطس، وتمكّنت من رؤية بعض القنابل المضيئة في الأفق الشمالي، لكنني لم أسمع أصوات مدفعية بعيدة... وبحلول الساعة 05:00 كان التشكيل العراقي على مشارف معسكر الدوحة [في شبه جزيرة صغيرة على خليج الكويت]، وانتشر الخبر بسرعة عن الغزو... وبحلول ذلك الوقت أُخطِرنا جميعاً هاتفياً، أو أوقِظنا على صوت قاذفات القنابل المقاتلة التي تحلق على ارتفاع منخفض وصوت نيران المدفعية المميز. وفي الساعة 05:15 خرجت، فتعرفت على الفور على رائحة الكورداید في الهواء، وسمعت أصوات الحرب تقترب. وعندما نظرت إلى الجنوب الغربي من سطح الفيلا المكونة من طابقين، تمكنت من رؤية مطار الكويت الدولي على بعد خمسة إلى سبعة كيلومترات تحت القصف الجوي للقاذفات المقاتلة العراقية... لقد فشل المخططون العراقيون في تنسيق الفارق الزمني بين مدينة الكويت وبغداد لمدة ساعة واحدة، مما أدى إلى هجوم غير منسق من قبل وحدات القوات الخاصة العراقية [التي وصلت على متن السفن والمروحيات] والقوات البرية للحرس الجمهوري [التي تقدمت براً].[3]

خلال المرحلة الثانية من الهجوم ضربت الطائرات المقاتلة العراقية منشآتٍ رئيسةً في مدينة الكويت وما حولها، بينما هاجمت قوات الكوماندوز والوحدات المحمولة جواً مقر

إقامة الأمير، وقصر دسمان، ومحطات الإذاعة والتلفاز، والبنك المركزي. وفي قصر دسمان عُزِّزوا بوحدات عراقية في ناقلات جند مدرعة جُلِبت عن طريق زوارق الإنزال، ووصل المزيد من القوات العراقية بطائرة هليكوبتر، وهبطوا على سطح القصر وفي حديقة القصر، وكانوا ينوون القيام بأمور منها إلقاء القبض على الأمير جابر الصباح أو قتله، ولكن الأمير، الذي ورد أنه تلقى معلومات عن الغزو قبل بدايته، غادر القصر في وقت سابق مع الوفد المرافق له متوجهاً إلى المقر العام العسكري لمراقبة المعركة هناك، ثم فر بسرعة إلى المملكة العربية السعودية في قافلة من سيارات مرسيدس بنز.[4] واستمرت عمليات القتال في القصر حتى الساعة 14:00، وأودت بحياة العديد كان منهم فهد، الأخ الأصغر للأمير.

واختتم هارت كلامه قائلاً: «كان باستطاعتي رؤية القوات المدرعة العراقية من على سطح منزلي وقد احتلت أراضي القصر».[5]

وسارعت إيران، التي يحكمها الآن آية الله علي خامنئي، الذي اختاره مجلس الخبراء المنتخب شعبياً بعد وفاة آية الله روح الله الخميني في حزيران-يونيو 1989، إلى إدانة الاحتلال العراقي للكويت، ودعت صدام حسين إلى سحب قواته من الإمارة.[6] وقد شعر قادة إيران الآن بأنهم قد برئوا من صد عدوان صدام على بلادهم وخاضوا حرباً طويلة ضده.

وخلال ذلك الصراع العسكري كان صدّام قد أنهى خطابه الحربي بعبارات عنصرية واصفاً الفرس بأنهم أقل شأناً من العرب، بينما وصف جنرالاته الإيرانيين بأنهم حشرات تستحق القضاء عليها بالأسلحة الكيميائية. والآن لم يُظهر أي تأنيب ضمير لغزو دولة عربية مجاورة. وقد كشف ذلك لأعضاء مجلس التعاون الخليجي أموراً عدةً من بينها عدوانية صدام حسين التي كانت إيران ضحية لها قبل عقد من الزمن.

أمريكا تحمي المملكة العربية السعودية

دفع غزو العراق للكويت الولايات المتحدة إلى التدخل لحماية السعودية، والتي بحسب إدارة الرئيس جورج بوش الأب كانت الهدف التالي لصدام. وفي اجتماع مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض، في 2 آب-أغسطس، قال بوش، الذي كان قد كسب أول مليون دولار له كرجل نفط من تكساس: إنه مع وجود 20 % من نفط العالم -11 % في العراق و9 % في الكويت- «سيكون صدام قادراً على التلاعب بأسعار النفط العالمية [عبر عمله كمنتج متأرجح] مما يضع الولايات المتحدة وحلفائها تحت رحمته. وإن أي ارتفاع عالمي في أسعار الوقود قد يؤدي إلى زيادة التضخم، وهذا سيفاقم وضع الاقتصاد الأمريكي سوءاً».[7]

في 6 آب-أغسطس فرض مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة عقوباتٍ اقتصاديةً على العراق، بناءً على طلب واشنطن، فأدى ذلك إلى سحب 4 ملايين و800 ألف مليون برميل يومياً من السوق العالمي، فتضاعف السعر إلى 22 دولاراً للبرميل (أو 42 دولاراً في شروط عام 2017). وعقب احتلال الكويت أنشأ أمير الكويت الشيخ جابر الصباح ديوانه الملكي في منتجع الطائف في السعودية، ومن هناك أرسل وزير خارجيته صباح الأحمد الصباح إلى طهران، حيث اعتذر لهم لمساعدته حكومة صدام حسين في حربها على إيران. [8]

ومن جانبه، ركز بوش على دعم مزاعمه بأن صدام كان على وشك غزو السعودية رغم أنه في آذار-مارس 1989 وقع على اتفاقية عدم اعتداء مع المملكة، ونفى بشدة أي نية لديه لخرق تلك الاتفاقية[9]؛ ولذلك كان على بوش أن يأتي بأدلة دامغة لإقناع فهد، فكان هذا الدليل صوراً التقطتها طائرات المراقبة والأقمار الصناعية الأمريكية لمدرعات وناقلات جند عراقية والقوات متجمعة في الصحراء على طول الحدود السعودية، كانت خمسة منها قد اقتحمت الأراضي السعودية. ولكن بما أن هذه المركبات كانت ضمن منطقة حدودية غير مرسمة أصولاً، فمن المرجح أن وجودها كان غير مقصود.[10]

وعلى الفور طار وزير الدفاع الأمريكي ديك تشيني إلى جدة وبجعبته صور الأقمار الصناعية، ولدى لقائه فهد، في 6 آب-أغسطس، نجح في إثارة مخاوف الملك بعد أن أخبره أن العراق قد نشر صواريخ أرض-أرض في الكويت، ووجهها نحو أهداف سعودية. ومن هنا باتت دعوة القوات المسلحة الأمريكية للدخول إلى المملكة العربية السعودية أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لفهد. صحيح أنهم ليسوا أول أفراد عسكريين أمريكيين تواجدوا داخل المملكة، إلا أن أعداد الجنود الأمريكيين لطالما كانت قليلة، فكانوا غير مرئيين تقريباً للعامة، أمّا هذه المرة، فكان لا بد من تمركزهم بأعداد كبيرة على الأراضي السعودية وتحت عِلْم عامة السعوديين، وهذا من شأنه أن ينتهك وصية النبي محمد في الحديث الذي يقول: «لا يكون هناك دينان في جزيرة العرب»[11].

وفي نهاية المطاف وافق فهد على دعوة القوات المسلحة الأميركية بعد أخذه مشورة هيئة كبار العلماء، وإن كان ذلك خاضعاً لثلاثة شروط: أن يتعهد الرئيس بوش كتابياً بأن القوات الأميركية ستغادر المملكة عندما ينتهي التهديد العراقي، وأن تحصل الولايات المتحدة على موافقة السعودية قبل شن أي عمل عسكري هجومي ضد العراق، كما توجب على إدارة بوش أن تبقي أمر الدعوة السعودية سراً إلى أن تهبط أولى القوات الأمريكية على الأراضي السعودية. وبعد التشاور مع بوش عبر الهاتف وافق تشيني على الشروط السعودية.[12]

ولم تعترف الحكومة السعودية بوصول الجنود الأمريكيين إلى المملكة إلا بحلول 9 آب-أغسطس، عندما اجتمع أعضاء هيئة كبار العلماء، برئاسة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، في الرياض. وفي 13 آب-أغسطس، أصدرت هيئة كبار العلماء موافقتها على قرار فهد. وجاء في بيان الهيئة أن «مجلس الهيئة... كان على علم بحشد القوات العراقية الكبير على حدود المملكة، مما دفع حكام المملكة... إلى مطالبة الدول العربية وغير العربية بردع الخطر المتوقع. ولما كان من واجب الحاكم المسلم الصالح أن يردع العدوان والغزو فإن مجلس هيئة كبار العلماء يقدّم دعمه لجميع الإجراءات التي اتخذها الحاكم».[13]

وفي الحقيقة، لم توافق هيئة كبار العلماء على دخول القوات إلا بعد أن أطلعها الملك فهد على أنه حصل على موافقة مكتوبة من الرئيس بوش بأن قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة لن تتقدم إلى الكويت التي تحتلها العراق إلا بعد الحصول على موافقة العاهل السعودي، وأن جميع الجنود الأمريكيين سيغادرون المملكة بمجرد تحرير الكويت.

ولم يكن انصياع ابن باز وهيئة كبار العلماء لمطالب الملك فهد أمراً مفاجئاً، فقد كان ابن باز يقيم داخل مجمع ضمن الأراضي الملكية في مبنًى مكون من طابقين في الشُّميسي، بينما يقيم أعضاء هيئة كبار العلماء الآخرون في منازل واسعة قدمتها لهم المؤسسات الغنية أو الرعاة الأثرياء[14]؛ وبذلك ظل تحالف الوهَّابية مع آل سعود راسخاً. وقد انتقد علماء سعوديون قرار هيئة كبار العلماء، وكان من بينهم سلمان العودة وسفر بن عبد الرحمن الحوالي، أبرز علماء الوهَّابية غير المؤسسيين، وكان أولئك من قيادات حركة الصحوة.

في 16 آب-أغسطس، وفي أعقاب التحرك غير المتوقع على الإطلاق من قبل صدام حسين، وصل وفد عراقي رفيع المستوى إلى طهران حاملاً رسالة موجهة إلى نظيره الإيراني علي أكبر هاشمي رفسنجاني. ووفقاً لراديو بغداد فقد عرض الزعيم العراقي في تلك الرسالة اعتراف بلاده بالحدود البرية والنهرية المتنازع عليها قبل الحرب الإيرانية، وإطلاق سراح جميع أسرى الحرب الإيرانيين، والبدء بسحب القوات العراقية بدءاً من 17 أغسطس-آب من نحو 1000 ميل مربع كانت قد احتلتها من جنوبي غربي إيران. وقال وزير خارجية إيران علي أكبر ولايتي لإذاعة طهران: «هذا أكبر انتصار لجمهورية إيران الإسلامية عبر تاريخها»، في حين قال متحدث إيراني: إن الحكومة تراجع "بتفاؤل" الاقتراح العراقي، متوقعاً أن يؤدي الاقتراح إلى "سلام دائم وعادل"[15]. وفي الحقيقة، لم يقدم صدام حسين هذا العرض الشامل إلا ليتمكن من نقل الجزء الأكبر من قواته البالغ عددها 300 ألف جندي، كانوا يحرسون الحدود مع إيران، إلى الكويت.

قلقت إيران من حشد التحالف المناهض للعراق بقيادة الولايات المتحدة، واستقبلت حكومة إيران، في 9 أيلول-سبتمبر، وزير الخارجية العراقي، طارق عزيز، في طهران تأكيداً على تصميم العراق على تطبيع العلاقات مع إيران، وأعلن خامنئي، بعد ثلاثة أيام، أن معارضة الوجود العسكري الأمريكي في منطقة الخليج هي جهاد إسلامي، وأن «كل من يحارب عدوان أمريكا، وأطماعها، ومخططاتها للتعدي على منطقة الخليج هو مجاهد في سبيل الله، وأن من قُتل في سبيل ذلك فهو شهيد».[16] وفي 28 أيلول-سبتمبر تجمعت حشود ضخمة في طهران في مسيرة نحو ساحة الصلاة بجامعة طهران وهم يرددون شعارات مناهضة لأمريكا، بعد دعوة وجهتها لجنة تنسيق الدعاية الإسلامية التي ترعاها الدولة، وقد بُثَّت تلك المسيرة بشكل متكرر على إذاعة طهران[17].

منذ تأسيسها، في عام 1979، عارضت الجمهورية الإسلامية التدخل العسكري للقوى الأجنبية في الخليج، بحجة أن الدول الإسلامية في المنطقة يجب أن تشكل تحالفاً مشابهاً لمنظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) لحماية المنطقة عسكرياً. ويمكن تحقيق ذلك من خلال توسيع مجلس التعاون الخليجي الحالي ليشمل إيران. ولكن مثل هذا السيناريو لم يعجب المملكة العربية السعودية التي ستخسر دورها القيادي في مجلس التعاون الخليجي لصالح جمهورية ذات أغلبية شيعية.

ورغم الجهود الحثيثة التي بذلتها الحكومة الإيرانية، فقد فشلت في ثني الرئيس السوري حافظ الأسد، الحليف الإستراتيجي للجمهورية الإسلامية، عن الانضمام للتحالف الذي قادته الولايات المتحدة ضد العراق، فقد أرسل الأسد 14500 جندي مشاة للانضمام إلى القوات العربية الإسلامية بقيادة الجنرال خالد بن سلطان آل سعود، وحصل في المقابل على مليارين و200 مليون دولار كمساعدة من المملكة العربية السعودية، وحكومة الكويت في المنفى، والإمارات العربية المتحدة[18].

وبحلول نهاية عام 1990 كان البنتاغون قد نجح بتجميع آلة الحرب الأكثر فتكاً منذ الحرب العالمية الثانية، على رأس تحالف يضم 28 دولة، بما فيها 13 دولة عربية وإسلامية: 775.000 جندي غربي، و220.000 جندي عربي ومسلم (معظمهم متمركزون على الأراضي السعودية)، مجهزة بـ 4000 دبابة، و2900 طائرة حربية ومروحية قتالية، و107 سفن حربية في الخليج، وشمالي بحر العرب وخليج عُمان، والبحر الأحمر، وشرقي البحر الأبيض المتوسط. وقد واجهت قوات عراقية قوامها 545 ألف جندي، في الكويت وجنوب العراق، مجهزين بـ 4200 دبابة و150 طائرة هليكوبتر قتالية، تدعمها 55 طائرة حربية جاهزة للقتال.[19]

وقد ضم الجزء العربي الإسلامي من التحالف باكستان وبنغلاديش، فقد أرسلت إسلام آباد 11 ألف جندي إلى السعودية. وفي الوقت نفسه عملت بنغلاديش بشكل وثيق مع الرياض لدرجة أن رئيسها عبد الرحمن بيسواس لم يجد مشكلة في إقناع برلمان بلاده بالموافقة على إرسال 2300 جندي إلى المملكة السعودية، وكان يحكمها آنذاك جنرال من الحزب القومي الإسلامي البنغلاديشي منذ عام 1975. ومنذ ذلك الحين ازدادت المساعدات المالية التي تقدمها الرياض إلى دكا زيادة ملحوظة.

ومن الجدير بالذكر أن القوات العربية الإسلامية، بقيادة الفريق أول الأمير خالد بن سلطان آل سعود، والتي تعمل بالتنسيق مع الجنرال نورمان شوارزكوف، قائد القوات الغربية، كانت متمركزة بين الحدود الكويتية والقوات الأمريكية جنوباً[20].

الحرب وعواقبها

خلال الحرب التي استمرت 43 يوماً، والتي بدأت في 16 كانون الثاني-يناير 1991 فيما أطلق عليه اسم عملية عاصفة الصحراء، شن التحالف 106.000 طلعة جوية، وأسقط 141.000 طن من المتفجرات، وأطلق 315 صاروخ كروز. وقد قدر صندوق النقد العربي الأضرار التي لحقت بالبنية التحتية العراقية بنحو 190 مليار دولار. أما الضحايا من العراقيين، فكان عددهم نحو 57.600 إلى 62.600، وفي الجانب الآخر قُتل ما بين 2000 و5000 كويتي، معظمهم من المدنيين، بينما خسر التحالف 376 جندياً[21].

تُعَدُّ الحرب بين إيران والعراق أطول حرب تقليدية في القرن العشرين، وقد تلتها حرب الخليج الثانية عام 1991، وكانت آخر صراع مسلح كبير في ذلك القرن. وكان لتلك الحرب عواقب غير مباشرة؛ فقد أثرت على الانتخابات الرئاسية الأمريكية في تشرين الثاني-نوفمبر 1992، كما ارتفعت معدلات تأييد الرئيس بوش كثيراً بعد انتصاره الباهر في هذه الحرب لتصل إلى 91%، وبدت إعادة انتخابه لولاية ثانية أمراً شبه مؤكد إلى حد أن كبار الساسة الديمقراطيين لم يدخلوا السباق أمامه على ترشيح الحزب؛ وفي هذا الفراغ صعد بيل كلينتون، حاكم ولاية أركنساس. وكما أدت إيران الإسلامية دوراً مُهماً في الانتخابات الرئاسية الأمريكية في عام 1980، أدت المملكة العربية السعودية هي الأخرى دوراً حاسماً في تشكيل التاريخ السياسي لحاميتها، الولايات المتحدة.

بعد أن كشف مفتشو الوكالة الدولية للطاقة الذرية عن طبيعة البنية التحتية العراقية المتقدمة فيما يتعلق بتصنيع الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية وتطويرها، سرَّعت

إيران وتيرة برنامجها النووي السري الذي استغرق أربع سنوات لإنتاج قنبلة نووية. وفي حين أعلنت أمريكا في أعقاب الغزو الأنجلو-أميركي للعراق، في آذار-مارس 2003، بأنه قُضِي على المشروع النووي العراقي الذي بدأ عام 1991، واصلت الحكومة الإيرانية برنامجها النووي في خريف عام 2003، وفقاً لما ذكرته صحيفة "ديلي ميل" البريطانية، وهذا يعني أن الدافع الأساسي من وراء التوجه النووي الإيراني كان إيجاد رادع للخطر النووي الذي مثله عراق صدام حسين على إيران، ولم يكن له علاقة بـ [كيان] إسرائيل. وقال خالد مينا، محرر صحيفة عرب نيوز الموالية للنظام: «سلّطت الحرب الضوء على أشياء كثيرة؛ فقد رفعت وعينا، وأعطتنا فرصة للبحث عن أنفسنا»، وأردف قائلاً: «لقد مرت جميع شرائح المجتمع بهذه التجربة». وقال مصدر سعودي مطّلع على ما يجري في الجيش: «لقد تزايد عدد الجنود الملتحين... وازدادت المنشورات والرسائل السرية التي تنتقد سلوك أمراء العائلة المالكة، والطريقة المنحرفة التي تتبعها السفارات [السعودية]. وتوسُّعَ الفساد ليستشري بين كبار المسؤولين وأفراد العائلة المالكة في حاميات الجيش».[22]

أما على الصعيد المحلّيّ، فإن السخط المتزايد لدى السعوديين، بسبب الوجود الكبير للقوات الأمريكية على الأراضي السعودية والانكماش الاقتصادي الحاصل، أجبر الملك فهد على إصدار دستور للمملكة بعد عام على انتهاء حرب الخليج عام 1991، وجاء ذلك بعد مرور ستين عاماً على تأسيس المملكة العربية السعودية. أعلان الدستور الجديد أن القرآن والسُنّة هما دستور المملكة التي يحكمها الذكور من نسل عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وأن الملك هو رئيس الدولة ورئيس مجلس الوزراء، وهو أيضاً القائد الأعلى للجيش. ويتولى أيضاً تعيين رئيس الوزراء وأعضاء آخرين في مجلس الوزراء. ولم يرد نص في هذا الدستور على وجود سلطة تشريعية، أو أحزاب سياسية، أو نقابات عمالية، ولكنه نص على إحداث مجلس شورى مكون من ستين عضواً، حيث يعين الملك الأعضاء ورئيسهم لمدة أربع سنوات. وقد أعلن فهد عن تأسيس مجلس الشورى في آب-أغسطس 1993، وكان المجلس عبارة عن هيئة استشارية دون أي صلاحيات ملزمة، لدرجة أنه عندما عُرض على رئيس المجلس ببغاء كهدية خلال جولة خارجية، قيل: إنه أجاب: «لا. شكراً؛ لدي ستون منه».[23]

أما على مستوى المنطقة، فقد عارضت فروع الإخوان المسلمين في معظم الدول العربية تحالف فهد العسكري مع أمريكا غير المسلمة، وردت الحكومة السعودية عبر خفض مساعداتها المالية لجماعة الإخوان المسلمين؛ فكانت تلك بداية لمسار انتهى بإعلان المملكة العربية السعودية جماعة الإخوان المسلمين كمنظمة إرهابية في عام 2014.

وخلال أزمة الكويت، التي دامت سبعة أشهر، وحرب التحالف اللاحقة، تمكنت السعودية من سد ثلثي فجوة إنتاج النفط البالغة 4 ملايين برميل يومياً، وهي الكمية المتبقية من صادرات نفط العراق بعد أن انقطعت بسبب عقوبات الأمم المتحدة عليه؛ وأدى ذلك إلى ارتفاع أسعار النفط، وهو ما تسبّب بصدمة نفطية ثالثة بعد تلك التي حدثت في 1973-1974 وفي 1979-1980، والركود الاقتصادي في 1991-1992، والتي كانت أحد الأسباب الرئيسة لهزيمة بوش أمام كلينتون.

وفي المملكة العربية السعودية نفسها أدت النفقات الضخمة التي تكبّدتها الحكومة خلال حرب الخليج عام 1991، وإعادة تسليح المملكة التي أعقبت الصراع، والانخفاض الحاد في أسعار النفط، إلى دفع حكومة فهد لاقتراض قروض أجنبية لموازنة الميزانية في عام 1994. وبذلك فقدت الحكومة أداتها في إسكات المعارضة من خلال رشوة قادتها في الوقت الذي انخفض فيه نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بين عامي 1982 و1993 من 13,625 دولاراً إلى 7,386 دولاراً.[24]

آثار حرب الخليج عام 1991

وبعد وقت قصير من انتهاء حرب الخليج عام 1991 استعادت الرياض العلاقات الدبلوماسية مع طهران، وفي نيسان-أبريل سافر الرئيس رفسنجاني، وهو رجل دين معتدل انتخب لمنصب رفيع في تموز- يوليو1989 -بعد شهر من وفاة آية الله روح الله الخميني- إلى المملكة العربية السعودية للقاء الملك فهد. وكانت محادثات القنوات الخلفية بين الدول المتناحرة قد بدأت في وقت سابق. وفي أيلول-سبتمبر 1990 التقى ولايتي بنظيره السعودي سعود الفيصل في الأمم المتحدة في نيويورك، ووافق وزير الخارجية السعودي على رفع الحصة إلى 45 ألفاً لحجّاج إيران، واقترح أن يعقد الإيرانيون اعتصامهم، ولكن في مكان ثابت، حيث يمكن قراءة رسالة المرشد الأعلى على المجتمعين.

كرر السعوديون العرض خلال اجتماع مجلس التعاون الخليجي في الدوحة في كانون الأول-ديسمبر 1990 الذي حضرته إيران بصفة مراقب، واتفق الجانبان في النهاية على 115 ألف حاج إيراني بدلاً من 45 ألفاً بحسب الصيغة الأصلية، على ألا ينتقد الحجاج المحتشدون الحكومات الإسلامية. وبعد وقت قصير من انتهاء حرب الخليج عام 1991 في 28 شباط-فبراير، استأنف الجانبان علاقاتهما الدبلوماسية.[25]

كان ولايتي أحد الحجاج الذين بدؤوا موسم الحج في 21 حزيران-يونيو، حيث التقى

بالملك فهد في جدة، وقال: إنه لا بد من دعم مجلس التعاون الخليجي وتعزيزه ليتمكن في المستقبل من رد الاعتداء ضد أي من أعضائه، واقترح ولايتي توسيع مجلس التعاون الخليجي ليشمل إيران أيضاً، فأظهر له فهد بعض التعاطف[26]، ثم غادر ولايتي المملكة معرباً عن "تفاؤله الكبير" حول مستقبل العلاقات بين البلدين، وفي أوائل آب-أغسطس قررت المملكة العربية السعودية وإيران تبادل السفراء[27].

وكان سببَ تفاؤل إيران اتفاقٌ أجرته دول مجلس التعاون الخليجي مع كل من مصر وسورية، في أوائل شهر آذار-مارس، على إنشاء قوة حفظ سلام مشتركة للحفاظ على الأمن في منطقة الخليج بعد الحرب. ولكن سرعان ما تلاشت الآمال عندما تراجع مجلس التعاون الخليجي عن قراره؛ فسحبت مصر جنودها البالغ عددهم 20 ألف جندي من المملكة السعودية في 5 أيار-مايو 1991. ثم ما لبث أن وصل نائب الرئيس تشيني إلى المنطقة لتأكيد سلسلة من العلاقات الدفاعية الثنائية مع كل من ممالك الخليج، بما في ذلك اتفاقية دفاع رسمية مع المملكة العربية السعودية[28]، فأدى هذا إلى القضاء على خطة إيران في أن تصبح جزءاً من الترتيبات الأمنية في الإقليم.

بحلول أوائل أيار-مايو 1991 كانت جميع القوات غير السعودية قد غادرت المملكة العربية السعودية باستثناء 37 ألف جندي أمريكي، بما في ذلك أفراد القوات الجوية، والطائرات الحربية الأمريكية المتمركزة في قاعدة الأمير سلطان الجوية في الخرج على بعد 80 كم جنوب شرق الرياض[29]، وقد قوبل بقاء أولئك الجنود بالرفض من قبل شريحة واسعة من المجتمع السعودي الذي افتقر إلى وسيلة مسموعة للتعبير عن رأيه. ومن جهة أخرى، عزز هذا الوجود الأجنبي مزاعم الوهَّابيين المتشددين، مثل أسامة بن لادن، على التأكيد على أن الملك فهد "انحاز إلى اليهود والمسيحيين" مرتكباً "ذنباً لا يغتفر"، ووصف آل سعود بالمنافقين (أي المسلمين المنحرفين). وقد ساعدت اتهاماته للعائلة السعودية المالكة في تقوية تنظيمه الإسلامي المتطرف، تنظيم القاعدة.

وقد برر البنتاغون استمرار وجود القوات الأمريكية في المملكة بأنها كانت تساعد في فرض منطقة الحظر الجوي في جنوب العراق تحت خط العرض 32، ولم يكن هذا التبرير مقنعاً للكثير من السعوديين. وفرض الرئيس بوش منطقة الحظر الجوي الجنوبية في آب-أغسطس 1992 كجزء من عملية المراقبة الجنوبية التي شنت لمعاقبة صدام حسين بسبب عدم تعاونه مع مفتشي الأمم المتحدة للعثور على أماكن تصنيع الأسلحة والمنشآت الكيميائية، والبيولوجية، والنووية، وتدميرها.

وقد شهدت المملكة أجواءً من السخط؛ ففي خطبة مسجلة قال سفر الحوالي: إن "ما يحدث في الخليج هو جزء من مخطط غربي للسيطرة على العالم العربي والإسلامي بأكمله"[30]. وفي 17 أيار-مايو 1991 خرجت مظاهرة كبيرة في منطقة القصيم الشمالية في بريدة بعد أن منع حاكم منطقة القصيم الأمير عبد الإله بن عبد العزيز الشيخ سلمان العودة من إلقاء خطب الجمعة بسبب انتقاده لاستبداد آل سعود واستمرار وجود القوات الأمريكية؛ فقام آلاف من أنصاره بتنظيم مظاهرة صاخبة في بريدة بقيادة علماء ومطوعين محليين، وقام الحرس الوطني بتفريق المظاهرة، واعتقلوا العديد من الأشخاص. وقد خشيت الأسرة الحاكمة من الدعم الذي يحظى به سلمان العودة، ولا سيما من الشيخ بن باز. وفي النهاية طلبت مجموعة مؤثرة من رجال الدين من الملك إقالة والي القصيم على خلفية هذه الأحداث[31].

ولاحقاً، في 24 أيار-مايو، تبين أن الشيخ بن باز نقل إلى الملك فهد خلال اجتماعه معه قبل أسبوع، عريضة وقع عليها نحو 400 من كبار رجال الدين والقضاة والأكاديميين بعنوان "خطاب المطالب". وقد تألفت العريضة من عشر نقاط تضمنت الدعوة لإنشاء جمعية استشارية محايدة للبت في جميع الشؤون الداخلية والخارجية، وصولاً إلى المطالبة بأسلمة جميع الأنظمة الاجتماعية، والاقتصادية، والإدارية، والتعليمية، وإصلاح النظام القضائي، ومعاقبة أولئك الذين أثروا بطرق غير مشروعة "أياً كانوا، وأينما كانوا، ودون أي استثناء"، وإنشاء مراكز ثقافية إسلامية في جميع أنحاء العالم الإسلامي مهمتها دحض دعاية الصحافة الغربية غير الإسلامية، وإبعاد الأمة الإسلامية عن جميع المواثيق والمعاهدات غير الإسلامية فضلاً عن إصلاح الجيش ليصبح قوة مسلحة مستقلة، مدعومة بصناعة سلاح متطورة وأكاديميات عسكرية، وتنويع مصادر شراء الأسلحة الحديثة.[32]

ولا شك أن المطلب القائل بتنويع مصادر شراء الأسلحة وتجنب عقد المعاهدات والأحلاف مع الدول غير الإسلامية ينطوي على انتقاد لاذع لتحالف الرياض مع القوى الغربية الكبرى. ومن خلال هذا المطلب كان رجال الدين ينصحون الملك فهد بالابتعاد عن الغرب، وخاصة الولايات المتحدة. وقد حظوا بدعم ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود والأمير سلمان بن عبد العزيز آل سعود، الحاكم المؤثر لمنطقة الرياض، بينما عارضهم الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود، وزير الدفاع، وولداه: الأمير خالد والأمير بندر، الذين فضّلوا توثيق العلاقات مع أمريكا، وكانوا قد نصحوا الملك باتخاذ إجراءات حازمة ضد الدعاة المتمردين في بريدة.

راوغ الملك فهد في البداية، ولكن ما إن جرى تذكيره بوعده الذي قطعه في أواخر عام

1979 بإنشاء مجلس شورى ودستور للبلاد "خلال أشهر"، حتى حدث ذلك أخيراً في آذار-مارس 1992، ونُشر الدستور المكون من 83 مادة، بينما لم يكتمل إنشاء مجلس الشورى إلا بعد أربع سنوات في آب-أغسطس 1993.

ومع استمرار الوجود الأمريكي في المملكة اكتسبت انتقادات العودة للنظام مزيداً من التأييد، ولا سيما لدى الأكاديميين السعوديين الذين سعوا لدعم حقوق الإنسان، خاصة بعد أن أجريت أول انتخابات عامة متعددة الأحزاب في اليمن الموحد حديثاً في نيسان-أبريل 1993. وفي خضم تلك الأجواء أعلن ستة سعوديين، بمن فيهم العودة والحوالي، تشكيل لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية، فأصبحت أول منظمة معارضة تتحدى النظام الملكي علانية، متهمة الحكومة وكبار العلماء بعدم القيام بما يكفي لحماية الحقوق الإسلامية المشروعة للمسلمين. ودعت اللجنة المواطنين إلى الإبلاغ عن أعمال الظلم التي ترتكبها الجهات الرسمية، وطالبت بإجراء انتخابات على أساس الاقتراع العام، فما كان من الحكومة إلا أن اعتقلت رئيس لجنة الدفاع البروفيسور محمد المسعري، وأقالت آخرين من وظائفهم. وبعد حظره في المملكة هرب المنشق المسعري إلى بريطانيا، وأطلق حملة واسعة لتلقي فاكسات من المملكة، كان معظمها يتحدث عن الفساد المستشري بين أفراد الأسرة المالكة، ثم أرسلها بالفاكس مرة أخرى إلى المؤيدين في الوطن.

ولكبح جماح المعارضة المتزايدة لجأت السلطات إلى القمع، ففي أيلول-سبتمبر 1994 اعتقلت السلطات 200 من المعارضين السياسيين السلميين، وكان من بينهم العودة والحوالي وخمسون من أتباعهم في حركة الصحوة. وكشفت لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان، العاملة في لندن، عن أمور من بينها وجود 300 سجين سياسي في المملكة العربية السعودية بحلول أوائل عام 1995 [(33)].

وفي المملكة تحولت المعارضة التي تم قمعها بوحشية إلى العنف، وجاءت العلامة الأولى في 13 تشرين الثاني-نوفمبر 1995 عندما أدى هجوم بسيارة مفخخة على المكتب الأمريكي لمدير البرنامج المسؤول عن برنامج تحديث الحرس الوطني إلى مقتل ستة أشخاص، من بينهم خمسة ضباط أمريكيين[(34)].

في 29 تشرين الثاني-نوفمبر، وبعد إصابته بسكتة دماغية، عيّن فهد ولي عهده، الأمير عبد الله بن عبد العزيز، وصياً على العرش.

لم يكن ولي العهد الأمير عبد الله جزءاً من الدائرة الداخلية لفهد التي كانت مقتصرة على إخوته الستة، المعروفين بالسديريين السبعة، لأن والدتهم كانت حصة بنت أحمد السديري

التي تزوجها الملك عبد العزيز عام 1920، وبحلول عام 1941 أنجبت سبعة أبناء مما جعلها الزوجة الأكثر قيمة للملك، وقد زاد جمالها وسحرها من خلال شخصيتها القوية، وحاولت أن تغرس روح الجماعة بين أبنائها، وحثتهم على التماسك، وهو ما فعلوه. والسديريون السبعة هم سلطان (وزير الدفاع منذ عام 1963)، ونايف (وزير الداخلية منذ عام 1978)، وسلمان (حاكم منطقة الرياض منذ عام 1963)، وعبد الرحمن (نائب وزير الدفاع)، وأحمد (نائب وزير الداخلية).

وفي المقابل، تكمن قاعدة قوة عبد الله في قيادته للحرس الوطني الذي كانت تديره وزارة مستقلة عن وزارة الدفاع. وعلى الرغم من تعافي فهد، فإن الإخوان السديريين أجبروا عبد الله على التنحي عن الوصاية، إلا أن الوضع تغير عندما أصيب فهد بنوبة قلبية حادة في عام 1997. ومنذ ذلك الحين كان تأثير فهد في الإدارة أقل بكثير، وأصبح عبد الله بحكم الأمر الواقع حاكم المملكة.

التطبيع بين فهد والشيعة السعوديين

أثّرت التوترات المتصاعدة بين المملكة العربية السعودية وإيران، في أعقاب أعمال الشغب الدموية في مكة في تموز-يوليو 1987، في الشيعة في المنطقة الشرقية من المملكة الذين تعرضوا لضغوط رسمية متزايدة، فقرر حسن الصفار وغيره من قادة منظمة الثورة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية (OIRAP) الانتقال من طهران إلى دمشق في عهد الرئيس السوري حافظ الأسد، واستمروا في تهريب المنشورات المناهضة للنظام إلى المنطقة الشرقية حتى أيلول-سبتمبر 1990 حين عادوا إلى الاسم السابق "حركة الإصلاح في المملكة العربية السعودية" رداً على غزو صدام حسين واحتلاله للكويت.

وخوفاً من هجوم العراق على المملكة دعا الصفار أتباعه إلى الاحتشاد خلف الحكومة لمحاربة نظام صدام، فتطوع العديد من الشيعة السعوديين للانضمام إلى الجيش وقوات الدفاع المدني. ودعت المنظمة المعتدلة، والتي أصبح اسمها (الديمقراطية والإصلاح السلمي)، وتعهدت بتقديم التماسات إلى الملك لتحسين وضع الشيعة.

وبمبادرة من الصفار اجتمع أكثر من 150 شيعياً من المنفيين السعوديين من إيران، وسورية، وبريطانيا، وأمريكا في ضاحية الغوطة بدمشق في تموز-يوليو 1993 للنظر في اقتراح قناة خلفية للمصالحة من الملك فهد الذي لاحظ الاعتدال في خطاب الحركة الإصلاحية، ووافقوا بأغلبية كبيرة على التفاوض بشرط موافقة الملك على إطلاق سراح 400

شيعي محتجزين كسجناء سياسيين، والسماح لما يتراوح بين 1200 إلى 1500 آخرين بالعودة إلى المملكة.

لاحقاً سافر الصفار إلى طهران لاستمزاج القادة الإيرانيين الذين بدورهم وافقوه على تحسين العلاقة مع الرياض. وبادر فهد بتعيين السياسي الشيعي جمال الجشي عضواً في مجلس الشورى السعودي الأول.

وأقنع الرئيس رفسنجاني فهد بخفض إنتاج النفط السعودي لرفع أسعار النفط، وقد ساعد ذلك إيران التي تعاني من ضائقة مالية[35]. والتقى فهد بالعديد من مبعوثي الصفار، ووافق على أمور من بينها الأمر بحذف المصطلحات المهينة للشيعة من الكتب المدرسية، وإزالة بعض الأشكال الأخرى من التمييز العلني، والسماح للشيعة المنفيين اختيارياً بالعودة إلى ديارهم.[36]

عاد الصفار إلى القطيف، وأشرف على حلّ حركة الإصلاح في تشرين الأول-أكتوبر. وبعد ذلك بعامين، في عام 1995، دعا المفتي العام عبد العزيز بن باز الصفار إلى منزله في الرياض، وهو حدث بالغ الأهمية، ولكن في جذورها، لم تهدأ الكراهية الوهَّابية للشيعة على المستوى الديني والشعبي، وظلت تظهر في شكلها الخبيث على مدى العقود القليلة التالية.

مرت طقوس الحج لدى الإيرانيين بسلام في عام 1992 على خلفية تصريح رفسنجاني بأن الجانب السياسي للحج لا يمكن السماح له بالتأثير سلباً في "الأبعاد الأخرى للحج"، مما يعني ضمناً أن هذه الأبعاد روحية[37]. وفي عام 1993، دعا زعيم الحجاج الإيرانيين، محمد محمدي ريشهري الذي عينه رفسنجاني، أتباعه إلى الصلاة مع الإخوة السُنّة في صلاة الجماعة، وبالتالي كسر تقليد الصلاة بشكل منفصل. وقد شجع الاعتدال الإيراني السعوديين على إعادة الحظر الذي فرضوه على تنظيم تجمع للحجاج الإيرانيين. وحتى علي أكبر ناطق نوري، رئيس البرلمان الإيراني المتشدد، أخفق في احتجاجه حين قال: «نعتقد أن [القرار السعودي] كان بسبب ضغوط من الآخرين من الخارج، مما أجبر المملكة العربية السعودية على منع التجمع، ولكن هذا لن يفسح المجال لقطع علاقاتنا. يتعين علينا تحسين علاقاتنا يومياً مع دول المنطقة والدول المجاورة، كما يتعين علينا حل القضايا الثنائية بشكل متبادل»[38]. وقد أدى قبول طهران الهادئ للقيود الأخيرة إلى قيام الحكومة السعودية بتخفيض حصة الحج الإيرانية البالغة 115 ألف حاج إلى النصف في عام 1994.

الملاحظات

1 Pierre Salinger, with Eric Laurent, Secret Dossier: The Hidden Agenda behind the Gul War, Penguin Books, Harmondsworth, UK/Viking Penguin, New York, 1991, pp. 70–75

2 LTC Fred L. Hart Jr., «The Iraqi Invasion of Kuwait: An Eyewitness Account. » http:// www. desertstormartillery. com/eyewitness01. html

3 Ibid

4 Michael S. Casey, The History of Kuwait, Greenwood, Westport, Conn., 2007, p. 89

5 Hart Jr., «The Iraqi Invasion of Kuwait»

6 Gayle Young, United Press International, 28 September 1990, «Iranians protest US mil-itary presence. » http://www. upi. com/Archives/199028/09// Iranians-protest-US- military-presence/5706654494400/)

7 Bob Woodward, The Commanders, Simon & Schuster, New York and London, 1991, p.226

8 Jamal S. Suwaidi (ed.), Iran and the Gulf: A Search for Stability, I. B, Tauris, London and New York, 1996, p. 146

9 Dilip Hiro, Desert Shield to Desert Storm: The Second Gulf War, HarperCollins, London, 1992/ Routledge, New York, 1992, p. 114

10 Lacey, Inside the Kingdom, p. 132

11 وقد استشهد الشيخ صالح الفوزان، وهو وهابي أستاذ شريعة في جامعة الإمام محمد بن سعيد الإسلامية بالرياض، بهذا التصريح في جملة ما استشهد به.

- See Stephen Schwartz, 21 September 2004, «Is Saudi Arabia Holy Soil?» http://www. islamicplural-ism. org/1150/is-saudi-arabia-holy-soil

12 Hiro, Desert Shield to Desert Storm, p. 116.

- والتر بينكوس، خدمة واشنطن بوست، 3 آب/أغسطس 1998، في كتاب »عالم متحول«، الذي شارك في تأليفه جورج بوش الأب وبرنت سكوكروفت، كتب بوش أنه من أجل الحفاظ على سرية الاتفاق بين تشيني والفهد لم يبلغ الكونغرس حتى وصلت القوات بالفعل إلى السعودية. »لم أكن قلقاً بشأن إخطار الكونغرس بقدر قلقي بشأن الوفاء بوعدنا مع السعوديين وإرسال قواتنا إلى مكانها بأمان قدر الإمكان«.

13 Lacey, Inside the Kingdom, p. 133

14 Ibid., p. 130

15 Steve Coll, Washington Post, 16 August 1990, «Saddam Offers to Conclude Full Peace with Iran. » https://www. washingtonpost. com/ archive/politics/199016/08//saddam- offers-to-conclude-full-peace-with-iran/6b87c9d2-e36f-454e-a103–09c112c6f546/?utm_term=. 2f5edba03550

16 Nick Williams, Los Angeles Times, 13 September 1990, «Iranian Ayatollah Urges Holy War Against US Buildup. » http://articles. latimes. com/1990–09–13/news/mn-371_1_ holy-war

17 Gayle Young, United Press International, 28 September 1990. http://www. upi. com/ /199028/09//Iranians-protest-US-military-presence/5706654494400/

18 Hiro, Desert Shield to Desert Storm, p. 326

19 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 206

20 Hiro, Blood of the Earth, p. 179

21 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 207

22 Cited in Middle East International (London), 7 June 1991, p. 11.

23 Judith Miller, God Has Ninety-Nine Names: Reporting from a Militant Middle East, Simon & Schuster, New York, 1996, p. 121

24 Saudi Arabia, per capita GDP (current US $ in 2014). https://www. indexmundi. com/ facts/saudi-arabia/gdp-per-capita

25 Martin Kramer, Sandbox: «Khomeini's messengers in Mecca. » http://

martinkramer. org/sandbox/reader/archives/khomeinis-messengers-in-mecca/

26 Peter W. Wilson and Douglas F. Graham, Saudi Arabia: The Coming Storm, M. E. Sharpe, New York, 1994, p. 118

27 Hiro, Desert Shield to Desert Storm, p. 424

28 Dilip Hiro, Neighbors, Not Friends: Iran and Iraq after the Gulf Wars, Routledge, London and New York, 2001, p. 196, citing the Economist, 5 December 1992, pp. 39–40

29 Hiro, Blood of the Earth: The Battle for the World's Vanishing Oil Resources, Nation Books, New York, 2007/ Methuen, London, 2008, p. 130

30 Cited in Samuel P. Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, Simon & Schuster, New York, 1996, p. 249

31 Hiro, Desert Shield to Desert Storm, Paladin, London, 1992/Routledge, New York, 1992, p. 423.

32 New York Times, 27 May 1991 and 6 July 1991

33 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 136

34 Ibid., p. 466

35 Toby Matthiesen, The Other Saudis: Shiism, Dissent and Sectarianism, Cambridge University Press, Cambridge and New York, 2014, pp. 156 and 159

36 Vali Nasr, The Shia Revival: How Conflicts within Islam Will Shape the Future, W. W. Norton, New York, 2007, p. 238

37 Martin Kramer, Sandbox: «Khomeini's messengers in Mecca. » http:// martinkramer. org/sandbox/reader/archives/khomeinis-messengers-in-mecca/

38 Ibid

الفصل التاسع

انفراج سعودي إيراني

كان الملك خالد شغوفاً بالصقور، وقد قام بتربيتها وتدريبها على الصيد، ولكن المعروف على نطاق واسع هو شغف النائب الثاني لرئيس الوزراء، عبد الله بن عبد العزيز، بالخيول. فبعد أن تعلم الفروسية في صغره، واصل العناية ببعض خيوله وتدريبها وحتى تنعيلها في شبابه، ثم أسس نادي الفروسية في الرياض عام 1965. وبعد سنوات عديدة كانت إسطبلاته، في مزرعته الجنادرية المترامية الأطراف على الأطراف الخارجية للمدينة، تحتوي على ما يصل إلى 1000 حصان في إسطبلات مكيفة، فكانت الأقسام المختلفة للمجمع تركز على تربية الخيول والسباقات وقفز الحواجز. وكان معروفاً عنه أنه يسترخي عند تقييم صغار الخيول الأصيلة، وقد سُمع وهو يقول للضيوف: إن «صهيلهم بمنزلة موسيقى لأذنيّ».[1]

كان يحتفظ بمكان إقامة ومكتب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في المجمع، وكثيراً ما كان يستضيف كبار الشخصيات الزائرة هناك، وكان الرئيسان الأميركيان جورج دبليو بوش وباراك أوباما ضيفيه هناك على التوالي في كانون الثاني-يناير 2008 وحزيران-ويونيو 2009. وعندما سأله جون برينان مستشار أوباما لمكافحة الإرهاب عما إذا كان قد قضى وقتاً مع خيوله، رفع عبد الله يديه متذمراً، وقال: «أراها على شاشة التلفاز عندما تتسابق»، وأضاف: «أنا أحب الخيول. أتمكن من رؤيتها كل أسبوعين، وبعد ذلك أنام نوماً هادئاً ومريحاً للغاية.[2]

كان عبد الله قريباً من القبائل، وكان ذا روح بدوية، ووَفقاً للتقاليد البدوية، كان عبد الله من دعاة المساواة بين الناس. وقد كان من عادة أفراد العائلة المالكة أن يستقبلوا الملتمسين كل مساء في قصورهم. وبمرور الوقت لجأ عامة الناس إلى أشكال متطرفة من الاحترام لأفراد العائلة المالكة، حيث حاولوا تقبيل الأيدي أثناء البكاء في الدعاء. كان البدوي في عبد الله يكره رؤية الرجال البالغين وهم يتذللون. وقف عبد الله، مسلحاً بعصا جمل رفيعة من الخيزران، في مقدمة صف مقدم الالتماس. وكان يحبط أي محاولة لتقبيل يده أو السجود بالنقر على رأس الداعي، أو يده، أو أي جزء آخر من جسده. عادته للخلوات في معسكره

الصحراوي، روضة الخريم بالقرب من الرياض، ميّزته عن غيره من كبار الأمراء الذين كانوا يقضون الصيف في قصورهم على البحر الأبيض المتوسط.

قبل زواجها من ابن سعود، ترملت أم عبد الله بعد معركة دارت بين ابن سعود ومنافسه محمد بن راشد من قبيلة شمر عام 1921. وللتصالح مع خصمه المهزوم، تزوج ابن سعود من فهدة بنت عاصي الشريم من قبيلة شمر. بعد عامين، أنجبت له ولده عبد الله، وبعد فترة وجيزة أنجبت زوجته الثانية، حصة بنت أحمد السديري، إخوة عبد الله.

تعرض عبد الله للإهمال خاصة بعد وفاة والدته عندما كان في السادسة من عمره. وفي السنوات اللاحقة، كان عبد الله يعزو تلعثمه إلى التوبيخ الشديد الذي تلقاه من والده المستبد عبد العزيز، على شيء كان يسبب له الإزعاج؛ وهكذا أصبح عبد الله معروفاً لدى منتقديه بالفارس المتلعثم.

وقد أشاد عدد أكبر من المعجبين به بالدور الحاسم الذي لعبه في المعركة الملكية بين الملك سعود ومنافسه فيصل، ولي العهد ورئيس الوزراء، في عام 1964 كما هو موضح في فصل سابق.

الحرس الوطني السعودي قوة لمواجهة كل الاحتمالات

كان الحرس الوطني، وهو قوة مسلحة مكونة من أكثر قبائل نجد ولاءً، هو الاسم الجديد الذي أطلق على الحرس الأبيض، الذي شُكِّل عام 1932، بعد حلّ جماعة الإخوان التي أسسها ابن سعود. وقد نشأت الحاجة إلى إعادة تسمية هذه القوة وإعادة تسليحها وتدريبها، لتديرها وزارتها الخاصة، عقب إطاحة النظام الملكي في شمالي اليمن في أيلول-سبتمبر 1962، وأعيد تعريف مهمتها على أنها صد التهديدات الداخلية والخارجية، على حد سواء، للنظام الملكي السعودي. كان أفراد الحرس الوطني متمركزين خارج المراكز الحضرية الرئيسة، وكان ضباطه من خارج العائلة الملكية هم الأكثر تدليلاً. وفي المقابل وُضِعت حاميات الجيش عمداً بعيداً عن المدن وبالقرب من الحدود. وهكذا: كان الحرس الوطني، الذي زُوِّد بسخاء بالصواريخ المضادة للدبابات والقذائف المضادة للطائرات، مجهزاً بشكل إستراتيجي لمنع القوات المتمردة من التقدم من الحاميات البعيدة، ولإسقاط الطائرات الحربية التي تقلع من القواعد الجوية بالقرب من الحدود.

ومن حيث هو القوة المسلحة الأكثر موثوقية في المملكة يتعامل الحرس الوطني مع أي شيء يهدد النظام عن بُعد، سواء كان ذلك إضراباً، أو مظاهرة، أو ثورة قبلية، أو سخطاً في

الجيش، ولذلك لم يكن مستغرباً أن تكون في طليعة قمع الانتفاضة التي قام بها المتشددون الوهَّابيون في مكة، والمظاهرات المتحدّية التي قام بها الشيعة في المنطقة الشرقية في تشرين الثاني-نوفمبر 1979.

ابتداءً من أوائل الثمانينيات أشرف عبد الله على عملية إعادة تنظيم وإعادة تدريب شاملة للحرس الوطني من قبل البنتاغون بالإضافة إلى مقاولي الدفاع الأمريكيين من القطاع الخاص. وقد جرى تسريع هذا البرنامج بعد حرب الخليج عام 1991. ومن ثَم استهدف إرهابيو تنظيم القاعدة المناهضون للنظام المكتب الأمريكي لمدير البرنامج المسؤول عن تحديث الحرس الوطني في الرياض، مما أسفر عن مقتل خمسة ضباط أمريكيين. وكان قوام الحرس الوطني في ذلك الوقت يبلغ 57.000 فرداً، بالإضافة إلى 20.000 جندي قَبَلي في الاحتياط. وبالمقارنة، كان الجيش النظامي يضم 70 ألف جندي.[3]

طوال الوقت كان عبد الله يواصل تحقيق هدفه الشامل المتمثل في تحويل الحرس الوطني إلى كيان متكامل ومكتفٍ بذاته مع بُنية تحتية مدنية واسعة النطاق من المدارس والمستشفيات والمستعمرات السكنية. وقال عبد الرحمن أبو حيمد، نائب قائد الحرس الوطني السعودي لمدة أربعة وعشرين عاماً: «لقد رأى [عبد الله] في الحرس في المقام الأول وسيلة لتطوير السعوديين وتثقيفهم»، وأضاف: «إن مستشفياتنا، ومدارسنا، ومساكننا، وتدريبنا، كل شيء يجب أن يكون الأفضل على الإطلاق، وكان يصر على اختبار النماذج الأولية للوحدات السكنية المختلفة للتأكد من أن الأسر ستكون سعيدة بها».[4]

أمر عبد الله بأن تضم كل قاعدة حرس وحدات تعليمية نشطة للكبار، كما واصل مقاومة أي محاولة لدمج الحرس الوطني مع الجيش النظامي. ولم يؤكد السديريون السبعة الأقوياء هذه النقطة. لقد كانوا يدركون جيداً أن الحرس الوطني هو الضامن النهائي لبقاء آل سعود، كما قبلوا التكافؤ في ميزان القوى في العائلة المالكة الذي جلبه قائد الحرس غير السديري. ومن جانبه، عندما وجد عبد الله ولي العهد الإخوان السديريين قد استبعدوه عند اتخاذ قرار بشأن السياسة الرفيعة المستوى، اختار عدم الاحتجاج، بينما لم يتحمل أي تدخل في إدارة الحرس الوطني.

الحرس الثوري الإسلامي، الضامن الأول للنظام الإيراني

بعد صدور مرسوم آية الله روح الله الخميني في 6 أيار-مايو 1979 بتشكيل الحرس الثوري الإسلامي لحماية الثورة، ظهر الحرس الثوري إلى حيز الوجود في 16 حزيران-يونيو. وساعد

الحرس الثوري الإيراني في قمع المقاومة المسلحة والمظاهرات الاحتجاجية التي قام بها العرب (في خوزستان الغنية بالنفط) والأكراد للمطالبة بالحكم الذاتي الإقليمي. ومن أجل الحفاظ على الأمن الداخلي قامت بكبح أنشطة الجماعات اليسارية التي شاركت في وقت سابق بنشاط في الحركة المناهضة للملكية، كما ساعدت السلطات المدنية على تطهير جميع العناصر غير الإسلامية من الخدمة المدنية والعسكرية وصناعة النفط.

بعد استقالة حكومة مهدي بازركان في أعقاب استيلاء الطلاب المتطرفين على السفارة الأمريكية في طهران، في 4 تشرين الثاني- نوفمبر 1979، قام الحرس الثوري الإيراني بتسريع حملة تطهير الجيش النظامي من الضباط غير الموالين للنظام الثوري، وقال عباس زماني، قائد الحرس الثوري الإيراني: «الجيش الإيراني... لا يزال لديه منظمة ملكية لا علاقة لها على الإطلاق بالنظام الإسلامي الثوري الحالي». ومن الواضح أن هناك مجالاً واسعاً لإجراء عملية تطهير في الجيش.

وفي الذكرى الأولى للثورة في شباط-فبراير 1980 أعلن وزير الدفاع مصطفى علي شمران أن 7500 عسكري، معظمهم من الرتب العليا، قد فُصلوا خلال الشهرين الماضيين، لكن ذلك لم يكن كافيا لأن كل ضابط تلقى تدريباً عسكرياً في البنتاغون كان موضع شك، وقد وصل عددهم إلى آلاف عدة. وفي وقت لاحق منح الدستور سلطة تعيين قائد الحرس الثوري الإيراني للمرشد الأعلى الذي يجسّد الثورة.

بعد وقت قصير من استيلاء الطلاب المسلحين على السفارة الأمريكية أصدر الخميني مرسوماً بتأسيس ميليشيا تطوعية شبه عسكرية عرفت باسم "الباسيج" (المقاومة). وقد أُسست في نيسان-أبريل 1980، وكانت مفتوحة للذكور دون سن الثامنة عشرة ومن هم فوق الخامسة والأربعين، وكذلك للنساء. واستخدم النظام مساجد البلاد البالغ عددها 9000 مسجداً كمراكز تجنيد للباسيج والحرس الثوري الإيراني. وكان معظم الذين انضموا قد نشؤوا في الأحياء الفقيرة. ومع اندلاع الحرب مع العراق، في أيلول-سبتمبر 1980، جُنِّد الحرس الثوري الإيراني في الحرب التقليدية، وقد حظيت إنجازاته في ساحة المعركة بتغطية أكبر في الإذاعة والتلفاز الذي تديره الدولة مقارنة بإنجازات الجيش.

ولإحباط أي منافسة ناشئة بين الحرس الثوري الإيراني والباسيج، قام المجلس بدمج الباسيج في الحرس الثوري الإيراني في شباط-فبراير 1981، وبالتالي تحويله إلى منظمة مساعدة للمنظمة الأقدم والأكثر قوة. في البداية كُلِّفت قوات الباسيج بمساعدة الأمن الداخلي وإنفاذ القانون، وتقديم الخدمات الاجتماعية، وتنظيم الاحتفالات الدينية، والعمل كشرطة للأخلاق.

وعلى الصعيد السياسي، مع بداية عام 1981، تصاعدت التوترات بين الرئيس أبو الحسن بني صدر، الذي كان يدين بنجاحه في السباق الرئاسي إلى الدعم الذي قدمه له الخميني، ومجلس الشورى الإسلامي الذي يهيمن عليه الحزب الجمهوري الإسلامي. وحاول بني صدر تعزيز قاعدته الخاصة لكنه فشل، ثم اقترب من منظمة مجاهدي خلق اليسارية، (بالفارسية: مجاهدي خلق) التي يقودها مسعود رجوي، وحين رفض مجاهدو خلق تسليم أسلحتهم للنظام الإسلامي، دخلوا في صراع مع الخميني.

لإحباط تحرك البرلمانيين الإيرانيين لإقالة بني صدر قامت منظمة مجاهدي خلق وغيرها من الجماعات اليسارية والعلمانية الأصغر حجماً بإحضار 200.000 من أنصار بني الصدر إلى وسط طهران في 19 حزيران-يونيو 1981، ونشرت الحكومة قوات الحرس الثوري الإيراني لتفريق المظاهرة. وفي المناوشات العنيفة التي تلت ذلك قُتل ثلاثون شخصاً، بينهم أربعة عشر حارساً.[5] وفي اليوم التالي، أقيل بني صدر بأغلبية 177 صوتاً مقابل صوت واحد؛ لقد عزله الخميني. مع تلك الحرب المفتوحة التي اندلعت بين الحكومة ومجاهدي خلق. وفي أواخر تموز-يوليو سافر بني صدر ورجوي سراً إلى باريس.

وضع رجوي خطة سياسية اقتصادية لإطاحة النظام، وقد تضمنت إضعاف المجلس من خلال اغتيال قادة الحزب الجمهوري، وإضعاف الحرس الثوري الإيراني من خلال الهجمات المتكررة، وعزل طهران من خلال ضرب حركة السكك الحديدية والحافلات، وتدمير الاحتياطيات الغذائية عن طريق حرق صوامع التخزين. وزعم المقر الرئيسي لمنظمة مجاهدي خلق في باريس أنه خلال الشهرين، منذ 20 حزيران- يونيو، قتل نشطاء الحزب 500 من أفراد الحرس الثوري الإيراني و40 نائباً في المجلس.[6] كان على الحرس الثوري الإيراني أن يلعب دوراً حاسماً في إحباط إستراتيجية مجاهدي خلق بينما لجأت الحكومة إلى إعدام سجناء مجاهدي خلق. وقام الحرس الثوري الإيراني بحراسة جميع المباني الحكومية والثورية، التي كانت مضاءة بالأضواء الكاشفة ليلاً.

وفي 8 شباط-فبراير 1982 أغار الحرس الثوري الإيراني على مقر لمجاهدي خلق في طهران، وقتل عشرة من أعضاء اللجنة المركزية للمنظمة، وبالتالي قطع رأس قيادتها، وقد أدى هذا إلى إنهاء مجاهدي خلق فعلياً. وبحلول ذلك الوقت زعمت أنها قتلت 1200 من القادة الدينيين والسياسيين للنظام. وقدرت الحكومة عدد أعضاء مجاهدي خلق الذين أعدمتهم بـ 4000، في حين توصل مجاهدو خلق إلى ضعف ذلك الرقم.[7]

كان الحرس الثوري الإيراني والباسيج جزءاً من إستراتيجية الموجة البشرية الإيرانية،

التي شملت 200 ألف مقاتل. ومن خلال تنظيم سلسلة من الموجات البشرية على الجبهات المركزية نجح الإيرانيون في تطويق القوات العراقية، ودمروا ثلاث فرق عراقية مدرعة، واستعادوا 24500 كيلومتر مربع من الأراضي الإيرانية. تضمن هذا التكتيك دفع موجات للأمام قوامها حوالي 1000 مقاتل، وقاذفات قنابل صاروخية على مسافات تتراوح بين 200 إلى 300 متر بهدف استنفاد إمدادات الذخيرة للقوات العراقية ومن ثم التغلب عليها.[8]

وخلال العام التالي قام بذلك حوالي خُمس المتطوعين البالغ عددهم 2.4 مليون متطوع، وفي كثير من الأحيان، تطوع أعضاء الباسيج الشباب للعمل كطلائع في تكتيكات الموجات البشرية التي استخدمها الإيرانيون ضد العدو، وقاموا بمهامَّ خطيرة مثل إزالة الألغام. لقد نشأ المراهقون في بيئة مليئة بالحماسة الثورية، وكانوا أكثر إخلاصاً للإسلام من الذكور البالغين. ويفسر هذا، إلى جانب جرأة المراهقين والنظرة الرومانسية للحرب، رغبتهم في الوجود في خط المواجهة. وقد قال أحد المتطوعين الذين ذهبوا إلى الجبهة: «بالنسبة لهم، الحرب مثل الفيلم حيث يمر الرصاص من أمامهم، ولكنه لا يصيبهم»، وأضاف: «إنهم مفتولو العضلات حتى إنهم لا يرتدون الخوذات، ويجري تفجيرهم، ولكنهم يشعرون أنهم في طريقهم إلى الجنة».[9] وليس من المستغرب أن يكون معدل الوفيات بينهم مرتفعاً جداً.

وفي الوقت نفسه شكّل الحرس الثوري الإيراني، بعد إنشاء وزارته الخاصة، فرقة نخبة لغرض محدد هو حماية طهران من الانقلاب العسكري المحتمل، وقد أتاحت الحرب فرصة للحرس الثوري الإيراني لاكتساب خبرة قتالية وإتقان التعامل مع الأسلحة الثقيلة والطائرات. وفي ربيع عام 1982 كان قوام الحرس الثوري الإيراني يبلغ 170 ألف جندي، وكان يضم قوات برية وجوية. وظلت القوة القتالية الأكثر موثوقية وفعالية لدى النظام.[10]

وخلال مرحلة حرب الناقلات، التي بدأت في عام 1984 في الصراع العسكري الإيراني العراقي، قامت طهران بدمج الزوارق السريعة التابعة لبحرية الحرس الثوري الإيراني بالألغام البحرية، وصواريخ كروز الأرضية المضادة للسفن، والطائرات لمهاجمة سفن الناقلات المدنية في الخليج لتقويض عدوها العراق. وكانت المهمة المحددة لبحرية الحرس الثوري الإيراني هي نشر تكتيكات الأسراب والزوارق السريعة لمضايقة ناقلات النفط قبالة الكويت والمملكة العربية السعودية.

وبحلول الوقت الذي انتهت فيه الحرب الإيرانية العراقية، في عام 1988، كان لدى البحرية التابعة للحرس الثوري الإيراني مخزون كبير من زوارق الهجوم السريعة الصغيرة والأفراد

المسلحين المتخصصين في تكتيكات الكر والفر في البحر، كما كان لديها ترسانة كبيرة من صواريخ الدفاع الساحلي وصواريخ كروز المضادة للسفن والألغام.

وفي المحصلة، بحلول أواخر الثمانينيات أثبت الحرس الثوري الإيراني قوته في الحفاظ على الأمن الداخلي ومحاربة عدو خارجي. وبهذا المعنى كان الحرس الثوري الإيراني الذي دام عشر سنوات متفوقاً على الحرس الوطني السعودي الذي دربته الولايات المتحدة والذي يعود تاريخه إلى تأسيس المملكة في عام 1932. وكان لدى الحرس الثوري الإيراني إدارة سياسية أيديولوجية كما هي الحال مع الجيش الإيراني، وكان الملالي المُلحقون بكل قاعدة من قواعد الحرس الثوري الإيراني يتولَّون تنفيذ مهمة غرس الأيديولوجية الإسلامية في صفوف الحرس الثوري، كما حددها الخميني، وذلك من خلال الخطب الأسبوعية، وكان هذا على النقيض مما كان سائداً في المملكة العربية السعودية. فهناك وقع التركيز على إقناع الأفراد في الجيش وكذلك الحرس الوطني بأن يكونوا موالين لآل سعود، الذين اعتمدوا شرعيتهم على موافقة مجلس كبار العلماء الذي تعينه الدولة.

لقد نبعت هذه الاختلافات من الظروف المتباينة التي أصبح فيها النظامان، اللذان يدّعيان الشرعية الإسلامية، لاعبين رئيسيين في الخليج؛ فبعد عشرة أعوام محمومة من تغطية أحداث الحركة الثورية، وتأسيس الجمهورية الإسلامية، وشنِّ أطول حرب تقليدية في القرن العشرين، ووفاة الخميني، كان الإيرانيون يتوقون إلى الحياة الطبيعية، وإعادة البناء، والتعايش السلمي مع الجيران. إن الرئيس المنتخب حديثاً علي أكبر رفسنجاني، الذي وضع يده على نبض الأمة، سجّل المزاج الوطني، وتصرف وفقاً لذلك، مركِّزاً في البداية على الاقتصاد وإعادة الإعمار.

رفسنجاني والاعتدال البراغماتي

ارتفع معدل النمو السنوي في إيران في الفترة 1990-1991 إلى 10.5 % نتيجة للتحرير الاقتصادي الذي أدخله الرئيس علي أكبر رفسنجاني، بينما انخفض معدل التضخم إلى 8 %. وبتوجيهٍ منه قام المجلس بدمج الشرطة، والدرك، واللجان الثورية في قوات إنفاذ القانون. وفي شباط-فبراير 1992، بناءً على طلب منه، أصدر المرشد الأعلى آية الله علي خامنئي مرسوماً بضرورة أن يكون هناك رئيس واحد للجيش والحرس الثوري الإيراني يُسمى رئيس أركان القيادة العامة للقوات المسلحة.

وفي المنطقة مرّ موسم الحج في مكة في أواخر أيار-مايو 1993 بسلام مع امتناع الحجاج الإيرانيين عن تنظيم أي مظاهرات. وبعد أسبوعين فاز رفسنجاني في الانتخابات الرئاسية،

وإنْ حصل على 64 % من الأصوات مقارنة بـ 94 % في الاستطلاع السابق. وبعد إعادة انتخابه، حوّل اهتمامه إلى تحسين العلاقات مع المملكة العربية السعودية حيث كان عبد الله بن عبد العزيز آل سعود ولياً للعهد.

وبوصفه ثمرة اتحاد بين سلالتين متنافستين -آل سعود (الأب) والرشيد (الأم)- كان عبد الله بطبيعته مصالحاً، وكان ملتزماً بنزع فتيل التوترات الداخلية من خلال التوفيق بين المعارضين السياسيين والدينيين في الداخل، وبدا على القدر نفسه من الاستعداد لدفن الأحقاد مع الجمهورية الإسلامية، ووجد أرضية مشتركة مع رفسنجاني حيث استبعد كلاهما إقامة علاقات ودية مع العراق مادام صدام حسين رئيساً.

في 23 أيار-مايو 1994، أودى تدافع الحجاج خلال مراسم رمي الجمرات في مِنى بحياة 270 شخصاً. لم يكن للإيرانيين يد في هذه الحادثة، ولم تلجأ إلى استغلالها بل آثرت السلام. وبُعيد هذه الحادثة، أوفد رفسنجاني ابنه مهدي رفسنجاني للتشاور مع ولي العهد الأمير عبد الله في منتجعه الصيفي في الدار البيضاء بالمغرب، برفقة سفير إيران لدى ألمانيا حسين موسويان، وقد استعرضوا جوانب عديدة من العلاقات السعودية الإيرانية مع عبد الله على مدى أربعة أيام، وقد أطلعوا رفسنجاني في طهران.

وبعد أن رأى عبد الله أن التبادل التمهيدي كان مرضياً دعا موسويان ومهدي رفسنجاني إلى جدة لإجراء مزيد من المحادثات. وقد عقد محاوروه جلسات في وقت متأخر من الليل ليناسب ذلك نمط عمل عبد الله؛ فقد كان من عادته أن يقسم نومه قسمين: بين نصف الليل وصلاة الفجر، وقيلولة طويلة بعد الظهر.

واتفق الثلاثة على أن العراق هو أحد أركان المثلث الإستراتيجي، والزاويتان الأخريان هما إيران والسعودية، وأن العراق المستقر هو في مصلحة الرياض وطهران. وعندما أشار عبد الله إلى تدخل إيران في سياسة المنطقة الشرقية، ألمح موسويان إلى تدخل السعوديين في مقاطعة سيستان-بلوشستان الإيرانية ذات الأغلبية السُنية. واتفق المجتمعون على عقد اجتماعات مرتين سنوياً بين وزراء خارجية بلدانهم، وتبادل سنوي للزيارات بين رؤساء الدول، كما اتفقوا على تشكيل لجنة أمنية مشتركة. ومن باب حسن النية قام عبد الله بتقديم هدية كانت عبارة عن قطعة من الكسوة، وهي القماش الأسود والذهبي الذي يغطي الكعبة المشرفة والذي يتجدد كل عام.

وقد أطلع موسويان رفسنجاني على ما اتفق عليه مع عبد الله، ولكن، خلال لقائهما القصير مع الملك فهد المريض، تعرض موسويان ومهدي رفسنجاني لتحذير مهم، إذ أخبرهم

فهد أن المملكة لن تسعى إلى بناء علاقات طبيعية مع إيران إذا كان ذلك من شأنه أن يقوّض مصالح الرياض الإستراتيجية مع "دولة أخرى"، في إشارة مقنّعة إلى الولايات المتحدة. ثم أدى كبار الشخصيات الإيرانية مناسك العمرة في مكة كضيوف على عبد الله.

وفي طهران التقى الرئيس رفسنجاني وموسويان مع المرشد الأعلى خامنئي، الذي وافق على الصفقة التي أُبرِمت مع السعوديين، وقد تأثر حين علم أن عبد الله خطط لبناء منزل صيفي لعائلته بالقرب من بحر قزوين. ومضى ليشتري قطعة أرض هناك، لكن قصراً أميرياً لم يُنشأ. وفي هذه الأثناء زارت عائلة عبد الله إيران، وقامت عائلة رفسنجاني برحلة إلى المملكة العربية السعودية.[11]

في ضوء هذه الأحداث، عقدت منظمة المؤتمر الإسلامي في الدار البيضاء، قمتها السابعة في كانون الأول-ديسمبر 1994، عُقد اجتماعها المقبل في طهران، وهو اجتماع يعقد بصفة دورية كل ثلاث سنوات، وجاء ذلك بناء على طلب المملكة العربية السعودية.

وفي سياق الديناميات الداخلية لصنع السياسة السعودية أظهر هذا التطور أنه، في الجدل الدائر في التسعينيات حول موقف المملكة تجاه إيران، انتصر عبد الله على وزير الدفاع الأمير سلطان بن عبد العزيز الذي دافع عن سياسة نشطة مناهضة لطهران جنباً إلى جنب مع نجله الأمير بندر الذي كان آنذاك سفيراً للسعودية لدى الولايات المتحدة، وقد توافقت دعوتهما مع موقف إدارة الرئيس بِل كلينتون في المنطقة، والذي يتلخص في مبدأ الاحتواء المزدوج الذي جرى تبنيه في أيار-مايو 1993. و«يشتق مصطلح "الاحتواء المزدوج" من تقييم مفاده أن النظامين العراقي والإيراني الحاليين معاديان للمصالح الأميركية في المنطقة». كما أوضح مارتن إنديك، المساعد الخاص لرئيس شؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا، الذي أضاف: «وبناء على ذلك، فإننا لا نقبل الحجة القائلة بأننا يجب أن نستمر في لعبة توازن القوى القديمة، بمعنى دعم قوة من القوتين إلى أن تصبح موازية للأخرى».[12]

ومع تصميمه على لعب دور المصالحة في المنطقة، اختار عبد الله مواصلة المشاركة الإيجابية مع إيران حتى على حساب استياء واشنطن. وبعد أن أصبح الوصي الفعلي، في أعقاب السكتة الدماغية التي أصيب بها فهد في 19 تشرين الثاني-نوفمبر 1995، غدت علاقات الرياض مع طهران أكثر دفئاً.

تفجير أبراج الخُبر

في 25 حزيران-يونيو 1996 فجّر الإرهابيون شاحنة صهريج وقود متوقفة بالقرب من مجمع سكني منخفض الجدران مكون من ثمانية طوابق، يسمى أبراج الخُبر، ويضم أفراد

القوات الجوية الأمريكية وعائلاتهم بجوار قاعدة الملك عبد العزيز الجوية بالقرب من الظهران، وقد دمر الانفجار القوي واجهة أحد البرجين، مما أسفر عن مقتل تسعة عشر طياراً وإصابة 372.[13]

سلّط هذا الهجوم الضوء على وجود القوات الأمريكية في المملكة، وهو ما شبهه العديد من السعوديين بالوجود السوفييتي في أفغانستان. في الثمانينيات، وقد ألقى بظلاله على تحسن العلاقات السعودية الإيرانية بعد أن حمّلت واشنطن طهران مسؤولية الهجوم. ومع ذلك، وفي غياب الأدلة القاطعة التي قدّمتها الولايات المتحدة، اختار عبد الله، الوصي الفعلي للمملكة، التقليل من أهمية الحادث.

بعد الحادثة، نقلت الحكومة السعودية طائرات وأفراد الجيش الأمريكي إلى قاعدة الأمير سلطان الجوية في منطقة الخرج، وهي منطقة صحراوية على بعد ستين ميلاً جنوبي الرياض، في منطقة أصبحت مركز القيادة الجوية للبنتاغون في الشرق الأوسط، حيث سيفتضح لاحقاً وجود القوات الأمريكية في فضيحة ستسبب إحراجاً شديداً للحكومة.

ووفقاً لبروس ريدل، نائب مساعد وزير الدفاع الأمريكي، الذي وصل إلى مكان الحادث المدمر في غضون ساعات، فإن كبار المسؤولين السعوديين في الظهران ألقوا بالمسؤولية على أحمد إبراهيم المغسل، وهو شيعي من القطيف، وكان القائد العسكري لحزب الله الحجاز[*]، والذي كانت تراقبه المخابرات السعودية، وقد اختارته الحكومة الإيرانية أولًا لتحديد المنشآت الأمريكية في المملكة، ثم لتدبير هجوم إرهابي على منشأة عسكرية رفيعة المستوى بالتنسيق مع الحرس الثوري الإيراني وحزب الله اللبناني، وهو ميليشيا شيعية. وقد بدأ مراقبة أبراج الخُبر وقاعدة الملك عبد العزيز الجوية القريبة في أوائل عام 1994، وتنقّل بين المنطقة الشرقية ودمشق ولبنان مع الحفاظ على اتصال وثيق مع مشرفيه الإيرانيين. ووفقاً للائحة الاتهام الصادرة عن وزارة العدل الأمريكية في عام 2001، فقد أجرى أحمد المغسل عدة زيارات إلى الظهران للإشراف على تجنيد الشيعة المحليين لتنفيذ الهجوم. ومن المرجّح أن القنبلة التي يبلغ وزنها عشرة أطنان قد صنعها خبير في حزب الله اللبناني.

وفي اليوم المحدد أوقف أحمد المغسل الشاحنة التي تحتوي على قنبلة ضخمة بالقرب

(*) حزب الله الحجاز أو أتباع خط الإمام ويُعرف في الإعلام الأمريكي والغربي بحزب الله السعودي، هو منظمة عسكرية أُنشأت بعد حادثة مكة 1987 بسبب رفض منظمة الثورة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية القيام بأي نشاط مسلح أو أعمال عنف داخل المملكة العربية السعودية بناء على طلب من جمهورية إيران الإسلامية [المترجم].

من الجدار الوقائي المنخفض لأبراج الخُبر. وكان الانفجار الذي أحدثه بجهاز التحكم عن بعد قوياً للغاية لدرجة أن الجدار الأمامي للبرج السكني قد انهار، ويقال: إنه فرّ إلى إيران.

وقد مُنعت الولايات المتحدة في تحقيقها من التعاون الكامل من قبل الرياض، حيث اعتقد ولي العهد الأمير عبد الله -في تقدير ريدل- مؤيداً بأدلة قوية على تورط طهران، أن الرئيس الأمريكي كلينتون سيأمر بضربات جوية على أهداف إيرانية مما سيؤدي بدوره إلى ضربات جوية إيرانية انتقامية على السعودية. وكان لوزير داخلية المملكة الأمير نايف بن عبد العزيز أسبابه الخاصة لعدم مشاركة كل المعلومات المتعلقة بحزب الله الحجاز مع الأميركيين، خشية أن يؤدي ذلك إلى كشف نقاط الضعف في وزارته.

ومع ذلك حققت إدارة كلينتون تقدماً كافياً في تحقيقاتها بحلول حزيران-يونيو 1999، حيث أبلغت طهران، عبر وساطة السلطان قابوس، أن لديها معلومات موثوقة جمعها مكتب التحقيقات الفيدرالي تفيد بأن الحرس الثوري الإيراني وحزب الله اللبناني متورطان في الهجوم الإرهابي. وقد نفت الحكومة الإيرانية أي تورط لها، وأضافت، بشكل غريب، أنها واثقة من أنه لن يكون هناك المزيد من الهجمات. وهذا لم يرضِ واشنطن، وردّ كلينتون بإصدار تعليماته لوكالة المخابرات المركزية بكشف الغطاء عن جميع ضباط الحرس الثوري والمخابرات الإيرانية في جميع أنحاء العالم؛ في خطوة تبين أنها أوجعت طهران.[14]

الإيرانيون يدعمون الإصلاحي خاتمي

شكَّل فوز رجل الدين الإصلاحي محمد خاتمي في الانتخابات الرئاسية الجارية في أيار-مايو 1997 على منافسه المحافظ المقرب من خامنئي،[*] مفاجأة مطمئنة للحكومة السعودية، وقد لاقى انتصاره المفاجئ ترحيباً في الغرب أيضاً؛ فقد قالت مادلين أولبرايت التي تولت وزارة الخارجية منذ كانون الثاني-يناير1997 خلفاً لوارن كريستوفر الذي عُرف بعدائه الشديد لإيران عندما كان نائباً لوزير الخارجية في عهد إدارة كارتر على خلفية أزمة الرهائن: «من الواضح أن هذه كانت انتخابات مثيرة للاهتمام في إيران لم يتوقعها الإيرانيون وكذلك لم يتوقعها أولئك الذين يتابعون إيران».[15] وفي عهد أولبرايت تبنّت واشنطن سياسة "الردود الموازية"، ووعدت برد أمريكي إيجابي على أي لفتة ودية من جانب طهران؛ وبهذا رأى صناع السياسة السعوديون فرصة سانحة لتحسين العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران.

(*) كان المنافس المقصود على الرئاسة الإيرانية مع محمد خاتمي أبان انتخابات 1997 هو الأصولي علي أكبر ناطق نوري [المركز].

وقد لقي التعليق الإيجابي لكلينتون وأولبرايت على انتخاب خاتمي استحسان أفراد العائلة المالكة السعودية الذين كانوا سعداء أيضاً بملاحظة أن خاتمي احتفظ بالعديد من وزراء رفسنجاني ومستشاريه لإدارة فريقه. وكان قرار خامنئي بتعيين رفسنجاني رئيساً لمجلس تشخيص مصلحة النظام، المكلف بتسوية الخلافات بين الرئيس ومجلس الشورى،(*) علامة إيجابية أخرى بالنسبة للرياض. وبعد شهر من أداء خاتمي اليمين كرئيس، في آب-أغسطس، سمحت السعودية لشركة الطيران الإيرانية باستئناف رحلاتها إلى المملكة.

وسوف يجمع خاتمي بين سياسة الانفراج في المنطقة وحملة من أجل حوار دولي أوسع، وقد قُبِلت دعوته إلى الأمم المتحدة خلال خطابه في أيلول-سبتمبر 1998 أمام الجمعية العامة لإعلان عام "للحوار بين الحضارات" مع تسمية عام 2001 بهذا الاسم.(16)

كان خاتمي رجلاً متعدد اللغات، وقد وُلد في منزل السيد أحمد خاتمي، سليل النبي محمد، في مدينة يزد وسط إيران، وبعد حصوله على شهادة في الفلسفة الغربية من جامعة أصفهان حصل على الماجستير في التربية من جامعة طهران، وبعد ذلك، وفقاً لما يقتضيه القانون، جُنِّد في الجيش الإمبراطوري حيث خدم برتبة ملازم ثاني لمدة عامين، ثم أمضى سبع سنوات في دراسة العلوم الإسلامية في مدينة قم المقدسة، وتأهل كمجتهد، وهو الذي يطبق الاستدلال التفسيري للشريعة. وفي عام 1978 أرسلته المؤسسة الدينية في قم إلى هامبورغ ليرأس المركز الإسلامي الذي كان يدير مسجداً شيعياً، فتعلم الألمانية والإنجليزية هناك. وكان عضواً في جمعية رجال الدين المناضلين. وبعد الثورة أُنتخب عضواً في المجلس الأول، وعيّنه آية الله روح الله الخميني رئيساً لصحف كيهان التي تديرها الدولة. وفي عام 1982 عُيِّن وزيراً للثقافة والإرشاد الإسلامي. ولكنه ما لبث أن استقال عقب اعتراض المجلس المنتخب سنة 1992 على آرائه الليبرالية، ثم عيّنه الرئيس رفسنجاني مستشاراً للمكتب الرئاسي، بينما كان يشغل أيضاً منصب رئيس المكتبة الوطنية. إن سيرة ذاتية كهذه جديرة من بأن تثير إعجاب الزعماء الدينيين والعلمانيين في العواصم الأجنبية.

وفي 26 تشرين الثاني-نوفمبر 1997 دعا خاتمي الملك فهد إلى قمة منظمة المؤتمر الإسلامي في طهران يومي 9 و11 كانون الأول-ديسمبر، ولكن بعد تعرضه لأزمة قلبية، كادت

(*) ليست هذه وظيفته فقط بل له مهام أخرى أكثر خطورة تتمثل في أن يكون حكمًا بين مجلس الشورى (البرلمان) ومجلس صيانة الدستور، وأن يقدم للمرشد الأعلى الاستشارات بخصوص سياسات الدولة العامة، وأن يختار في حالة موت المرشد، أو عجزه عضواً من مجلس القيادة يتولى مهام المرشد حتى انتخاب مرشد جديد [المركز].

تودي بحياته في وقتٍ سابق من الشهر، رفض فهد، فترأس بدلاً عنه ولي العهد عبد الله وفداً سعودياً كبيراً في اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامي، وقد احتضنه خاتمي بالقبلات على خديه في مطار طهران.

طهران تستضيف القمة الإسلامية

ومع المشاركة الكاملة لقادة الدول الأعضاء الخمسة والخمسين في منظمة المؤتمر الإسلامي التي ترأّسها الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان، حققت إيران انقلاباً دبلوماسياً. وقد حدد الرئيس خاتمي النغمة المتناغمة للمؤتمر، وأعلن أن «الحضارتين الإسلامية والغربية ليستا بالضرورة في صراع وتناقض»، وقال مستشهداً بالجذور اليونانية والرومانية للغرب: «لا ينبغي لنا أبداً أن نكون غافلين عن عمليات الاستحواذ الدقيقة التي يقوم بها المجتمع المدني الغربي».[17]

وبهذه الروح قال ولي العهد الأمير عبد الله: «علينا إزالة العقبات التي تعترض الطريق [نحو الصداقة] وتقديم المشورة على أساس متبادل بين الدول الإسلامية». وأدان الإرهاب والتطرف في العالم الإسلامي، وأشاد بـ «الإنجازات الخالدة لمسلمي إيران وإسهاماتهم التي لا تقدّر بثمن»، وأضاف: «لا عجب أن تستضيف طهران هذا التجمع الإسلامي المهم»، وقد أدان الإرهاب والتطرف في العالم الإسلامي، وقال: «لا أعتقد أنه سيكون من الصعب على الشعب الإيراني الشقيق وقيادته، وعلى قوة كبيرة مثل الولايات المتحدة التوصل إلى حل لأي خلاف بينهما... ليس هناك ما يجعلنا أكثر سعادة من رؤية هذا الجزء الحساس من العالم ينعم بالاستقرار والأمن والازدهار... وإذا طلبت منا الولايات المتحدة، فلن نتردد في المساهمة في الجهود الرامية إلى تحقيق الاستقرار في المنطقة».[18] ولكن الخلافات بين إيران والولايات المتحدة كانت جوهرية للغاية بحيث لا يمكن لطرف ثالث مرتبط بواشنطن أن يحلها.

وقد عقد عبد الله جولتين من المحادثات الخاصة مع خاتمي، وخرج خاتمي عن البروتوكول في الجولة الثانية بدعوة الزعيم السعودي في جناحه لاجتماع استمر خمساً وأربعين دقيقة. وبحسب ما ورد نصح مضيفه بأن على إيران إقناع واشنطن بأنها لم تعد تشكل تهديداً لممالك الخليج. وبما أن عبد الله كان قد التقى أيضاً مع خامنئي، المعروف بعدائه لأمريكا، التي وصفها بشكل روتيني بـ "القوة المتغطرسة"، فقد كان من المفترض أنه قدّم النصيحة نفسها للمرشد الأعلى أيضاً، ولو أن ذلك حدث حقاً، لكان أصغى إليه بتعاطف، كمضيف لطيف، لا أكثر.

وعدّ الدبلوماسيون الأميركيون المكانة التي اكتسبتها إيران من استضافة قمة منظمة المؤتمر الإسلامي بمنزلة انتكاسة لسياستهم المتمثلة في عزل طهران؛ فبقدر ما لم يعجبهم الحدث، لم يتمكنوا من تجاهله تماماً. لقد كان لدى وزارة الخارجية كلمات لطيفة لتقولها عن إدانة الإرهاب في إعلان طهران، الذي ميز بوضوح بين الإرهاب و"نضال الشعوب ضد الاستعمار أو الهيمنة الأجنبية أو الاحتلال الأجنبي". ورداً على هذا العرض أشار خاتمي في مؤتمره الصحفي في 14 كانون الأول-ديسمبر إلى "الشعب الأمريكي العظيم"، وأضاف: إنه يريد الحوار في "المستقبل غير البعيد". وفي اليوم التالي، قال كلينتون: إنه سيرحّب بذلك "ما دام لدينا مناقشة صادقة لجميع القضايا ذات الصلة"، أي رعاية إيران للإرهاب الدولي، وجهودها للحصول على أسلحة نووية، ومعارضتها لعملية السلام في الشرق الأوسط.[19] ولم يرد أي ذكر للمواضيع التي تهم طهران.

وفي 7 كانون الثاني-يناير 1998 أجرى خاتمي مقابلة مع شبكة تلفزيون CNN في جزأين، خطاب غير محرر، تلاه أسئلة من كريستيان أمانبور، صحفية أمريكية من أصل إيراني. وقال خاتمي: «أولاً، يجب أن يكون هناك صدع في "جدار عدم الثقة" بين الحكومتين»، و«علينا بالتأكيد أن نأخذ في الحسبان العوامل التي أدت إلى قطع العلاقات ومحاولة إزالتها»، وأضاف: «إذا لم تكن المفاوضات مبنية على الاحترام المتبادل، فلن تؤدي أبداً إلى نتائج إيجابية»؛ واقترح على وجه التحديد زيادة تبادل الوفود الثقافية والأكاديمية والرياضية. وفي ردوده على أمانبور وصف احتجاز الدبلوماسيين الأمريكيين كرهائن بأنه "مأساة".[20]

وفي اليوم التالي أكد المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية، جيمس روبين، إن كبار المسؤولين الأمريكيين شاهدوا البرنامج، وقال: «كانت تعليقات الرئيس خاتمي الواسعة، فيما يتعلق بالحضارة والقيم الأميركية، مثيرة للاهتمام. وقد أعربنا عن تقديرنا للروح التي طُرِحت بها تلك الملاحظات. كما لاحظنا تصريحات الرئيس بأن إدارة العلاقات بين الدول يجب أن تقوم على الاحترام المتبادل والكرامة، ونحن نتفق... لقد تابعنا باهتمام أسفه فيما يتعلق باحتجاز الرهائن. ونحن نرحب بتصريحه بأن هذه الفترة في التاريخ الإيراني قد انتهت، وأنه ينبغي احترام سيادة القانون محلياً ودولياً. وفيما يتعلق بالإرهاب، كان رفض خاتمي وإدانته لجميع أشكال الإرهاب الموجه ضد الأبرياء أمراً جديراً بالملاحظة».[21]

لقد كانت هذه الأحداث كافية لإقناع عبد الله بأن قادة إيران قبلوا نصيحته وتصرفوا وفقاً لها، وهذا بدوره وضع الأساس لصداقة نهائية بين الرياض وطهران.

السجادة الحمراء السعودية لرفسنجاني

وفي عملية المصالحة السعودية الإيرانية الجارية، والتي امتدت لبضع سنوات، أدى رفسنجاني دوراً نشطاً، وفي النصف الثاني من شباط-فبراير 1998، وقبولاً لدعوة رسمية، قاد وفداً كبيراً في جولة في المملكة العربية السعودية مدتها عشرة أيام لتدفئة العلاقات الثنائية، وقد ضمّ الوفد أعضاء من الدائرة الداخلية لخامنئي، ونواباً مهمين في المجلس، ووزير النفط بيجان نمدار زنكنه ونوابه.

وتأتي زيارة رفسنجاني التاريخية في وقتٍ انخفضت فيه أسعار النفط إلى أدنى مستوياتها منذ ما يقرب من أربع سنوات. وكان هناك انخفاض في الطلب في السوق الآسيوية بسبب الانخفاض الكبير فيما يسمى باقتصادات النمور الآسوية" في دول جنوب شرق آسيا(*) وكانت اتفاقية النفط مقابل الغذاء التي أقرتها الأمم المتحدة قد سمحت للعراق ببيع النفط للخارج في عام 1996 بعد توقف دام ست سنوات. كان نصف الكرة الشمالي يتمتع بشتاء معتدل. وأخيراً كان هناك فائض في المعروض من النفط لأن المملكة العربية السعودية، بمساعدة الكويت والإمارات العربية المتحدة، رفعت سقف إنتاج أوبك بنسبة 10% إلى27 مليون برميل ونصف يومياً في اجتماع أوبك في جاكرتا في تشرين الثاني-نوفمبر 1997.

وعقد رفسنجاني اجتماعات مع فهد وعبد الله ووزير الدفاع الأمير سلطان بن عبد العزيز، وزار مجلس الشورى، وتحدث مع شخصياته، وعقد سلسلة لقاءات مع رجال الأعمال في الرياض وجدة والدمام. وقام بجولة في مدينة الجبيل الصناعية في المنطقة الشرقية، واجتمع لاحقاً مع زعماء الشيعة.[22]

وبينما قُدّمت تغطية واسعة النطاق للجولة الرائدة في المملكة العربية السعودية التي قام بها مسؤول إيراني رفيع المستوى، والذي كان صديقاً حميماً لآية الله الخميني لسنوات عديدة، أشارت وكالة أنباء الجمهورية الإيرانية (إيرنا)، التي تديرها الدولة، إلى الملك فهد بلقب خادم الحرمين الشريفين، وهو اللقب الذي أصدره العاهل السعودي قبل اثني عشر عاماً.

وفي المجال الديني، التقى رفسنجاني بمفتي السعودية، الشيخ عبد العزيز بن باز. وأثناء العمرة في مكة حصل هو ومساعدوه على امتياز نادر للصلاة داخل الكعبة. وبناء

(*) النمور الآسيوية: مصطلح يُطلق على مجموعة من دول جنوب شرق آسيا حققت قفزات حضارية وتكنلوجية هائلة وتنمية بشرية واسعة، وأصبحت دولاً صناعية متميزة، منها الصين، اليابان، كوريا الجنوبية، ماليزيا وغيرها [المركز].

على تعليمات الديوان الملكي، بدأت وسائل الإعلام السعودية تطلق على رفسنجاني لقب "جلالة الشيخ". وكان مثل هذا الاحترام للملّا الشيعي أمراً غير مقبول عند بعض رجال الدين الوهَّابيين، ومن بينهم الشيخ عبد الرحمن الحافظي؛ فقد خصص ما يقرب من نصف خطبته في صلاة الجمعة في المسجد النبوي بالمدينة المنورة، التي بُثَّت على الهواء مباشرة، لمهاجمة الشيعة، وآية الله الخميني، والثورة الإسلامية في إيران، وهو يدرك جيداً أن رفسنجاني كان في المصلين. وقد ذكر تقرير لوكالة أنباء الجمهورية الإسلامية (إيرنا) أن رفسنجاني، الذي يعرف اللغة العربية، انسحب احتجاجاً. وفي وقت لاحق، عندما اعتذر عبد الله عن خطاب حافظي لرفسنجاني على انفراد، ورد أن رفسنجاني قال: «في إيران لدينا العديد من رجال الدين من هذا النوع. إذا كان هناك واحد فقط في المملكة، فلا داعي للقلق». ومع ذلك، تسببت تلك الإساءة بأن أقال عبد الله رجل الدين المخالف، وهو الإجراء الذي لم تذكره وسائل الإعلام السعودية، لكن وسائل الإعلام الإيرانية أشادت به كثيراً.

وبشكل عام، كان مزاج التصالح مع المملكة العربية السعودية قوياً للغاية لدرجة أنه حتى آية الله أحمد جنتي المتشدد قال في خطبة الجمعة في طهران: «كانت لدينا خلافات مع المملكة العربية السعودية في الماضي»، لكن «لا يمكن أن تستمر هذه الخلافات. [الآن] يجب أن نعمل معاً، وننضم كإخوة مسلمين... يجب علينا نحن المسلمين أن نستيقظ من سباتنا ونتكاتف معاً». [23]

وقالت وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية الإيرانية في تقريرها عن محادثات فهد ورفسنجاني إن «الملك أخبر آية الله رفسنجاني أن إيران والمملكة العربية السعودية، من حيث هما دولتان مهمتان في العالم وفي المنطقة أيضاً، يجب أن تتعاونا في كل قضية ذات اهتمام مشترك، بما في ذلك النفط، وأوبك، والشؤون الإقليمية». وأضافت أن الملك فهد «وعد بأن تقيم بلاده تعاونا أوثق مع إيران للحفاظ على أسعار النفط عند معدلات معقولة في المستقبل». وفي الوقت نفسه، نقلت وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية عن رفسنجاني قوله: إن «التفاهم الجيد المتبادل بين الدول المصدرة للنفط سيمنع تراجع أسعار النفط بالتأكيد»، وإن «العالم الإسلامي يمكنه الاعتماد على موارده المحلية لحل تلك المشاكل دون تدخل القوى الأجنبية غير الإسلامية». وكان التصريح الأخير واجباً على أي مسؤول إيراني مهما كانت رتبته، لأن هذا هو جوهر سياسة طهران كما ورد في دستورها.

وأما تقرير وكالة الأنباء السعودية (SPA) الذي تديره الدولة، فقد اختلف عن تقرير وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية (IRNA)، واكتفى بالقول: إن الزعيمين «ناقشا العلاقات بين

المملكة العربية السعودية والجمهورية الإسلامية الإيرانية والقضايا على الساحتين الإسلامية والدولية»، ولم يقدم أي تفاصيل.[24] وعقب لقاء زنكنه بنظيره السعودي علي النعيمي، أصدرا بياناً مشتركاً أعربا فيه عن الاستعداد للعمل معاً من أجل عكس مسار تراجع أسعار النفط. وقال رفسنجاني ملخصاً تجربته: «لقد ذابت جبال الجليد خلال زيارتي»، وأضاف: «شعرت أن المملكة العربية السعودية أيضاً أدركت أن الطريق إلى حل مشاكلنا الإقليمية هو من خلال التعاون مع إيران».[25]

مجالات التعاون المتعددة

عشية موسم الحج، في 6 نيسان-أبريل 1998، دعا العاهل السعودي خاتمي ليكون ضيفه في رحلة الحج التي رفعت المملكة حصة إيران من أجلها. وبسبب التزاماته السابقة لم يتمكن خاتمي من قبول العرض، وأضاف: إنه سيأتي "في أقرب وقت ممكن".

وبعد هذه الطقوس السنوية أعلن المرشد الأعلى الإيراني خامنئي أنها نجاحٌ للحجاج الإيرانيين، وأضاف: إن العلاقات مع المملكة السعودية كانت "جيدة"، على أمل أن تتحسن العلاقات الدبلوماسية مع الرياض يوماً بعد يوم ضمن "إطار مقبول". وفي الوقت نفسه أكد قائلاً: «إننا لا نتخلى عن معتقداتنا الأساسية بأي ثمن، ولا يمكننا [لذلك] أن نتخلى عن "البراءة من الكفار" في مراسم الحج، بل نحاول بالأحرى القيام بها قدر الإمكان».[26] وهنا مرة أخرى كان خامنئي يعيد صياغة تفسير "البراءة من الكفار" الذي قدّمه الخميني، مؤسس الجمهورية الإسلامية. ووصفه قادة الثورة الحاليون بأنه جزء من "معتقداتنا الأساسية".

وفي الشهر التالي أيار-مايو وقّع البلدان اتفاقية تعاون شاملة غطت المجالات الاقتصادية، والتجارية، والفنية، والعلمية، والثقافية، والرياضية، وتضمنت أيضاً التعاون في تقديم الخدمات القنصلية، وتوسيع خدمات الاتصالات، والخدمات الجوية والبحرية، والنقل البحري والقضايا البيئية.[27]

في أيار-مايو1998، أصدرت وزارة الخارجية تقريرها السنوي حول قائمة الدول الراعية للإرهاب، وكانت إيران واحدة منها.[28] وبحسب التقرير ففي عام 1997 كانت إيران "الراعي الأكثر نشاطاً لإرهاب الدولة"؛ فقد قدّمت المال والسلاح لحماس الفلسطينية المتطرفة وحركة الجهاد الإسلامي،[*] ونفّذ عملاؤها اغتيالات لما لا يقل عن ثلاثة عشر من قادة مجاهدي

(*) تُقدِّم إيران معونات مختلفة لأكثر من فصيل فلسطيني، لمساعدتهم في تحرير أرضهم ضد كيان الاحتلال الإسرائيلي [المركز].

خلق والحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني. وكانت هذه المنظمات تعمل من إقليم كردستان العراق شبه المستقل الذي تحميه الولايات المتحدة، وقامت بشن هجمات دقيقة على إيران.[29] ولم يكن لهذا التقرير الأمريكي الروتيني أي تأثير في الود السعودي الإيراني المتطور.

ومن الجدير بالذكر أنه منذ أوائل السبعينيات على الأقل، نفّذ [كيان] إسرائيل اغتيالات مستهدفاً في الخارج أولئك الذين اعتقد أنهم هاجموا مواطنيه أو مصالحه، ووسّع قائمته لاحقاً لتشمل أولئك العرب أو الفيزيائيين النوويين الإيرانيين الذين يُعتقد أنهم شاركوا في تطوير القنابل الذرية.[30]

وفي اجتماع أوبك، في 23 آذار-مارس 1999، نجحت المملكة العربية السعودية، بدعم من إيران، في التوصل إلى اتفاق لخفض إجمالي إنتاج أوبك البالغ 23 مليون برميل يومياً بمقدار مليون و700 ألف برميل يومياً مع أربع دول من خارج أوبك -المكسيك والنرويج وعُمان وروسيا- خُفّض إنتاجهم بمقدار 400 ألف برميل يومياً. وتحسن سعر النفط من 13 دولاراً للبرميل إلى 18 دولاراً، مما أدى إلى ارتفاع دخل إيران من النفط من ملياري دولار ونصف إلى 13 مليار دولار، وتمكينها من خفض قروضها الطويلة والقصيرة الأجل بمقدار الربع إلى 11 ملياراً و600 مليون دولار.[31]

وفي الوقت نفسه استمرت الزيارات الرفيعة المستوى التي قام بها وزراء سعوديون وإيرانيون إلى عاصمتيهما، فقد أمضى وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل يومين في نيسان-أبريل للتشاور مع نظيره الإيراني كمال خرازي، وأهم من ذلك بكثير الزيارة التي قام بها وزير الدفاع والطيران السعودي سلطان بن عبد العزيز في أوائل شهر أيار-مايو 1999 والتي استغرقت خمسة أيام.

وبعد تفاعله مع الأمير سلطان وصف وزير الدفاع الإيراني الأدميرال علي شمخاني زيارة الأمير سلطان بأنها "نقطة تحول في علاقاتنا"، واقترح اتفاقاً عسكرياً مع الرياض للدفاع عن منطقة الخليج، وقد كانت هذه هي أجندة طهران منذ ثورة 1979. فتحرك سلطان سريعاً ليهدئ حماسة شمخاني، وأضاف: «من السابق لأوانه النظر في اتفاقيات الدفاع». وأضاف: «إن خيار اتفاقية الدفاع غير قابل للتطبيق بين دولتين قطعت علاقاتهما لسنوات»، ثم قال: «علينا أن نبدأ بالتعاون الاقتصادي والاجتماعي والثقافي». ولطمأنة بقية ممالك الخليج أكد سلطان أن «أي تعاون مباشر مع إيران لضمان حماية الخليج غير مقبول على الإطلاق»، ولكن كتنازل بسيط، وافق على تبادل الملحقين العسكريين.[32]

وكان لقاء سلطان مع نائب الرئيس الإيراني حسن حبيبي حول تحسين العلاقات التجارية والثقافية مثمراً، وقد اتفقوا على أمور منها زيادة الرحلات الجوية بين الدولتين.[33]

وعندما دعا الملك فهد الرئيس خاتمي لزيارة المملكة، نصح بعض مساعدي خامنئي المقربين بعدم القبول، ولكن لم يؤخذ بنصيحتهم إذ تدخل رفسنجاني لصالح قبول الدعوة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تُكرِّم المملكة العربية السعودية فيها رئيس جمهورية إيران الإسلامية الحالي.

وفي 15 أيار-مايو كان في استقبال خاتمي في مطار جدة الدولي الملك فهد، وكان آنذاك على كرسي متحرك، وولي العهد الأمير عبد الله، وغيره من كبار الأمراء الذين أمطروه بالعناق والقبلات على خديه. وخلال إقامته التي استمرت ثلاثة أيام أجرى خاتمي محادثاتٍ وديةً معهم ومع كبار أعضاء الحكومة الآخرين، واختتم رحلته بالعمرة في مكة.

وعقب لقائه بخاتمي، أعلن الملك فهد أن «الباب مفتوح على مصراعيه لتطوير وتعزيز العلاقات بين البلدين بما فيه مصلحة الشعبين والعالم الإسلامي». وكما يقتضي البروتوكول الدبلوماسي، وجّه خاتمي دعوة لفهد لزيارة طهران. ومع ذلك، ونظراً للحالة الصحية غير المستقرة للملك، فإن مثل هذه الرحلة كانت غير محتملة. وبعد محادثاته مع وزير الخارجية الإيراني خرازي، قال الأمير سعود الفيصل إنه لا يوجد حدود محتملة لمدى العلاقات بين الدولتين. ثم أضاف تحذيراً مهماً، تماماً كما فعل وزير الدفاع سلطان. «إن العنصر الرئيسي لإقامة علاقات متينة هو بناء الثقة. ولتحقيق ذلك نحن بحاجة إلى تسوية المشاكل العالقة سلمياً وودياً».[34]

باختصار: كان الهدف الرئيس لزيارة رفسنجاني الممتدة في شباط-فبراير 1998 هو بناء جسر بين المملكة العربية السعودية وإيران. وباستخدام سحره ودهائه حقق هذا الهدف، وتدفقت حركة مرور كبيرة عبر هذا الجسر في الأشهر التالية. وكانت الأجندة غير المعلنة لخاتمي تتمثل في وضع سقف للعلاقات الاقتصادية والثقافية والدبلوماسية باتفاقية أمنية ثنائية. ونظراً لتاريخ من العداء والتوترات بين طهران والرياض، كانت هذه مهمة شاقة؛ إذ إن فكرة التعاون العسكري بين المملكة العربية السعودية، التي كانت تعتمد على الولايات المتحدة في أمنها الخارجي منذ عام 1943، وجمهورية إيران الإسلامية التي تعدّ إن العداء تجاه أمريكا أمراً مقدساً، كانت بعيدة المنال بحيث لا يمكن أخذها على محمل الجد. ومع ذلك، ظل الساسة ووسائل الإعلام في إيران يعزفون على وتر هذا الموضوع، الذي ظهر في محادثات الدار البيضاء تحت عنوان "اللجنة الأمنية المشتركة".

وفي المقابل، بدأ المسؤولون السعوديون يشرحون علناً أن أي اتفاق من هذا القبيل سينطبق على الأمن الداخلي وعدم التدخل المتبادل في الشؤون الداخلية للدولة الأخرى، وأن هذه كانت كلمتهم الأخيرة؛ وكان هذا ما حدث. ولكن من أجل تهدئة خيبة أمل إيران، سافر وزير الداخلية السعودي الأمير نايف بن عبد العزيز إلى طهران في نيسان-أبريل 2001 لتوقيع اتفاقية أمنية مع نظيره الإيراني عبد الواحد موسوي لاري تتناول مكافحة الجريمة المنظمة والإرهاب وتهريب المخدرات. وعندما أُشير في مؤتمرهم الصحفي المشترك إلى أن ذلك لا يشمل تسليم المجرمين المشتبه بهم، قال نايف إن هذا الإغفال لا علاقة له بتفجير الخُبر الذي وقع عام 1996. وكانت هناك تقارير مستمرة تفيد بأن الحكومة السعودية كانت متشككة بشأن نفي طهران لهذا العمل الإرهابي. لكنها لم تكن راغبة في السماح لذلك بإبطاء التقدم نحو إقامة علاقات ودية مع طهران.[35] وكانت إحدى النتائج الثانوية لهذا الموقف هو تخفيف الضغط الرسمي على الشيعة السعوديين في المنطقة الشرقية.

لحظة تقارب بين طهران-واشنطن

خلال زيارته لنيويورك لإلقاء كلمة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول-سبتمبر 1998، أوضح خاتمي لمجموعة من الصحفيين الأمريكيين أن الحوار بين الشعوب والثقافات يختلف عن الحوار السياسي. ولم يكن لدى إيران أي نية للدخول في حوار سياسي مع الإدارة الأميركية إلا بعد أن اتخذت «خطوات ملموسة لتغيير سياساتها تجاه إيران».

وقد صرح الرئيس كلينتون في نيسان-أبريل 1999 أنه لا بد من إيجاد طريقة لبدء الحوار. وفي آب-أغسطس، قال جون لامبرت من وزارة الخارجية، متحدثاً باللغة الفارسية عبر راديو ليبرتي الذي تموله الولايات المتحدة، إن الولايات المتحدة مستعدة للدخول في مفاوضات مع إيران "دون أي شروط مسبقة". ولم تكن طهران راضية. وكدليل على حُسن النية، أرادت تغيير سياسة واشنطن في المجالات التالية: قانون العقوبات الإيراني الليبي لعام 1996، ومواصلة تجميد الأصول الإيرانية في أمريكا، والضغط على جارة إيران لتبني سياسات مناهضة لطهران، وتوجيه الدعاية العدائية إلى الجمهور الإيراني. وفي وقت لاحق من ذلك الشهر، ورد أن كلينتون وجهت رسالة إلى خاتمي عبر السلطان قابوس سلطان عُمان، وطلب فيه المساعدة من إيران، استناداً إلى تقرير مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي لويس فريه بأن السعوديين الثلاثة المشتبه بهم في تفجير الخُبر، الذين يعتقد أنهم على صلة بحزب الله الحجاز، قد لجؤوا إلى إيران. ولم يكن مكتب التحقيقات الفيدرالي راضياً عن المعلومات التي قدمتها

الرياض، وأراد استجواب هؤلاء المشتبه بهم. وكررت الحكومة الإيرانية نفيها السابق لأي تورط لها في هذا التفجير.[36]

إن تأثير ترحيب كلنتون وأولبرايت بنجاح الإصلاحيين في انتخابات المجلس في أوائل عام 2000، قوبل بموافقة مجلس الشيوخ الأمريكي بالإجماع تقريباً على قانون منع انتشار الأسلحة النووية في إيران، والذي اعتمده مجلس النواب بالإجماع في أيلول-سبتمبر 1999، والذي سمح للرئيس الأمريكي باتخاذ إجراءات عقابية ضد الأفراد أو المنظمات المعروفة بتقديم مساعدات مادية لبرنامج أسلحة الدمار الشامل الإيراني. وفي 13 آذار-مارس، جدد كلينتون أمره التنفيذي لعام 1995 الذي يحظر التجارة مع إيران لأن «دعمها للإرهاب الدولي، وجهودها لتقويض عملية السلام في الشرق الأوسط، وحيازتها للأسلحة النووية» ما زال يهدد الأمن القومي والاقتصاد الأمريكي. الولايات المتحدة.[37]

وبعد ذلك، في النمط المألوف الآن، جاءت خطوة إلى الأمام؛ ففي خطابها أمام المجلس الأمريكي الإيراني في برينستون، في 17 آذار-مارس 2000، اعترفت أولبرايت بأن أمريكا خلقت مناخاً من عدم الثقة مع طهران من خلال لعب "دور مهم" في انقلاب عام 1953 ضد محمد مصدق وتقديم دعم طويل الأمد لمحمد رضا شاه بهلوي. وأعربت عن أسفها لما حدث في الماضي من "قِصر نظر" في السياسة الأمريكية، وخاصة الحرب الإيرانية العراقية، عندما دعمت واشنطن بغداد. ووعدت واشنطن "بزيادة الجهود" نحو "تسوية شاملة لمطالبات إيران بأصولها المجمدة في أمريكا" - وهو خروج عن أساس كل حالة على حدة الذي تستخدمه محكمة المطالبات الإيرانية الأمريكية في لاهاي منذ عام 1981. كما أعلنت أن الولايات المتحدة كانت ترفع الحظر الذي فرضته على واردات السجّاد والكافيار والفستق والفواكه المجففة الإيرانية، وبالتالي تراجعت عن القرار الذي اتخذته إدارة رونالد ريغان في أوائل عام 1987. (لكن هذه الصادرات الإيرانية البالغة 85 مليون دولار تمثل 8% فقط من الإجمالي). واختتمت كلامها قائلة: «أدعو إيران إلى الانضمام إلينا في كتابة فصل جديد في تاريخنا المشترك». وكان الرد الإيراني مختلطاً. وقال حامد رضا آصفي، المتحدث باسم وزارة الخارجية: «تعتقد إيران أن خطاب أولبرايت إيجابي وترحب به». وأضاف أن إيران ستسمح الآن باستيراد المواد الغذائية والأدوية الأمريكية. لكن خامنئي لم يكن راضياً لأنه لم يتضمن اعتذاراً. ومن خلال اتخاذ موقف وسط، رحب وزير الخارجية خرازي في وقت لاحق ببعض عناصر خطاب أولبرايت، لكنه أضاف أن مبادرتها "تلوثت" بسبب التدخل الأمريكي المستمر في شؤون إيران الداخلية[38]، وآخر مثال على ذلك هو

إدانة وزارة الخارجية لكيفية تعامل السلطات الإيرانية مع احتجاج الطلاب في تموز-يوليو 1999 والذي أعقبه قرار مجلس الشيوخ بهذا المعنى.

باختصار، كان هناك بعض الاسترخاء في التوتر بين طهران وواشنطن، لكن لم تكن هناك علامة على تخفيف الجمود الطويل الأمد الذي كان يرغب فيه ولي العهد السعودي الأمير عبد الله.

ومع تولي جورج دبليو بوش، الجمهوري، خلفاً لكلينتون في البيت الأبيض في كانون الثاني-يناير 2001، بدت لحظة التقارب بين طهران وواشنطن وشيكة. وقبل انتخابه، تلقى بوش تدريباً على سياسات الشرق الأوسط على يد المحافظ الجديد ريتشارد بيرل، وهو من أشد المؤيدين لـ [كيان] إسرائيل المناهض لإيران. ولذلك كان من المتوقع أن يتبنى بوش سياسة متشددة تجاه طهران، وألا يظهر أياً من المرونة التي كانت تتمتع بها كلينتون.

في المقابل، بقي عبد الله لاعباً أساسياً في مثلث الرياض-واشنطن-طهران، مع تعهده لطهران بالمساعدة في تسهيل علاقاتها في العالم العربي مقابل استمرار الاعتدال في سياستها الخارجية. وشجع عبد الله البحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة على تدفئة علاقاتها مع طهران. ونتيجة لذلك، استقبلت قطر خاتمي كضيف دولة في أيار-مايو 1999. وكانت الكويت وعُمان، العضوان المتبقيان في مجلس التعاون الخليجي، قد أقامتا بالفعل علاقات ودية مع إيران.

الملاحظات

1 Welcome to the Stables of HM King Abdullah & Sons, Saudi Arabia. http://www. janad-riafarm. com/

2 Public Library of US Diplomacy, Secret: Counterterrorism Adviser Brennan's Meeting with Saudi King Abdullah, Ref: Riyadh 427; 22 March 2009. https://wikileaks. org/ plusd/cables/09RIYADH447_a. html_

3 Hiro, Dictionary of the Middle East, p. 199

4 Cited in Lacey, Inside the Kingdom, p. 184

5 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 192

6 Ibid., p. 193

7 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 437

8 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 209

9 Ibid., p. 251, citing Toronto Star, 12 March 1984

10 Hiro, Iran Under the Ayatollahs, p. 251

11 Banafsheh Keynoush, Saudi Arabia and Iran: Friends or Foes?, Palgrave Macmillan, New York, 2007, pp. 137–138

12 Cited in Hiro, Neighbors, Not Friends, p. 69

13 Associated Press, 26 August 2015, «Saudi arrested in 1996 Khobar Towers truck bomb-ing that killed 19 US servicemen. » http://www. usnews. com/news/politics/arti- cles/201526/08//suspect-in-1996-khobar-towers-bombing-arrested

14 Bruce Riedel, Al Monitor, 26 August 2015, »Why did it take Saudi Arabia 20 years to catch Khobar Towers bomber?» http://www. al-monitor. com/ pulse/originals/201508// saudi-arabia-terrorist-capture-mughassil. html

15 Cited in Hiro, Neighbors, Not Friends, p. 227

16 Elaine Sciolino, New York Times, 10 November 2011, «Iran Chief Rejects Bin Laden Message. »http://www. nytimes. com/200110/11//world/iran-chief-rejects-bin-laden- message. html

17 Cited in Hiro, Neighbors, Not Friends, p. 230

18 Anthony H. Cordesman and Arleigh A. Burke, CSIS, June 2001, «Saudi Arabia and Iran. » https://csis-prod. s3. amazonaws. com/s3fs-public/legacy_files/files/media/csis/ pubs/saudi_iran. pdf

19 Hiro, Neighbors, Not Friends, p. 231, citing Middle East International, 19 December 1997, p. 10

20 Ibid., pp. 9–10

21 Ibid., pp. 231–232

22 Fahad M. Alsultan and Pedram Saeid, The Development of Saudi-Iranian Relations Since the 1990s: Between Conflict and Accommodation, Routledge, 2016, p. 115

23 Ibid., pp. 115–116

24 Anthony H. Cordesman and Arleigh A. Burke, CSIS, June 2001, «Saudi Arabia and Iran, » https://csis-prod. s3. amazonaws. com/s3fs-public/legacy_files/files/media/csis/ pubs/saudi_iran. pdf

25 Alsultan and Saeid, The Development of Saudi-Iranian Relations Since the 1990s, p. 117

26 BBC News, 21 April, 1998, «Iranian leader hails improving ties with Saudi Arabia. » http://news. bbc. co. uk/1/hi/world/middle_east/81197. stm

27 Anthony H. Cordesman and Arleigh A. Burke, CSIS, June 2001, «Saudi Arabia and Iran. » https://csis-prod. s3. amazonaws. com/s3fs-public/legacy_files/files/media/csis/ pubs/saudi_iran. pdf

28 Other counties on the list were Cuba (since 1982), Libya (since 1979), North Korea (since 1988), Sudan (since 1988), and Syria (since 1979)

29 Hiro, Neighbors, Not Friends, p. 233, citing Washington Post, 1 May 1998

30 For details, see the entry on «Mossad, » in Dilip Hiro A Comprehensive Dictionary of the Middle East, pp. 427–429

31 Hiro, Neighbors, Not Friends, p. 254

32 Alsultan and Saeid, The Development of Saudi-Iranian Relations Since the 1990s, p. 119

33 Anthony H. Cordesman and Arleigh A. Burke, CSIS, June 2001, «Saudi Arabia and Iran. » https://csis-prod. s3. amazonaws. com/s3fs-public/legacy_files/files/media/csis/ pubs/saudi_iran. pdf

34 BBC News, 17 May 1999, «Iran and Saudi Arabia strengthen ties. » http://news. bbc. co. uk/1/hi/world/middle_east/345834. stm

35 Anthony H. Cordesman and Arleigh A. Burke, CSIS, June 2001, «Saudi Arabia and Iran», https://csis-prod. s3. amazonaws. com/s3fs-public/legacy_files/files/media/csis/ pubs/saudi_iran. pdf, citing Washington Post, 17 April 2001

36 Hiro, Neighbors, Not Friends, p. 251, citing Washington Post, 29 September 1999

37 Ibid., pp. 256–257

38 Ibid., p. 257

الفصل العاشر

خصوم الخليج يتجهون شرقاً

كتب روبرت بايرون في كتابه "الطريق إلى أوكسيانا" في 21 تشرين الثاني-نوفمبر 1933: «أسفل السهل، انزاحت سحابة من الدخان والأشجار والمنازل لتكشف عن مشهد، المدينة المقدسة لدى الشيعة»، «ومضت قبة ذهبية، ولاح نور أزرق خلف الضباب الخريفي. قرناً بعد قرن، منذ دفن الإمام الرضا إلى جانب الخليفة هارون الرشيد، أبهر هذا المشهد الآلاف من الحجاج، والتجار، والجيوش، والملوك، والمسافرين».

وتابع بايرون: «عند مداخل الضريح، يحتشد التركمان والكازاخ والطاجيك والهزارة ويختلطون مع حشود من الأوروبيين ذوي الأصول الفارسية. الشرطة خائفة من هؤلاء، لذلك تمنعهم من الوصول إلى الضريح رغم سماحه بدخول الأضرحة في أماكن أخرى».

وأوضح روبرت أن وجود ضريحين مهمين في المدينة، حوّل عاصمة إقليم خراسان من طوس إلى مشهد، وعن ذلك قال روبرت: «في عام 809، كان الخليفة هارون الرشيد في طريقه لقمع تمرد في مرو، [في تركمانستان اليوم]، فأصيب بمرض في طوس، وتوفي، ودُفن في فيما يُعرف اليوم بمدينة مشهد المقدسة. وفي عام 816 استدعى ابنه المأمون، ومقره في مرو، الإمام الثامن للشيعة، علي الرضا (المعروف أيضاً بالإمام الرضا)، من المدينة المنورة، ليعلنه وريثاً للخلافة [بهدف إنهاء الثورات الشيعية المتكررة]، بيد أن الإمام الرضا توفي في طوس خلال مرافقة المأمون في زيارة لقبر والده. وقيل أنه مات بسبب أكله الكثير من العنب، ولكن الشيعة يعتقدون أن المأمون سممه [نظراً لتمتعه بشعبية كبيرة]. دُفن الإمام الرضا بجوار هارون الرشيد، وبات موضع قبره في مشهد أقدس مكان في العالم الشيعي بعد ضريح الإمام علي في النجف».

وأردف بايرون قائلاً، في 24 كانون الأول-ديسمبر 1933: «بحضور ضابط شرطة متجهّم الوجه قضيت الصباح على أسطح مختلفة أتفحص الضريح من خلال النظارات الميدانية من الجانب الآخر من الشارع الدائري». «هناك ثلاث قاعات رئيسة، في كلٍ منها أربعة إيوانات

[وتنطق أيضاً: أيوان][1]، وتتجه قاعتان من الثلاث نحو الشمال والجنوب. [و] يبدو عمل البلاط عليها مثل قماش شينتز، الذي يعود تاريخه إلى القرن السابع عشر أو الثامن عشر، أما القاعة الثالثة، فتتجه غرباً بزوايا قائمة على القاعتين الشمالية والجنوبية. وهذا هو المسجد الذي بنته جوهر شاد [زوجة شاه رخ (1377–1447)، ابن تيمورلنك] بين عامي 1405 و1418. وفوق غرفة الحرم في النهاية، والتي ترتبط بمئذنتين ضخمتين، ترتفع القبة الزرقاء البحرية منتفخة الشكل، وقد نُقِش على الانتفاخ بالخط الكوفي الأسود الفاحم، ومزينة من القمة بمحاليق صفراء رفيعة. يبدو أن فسيفساء القاعة بأكملها لا تزال سليمة... يجب أن أخترق هذا المسجد قبل أن أغادر بلاد فارس، ولكن ليس الآن، بل في الربيع».

في 7 أيار-مايو 1934 قام بايرون ورفيقه كريستوفر سايكس بتلوين وجهيهما باللون الأسود. «توجهت [عربة] فيكتوريا معطلة إلى البوابة الرئيسة لضريح [الإمام الرضا] حيث نزلنا، ولكن بدلاً من الدخول اتجهنا إلى اليمين عبر الطريق الدائري. سألني الدليل: "هل أنت جاهز؟"، ثم غطس في نفق مظلم، فتبعناه كالأرانب، ووجدنا أنفسنا في ساحة صغيرة، وأسرعنا عبر سوق مضاء مليء بالأكشاك والمشترين، وخرجنا إلى صحن مسجد "جوهر شاد"».

لقد سلب المشهد لب بايرون، فقال: «تلألأت أضواء العنبر في الفراغ متوهجة بشكل غير مرئي من القوس العظيم أمام الحرم. وكان يعكس توهجاً ناعماً فوق المدخل المذهّب للمقبرة المقابلة، ويكشف، بينما تتكيف العين مع نفسها، عن شكل رباعي واسع تحدده صفوف من الأقواس. ارتفعت طبقة عليا بعيداً عن متناول الأضواء، ومرت عبر منطقة غير مرئية، وظهرت مرة أخرى كحاجز أسود في مواجهة النجوم. الملالي المعممون، الأفغان ذوو الثياب البيضاء، اختفوا مثل الأشباح بين مدارات المصابيح، وانزلقوا عبر الرصيف الأسود ليسجدوا تحت المدخل الذهبي. سُمِع صوت ترانيم من الحرم، حيث يمكن رؤية شخصية صغيرة واحدة منخفضة في الظلام، عند أقدام محرابها اللامع... كل ظرف من ظروف البصر والصوت والتعدي تآمرت على إغراق الذكاء. لقد تغلبت رسالة العمل الفني على هذه المؤامرة، وأخرجته من الظل، وأصرت على البنية والتناسب، وعلى بصمة الجودة الفائقة، وعلى الذكاء الذي يقف وراءها».[2]

أما المسجد الآخر الذي بنته جوهر شاد، فكان في هِرات في أفغانستان الحالية، فقد أمضت ستين عاماً من عمرها البالغ أربعة وثمانين عاماً في هذه المدينة التي كانت عاصمة إمبراطورية تمتد من نهر دجلة إلى سينكيانج. وأشار بايرون إلى أن «هرات تقع في سهل مزروع طويل يمتد شرقاً وغرباً على مسافة ثلاثة أميال متساوية من نهر هاري في الجنوب،

وآخر نتوءات جبال باروباميسوس في الشمال». «تقع هرات في منتصف الطريق بين شطري إمبراطورية تيمور بك [ويُعرف أيضاً باسم تيمورلنك] وبلاد فارس وأوكسيانا، ومن بين الطريقين اللذين يربطهما، فهو الأسهل». وقد تزوجت جوهاد شارد من شاروخان عام 1388، وأنجبت أولوغ بيك بعد ست سنوات، ولم يتذكرها سكان هرات بوصفها بانية مساجد رائعة، بل لـ "شخصها" و"للتنوع في حياتها".[3] فلا عجب إذن أن اللغة المستخدمة في الحياة اليومية في هرات، وهي ثالث أكبر مدينة أفغانية بعد كابُلْ وقندهار، هي اللغة الطاجيكية، وهي أقرب إلى اللغة الفارسية.

وعندما وسّع محمد رضا شاه بهلوي نفوذه إلى جمهورية أفغانستان، بعد 1973-1974، لم يواجه أي منافسة من المملكة السعودية. وفي وقت لاحق، في الحرب الأهلية التي اندلعت في أفغانستان بعد إطاحة حكومة محمد نجيب الله اليسارية في عام 1992، تحالفت ميليشيا الوحدة الموالية لطهران مع تحالف الشمال الذي يهيمن عليه الطاجيك بقيادة أحمد شاه مسعود ضد التحالف الذي يهيمن عليه البشتون والذي تدعمه باكستان والمملكة العربية السعودية.

أفغانستان ساحة معركة جديدة

واصل ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز السياسة السعودية الرسمية السابقة المتمثلة في مساعدة طالبان. وفي نيسان-إبريل 1996 عُيِّن الزعيم الروحي لطالبان، الملا محمد عمر، أميراً للمؤمنين من قبل 1200 من رجال الدين السُنّة وزعماء القبائل في مدينة قندهار الجنوبية. وفي منتصف حزيران-يونيو 1996، وصل الأمير تركي إلى قندهار حيث ناقش قادة طالبان معه سراً الحصول على مزيد من الدعم اللوجستي من المخابرات الباكستانية بقيمة 5 ملايين دولار، وهو ما يحتاجونه من أجل الاستيلاء على كابُلْ قبل حلول فصل الشتاء. أما الرياض، فقد أمدّت طالبان بـ 400 عربة نقل من طراز تويوتا وبدعم مالي أيضاً، في حين وصل آلاف المجندين الجدد من مخيمات اللاجئين الأفغان والمدارس الدينية للتجنيد مع طالبان.[4] وفي الوقت نفسه عزز العلماء في المملكة العربية السعودية دعمهم لطالبان في خطب الجمعة، وقاموا بجمع التبرعات لهم في المساجد، وقد استمر ذلك بعد أن استولت حركة طالبان على كابُلْ في 27 أيلول-سبتمبر، وأطاحت بنظام الرئيس برهان الدين ربّاني ووزير دفاعه مسعود -وكلاهما من العرق الطاجيكي- اللذين كانا مدعومين من طهران.

وفي الديوان الملكي، في جدة، مارس المفتي بن باز ضغوطاً لصالح طالبان، وفي المقابل

أظهر هؤلاء تقديسهم لآل سعود وعلماء السعودية من خلال اعتماد لجنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي شُكِّلت قبل أربع سنوات، ورفعها إلى المستوى الوزاري عبر إعادة تسميتها إلى دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فرض الملا عمر نسخته المتعصبة من الشريعة على المنطقة الخاضعة لسيطرته. وطلب من النساء ارتداء البرقع، ومن الرجال ارتداء السلوار والقمصان والعمامة، وإطلاق اللحى، والذهاب إلى المسجد للصلاة يومياً. وحظر طلاء الأظافر وأحمر الشفاه والمكياج على النساء، وأغلق جميع مدارس البنات، ومنع النساء من العمل خارج المنزل. وقد أدى الحظر الشامل الذي فرضه على الموسيقى والتلفاز إلى تدمير الأشرطة الصوتية والمرئية وكذلك أجهزة التلفاز، وكان سبب تحريم الموسيقى، والغناء، والرقص هو أنها تثير الشهوة وتؤدي إلى الزنا، مما يؤدي إلى تقويض الإخلاص الزوجي والبنية الأسرية المستقرة، وهي أسس النظام الاجتماعي الإسلامي الحقيقي. كما حظر الأنشطة الترفيهية مثل الشطرنج، وكرة القدم، وتطيير الطائرات الورقية، وسباق الحمام. وكان سبب تحريم تحليق الطائرات الورقية وسباق الحمام هو أنهما كانا يجريان من أسطح مستوية مما يمكن الصبيان والرجال من النظر إلى غرف النساء في المنازل المجاورة. ولمنع عبادة الأصنام أمر بتمزيق جميع الصور والصور الشخصية، وبهذا تفوّق على الوهَّابيين في منع التصوير الفوتوغرافي. وحظر القمار وفرْض فوائد على القروض، وفرَضَ الصلاة المفروضة، وحظر جميع وسائل النقل أثناء أوقات الصلاة.[5]

وكان يُنظر إلى انتصار طالبان الدراماتيكي بشكل سلبي في إيران وكذلك في روسيا وآسيا الوسطى. وكما كان متوقعاً كانت باكستان والمملكة العربية السعودية مبتهجتين بهدوء لأنهما ألحقتا الهزيمة بخطط طهران ووضعتا تلميذهما في السلطة.

ولكن على نحو غير متوقع، فبدلاً من الشعور بالقلق بشأن انتصار الحزب الأصولي الإسلامي الأكثر تشدداً، قال المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية جلين ديفيز: إنه لا يوجد شيء "مرفوض" بشأن السياسات الداخلية التي تنتهجها طالبان.[6] وهذا لم يفاجئ المراقبين الأجانب. ومع تولي وارن كريستوفر وزارة الخارجية ظلت الولايات المتحدة حبيسة موقف صارم مناهض لطهران، فقد كتب الصحفي الباكستاني أحمد رشيد في كتابه "طالبان": «بين عامي 1994 و1996 دعمت الولايات المتحدة حركة طالبان من خلال حلفائها باكستان والمملكة العربية السعودية سياسياً، وذلك بشكل أساسي، لأن واشنطن كانت تَعُدّ طالبان مناهضة لإيران، ومعادية للشيعة، وموالية للغرب». لقد تجاهلت الولايات المتحدة بكل سهولة الأجندة الأصولية الإسلامية التي تتبناها حركة طالبان، وقمعها للنساء، والذعر الذي خلقته هذه الحركة في آسيا الوسطى».[7]

وبينما سارع رجال الدين الذين يحكمون في طهران إلى إدانة الحظر الذي فرضته حركة طالبان على تعليم المرأة، واصفين إياه بأنه مخالف للآية القرآنية التي تأمر جميع المؤمنين، بغض النظر عن جنسهم، باكتساب العلم، ظلت وزارة الخارجية صامتة بشأن هذا الموضوع لأسابيع عدة أعلنت خلالها إيفاد مبعوثها إلى كابُلْ للتشاور مع نظام طالبان.

وعلى مدى الأشهر الثلاثة التالية سيطرت حركة طالبان على مقاطعة تلو الأخرى، غالباً عن طريق رشوة أمراء الحرب المحليين بأموال قدّمتها أولاً وكالة الاستخبارات الباكستانية ثم وكالة الاستخبارات السعودية لاحقاً، لكن تقدمهم نحو الشمال توقف بسبب القصف الجوي والمدفعي المكثف من قبل القوات الطاجيكية التابعة لمسعود، وفقدت حركة طالبان الزخم الذي كان يمنحها حتى الآن ثلث أفغانستان.

أدخلْ أسامة بن لادن

وما إن عززت طالبان موقعها في كابُلْ، حتى أصدر الملا عمر تعليماته لرئيس الوزراء الملا محمد رباني للتحدث مع أسامة بن لادن، زعيم تنظيم القاعدة، الذي انتقل بعد وصوله إلى جلال آباد في أيار-مايو 1996 بعد طرده من السودان، إلى مجمع كهوف تورا بورا بالقرب من الحدود الباكستانية. ولأنه وهّابيٌّ مخلصٌ فقد عدَّ الشيعةَ زنادقة. وبعد عدة لقاءات مع مبعوثي طالبان، أشاد خلالها بن لادن بإنجازات طالبان وأدى يمين الولاء للملا عمر، حصل على حماية النظام. وقد عملت الاستخبارات الباكستانية سراً على تحقيق تحالف بين عمر وبن لادن، الذي أقام في المطار بالقرب من قندهار؛ وغدا هو والملا عمر صديقين مقربين. ومن خلال الانخراط في محادثات استمرت طوال الليل، أصبحوا يتشاركون وجهات نظر مشتركة، سياسياً ودينياً، مع تحول الملا عمر تدريجياً ضد أمريكا والغرب، وفَقْدِ الاهتمام بكسب اعترافهم بنظامه. وبدأ بن لادن في تقديم خدمات مقاتليه الأفغان والعرب المخضرمين ومركباته لطالبان خلال حملات الأخيرة لتوسيع مملكتهم، وكان سخياً في مساهماته النقدية لهم.

وبعد أن أخضع 70% من البلاد لسلطته بحلول أوائل عام 1997، قرر الملا عمر طرد القوات المناهضة لطالبان من بقية أفغانستان. وفي نيسان-أبريل 1997 سافر رئيس وزراء طالبان رباني إلى الرياض، والتقى بالملك فهد، وقال: «بما أن المملكة العربية السعودية هي مركز العالم الإسلامي، فإننا نود أن نحصل على مساعدة سعودية». وفي المقابل أبدى الملك فهد موافقته على الإجراءات التي اتخذتها حركة طالبان، ولا سيما فيما يتعلق بفرض الشريعة في أفغانستان، وبعد خمسة أشهر وصلت المزيد من المساعدات من الرياض.[8]

وقد واجهت طالبان مقاومة شديدة في محاولتها الاستيلاء على مدينة مزار شريف الشمالية، وهي القاعدة الرئيسية للمعارضة حيث انضم الرئيس برهان الدين رباني إلى الجنرال عبد الرشيد دوستم، وهو من العرق الأوزبكي. لقد تغلبوا عليها من خلال رشوة القادة الأفراد، وفرَّ الرئيس رباني إلى طاجيكستان. وقد وفَّر هذا الأساسَ المنطقي لباكستان للاعتراف رسمياً بنظام طالبان في 26 أيار-مايو 1997، وإقامة علاقات دبلوماسية. وسرعان ما حذت المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة حذوها، ثم قام الملا عمر بتغيير اسم البلاد من دولة أفغانستان الإسلامية إلى إمارة أفغانستان الإسلامية.

لقد صدمت خسارة مزار شريف لصالح طالبان إسلام كريموف، رئيس أوزبكستان العلماني، لدرجة أنه تغلب على كراهيته لإيران، فسمح لطهران –إلى جانب الروس والأتراك– باستخدام الأراضي الأوزبكية لنقل إمدادات الأسلحة إلى قوات دوستم؛ وهكذا استعاد دوستم مزار الشريف، وقام بدمج حركته الإسلامية الوطنية مع تحالف الشمال لتشكيل الجبهة الإسلامية الوطنية المتحدة، لكن حركة طالبان اعتبرت خسارة مزار شريف مجرد انتكاسة مؤقتة.

في هذا الوقت تقريباً أعلن بن لادن أنه وتنظيم القاعدة يهدفان إلى استهداف الأمريكيين واليهود في جميع أنحاء العالم و"تحرير" أقدس الأماكن في الإسلام من العائلة المالكة السعودية، فدفع ذلك الملك فهد إلى إرسال الأمير تركي إلى قندهار في حزيران-يونيو 1998 للتشاور مع الملا عمر. وبحسب التركي، فقد اتفقا على تشكيل لجنة مشتركة لترتيب تفاصيل تسليم بن لادن إلى المملكة السعودية.[9]

وفي الحرب الأهلية الأفغانية المستمرة شنّت حركة طالبان، المدعومة الآن بشكل علني من باكستان والمملكة العربية السعودية، سلسلة من الهجمات في ربيع وصيف عام 1998، واستعاد مقاتلوها مزار شريف، وسيطروا على خمسة أقاليم أخرى تتمركز حولها، وهزموا قوات دوستم، ولم يتبقَّ سوى أربع من المقاطعات الاثنتين والثلاثين في أيدي المعارضة، ففرّ دوستم إلى تركيا، وعادت الجبهة الإسلامية الوطنية إلى التحالف الشمالي الذي يهيمن عليه الطاجيك. وفي السياق الأوسع، أدى ظهور حركة طالبان، بوصفها القوة المهيمنة في أفغانستان، إلى تقسيم المنطقة إلى معسكرين: مع باكستان والمملكة العربية السعودية من جهة، وإيران وآسيا الوسطى وروسيا والهند من جهة أخرى.

إيران وطالبان وجهاً لوجه

وفي أعقاب استيلاء طالبان على مزار شريف "اختفى" عشرة دبلوماسيين وصحفيٌّ واحد في القنصلية الإيرانية، وزعمت طالبان أن هؤلاء الأفراد متورطون في عمليات نقل الأسلحة إلى

أعدائهم، وقد فرّوا من المدينة عندما استولوا على مزار، في حين زعمت طهران أنهم نُقِلوا إلى قندهار، مقر الملا عمر.

وارتفعت حدة التوتر بشكل حاد في إيران، وقال رفسنجاني في صلاة الجمعة في طهران: «نحن نعارض رؤية طالبان للإسلام»، وأضاف: «نحن نعارض أيديولوجيتهم وترويجهم للحرب». وأعلنت طهران عن مناورات عسكرية قرب تربة جام على بعد 40 كيلومتراً (25 ميلاً) من الحدود الأفغانية، وقال اللواء يهفا صفوي، قائد الحرس الثوري الإيراني المكلف بحماية حدود البلاد: «إن هذه التدريبات لا تخلو من ارتباطات بالوضع الجديد في أفغانستان».[10]

وفي 1 أيلول-سبتمبر 1998 بدأ الحرس الثوري الإيراني مناوراته السنوية، التي شارك فيها 70 ألف جندي، بالقرب من الحدود الأفغانية. وفي هذه الأثناء انفجرت قنابل ضخمة في 7 آب-أغسطس 1998 في سفارتي الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام، مما أسفر عن مقتل 227 شخصاً، من بينهم اثنا عشر أمريكياً، فحمّلت إدارة بيل كلينتون بن لادن مسؤولية هذه التفجيرات، ودعت حركة طالبان إلى تسليمه، وهذا ما رفضه الملا عمر بحجة أن بن لادن كان ضيفاً ليس على الحكومة فحسب، بل على شعب أفغانستان أيضاً.

وفي 20 آب-أغسطس 1998، بعد الحصول على معلومات استخباراتية موثوقة تفيد بأن بن لادن كان في معسكر البدر في منطقة خوست لمخاطبة 200-300 من أعضاء القاعدة، حوالي الساعة 2300 بالتوقيت المحلي، أمر كلينتون بشن ضربات على ستة معسكرات في مجمع زاوار كيليال بدر. وبحسب البنتاغون، فإن هذا المجمع، الذي يغطي ستين مبنى وخمسين كهفاً، يشكِّل معسكرات تدريب وقاعدة ودعم.

وكجزء من عملية الوصول اللانهائي، أطلق البنتاغون، من حاملة الطائرات أبراهام لنكولن في بحر العرب، 75 صاروخ كروز توماهوك عبر المجال الجوي الباكستاني على ستة معسكرات، وأسفرت الغارات عن مقتل ستة وعشرين شخصاً، جميعهم باكستانيون أو كشميريون. وكان بن لادن قد غادر معسكر البدر قبل ساعات قليلة من سقوط الصواريخ.

ومن بين معسكرات التدريب الأربعة استُخدِم اثنان بالقرب من خوست لتدريب الباكستانيين والكشميريين، وكانت تديرهما حركة المجاهدين، وهي منظمة باكستانية كشميرية، وكان المعسكران الآخران – الفاروق والبدر– مخصصين للمتطوعين العرب وغيرهم من المتطوعين. وبما أن هذا المجمع الضخم قد بَنته في الأصل وكالة المخابرات المركزية في الثمانينيات، فقد عرف البنتاغون إحداثياته الدقيقة.[11]

وفي شرح تصرفاته في خطاب تلفازي قال كلينتون: إن هناك أدلة على أن هذه الجماعات

الإرهابية في أفغانستان لعبت دوراً رئيساً في تفجير السفارات الأمريكية، وإنها نفذت أعمالاً إرهابية ضد الأمريكيين في وقت سابق، وكانت تخطط لمزيد من الهجمات، وتحاول الحصول على أسلحة خطيرة كيميائية وغيرها. ومنذ ذلك الحين أصبح القبض على بن لادن أو قتله هاجساً لدى إدارة كلينتون.

وفي أواخر أيلول-سبتمبر، وبناء على طلب من الرئيس الأمريكي، أرسل وليُّ العهد الأمير عبد الله الأميرَ تركي إلى قندهار ليُظهر للملا عمر الأدلة التي جمعها مكتب التحقيقات الفيدرالي، والتي تثبت أن بن لادن كان على صلة بتفجيرات سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وتنزانيا. وبحسب تركي، إبان لقائه بالملا عمر، نفى الأخير أي التزام بشأن تسليم "محارب جهاديّ لامع مثل أسامة بن لادن"، وتساءل عن سبب «عدم تفضّيل السعوديون تحرير العالم من الكفار؟»، وكان غاضباً بشدة وقال: « وحين واصل إهانة المملكة العربية السعودية والعائلة المالكة، أنهيتُ الاجتماع».[12]

إن حقيقة أن الملا عمر أهان آل سعود، أحد المستفيدين الرئيسيين من طالبان، أوضحت إلى أي مدى وصل تأثير سحر بن لادن في زعيم طالبان! وعاد تركي إلى الرياض خالي الوفاض، ثم خفّضت السعودية مستوى تمثيلها الدبلوماسي إلى السكرتير الثاني، وطلبت من القائم بأعمال طالبان الرحيل، واستدعت رئيس بعثتها إلى أفغانستان ومقره إسلام آباد، لكنها لم تقطع علاقاتها مع نظام طالبان.

ومما يثير إحباط واشنطن أنه، نتيجة للمكانة الرفيعة التي اكتسبها بن لادن، سافر العديد من المتعصبين إلى أفغانستان لتضخيم صفوف تنظيم القاعدة، في حين أرسل بعض الأثرياء في المملكة العربية السعودية وأماكن أخرى في الخليج أموالاً عبر سعاة يتنقلون بين دبي وكابُلْ لدعم شبكته، وساهموا بسخاء في الجمعيات الخيرية الإسلامية في الخليج التي حولت جزءاً من أموالها إلى تنظيم القاعدة.

أما بالنسبة لقادة طالبان، فبعد أن عانوا من الضربات الصاروخية الأمريكية لم يعد بإمكانهم تحمل الضغوط التي تمارسها طهران بشأن قضية دبلوماسييها المفقودين، واعترفوا بأن الإيرانيين قُتلوا في اقتحام مبنى القنصلية على يد قوات "مارقة" سيجري اعتقال أفرادها ومعاقبتهم[13]، وسمحوا لطائرة إيرانية بالسفر إلى أفغانستان لجمع جثث القتلى في مزار شريف.

وأعقب الحِدادَ الوطني في إيران إعلانُ الحكومة مناورات عسكرية شارك فيها 200 ألف جندي بالقرب من الحدود الأفغانية، وكان هناك الكثير من الصخب والغضب. ولكن، في النهاية، امتنع قادة إيران عن غزو أراضي طالبان لأنهم شعروا أن الحرب مع طالبان يمكن أن

تتحول إلى صراع شيعي سنّي في المنطقة مع عواقب غير متوقعة، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن هجوماً قد تشنه دولة أجنبية من شأنه أن يجعل الجماهير الأفغانية تلتف حول نظام طالبان.

ورغم ذلك فقد حظيت قعقعة السلاح الإيرانية بالاستحسان في كل عواصم آسيا الوسطى، بما في ذلك طشقند، فقد شعروا بالاطمئنان إلى أن إيران، بعد أن اكتسبت قواتها العسكرية المزيد من القوة بسبب حربها التي دامت ثماني سنوات مع العراق، كانت القوة الإقليمية الأكثر فعالية في مواجهة طالبان عسكرياً، إذا وصل الأمر إلى هذا الحد.

وكان من بين أولئك الذين عارضوا العمل العسكري بنجاح الرئيس محمد خاتمي، وهو إصلاحي كان بطبيعته معتدلاً ومنفتحاً. وخلال فترة رئاسته تعاونت إيران مع أرمينيا، على سبيل المثال. وقد سمح ذلك لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، بدعم من واشنطن، بالنجاح في نزع فتيل الأزمة، وأجرى الجانبان محادثات في شباط-فبراير 1999، ولكن لم يكن هناك أي تباطؤ في العلاقات المتوترة.

إن الصراع الدائر بين إيران وطالبان، بدعم من باكستان والمملكة العربية السعودية، ترك عملية المصالحة بين الجمهورية الإسلامية والمملكة العربية السعودية على حالها بلا تغيير حتى ذلك التاريخ. وكان وزراء الدفاع والداخلية المناهضون لإيران قد زاروا طهران لتوقيع اتفاقيات مهمة في عام 1999.

أما في باكستان، فقد أدى الانقلاب العسكري الذي دبره الجنرال برويز مشرّف، والذي أطاح حكومة رئيس الوزراء نواز شريف في تشرين الأول-أكتوبر 1999، إلى إبقاء سياسة إسلام آباد في التعامل مع حركة طالبان على حالها. وفي الواقع، بعد إقالة الرئيس رفيق طارور من منصبه واحتلال مقعده في حزيران-يونيو 2000، حاول مشرف جاهداً كسب اعتراف العواصم الأجنبية بطالبان، ولكن دون جدوى.

ومن جانبها حافظت إيران على معارضتها النشطة لحركة طالبان التي تَعُدّ الشيعة، في نظرتها المتعصبة وغير المتسامحة، زنادقة فعليين. وكما كان الحال من قبل واصلت طهران حربها بالوكالة مع طالبان من خلال زيادة إمدادات الأسلحة إلى التحالف الشمالي المناهض لطالبان. لكن الذي تلقته طالبان من باكستان من أموال، ووقود، ومعدات عسكرية، ومشورة فنية، ومستشارين عسكريين تجاوز بكثير المساعدات العسكرية التي كان التحالف الشمالي يحصل عليها من إيران وروسيا؛ ونتيجة لذلك، انتصرت حركة طالبان في ساحة المعركة، وجاء نجاحهم الدراماتيكي في أيلول-سبتمبر 2000 عندما استولوا على طالُقان، حيث كان مقر مسعود؛ وقد جاء ذلك ضربة لإيران ولروسيا وطاجيكستان أيضاً.

وفي حزيران-يونيو 2000، بمساعدة الدعم المادي والفني من وكالة الاستخبارات الباكستانية، شنّت حركة طالبان هجوماً كبيراً شارك فيه 25.000 جندي، منهم 10.000 جندي غير أفغاني بل من قدامى المحاربين في تنظيم القاعدة والقوات الباكستانية غير النظامية، للاستيلاء على مقاطعة تخار من التحالف الشمالي، ولكن التحالف، بمساعدة إيران وروسيا والهند، تمكن من الصمود.

وفي واشنطن ركز كلينتون على عزل طالبان دبلوماسياً؛ ففي 19 كانون الأول-ديسمبر 2000، تبنى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قراراً، برعاية واشنطن وموسكو، يصف أفغانستان التي تسيطر عليها حركة طالبان بأنها "المركز العالمي للإرهاب"، وطالب بتسليم بن لادن، وإغلاق معسكرات التدريب العسكري للأجانب خلال شهر. وكان الفشل في القيام بذلك سيؤدي إلى قيام مجلس الأمن بحظر جميع الرحلات الجوية الدولية لطالبان، وإغلاق مكاتبها في الخارج وتجميد أصولها، وفرض حظر على الأسلحة ضدها.[14]

وبهذا أصبح الملا عمر أقرب إلى بن لادن، وأصبح من الخطر المتزايد بالنسبة لباكستان والمملكة العربية السعودية أن تحافظا على علاقاتهما مع نظام طالبان.

وفي 20 كانون الثاني-يناير 2001 خلف جورج دبليو بوش كلينتون كرئيس للولايات المتحدة، وفي حين أوقفت الأمم المتحدة إمدادات الأسلحة عن حركة طالبان، سارعت الحكومة الإيرانية إلى إرسال الأسلحة إلى التحالف الشمالي الآن، ومقرها في العاصمة الطاجيكية دوشانبي، وفي الوقت نفسه غضّت الطرف عن وصول فرق وكالة الأمن القومي في واشنطن وعملاء وكالة المخابرات المركزية إلى دوشانبي لمساعدة مسعود. وكانت الزيارة الأولى على الإطلاق التي قام بها القائد المقاتل للقيادة المركزية الأميركية، الجنرال تومي فرانكس، إلى دوشانبي في ربيع عام 2001، بمثابة إشارة إلى الموقف المتشدد الذي تبنته إدارة بوش ضد طالبان.[15]

في الرياض، في الأول من أيلول-سبتمبر، أقال ولي العهد الأمير عبد الله الأميرَ تركي، الذي كان مقرباً من الولايات المتحدة بصفته رئيساً للتجسس لمدة ثلاثة وعشرين عاماً، واستبدل به أخاه غير الشقيق الأمير نواف بن عبد العزيز، البالغ من العمر ثمانية وستين عاماً، مستشاراً ملكياً لشؤون الخليج.

وبعد عشرة أيام توقف التحالف بين السعودية وطالبان وباكستان بشكل مفاجئ. وقد تبين أن خمسة عشر من الخاطفين التسعة عشر المتورطين في الهجمات الإرهابية في نيويورك ومتروبوليتان واشنطن هم مواطنون سعوديون، إذ اصطدم الخاطفون بطائرتي ركاب

في اثنتين من ناطحات السحاب في مركز التجارة العالمي في مانهاتن السفلى، رمز القوة الاقتصادية الأمريكية، وبطائرة أخرى في البنتاغون في واشنطن، رمز القوة العسكرية التي لا مثيل لها للولايات المتحدة[16]، فتحول 18 مليون قدم مربع (1.6 مليون متر مربع) من المساحات المكتبية إلى أنقاض خلال 80 دقيقة، وأسفرت الهجمات عن مقتل 2977 شخصاً وإصابة ما يقرب من 6000 آخرين، وكان من شأن تلك الهجمات أن تؤدي إلى إجراءات أمنية صارمة دائمة للسفر الجوي في جميع أنحاء العالم، وإنشاء وزارة الأمن الداخلي في الولايات المتحدة، وتآكل الحريات المدنية في الغرب باسم مكافحة الإرهاب الإسلامي، وتنشيط كراهية الأجانب العميقة الجذور بين العديد من مواطني الدول الغربية، وعلى مستوى أعلى، فقد أشعلت تلك الهجمات حربين طويلتي الأمد في أفغانستان والعراق.

وفي 12 أيلول-سبتمبر أعلن الرئيس الأمريكي بوش "الحرب على الإرهاب" في جميع أنحاء العالم، وبعد ثلاثة أيام أعلن أن بن لادن هو العقل المدبر وراء هجمات 11 أيلول-سبتمبر، وقد نفى الأخير أي تورط له فيها. وأدى ذلك إلى غزو البنتاغون لأفغانستان في تشرين أول-أكتوبر 2001، وهي الحرب التي استمرت بعد ستة عشر عاماً، وكلفت أمريكا 860 مليار دولار[17]، وتلاها الغزو الأنجلو-أمريكي للعراق في آذار-مارس 2003 الذي كلف دافعي الضرائب الأمريكيين 815 مليار دولار حتى انتهي في كانون أول-يناير 2014.

ردود أفعال متناقضة على أحداث 11 أيلول-سبتمبر في طهران والرياض

وسارع الرئيس الإيراني خاتمي إلى إدانة الهجمات، ودعا المجتمع الدولي إلى "اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على جرائم كهذه"، وبعث عمدة طهران، مرتضى ألفيري، رسالة إلى نظيره في نيويورك، رودولف جولياني، جاء فيها: «يعرب مواطنو طهران عن كراهيتهم العميقة لهذه الخطوة المشؤومة واللاإنسانية، ويدينون بشدة الجناة، ويعربون عن تعاطفهم مع سكان نيويورك». وعرفاناً منها بحسن صنيع خاتمي دعته إدارة بوش للانضمام إلى حملة مكافحة الإرهاب، مكافاةً له على إعطائهم معلومات حول بن لادن، الذي كان يقاتل بين صفوف طالبان، بينما بقي الدافع الحقيقي لتزويد طهران واشنطن بتلك المعلومات طيّ الكتمان، ألا وهو كراهية طهران لطالبان.

وقرر المرشد الأعلى آية الله علي خامنئي إلقاء خطبة حول أحداث 11 أيلول-سبتمبر في صلاة الجمعة في طهران، وقال فيها: «القتل الجماعي كارثة أينما حدث، وأياً كان مرتكبوه»، وأضاف: «إنه مدان دون تمييز. ولكن إذا حدثت كارثة مماثلة في أفغانستان، لا سمح الله، فسندينها أيضاً».

وفضّلت إيران اتخاذ إجراء ضد طالبان تحت رعاية الأمم المتحدة، وأوضح وزير دفاعها الأدميرال علي شمخاني أنه «إذا حدثت الضربات ضد القواعد الإرهابية في إطار المجتمع الدولي، فإن إيران ستدعمها»، أي أن إيران ستشارك في أي إجراء ترعاه الأمم المتحدة ضد مرتكبي هذا العمل الإجرامي، مع علمها الراسخ بأن قرار مجلس الأمن الدولي رقم 1368 يتضمن بنداً بهذا المعنى.[18]

وخرجت حشود ضخمة إلى الشوارع في العديد من المدن الإيرانية، وأقيمت وقفات احتجاجية على ضوء الشموع لتأبين الضحايا. وبعد يومين تجمع 60 ألف متفرج في ملعب كرة القدم بطهران لحضور مباراة، ووقفوا دقيقة صمت.[19]

وخلال زيارته إلى نيويورك، للمشاركة في احتفال الأمم المتحدة بعام "الحوار بين الحضارات"، أجرى الرئيس خاتمي مقابلة مع صحيفة نيويورك تايمز في 9 تشرين الثاني-نوفمبر، قال فيها: «إن الهجمات الإرهابية المروعة التي وقعت في 11 أيلول-سبتمبر 2001 في الولايات المتحدة ارتكبتها طائفة من المتعصبين الذين شوّهوا آذانهم وألسنتهم، ولم يتمكنوا من التواصل مع الخصوم إلا من خلال المذبحة والدمار».[20]

وعشية حملة البنتاغون ضد طالبان في 7 تشرين الأول- أكتوبر، والتي أُطلق عليها اسم "عملية الحرية الدائمة"، أرسل بوش مذكرة سرية إلى إيران عبر السفارة السويسرية يؤكد لها أن وزارة دفاعه لن تستخدم المجال الجوي الإيراني، فردت إيران في اليوم التالي بأنها سوف تنقذ أي أفراد يتعرضون للخطر على أراضيها، مما يعني ضمناً عضويتها الفعلية في التحالف. وفي ذلك اليوم قدمت إدارة بوش التماساً إلى قاضٍ فيدرالي لإلغاء دعوى قضائية بقيمة 10 مليارات دولار ضد إيران رفعها رهائن السفارة الأمريكية عام 1979.[21]

وتبين فيما بعد أن طهران سمحت بتفريغ 165 ألف طن من المساعدات الغذائية الأمريكية للشعب الأفغاني في ميناء إيراني وإرسالها عبر إيران إلى أفغانستان. وبينما كان بوش يستعد لغزو أفغانستان التي تحكمها طالبان، تلقى معلومات استخباراتية مفيدة عن طالبان من إيران عبر قنوات خلفية، كما أصدرت طهران تعليماتها إلى أمير الحرب الطاجيكي إسماعيل خان، المتمركز في مشهد، بتنسيق هجومه على غرب أفغانستان مع البنتاغون، وهو ما فعله بعد ذلك.[22]

وفي تناقض صارخ، فإن معظم السعوديين على المستويين الشعبي والرسمي دخلوا في حالة إنكار لأحداث 11 أيلول-سبتمبر، وقد تجلى ذلك في العبارة: "لم أطلب ذلك، لكن الله هو الذي قدّره". لقد أصبحت مسألة شخصية بالنسبة للكثيرين. وقال خالد المعينا، رئيس

تحرير صحيفة عرب نيوز: «إن قبول أن السعوديين كانوا لاعبين رئيسين في أحداث 11 أيلول-سبتمبر كان أشبه بتقبل أن ابنك قاتل متسلسل»، وأردف قوله: «كان عليك أن ترفض تصديق ذلك».[23] وقد تمسكوا بالإشاعة القائلة بأن عملاء الموساد، وكالة المخابرات الإسرائيلية، الذين ارتكبوا الفظائع، حذروا اليهود في نيويورك من الابتعاد عن العمل في 11 أيلول-سبتمبر، وقد استجاب لذلك 3000 يهودي في نيويورك؛ ولهذا السبب لم يكن هناك يهود بين القتلى في مركز التجارة العالمي. والحق أن ما بين 270 و400 يهودي قُتلوا في الهجمات.[24]

وقال الأمير عمرو الفيصل: «كان بن لادن شريراً وقاتلاً»، وأضاف: «كمسلم أدين بشدة وبشكل كامل ما فعله، ولكن السعوديين شعب جريء، وليس من المستغرب أن يكون أحد أكثر الإرهابيين جرأة في العالم سعودياً. وكما رأى العديد من المسلمين، فإن سقوط البرجين التوأمين كان بمنزلة درس لكبرياء الأميركيين ورضاهم عن أنفسهم، لقد أذاقهم القليل مما يتجرعه المسلمون».

وقد قدّم محمد الحربي، مدرس الكيمياء في مدينة بريدة الشمالية، نظرة ثاقبة على وجهة النظر الشعبية بين السعوديين. وكانوا [طلابه] يقولون: "لقد بدأ الجهاد". «لقد كانوا جميعاً داعمين للغاية وراضين عن الهجمات على نيويورك، ومن الواضح أنهم كانوا سعداء للغاية بأن ذلك قد نُفِّذ بأيدٍ سعودية، أو هكذا افترضوا».[25]

وكانت الحكمة التقليدية التي قبلها كبار الأمراء السعوديين هي أن الهجمات تعدّ جزءاً من مؤامرة صهيونية تهدف إلى إثارة غضب الإدارة الأميركية إلى الحد الذي قد يدفعها إلى شن حملة عالمية ضد الإرهاب الإسلامي. هذا ما وجده سفير الولايات المتحدة المعين حديثاً لدى المملكة العربية السعودية، روبرت جوردان، وهو محامٍ بارز من تكساس، عند وصوله إلى الرياض في تشرين الأول-أكتوبر 2001، وقال: «إن العديد من كبار الأمراء يعتقدون أنها كانت مؤامرة يهودية». وقال [وزير الداخلية] نايف في بيان علني: في الواقع إنها مؤامرة صهيونية. وحتى [ولي العهد] عبد الله كان متشككاً. وكان هذا هو الحال بعد أن أخبر عبد الله بوش عبر الهاتف في 16 أيلول-سبتمبر قائلاً: «إننا في المملكة العربية السعودية على استعداد تام للتعاون معكم بكل الطرق التي قد تساعد في التعرف على مرتكبي هذا الحادث الإجرامي وملاحقتهم».[26]

وفي لقائه مع عبد الله عرض السفير جوردان الملفات التي أعدها مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) واحتوت هذه على تفاصيل أسماء من كان على متن الطائرات، وحركة جميع الخاطفين، ومعظمهم من السعوديين، بما في ذلك لقطات المراقبة من الكاميرات الأمنية في المطارات المختلفة. لقد كانوا جميعاً رجالاً أذكياء ومتعلمين جيداً في منتصف العشرينيات

من أعمارهم. كان ثلاثة منهم من خريجي الحقوق، واثنان مدرسَين، واثنان شقيقين لرئيس شرطة إقليمي، وواحد ابن رجل أعمال ثري. ومن غير المستغرب أن لا أحد منهم كان شيعياً. بدت ألقابهم –الحازمي، المحضار، الحسناوي[*] الغامدي، القاضي بني حماد، وآخرون– مألوفة لدى عبد الله، الذي كان مطلعاً جيداً على القبائل السعودية. وفي كل حال، اتصل بوالد الخاطف السعودي المدرج في القائمة، الذي بارك عمل ابنه الفقيد، وأبدى رضاه عنه.[27]

وكان عبد الله قد لجأ بالفعل إلى الحدِّ من الأضرار، وقام بتعزيز حصة المملكة العربية السعودية من النفط التي حددتها أوبك بمقدار 500 ألف برميل يومياً، وشحن 700 ألف برميل إضافية يومياً في ناقلات سعودية إلى أمريكا. ونتيجة لذلك، انخفض سعر النفط من 28 دولاراً للبرميل إلى 20 دولاراً في غضون أسابيع. وعلى عكس عبد الله لم يكن الأمير نايف مقتنعاً، وبدا أنه يتفق مع الملا عمر الذي حاجَّ بأن بن لادن لا يمكن أن يكون مسؤولاً لأنه لم يكن لديه طيارون، وقال: «في أفغانستان لا توجد مثل هذه الإمكانية لتدريب [الطيارين]».[28] وهذا تجاهل حقيقة أن الخاطفين قد تدربوا في مدارس الطيران في أمريكا. والمثير للدهشة أن نايف تمسك بوجهة نظره. وقال في منتصف عام 2002: «ما زلنا نسأل أنفسنا: من المستفيد من هجمات 11 أيلول-سبتمبر؟»، وعقَّب بقوله: «أعتقد أنهم [اليهود] كانوا أبطال مثل هذه الهجمات».[29]

عملية البنتاغون للحرية الدائمة

وبينما كانت الولايات المتحدة تستعد لمهاجمة أفغانستان التي تديرها حركة طالبان، ضغطت الإمارات العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية، وباكستان على الملا عمر لتسليم بن لادن، فرفض. وفي 22 أيلول-سبتمبر، قطعت الإمارات علاقاتها مع طالبان، ولحقتها المملكة العربية السعودية بعد ثلاثة أيام معربة عن أسفها لأن طالبان استخدمت «مكانتها الرفيعة التي اكتسبتها بسبب مقاومة السوفييت لا لتبنيَ علاقات أخوية أو تعلي قيماً إسلامية عليا، بل لتجعل الأرض مركزاً لاستقطاب مجموعة من الضالين وتدريبهم على القيام بأعمال إجرامية مخالفة للشريعة، والاستمرار في العمليات الإرهابية، مما يضرّ بالإسلام، ويشوّه اسم المسلمين».[30] (منذ ظهور حركة طالبان إلى الوجود، بعد خمس سنوات من الانسحاب السوفييتي من أفغانستان، لم تلعب أي دور في مقاومة السوفييت). وكانت باكستان، الوالد الحاضن لطالبان، آخر من قطع علاقاته مع نظامها.

(*) ليس هناك بين الاشخاص الذين ارتكبوا هجمات 11 أيلول-سبتمبر من يحمل هذا اللقب

وتكررت كلمات الرياض تلك التي استخدمتها طهران مراراً وتكراراً على مرّ السنين، ومع ذلك كان القادة الإيرانيون غير راضين عن الطريقة التي اعتقدوا أن واشنطن تستخدم بها الأزمة لتأسيس موطئ قدم لها في آسيا الوسطى، بينما تسعى للحصول على المساعدة من جيران أفغانستان، بما في ذلك إيران. وتساءل خامنئي: «كيف يمكن لأميركا التي عبثت بمصالح إيران أن تطلب المساعدة من إيران لمهاجمة شعب أفغانستان المسلم المظلوم والمعذب؟» وأضاف: «من الخطأ القول: إن من ليس معنا، فهو مع الإرهابيين، فهناك دول مثل إسرائيل، جنباً إلى جنب مع أمريكا، التي يرتكب قادتها أعمالاً إرهابية ضد الفلسطينيين. لا. نحن لسنا معكم، ولسنا إرهابيين».[31]

في أعقاب إحاطة إلى منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) قدمها فرانك تايلور، الأمين العام لمنظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) في بروكسل، في 2 تشرين الأول-أكتوبر، قال الأمين العام للمنظمة، اللورد روبرتسون: «كل الطرق تؤدي إلى تنظيم القاعدة، وتبين بدقة أن أسامة بن لادن متورط». وهذا يعني أن الأساس لتفعيل المادة 5 من معاهدة الناتو -أي أن الهجوم على أي عضو يجب أن يكون من الخارج- قد تحقق، مما يمهد الطريق أمام الناتو أن يتيح للولايات المتحدة «الاستخدام غير المحدود لمرافق قاعدته، وموانئه البحرية، ومنشآته الأساسية، والدعم اللوجستي، وطائرات الإنذار المبكر، وتعزيز الأمن للقوات الأمريكية في أوروبا، وتنظيم استعراض بحري للقوة في شرق البحر الأبيض المتوسط».[32]

وبهذا كان البنتاغون مستعداً لإطلاق عملية (الحرية الدائمة) في اليوم التالي، باستخدام مركز القيادة المحدَّث الذي قام بدمج البيانات من الأقمار الصناعية، والطائرات بدون طيار، والمراقبة الجوية والبرية، ومصادر استخباراتية أخرى لإعطاء القادة رؤية في الوقت الفعلي من ساحة المعركة، في قاعدة الأمير سلطان الجوية بالخرج بالمملكة العربية السعودية لتنسيق القصف، مستفيدة من جميع طائراتها بما في ذلك تلك المتمركزة في القاعدة السعودية.

وقد ضخ البنتاغون مئات ملايين الدولارات لتحويل مهبط الطائرات الأصلي إلى قاعدة جوية مترامية الأطراف، وهي أكبر قاعدة جوية أمريكية في الشرق الأوسط.[33] وقد كان الأمر أكثر من مجرد الميزة التقنية في استخدام أحدث مركز قيادة متطور، بل كانت الولايات المتحدة على وشك تحقيق مكسب دعائي كبير. إن تحرك الدولة الإسلامية الأولى جنباً إلى جنب مع أميركا في حربها ضد الإرهاب من شأنه أن يطمئن العالم العربي والإسلامي إلى أن حملتها لم تكن موجهة ضد الإسلام من حيث هو.

وبعد الحصول على إذن الرياض، لاستخدام المنشأة في قاعدة الأمير سلطان الجوية،

أعلنت الولايات المتحدة عن ذلك. ومن خلال القيام بذلك أحرج وزير الداخلية الأمير نايف بشدة، الذي عارض واشنطن علناً. وبعد أيام قليلة تناقضت قصة نشرتها قناة الجزيرة مع نايف. وفي الواقع، أعلن وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد، عقب زيارته للرياض، في 3 تشرين الأول-أكتوبر 2001، أن بعض الدول تساعد التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة علناً وبعضها الآخر سراً. وبلغة إنجليزية واضحة سُمح للبنتاغون بالاستفادة من مركز القيادة الجديد في قاعدة الأمير سلطان الجوية وقتما يشاء.[34]

تدخل ولي العهد الأمير عبد الله، واستبعد استخدام الطائرات الأمريكية المتمركزة على الأراضي السعودية ضد أفغانستان، التي لم تكن حكومتها قد هددت المملكة. وحتى تَدَخُّلُ رامسفيلد شخصياً في الرياض فشل في إقناع عبد الله. وبالإشارة إلى التصريح غير المباشر الذي أدلى به رامسفيلد في مؤتمر صحفي، بعد لقائه مع نظيره السعودي الأمير سلطان، ذكر مايكل جوردون من صحيفة نيويورك تايمز أن «التعليقات تشير إلى أن الولايات المتحدة قد تكون قادرة على استخدام القواعد السعودية التي يمكن للبنتاغون من خلالها أن يتدخل بهجمات قصف مباشرة [بطائرات متمركزة في أماكن أخرى]، لكنها لم تتمكن من القيام بمهام قصف من الأراضي السعودية».[35] وقد أدى ذلك إلى توجه شخصي سريع من جانب رامسفيلد في 4 تشرين الأول-أكتوبر إلى سلطان عُمان قابوس، ثم التخييم في الصحراء في معسكر الشام. ووافق السلطان على نقل الطائرات الحربية الأمريكية إلى قاعدة جوية عُمانية مقابل أن تسمح واشنطن ببيع السلطنةِ أسلحةً متطورة بقيمة مليار و200 مليون دولار. وقد أنهى رامسفيلد جولته السريعة في القاهرة يوم 6 تشرين الأول-أكتوبر.

وبدأ البنتاغون قصف أفغانستان بصواريخ كروز والذخائر الجوية في 7 تشرين الأول-أكتوبر، وفي ذلك اليوم بثت قناة الجزيرة شريط فيديو مدته عشرون دقيقة لـ بن لادن، ومما قال فيه: «إنّ ما تتجرعه أمريكا الآن إن هو إلا نسخة مما ذاقته أمتنا الإسلامية منذ ثمانين عاماً من الذل والهوان؛ لقد قُتل أبناؤهم، وسفكت دمائهم»، ومنه أيضاً: «عندما سقط السيف على أمريكا بعد ثمانين عاماً، رفع النفاق رأسه عالياً يندب هؤلاء القتلة الأمريكيين الذين عبثوا بدماء المسلمين وأعراضهم ومقدساتهم. وأقل ما يمكن أن يقال عن هؤلاء المنافقين[36] إنهم مرتدون... لقد ظل الأمريكيون يقولون للعالم: إنهم يحاربون الإرهاب. مليون طفل [قُتلوا] في العراق [بسبب العقوبات]، هذه ليست قضية واضحة![37] ولكن عندما قُتل ما يزيد قليلاً عن 10 [أمريكيين] في نيروبي ودار السلام، قاموا بقصف أفغانستان والعراق، ووقف المنافقون خلف رأس الكفار الدوليين، أمريكا وحلفائها... وأقسم بالله أن أولئك الذين يقطنون في أمريكا

لن يعيشوا في أمن وأمان حتى نعيش في أرضنا وفي فلسطين، وحتى يخرج كل جيش كافر من أرض محمد، صلى الله عليه وسلم».[38]

وفي 10 تشرين الأول-أكتوبر، فشل وزراء خارجية منظمة المؤتمر الإسلامي، المجتمعون في الدوحة، في التوصل إلى توافق في الآراء بشأن الغزو الأمريكي لأفغانستان. وفي إشارة إلى تواطؤ بن لادن في العمل الإرهابي المروع، قال وزير الخارجية القطري، حمد بن جاسم آل ثاني، «نحن [أعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي] لدينا بعض الأدلة، ولكن ليس لدينا أدلة كافية، ولم نر شيئاً ملموساً».[39] وعلى النقيض من ذلك قال خامنئي في طهران: «كيف يمكن أن تسمحوا بقتل أو إصابة مدنيين أبرياء؟ منذ متى أصبح من المعتاد إرسال قوات إلى دولة أخرى وضرب مدنها بالصواريخ والقصف الجوي بسبب ما يسمى بالإرهاب في تلك الدولة؟».[40]

وواصلت الولايات المتحدة، بمساعدة بريطانيا، هجومها الجوي يوماً بعد يوم. وفي ليلة 12 و13 تشرين الثاني-نوفمبر -قبل أربعة أيام من بداية شهر رمضان- غادرت حركة طالبان كابُلْ بطريقة منظمة، متجهة جنوباً إلى قندهار، وأصبحت إيران الدولة الأولى التي أعادت فتح سفارتها في كابُلْ، وقد فعلت ذلك في غضون عشرة أيام من فرار زعماء طالبان المناهضين للشيعة إلى باكستان.[41] وفي وقت لاحق، خلال زيارته لطهران، وصف الرئيس الأفغاني المؤقت حامد كرزاي الصداقة الأفغانية الإيرانية، القائمة على الثقافة واللغة المشتركة، بأنها "أبدية".[42] (يشترك البلدان في حدود يبلغ طولها 935 كيلومتراً، وهذا يعادل581 ميلاً). وهكذا، في تنافسهما على التفوق في كابُلْ في السياق الإقليمي، انتصر الإيرانيون على حساب السعوديين، ويرجع الفضل في ذلك إلى حد كبير إلى القوة العسكرية الأمريكية.

ومن المناسب أن تكون المذيعة جميلة مجاهد هي التي أعلنت عبر إذاعة كابُلْ وصول تحالف الشمال إلى العاصمة. وقد فعلوا ذلك مع 6000 جندي دخلوا القطاع الطاجيكي من المدينة حيث قامت الحشود المبتهجة والترحيبية بتزويدهم بالزهور، وكانت تلك لحظة استمتع بها في الوقت نفسه الخصمان اللدودان: إيران والولايات المتحدة. وقد استمر تعاونهما الجديد خلف الكواليس.

وفي المؤتمر الذي رعته الأمم المتحدة حول أفغانستان، وبينما كانت أربع مجموعات رئيسة من الأفغان تتنافس على السلطة، حاول الأميركيون والإيرانيون التوصل إلى حل وسط. وقد عمل وزير الخارجية الإيراني كمال خرازي وفريقه بنشاط مع المسؤولين الأميركيين، ومن بينهم زالماي خليل زاد، المدير الأفغاني الأميركي لشؤون أفغانستان في مجلس الأمن

القومي، لتشكيل حكومة مؤقتة في مرحلة ما بعد طالبان في كابُلْ. وجاء ذلك في 5 كانون الأول-ديسمبر. واتفق المجتمعون على تشكيل حكومة مؤلفة من ثلاثين عضوا برئاسة حامد كرزاي، وهو من البشتون، وخمسة نواب للرئيس، واحد لكل مجموعة عرقية مهمة.[43] ولم تكن المملكة العربية السعودية جزءاً من هذه العملية. وفي وقت لاحق، وفي أعقاب سياسة طائفية شاملة، تأكد كرزاي من أن أحد نائبيه كان شيعياً، الأمر الذي أرضى إيران كثيراً.

وكانت طهران تنتظر مقايضة من واشنطن، أي الاعتدال في موقفها المتشدد تجاه إيران، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. وفي الواقع، قال بوش في خطابه عن حالة الاتحاد أمام الكونغرس في 29 كانون الثاني-يناير 2002: «إن هدفنا الثاني هو منع الأنظمة التي ترعى الإرهاب من تهديد أمريكا أو أصدقائنا وحلفائنا بأسلحة الدمار الشامل... كوريا الشمالية هي نظام يتسلح بالصواريخ وأسلحة الدمار الشامل، بينما يقوم بتجويع مواطنيه. وتسعى إيران بقوة إلى الحصول على هذه الأسلحة، وتصدر الإرهاب... ويستمر العراق في التباهي بعدائه تجاه أمريكا ودعم الإرهاب... وتشكل دول مثل هذه، وحلفاؤها الإرهابيون، محور الشر، الذي يتسلح لتهديد السلام في العالم».[44] وباختصار: لم يطرأ أي تغيير على المواقف المتعارضة لطهران وواشنطن. وقد عزز هذا وجهة نظر خامنئي الراسخة بأن أمريكا لا يمكن الوثوق بها.

ومع ذلك فإن عملية الحرية الدائمة غيّرت علاقات واشنطن مع الرياض إلى حد ما، مما يعكس الانفصال بين موقف المملكة الرسمي الداعم لأمريكا والرأي العام المناهض لها، ويمكن الاستدلال على ذلك بخطاب عبد الله أمام كبار المسؤولين الدينيين والقضائيين عشية شهر رمضان، إذ قال: «أطلب منكم ألا تنجرفوا وراء العاطفة، أو بتحريض من أحد. إن الحكومة ستتعامل مع الشؤون الخارجية بحكمة ودون قرارات متسرعة».[45]

توتر العلاقات بين الرياض وواشنطن

ولئن اتفق أفراد العائلة المالكة السعودية مع الموقف السياسي لواشنطن، لقد كانوا أيضاً على دراية بالغضب الشعبي الذي سببته الضربات العسكرية التي شنتها القوة العظمى المسيحية ضد دولة أفغانستان المسلمة الفقيرة. ورغم أن هيئة كبار العلماء امتنعت عن اتخاذ موقف بشأن الموضوع، فإن إمام الحرم المكي الشيخ صالح بن حميد قال: «إن هذا الموضوع [الإرهاب] يدعو إلى سياسات جديدة [من قبل أمريكا]، وليس إلى حروب جديدة». وحذر من أن الهجوم على أفغانستان قد يثير الصراع بين الحضارات والأديان.[46]

وعلى المستوى الشعبي كان هناك الكثير من الشكوك حول إدانة بن لادن، وقد شمل ذلك

بشكل خاص النخبة السياسية السعودية التي ألقت باللوم على دعم واشنطن بلا خجل لقمع [كيان] إسرائيل للانتفاضة الفلسطينية الثانية منذ عام مضى (المعنى الحقيقي لـ"انتفاضة" في العربية هو: الهزة، أما المجازي، فهو: النهوض) بوصفها السبب الرئيس الذي يدفع الشباب السعودي إلى أحضان المتطرفين الإسلاميين، وقد تغافلوا عن حقيقة أن غياب الحرية السياسية في المملكة دفع العديد من السعوديين المتعلمين إلى البحث عن قضية سياسية للانضمام إلى الجهاد في البوسنة أو الشيشان بعد انتصار الجهاد ضد السوفييت في أفغانستان، وأولئك هم الذين يطلقون الآن على بن لادن لقب "ضمير الإسلام". وكما قال أحد كبار المحامين السعوديين (لم يذكر اسمه) في جدة لمراسل زائر من صحيفة نيويورك تايمز: «إن ما يقوله بن لادن وما يفعله يمثّل ما يريد المسلمون أو العرب قوله، وما لا يستطيعون قوله. ونحن نتفق معه فيما يقوله».[47] وقد جرى تأكيد ذلك من خلال استطلاع رأي سرّي أجرته وزارة الداخلية أظهر أن 95% من السعوديين المتعلمين في الفئة العمرية 25-41 سنة يؤيدون "قضية بن لادن".[48] أما أصحاب الفئة العمرية الدنيا، فتقول مي يماني، الزميلة السعودية في المعهد الملكي للشؤون الدولية بلندن: «إن الشباب تعرضوا للقنوات الفضائية وأفكار جديدة حول الانتفاضة الفلسطينية والعقوبات على العراق. القضايا الرئيسة هي الرقابة والمعايير المزدوجة. هناك طلب متزايد على المشاركة. الشباب والشابات يقولون: نحن الأمة، ولكن لا نُستَشار أبداً. وعندما يأتي أسامة بن لادن وآخرون ببدائل، فإنهم يهتفون لهم».[49]

وعلى المستوى الرسمي نشبت خلافات بين الرياض وواشنطن حول مسألة تجميد أصول تنظيمات يُزعم أنها تموّل الإرهابيين. وفي 12 تشرين الأول-أكتوبر قامت واشنطن بتسمية 22 مجموعة وفرداً سعت إلى تجميد أصولهم في جميع أنحاء العالم. وكان من بينهم مؤسسة موفق، ومقرها العربية السعودية، والمعهد الثقافي الإسلامي في ميلانو بإيطاليا، الذي يوصف بأنه "المحطة الرئيسة لتنظيم القاعدة في أوروبا".[50]

وقد رفضت الرياض إغلاق مؤسسة موفق، وهي مؤسسة خيرية إسلامية، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن الإسلام يأمر بالصدقة، كما أن المملكة كان فيها مواطنون أثرياء بكثرة، ويرجع ذلك جزئياً إلى افتقار البلاد إلى هيئة إشرافية على البنوك، وجزئياً لأن واشنطن فشلت في إثبات أن أموالاً من أي مؤسسة خيرية مقرها السعودية ذهبت إلى تنظيم القاعدة.

ثم ضغطت إدارة بوش على الرياض من خلال تسريب معلومات محرجة عن الفساد الأخلاقي والمادي الذي يمارسه الأمراء الملكيون إلى الصحفي الاستقصائي سيمور هيرش من مجلة نيويوركر، مما يعني ضمناً المزيد من الكشف المدمر إذا فشلت المملكة العربية

السعودية في تلبية مطالبها بتجميد أصول الجمعيات الخيرية التي حددت الولايات المتحدة أسماءها وتقديم الخلفيات الكاملة للخاطفين الخمسة عشر.

وبعد الكشف عن أن وكالة الأمن القومي الأمريكية كانت تراقب المحادثات الهاتفية للملك وولي العهد والعديد من الأمراء الكبار منذ منتصف التسعينيات، أشار هيرش إلى عملية التنصت التي أصدر فيها وزير الداخلية نايف تعليمات لأحد مرؤوسيه بأن يحجب عن الشرطة الدليل على استئجار "أفراد من العائلة المالكة للعواهر" -وهي جريمة خطيرة- مشدداً على أن «قائمة العملاء يجب ألا يُكشَف عنها تحت أي ظرف من الظروف».[51]

وعلى الرغم من نجاح الحيلة، حيث قامت الرياض بتجميد أصول مؤسسة موفق خلال أيام من نشر مقال هيرش، فإن الولايات المتحدة عززت، عن غير قصد، الحجة المناهضة للملكية التي يتبناها معسكر بن لادن. وقد أدانت الرياض، بغضب، "الحملة الشرسة التي تشنها وسائل الإعلام الغربية ضد المملكة" في 29 تشرين الأول-أكتوبر، وقال المتحدث باسم البيت الأبيض: إن بوش اتصل بولي العهد الأمير عبد الله ليقول: «إنني سعيد للغاية بمساهمة المملكة في المجهود الحربي، وإن وسائل الإعلام التي ذكرت الاختلافات بين أمريكا والمملكة العربية السعودية كانت ببساطة غير صحيحة».[52]

وهذا لم يرضِ حكومة المملكة، فقد قال وزير خارجيتها الأمير سعود الفيصل، وهو يرمي بالتقدير السعودي التحذيري في مهب الريح: «إن فشل بوش في التزام هيبته الشخصية بصياغة التسوية السلمية النهائية (بين [كيان] إسرائيل والفلسطينيين) يجعل الرجل العاقل يصاب بالجنون». إن كل ما كان على بوش أن يفعله هو أن يقدم نفسه كوسيط نزيه. وأضاف: «لا يمكن لبوش أن يكون وسيطاً نزيهاً ويجتمع مع طرف واحد فقط (رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون)».[53] ومن الواضح أنه وجد حجة بوش بأن ياسر عرفات لم يفعل "ما يكفي" لخفض العنف الفلسطيني واستئصال الإرهابيين خلال الانتفاضة الثانية المستمرة، غير مقنعة.

روابط الأمير بندر التي لا تتزعزع مع عائلة بوش

ومن المثير للاهتمام أن التوترات الناجمة عن الدور القيادي للمواطنين السعوديين في أعنف هجوم على الأراضي الأمريكية تركت الصداقات الوثيقة التي أقامها الأمير بندر بن سلطان، سفير المملكة العربية السعودية لدى الولايات المتحدة منذ عام 1983، مع الرئيس جورج بوش الأب وابنه: جورج ووكر بوش سليمة. وقد مارس، جنباً إلى جنب مع بوش الأب، ضغوطاً من أجل الموافقة على مبيعات الأسلحة الأمريكية الضخمة إلى المملكة العربية

السعودية حيث كان والد بندر، الأمير سلطان بن عبد العزيز، وزيراً للدفاع منذ عام 1963. وخلال رئاسة بوش الأب كان بندر يتناول معه وجبات غداء عِدّة كل عام، وكان يتردد كضيف على منتجع عائلة بوش في كينبانكبورت بولاية ماين، وقد اصطحبه بوش الأب معه للصيد. وكان يقيم في قصر كبير يخضع لحراسة مشددة في ماكلين بولاية فيرجينيا، ويعيش حياة مترفة، وأصبح يُعرف باسم "غاتسبي العربي" بسبب الحفلات الكبيرة التي أقامها. وعلى مر السنين أصبح بندر جزءاً لا يتجزأ من عائلة بوش، وقد ساعد في إقامة العلاقات المالية بين عائلة بوش وآل سعود.

وحدث أن الرئيس جورج دبليو بوش دعاه إلى الاجتماع في البيت الأبيض في 13 أيلول-سبتمبر 2001 لمناقشة عملية السلام في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من هجمات 11 أيلول-سبتمبر المؤلمة، مضى هذا الاجتماع قُدُماً. وقد أفادت التقارير أن بوش ناقش قيام إدارته بتسليم السعوديين أولئك الذين أُسِروا من عملاء تنظيم القاعدة الذين فشلوا في التعاون مع مكتب التحقيقات الفيدرالي.

في البداية رفض بندر التقارير المتعلقة بتورط السعودية في أحداث 11 أيلول-سبتمبر، ووصفها بأنها مبالغ فيها، ثم تلقى مكالمة هاتفية من مدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينيت مساء يوم 12 أيلول-سبتمبر يخبره أن خمسة عشر من الخاطفين كانوا سعوديين. وخلال الثماني والأربعين ساعة التالية، ذهب بندر للعمل على جبهتين: السيطرة على الأضرار التي لحقت بالسمعة من خلال حملة علاقات عامة فعالة، والتأكد من أن 140 سعودياً كانوا أعضاء أو شركاء في آل سعود ومجموعة بن لادن السعودية غادرت الولايات المتحدة جواً على الفور، على الرغم من أن هيئة الطيران الفيدرالية (FAA) حظرت جميع الرحلات الجوية وأوقفت 4000 طائرة تجارية، و200000 طائرة خاصة أخرى. وبعد تحقيق شامل نشر كريج أونجر من مجلة فانيتي فير، ومقرها نيويورك، تقريراً عن كيفية نقل هؤلاء السعوديين من أمريكا. وجاءت أول فكرة في تشرين الأول-أكتوبر 2001 عندما ذكرت صحيفة تامبا تريبيون أن طائرة مستأجرة تقل ثلاثة سعوديين طارت من تامبا إلى ليكسينغتون في 12 أيلول-سبتمبر على الرغم من الحظر الذي فرضته إدارة الطيران الفيدرالية على جميع الرحلات الجوية، والذي رُفِع عن الطائرات الخاصة فقط في البداية، وذلك في 14 أيلول-سبتمبر.

ووفقاً لصحيفة نيويورك تايمز نُقِل أفراد عائلة بن لادن الممتدة أو حملوا جواً تحت إشراف مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى نقطة تجمع سرية في تكساس أولاً، وبعد ذلك إلى واشنطن، ومن هناك سافروا إلى الخارج عندما أعيد فتح المطارات في 14 أيلول-سبتمبر. وشملت نقاط

التجمع الأخرى للسعوديين المتميزين هيوستن، وكليفلاند، ولوس أنجلوس، ونيوارك. نقلت رحلات جوية عدة السعوديين إلى مطار لوغان الدولي في بوسطن ومطار نيوارك في 18 أيلول-سبتمبر، وأقلعت الدفعات الأخيرة من السعوديين من بوسطن ونيوارك، المطارين اللذين استخدمهما خاطفو طائرات 11 أيلول-سبتمبر، في 19 أيلول-سبتمبر. ولم يتعرف على هؤلاء المغادرين إلا عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي، ولم يتعرض أي منهم لمقابلة أو استجواب جدي. كما رفض مكتب التحقيقات الفيدرالي الكشف عن هويات السعوديين المغادرين. وبينما نفى مكتب التحقيقات الفيدرالي أن يكون له أي علاقة بعمليات الترحيل السعودية، قال بندر لشبكة CNN: «بالتنسيق مع مكتب التحقيقات الفيدرالي، أخرجناهم جميعاً».

وعلى الرغم من بذل قصارى جهده، فشل أونغر في معرفة من أصدر الأمر الأولي لإعطاء الأولوية لإعادة السعوديين ذوي العلاقات الجيدة الذين كانوا في الولايات المتحدة آنذاك؟ ولماذا؟[54] وقد تركزت التكهنات المطلعة على علاقات الأمير بندر الوثيقة للغاية مع آل بوش. وقد ظهر دوره بشكل بارز عندما استعد بوش الابن لغزو العراق في عام 2003، وهي خطوة عارضها في البداية ولي العهد الأمير عبد الله.

وفي الوقت الحالي، كان عبد الله عازماً على سد الفجوة التي نشأت بين حكومته والجمهور فيما يتعلق بعلاقة المملكة مع الولايات المتحدة.

التنافس الإيراني السعودي المستمر في باكستان

وفي حين تكيّفت الرياض بسرعة مع سقوط طالبان في أفغانستان، لم يكن هذا هو الحال مع إسلام آباد، ولكن لم يطرأ أي تغيير على قيام المملكة العربية السعودية وإيران بشن حرب بالوكالة في باكستان من خلال العنف بين الطوائف، حيث تقوم الجماعات المسلحة المتنافسة بتنفيذ اغتيالات متبادلة.

كان محمد عزام طارق نائباً سابقاً، الذي خلف أورنجزيب فاروقي كزعيم لحزب الصحابة، قد قدّم في البرلمان مشروع قانون يسعى إلى إدراج أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة (أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي) في قانون التجديف الباكستاني[*] الحالي، ولكنه أخفق[55] واتُّهم بقتل

(*) لا يعني "التجديف" هنا دفع القارب باستخدام المجاديف، بل له معنى اصطلاحي ديني، يُقصد به منع الإهانة أو ازدراء الإله أو المقدسات عبر الكفر، الشتم، الاستهزاء بالأنبياء. ويأتي مشروع القانون الباكستاني حسبما ذهب مناصروه لتشديد حماية الشخصيات الإسلامية، وحماية الرموز الدينية، بما يشمل الخلفاء الأربعة [المركز].

العديد من الشخصيات الشيعية في التسعينيات وقضى حكماً بالسجن لمدة عامين، وقام بتوثيق روابط الجماعة مع تنظيم القاعدة وحركة طالبان بصفته زعيماً لحزب جنوب السودان.

واستجابة لضغوط واشنطن في أعقاب أحداث 11 أيلول-سبتمبر، في 12 كانون الثاني-يناير 2002، قام الحاكم العسكري الباكستاني الجنرال برويز مشرف بحظر خمس منظمات متطرفة، بما في ذلك الحزب الاشتراكي الباكستاني وحركة الجعفرية الباكستانية (الشيعية). ومع ذلك، سُمح لطارق بخوض الانتخابات البرلمانية في تشرين الأول-أكتوبر 2002 من زنزانته في السجن، وفاز، فأطلقت الحكومة سراحه، وتولى مقعده في الجمعية الوطنية عندما وافق على دعم التحالف المؤيد لمشرف.[56] لقد أوفى بوعده حتى اغتياله في 6 تشرين الأول-أكتوبر 2003 على يد مسلحين شيعة منافسين. وباختصار: لقد عاد العنف الطائفي إلى الحياة في باكستان، والذي كان ناشئاً عن التنافس بين الرياض وطهران.

انزعاج الرياض من برنامج طهران النووي

وفي أغسطس 2002، وفي مؤتمر صحفي في واشنطن، كشف مجلس المقاومة الوطنية الإيرانية (NRCI) أن إيران كانت تخفي منشأة ضخمة لتخصيب اليورانيوم ومواقع أخرى عن الوكالة الدولية للطاقة الذرية ومقرها فيينا، وتبين أن المنشأة الموجودة تحت الأرض تقع في نطنز، شمال شرقي أصفهان، حيث رُكِّب مفاعل أبحاث منذ سنوات عديدة. وقد وفّر هذا الاكتشاف لإدارة جورج دبليو بوش أساساً جديداً للادعاء بأن إيران كانت تخطط سراً لإنتاج أسلحة نووية.

ورغم أن تخصيب اليورانيوم لا يشكل انتهاكاً لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية لعام 1968(العنوان الرسمي: معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، NPT)، التي وقعتها إيران في عام 1970، فإن الموقعين مطالبون بإبلاغ الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وهذا ما لم تفعله طهران. أما في الرياض، فقد عزز ما كشفه NRCI يد الأمير سلطان الموالي لأمريكا، ومع ذلك، كانت إدارة بوش مركِّزة جداً، في صيف عام 2002، على التخطيط لغزو العراق لتكثيف الضغط على إيران.

وقد لاحظت كلٌّ من الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية أيضاً الادعاء الذي قدّمه داريوش فروغي، رئيس مركز أبحاث الطاقة والبيئة في طهران، بأن إيران تمتلك 12 ألف طن من رواسب اليورانيوم.[57]

لقد تحوّل قلق الرياض إلى إنذار عندما أعلنت إيران في أوائل عام 2003 عن خطتها

لتخصيب اليورانيوم المستخرج محلياً "لأغراض سلمية". أما الوكالة الدولية للطاقة الذرية، فقالت: إنها كانت على علم بخطط إيران من قبل. وبوصفها دولة موقعة على معاهدة حظر الانتشار النووي، يحق لإيران تخصيب اليورانيوم بنسبة نقاء تصل إلى 5% لاستخدامه في محطة طاقة نووية مدنية. وقد أخفق هذا في طمأنة السعوديين، إذ كانوا يخشون من أن امتلاك إيران للسلاح النووي سيحيي طموحاتها، التي لم تتبدد يوماً، في الهيمنة على الشرق الأوسط.

عبد الله مرتبك فيما يتعلق باستهداف بوش للعراق

كرّس الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش خطابه لتشويه صورة الزعيم العراقي فقط، وذلك أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول-سبتمبر 2002، بعد شهرين من تسلل عملاء وكالة الاستخبارات المركزية إلى العراق عبر الأردن لتنفيذ عمليات سرية ضد نظام الرئيس صدام حسين بدعوى أنه كان يعمل سراً في إنتاج أسلحة الدمار الشامل. وقد نصّ قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم 1441 الصادر في 8 تشرين الثاني-نوفمبر 2002 على أن العراق لم يمتثل لقراراته السابقة، لكنه لم يسمح باتخاذ إجراء عسكري ضد نظام صدام حسين، الأمر الذي كان سيتطلب قراراً منفصلاً ومحدداً كما حدث بعد غزو العراق واحتلاله للكويت في أغسطس 1990.

وكان عبد الله يعارض العدوان الخارجي على أي دولة عربية. وتوقعاً لرفضه السماح للبنتاغون باستخدام قاعدة الأمير سلطان الجوية قامت القيادة المركزية الإقليمية المعروفة أيضاً باسم (CENTCOM) ببناء منشأة قيادة جوية احتياطية في قاعدة العديد الجوية التي بنتها فرنسا على بعد 25 ميلاً (40 كم) غربي الدوحة، عاصمة قطر. وفي 22 تشرين الثاني-نوفمبر، أعلنت القيادة المركزية الأمريكية عن الانتهاء من هذه القاعدة وسط ضجة إعلامية.[58] ومن شأن هذه المنشأة في قطر أن تزود السعوديين بذريعة مفيدة مفادها أن العمليات الجوية الأمريكية يجري تنسيقها من هناك.

وعلى مدى الأسابيع القليلة التالية ضغط البيت الأبيض علناً على صدام حسين للتنحي، إلى الحد الذي انضمت إليه الإمارات العربية المتحدة في كانون الثاني-يناير، وقد ذهبت جهوده سدىً، إذ لم يكن صدام حسين، الديكتاتور المتغطرس، ليقوم بهذه الخطوة المهينة أبداً.

وفي أوائل كانون الثاني-يناير، قرر بوش غزو العراق، وحصل على دعم رئيس الوزراء

البريطاني توني بلير. وفي 13 كانون الأول-يناير، أطلع ديك تشيني ووزير الدفاع رامسفيلد الأمير بندر على قرار الرئيس بمهاجمة العراق قبل إبلاغ وزير الخارجية كولن بأول الرئيسَ السابق لهيئة الأركان المشتركة.[59] وقد أُطلِع الأمير بندر مرات عِدّةً قبل الغزو كجزء من تأمين مساعدة الرياض، وتلقى تحديثات منتظمة مع تغير احتياجات البنتاغون. في الواقع بدأت الاستعدادات للعمليات الأمريكية داخل المملكة العربية السعودية في عام 2002 عندما وقّعت القوات الجوية الأمريكية عقداً مع شركة سعودية لتوريد وقود الطائرات لأربعة مطارات أو قواعد داخل البلاد.[60]

وخلال رحلاته العديدة إلى الرياض أبقى بندر ولي العهد الأمير عبد الله والملك على اطلاع كامل، وكان على عبد الله أن يقمع مخاوفه بأن زعزعة استقرار النظام الحالي في بغداد من شأنه أن يؤدي إلى تمزيق العراق. وحتى لو نقل تلك المخاوف مباشرة إلى البيت الأبيض، فإن بوش كان عازماً على غزو العراق بغض النظر عما يقوله حلفاء أميركا العرب أو أعضاء مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. ولم تصل أصوات السعوديين الرافضين للحرب الأمريكية إلى بندر لأنه يقيم في واشنطن.

إستراتيجية إيران الماكرة

وإدراكاً منها للتعاطف الشعبي الذي طوّره الإيرانيون تجاه معاناة إخوانهم المسلمين في العراق، بسبب تأثير العقوبات الطويلة الأمد، بدأت طهران منذ عام 1997 في مساعدة العراق على تهريب نفطه عبر المياه الإقليمية الإيرانية، وإن كان ذلك مقابل رسوم باهظة. وقد ضمن الرئيس خاتمي مشاركة إيران في تجاوز مناطق حظر الطيران، والتي بدأت في أواخر صيف عام 2000. ومن خلال تكليف وزير الخارجية خرازي بقيادة وفد إيراني في أول رحلة طيران إيرانية إلى بغداد في تشرين الأول-أكتوبر 2000 سلّط خاتمي الضوء على التغيير في سياسته. وبعد لقائه بصدام حسين، قال خرازي: إن الرئيس العراقي أعرب عن «استعداده وتصميمه على تطبيع العلاقات مع إيران». وأضاف خرازي: «أهم من ذلك أننا قررنا تفعيل اتفاقية [الجزائر] عام 1975 من أجل إقامة علاقات متوازنة وحسن جوار».[61]

إذن بعد مرور عشرين عاماً على غزو صدام لإيران بعد تمزيق اتفاق الجزائر خلال خطاب تلفازي، كانت الجارتان تعودان –كما كانتا– إلى المربع الأول. ومع تصنيف الرئيس جورج دبليو بوش لإيران والعراق كجزء من "محور الشر"، وهي عبارة مثيرة للاشمئزاز، في خطابه عن حالة الاتحاد في كانون الثاني-يناير 2002، تحسنت العلاقات بين البلدين.

وفي أي حال فإن الحكومة الإيرانية اتبعت سياسة انفصامية في الفترة التي سبقت الغزو الأنجلو-أمريكي في آذار-مارس 2003، إذ أعطت الضوء الأخضر للمجلس الأعلى السري للثورة الإسلامية في العراق، ومقره في طهران إلى جانب جناحه المسلح، المسمى فيلق بدر منذ تأسيسه عام 1983، للمشاركة في خطط واشنطن لزعزعة الاستقرار قبل الغزو. وفي الوقت نفس أكدت علناً أن أي عمل مسلح ضد العراق يجب أن يحظى بموافقة مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.

ولم تعد إيران بحاجة إلى فعل المزيد، ولم تكن هذه هي الحال مع المملكة العربية السعودية، التي كانت على دراية كاملة بالموقف الذي اتخذه الهارب أسامة بن لادن، الذي كان يعمل من مخبأ على طول المنطقة الحدودية بين أفغانستان وباكستان، والذي حظي بتغطية إعلامية واسعة. وقال في شريطه الصوتي الذي بثته قناة الجزيرة التلفزية في 11 شباط-فبراير 2003 أثناء موسم الحج: «إن هذه الحرب الصليبية تستهدف في المقام الأول أهل الإسلام بغض النظر عن إزالة أو بقاء حكومة صدام الاشتراكية (العراقية)». وأضاف: «يجب على المسلمين عموماً، وفي العراق بشكل خاص، أن يجاهدوا ضد الهجوم الظالم. ولا يضرُّ في الظروف الراهنة أن تتطابق مصالح المسلمين مع مصالح الاشتراكيين في الحرب ضد الصليبيين، مع مراعاة إيماننا وإعلاننا برِدة الاشتراكية».[62]

سياسة المملكة العربية السعودية المزدوجة

عقدت جامعة الدول العربية في الأول من آذار-مارس 2003 قمة في منتجع شرم الشيخ المصري على البحر الأحمر على خلفية الحرب الوشيكة، وقد عارضت سورية أي حرب دون تفويض من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وهو الموقف الذي تتقاسمه مع إيران خارج نطاق العالم العربي. وقادت المملكة العربية السعودية ومصر مجموعة حثت على تجنب الحرب. وأعرب البيان الختامي، الذي جرى تبنيه بالإجماع، عن "الرفض التام لأي هجوم على العراق"، ودعا إلى حل الأزمة عبر القنوات الدولية. وحثوا العرب على "عدم المشاركة في أي عمل عسكري يستهدف سلامة العراق أو أي دولة عربية ووحدة أراضيها"، وقالوا: إنه ينبغي منح مفتشي الأمم المتحدة "متسعاً من الوقت" للقيام بعملهم. وأشار البيان إلى أن التهديدات الخطيرة التي يواجهها العراق (من قبل الولايات المتحدة) يمكن أن تؤدي إلى حريق خطير له عواقب وخيمة في العالم العربي.[63]

لقد كانت خطط الغزو التي وضعتها واشنطن متقدمة جداً، بحيث لا يمكن منعها بقرار

من جامعة الدول العربية. ومن حيث التوقيت كان الطقس عاملاً حاسماً، حيث ترتفع درجات الحرارة بعد نهاية شهر آذار-مارس. علاوة على ذلك، فما إن رفض البرلمان التركي، العضو في حلف شمال الأطلسي، السماح للقوات الأمريكية باستخدام الأراضي التركية للقيام بعمليات في العراق على طول الجبهة الشمالية في الأول من آذار-مارس، حتى أصبحت المشاركة المباشرة والواسعة النطاق من جانب المملكة العربية السعودية حاسمة، ولكن من أجل إظهار أن حكام المملكة كانوا متناغمين مع الرأي العام، ألقى عبد الله خطاباً متلفزاً قرأ فيه بيان سياسة الملك فهد: قال العاهل السعودي إن المملكة لن تشارك "بأي حال من الأحوال" في الحرب ضد العراق.[64] ولكن الواقع كان خلاف هذا الموقف العام تماماً.

عشية الغزو الأنجلو-أمريكي للعراق، الذي أطلق عليه اسم عملية حرية العراق، والذي كان من المقرر إطلاقه بحرب خاطفة في 20 آذار-مارس 2003، ذكرت صحيفة نيويورك تايمز أنه في قاعدة الأمير سلطان الجوية المترامية الأطراف في الخرج، نُشر 5500 جندي أمريكي داخل محيط آمن، مع سيطرة القيادة المركزية للبنتاغون على الوصول إلى المجمع. وكانت القاعدة مركزاً للطائرات المقاتلة الأمريكية، وطائرات الإنذار المبكر من طرازE-3 Awacs وطائرات التزود بالوقود أثناء الطيران، وغيرها من طائرات المراقبة والاستطلاع.

وخلافاً لتصريحات السعوديين أكد المسؤولون الأمريكيون أن عمليات القيادة الجوية الأولية، التي يديرها مركز العمليات الجوية المشتركة، ستبقى في المملكة العربية السعودية، حيث يتمركز صناع القرار. قام قائد القيادة المركزية الأمريكية، الجنرال تومي فرانكس، بزيارة المخابئ المكتظة بالكمبيوتر في قاعدة الأمير سلطان الجوية في 19 آذار-مارس. ووصف المقدم جوزيف لاماركا مركز العمليات بأنه "منظمة متعددة الجنسيات [والتي] تضم مضيفينا، الذين، كما قال، يعملون في مبنى مقرنا الرئيس في مركز العمليات الجوية المشتركة الفعلي"، والذي كان حينها منشغلاً بتحديد الأهداف العراقية المراد قصفها، والاستعداد لتقييم الأضرار بعد القصف، وأكد أن مركز العمليات سيواصل "تخطيط تنفيذ جميع العمليات الجوية وتوجيهها ومراقبتها في منطقة مسؤولية القيادة المركزية"، والتي تشمل العراق.[65]

أقلعت ما بين 250 و300 طائرة حربية أمريكية من السعودية، وقال المسؤولون: لقد سُمح بالعمليات الجوية والعسكرية خلال الحرب في قاعدة تبوك الجوية ومطار عرعر الإقليمي بالقرب من الحدود العراقية. وكشف الجنرال تي مايكل موسلي، أحد كبار جنرالات القوات الجوية الأمريكية والذي كان المهندس الرئيسي للحملة الجوية في العراق، في نيسان-أبريل 2004 قائلاً: «لقد قمنا بتشغيل مركز القيادة في المملكة العربية السعودية، وقمنا بتشغيل

طائرات خارج المملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى أجهزة استشعار وناقلات". وشكر السعوديين على "مشورتهم وتوجيههم وقيادتهم ودعمهم».

وللحفاظ على الواجهة القائلة بأن الرياض لم تكن تتعاون مع البنتاغون عقد المسؤولون الأمريكيون خلال الحرب إحاطات إعلامية حول الحملة الجوية في قطر للإشارة إلى أن القيادة المركزية الأمريكية كانت تستخدم قاعدة العديد الجوية في حربها الجوية. وسمحت الرياض بإطلاق صواريخ كروز من السفن البحرية عبر المجال الجوي السعودي إلى العراق. وفي مرات قليلة خرجت صواريخ عن مسارها، وسقطت داخل المملكة العربية السعودية.

وخلال الصراع قدّم السعوديون عشرات الملايين من الدولارات من النفط والغاز والوقود بأسعار مخفضة للقوات الأمريكية. وكان مشهد سيل من شاحنات نقل النفط يمتد لأميال خارج قاعدة الأمير سلطان الجوية هو الدليل على ذلك. ومن أجل مواجهة ارتفاع أسعار النفط، بسبب احتمال قيام القوات العراقية بإشعال النار في آبارها النفطية لحرمان القوات الغازية من استخدامها، أمر عبد الله بزيادة قدرها 1.5 مليون برميل يوميا خلال الفترة التي سبقت الحرب.[66]

وامتد الوجود العسكري الأمريكي إلى القواعد الجوية في عرعر وتبوك قرب الحدود العراقية، إذ استضافت هذه المواقع طائرات ناقلة أمريكية وبريطانية للتزود بالوقود أثناء الطيران وطائرات هليكوبتر لمهام البحث والإنقاذ. ومن هناك أيضاً انطلقت القوات الخاصة الأمريكية خلال الحملة البرية التي انطلقت في 22 آذار-مارس.[67]

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن عبد الله قال، وفقاً لموقع ويكيليكس، خلال اجتماعه في 15 آذار-مارس 2009 مع سفير الولايات المتحدة لدى المملكة فورد فريكر، ومسؤولي البيت الأبيض الزائرين: «نحن (الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية) سفكنا الدماء معاً» في الكويت والعراق.[68]

في 1 نيسان-أبريل 2003، مع احتدام الحرب في الجو وعلى الأرض، اقترح وزير الخارجية السعودي الأمير سعودي الفيصل وقف القتال مؤقتاً. وقال: «أوقفوا الحرب!»، «دعونا نجلس ونأخذ استراحة بعد ما رأيناه من الدمار». وألمح ضمناً إلى أن صدام حسين يجب أن يتنحى مضيفاً: إن «السيد صدام حسين طلب من شعبه التضحية من أجل بلدهم، وإذا كان الشيء الوحيد الذي يبقي الصراع مستمراً هو وجوده، فعليه أن يستمع إلى نصيحته». ورداً على ذلك وصف نائب الرئيس العراقي طه ياسين رمضان الأمير سلطان بأنه "عميل وخادم" لأمريكا.[69]

وبعد أسبوع سقطت بغداد في أيدي القوات الأمريكية المتقدمة، واختبأ صدام حسين،

وظل طليقاً حتى كانون الأول-ديسمبر.[70] ولجميع الأغراض العملية، انتهت الحرب في 16 نيسان-أبريل، على الرغم من أنه لم يعلن بوش نهاية رسمية للأعمال العدائية ضد العراق إلا في 1 أيار-مايو.

وخلال تلك الأسابيع الأربعة نفذت القيادة المركزية الأمريكية 37 ألف طلعة جوية، وأطلقت 23 ألف صاروخ موجه بدقة، و750 صاروخ كروز، وأسقطت 1566 قنبلة عنقودية، جرى تنسيقها على قاعدة الأمير سلطان الجوية.[71] وقد انشق العديد من الجنرالات العراقيين، وتفرق الجنود بلا قائد. وبالتالي لم يكن هناك استسلام رسمي للعراق للمنتصرين.

عصر ما بعد صدام حسين، إيران

ما إنْ سقط نظام صدام حسين، حتى كان هناك رضاً هادئ بين الشعب والسياسيين الإيرانيين؛ ففي نهاية المطاف، كانوا أول ضحايا عدوان صدام. والآن يطالب زعماء إيران القوات التي تقودها الولايات المتحدة بتسليم مهام حفظ السلام وإجراء الانتخابات إلى الأمم المتحدة. ولم يكن لدى الولايات المتحدة مثل هذه النية. والحقيقة أنه في أول موجة من انتصار البنتاغون السريع في العراق بدأت التقارير تصدر من واشنطن بأن إيران هي التالية في صف "محور الشر" لتغيير النظام.

ولإحباط مثل هذه الخطوة اتبعت إيران نهجاً دراماتيكياً -ولكن غير معروف- تجاه واشنطن. جاء ذلك على شكل رسالة مرسلة عبر السفارة السويسرية التي تمثل المصالح الأمريكية في إيران. (وفقاً للإيرانيين كانت الرسالة رداً على مجموعة من نقاط الحوار التي جاءت من وسطاء أمريكيين). وأعربت إيران فيها عن استعدادها لمناقشة جميع المواضيع التي تهم الولايات المتحدة، بما في ذلك قضية البرنامج النووي الإيراني، وتحقيق الاستقرار في العراق، وإنهاء دعمها للجماعات الفلسطينية المسلحة، والمساعدة في نزع سلاح حزب الله. وفي المقابل أرادت طهران وضع حد لسلوك واشنطن العدائي ورفع اسم إيران رسمياً من قائمة "محور الشر".

وصدرت الرسالة بعد نقاش داخلي مكثف بين صنّاع السياسات، ووافق عليها المسؤولون على أعلى المستويات. ووفقاً لسيد عادلي، الذي كان آنذاك نائباً لوزير الخارجية الإيراني، فإن «هذه الرسالة ذهبت إلى الأميركيين لنقول: إننا مستعدون للتحدث، ونحن مستعدون لمعالجة قضايانا»، ولكنها لم تثمر عن شيء[72]؛ إذ قرر البيت الأبيض في عهد بوش أنه لا يريد التحدث إلى عضو في "محور الشر"، واختار بدلاً من ذلك إحداث تغيير في النظام في إيران.

وكانت الخطوة الأولية هي زعزعة استقرار النظام في طهران من خلال استمالة الإيرانيين المناهضين للنظام المقيمين في أمريكا الذين يديرون العديد من القنوات الإذاعية والتلفازية الفضائية ومواقع الإنترنت باللغة الفارسية. وفي خطوة منسقة حددوا يوم 10 حزيران-يونيو موعداً أولياً لإطاحة "نظام الملالي" في موطنهم الأصلي، فاندلعت الاضطرابات في طهران، واستمرت للأيام العشرة التالية مع تراجع الدعم، ولم يكد عدد المتظاهرين يتجاوز بضعة آلاف.

إن التحريض الفاضح من قبل وسائل إعلام المنفيين المقيمين في أمريكا والتشجيع الصريح من قبل المسؤولين الأمريكيين بدءاً من بوش ومن هم أقل منه، كانا في مصلحة المتشددين في إيران، وسمح للحراس اليمينيين بمهاجمة المتظاهرين بوحشية، الذين شوههم النظام ووصفهم بالخونة الذين يتصرفون بناءً على أوامر من أعداء إيران الخارجيين. وقد جاءت إستراتيجية واشنطن هذه بنتائج عكسية، فقد جعلت المتظاهرين، بشكل خاص، والإصلاحيين، بشكل عام، يبدون وكأنهم عملاء للشيطان الأكبر، وهي وصفة للانتحار السياسي.[73]

وهذا يعني أن خيارات إدارة بوش لتقويض النظام الإيراني كانت محدودة. ومن ناحية أخرى، استمرت إيران في اللعب على جانبي السياج في العراق، الذي تحتله الآن القوات الأنجلو-أمريكية، حيث يعمل بول بريمر بصفته قنصل واشنطن في بغداد. وبتوجيه من طهران شارك زعماء المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق (الذي أُعيدت تسميته فيما بعد بالمجلس الأعلى الإسلامي العراقي) في مجلس الحكم العراقي المؤقت المؤلف من 25 عضواً برئاسة عز الدين سليم، وهو شيعي، عيّنه بريمر في تموز-يوليو 2003، وكان موقفه المنفصم يتلخص في شعار «كلا كلا أمريكا. كلا كلا صدام»، كما أن حزب الدعوة (العنوان الرسمي: حزب الدعوة الإسلامية)، وهو حزب انشق مؤخراً عن المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، والذي لجأ قادته إلى طهران على مر السنين، قرر بشكل مستقل المشاركة في المجلس الإسلامي العراقي. وفي الوقت نفسه واصلت الحكومة الإيرانية دعوتها للقوات الأجنبية لمغادرة العراق.

ومما أثار استياء الحكومة السعودية أن بريمر أدخل مبدأ التناسب العرقي والطائفي في تشكيل المجلس الإسلامي الانتقالي،[*] وكان فيها ثلاثة عشر شيعياً، وأحد عشر سنّياً، ومسيحياً واحداً. ومن بين السُنّة كان خمسة من الأكراد وواحد تركماني. أي أن خمسة فقط

(*) مجلس الحكم الإسلامي: لم يكن ذا صيغة إسلامية بالمعنى الحرفي للاصطلاح، بل كان هيئة إدارية يُسمى مجلس الحكم الانتقالي، يضم 25 عضواً من مختلف الانتماءات العرقية والطائفية والفكرية، يغلب على الكثير منهم الانتماء إلى جهات سياسية ذات خلفيات إسلامية [المركز].

من أعضاء مجلس الحكم الإسلامي العراقي كانوا من العرب السُنّة، الذين حكموا العراق منذ عام 1638 عندما قام الأتراك العثمانيون السُنّة بدمج العراق في إمبراطوريتهم. وبينما كان السُنّة المحليون لا يمثلون سوى ربع سكان العراق، فقد استولوا على مقاليد السلطة، وعاملوا الأغلبية الشيعية كمواطنين من الدرجة الثانية، فقد تحقق الآن الكابوس الذي كان يخشاه أفراد العائلة المالكة السعودية.

وبوصفه رئيساً لسلطة الائتلاف المؤقتة، التي جرى تعيينها حديثاً، قام بريمر بطرد جميع الأفراد العسكريين والموظفين المدنيين، وألغى وزارتي الدفاع والإعلام، وكذلك المحاكم العسكرية والأمنية.[74] وهذا الاقتلاع لجوهر آلية الدولة التي يهيمن عليها السُنّة، والتي تخضع لرقابة مشددة، والتي أتقنها صدام حسين خلال ربع القرن الماضي، أرسل موجات من الصدمة إلى المملكة العربية السعودية. وكان العكس هو ما حدث في إيران، ولكن قادتها كانوا حريصين على عدم التعبير عن شعورهم بالرضا إزاء إطاحة صدام، الأمر الذي كان من شأنه أن يرقى إلى تأييد غزو العراق من قبل الأميركيين المكروهين.

ومع القضاء على البيروقراطية القمعية في العراق، والتي كانت تعمل بكفاءة في عهد صدام، الزعيم الوحيد لحزب البعث العربي الاشتراكي العلماني، نشطت الجماعات الإسلامية السُنية التي تعرضت للقمع لفترة طويلة، وركزت على مقاومة قوات الاحتلال ومهاجمة الأهداف الشيعية. وكان من بين الجماعات السنية المختلفة التي اتبعت هذه الأجندة، جماعة التوحيد والجهاد (بالعربية: جمعية التوحيد الإلهي والجهاد JTJ) هي الأكثر أهمية، وكان زعيمها أبو مصعب الزرقاوي (وُلد أحمد فاضل الخلايلة في الزرقاء، الأردن)، وهو أردني منفي. وكان مقره في الفلوجة، على بعد ستة وثلاثين ميلاً غرب بغداد، في محافظة الأنبار ذات الأغلبية السنية على الحدود مع الأردن، والتي أصبحت البطن الناعم للحكومة في بغداد. وأعلنت جماعة التوحيد والجهاد مسؤوليتها عن أعمال دراماتيكية مثل تفجير بعثة الأمم المتحدة في بغداد في آب-أغسطس 2003، واغتيال سليم رئيس مجلس الحكم الإنتقالي العراقي بعد 10 أشهر. واحتجزت الغربيين كرهائن، وقطعت رؤوس بعضهم، فرفعت الولايات المتحدة مكافأة القبض على الزرقاوي حياً أو ميتاً من 10 ملايين دولار إلى 25 مليون دولار.

في أوائل عام 2004 أصبحت جماعة التوحيد والجهاد تابعة لتنظيم القاعدة، وغيّرت اسمها إلى تنظيم القاعدة في بلاد ما بين النهرين (AQIM). وفي وقت لاحق أصبحت عضواً في مجلس شورى المجاهدين، وهو منظمة جامعة تضم ست جماعات إسلامية سنّية. وأُستهدفت التجمعات الشيعية بدءاً بموكب جنازة شيعية في كانون الأول-ديسمبر 2004 في النجف

عندما أدت هجماتها بسيارات مفخخة إلى مقتل ستين من المشيعين.[75] وقد سبب ذلك الغضب والألم، ليس فقط بين الشيعة العراقيين، ولكن في إيران أيضاً. وزادت طهران من إمدادات الأسلحة إلى فيلق بدر التابع للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية، والذي عبر إلى جنوب العراق الذي يهيمن عليه الشيعة بعد هزيمة صدام حسين. لقد أشار ذلك إلى بداية النفوذ الإيراني المتصاعد في عراق ما بعد صدام، حيث عمل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وحزب الدعوة كوكلاء لها.[*]

وفي آذار-مارس 2004، أصدر بريمر القانون الإداري الانتقالي الذي وقعه أعضاء مجلس الحكم الإنتقالي العراقي ونصت على تشكيل حكومة مؤقتة يرأسها رئيس وزراء تنفيذي لإدارة العراق مع التركيز على إجراء انتخابات للجمعية التأسيسية في موعد لا يتجاوز كانون الأول-يناير 2005، وهذا لم يرض حجة الإسلام مقتدى الصدر: رجل الدين الشيعي العراقي المتصلّب، ففي أوائل نيسان-أبريل 2004 دعا متطوعي جيش المهدي لشن انتفاضة مسلحة ضد المحتلين الأنجلو-أمريكيين. وفي خطابه أمام جماعة صلاة الجمعة في طهران يوم 9 نيسان-إبريل، وصف آية الله علي أكبر رفسنجاني أنصار صدام حسين، الذين يقاومون الاحتلال الأجنبي، بالإرهابيين. وأضاف: «خلافاً لتلك الجماعات الإرهابية في العراق، هناك جهات قوية تساهم في أمن الأمة [العراقية]... ومن بينهم جيش المهدي المؤلف من شباب متحمسين وبطوليين».[76]

وعلى هذه الخلفية أُعلن تشكيل الحكومة المؤقتة في 1 حزيران-يونيو 2004، وتألفت من رئيس الوزراء التنفيذي إياد علاوي، وهو شيعي علماني، يرأس حكومة مكونة من ثلاثة وثلاثين وزيراً، وغازي الياور، وهو زعيم عشيرة سنية، رئيساً ونائبين.

وفي 28 حزيران-يونيو، سلّم بريمر "خطاب السيادة" إلى رئيس المحكمة العليا العراقية مدحت محمود في مكان سري في المنطقة الخضراء الشديدة الحراسة في بغداد. وفي الواقع، فإن السيادة التي جرى نقلها إلى الحكومة المؤقتة كانت في أحسن الأحوال موضع نقاش. ولم يتحسن الوضع الأمني؛ بل إن الأمر ازداد سوءاً في الواقع. وقال خامنئي في خطابه أمام تجمع من رجال الدين في طهران في أوائل آب-أغسطس: «لقد وصلت الولايات المتحدة إلى طريق مسدود في العراق مثل الذئب المحاصر، وهي تحاول تخويف الناس بالعواء والمخالب... ولكن شعب العراق لن يسمح له بابتلاع بلده».[77]

(*) بعض الأحزاب العراقية تقرّ بالتماهي مع السياسة الإيرانية في جزء من الملفات المحلية والدولية لكنها تنفي بشكل قاطع إنها تعمل كـ"وكيل" لها [المركز].

عصر ما بعد صدام حسين، المملكة العربية السعودية

ودخل السُنّة العراقيون وقادتهم في حالة إنكار بعد أن فقدوا السلطة السياسية والاقتصادية، وقد استجاب بعضهم بشكل إيجابي لدعوة صدام حسين الصادرة من تحت الأرض لمقاومة قوات الاحتلال بشكل فعال، ومن لم ينضم إلى المقاومة اختار عدم التعاون مع المحتلين. لقد أبدوا اهتماماً ضئيلاً بانتخابات الجمعية الوطنية المؤقتة، المكلفة بصياغة دستور جديد، المقرر إجراؤها في 30 كانون الثاني-يناير 2005.

وفي المقابل أصدر آية الله العظمى علي السيستاني، رجل الدين الشيعي الأكثر احتراماً، فتوى في 1 تشرين الأول-أكتوبر 2004 يعلن فيها أن التصويت كان واجباً دينياً على المؤمنين؛ ونتيجة لذلك فقد صوّت 70 % من الشيعة (يشكلون 60 % من السكان)، والأكراد (يشكلون 15 % من السكان)، مقارنة بـ 20 % فقط من العرب السُنّة.[78]

ومع ظهور الائتلاف العراقي الموحد الشيعي كحزب الأغلبية، قاد زعيمه إبراهيم الجعفري الحكومة الائتلافية لمجموعته مع التحالف الوطني الديمقراطي الكردستاني، برئاسة جلال الطالباني بخمسة وسبعين مقعداً، والذي استبعد السُنّة الأربعين الأقوياء، وهيّمنت القائمة العراقية بزعامة علاوي التي حظيت بدعم مالي من المملكة السعودية. وهكذا كان تحالف الشيعة والأكراد هو الذي صاغ دستور عراق ما بعد صدام.

ومن خلال مقاطعة الانتخابات إلى حد كبير أمام الجمعية الوطنية المؤقتة مهّد العرب السُنّة الطريق لاستبعادهم من هيكل السلطة المستقبلي في العراق، وانضم بعض السُنّة الذين يشعرون بالمرارة إلى تنظيم القاعدة في بلاد ما بين النهرين، وقال زعيمها الزرقاوي: إنه بما أن سلطة التشريع تقع على كلام الله كما أنزل في القرآن، فمن غير الشرعي للمؤمنين أن يشاركوا في الانتخابات. فقد دعمت قرار زعماء القبائل السُنية بمقاطعة انتخابات الجمعية الوطنية المؤقتة في كانون الثاني-يناير 2005.

وزاد مؤيدو تنظيم القاعدة عندما دمج الزرقاوي خطابه المعادي للشيعة مع الوطنية العراقية، مسوغاً ذلك بأن الإيرانيين غير العرب ينقضّون خلسة على مقاليد الحكم في بغداد. وقد ركزت الجماعة المسلحة على الهجمات الانتحارية البارزة والمنسقة على الحشود الشيعية والتي لم تتحقق خلال عاشوراء فحسب، بل في أعياد ميلاد الأئمة الشيعة الخمسة المدفونين في العراق أيضاً(*)؛ فبالإضافة إلى قبري الإمامين علي والحسين المذهَّبين في النجف وكربلاء

(*) تم دفن ستة من أئمة أهل البيت عليهم السلام في أرض العراق. وقد ذكر المؤلف خمسة منهم، لكن فاته ذكر الإمام محمد الجواد الذي دُفن مع جده الإمام موسى بن جعفر في الكاظمية ببغداد [المركز].

على التوالي، كانت هناك مراقد للإمام موسى الكاظم (المعروف أيضاً باسم كاظم) في بغداد، ومحمد النقي الهادي والحسن بن علي العسكري في سامراء.[79]

كان الهدف الشامل للزرقاوي هو خلق حالة من انعدام الأمن بشكل عام، ولكن بسبب إدمانه على العنف من أجل العنف، وانتهاك التقاليد القبلية، وإظهار التعصب تجاه أولئك الذين يختلفون عن تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، سحب العديد من زعماء القبائل السنية دعمهم. ومن أجل استعادة الأرض المفقودة أنشأ الزرقاوي، في كانون الثاني-يناير 2006، مجلس العالم الإسلامي لجمع كل جماعات المقاومة السنّية تحت راية واحدة، وكان قد أحرز تقدماً ضئيلاً في هذا الاتجاه عندما قُتل في حزيران-يونيو في عملية مشتركة للقوات الأمريكية والعراقية.[80]

وإدراكاً لتصاعد المشاعر المعادية لأمريكا في المملكة العربية السعودية، أمر بن لادن مساعدَيه المقيمين في السعودية، خالد علي بن علي الحاج وعبد العزيز المقرن، المؤسسين المشاركين لتنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية، باستهداف الغربيين المقيمين في المملكة، فأبلغوه أن شبكتهم لم تكن في مكانها الصحيح. لكن بن لادن أصرّ رغم ذلك على شنّ حملة عنيفة.

في 12 أيار-مايو 2003 انفجرت قنابل في ثلاثة مجمعات سكنية للمغتربين في الرياض -درة الجداول، وقرية الواحة الحمراء، ومجمع فينيل الذي تديره شركة فينيل لتدريب ضباط الحرس الوطني السعودي- على مشارف العاصمة، وقد وصل المهاجمون في مجموعتين في سيارات سيدان سوداء محملة بالمتفجرات، حيث أطلقت إحداهما النار على حراس الأمن لتتمكن الأخرى من دخول المبنى. وفي إحدى الحالات، عندما فشلوا في دخول المبنى، قاموا بتفجير العبوة الناسفة عند البوابة، وفي حالة أخرى أطلق مسلحون النار على المجمع السكني، وفجروا حمولتهم المميتة مما أدى إلى آثار مدمرة.

تصاعد عمود من النار يبلغ ارتفاعه 100 متر في السماء، وكان هناك دخان أسود في كل مكان. ووفقاً للسفير الأمريكي روبرت جوردان، فقد هُدم ما لا يقل عن اثني عشر منزلاً وستة عشر مجمعاً سكنياً في هذا المجمع. وفي المحصلة: قُتل تسعة وعشرون شخصاً، من بينهم تسعة أمريكيين وتسعة مهاجمين، وأصيب ما يقرب من 200 آخرين.[81]

وقد هزّ هذا الحدث المروع النظام، فقرر محمد، نجل وزير الداخلية الأمير نايف، الذي كان يدير إدارة مكافحة الإرهاب بالوزارة، سحق الجهاديين العنيفين. ومن المثير للاهتمام أن التفجيرات جاءت بعد أسبوعين من إعلان واشنطن أنها ستسحب معظم قواتها من المملكة

العربية السعودية، مما يذكّر السعوديين، عن غير قصد، بأن الولايات المتحدة أخفقت في الوفاء بوعدها المكتوب بسحب قواتها من المملكة في نهاية العام. حرب الخليج 1991.

وكان العقل المدبر للهجمات الإرهابية هو المقرن البالغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً، وهو مواطن من الرياض، خضع لتدريب عسكري في معسكر لتنظيم القاعدة في أفغانستان، وهناك أصبح مقرباً من بن لادن، وغادر أفغانستان في العام نفسه، 1992، لينضم إلى الجهاد في البوسنة كما فعل زعيم تنظيم القاعدة، وفي وقت لاحق كان عضواً في الفريق الذي قام بمحاولة فاشلة لاغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في يونيو 1995 خلال زيارته إلى أديس أبابا، إثيوبيا، لحضور قمة منظمة الوحدة الأفريقية، وقُبض عليه هناك وسُلِّم إلى المملكة العربية السعودية، وحكم عليه بالسجن لمدة عامين، وخفف الحكم إلى سنة واحدة بعد حفظه للقرآن.

ثم سافر المقرن إلى أفغانستان التي كانت تحكمها حركة طالبان، وهرب بعد إطاحة نظام طالبان في كانون الأول-ديسمبر 2001. وعندما عاد إلى المملكة العربية السعودية، استخدم الإنترنت ببراعة لنشر أفكاره المتشددة، وقال لموقع عربي على شبكة الإنترنت في عام 2003: «لقد أخذت على عاتقي، وأقسمت على تطهير شبه الجزيرة العربية من المشركين... لن ينعموا [الصليبيين واليهود] بالأمان حتى نطردهم من بلاد الحرمين الشريفين (العربية السعودية)، وحتى نخرجهم من أرض فلسطين وأرض المسلمين التي ينهبونها ويغتصبونها من شرقها إلى مغربها».[82]

ومن جانبه دعا ولي العهد الأمير عبد الله إلى عقد الاجتماع الوطني الأول للحوار الفكري، الذي كان له دستوره الخاص وأمانته العامة، في حزيران-يونيو 2003، وكان الاجتماع مفتوحاً فقط لرجال الدين السُنّة الذين ينتمون إلى المذهب الفقهي الحنبلي (الذي كان يضم الوهَّابيين). وقد رفض سفر الحوالي من حركة الصحوة الدعوة، لكن زميله سلمان عودة حضر[83]

في أيلول-سبتمبر قام عبد الله بتوسيع المنظمة لتشمل منتدى الحوار الوطني، الذي يتألف من رجال الدين السُنّة والشيعة، ورجال الأعمال، والتربويين، ومديري وسائل الإعلام لمناقشة سبل إصلاح المجتمع. ومن خلال القيام بذلك، نجح ببراعة في تحويل المطلب المتكرر منذ فترة طويلة لإصلاح النظام الملكي.

ومع خروج آخر القوات الأمريكية من المملكة، في أيلول-سبتمبر 2003، توقّع الأمير محمد بن نايف أن يوقف قادة تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية حملتهم العنيفة، غير أنهم لم يفعلوا. وفي 8 تشرين الثاني-نوفمبر، خلال شهر رمضان، اقتحم إرهابيو تنظيم

القاعدة في شبه الجزيرة العربية مقرّ حراس الأمن في مجمع المحيا السكني الغني والمحمي بشدة غربي الرياض، وقاموا بتفجيرات أسفرت عن قَتل ما يصل إلى ثمانية وعشرين شخصاً (أربعة منهم فقط من الغربيين، والغالبية العظمى من العرب المغتربين)، وجَرح 122 شخصاً. وعلى النقيض من ذلك أشارت الأرقام الرسمية إلى مقتل شخصين وإصابة 87 آخرين.[84]

وقد أدت هذه التفجيرات إلى نتائج منها أنها وضعت حداً لنظرية المؤامرة حول كون وكالة المخابرات الإسرائيلية الموساد مسؤولة عن كل من تنظيم القاعدة وأحداث 11 أيلول-سبتمبر. وفي المملكة كانت هناك إدانة شاملة لهذه الاعتداءات، بما في ذلك من قبل الشيخين سلمان العودة وسفر الحوالي، مؤسسي حركة الصحوة الذين أُطلق سراحهم مؤخراً.

وفي أعقاب وفاة بن باز، في أيار-مايو 1999 وما تلا ذلك من فراغ في هيكل السلطة الدينية، رأت الحكومة أنه من العاجل استمالة قادة حركة الصحوة ليكونوا بمنزلة مصدر بديل للشرعية الدينية؛ ولذلك أطلقت سراح العودة والحوالي وأتباعهما في الصيف. ووعد العودة والحوالي بتخفيف حدة معارضتهما السياسية مقابل تسامح النظام مع موقفهما المخفف مع اقتصار آرائهما على الجوانب غير السياسية للإسلام. وبعد ذلك بعامين، وبناءً على طلب النظام السعودي، دُعي العودة ليحل ضيفاً في برنامج الإسلام اليوم، وهو برنامج على قناة إم بي سي (مركز إذاعة الشرق الأوسط) ومقرها دبي، ويملكها وليد الإبراهيم، صهر الملك فهد. وكانت مهمة البرنامج هي شرح المواضيع الدينية والاجتماعية المتعلقة بالإسلام، وتوفير الموارد التعليمية الإسلامية باللغات الإنجليزية والعربية والفرنسية والصينية.[85] وقد مكّن ذلك العودة من تعزيز سلطته الدينية بين السعوديين وغيرهم.

رداً على الهجوم الإرهابي البارز على المملكة، كثّف الأمير محمد بن نايف جهوده لمكافحة الإرهاب؛ وأدى ذلك إلى مقتل خالد علي بن علي الحاج في 15 آذار-مارس 2004. وبهذا انتقلت قيادة القاعدة في شبه الجزيرة العربية إلى المقرن. وقد ركز على المنشآت النفطية من أجل الإضرار بالاقتصاد، وأدى الهجوم على منشأة نفطية في ينبع إلى مقتل ستة غربيين، وانتهى بقطع رأس مهندس المروحيات بول مارشال جونسون. وجاءت الذروة في 28-31 أيار-مايو 2004 عندما استهدف أربعةٌ من مقاتلي القاعدة في شبه الجزيرة العربية ثلاثة مباني في الخُبر، وهي مركز نفطي. لقد أخذوا رهائن، وأجروا مقابلات هاتفية مع قناة الجزيرة التلفازية، وانتهى بهم الأمر بقتل 22 شخصاً، من بينهم تسعة عشر أجنبياً يعملون في صناعة النفط.[86] وبعد مدة وجيزة انضم العودة والحوالي إلى ستة من كبار العلماء للتنديد بعنف تنظيم القاعدة وحملته لإطاحة آل سعود.

كما واصل المقرن ممارسة استهداف الأفراد الغربيين، وهو ما كان -كما يرى- عنصراً مهماً في حرب العصابات في المناطق الحضرية لتخويف العدو وإحباطه. لقد كتب دليلاً باللغة العربية، ترجمه نورمان سيجار إلى الإنجليزية باعتباره دورة عملية لحرب العصابات، وسيُنشر بعد وفاته. وفي 6 حزيران-يونيو 2004، قتل مقاتلو تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية سايمون كامبرز، مصور هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، وأصابوا فرانك غاردنر، صحفي (BBC). وبعد يومين أطلقوا النار على روبرت جاكوبس من شركة فينيل العربية أمام الفيلا الخاصة به. وفي 12 حزيران-يونيو قُتل أميركي آخر، هو كينيث سكروجز، أمام منزله.

وكثّفت وزارة الداخلية جهودها لقتل أو القبض على عدوها الأول، المقرن، ونجحت في تحقيق ذلك ليلة 18 حزيران-يونيو عندما قُتل في اشتباك مسلح مع قوات الأمن في محطة بنزين في الرياض مع ثلاثة آخرين من مؤسسي تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية[87]؛ وبهذا تراجع الإرهاب مؤقتاً.

وفي السياق الإقليمي استقبل وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل، في 27 تموز-يوليو 2004، وفداً من الوزراء العراقيين ومحافظ البنك المركزي برئاسة رئيس الوزراء المؤقت علاوي في جدة. وبعد محادثاته مع علاوي قال وزير الخارجية السعودي: «لقد اتفقنا على استئناف التمثيل الدبلوماسي الذي قُطع في عام 1991».[88] ومع ذلك، لم تتحقق المتابعة. ومن ناحية أخرى أدى وعد الرياض بمنحة مليار دولار لإعادة إعمار العراق إلى حصول بغداد على 300 مليون دولار خلال العام التالي.[89]

الإرهاب المستمر في المملكة

داهم عناصر تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية، بقيادة صالح العوفي، قنصلية الولايات المتحدة في جدة، مما أدى إلى مقتل خمسة موظفين وأربعة مهاجمين، وذلك في كانون الأول-ديسمبر 2004. وقُتل العوفي على يد قوات الأمن السعودية في معركة بالأسلحة النارية في المدينة المنورة في 18 آب-أغسطس 2005 بعد أن عُثر عليه في مخبأ بالقرب من المسجد النبوي قبل ساعات قليلة من زيارة الملك عبد الله[90]، وانفجرت سيارة مفخخة أخرى في الرياض. ورداً على ذلك اتخذت الحكومة إجراءات صارمة.

وإبان وفاة الملك فهد في آب-أغسطس 2005، كان أكثر من 91 مدنياً و118 مسلحاً قد قُتلوا، وأُصيب ما يقرب من 800 آخرين. وبعد استجواب الآلاف اعتقلت وزارة الداخلية ما لا يقل عن 800 رجل للاشتباه في أنهم إرهابيون.[91] وأكملت الحكومة نهج القبضة الحديدية

تجاه الإرهابيين من خلال الدعاية ضد عنف الإسلاميين، وذلك باستخدام الإعلانات واللوحات الإعلانية، ورعاية المؤتمرات الدينية حيث يقدم العلماء حججاً ضد الإرهاب بناءً على التعاليم الإسلامية، وبثّ الأعمال الدرامية على القنوات التلفازية التي تديرها الدولة، التي تعالج التشدد الديني في المجتمع.[92]

الملاحظات

1 الإيوان هو قاعة ضخمة مفتوحة من الأمام ذات أقبية مدببة وواجهات عالية، وغالباً ما تستخدم في هندسة المساجد في بلاد فارس.

2 Robert Byron, The Road to Oxiana, Macmillan, London, 1937, p. 83, p. 122, p. 123, and p. 206

3 Ibid., pp. 88 and 215

4 Ahmed Rashid, Taliban: Islam, Oil and the New Great Game in Central Asia, I. B. Tauris, London and New York, 2000, p. 72

5 Dilip Hiro, Apocalyptic Realm: Jihadists in South Asia, Yale University Press, London and New Haven, CT, 2012, p. 79

6 Dilip Hiro, War Without End: The Rise of Islamist Terrorism and the Global Response, Routledge, London and New York, p. 251, citing Middle East International, 25 October 1996, p. 16

7 Rashid, Taliban, p. 176

8 Ibid., p. 202

9 Spiegel, 8 March, 2004, SPIEGEL Interview: «And then Mullah Omar screamed at me. » http://www. spiegel. de/international/spiegel/spiegel-interview-and-then-mullah-omar- screamed-at-me-a-289592. html

10 Inter-Press Service, 31 August 1998

11 Hiro, War Without End, p. 275, citing Financial Times, 22–23 August 1998; International Herald Tribune, 27 August 1998

12 Spiegel, 8 March, 2004, «SPIEGEL Interview: «And then Mullah Omar screamed at me. » http://www. spiegel. de/international/spiegel/spiegel-interview-and-then-mullah- omar-screamed-at-me-a-289592. html

13 وقد اتضح لاحقاً أن الجنود المارقين كانوا سيعاقبون ليس لقتلهم الإيرانيين بل لتدميرهم أدلة على تدخل إيران في الشؤون الداخلية لأفغانستان

14 Hiro, War Without End, pp. 291–292, citing Middle East International, 26 January 2001, p. 17

15 Dilip Hiro, Inside Central Asia: A Political and Cultural History of Uzbekistan, Turkmenistan, Kazakhstan, Kyrgyzstan, Tajikistan, Turkey and Iran, Overlook/Duckworth, New York and London, 2011, p. 385

16 The hijackers of the fourth plane, heading for the Capitol in Washington D. C., were overpowered by the airline's crew and passengers, leading to the crash of the aircraft in a field in Pennsylvania

17 بالنسبة لكتابي عن هذه الحرب، التي أطلق عليها اسم »عملية الحرية الدائمة«، اخترت عنوان »حرب بلا نهاية«. [يجدر الإشارة إلى إن مركز الرافدين للحوار قد ترجم كتاباً للمؤلف مايكل شوارتز من اللغة الانجليزية إلى العربية سنة 2019 تحت عنوان (حرب بلا نهاية: سياق حرب العراق)] المركز.

18 Hiro, War Without End, p. 311, citing International Herald Tribune, 14 and 17 September 2001; and Washington Post, 25 September 2001

19 Gordon Corera, BBC News, 25 September 2006, «Iran's gulf of misunderstanding with US. » http://news. bbc. co. uk/1/hi/world/middle_east/5377914. stm

20 Elaine Sciolino, New York Times, 10 November 2011, «Iran Chief Rejects Bin Laden Message. » http://www. nytimes. com/200110/11//world/iran-chief-rejects-bin-laden- message. html

21 Hiro, Inside Central Asia, p. 386

22 Ibid

23 Robert Lacey, Inside the Kingdom: Kings, Clerics, Modernists, Terrorists, and the Struggle for Saudi Arabia. Arrow Books, London, 2010/Penguin Books, New York, 2010, p. 228

24 من أصل 1700 ضحية تم تحديد ديانتهم، شكّل اليهود حوالي 10 % من 2700 نيويوركي قُتلوا على الأرض. تم الحصول على العدد 400 من خلال فحص أسماء عائلات الذين لقوا حتفهم.

- See also, Gary Rosenblatt, The Jewish Week, «The Mitzvah To Remember (092002/05/). » https://web. archive. org/ web/20021010020906/http://www. thejewishweek. com/bottom/specialcontent. php3?artid=362

25 Cited in Lacey, Inside the Kingdom, p. 229

26 Hiro, War Without End, p. 328, citing New York Times, 17 September 2001

27 Lacey, Inside the Kingdom, pp. 228 and 232

28 Hiro, War Without End, p. 313, citing Observer, 16 September 2001

29 Lacey, Inside the Kingdom, 2010, p. 231

30 Hiro, War Without End, p. 332, citing Washington Post, 26 September 2001

31 Ibid., p. 333, citing New York Times, 27 September 2001

32 Dilip Hiro, War Without End, 2002, p. 334, citing International Herald Tribune, 3 and 5 October 2001

33 Craig S. Smith, New York Times, 20 March 2003, «Threats And Responses: A Command Post. »http://www. nytimes. com/200320/03//world/threats-responses-command-post- reluctant-saudi-arabia-prepares-its-quiet-role-us. html?mcubz=1

34 Hiro, Blood of the Earth, pp. 140–141

35 Hiro, War Without End, p. 334

36 المنافق هو الشخص الذي يدعي أنه مسلم ولكنه ليس كذلك بسبب عدم اتباعه للأوامر الإسلامية. وفقاً للقرآن (النساء:145) («إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا»).

37 تشير التقديرات الصادرة عن منظمة الصحة العالمية في مارس 1996 إلى أن «500,000

شخص لقوا حتفهم خلال الفترة 1990-1994»، وتشير التقديرات الصادرة عن اليونيسيف في يوليو 2000 إلى أن »500,000 شخص لقوا حتفهم خلال الفترة 1991-1998«، الجارديان، 10 أكتوبر 2001.

38 Hiro, War Without End, p. 338, citing Reuters, 7 October 2001, and Daily Telegraph, 8 October 2001

39 Only the foreign ministers of Egypt, Pakistan and Saudi Arabia said they were satisfied that Osama bin Laden was responsible. Financial Times, 11 October 2001

40 Hiro, War Without End, pp. 344–345, citing Guardian, 9 October 2001

41 Ibid., p. 364

42 BBC News, 25 February, 2002, «Afghan leader thanks Iran. » http://news. bbc. co. uk/1/ hi/world/middle_east/1838368. stm

43 Hiro, War Without End, pp. 365–366

44 BBC News, 30 January, 2002, «Full text: State of the Union address. » http://news. bbc. co. uk/1/hi/world/americas/1790537. stm

45 Hiro, War Without End, p. 359, citing Associated Press, 16 November 2001, Reuters, 16 November 2001

46 Hiro, War Without End, p. 342, citing Washington Post, 8 October. 2001. On 7 October a bomb in Al Khobar killed one American and injured several more

47 Ibid., p. 342, citing New York Times, 6 October 2001

48 Ibid., p. 342. This figure was leaked to the New York Times by a US intelligence source, and was published on 28 January 2002

49 Ibid., p. 342, citing Sunday Times, 21 October 2001

50 The Milan-based organization's office turned out to be a run-down two-story ware-house off a grey, polluted road in Milan. Financial Times, 13–14 October 2001

51 New Yorker, 22 October, pp. 13–25

52 Hiro, War Without End, pp. 343–344, citing New York Times, 9 November 2001

53 Ibid

54 Craig Unger, Vanity Fair, October 2003, «The War at Home: Saving the Saudis: https:// www. vanityfair. com/news/200310//saving-the-saudis-200310; and Craig Unger, House of Bush, House of Saud: The Secret Relationship Between The World's Two Most Powerful Dynasties, Scribner, New York and London, 2004, pp, 10–11

55 Stanford University, Mapping Militant Organizations, Sipah-e-Sahaba Pakistan. http:// web. stanford. edu/group/mappingmilitants/cgi-bin/groups/view/147

56 Ibid

57 Hamshahri (Tehran), 23 June 2002, «Iran's Uranium Reserves, 44 Billion Barrels of Crude Oil. » http://www. parstimes. com/business/uranium_reserves. html

58 Dilip Hiro, Secrets and Lies: Operation «Iraqi Freedom» and After, Nation Books, New York, 2004/Politico's Publishing, London, 2005, p. 100

59 Bob Woodward, Plan of Attack: The Definitive Account of the Decision to Invade Iraq, Simon & Schuster, New York and London, 2004, pp. 270–271

60 Associated Press, 25 April 2004, «New Details on Saudi Help in Iraq War. » http:// www. foxnews. com/story/200425/04//new-details-on-saudi-help-in-iraq-war. html

61 Dilip Hiro, The Iranian Labyrinth: Journeys through Theocratic Iran and Its Furies, Nation Books, New York, 2005/ Iran Today, Politico's Publishing, London, 2006, p, 238, cit-ing International Herald Tribune, 16 October 2000

62 Cited in Hiro, Secrets and Lies, p. 312

63 BBC News, 1 March 2003, «Public spat mars Arab summit. » http://news. bbc. co. uk/1/ hi/world/middle_east/2811403. stm

64 Radio Free Europe, Newsline: 19 March 2003, «Is Saudi Arabia Encouraging Hussein Exile?» https://www. rferl. org/a/1142s78. html

65 Craig S. Smith, New York Times, 20 March 2003, «Threats And Responses: A Command Post.»

66 Associated Press, 25 April 2004, «New Details on Saudi Help in Iraq War. » http:// www. foxnews. com/story/200425/04//new-details-on-saudi-help-in-iraq-war. html

67 Lacey, Inside the Kingdom, 2010, p. 291

68 Public Library of US Diplomacy, Secret: Counterterrorism Adviser Brennan's Meeting With Saudi King Abdullah, Ref: Riyadh 427; 22 March 2009. https://wikileaks. org/ plusd/cables/09RIYADH447_a. html

69 Congressional Research Service: Alfred B. Prados, Saudi Arabia: Current Issues and U. S. Relations, 3 April 2003. http://www. iwar. org. uk/news-archive/crs/19494. pdf

70 عرضت الولايات المتحدة مكافأة قدرها 25 مليون دولار لمن يدلي بمعلومات تؤدي إلى اعتقاله. وبعد خيانة أحد شركائه، ألقت القوات الأمريكية القبض عليه في كانون الأول-ديسمبر 2003 في مزرعة تبعد خمسة عشر ميلاً عن مسقط رأسه تكريت حيث كان مختبئاً في قبو تحت الأرض. بعد محاكمته في ظل الحكومة العراقية المؤقتة في العراق التي كانت تحت الاحتلال الأمريكي، فيما يتعلق بمقتل 148 من سكان الدجيل الشيعة، موقع محاولة اغتياله الفاشلة في عام 1982، حُكم على صدام حسين بالإعدام في تشرين الثاني-نوفمبر 2006. وأعدم شنقاً في الشهر التالي.

71 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 216

72 Gordon Corera, BBC News, 25 September 2006, «Iran's Gulf of Misunderstanding with US. » http://news. bbc. co. uk/1/hi/world/middle_east/5377914. stm

73 Hiro, The Iranian Labyrinth, p. 329

74 Hiro, Secrets and Lies, p. 312

75 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, pp. 733–734

76 Hiro, The Iranian Labyrinth, p. 240, citing Reuters, 9 April 2004

77 Ibid., p. 240, citing Sunday Times, 8 August 2004

78 Hiro, Secrets and Lies, p. 548

79 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 734

80 Ibid., pp. 563–564

81 BBC News, 13 May, 2003, «Saudi bombing deaths rise. » http://news. bbc. co. uk/1/hi/ world/middle_east/3022473. stm

82 Rob L. Wagner, The Saudi Gazette, 20 June, 2004, «Bitter High School Dropout Who Became a Flamboyant Killer. » https://sites. google. com/ site/roblwagnerarchives/bit- ter-high-school-dropout/

83 Lacey, Inside the Kingdom, p. 271

84 CNN, 9 November 2003, «Saudi official blames Riyadh attacks on al Qaida. » http:// edition. cnn. com/2003/US/1108//saudi. explosion/

85 Muslim 500: Shaikh Salma Al Ouda, http://themuslim500. com/profile/ sheikh-salman- al-ouda

86 Abdul Hameed Bakier, «Lessons from Al Qaida's Attack on the Khobar Compound, » Terrorism Monitor Volume: 4 Issue: 16, 11 August 2006. http://www. jamestown. org/programs/tm/single/?tx_ttnews %5Btt_ news %5D=871&tx_ttnews %5BbackPid %5D=181&no_cache=1

87 Wagner, The Saudi Gazette, 20 June, 2004, «Bitter High School Dropout Who Became a Flamboyant Killer. »

88 Dawn/AFP, 28 July 2004, «Saudi Arabia, Iraq agree to resume ties. » https:// www. dawn. com/news/365909/saudi-arabia-iraq-agree-to-resume-ties

89 United States Institute Of Peace Special Report: Joseph Macmillan, «Saudi Arabia and Iraq Oil, Religion, and an Enduring rivalry. » https://www. usip. org/sites/default/files/ McMillan_Saudi %20Arabia %20and %20 Iraq_SR %20157. pdf

90 BBC News, 19 August 2005, «Profile: Saudi al-Qaeda. » http://news. bbc. co. uk/1/hi/ world/middle_east/4166612. stm

91 Jon B. Alterman and William McCants, «Saudi Arabia: Islamists Rising and Falling. » https://csis-prod. s3. amazonaws. com/s3fs-public/ legacy_files/files/publica- tion/141215_Chapter6_Alterman_McCants_ ReligiousRadicalism. pdf, p. 157

92 Sherifa Zuhur, Saudi Arabia, ABC-CLIO, Santa Barbara, CA, 2012, p. 69

الفصل الحادي عشر

ملحمة إيران النووية
والعراق يتجنب حرباً طائفية

كانت ليلة 12 كانون الثاني-يناير 2010 شديدة البرودة في منطقة شميران الواقعة في أقصى شمالي طهران على طول سفوح جبال البرز، ومع ذلك، نهض منصور علي محمدي، الأصلع ذو الشارب البالغ من العمر خمسين عاماً، وهو أستاذ الفيزياء في جامعة طهران، وزوجته الممتلئة ذات الوجه القمَري منصورة كرامي، من سريرهما في منزل مؤثّث جيداً، لأداء صلاة الفجر. وبعد أن أنعشا أنفسهما لوقت أخير قصير من النوم، وبينما بدأت كرامي بإعداد وجبة الإفطار لزوجها وطفليها البالغين، تصفح علي مرة أخرى أطروحة الدكتوراه المجمعة التي قدّمها له أحد طلابه قبل أسبوع، ثم تناول فطوره. وبينما كان يأخذ غداءه المجهز من كرامي، ودّعها، وانتعل حذاءه الذي كان بالقرب من الباب، وأمسك بحقيبته الجلدية، وودع زوجته للمرة الأخيرة.

فتح البوابة الأمامية، ثم ركب سيارته. وأثناء خروجه من سيارته لإغلاق البوابة، دوى انفجار هز الأرض، نتج عن جهاز التحكم عن بعد، مما أدى إلى إطلاق رذاذ قاتل من الكريات الفولاذية. وكان المصدر دراجة نارية متوقفة في مكان قريب. وانهار محمدي في بركة من الدماء. لقد اخترقت الكريات رسالة الدكتوراه وكذلك علبة النظارات داخل حقيبته، وأدى الانفجار إلى تحطيم النوافذ في مبنى مجاور مكون من أربعة طوابق وتشويه إطارات النوافذ وتفجير باب المرآب.

واشتبهت الحكومة في أن لـ [كيان] إسرائيل أو أمريكا يداً أو لهما معاً، ووضعت وكالات الاستخبارات التابعة لها في حالة تأهب قصوى. وفي وقت لاحق أشارت معلومات من "دولة ثالثة" إلى خلية أنشأها الموساد، وكالة الاستخبارات الخارجية الإسرائيلية، داخل إيران. ومع مقتل عالم نووي آخر، هو ماجد شهرياري، وإصابة فريدون عباسي دواني، وهو مسؤول بارز في منظمة الطاقة الذرية الإيرانية، في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، انطلقت وكالات الاستخبارات في نشاطها الزائد.

وفي الشهر التالي ألقت السلطات القبض على ماجد جمالي فاشي، وهو ملاكم إيراني يبلغ من العمر 23 عاماً، بتهمة قتل محمدي. وفي اعترافه المتلفز الذي بُث في كانون الثاني-يناير 2011 قال: إن عملاء إسرائيليين جنّدوه عندما كان في العاصمة الأذربيجانية باكو للمشاركة في مسابقة دولية للفنون القتالية. وإنه نُقِل جواً إلى [كيان] إسرائيل. وأضاف: «لقد أخبروني أن موضوع العملية شخص متورط في صنع قنبلة ذرية، وأن البشرية في خطر، وأنت المنقذ». لقد ملأه ذلك بالزهوّ.

وفي محطة الموساد قبالة طريق تل أبيب-القدس السريع شرق مطار بن غوريون، تم تدريبه على قتل هدفه، وقد شمل العمل دراجتين ناريتين إيرانيتين جديدتين، ونسخة طبق الأصل من شارع محمدي ومنزله. وما إن أنجز المهمة الموكلة إليه، حتى «كنت فخوراً جداً بأنني فعلت شيئاً مهماً للعالم، ثم أدركت فجأة أن ما كنت أومن به كان كذبة».[1]

وفي وقت لاحق تذكرت أرملة محمدي، كرامي، أنها وعدد قليل فقط من الآخرين كانوا يعرفون أنه كان منخرطاً في برنامج نووي سري، وأنه شعر أنه يجري تتبعه وتصويره خلال رحلة الحج في عام 2009. وفي كانون الأول-ديسمبر 2009، عشية سفره إلى الأردن لحضور مؤتمر علمي متخصص للغاية، أفصحت عن شعوره بخوف من احتمال اختطافه، وإحساسه بوعكة صحية.[2]

أرسل مقتل محمدي، الذي جرى التخطيط له بدقة، موجاتٍ من الصدمة عبر المجتمع العلمي والنووي في إيران. وفي المقابل، طمأن صناع القرار في الرياض بأن [كيان] إسرائيل -العدو الإقليمي الأكثر حماسة لإيران- لجأ إلى عمليات القتل المستهدف لتخريب أنشطة طهران النووية. ومن ناحية أخرى، فإنهم لم يأخذوا هذا العامل بالحسبان عندما وضعوا إستراتيجيتهم الخاصة لمواجهة التهديد النووي الإيراني. وبدلاً من ذلك، قرروا دعم صداقتهم الراسخة منذ زمن طويل مع باكستان النووية.

العلاقات العسكرية السعودية مع باكستان

في قمة منظمة المؤتمر الإسلامي في لاهور في شباط-فبراير 1974، خلف أبواب مغلقة، قيل: إن رئيس الوزراء ذو الفقار علي بوتو أخبر الملك السعودي فيصل أنه بما أن القنابل الذرية الإسرائيلية والهندية كانت تهدف إلى تخويف العالم الإسلامي، فإن ثمة حاجة ملحّة إلى قنبلة نووية إسلامية. وبحلول ذلك الوقت كانت الأخبار قد تسربت أنه عندما تعرض الإسرائيليون لسلسلة من النكسات في ساحة المعركة في تشرين الأول-أكتوبر 1973، في شبه

جزيرة سيناء المحتلة، أمرت رئيسة الوزراء جولدا مئير بتركيب جميع القنابل النووية الخمس والعشرين التي تم إنتاجها منذ عام 1966 على قاذفات معدلة خصيصاً لذلك.[3]

وبحسب ما ورد وافق الملك فيصل على تقديم أموال نقدية مقابل تعهد بأن يوفر برنامج إسلام آباد النووي، من الآن فصاعداً، مظلة أمنية للمملكة العربية السعودية ضد [كيان] إسرائيل. ومع وضع هذا الهدف في الحسبان يُعتقد أنه قدّم مساعدات مالية للعراق أيضاً بعد أن أصبح نائب رئيسه صدام حسين رئيساً للوكالة العراقية للطاقة الذرية في عام 1974، وأذن ببرنامج سري للأسلحة النووية.[4]

وبعد مفاوضات مطولة وقّعت الحكومتان السعودية والباكستانية بروتوكولاً عسكرياً مدته ثلاث سنوات في كانون الأول-ديسمبر 1982، وأشرفت على ذلك منظمة القوات المسلحة السعودية الباكستانية في الرياض. وتمركز جنود باكستانيون في تبوك بالقرب من خليج العقبة الإستراتيجي، وفي خميس مشيط بالقرب من الحدود اليمنية الجنوبية[5]. وكان هذا تطوراً مرحباً به بالنسبة لباكستان المثقلة بالديون، حيث إن السعوديين الأثرياء دفعوا رواتب جنودها وصيانة معداتها العسكرية. ومن وجهة نظر الرياض، كان وجود جنود مسلمون مَهَرة ومنضبطون من باكستان أقل استفزازاً بكثير للمواطنين السعوديين من الوجود الأمريكي أو الغربي.

وقد جُدِّدت الاتفاقية السعودية الباكستانية عام 1985 لمدة ثلاث سنوات. وفي عام 1986 كان الوجود العسكري الباكستاني في المملكة العربية السعودية يتألف من فرقة مشاة واحدة (13.000 جندي)، ولواءين مدرعين، ولوائي مدفعية (إجمالي 10.000 جندي)؛ وهذا يعني أن باكستان تمثل معظم اللواء المدرع الثاني عشر السعودي بالقرب من تبوك.[6]

وقبيل نهاية هذه الفترة أصرت الحكومة السعودية على أن القوات الباكستانية يجب أن تكون سنّية بحتة، ورفض الرئيس الجنرال ضياء الحق هذا الشرط، بحجة أنه لا يمكن أن يكون هناك أي تمييز طائفي في الجيش الباكستاني. وبعد انسحاب هذه القوات المقاتلة، كان لا يزال في المملكة ما يصل إلى 5000 باكستاني بين مستشارين عسكريين، وفنيين، وغيرهم من الموظفين في إطار برامج المساعدة العسكرية.[7]

مثلث الرياض-إسلام آباد-دلهي

وفي الوقت نفسه، في الأول من آذار-مارس 1987، عنونت صحيفة "الأوبزرفر"، ومقرها لندن السبق الصحفي في صفحتها الأولى: "باكستان تمتلك القنبلة الذرية"، ونقلت عن عبد

القدير خان، الذي سُمي فيما بعد: الأب الروحي للقنبلة الذرية الباكستانية، قوله: «ما تقوله وكالة المخابرات المركزية عن القنبلة الذرية صحيح. لقد أخبرونا أن باكستان لا تستطيع إنتاج القنبلة أبداً، وشككوا في قدراتي، لكنهم يعرفون الآن أننا نمتلكها».[8] وقد دعوته إلى إسلام آباد. وفي المقابلة التي أجراها نايار في إسلام آباد، في 28 كانون الثاني-يناير، قال خان: «لدينا [قنبلة ذرية]، وقمنا بتخصيب اليورانيوم... وقمنا بتحويلها إلى أسلحة. ضعها سوية»، فأجاب نايار: «إذا قمت بالاختبار، فسيكون ذلك بمنزلة تحذير هائل للهند».[9] وقد نُشرت القصة في جميع أنحاء العالم. وبما أن القبول الضمني للتقرير كان سيؤدي إلى قيام واشنطن بقطع جميع المساعدات عن باكستان، فقد كانت حكومتها حريصة جداً على إنكارها. وفي الوقت نفسه استبعد الجنرال ضياء الحق بشكل قاطع اختبار الجهاز حتى لا يُحرج الرئيس الأمريكي رونالد ريغان الذي كان حريصاً على دعم الجهاد الباكستاني ضد السوفييت في أفغانستان.

وفي العالم الإسلامي كانت إيران من بين الدول التي اتصلت بباكستان لشراء تكنولوجيا الأسلحة النووية. ووفقاً لأحد التقارير، فقد نُقلت معدات الأسلحة النووية إلى إيران مقابل أموال نقدية بين عامي 1988 و1990 عندما كان الجنرال امتياز علي رئيساً لأركان الجيش الباكستاني سابقاً.[10] ولم تُتَح أي تفاصيل في المجال العام، ولكن التخمين الأكثر دقة كان هو أن باكستان قدمت مجموعة متكاملة وفعّالة من أجهزة الطرد المركزي العالية السرعة لتخصيب اليورانيوم. وبما أن المواد المستخدمة في هذه الأدوات الغريبة يجري تحديثها باطراد، فإن أي معدات باكستانية حصلت عليها إيران ستصبح قديمة في أقل من عقد من الزمن.

وفي منطقة الخليج لم توقع المملكة العربية السعودية على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية إلا في عام 1988 تحت ضغط من واشنطن، التي كانت حريصة على استباق أي محاولة من قبل المملكة للحصول على تكنولوجيا الأسلحة النووية من باكستان. وكانت الرياض قد أكدت في وقت سابق أنها لن توقع على معاهدة حظر الانتشار النووي إلا بعد قيام [كيان] إسرائيل بذلك. وهذا لم يحدث قط، وكان من غير المرجح أن يحدث.

وظلت الروابط القوية بين الرياض وإسلام آباد قائمة حتى بعد استعادة الديمقراطية في باكستان بعد وفاة ضياء الحق. وفي كانون الأول-ديسمبر 1988 وصلت إلى السلطة بينظير بوتو، ابنة ذو الفقار علي، التي أدت العمرة في آذار-مارس 1985، إذ قدّم لها الملك فهد دعوة إلى المملكة. وقد وصلت إلى جدة في نيسان-أبريل 1990 على رأس وفد مكون من 45 فرداً، والتقت بالملك. وبعد ستة أشهر عزلها الرئيس غلام إسحاق خان من منصبها بتهم الفساد وسوء الإدارة.

لقد اندلعت الأزمة التي عجّل بها غزو العراق واحتلاله للكويت في آب-أغسطس أثناء فترة ولاية الحكومة المؤقتة في إسلام آباد. وفي أعقاب قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الذي يدعو الدول الأعضاء إلى مساعدة حاكم الكويت في طرد العراقيين من إمارته، بدأ الرئيس الأميركي جورج بوش الأب في تشكيل تحالف من الدول الغربية والإسلامية لتحقيق هذا الهدف، فوافقت الحكومة المؤقتة في إسلام آباد على إرسال 11 ألف جندي إلى المملكة العربية السعودية.

وبعد فوزه في الانتخابات البرلمانية، في تشرين الأول-أكتوبر 1990، قام رئيس الوزراء نواز شريف -وهو رجل ضئيل البنية ذو وجه مترهل ورأس أصلع- بمسح العالم الإسلامي لدعم التحالف السعودي الأمريكي. وخلال حرب الخليج اللاحقة عام 1991 نشرت باكستان فوج الدفاع الجوي الخاص بها لحماية الأصول العسكرية السعودية الحيوية في تبوك، ومن أجل ردع القوات الجوية العراقية.

ووفقاً للوثائق الرسمية التي صوّرها الدبلوماسي السعودي الكبير محمد الخليوي، في حزيران-يونيو 1994، فإن المبلغ الإجمالي الذي قدمته الرياض لبرنامج الأسلحة النووية العراقي السري، والذي انتهى في عام 1990 عندما غزا العراق واحتل الكويت، وصل إلى حوالي 5 مليارات دولار، جرى تحويل معظمه من إجمالي 25,734,469,886 دولاراً أمريكياً قدمتها المملكة العربية السعودية للعراق خلال الحرب العراقية الإيرانية 1980-1988، وفقاً للنشرة الإخبارية الصادرة في 11 شباط-فبراير1991 الصادرة عن سفارة المملكة العربية السعودية في واشنطن العاصمة[11]، لكن بعد هزيمة العراق، بقيادة الولايات المتحدة في شباط- فبراير 1991، كُشف سر برنامجه النووي وجرى تدميره.

ومع ذلك، استكمل التمويل السعودي للبرنامج النووي السري لإسلام آباد من خلال الاستخبارات العسكرية المشتركة (ISI) التي قامت بتوجيه بعض أموال وكالة المخابرات المركزية التي تلقتها خلال الجهاد ضد السوفييت.[12] وقد كانت باكستان تخوض سباقاً نووياً مع الهند التي لجأت، بعد أن اختبرت "جهازها الذري" بنجاح في أيار-مايو 1974، إلى تصنيع قنبلة ذرية في عام 1980. وبعد سبع سنوات، علمت الهند بنجاح باكستان في التسلح النووي، فقامت بتسريع برنامجها الخاص في هذا المجال.

في دلهي، بحلول كانون الأول-ديسمبر 1995، كان رئيس الوزراء الهندي بي في ناراسيمها راو مستعداً لإصدار أمر بإجراء اختبار تحت الأرض لقنبلته الذرية. ولكن الرئيس الأميركي بِل كلينتون، الذي اطلع على صور الأقمار الصناعية الأميركية عن النشاط المتزايد في موقع التجارب الهندي في بوخران في صحراء راجاستان، نجح في إقناع راو بالتخلي عن خطته.

لقد تزايد الإجماع بين الزعماء الهنود على أن الطريقة الوحيدة التي يمكن لبلادهم من خلالها الحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة هي أن تصبح إما قوة اقتصادية ذات وزن ثقيل، أو دولة تمتلك أسلحة نووية، ولم يكن الهدف الأول في الأفق؛ وعلى هذا فإن منطق الخيار الثاني هو الذي دفع رئيس الوزراء الهندي أتال بيهاري فاجبايي إلى إصدار الأمر بإجراء اختبارات نووية في أيار-مايو 1998 بمجرد نجاح الهنود في نشر إستراتيجية التهرب من التصوير عبر الأقمار الصناعية من جانب الولايات المتحدة.

ويواجه نظير فاجبايي الباكستاني في إسلام آباد، نواز شريف، معضلة، إذ إن إجراء اختبار لسلاح نووي من شأنه أن يؤدي إلى فرض الولايات المتحدة عقوبات عليها، وما يترتب على ذلك من عواقب سلبية على الاقتصاد الباكستاني المحفوف بالمخاطر. ومع ذلك، تزايدت الضغوط الشعبية.

وكان الزعيم الأجنبي الوحيد الذي استشاره شريف بشأن هذا الموضوع هو ولي العهد الأمير عبد الله، الزعيم الفعلي للمملكة العربية السعودية. وأوضح أنه، نتيجة للتجربة النووية، ستعاني باكستان من عقوبات اقتصادية من قبل الولايات المتحدة. ولتعويض الخسارة منح عبد الله باكستان 150 ألف برميل نفط يومياً مجاناً[13]، وبقية احتياجاتها النفطية بشروط دفع مؤجلة يُتفق عليها سنوياً. وقد ساهمت لفتته هذه في اتخاذ قرار (شريف) بالمضي قدماً في الاختبارات في تلال تشاغاي في بلوشستان، على بعد حوالي ثلاثين ميلاً من الحدود الإيرانية.

وبعد الانفجار النووي أعلنت المملكة العربية السعودية أن باكستان باتت «أول دولة إسلامية ذات قوة نووية».[14] وقد ساعد التنازل الذي قدمته الرياض لباكستان على التخفيف إلى حد ما من تأثير العقوبات التي فرضتها عليها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.[15] في حين زادت المساعدات العسكرية الباكستانية للمملكة السعودية على شكل جنود وخبرات وصواريخ باليستية، وكانت فرق ثنائية رفيعة المستوى من العلماء والمسؤولين الحكوميين والضباط العسكريين تجتمع بشكل دوري لتقديم المشورة للرياض بشأن تطوير برنامجها النووي.

وبعد شهر، وفي أعقاب رحلة إلى إسلام آباد جرى الإعداد لها على عجل، عقد ولي العهد الأمير عبد الله اجتماعاً مع نواز شريف، وذكر بيان باكستاني سعودي مشترك أن الزعيمين تناولا الشؤون الاقتصادية، وكان هذا صحيحاً، إذ وافق عبد الله على تحويل مبلغ ملياري الدولار المستحق على باكستان للرياض كمدفوعات مؤجلة خلال السنوات الخمس الماضية إلى منحة.[16] وقد ركزت الزيارة التي قام بها وزير الدفاع السعودي الأمير سلطان إلى إسلام آباد في أيار-مايو 1999 على موضوع واحد.

برفقة رئيس الوزراء الباكستاني نواز شريف ورئيس أركان الجيش الجنرال برويز مشرف -وهو رجل ذو شارب، متوسط البنية، يرتدي نظارة طبية، وشعره الأشيب مفروق من المنتصف- قام عبد القدير خان بجولة في مصنع كاهوتا لتخصيب اليورانيوم. كما زار الوزير السعودي المصنع المجهز لتجميع صاروخ غوري الذي يتراوح مداه بين 1500 و2000 كيلومتر. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُسمح فيها لشخص خارجي بالدخول إلى المواقع السرية للغاية. وعندما ضغطت إدارة بيل كلينتون على السعوديين للحصول على تفسير، قاموا بالتعتيم.[17]

وسافر عبد القدير خان إلى المملكة العربية السعودية في تشرين الثاني-نوفمبر، وكانت واحدة من أربعين رحلة قام بها قبل أن يجد نفسه تحت الإقامة الجبرية بعد أربع سنوات. وبفضل علاقاته الرفيعة المستوى في المملكة، زعم أنه عُرضت عليه المواطنة السعودية، وهو امتياز نادر، من قبل أحد الأخوة غير الأشقاء لعبد الله.[18] لقد كانت شكوك واشنطن مبررة؛ ففي شباط-فبراير 2004 اعترف خان في مقابلة تلفازية بأنه باع أسراراً نووية لإيران وليبيا وكوريا الشمالية.

مساهمة السعوديين في السياسة الباكستانية

وقام مشرف بانقلاب ضد شريف في 12 تشرين الأول-أكتوبر 1999، ثم سافر بعد أسبوعين إلى المملكة العربية السعودية، وأطلع الملك فهد وولي العهد الأمير عبد الله على الأمر. وبعد ذلك فقط شغل معظم المناصب الوزارية في البلاد. وفي كانون الأول-ديسمبر 2000، ونتيجة لاتفاق جرى التفاوض عليه بين السعوديين وإدارة كلينتون لمنع إعدام شريف بتهمة الخيانة، ذهب شريف مع أربعين فرداً من عائلته الكبيرة إلى المنفى في المملكة العربية السعودية في صفقة توسَّط فيها الملك عبد الله، وقد تطلب الأمر من شريف أن يبتعد عن السياسة الباكستانية لمدة عشر سنوات. وخلال نفيه، وبعد حصوله على قرض بقيمة 33 مليون دولار من صندوق التنمية الصناعية السعودي، أنشأ مصنعاً للصلب في عام 2005 في جدة بطاقة إنتاجية تبلغ 100 ألف طن من الفولاذ سنوياً.[19] أما الجنرال مشرف، فقد حظي أسلوبه الاستبدادي في الحكم بموافقة الرياض بحرارة.

وفي عام 2001 أنشأت المملكة العربية السعودية وباكستان مشاريع مشتركة لتصنيع الأسلحة الصغيرة والذخائر، وبحلول ذلك الوقت أصبحت التدريبات العسكرية المشتركة بين البلدين روتينية. وفي 25 أيار-مايو عام 2002 دعا الرئيس مشرف كبار المسؤولين السعوديين لحضور اختبار إطلاق صاروخ غوري الذي يتراوح مداه من 940 إلى 1250 ميلاً، وهو قادر على

حمل رأس حربي نووي.[20] وفي مقابل التعاون العسكري والأمني من جانب إسلام آباد وعدت المملكة العربية السعودية بزيادة الاستثمارات في باكستان التي غالباً ما كان نمو ناتجها المحلي الإجمالي يتخلف عن الارتفاع في عدد سكانها. وفي هذا السياق كانت التحويلات المالية التي يرسلها زهاء مليون عامل باكستاني في المملكة العربية السعودية إلى الوطن ذات أهمية حيوية للاقتصاد.

وفي حزيران-يونيو لخّص مشرف، الذي ظل في منصبه كقائد للجيش، العلاقات بين إسلام آباد والرياض على النحو التالي: «عندما تواجه باكستان أي مشكلة، فإن المملكة العربية السعودية هي الملجأ الأول الذي تلجأ إليه باكستان».[21] وبعد شهرين، وفي أعقاب الكشف المثير عن برنامج طهران النووي، تحول الاهتمام الإقليمي والدولي نحو إيران.

القضية النووية الإيرانية إلى الواجهة

في آب-أغسطس 2002 كشف مجلس المقاومة الوطنية الإيرانية، ومقره في باريس، عن وجود مجمع سري لتخصيب اليورانيوم في نطنز، وبناء مصنع لإنتاج الماء الثقيل في آراك[22]، وهو ما أثار القلق في الرياض. وزعمت إيران أنها تقوم بتخصيب اليورانيوم بنسبة تصل إلى 5 % لاستخدامه في محطة طاقة نووية مدنية. وفي كانون الأول-ديسمبر وافقت طهران على عمليات التفتيش التي تجريها الوكالة الدولية للطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة.

في شباط-فبراير 2003 كشف الرئيس الإيراني محمد خاتمي أن حكومته قد اكتشفت رواسب اليورانيوم، وأعلن عن خطط لتطوير دورة الوقود النووي، وهي عبارة عن سلسلة من العمليات الصناعية التي تنطوي على إنتاج الكهرباء من اليورانيوم في مفاعلات الطاقة النووية.[23] (في وقت سابق، في حزيران-يونيو 2002، أعلن داريوش فروغي، رئيس مركز أبحاث الطاقة والبيئة، أن احتياطيات إيران من اليورانيوم تبلغ 12 ألف طن).[24] ودقّ هذا أجراس الإنذار في الرياض، وقد تزايد اهتمامها بالبرنامج النووي لإسلام آباد بشكل كبير.[25]

وبعد مناقشة عاجلة على أعلى مستويات جهاز الأمن الوطني في الرياض، جرى تطوير ورقة إستراتيجية سعودية. وذكرت صحيفة الغارديان، في 18 أيلول-سبتمبر 2003، أن كبار المسؤولين السعوديين كانوا يناقشون ثلاثة خيارات: حصول المملكة على قدرة نووية خاصة بها كوسيلة للردع، والحفاظ على أو الدخول في تحالف مع قوة نووية موجودة من شأنها أن توفر الحماية، ومحاولة التوصل إلى اتفاق إقليمي بشأن شرق أوسط خال من الأسلحة النووية[26]

ظهر هذا التقرير في الوقت الذي زعمت فيه الولايات المتحدة أن إيران لم تلتزم بالاتفاقيات الدولية لمنع انتشار الأسلحة النووية، ومع ذلك، وافقت على دعم الاقتراح الذي تقدمت به بريطانيا وفرنسا وألمانيا -والتي تسمى مجتمعة ترويكا الاتحاد الأوروبي- لمنح طهران مهلة حتى نهاية تشرين الأول-أكتوبر لحل جميع المسائل المتبقية للوكالة الدولية للطاقة الذرية بشأن القضية النووية "بشفافية كاملة"، والسماح بإجراء عمليات تفتيش مفاجئة من قبل الوكالة الدولية للطاقة الذرية بموجب بروتوكولها الإضافي.

وفي أعقاب محادثات بين وزير الخارجية الإيراني كمال خرازي ونظرائه في ترويكا الاتحاد الأوروبي في طهران أعلنت الحكومة الإيرانية في 21 تشرين الأول-أكتوبر أنها وافقت على تعليق تخصيب اليورانيوم، وأنها ستوقّع على البروتوكول الإضافي للوكالة الدولية للطاقة الذرية. وكان هناك اعتباران رئيسان دفعا إيران إلى الخضوع: أحدهما سلبي، والآخر إيجابي، وكان صنّاع القرار السياسي فيها يخشون أن يحاول البيت الأبيض في عهد بوش مرة أخرى زعزعة استقرار نظامهم. وكانت الثمار المترتبة على التوصل إلى اتفاق ناجح مع ترويكا الاتحاد الأوروبي بشأن القضية النووية عبارة عن اتفاق تعاون تجاري واقتصادي كامل مع الاتحاد الأوروبي.[27]

ومن الجانب السعودي وصل ولي العهد الأمير عبد الله والوفد المرافق له المكون من 200 شخص، ومن بينهم وزير الخارجية سعود الفيصل والعديد من الوزراء الآخرين، إلى إسلام آباد في 18 تشرين الأول-أكتوبر ليستقبلهم رئيس الوزراء مير ظفر الله جمالي. وحضر اللقاء جمالي وعبد الله وزيرا خارجية البلدين. وكان من بين الشخصيات البارزة التي حضرت مأدبة الغداء اللاحقة الرئيس مشرف.

وحذر الأمير سعود خلال مؤتمره الصحفي، في إشارة إلى الاجتماع الأخير في دلهي بين فاجبايي ورئيس الوزراء الإسرائيلي الزائر آرييل شارون، من أن التعاون الدفاعي الإسرائيلي الهندي من شأنه أن يشعل المنطقة ويؤدي إلى تصعيد سباق التسلح.[28]

أما فيما يتعلق بالتعاون النووي الرسمي بين الرياض وإسلام آباد، فقد اكتسبت تقارير مختلفة غير مؤكدة رواجاً. وفي إحدى النسختين قامت باكستان بتزويد المملكة العربية السعودية بالتكنولوجيا النووية مع وعد بتمرير قنبلة نووية إليها إذا شعرت بالتهديد من قبل برنامج نووي لطرف ثالث في المستقبل. وذكرت نسخة أخرى أن المملكة العربية السعودية تشتري رؤوساً نووية باكستانية لوضعها فوق الصواريخ السعودية إذا أصبحت إيران قوة نووية مسلحة. ونفت الحكومتان هذه التقارير غير المؤكدة، بينما قال المدير العام للوكالة الدولية

للطاقة الذرية محمد البرادعي في نوفمبر 2003: "لا يوجد دليل" على أن إيران تسعى إلى تطوير برنامج للأسلحة النووية.

وقامت الوكالة الدولية للطاقة الذرية، خلال عام 2004، بمراقبة البرنامج النووي الإيراني عن كثب، وذكرت، في شباط-فبراير، أن إيران أجرت تجربة على البولونيوم 210، الذي يمكن استخدامه لإثارة التفاعل المتسلسل في قنبلة نووية، لكنها أخفقت في تفسير تجاربها، وانتقدت طهران، في حزيران-يونيو، لعدم عرضها التعاون "الكامل وفي الوقت المناسب والاستباقي" مع المفتشين.

وفي شهر أيلول-سبتمبر أصدر المرشد الأعلى الإيراني آية الله علي خامنئي فتوى مفادها أن استخدام القنبلة الذرية أمر "مخالف للإسلام". وبعد شهرين علقت إيران برنامجها لتخصيب اليورانيوم إلى أن تمت "صفقة كبرى" بينها وبين ترويكا الاتحاد الأوروبي، حيث يضمن الاتحاد الأوروبي تقديم تنازلات نووية وسياسية وتجارية لإيران مقابل تعليق طهران لبرنامج التخصيب إلى أجل غير مسمى[29]، حتى إنها سمحت لمفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية بدخول مصنع بارشين السري بالقرب من طهران في كانون الثاني-يناير 2005.

وبينما كانت إيران تنتظر عرض الترويكا الأوروبية، طغت الانتخابات الرئاسية التي جرت يومي 17 و24 حزيران-يونيو 2005 على سياستها، وفيها تغلب عمدة طهران المتشدد على آية الله علي أكبر رفسنجاني بفارق 62:35 % من الأصوات. وهذا يُنذر بمزيد من التشدد في الموقف الإيراني.

وفي صدفة غريبة، توفي الملك فهد في 1 آب-أغسطس 2005، وفي اليوم التالي أدى أحمدي نجاد اليمين الدستورية كرئيس لجمهورية إيران الإسلامية. وحضر الرئيس الباكستاني الجنرال مشرف الجنازة، وقدّم تعازيه للملك عبد الله، كما فعل محمد عارف المساعد الأول لخاتمي.[30] ويمكن الحكم على التقارب بين محور الرياض وإسلام آباد من خلال حقيقة أنه بعد وفاة الملك فهد أعلنت باكستان فترة حداد رسمي لمدة سبعة أيام.

البرنامج النووي الإيراني والعنف الطائفي في العراق

ولما كان عبد الله هو الحاكم الفعلي منذ عام 1995، لم يتغير شيء في الرياض. ولم تكن هذه هي الحال في طهران حيث خلَف محافظ راديكالي مصلحاً معتدلاً. وقد تزامن انتخاب أحمدي نجاد مع صعود قوة أجهزة الأمن والاستخبارات، فقد عُيّن علي لاريجاني، وهو متشدد، لقيادة المحادثات مع الترويكا الأوروبية. ولكن، في التحليل النهائي، فإن السلطة في هذه

المسألة الحيوية تقع على عاتق المجلس الأعلى للأمن القومي المكلف بصياغة السياسات المتعلقة بالدفاع والأمن القوميين، ويرأسها الرئيس، وتتكون من ثمانية عشر مسؤولاً مدنياً وقادة عسكريين، بينهم اثنان من ممثلي المرشد الأعلى. وكان لا بد من مصادقة القائد على قراراته قبل تنفيذها.

وفي السادس من آب-أغسطس 2005 انتهت "الصفقة الكبرى" التي عقدتها ترويكا الاتحاد الأوروبي إلى تنازل إيران عن حقها في تخصيب اليورانيوم بشكل دائم في مقابل تحسين التجارة مع طهران وضمان إمدادات الوقود النووي من أوروبا لمحطات الطاقة النووية المدنية الإيرانية، وأكثر أهميةً من ذلك أنه لم يرد أي ذكر لحق إيران في تخصيب اليورانيوم بموجب معاهدة حظر الانتشار النووي. وبعد ثلاثة أيام رفضت حكومة أحمدي نجاد العرض. وفي كانون الثاني-يناير 2006 قامت بفكّ أختام الوكالة الدولية للطاقة الذرية عن منشأة تخصيب اليورانيوم في نطنز. أنهت ترويكا الاتحاد الأوروبي محادثاتها مع إيران، ولكن الحكومة الإيرانية شعرت بالارتياح إزاء حقيقة مفادها أن تحقيقاً مستقلاً لم يكتشف أي دليل على أن إيران كانت تعمل في برنامج سري للأسلحة النووية، وخلص إلى أن آثار اليورانيوم المستخدم في صنع القنابل في المنشآت النووية الإيرانية جاءت من معدات باكستانية ملوثة. ومن غير المستغرب أن رفضت واشنطن هذا التقرير.[31]

وفي شباط-فبراير 2006، ومن دواعي سرور أفراد العائلة المالكة السعودية، قرر مجلس محافظي الوكالة الدولية للطاقة الذرية المؤلف من خمسة وثلاثين عضواً إحالة قضية إيران إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بأغلبية سبعة وعشرين صوتاً مقابل ثلاثة.[32] وفي المقابل أنهت إيران التعاون الطوعي مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية بما يتجاوز المتطلبات الأساسية لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، واستأنفت تخصيب اليورانيوم. وكان الهدف من ذلك هو التعامل مع طموحات إيران النووية.

وفي السياق الإقليمي، ومع تفاقم الأزمة الدولية مع طهران بشأن القضية النووية، بدا أن التقارير غير المؤكدة عن صفقة الرياض غير المكتوبة مع إسلام آباد، والتي زرعها المسؤولون الإسرائيليون في كثير من الأحيان، تضغط بشكل دوري على الولايات المتحدة لاتخاذ موقف صارم مع إيران بشأن مشروعها النووي.

وفي المقابل كانت الأحداث في العراق تسير لصالح إيران بشكل لا لبس فيه. أما الدستور الجديد الذي صاغته الجمعية الوطنية المؤقتة، التي أُنتخبت في كانون الثاني-يناير 2005، فقد جرى التصديق عليه في استفتاء أجري بنسبة 76 % من الناخبين في تشرين الأول-أكتوبر،

وأعقب ذلك انتخاب أعضاء مجلس النواب المؤلف من 275 عضواً بموجب الدستور الجديد، في كانون الأول-ديسمبر. وقد وُصف العراق بأنه جمهورية برلمانية إسلامية ديمقراطية اتحادية.(*) وحدد الإسلام كمصدر رئيسي للتشريع، وذكر أنه لا يجوز لأي قانون عراقي أن ينتهك المبادئ الأساسية للإسلام. ونصّ على نظام برلماني مع رئيس وزراء تنفيذي ينتخبه مجلس النواب، ولكنه اشترط أخذ الموافقة على كل مشاريع القوانين التي أقرها هذا المجلس بالإجماع من قبل المجلس الرئاسي المكون من ثلاثة أعضاء، الشيعة والسُنّة والأكراد، قبل أن يصبح قانوناً.(33)

وبحصوله على 128 مقعداً برز الائتلاف العراقي الموحد (الشيعي) بقيادة إبراهيم الجعفري، كأكبر مجموعة، يليه التحالف الوطني الديمقراطي الكردستاني برئاسة مسعود بارزاني بـ 53 مقعداً، وجبهة التوافق العراقية (السُّنّية) بزعامة طارق الهاشمي بـ 44 مقعداً. وهذه المرة صوّت السُنّة بأعداد كبيرة، ومع ذلك فإن نسبة الـ 15 % من الأصوات الشعبية التي حصلت عليها جبهة التوافق العراقية كانت أقل من ربع إجمالي الأصوات التي حصلت عليها الأحزاب الشيعية والكردية مجتمعة.(34) وهكذا فإن النظام الانتخابي الذي نُفِّذ بشكل محايد يعكس نقاط القوة الحقيقية للمجموعات العرقية والطائفية الرئيسة الثلاث، وهو التطور الذي أثار قلق الاستبداد الملكي في المملكة العربية السعودية.

كان هناك المزيد من النكسات الانتخابية في انتظار مملكة الصحراء، ففي أول انتخابات حرة ونزيهة في الأراضي الفلسطينية، التي يسكنها سُنة مع أقلية مسيحية صغيرة، في كانون الثاني-يناير 2006، فازت جماعة المقاومة المتطرفة "حماس" بـ 74 مقعداً من أصل 132 مقعداً في البرلمان مقارنة بـ 45 مقعداً حصل عليها الحكم المعتدل الراسخ، حركة فتح، المدعومة من السعودية، على نسبة مشاركة بلغت 77 %. ولم تعترف الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي بحكومة حماس الناتجة عن ذلك لأنهما أدرجا حماس على قائمة المنظمات الإرهابية، ولأنها رفضت الاعتراف بـ [كيان] إسرائيل، وقطعوا مساعداتهما المالية لحكومة حماس الفلسطينية. وتدخلت إيران وزادت مساهمتها لحماس إلى 23 مليون دولار.(35) ورضوخاً لضغوط واشنطن رفضت المملكة العربية السعودية تمويل إدارة حماس، ولو أنها تحدت الولايات المتحدة، لكانت قد جعلت نفسها عرضة لإدراجها في قائمة الدول الراعية لإرهاب الدولة. وقد انتهى الأمر بالتوسط بين حماس وفتح من خلال ترأس اجتماع بين ممثليهما في مكة، وأدى ذلك

(*) لم ترد كلمة "إسلامية" في نصّ الدستور العراقي الحالي لسنة 2005. ونصّت المادة الأولى منه على أن جمهورية العراق دولة اتحادية، مستقلة، ذات سيادة كاملة، ونظام الحكم فيها جمهوري نيابي ديمقراطي [المركز].

إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية في آذار-مارس 2007 برئاسة زعيم حماس، إسماعيل هنية، ولكنها أخفقت في الحصول على اعتراف أمريكا و[كيان] إسرائيل. وعلى أية حال، فقد ثبت أنها عابرة. ولإحباط مؤامرة دبرها رئيس مخابرات فتح، محمد دحلان، الذي يعمل بالتواطؤ مع الولايات المتحدة و[كيان] إسرائيل، لإطاحة الحكومة التي تهيمن عليها حماس، شنت ميليشيا حماس في قطاع غزة هجوماً استباقياً على فتح في الفترة من 10 إلى 15 حزيران-يونيو، وسيطرت على المنطقة بشكل كامل.[36]

أما إيران، فقد حافظت على دعمها لحماس، ومن ثَمّ أنشأت بصمة ثابتة في كيان إقليمي عربي سُنّي، وهو ما كان بمنزلة حبة مريرة، على الحكومة السعودية أن تبتلعها.

وفي العراق أصبحت الهجمات الانتقامية المتقطعة التي يشنها تنظيم القاعدة في بلاد ما بين النهرين على الشيعة، وجيش المهدي، وفيلق بدر على السُنّة[*] سمة محبطة للحياة اليومية. وأدى تفجير المسجد ذي القبة الذهبية الذي يضم ضريح إمامي الشيعة محمد النقي الهادي والحسن بن علي العسكري في سامراء في شباط-فبراير 2006 إلى اندلاع حرب منخفضة الحدة بين الشيعة والسُنّة. وقد وقع هذا الهجوم المثير في وقت الجمود السياسي. وواجهت قيادة الجعفري للائتلاف العراقي الموحّد تحدّياً من قبل عادل عبد المهدي، فهزم منافسه بصوت واحد، وذلك بفضل الدعم الذي حصل عليه من أعضاء التحالف المرتبطين بجيش المهدي الملتزم بإنهاء الوجود العسكري الأنجلو أمريكي بسرعة.

وفي تجاهل لادعاءات إدارته بأن العراق أصبح يتمتع بالسيادة في حزيران-يونيو 2004 عارض الرئيس جورج دبليو بوش علناً إعادة انتخاب الجعفري رئيساً للوزراء؛ ولإنهاء المأزق المنهِك أقنع آية الله العظمى علي السيستاني الجعفري بالتنحي، ثم ذهبت رئاسة الوزراء إلى نوري المالكي المتحدث باسم الائتلاف. وقد عدّه جيمس جيفري، كبير مستشاري وزير الخارجية لشؤون العراق، شخصاً مستقلاً عن إيران وسهل المناورة.[37] وتولى المالكي منصبه في أيار-مايو 2006 على الرغم من أن القائمة الوطنية العراقية بقيادة علاوي لم تمتلك سوى ستة وعشرين مقعداً أدرجها في حكومته. ومع ذلك رفض علاوي منصباً وزارياً لعدم رغبته في

(*) ورد هنا وفي أكثر من موضع في الكتاب اتهامات لفصائل وميليشيات تقوم بأعمال إجرامية تحت عناوين طائفية. ونود أن ننوّه إن القتل والتهجير كان يجري في بغداد وبعض المحافظات ضد العراقيين جميعاً، من أبناء الطوائف الدينية المختلفة السُنية والشيعية والمسيحية وغيرها لا سيما المدنيين الأبرياء، وقد قامت بارتكابها ما تُسمى بـ "فرق الموت" الإرهابية أو الجماعات المسلحة غير المعروفة في الغالب أو التي تدّعي الانتماء إلى هذا الفصيل أو ذاك ولهذا المذهب أو ذاك، دون سند جازم. وقد نفت الكثير من الفصائل صلتها بتلك الأعمال [المركز].

العمل تحت قيادة المالكي، وقضى معظم وقته في عمَّان. وبناءً على توجيهاته، استقال وزراء القائمة الوطنية العراقية في عام 2007. وما إن وصل المالكي إلى السلطة، حتى تصرف بشكل مستقل قدر استطاعته لتقديم نفسه على أنه وطني عراقي، وكانت العاصمة الأجنبية الأولى التي زارها هي طهران حيث استقبله أحمدي نجاد وخامنئي بحرارة. وخلال جولته اللاحقة في دول الخليج، لشرح مشروعه لإعادة إعمار العراق الذي أطلقه مؤخراً، وصل إلى جدة في الأول من تموز-يوليو للقاء الملك عبد الله. ووفقاً للعاهل السعودي، فقد تلقى من المالكي "قائمة مكتوبة بالتزامات المصالحة [الطائفية] في العراق"، ولكن الزعيم العراقي أخفق في متابعة ذلك.[38] لم يكن الأمر كذلك. وبالفعل، أعلن المالكي، في 25 تموز-يوليو، إلى جانب الرئيس المعاد تعيينه جلال الطالباني، عن تشكيل لجنة المصالحة الوطنية المكونة من ثلاثين عضواً المكلفة بعقد المؤتمرات والاجتماعات، وشن حملة إعلامية للمصالحة.[39]

ومن ناحية أخرى، لم يكن من الممكن للمالكي أن يتجاهل حقيقة أنه، كزعيم لحزب الدعوة المحظور في العراق، لجأ إلى طهران من عام 1982 إلى عام 1990 قبل أن ينتقل إلى دمشق، وقد وصف نفسه علناً بأنه شيعي أولاً، ثم زعيم لحزب الدعوة، وأخيراً مواطن عراقي؛ فقد نجح في تعزيز قوة الشيعة، الأمر الذي أدى إلى تنفير السُنّة الساخطين على نحو أكبر. وقد برزت محافظة الأنبار كمعقل للتمرد السُّنّي، حيث كان تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي[*] هو الفاعل الرئيسي، بتمويل من تجارة النفط غير المشروعة المربحة.

وقام خليفة الزرقاوي، أبو أيوب المصري، وهو ضابط عسكري مصري سابق، باستبدال مجلس العالم الإسلامي بدولة العراق الإسلامية، تحت قيادة أبو عمر البغدادي، أحد المنظّرين المتطرفين البارزين، من خلال استمالة مجموعات مسلحة صغيرة. وكان هدفها الاستيلاء على السلطة في العراق وتحويله إلى دولة إسلامية سنية متشددة.

ووفقاً لتقرير استخباراتي سري لقوات مشاة البحرية الأمريكية في آب-أغسطس 2006، فإن السُنّة، «الذين تخلى عنهم بشكل متزايد الزعماء الدينيون والسياسيون الذين فروا إلى البلدان المجاورة»، كانوا يائسين وخائفين وفقراء، وعلى عكس الشيعة والأكراد، لم يمتلكوا

(*) كانت أبرز التنظيمات الإرهابية في العراق بعد 2003 هي(جماعة التوحيد والجهاد) بقيادة أبو مصعب الزرقاوي، والتي التحقت بـ(تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين) بتوجيه من إسامة بن لادن. أما (الجماعة السلفية للدعوة والقتال) التي تحولت إلى (تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد المغرب الإسلامي-مقرها الجزائر) بعد مبايعة بن لادن في يناير-كانون الثاني 2007، فتوصف بأنها تنظيم مغاربي عمل لمدة طويلة على استقطاب المقاتلين من دول المغرب العربي وتنظيمهم وإرسالهم لتغذية الحرب في العراق [المركز].

النفط أو الموارد الطبيعية الأخرى في المناطق التي يشكلون فيها الأغلبية. وخلص التقرير إلى أنه بين عنف القاعدة والنفوذ الإيراني والانسحاب الأمريكي المتوقع، «تدهور الوضع الاجتماعي والسياسي إلى درجة» أن القوات الأمريكية والعراقية «لم تعد قادرة على هزيمة التمرد عسكرياً في الأنبار». ومن بين الحلول التي اقترحتها إنشاء قوة شبه عسكرية محلية لحماية السُنّة وموازنة النفوذ الإيراني في بغداد.[40]

وانعكس التغيير في ميزان القوى بشكل صارخ على أرض الواقع في بغداد، موطن ربع سكان العراق البالغ عددهم 27 مليون نسمة. وقبل الهجوم الذي شنه تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي على المرقدين في المسجد الذهبي في سامراء، في شباط-فبراير 2006، كان رد فعل جيش المهدي وفيلق بدر دفاعياً على هجمات المتطرفين السُنّة. لقد تغير ذلك جذرياً بعد تفجير سامراء. إذ لجؤوا إلى الهجوم، وهي العملية التي تسارعت بعد أن تولى المالكي منصب رئيس الوزراء في نيسان-أبريل.[41] فقدت الأحياء في القطاع الشرقي -الأكثر عرضة للميليشيات الشيعية المتمركزة في مدينة الصدر- الكثير من سكانها من الأقلية السنية، بل إن حتى أحياء الطبقة الوسطى المختلطة بدأت تفقد سكانها السُنّة. وبحلول نهاية عام 2006 تحول أكثر من عشرة أحياء كانت قبل عام ذات تركيبة مختلطة من السُنّة والشيعة لتصير شيعية بالكامل تقريباً.[42] وقد وقعت أربعة من أصل خمسة أعمال عنف طائفية على مسافة ثلاثين ميلاً من بغداد التي أصبحت مقسمة بين جيوب طائفية.

أدانت حكومة المالكي العنف ضد السُنّة، ولكنها لم تفعل الكثير لوقفه. كان الخوف بين السياسيين السُنّة وصانعي السياسات في واشنطن هو أنه إذا لجأ المتشددون الشيعة المتطرفون إلى العنف على نطاق أوسع وفعلوا ذلك مع الإفلات من العقاب، فإن الدول السنية المجاورة -لا سيما المملكة العربية السعودية- قد تتدخل، وتشعل فتيل الصراع الإقليمي المسلح الذي طال أمده.

ودقّت الولايات المتحدة ناقوس الخطر، ففي معرض الإشارة إلى أن الوضع في العراق قال الرئيس بوش في 10 كانون الثاني-يناير 2007: «لا يمكن أن يكون أكثر خطورة»، وأضاف: «إن الحرب على الإرهاب لا يمكن كسبها إذا فشلنا في العراق. إن أعداءنا في جميع أنحاء الشرق الأوسط يحاولون هزيمتنا في العراق، وإذا تراجعنا الآن، فإن المشاكل في العراق سوف تصبح أكثر فتكاً، وتجعل قواتنا تخوض معركة أبشع مما نشهده اليوم»، وأضاف: إن مهمة القوات الإضافية ستكون «مساعدة العراقيين على تطهير الأحياء وتأمينها، ومساعدتهم على حماية السكان المحليين، والمساعدة على ضمان أن تكون القوات العراقية المتبقية قادرة على توفير الأمن».[43]

وفي خطابه عن حالة الأمة أمام الكونغرس، في 23 كانون الأول-يناير 2007، أعلن بوش أنه كجزء من الزيادة العسكرية -التي وُصفت بأنها "الطريق الجديد للمضي قدماً في العراق"- أمر بإرسال أكثر من 21.500 جندي إلى العراق سيُنشَر معظمهم في العاصمة ومحافظة الأنبار.[44] وقد فعل ذلك بعد الحصول على موافقة المالكي الذي عقد معه مؤتمرات أسبوعية عبر الفيديو.

وقبل بضعة أسابيع أنشأ المالكي، بوصفه القائد الأعلى للعراق، مكتب القائد الأعلى (OCINC)مع أربعة وعشرين مرشحاً كهيئة استشارية. وفي غضون أشهر لجأ مكتب مكافحة الإرهاب والجريمة المنظمة إلى تجاوز التسلسل الهرمي الراسخ للقيادات في وزارات الدفاع والداخلية والأمن الوطني. ومن خلال القيام بذلك، زودت المالكي بوسائل مباشرة لإقالة أو تعيين ضباط قياديين. وأشارت مصادر عسكرية أمريكية في العراق إلى حالات عدة وقع فيها اعتقال قادة عراقيين مؤهلين أو إجبارهم على ترك مواقعهم بعد قمع الميليشيات الشيعية، وأدى ذلك إلى ظهور تقارير في وسائل الإعلام الأمريكية مفادها أن مكتب التنسيق والتنسيق الوطني كان مجرد ستار من الدخان لإخفاء أجندة المالكي الشيعية، وأعرب البيت الأبيض عن "قلقه"، وشدد على أنه من الضروري للديمقراطية العراقية أن يكون لديها قوات أمنية يمكنها تطبيق القانون بشكل عادل "بغض النظر عن المجموعة التي ينتمي إليها المواطن". لكن وزير الدفاع العراقي عبد القادر العبيدي، وهو سُني، نفى أن يكون مكتب مكافحة الإرهاب قد تجاوز دوره الاستشاري. ونقلت شبكة سي إن إن عن ضابط كبير في الجيش العراقي قوله: «إن وجود الأمريكيين كان يمنع تصرفات مكتب [القائد الأعلى] من أن تكون مدمرة، لكنه قلق بشأن ما سيحدث عندما تغادر القوات الأمريكية العراق في نهاية المطاف»، وأضاف: في تلك المرحلة «لن تكون هناك أي قيود على أنشطة المكتب».[45] وقد تبين لاحقاً أن تصريحه كان مُتنَبئاً به.

وفي واشنطن أشار تقدير الاستخبارات الوطنية بشأن العراق، الذي أصدره البيت الأبيض في أوائل شباط-فبراير 2007، إلى "عناصر معينة" من الحرب الأهلية في العراق. وشملت هذه «تصلب الهويات العرقية والطائفية، والتغير الكبير في طبيعة العنف ونزوح السكان»، وذكر أن إيران، وبدرجة أقل سورية، يساهمان في تفاقم الوضع[46]، وقد توافق البيان الأخير مع وجهة نظر الحكومة السعودية.

ومع ذلك، واجه العاهل السعودي الملك عبد الله حقيقة وجود حكومة موالية لطهران في بغداد، كما أخذ في الحسبان مخاوف الدول الإقليمية بشأن تصاعد العنف بين السُنّة والشيعة

الذي فشلت القوات العراقية والأميركية في عكس اتجاهه، فضلاً عن المواجهة السياسية في لبنان؛ ولذلك دعا أحمدي نجاد إلى العاصمة السعودية لإجراء محادثات في 3 آذار-مارس 2007.

ولدى عودته إلى طهران، بعد قمته مع عبد الله، قال أحمدي نجاد: «لقد ناقشنا المؤامرات التي نفذها الأعداء من أجل تقسيم العالم الإسلامي»، وقد انضمت محاوره إليه في إدانتهم. وفي وقت سابق ذكرت وكالة الأنباء السعودية الرسمية أن «الزعيمين أكدا أن الخطر الأكبر الذي يهدد الأمة الإسلامية حالياً هو محاولة إثارة الفتنة بين المسلمين السُنّة والشيعة، وأنه ينبغي بذل الجهود لوقف هذه المحاولات ودعم وحدة الصف».[47] لكن هذه التصريحات التحسينية لم تحدث سوى القليل من الفارق على أرض الواقع.

وبدأت قوات أميركية إضافية تصل بشكل مطرد إلى العراق اعتباراً من شباط-فبراير 2007، كما حدث تحول في سياسة البيت الأبيض بشأن مكافحة الإرهاب، وأمرت البنتاغون بالتركيز على حماية المدنيين بدلاً من قتل أكبر عدد ممكن من الأعداء، وكان هذا أمراً حاسماً لتهدئة العنف الطائفي. ونظراً للسخط المتزايد لدى زعماء القبائل السنية تجاه تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، فقد كانت هناك فرصة جيدة لاستدراجهم للانضمام إلى الحملة ضد المتمردين بالمال والسلاح.

لكن السفير الأميركي ريان كروكر والقائد الأعلى للقوات الأميركية في العراق الجنرال ديفيد بتريوس كانا بحاجة إلى موافقة المالكي، وقد رفض. وبعد أن استسلم للضغوط المكثفة التي مارسها كروكر وبترايوس، وافق لاحقاً على أن يصبح البنتاغون هو المسؤول عن صرف الرواتب، وامتنع عن إمداد القبائل السُّنّية بالأسلحة. وقد سُمي انتصار هذه العشائر، والذي بدأ في ربيع عام 2007، بالصحوة السُّنّية. وبتشجيع من التقدم الذي أحرزه البنتاغون، قام بتوسيع البرنامج، فقدم 300 دولار شهرياً للمتطوعين، الذين كانوا أحراراً في شراء الأسلحة، وهي متاحة بسهولة وبتكلفة زهيدة، ويحرسون نقاط التفتيش والدوريات. بالإضافة إلى ذلك، كان مطلوباً منهم إبلاغ القوات الأمريكية والعراقية. وفي المقابل، قيل لهم: إنهم سيُدمَجون في نهاية المطاف في الجيش والشرطة النظاميين في الدولة.

وفي انعكاس لتغيير الناتج، بدأ البنتاغون باستخدام مصطلح "المواطنون المعنيون" بدلاً من وصفهم بقوات الصحوة السُّنّية. فقد صرح اللواء ريك لينش، قائد القوات التي تقودها الولايات المتحدة في وسط العراق، في تشرين الأول-أكتوبر 2007: «لدي الآن عدد من المواطنين المعنيين أكثر من عدد قوات التحالف»، وأعرب عن ثقته في أن قوته الحالية التي

تضم أكثر من 21 ألف مواطن معني "ستنمو بشكل كبير". وأضاف: «في الوقت الحالي لدي أربع وثلاثون مجموعة من المواطنين بموجب عقد، وهذا يكلفني 7 ملايين دولار ونصف المليون كل 60-90 يوماً»، ومعظم المجموعات سُنّية.[48] وفي الواقع، انتشرت منطقة التجنيد من العشائر السنية في محافظة الأنبار في أقل من عام، لتصبح قوة مسلحة مخصصة قوامها 65.000 إلى 80.000 في جميع أنحاء العراق.

ظلت الإستراتيجية الشاملة كما هي: كان على القوات الأمريكية أن تقوم بتطهير المنطقة المتضررة من المتمردين، لتسيطر عليها لاحقاً مجموعات المواطنين (وهم أنفسهم جماعة الصحوة السنية)، لكن المالكي شعر بعدم الارتياح تجاه برنامج البنتاغون، وهدد بكبح مثل هذا النشاط ووضعه تحت سيطرة الجيش العراقي، وسط اتهامات بأن إحدى الجماعات السُّنّية لجأت إلى الاختطاف والقتل والابتزاز في العاصمة، لكنه لم يواصل متابعة الأمر.

وأدى مضاعفة القوة العسكرية الأمريكية المتزايدة مع تمويل وتسليح "المواطنين - مجموعات الصحوة السُّنّية"، إلى انخفاض ملحوظ في أعمال العنف. وانخفض عدد القتلى بين القوات الأمريكية من 126 في أيار-مايو 2007 إلى 23 في كانون الأول-ديسمبر. وخلال المدة نفسها انخفض عدد الوفيات بين المدنيين العراقيين من أكثر من 1700 إلى حوالي 500.[49] وفي عام 2008 بدأ البنتاغون التخطيط لخفض قواته، التي كان عددها آنذاك 140 ألفاً، بدءاً بانسحابهم من المدن والبلدات إلى قواعدهم الريفية.

ومن الناحية السياسية أدى انخفاض إراقة الدماء إلى إضفاء الثقة التي كانت الحكومة العراقية في أمسّ الحاجة إليها. وقد ضغط المالكي على إدارة بوش للموافقة على انسحاب مرحلي للقوات الأمريكية، مجادلاً في حزيران-يونيو 2008 بأن ستة عشر شهراً ستكون الإطار الزمني المناسب لإتمام العملية. وبحلول تشرين الأول-أكتوبر، شعرت حكومته بالثقة الكافية لتولي مسؤولية دفع رواتب أعضاء مجلس الصحوة، الذين بلغ عددهم آنذاك ما يقرب من 94 ألفاً. لكنها كانت تعتزم دمج ربعهم فقط في قوات الجيش والشرطة التي يقودها الشيعة، على الرغم من حث واشنطن على استيعابهم جميعاً.

ولا عجب أنه خلال اجتماعه في آذار-مارس 2009 مع جون برينان، مستشار الرئيس باراك أوباما لشؤون مكافحة الإرهاب، أعرب العاهل السعودي عبد الله عن «انعدام كامل للثقة في رئيس الوزراء العراقي المالكي ولم يكن لديه أمل يذكر في تحسين العلاقات السعودية العراقية ما دام المالكي في منصبه»، ولم يتابع الالتزامات التي قطعها على نفسه بشأن المصالحة الطائفية في العراق، وقال الملك: «أنا لا أثق بهذا الرجل، فهو عميل إيراني».

وأضاف: إنه قال لبوش وتشيني «كيف يمكنني أن ألتقي بشخص لا أثق به؟» وقال أيضاً: إن المالكي «فتح الباب أمام النفوذ الإيراني في العراق» منذ توليه السلطة، وإنه «لم يكن متفائلاً على الإطلاق» بشأن المالكي، «وإلا لكنت التقيت به [بعد عام 2006]».[50] وليس من المستغرب أنه في القمة العربية التي عُقدت في الدوحة، يومي 28 و29 آذار-مارس، تجنب عبد الله عمداً تحية المالكي.

ومن جانبه واصل المالكي تعزيز سلطته في العراق من خلال تصوير نفسه على أنه قومي ملتزم. ويمكن الحكم على نجاحه من خلال حقيقة أنه بعد وقت قصير من توليه رئاسة الولايات المتحدة، في كانون الثاني-يناير 2009، أعلن باراك أوباما أن جميع القوات الأمريكية ستخرج من العراق بحلول نهاية عام 2011. وعندما انسحب الجنود الأمريكيون، في 30 حزيران-يونيو 2009، من المناطق الحضرية إلى قواعدهم الريفية، أعلنت حكومة المالكي أن هذا اليوم هو يوم السيادة الوطنية.[51] وقد ثبت أن هذا أكثر من مجرد بادرة رمزية؛ فقد عززت النفوذ الدبلوماسي للمالكي.

في 24 أيلول-سبتمبر 2009 أُرسلت برقية سرية إلى وزارة الخارجية، أرسلها كريستوفر هيل، سفير الولايات المتحدة في العراق، بعنوان "اللعبة الكبرى، في بلاد ما بين النهرين: العراق وجيرانه، الجزء الأول"، وقد غطت الموضوع بشكل شامل. وفي إشارة إلى جلسة المكتب البيضاوي التي عقدها المالكي مع أوباما في تموز-يوليو 2009، اقترح الزعيم العراقي على الرئيس الأمريكي أن يطلب من السعوديين الامتناع عن التدخل في شؤون العراق، واشتكى من جهودهم لحشد السُّنّة، وكان المالكي يزيد من حدة التوترات الطائفية، ويقدِّم لإيران ذريعة للتدخل في السياسة العراقية. وتابع هيل: «في الوقت الحالي، يستخدم السعوديون أموالهم وقوتهم الإعلامية (قنوات العربية والشرقية الفضائية، وغيرها من وسائل الإعلام المختلفة التي يسيطرون عليها، أو يؤثرون فيها) لدعم التطلعات السياسية السُّنّية، وممارسة النفوذ على الجماعات القبلية السُّنّية، وتقويض المجلس الأعلى الإسلامي العراقي الذي يقوده الشيعة والتحالف الوطني العراقي».

وأشار هيل إلى أن «المسؤولين العراقيين يلاحظون أن التصريحات الدورية المناهضة للشيعة من قبل الشخصيات الدينية السعودية غالباً ما يُسمح لها بالانتشار دون موافقة أو تنصل من القيادة السعودية». وتابع هيل: إن هذا الواقع «يعزز وجهة النظر العراقية القائلة بأن دين الدولة السعودية، الإسلام السُّنّي الوهَّابي، يتغاضى عن التحريض الديني ضد الشيعة. والشك هو أن هذه المواقف المناهضة للشيعة تلون وجهات النظر السعودية حول العراق

الذي يقوده الشيعة. لقد نظر السعوديون تقليدياً إلى العراق بوصفه حصناً يهيمن عليه السُّنّة ضد انتشار المذهب الشيعي والنفوذ السياسي الإيراني. وفي أعقاب التفجيرات التي وقعت في المناطق ذات الأغلبية الشيعية في جميع أنحاء البلاد في حزيران-يونيو 2009، والتي أسفرت عن مقتل العشرات، أشار رئيس الوزراء المالكي علناً إلى أحد هذه التصريحات التي أدلى بها إمام سعودي في أيار-مايو، وقال: "لقد لاحظنا أن العديد من الحكومات التزمت الصمت بشكل مثير للريبة بشأن فتوى التحريض على قتل الشيعة"».

وفي تلخيصه لإيجازات اتصالات السفارة العراقية أشار هيل إلى أن «هذه الاتصالات تقيّم أن الهدف السعودي (وبدرجات متفاوتة معظم الدول السنية الأخرى) هو تعزيز النفوذ السُّنّي، وتمييع الهيمنة الشيعية، وتعزيز تشكيل حكومة عراقية ضعيفة وأكثر انقساماً».

وذهب هيل ليقدم تقييمه لإيران. وأشار إلى أن «النفوذ الإيراني في العراق لا يزال منتشراً، حيث تتلاعب طهران بمجموعة من الأدوات لتشكيل المشهد السياسي، والديني، والاجتماعي، والاقتصادي في العراق». و«أن الجهود الإيرانية مدفوعة بتصميم واضح على رؤية حكومة طائفية يهيمن عليها الشيعة ضعيفة ومحرومة من جيرانها العرب ومنفصلة عن الأجهزة الأمنية الأمريكية ومعتمدة إستراتيجياً على إيران».

ثم ميّز هيل أسلوب عمل إيران عن أسلوب عمل جيران العراق من العرب السُّنّة، وأشار إلى أن «النفوذ الإيراني لا يهدف، على عكس بعض جيرانه العرب السُّنّة، إلى إثارة الإرهاب الذي من شأنه زعزعة استقرار الحكومة»، وأنه «من الطبيعي أن يخلق ذلك مقاومة عراقية وطنية لها (سواء شيعية أو على نطاق أوسع)، إذا لم يتدخل أجانب آخرون لتأجيج التوتر الطائفي بين السُّنّة والشيعة؛ وقد جُمِّدت تلك المقاومة إلى حد ما في الأشهر القليلة الماضية بسبب الاضطرابات السياسية [ما بعد الرئاسة] داخل إيران».[52]

كان تصرف عبد الله في العراق جزءاً من سياسة أكبر مناهضة لإيران والشيعة ظهرت إلى النور عندما اختُرِقت وزارة الخارجية السعودية من قبل مجموعة تطلق على نفسها اسم الجيش السيبراني اليمني في عام 2015. وقد أصدر المتسللون عدداً من عينات مجموعات المستندات على مواقع مشاركة الملفات، ولكنها حُذِفت بواسطة أدوات الرقابة التي تستخدمها الحكومة السعودية. وبعد ذلك مرروا أكثر من نصف مليون برقية سعودية ووثائق أخرى إلى ويكيليكس، تغطي المدة من عام 2010 إلى أوائل عام 2015. ثم بدأت ويكيليكس في نشر المواد على دفعات مكونة من عشرات الآلاف من الوثائق في المرة الواحدة، بدءاً من 70 ألف وثيقة في 19 حزيران-يونيو. 2015.[53]

انكشاف هوس السعوديين المناهض لإيران والشيعة

وبعد شهرين، (في تشرين الأول-نوفمبر 2015)، اعترفت وزارة الخارجية السعودية باختراق شبكات الكمبيوتر الخاصة بها، ووجدت الرياض أن الوثائق المسربة محرجة للغاية، لدرجة أنها جعلت من نشرها جريمة جنائية. وهناك ملخّص قدمه بن هوبارد ومي الشيخ من صحيفة نيويورك تايمز، ونُشر بعد يومين من الاتفاق النووي الإيراني في 14 تموز-يوليو، لخص حملة الرياض المستمرة ضد إيران والشيعة. وبينما أكدت المملكة العربية السعودية أن بعض الوثائق ملفقة، فإن معظمها يحتوي على أسماء وأرقام هواتف صحيحة. وعندما اتصلت صحيفة نيويورك تايمز بالعديد من الأفراد والمنظمات المذكورة في البرقيات، تحققوا من محتوياتها.

وكشفت البرقيات السعودية المسربة، التي تغطي الفترة ما بين عام 2010 وأوائل عام 2015، بالتفصيل كيف أنفقت المملكة مليارات الدولارات لتنفيذ أجندتها الدينية ذات المسارين، التي وضعها كبار المسؤولين في وزارات الخارجية، والداخلية، والشؤون الإسلامية، وجهاز المخابرات والديوان الملكي، بالتنسيق مع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وهو هيئة مشتركة بين الوزارات. وقد ركز أحد المسارات على نشر النسخة السعودية من الإسلام السُّنّي من خلال وضع رجال الدين الأجانب على جدول رواتب المملكة، وبناء المساجد والمدارس ومراكز الدراسة، وتقويض المسؤولين الأجانب ووسائل الإعلام الإخبارية التي يُنظر إليها على أنها تهديدات للمصالح السعودية. أما المسار الآخر، فقد ركز على تقويض الإسلام الشيعي وإيران.

وكان هناك إجراء موحد لتمويل الأجندة الدينية، وقد أحالت وزارة الخارجية طلبات التمويل إلى وزارة الداخلية ووكالة المخابرات لفحص المستفيدين المحتملين، في حين ساعدت رابطة العالم الإسلامي، ومقرها مكة، والممولة من السعودية، في تنسيق الإستراتيجية، وأشرف دبلوماسيون سعوديون في الخارج على المشاريع. وبدلاً من ذلك، وبدافع من رابطة العالم الإسلامي، حدد الدبلوماسيون السعوديون القادة والمنظمات الإسلامية المتعاطفة في الخارج، ووزعوا الأموال والمطبوعات الدينية، وقاموا بتدريب رجال الدين وتوظيفهم كموظفين بأجر للعمل في بلدانهم الأصلية. وذكرت البرقيات أربعة عشر رجل دين جديداً سيجري توظيفهم في غينيا، وأظهرت أن عقود وقّعت مع اثني عشر آخرين في طاجيكستان.

وقال أسامة حسن، الباحث البارز في الدراسات الإسلامية في مؤسسة كويليام في لندن، لصحيفة نيويورك تايمز: «نحن نتحدث عن آلاف وآلاف من المنظمات الناشطة والدعاة الذين

هم في دائرة النفوذ السعودي لأنهم يحصلون على تمويل مباشر أو غير مباشر». وأضاف: «لقد كان عاملاً كبيراً، ولا يمكن إنكار النفوذ السعودي».

وبناء على تعليمات وزارة الخارجية قامت السفارات السعودية في آسيا وإفريقيا وأوروبا بمراقبة أنشطة البعثات الإيرانية بالتفصيل الدقيق؛ ومن الأمثلة على ذلك إعلان السفارة السعودية في كولومبو بسريلانكا عن لقاء بين السفير الإيراني ومجموعة من علماء المسلمين بدأ الساعة 7:30 مساء.

وفي المجال الأيديولوجي أعربت مجموعة من البرقيات السعودية عن قلقها البالغ من سعي إيران إلى تحويل طاجيكستان إلى «مركز لتصدير ثورتها الدينية ونشر أيديولوجيتها في دول المنطقة [آسيا الوسطى]». ورجّح السفير السعودي في دوشانبي أن يقوم المسؤولون الطاجيكيون بتقييد الدعم الإيراني «إذا توفرت مصادر أخرى للدعم المالي، خاصة من المملكة». وذكرت برقية من الرياض إلى السفارة السعودية في دوشانبي أن الحكومة تراقب عن كثب تحركات إيران في روسيا. ولم يكن من المستغرب أن ترسل السفارة السعودية في طهران تقارير يومية عن التغطية الإخبارية المحلية للمملكة. وقد اقترحت إحدى البرقيات أن على المملكة العربية السعودية إنشاء محطة تلفازية باللغة الفارسية وإرسال رجال دين موالين للحكومة للقيام بجولة في إيران.

وكشفت البرقيات المسربة أنه بين عامي 2010 و2013، حاول الملك عبد الله إجبار قناة العالم الفضائية الإيرانية على التوقف عن البث. وشملت هذه المحاولات إصدار مراسيم ملكية بهدف وقف البث، والضغط على مزوّد القمر الصناعي عربسات، ومقره الرياض، لوقف القناة، واستخدام "الوسائل التقنية" لإضعاف إشارة القناة حتى لا تصل إلى البحرين والمنطقة الشرقية من المملكة، حيث كان التمييز ضد الشيعة متفشياً. ولكن جهود العاهل السعودي أخفقت.

وبعد أن أُسقِطت من قبل اثنين من مزودي الأقمار الصناعية العربية نجحت إدارة (العالم) في العثور على مزود أوروبي للأقمار الصناعية، وقال مدير قناة العالم المقيم في بيروت لصحيفة نيويورك تايمز: "نحن نبث بشكل طبيعي"، وأردف قائلاً: «إن التعطيل الوحيد الذي لدينا [الآن] هو عندما نبث برنامجاً عن البحرين». وفي عام 2012 كلفت وزارة الخارجية السعودية سفراءها في أفريقيا بإرسال تقارير عن الأنشطة الإيرانية في بلدانهم. وقدّم السفير السعودي لدى أوغندا، ذات الأغلبية المسيحية، تقريراً مفصلاً عن «التوسع الشيعي». وحذرت برقية من مالي، وهي دولة ذات أغلبية مسلمة، من أن إيران تجتذب المسلمين المحليين،

الذين لا يعرفون سوى القليل عن «حقيقة الأيديولوجية الشيعية المتطرفة والعنصرية التي تتعارض مع جميع المدارس الإسلامية الأخرى».

وفي الوقت نفسه لم تغفل الرياض البلدان التي يشكّل فيها المسلمون أقلية صغيرة مثل الصين (1.6 %) والفلبين (5 %)؛ فطُلب من السفارة السعودية في بكين اقتراح «برامج عملية يمكن تنفيذها لمواجهة التوسع الشيعي في الصين»، بينما تضمنت البرقيات الواردة من مانيلا اقتراحات بـ "تقييد الوجود الإيراني". أما في تايلاند، التي ضربتها الفيضانات، فقد طلب وزير الخارجية السعودي أموالاً من وزارة الخزانة، بحجة أن ذلك "سيكون له تأثير إيجابي على المسلمين في تايلاند، وسيقيّد الحكومة الإيرانية في توسيع نفوذها الشيعي." وفي هذه الأثناء كان الملك عبد الله يراقب باهتمام التقدم الذي أحرزته إيران في المجال النووي، ولمجاراة هذا التقدم عمّقت المملكة اهتمامها بسياسة باكستان، التي كانت توسّع ترسانتها من القنابل الذرية بشكل مطرد.

عبد الله يتدخل في السياسة الباكستانية

في 1 شباط-فبراير 2006 وصل عبد الله، على رأس وفد من الوزراء وكبار موظفي الخدمة المدنية ورجال الأعمال، إلى إسلام آباد، ليرحب به الرئيس مشرف ورئيس الوزراء شوكت عزيز. وبعد حصوله على أعلى وسام باكستان، نيشان باكستان (باللغة الأردية: "شعار باكستان")، وقّع اتفاق تعاون اقتصادي مع باكستان، الدولة التي كانت المملكة العربية السعودية أكبر مورد للنفط لها.

وما أثار انزعاج مشرف أن شريف وبينظير بوتو وقعا في أيار-مايو 2006 على ميثاق الديمقراطية، الذي شارك في صياغته مساعدوهما، أثناء اجتماعهما في لندن. وأعلنا أن حزبيهما السياسيين سوف ينافسان في الانتخابات التي وعد بها مشرف في عام 2007. وتجسد هذا التحالف بين المتنافسين القديمين بعد الدعوة التصالحية التي وجهتها بوتو، التي تعيش في منفىً اختياري في دبي منذ أبريل 1999، إلى شريف في جدة في شباط-فبراير 2005 [54] وبحسب البرقية السرية التي أرسلتها القنصلية الأمريكية في جدة بتاريخ 12 أيلول-سبتمبر 2007، والتي نشرتها ويكيليكس، أبلغ رئيس المخابرات السعودية الأمير مقرن السفير الأمريكي لدى المملكة العربية السعودية، فورد إم. فريكر، أنه كان ثمة اتفاق شفهي ينص على أنه بعد خمس سنوات، يتفاوض هو وشريف على تخفيض فترة السنوات العشر لمنع شريف عن ممارسة السياسة الباكستانية.[55]

وفي 23 آب-أغسطس 2007 قضت المحكمة العليا الباكستانية بأن شريف حرّ في العودة إلى وطنه. وفي تدخل سافر في الشؤون الداخلية الباكستانية عقد الأمير مقرن مؤتمراً صحفياً في إسلام آباد في 8 أيلول-سبتمبر. وعندما ذُكّر بحكم المحكمة العليا قال: «أيهما أولى: الاتفاق معنا أم مع المحكمة العليا؟» وأضاف: إن السعودية "سترحب" بشريف إذا قامت الحكومة الباكستانية بترحيله. وعندما وصل شريف إلى مطار إسلام آباد، قُبِض عليه، ووُضِع على متن طائرة متجهة إلى جدة.[56]

ولكن عندما أقنعت إدارة بوش مشرف بالسماح لبينظير بوتو بالعودة إلى باكستان، في 18 تشرين الأول-أكتوبر، وجدت الحكومة السعودية نفسها في مأزق؛ فإذا تمكنت خصم شريف من العودة إلى بلادها، فلن يكون من المعقول أن تُبقي الرياض شريف في المملكة ضد إرادته. ومن جانبه، أعلن مشرف، متجاهلاً نصيحة واشنطن، حالة الطوارئ في الثالث من تشرين الثاني-نوفمبر، ظاهرياً لمواجهة النفوذ المتزايد للإرهاب الجهادي. ونتيجة لذلك أُجِّلت الانتخابات العامة التي كان من المقرر إجراؤها في أواخر تشرين الثاني- نوفمبر إلى أوائل كانون الثاني-يناير 2008، وأثار ذلك غضب المعارضة الداخلية المتحدّة تحت مظلة حركة استعادة الديمقراطية.

واستدعى الملك عبد الله مشرف لزيارة الرياض في 20 تشرين الثاني-نوفمبر. وبحسب موقع ويكيليكس، فقد دعا عادل الجبير، السفير السعودي في واشنطن، في ذلك اليوم القائم بالأعمال الأمريكي مايكل جفويلر إلى مقر إقامته في الرياض، وأبلغه أن مشرف سيلتقي العاهل السعودي، وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل، والأمير مقرن، وقال له: «إن الغرض من هذه الاجتماعات هو الحصول على قراءة للوضع (في باكستان) وتقديم وجهة نظرنا إليه». وأضاف الجبير: «نحن في المملكة العربية السعودية لسنا مراقبين في باكستان، بل نحن مشاركون»، وإن الحكومة السعودية ستسيطر على تحركات شريف في المملكة في المستقبل. وفي معرض تقييمه للوضع في باكستان أشار إلى أنه لا شريف ولا بوتو يمكن أن يكونا بديلاً صالحاً لمشرف. وأضاف: «رغم كل عيوبه، فـ(مشرف) هو الشخص الوحيد الذي يتعين عليكم أو علينا أن نعمل معه الآن». ووصف باكستان بأنها «قبلية للغاية، تشبه إلى حد كبير بلدنا». ونظراً لحقيقة أن باكستان تمتلك أسلحة نووية ووسائل نقل نووية، فإن سياسة المملكة هناك تتلخص في اختيار جذري: «فإما أن ندعم مشرف والاستقرار، أو أن نسمح لأسامة بن لادن بالحصول على القنبلة النووية». وبوصفه أحد كبار مستشاري الملك عبد الله لمدة ثماني سنوات كان الجبير يمثّل آراء الملك، بحسب القائم بالأعمال الأمريكي.[57]

لقد قطعت هذه البرقية السرية المرسلة من السفارة الأمريكية في الرياض الغموض التقليدي الذي كان يميز صنّاع السياسة السعوديين، فقد وضع ختماً رسمياً على تفضيلهم القوي للحكام المستبدين وازدرائهم للقادة المنتخبين ديمقراطياً الذين لا يستطيعون ضمان الاستقرار. ومن الواضح أن ملاحظة الجبير حول كون المجتمع الباكستاني قبلياً كانت غير مدروسة، إذ لا يمكن اكتشاف عناصر القبلية إلا في مقاطعتي بلوشستان وخيبر بختونخوا اللتين تشكلان معاً خُمس سكان البلاد فقط.

الأمم المتحدة تفرض عقوبات على إيران

وأعلن أحمدي نجاد في نيسان-أبريل 2006 أن إيران نجحت في تخصيب اليورانيوم إلى نسبة نقاء 3.5 %. وفي شهر حزيران-يونيو انضمت الصين وروسيا والولايات المتحدة إلى ترويكا الاتحاد الأوروبي لتقديم اقتراح آخر لإجراء مفاوضات شاملة مع إيران، وهو ما رفضته طهران مرة أخرى. وفي قراره رقم 1696 الذي صدر بموجب الفصل السابع للأمم المتحدة في تموز-يوليو 2006، طالب مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بوضع حدٍ لأنشطة إيران المتعلقة بتخصيب اليورانيوم وإعادة معالجته، وقد رفضت إيران الامتثال.

وعندما تحدّت إيران قرار مجلس الأمن، في كانون الأول-ديسمبر 2006، بتعليق الأنشطة المتعلقة بالتخصيب وإعادة المعالجة والتعاون مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، تابع المجلس القرار رقم 1747 في 24 آذار-مارس 2007، وشدد القرار العقوبات المفروضة في كانون الأول-ديسمبر 2006، وحظر صادرات إيران من الأسلحة وحظرها. جمدت الأصول وقيد سفر الأفراد المشاركين في البرنامج النووي الإيراني. وقد طمأن هذا الحكومة السعودية بشأن الجدية التي تتعامل بها الأمم المتحدة مع أنشطة طهران النووية.

وقد تغير مزاجها في الثالث من كانون الأول-ديسمبر 2007 عندما أصدر رئيس الاستخبارات الوطنية الأميركية مايك ماكونيل ملخصاً غير سري لتقدير استخباراتي وطني جديد لنوايا إيران وقدراتها النووية، استناداً إلى إجماع وكالات التجسس الأميركية الستة عشر كافة. وخلص التقرير بثقة عالية إلى أن إيران أوقفت برنامجها للأسلحة النووية قبل أربع سنوات، في خريف عام 2003، ولم تستأنف العمل في مجال الأسلحة النووية حتى منتصف عام 2007. واستند هذا الاستنتاج إلى الاتصالات العسكرية الإيرانية التي اعترضتها الولايات المتحدة.[58]

وقد كان التقرير منطقياً، وكانت القوة الدافعة لعسكرة البرنامج النووي الإيراني هي طموحات صدام حسين لإنتاج قنبلة ذرية. وبحلول خريف عام 2003، عندما أصبح من

الواضح تماماً بعد البحث الشامل في العراق من قبل القوات الأنجلو-أمريكية المحتلة أن الزعيم العراقي قد دمر جميع المرافق لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، أوقفت الحكومة الإيرانية تحركاتها المبدئية نحو إنتاج قنبلة ذرية.

وبالصدفة كان أحمدي نجاد كضيف في الدوحة، في 3 كانون الأول-ديسمبر 2007، بدعوة من أمير قطر حمد آل ثاني لحضور القمة السنوية لمجلس التعاون الخليجي التي تستمر يومين. وفي خطابه أمام القمة قدّم أحمدي نجاد اقتراحاً من اثنتي عشرة نقطة، تضمنت التعاون في المجالات العلمية والثقافية والاقتصادية، وصولاً إلى اتفاقية التجارة الحرة، وقال: «نحن نقترح إبرام اتفاقية أمنية»، مضيفاً أن انعدام الأمن سيؤثر في جميع الدول المطلة على الخليج. وأضاف: «نريد السلام والأمن... على أساس العدالة ودون تدخل أجنبي». وكانت العبارة الرئيسية هي "دون تدخل أجنبي"[59]، وهو ما أدى إلى إنهاء دول مجلس التعاون الخليجي لاتفاقيات التعاون الدفاعي المستمرة مع الولايات المتحدة، وهو أمر غير موفق، خاصة بالنسبة للمملكة العربية السعودية[*]. وفي وقت لاحق عندما طُلب منه التعليق على تقرير الاستخبارات القومية الذي أصدرته واشنطن بشأن إيران، قال إن قضية البرنامج النووي الإيراني "أُغلقت"، وأن بلاده مستعدة لأي احتمال. وأضاف: «لا نشعر بالتهديد على الإطلاق، لكننا مستعدون».[60] وقد لاقت كلماته استحسان المتطرفين في إيران، ولكنها أثارت غضب عبد الله ودائرته الداخلية، ومع ذلك لم يظهر عبد الله أي إشارة ظاهرياً للتهدئة تجاه أحمدي نجاد. إلا أنه دعا الرئيس الإيراني لأداء فريضة الحج، بدءاً من الثامن عشر من كانون الأول-ديسمبر 2007. وبذلك أصبح أحمدي نجاد أول رئيس إيراني يتلقى مثل هذه الدعوة التي قبلها بسهولة.

وفرضت قرارات مجلس الأمن الدولي الصادرة في آذار-مارس 2007 وآذار-مارس 2008 عقوبات تدريجية على الأفراد والكيانات الإيرانية التي يُعتقد أنها متورطة في برامج البلاد النووية والصاروخية. وفي أيلول-سبتمبر 2008 اعتمد مجلس الأمن القرار 1835 الذي أعاد تأكيد المطالب التي قُدِّمت في تموز-يوليو 2006، ولكن دون فرض عقوبات إضافية. وقد صدرت جميع هذه القرارات بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، واستندت إلى فرضية مفادها أن برنامج طهران النووي غير شرعي، ويشكل تهديداً للسلام والاستقرار الدوليين.

(*) لم تُنهِ دول مجلس التعاون الخليجي تلك الاتفاقيات لأنها إحدى الأسس التي تعتمدها في التحالفات الخارجية الضرورية.

وكان الرئيس بوش قد سمح بحلول ذلك الوقت لبرنامج إلكتروني سري بالوصول إلى أدوات التحكم بالكمبيوتر الصناعي في (نطنز) للحصول على مخطط لكيفية عمله، وذلك كيلا يترك أي شيء للصدفة. وما إن تحقق ذلك، حتى بدأ فريق أمريكي إسرائيلي مشترك في بناء دودة لمهاجمة محطة نطنز، وجعل أجهزة الطرد المركزي، التي تعمل على تخصيب اليورانيوم، خارج نطاق السيطرة. وسيجري بعد ذلك إدخال الفايروس الناتج (Stuxnet) إلى منشأة نطنز باستخدام محركات أقراص كمبيوتر ملوثة في حزيران-يونيو 2009 تقريباً.[61]

وفي أيلول-سبتمبر اعترفت طهران، عندما تعرضت لضغوط، بأنها كانت تقوم ببناء مصنع لتخصيب اليورانيوم في سفح جبل في فاردو بالقرب من مدينة قم المقدسة، لكنها أصرّت على أن ذلك لأغراض سلمية. وفي الشهر التالي عرضت الدول الأعضاء الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة وألمانيا على طهران اقتراحاً لتخصيب اليورانيوم في الخارج، فأبدت إيران اهتماماً. واستمرت المحادثات اللاحقة للاتفاق على التفاصيل لأشهر عِدّة، ثم انهارت أخيراً في أيار-مايو 2010 عندما رفضت إيران وقف التخصيب في حد ذاته، وهو حقها بموجب معاهدة منع الانتشار النووي. وقبل ثلاثة أشهر أعلن أحمدي نجاد أن إيران قامت بتخصيب اليورانيوم إلى نسبة 20 %، وهي النسبة المطلوبة لمفاعل الأبحاث النووية الذي بُني في طهران عام 1967 لإنتاج النظائر الطبية. وفي حزيران-يونيو أصدر مجلس الأمن القرار رقم 1929 الذي يفرض حظراً كاملاً للأسلحة على إيران.[62]

سياسة عبد الله المزدوجة تجاه إيران

في 2 آذار-مارس 2008 أصبح أحمدي نجاد أول رئيس إيراني يقوم بزيارة رسمية إلى العراق منذ تأسيس الجمهورية الإسلامية في عام 1979. وعلى النقيض من الزيارة التي قام بها الرئيس بوش الذي نُقِل بطائرة هليكوبتر من مطار بغداد إلى مجمع أمريكي شديد الحراسة، استقل أحمدي نجاد موكباً إلى مجمع الرئيس العراقي جلال الطالباني -وهو من العرق الكردي- يحرسه رجال شرطة محليون. وأعلن هناك أنه وصل ليفتح "فصلاً جديداً" في العلاقات العراقية الإيرانية. ورداً على ذلك، قال طالباني: «إن القضايا الاقتصادية والنفطية والسياسية والأمنية» كلها مطروحة على الطاولة. وفي مؤتمر صحفي مشترك مع ضيفه قال رئيس الوزراء المالكي: «أعتقد أن مستوى الثقة [بين العراق وإيران] مرتفع للغاية، وأقول بصراحة إن الموقف الذي اتخذته إيران مؤخراً كان مفيداً جداً في إعادة الأمن والاستقرار». وحين أشار أحد المراسلين العرب إلى تصريحات إدارة بوش بأن إيران تزود الميليشيات الشيعية بالأسلحة، قال أحمدي نجاد: «يمكنك أن تخبر السيد بوش بأن توجيه الاتهامات

للآخرين من شأنه أن يزيد من مشكلات الأميركيين في المنطقة. سيكون عليهم قبول الحقائق في المنطقة. الشعب العراقي لا يحب الأمريكيين». وفي مناسبة أخرى صرح أحمدي نجاد أن الاحتلال الأمريكي أدى إلى تدفق الإرهابيين إلى العراق. وفي اليوم التالي وقّع اتفاقيات لإمدادات الطاقة ومشاريع استثمارية أخرى في العراق للمساعدة في عملية إعادة الإعمار.[63]

إن الود المتزايد بين بغداد وطهران أثار قلقاً كبيراً لكل من الرياض وواشنطن؛ بالإضافة إلى ذلك، كان هناك احتمال مخيف بأن تتمكن إيران من تصنيع قنبلة ذرية، وهو الأمر الذي كان يخشاه أفراد العائلة المالكة السعودية. ومع ذلك لم يكن بوسعهم القيام إلا بالقليل جداً بشكل مباشر لوقف البرنامج النووي الإيراني؛ فكل ما يمكنهم فعله هو حثّ واشنطن على التعامل بشكل صارم مع طهران بشأن هذه القضية. لقد حاولوا جاهدين خلف الكواليس، لكن جهودهم السرية أصبحت معروفة للعامة بعد أن نشر موقع ويكيليكس أول مخبأ يضم 220 برقية دبلوماسية أمريكية في 28 تشرين الثاني-نوفمبر 2010، والتي نشرتها صحف من بينها صحيفتا نيويورك تايمز والجارديان.

ولخّصت البرقية التي أرسلتها السفارة الأمريكية في الرياض بتاريخ 20 نيسان-أبريل 2008 المحادثات التي جرت بين السفير الأمريكي في العراق رايان كروكر، والجنرال الأمريكي ديفيد بتريوس، قائد القوات المتعددة الجنسيات في العراق، والملك عبد الله مع وزراء الخارجية والداخلية والاستخبارات في 14-15 نيسان-أبريل، والمحادثة بين القائم بالأعمال الأمريكي وعادل الجبير، السفير السعودي في واشنطن، في 17 نيسان-أبريل.

وأشار النص تحت العنوان الفرعي: "الحاجة لمقاومة إيران" إلى اتفاق الملك عبد الله وكبار وزرائه على أن «المملكة بحاجة إلى التعاون مع الولايات المتحدة في مقاومة ودحر النفوذ الإيراني والتخريب في العراق. وكان الملك مصراً بشكل خاص على هذه النقطة، وقد رددها كبار الأمراء أيضاً». ثم لخص النص تصريحات الجبير، فقد «ذكّر الجبير بتحذيرات الملك المتكررة للولايات المتحدة لمهاجمة إيران؛ وبالتالي وضع حدٍ لبرنامجها للأسلحة النووية، وقال للقائم بالأعمال: "لقد طلب منكم [أيها الأمريكيون] أن تقطعوا رأس الأفعى"، مضيفاً أن العمل مع الولايات المتحدة لدحر النفوذ الإيراني في العراق يمثل أولوية إستراتيجية للملك وحكومته».[64] ومن جانبها فرضت أمريكا عقوبات نفطية وتجارية بسبب رعاية إيران المزعومة للإرهاب منذ عام 1995.

لم يكن الملك عبد الله سعيداً بتطور الأحداث في باكستان عام 2008 لسببين، إذ شهد ذلك العام عودة الديمقراطية إلى باكستان بعد أحد عشر عاماً من الدكتاتورية العسكرية،

وأدى ذلك إلى انتخاب آصف علي زرداري، وهو شيعي، رئيساً للبلاد. وفي عجزه عن إخفاء كراهيته لزرداري، قال العاهل السعودي الملك عبد الله لمستشار الأمن القومي الأميركي الزائر جيمس جونز: إن زرداري هو "الرأس الفاسد" الذي يصيب الجسد كله.[65]

تحدٍّ داخلي مفاجئ لخامنئي

وبدلاً من استثمار الأموال النقدية الناتجة عن أسعار النفط المرتفعة إلى مستويات قياسية، استهلكها أحمدي نجاد، الذي لم يدرس الاقتصاد، من خلال زيادة معاشات التقاعد والرواتب ومنح قروض رخيصة. ومن خلال استخدام اللغة اليومية للشعب والتجول في كل عاصمة من العواصم الإقليمية البالغ عددها 31، ومخاطبة التجمعات هناك وجمع الالتماسات من المواطنين، تمكّن من توسيع قاعدته الشعبية. كما حشد الأمة بشأن قضية حق إيران في تخصيب اليورانيوم للأغراض السلمية. وبسبب ثقتها المفرطة في مكانته العامة، سمحت حكومته بإجراء ثلاث مناظرات تلفازية مدة كل منها 90 دقيقة بينه وبين كل من منافسيه الثلاثة خلال الفترة التي سبقت الانتخابات الرئاسية في 12 حزيران-يونيو 2009. وقد أتاح ذلك فرصة غير مسبوقة للتعبير عن آراء المعارضة سيتم بثه أمام جمهور يبلغ 50 مليوناً. لقد عزز ذلك بشكل كبير فرص الإصلاحي مير حسين موسوي، رئيس الوزراء السابق خلال الحرب الإيرانية العراقية 1980-1988. لقد جرد أحمدي نجاد من أحشائه بسبب سوء إدارة الاقتصاد وعكس اتجاه التحرر الاجتماعي الثقافي الذي قدمه خاتمي.

وكانت نسبة إقبال الناخبين على التصويت 84%، وهي ثاني أعلى نسبة في تاريخ الجمهورية. وكان ذلك يعني أن عدداً أكبر من الإيرانيين من الطبقة المتوسطة العليا والطبقة العليا -العلمانيين في كثير من الأحيان- خرجوا للتصويت أكثر من ذي قبل؛ وهذا كان في صالح موسوي. لذلك فإن النتيجة الرسمية التي أعلنت بعد استعجال مسفرة عن 62.5% من الأصوات لصالح أحمدي نجاد مقابل 33.9% لموسوي، فاجأت معظم المحللين الإيرانيين والأجانب، ونزل عشرات الآلاف إلى الشوارع في طهران والمدن الكبرى الأخرى للاحتجاج على تزوير الانتخابات المشتبه به على نطاق واسع، حيث قام بعض المشاركين الغاضبين بتخريب الحافلات وإحراقها. وأغلقت السلطات مكتب طهران لقناة العربية التلفازية، ومقرها دبي لمدة أسبوع. ورداً على ذلك، احتشد الناخبون المؤيدون لأحمدي نجاد في وسط طهران، وتقدم موسوي بشكوى إلى هيئة الانتخابات التابعة لمجلس صيانة الدستور المؤلف من اثني عشر عضواً، وهو هيئة من كبار رجال الدين والقضاة. ووافقت على إجراء إعادة فرز جزئية بعد يوم من خروج ما يقدر بنحو ثلاثة ملايين من أنصار موسوي -الذين رفضوا قرار

مجلس صيانة الدستور بينما طالبوا بإجراء انتخابات جديدة- إلى الشوارع في أكبر احتجاج منذ ثورة 1979 في 15 حزيران-يونيو. وقد منعت الحكومة وسائل الإعلام الأجنبية من تغطية أخبارها في شوارع طهران، وحصرتها في فنادقها ومكاتبها. وفي اليوم التالي اندلعت مظاهرات مؤيدة ومناهضة لأحمدي نجاد، فأغلق النظام الجامعات في طهران، وحجب بعض المواقع الإلكترونية، وقطع إشارات الهاتف المحمول، وحشد قوات الشرطة التابعة له وعدداً أكبر بكثير من متطوعي الباسيج، وهي قوات الصدمة التي استخدمها لإنهاء الاحتجاجات العامة. وكثيراً ما كانوا يقتحمون حشود المتظاهرين على دراجات نارية، ويضربون المشاركين بالعصي والهراوات المعدنية ومضارب البيسبول. وعلى الرغم من أنهم قوة مساعدة للحرس الثوري الإيراني، فإن متطوعي الباسيج، الذين يعملون كحراس شعبيين، لم يرتدوا الزي الرسمي، وكانوا موالين بشكل متعصب للمرشد الأعلى.

وفي 18 حزيران-يونيو، عندما قام أكثر من 100.000 متظاهر بإشعال الشموع في وقفة احتجاجية في العاصمة عقب دعوة موسوي إلى يوم حداد على القتلى في الاحتجاجات[66]، أصدر أنصار حزب الله، الذين يشكلون قلب الباسيج، دعوة للتظاهر ضد "المؤامرة التحريضية" التي ينفذها "مثيرو الشغب"، ودعوا «الأهالي اليقظين الموجودين دائماً في الساحة لإسماع صوت اعتراضاتهم العالية رداً على ثرثرة هذه القبيلة»، في اليوم التالي الجمعة.[67]

وقال المرشد الأعلى آية الله خامنئي في خطبة الجمعة أمام حشود المصلين: إن الانتخابات الرئاسية كانت مشروعة وإن نسبة المشاركة الكبيرة للناخبين والنجاح الناتج لأحمدي نجاد كان "تقييماً إلهياً"، مضيفاً أن هامش النصر -وكان أكثر من 11 مليون صوت- كبير جداً بحيث لا يمكن التلاعب بها، وحذّر من أنه لن يكون هناك تسامح مع الاحتجاجات بعد الآن.[68]

ورفضت المعارضة تأكيد خامنئي، ولكن عدداً أقل بكثير من الناس احتجوا، بينما أصبحت قوات الأمن أكثر شراسة، واستخدمت في بعض الأحيان الذخيرة الحية لتفريق الحشود، وقتلت عشرة متظاهرين، بما في ذلك ندا آغا سلطان، وهي طالبة إيرانية شابة، غطى وفاتها مقطع فيديو على موقع يوتيوب، وأصبحت على نطاق واسع رمزاً للمعارضة[69] التي تُسمى الآن بالحركة الخضراء نسبة إلى اللون الذي يفضله موسوي.

وفي 29 حزيران-يونيو صدّق مجلس صيانة الدستور، بعد أن أجرى فرزاً عشوائياً لـ 10 % من الأصوات، على نتائج الانتخابات المتنازع عليها، وأدى ذلك إلى موجة جديدة من الاحتجاجات على الرغم من الحظر الرسمي على المسيرات في الشوارع.

وبعد أسبوع من أداء أحمدي نجاد اليمين لولاية ثانية كرئيس، في 5 آب-أغسطس، قال

متحدث باسم السلطة القضائية إن 4000 شخص اعتقلوا خلال الاحتجاجات التي أعقبت الانتخابات، واعتُقل جميع المشاركين لبضعة أيام فقط باستثناء 300 شخص "تورطوا في أعمال الشغب". وفي حين اعترفت الحكومة بوفاة "نحو ثلاثين" متظاهراً، قدّرت المعارضة الرقم بسبعة وستين، بحسب شهادة العائلات الثكلى. واحتُجز معظم المعتقلين في سجني إيفين وكهريزاك السيئي السمعة. وكانت هناك شكاوى كثيرة حول إساءة معاملة السجناء في مركز احتجاز كهريزاك، مما دفع خامنئي إلى إصدار أمر بإغلاقه على الفور. كما قام البرلمان والسلطة القضائية في إيران بتعيين لجان للتحقيق في الاضطرابات التي أعقبت الانتخابات ورد الحكومة.[70]

عزلة إيران المتزايدة تعزز الرياض

بدأ مجلس الأمن الدولي بتوسيع العقوبات ضد إيران في القطاع المالي في مواجهة رفض طهران تعليق تخصيب اليورانيوم، ودعا قراره الصادر في آذار-مارس 2008 الدول الأعضاء إلى مراقبة أنشطة البنوك الإيرانية وتفتيش السفن والطائرات الإيرانية بحثاً عن انتهاك حظر الأسلحة الذي تفرضه. وبشكل أكثر تحديداً، اطمأن السعوديون إلى استمرار عداء واشنطن تجاه طهران على الرغم من خلافة بوش للرئيس الديمقراطي باراك أوباما كرئيس للولايات المتحدة في كانون الثاني-يناير2009.

وفي تكرار لما توصلت إليه في السنوات السابقة قالت وزارة الخارجية في تقاريرها السنوية حول الإرهاب في أيار-مايو: إن إيران تظل "الدولة الأكثر نشاطاً في رعاية المجموعات المسلحة" في العالم[71]. وفي وقتٍ سابق، في 12 كانون الثاني-يناير 2010، صاغت وسائل الإعلام الإيرانية مصطلح "الشهيد النووي" عندما نقلت خبر اغتيال منصور علي محمدي، أستاذ الفيزياء في جامعة طهران، خارج منزله في شمالي طهران. وعشية الذكرى الحادية والثلاثين للثورة الإسلامية، في 10 شباط-فبراير 2010، أعلن أحمدي نجاد أن إيران نجحت في تخصيب اليورانيوم إلى نسبة نقاء 20 % من المستوى السابق البالغ 3.5 إلى 5 %، وادعى أن هذا كان مطلوباً كوقود للمفاعل النووي الذي زودتها به الولايات المتحدة والذي جرى بناؤه في طهران عام 1967 لإنتاج النظائر الطبية لعلاج السرطان.[72]

وبعد أربعة أشهر، في 9 حزيران-يونيو 2010، فرض قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم 1929 جولة رابعة من العقوبات على إيران، وقد تضمنت قيوداً مالية أكثر صرامة وحظراً موسعاً للأسلحة من خلال منع طهران من شراء أسلحة ثقيلة مثل المروحيات

الهجومية والصواريخ، وحظرت على إيران القيام بأي أنشطة تتعلق بالصواريخ الباليستية، وسمحت بتفتيش ومصادرة الشحنات التي تنتهك هذه القيود، كما مددت تجميد الأصول ليشمل الحرس الثوري الإيراني وخطوط الشحن لجمهورية إيران الإسلامية، وأوصت الدول الأعضاء بحظر فتح البنوك الإيرانية ومنع البنوك الإيرانية من الدخول في علاقة مع بنوكها إذا كان من الممكن أن تساهم في البرنامج النووي. واعتُمِد القرار بأغلبية اثني عشر صوتاً مقابل معارضة اثنين –تركيا والبرازيل- مع امتناع لبنان عن التصويت.[73] وقد تعاونت كل من روسيا والصين مع باقي الأعضاء الغربيين الثلاثة ووافقت على تمرير القرار دون استخدمهما لحق النقض (الفيتو) على أساس أن الدول الغربية لن تفرض مزيداً من العقوبات. ولم يكن الأمر كذلك، إذ فرضت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي في وقت لاحق المزيد من العقوبات الأحادية الجانب على الجمهورية الإسلامية. وفي طهران رفض أحمدي نجاد القرار، ووصفه بأنه "منديل مستعمل يجب إلقاؤه في سلة المهملات".[74]

التحدي الداخلي الذي تواجهه المملكة العربية السعودية لم يُحَل

واستمر النشاط الإرهابي بعد أن خلَف عبد الله فهد في آب-أغسطس 2005. وفي الواقع، كان الهجوم الأكثر ضرراً على صناعة النفط السعودية هو الهجوم الذي وقع في شباط-فبراير 2006؛ فقد تمكن اثنان من عناصر تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية، يرتديان زي حراس أرامكو السعودية، ويقودان شاحنات صغيرة تابعة للشركة، من عبور اثنتين من البوابات الثلاث المحيطة بمنشأة بقيق النفطية التي تعالج 7 ملايين برميل يومياً ليجري تحميلها في الناقلات للتصدير، ولم تجرِ مواجهتهم إلا عند البوابة الأخيرة. وقد استمرت المعركة بالأسلحة النارية ساعتين، وأسفرت عن مقتل الإرهابيين واثنين من حراس الأمن، وإلحاق أضرار بخطوط الأنابيب. ولو أن المتسللين نجحوا في مهمتهم المتمثلة في تفجير جزء من المصنع الضخم، لكانت أسعار النفط الآجلة قد ارتفعت بمقدار كبير بلغ 20 دولاراً للبرميل.[75] وقد أجبرت حملة القمع اللاحقة التي شنتها السلطات السعودية العديد من أعضاء الجماعة الذين يبلغ عددهم مئات عدة على البحث عن ملجأ في اليمن.

وكانت المشاعر المعادية لأمريكا بين السعوديين العاديين في ارتفاع على خلفية الحرب الطائفية الناشئة بين السُّنّة والشيعة في العراق الذي تحتله الولايات المتحدة. وفي شباط-فبراير 2007 أطلق 99 من المحامين والأساتذة والناشطين السعوديين عريضة بعنوان "معالم على الطريق إلى الملكية الدستورية"، فأثار ذلك غضب الحكومة حتى إنها اعتقلت تسعة من زعماء العصابات بتهمة التجمع لتشكيل حزب سياسي. ومع ذلك، ولإظهار أنه لاحظ المشاعر

الشعبية ضد أمريكا، استخدم الملك عبد الله خطابه الافتتاحي في قمة جامعة الدول العربية في الرياض يومي 27 و28 آذار-مارس 2007 ليصرح أنه «في العراق الحبيب تراق الدماء بين الإخوة في ظل احتلال أجنبي غير شرعي والطائفية الدنيئة التي تهدد بالحرب الأهلية».[76] وبهذا يكون عبد الله، الذي تعاون مع الرئيس بوش في غزو الأخير للعراق، قد تفوق على نفسه في النفاق الفاضح. وقد جاء تصريحه بعد عامين ونصف من إعلان الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان أن الحرب التي قادتها الولايات المتحدة على العراق كانت غير قانونية لسببين: أنه لم يقرها مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وأنها لم تكن متوافقة مع الميثاق التأسيسي للأمم المتحدة.[77]

في الذكرى السادسة لأحداث 11 أيلول-سبتمبر (سبتمبر 2007) وجّه رجل الدين السعودي سلمان العودة رسالة مفتوحة إلى أسامة بن لادن في برنامجه الأسبوعي (الحياة كلمة) على قناة MBC وتساءل العودة: «كم عدد الأطفال والنساء والشيوخ الأبرياء الذين قتلوا، وشوهوا، وطردوا من منازلهم باسم القاعدة؟»، وأضاف: «إن صورة الإسلام اليوم مشوهة؛ فالناس في جميع أنحاء العالم يقولون: كيف يعلم الإسلام أن كل من لا يقبله يجب أن يُقتل؟ وهم يقولون أيضاً: إن أتباع السلفية يبيحون قتل المسلمين الذين لا يشاركونهم وجهات نظرهم».[78]

وفي 1 تشرين الأول-أكتوبر 2007، أصدر المفتي العام عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ فتوى تحرم السعوديين من الانخراط في الجهاد في الخارج، وحذر من أن القيام بمثل هذه المهمة دون إذن من الحاكم يشكل جريمة خطيرة.[79] إن الإشارة إلى الجهاد خارج المملكة تتعلق بالمواطنين السعوديين الذين شاركوا بعد سفرهم إلى العراق في الإرهاب الإسلامي ضد المحتلين الأمريكيين.

كان تأثير إستراتيجية الدولة على تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية ضئيلاً، ولم يُحبَط العمل الإرهابي الكبير الذي خططت له خلال موسم الحج في كانون الأول-ديسمبر 2007 إلا في اللحظة الأخيرة، وفقاً لمصادر رسمية. وفي وقت سابق، في 27 نيسان-إبريل، ألقت الحكومة القبض على 172 عضواً في تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية من سبع خلايا كانوا يخططون لشن هجمات على القواعد العسكرية ومصافي النفط. وبحلول أوائل عام 2008، جرى استجواب أكثر من 4000 من الإرهابيين المشتبه بهم. وفي نيسان-إبريل، احتُجِزت مجموعات كبيرة أخرى من المشتبه بهم. وبحلول الخريف زعمت السلطات أنها أحبطت ما يصل إلى خمس وعشرين مؤامرة، وقتلت، أو أسرت 260 ناشطاً، بما في ذلك جميع زعماء العصابة الستة والعشرين باستثناء واحد منهم.[80]

وإلى جانب إجراءات الشرطة ضد الجهاديين قدّمت وزارة الداخلية برنامج إعادة تأهيل وتثقيف للمحتجزين، معاملة إياهم كشباب ذوي عقول ملتوية، وليس كمتطرفين سياسيين. وجرى التمييز بين أولئك الذين انضموا إلى الجهاد في الخارج والذين شاركوا في الهجمات الداخلية، حيث عُدَّ هؤلاء أبناء سعوديين مضللين. وقال الأمير محمد بن نايف: «لقد كان هؤلاء الشباب مرض»، و«نحن ننظر إلى مشكلتهم كفيروس في عقولهم... من بين المحتجزين لدينا حوالي 20 % يرفضون التغيير... لكننا نساعد أولئك الذين هم على استعداد للمساعدة؛ نأتي بالأطباء النفسيين، ونحضر رجال دين ليبينوا لهم أين أخطؤوا في قراءة القرآن، وبذا صار لديهم الكثير من الدروس الدينية. نحن نأتي بجميع أفراد الأسرة».[81]

لقد كان الهدف النهائي لبرنامج إعادة التأهيل هو تمكين الرجل الذي أعيد تأهيله من الاستقرار مع زوجته وتكوين أسرة، وقد أعطته الوزارة مبلغ 60 ألف ريال سعودي (16 ألف دولار) لتغطية مهر العروس الحالي، مع تشجيع الأسرة على العثور على زوجة مناسبة له. وفي الفترة ما بين عام 2004 وخريف عام 2008، جُنِّد ما يقرب من 100 رجل دين، مدعومين بثلاثين عالماً نفسياً، لإدارة برنامج إعادة التأهيل. ومن بين 2000 معتقل خضعوا للبرنامج، أُطلِق سراح 700 منهم بعد تخليهم عن معتقداتهم الجهادية. وفي البداية، رفض 1400 معتقل المشاركة في المشروع.[82]

وكان بن نايف محظوظاً بالنجاة من محاولة اغتيال مخطط لها بدقة في آب-أغسطس 2009 خلال شهر رمضان، فقد عاد عبد الله حسن العسيري، وهو ناشط سعودي في تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية، إلى جدة من اليمن وعرض الاستسلام شخصياً لـ بن نايف كما فعل عشرات من متطرفي القاعدة في شبه الجزيرة العربية من قبل. بالإضافة إلى ذلك قدّم نفسه على أنه شخص يمكنه إقناع المسلحين الآخرين في اليمن بالاستسلام؛ وأدى ذلك إلى لقائه بالأمير في مقر إقامته الخاص في جدة يوم الجمعة 28 آب-أغسطس. مرّ عبر جهاز الكشف عن المعادن، وقام الحراس بالتربيت على جسده. لم يكتشفوا مادةPETN البلاستيكية المتفجرة التي كان يخفيها في ملابسه الداخلية، وكذلك فتيله الكيميائي. وخلال اللقاء استخدم الهاتف المحمول الخاص بالأمير للاتصال برفاقه في اليمن ليخبرهم أنه يقف بالقرب من بن نايف. وبعد الانتهاء من المكالمة سلّم الهاتف للأمير. في تلك اللحظة، انفجرت القنبلة البلاستيكية، فمزقت العسيري إلى ثلاثة وسبعين جزءاً، لكنها، بأعجوبة، لم تصب الهدف إلا إصابة طفيفة. وسمع بن نايف وهو يحمل الهاتف عبارة "الله أكبر" على الطرف الآخر احتفالاً بوفاته المفترضة.[83] لقد عمل بن نايف بالتعاون الوثيق مع مسؤولي مكافحة

الإرهاب في واشنطن. وخلال اجتماعه مع الملك عبد الله في 15 آذار-مارس 2009 في قصره الخاص بالرياض، وصف جون برينان الأمير بن نايف بأنه "شريك بارز في مكافحة الإرهاب"، وفقاً لموقع ويكيليكس.[84] ومع ذلك، سيظل تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية نشطاً في المملكة العربية السعودية كما يتضح من اعتقال أعضائه البالغ عددهم 249 عضواً والاستيلاء على 600 ألف دولار نقداً في أواخر نوفمبر 2010.[85]

موقف عبد الله الواضح من إيران

كمقدمة للمناقشة التي استمرت 90 دقيقة في 15 آذار-مارس، والتي لُخِّصت في البرقية السرية التي أرسلها سفير الولايات المتحدة لدى المملكة العربية السعودية، فورد فريكر، في 22 آذار-مارس 2009، قال الملك عبد الله: «الحمد لله على وصول أوباما إلى الرئاسة»، فقد خلق وصوله "أملاً كبيراً" في العالم الإسلامي. وتحت عنوان فرعي "إيران: تبادل ساخن"، جاء في الوثيقة ما يلي: «أشار الملك إلى أن وزير الخارجية الإيراني منوشهر متقي كان "يجلس في المقعد نفسه (مثل برينان) قبل لحظات قليلة"، ووصف الملك محادثته مع وزير الخارجية متقي بأنها "سجال ساخن" ناقش بصراحة التدخلات الإيرانية في الشؤون العربية». وعندما تحدى الملك التدخل الإيراني في شؤون حماس، احتج متقي بشكل واضح قائلاً: «هؤلاء مسلمون»، فرد عليه الملك: «لا، العرب»، «ليس لكم كفرس أن تتدخلوا في شؤون العرب». وعندما قال متقي: إن الإيرانيين يريدون تحسين العلاقات، رد الملك بإعطاء متقي إنذاراً نهائياً: «سأعطيك سنة واحدة [لتحسين العلاقات]، وبعد ذلك ستكون النهاية».

وعندما أخبر برينان الملك أن الرئيس أوباما يريد سماع أفكاره بشأن إيران، «أكد عبد الله أن إيران تحاول إنشاء منظمات شبيهة بحزب الله في البلدان الأفريقية، ملاحظاً أن الإيرانيين لا يعتقدون أنهم يتصرفون بشكل خاطئ، ولا يعترفون بأخطائهم». قال الملك «لقد قلت (لمتقي): إن هذه مشكلتكم»، ووصف إيران بأنها «جارة لا يريد المرء أن يراها»، وإنما هي «جارة يريد المرء أن يتجنبها»، وأضاف: إن الإيرانيين «يطلقون الصواريخ على أمل زرع الخوف في نفوس الناس والعالم». وقال الملك أيضاً: إن حل الصراع العربي الإسرائيلي سيكون إنجازاً عظيماً، لكن إيران ستجد طرقاً أخرى لإثارة المشاكل. وتابع: «إن هدف إيران هو إثارة المشاكل»، و«ليس هناك شك في وجود شيء غير مستقر بشأنهم»، ووصف إيران بأنها «مغامرة بالمعنى السلبي»، وقال: «اللهم لا تجعلنا ضحية لشرهم». وكان متقي قد قدم دعوة [له] لزيارة إيران، لكن عبد الله قال: إنه أجاب: «كل ما أريده منك هو أن تجنّبنا شرّك». ولخص

عبد الله تاريخه مع إيران قائلاً: «لقد كانت لدينا علاقات صحيحة [مع إيران] على مر السنين، ولكن خلاصة القول هي أنه لا يمكن الوثوق بها».

ومضى عبد الله ليكشف أنه في عام 2006 كان "المرشد الأعلى لإيران" خامنئي قد أرسل مستشاره علي أكبر ولايتي برسالة يطلب فيها موافقة عبد الله على إنشاء قناة خلفية رسمية للاتصالات بين الزعيمين. وقال عبد الله إنه وافق، وقد أنشئت القناة مع ولايتي ووزير الخارجية السعودي سعود الفيصل كنقطة اتصال. وأشار الملك إلى أنه في السنوات التي تلت ذلك، لم تُستخدَم القناة البتة.

وعندما أكد برينان لعبد الله أن الولايات المتحدة ستطلب نصيحته في التعامل مع القضايا المتعددة في الشرق الأوسط، سأل عما إذا كان ذلك يشمل إيران. فأجاب برينان بـ"أجل"، وأضاف: «إن أعيننا مفتوحة على مصراعيها على الطموحات الإيرانية، وإننا لم نكن سذَّجاً إزاء المخاطر التي تشكلها إيران على المملكة العربية السعودية، وإنه لا يمكن السماح لإيران بالنجاح في أنشطتها المزعزعة للاستقرار». وأشار كذلك إلى أن الشراكة بين الولايات المتحدة والسعودية يجب أن تظل قوية، وأننا معاً، ومع الآخرين، «بحاجة إلى إحباط طموحات إيران النووية». فأجاب عبد الله قائلاً: «هذا مهم».[86]

وبدأ أوباما رحلته التي تستغرق خمسة أيام إلى أربع دول في 3 حزيران-يونيو بزيارة المملكة العربية السعودية، واصفاً إياها بـ "المكان الذي بدأ فيه الإسلام"، وهي لفتة أسعدت عبد الله. وفي مطار الرياض، تبادل عناقاً خفيفاً وقبلة مزدوجة مع الملك عبد الله الذي أهداه ميدالية ذهبية كبيرة عرفت باسم قلادة الملك عبد العزيز. وبعد قضاء ساعات ما بعد الظهر مع مضيفه، توجه إلى مزرعة الجنادرية التابعة للملك، حيث أخذه عبد الله في جولة قصيرة في مزرعة الفروسية المترامية الأطراف.[87] وبشكل عام، كان لدى عبد الله سبب وجيه للاعتقاد بأنه أقام علاقة دافئة مع أول رئيس أمريكي من أصل أفريقي للولايات المتحدة.

وعَدّ عبد الله علاقة الود الأولية مع الرئيس الأمريكي الشاب بمنزلة ترخيص لمواصلة الضغط على إدارته للتحرك ضد إيران عسكرياً. وقد أصبح هذا الأمر غير محتمل البتة عند وزير الدفاع الأمريكي روبرت جيتس؛ فخلال اجتماعه مع وزير الخارجية الفرنسي برنارد كوشنر في باريس في شباط-فبراير 2010 لتنسيق جهود واشنطن لفرض عقوبات الأمم المتحدة على إيران، أشار غيتس إلى أن السعوديين يريدون دائماً «محاربة الإيرانيين حتى آخر أمريكي»، مضيفاً أن الوقت قد حان الآن لهم «للدخول في اللعبة».[88]

ومن الواضح أن عبد الله لم يكن مطلعاً على تصميم أوباما، الذي وصف -عندما كان عضواً في مجلس الشيوخ عن ولاية إلينوي- غزو بوش للعراق بأنه "حرب غبية"، على عدم بدء الحرب الثالثة التي تقودها الولايات المتحدة في الشرق الأوسط من خلال إصدار أوامر بتوجيه ضربات عسكرية ضد إيران. وكان أوباما يتمتع بهذا الدعم من جانب جيتس، الجمهوري الذي خلف دونالد رامسفيلد كوزير للدفاع في عهد بوش في عام 2007. وقد ركز أوباما على الوسائل غير العسكرية لاحتواء طموحات إيران النووية، وتحت رئاسته استمرت العملية الأميركية الإسرائيلية المشتركة لتقويض البرنامج النووي الإيراني باستخدام تكنولوجيا الكمبيوتر التي بدأت في منتصف عام 2007، وقد أصبح وجود تلك التكنولوجيا علنياً في 26 أيلول-سبتمبر 2010 عندما اعترف المسؤولون الإيرانيون بأن فيروس ستكسنت قد أصاب أجهزة الكمبيوتر في محطة الطاقة النووية التي بنتها روسيا بالقرب من بوشهر، الأمر الذي من شأنه أن يؤخر إنتاج الكهرباء لعدة أشهر، وأضاف التقرير الذي نشرته صحيفة ديلي تلغراف: إن إيران ربما تعاني من أعمال تخريب واسعة النطاق تهدف إلى إبطاء تقدمها النووي، في إشارة إلى سلسلة من الأخطاء الفنية غير المبررة التي أدت إلى خفض عدد أجهزة الطرد المركزي للتخصيب العاملة في محطة نطنز.[89]

وبعد شهرين، وفي أعقاب مقتل ماجد شهرياري، الذي كان يدير "مشروعاً كبيراً" لصالح منظمة الطاقة الذرية الإيرانية، على يد سائقي دراجات نارية مجهولين، وإصابة فريدون عباسي، رأى أحمدي نجاد، الذي أدرجه مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة كمسؤول كبير مرتبط بالبرنامج النووي لبلاده، أن «يد النظام الصهيوني والحكومات الغربية» ضالعة في الهجمات، وفي الوقت نفسه اعترف للمرة الأولى بأن البرنامج النووي الإيراني قد تعطل مؤخراً بسبب برامج كمبيوتر خبيثة هاجمت أجهزة الطرد المركزي الإيرانية.[90] وقد تسبب فيروس ستوكسنت في تدمير ما يقرب من 1000 جهاز طرد مركزي، أي حوالي خمس إجمالي أجهزة الطرد المركزي في نطنز، قبل اكتشافه وإزالته.

ورغم أن [كيان] إسرائيل وأمريكا كانتا متحالفتين مع المملكة العربية السعودية في سياستهما بشأن برنامج طهران النووي، فإن هذه لم تكن الحال في الساحة الدبلوماسية عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع عراق ما بعد صدام. وهناك، ولأسباب مختلفة، تقاسمت كل من طهران وواشنطن الهدف المشترك المتمثل في إنشاء عراق مستقر وديمقراطي، حيث كان الشيعة، بحكم أعدادهم، مرتبطين بالحزب المهيمن في الحكومة الوطنية. لقد كانت هذه حبة دواء مريرة للغاية بحيث لم تتمكن المملكة العربية السعودية من ابتلاعها.

عبد الله محبط في العراق

وبغض النظر عن التغيرات العلنية في موقف الرياض تجاه طهران، فإن إستراتيجيتها السرية المتمثلة في مواجهة نفوذ إيران بالمال استمرت دون انقطاع. ولا تزال الرياض تحافظ على اتصالات وثيقة مع إياد علاوي، وبناء على طلب منه، في أوائل عام 2009، قام بتشكيل القائمة العراقية (الحركة الوطنية العراقية)، وهي تحالف ضم نائب الرئيس السني طارق الهاشمي وأتباعه من السُنّة. وفي 23 شباط-فبراير -قبل إجراء الانتخابات العامة في 7 آذار-مارس 2010- فرش الملك عبد الله له السجادة الحمراء، وأفادت التقارير أنه كان سخياً في تمويل حزبه السياسي. ومن المثير للاهتمام أن علاوي زار جميع الدول المجاورة باستثناء إيران.[91] وقد تقدّمت القائمة العراقية بفارق مقعدين أكثر من المقاعد التسعة والثمانين التي فازت بها مجموعة المالكي الشيعية البحتة، ائتلاف دولة القانون، مع حزب الدعوة بوصفه العضو الرئيسي لها، في المجلس التشريعي المؤلف من 325 عضواً، وقد تلا ذلك حالة من الجمود. وفي منتصف شهر أيار-مايو أعلنت اللجنة الانتخابية، بعد إعادة فرز الأصوات جزئياً، أن الاقتراع كان خالياً من التزوير.

ومع أن علاوي بذل قصارى جهده، فقد أخفق في الفوز بدعم الأغلبية في المجلس، الأمر الذي أثار إحباط أفراد العائلة المالكة السعودية. واستمر الجمود الناتج لمدة ستة أشهر، حدثت خلالها طفرة في الأنشطة الإرهابية لتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي على الرغم من -أو ربما بسبب- مقتل المصري والبغدادي في الغارات الجوية الأمريكية بالقرب من تكريت في شمال العراق في 18 نيسان-أبريل. وبعد أربعة أيام أدت سلسلة من الانفجارات في مدينة الصدر، وهي منطقة شيعية فقيرة في بغداد، إلى مقتل ستين شخصاً. وأدت تفجيرات قنابل منسقة في 23 موقعاً في العاصمة وسبعة في أماكن أخرى في 10 أيار-مايو إلى مقتل ما يقرب من 100 شخص. لكن الانسحاب المقرر للقوات القتالية الأمريكية استمر كما هو مخطط له، حيث غادر آخر جندي في 30 آب-أغسطس.

وقد تحرك قادة إيران إلى العمل من خلال إقناع مقتدى الصدر –الذي كان يتابع دراساته الدينية في قم بعد أن حلّت قوات الأمن التابعة للمالكي، في آذار-مارس 2008، جيش المهدي التابع له بالقوة– بالتخلي عن معارضته لاستمرار المالكي في منصب رئيس الوزراء، وجاء ذلك بعد أن نجح المرشد الديني للصدر[*] والجنرال قاسم سليماني، قائد قوة القدس التابعة للحرس

(*) يبدو إن من يقصد المرشد الديني للصدر هنا هو المرجع الديني البارز السيد كاظم الحائري (1938-...) [المركز].

الثوري الإيراني[92]، في إقناع رجل الدين المتطرف بخدمة الهدف الأسمى المتمثل في تعزيز السلطة الشيعية في العراق من خلال الجمع بين السلطة الشيعية في العراق مع ائتلاف دولة القانون الذي يتزعمه المالكي، وقد أبدى المالكي رغبته في المصالحة مع الصدر بإرسال رئيس أركانه وأحد كبار قادة حزب الدعوة إلى قم.[93]

كانت هذه هي الخلفية التي وصل المالكي في ظلها إلى طهران في 17 تشرين الأول-أكتوبر، ظاهرياً لتنشيط عملية إعادة إعمار العراق المتعثرة والتحدث مع أحمدي نجاد، ثم التقى بخامنئي. وقد نقل التلفاز الحكومي عن خامنئي قوله لضيفه: إن «تشكيل الحكومة في أسرع وقت ممكن وإرساء الأمن الكامل من بين احتياجات العراق هما من الأمور المهمة للعراق لأن التنمية وإعادة الإعمار في العراق... لا يمكن أن يتحققا بدون هذين الأمرين». ووصف المالكي العلاقات العراقية الإيرانية بـ "الإستراتيجية"، وقال: «نطلب من إيران وجيراننا دعم إعادة إعمارنا وتعزيز التعاون الاقتصادي والتجاري، الأمر الذي سيساعد على تحسين الاستقرار في منطقتنا».[94]

وعلى الجانب الآخر، أعلن علَّاوي، منافس المالكي، مناهضته لإيران على الملأ في المقابلة التي أجراها مع شبكة سي إن إن في 17 تشرين الأول-أكتوبر، وقال: إن إيران «تحاول زعزعة استقرار المنطقة من خلال زعزعة استقرار العراق، وزعزعة لبنان، وزعزعة القضية الفلسطينية». وأضاف: «للأسف! هذا هو المكان الذي يقع فيه العراق وبقية الشرق الأوسط الكبير ضحية لهؤلاء الإرهابيين الذين تمولهم إيران بالتأكيد، وتدعمهم حكومات مختلفة في المنطقة».[95] كان هذا بالضبط ما تمنى أفراد العائلة المالكة السعودية سماعه.

واستمراراً لرحلته إلى إيران ذهب المالكي إلى قم في 18 تشرين الأول-أكتوبر لإصلاح العلاقات مع الصدر. ومع ذلك فإن مجموع ائتلاف دولة القانون والائتلاف الوطني العراقي (الشيعي) -المكون من سبعين عضواً والذي يسيطر عليه أتباع الصدر- كان 159 نائباً، وهو ما يزال أقل من الأغلبية؛ ولهذا السبب ذكرت وكالة أنباء الشرق الأوسط التي تديرها الدولة في القاهرة في 19 تشرين الأول-أكتوبر أن الرئيس المصري حسني مبارك والمالكي ناقشا خلال محادثاتهما الجهود المبذولة لتشكيل حكومة وحدة وطنية في العراق.[96] وبما أن مبارك كان مقرباً من الولايات المتحدة، فقد أشار ذلك إلى تفضيل البيت الأبيض في عهد أوباما لإدارة وحدة وطنية في بغداد.

بالعودة إلى العراق، حظيت هذه الفكرة بدعم مسعود بارزاني، الرئيس المنتخب مباشرة لحكومة إقليم كردستان منذ عام 2007، وانتهى الأمر بالبارزاني إلى التوسط في اتفاق لتقاسم

السلطة بين المالكي وعلاوي وُقِّع في عاصمة إقليم كردستان أربيل في 15 تشرين الثاني-نوفمبر، وقد تضمنت الوثيقة شرطاً مفاده أن يُعرض على علاوي رئاسة المجلس الوطني للسياسات الإستراتيجية المقترح، وذلك من حيث المبدأ للعمل كمراقب لحكومة المالكي، التي سيُحدد تشكيلتها وسلطاتها الدقيقة في وقت لاحق.[97] وكانت المساومات اللاحقة بين مختلف فصائل الكتلتين الرئيستين على الوزارات شديدة للغاية لدرجة أن المالكي لم يعلن عن تشكيل حكومة من خمسة وثلاثين وزيراً إلا في 21 كانون الأول-ديسمبر. وكانت التركيبة الطائفية العرقية لمجلس الوزراء مكونة من عشرين شيعياً، وعشرة من السُّنة، وأربعة أكراد، ومسيحي واحد.[98] وعلى الرغم من أن عدد الشيعة أقل من نصف السكان العرب العراقيين[*]، فإن السُّنة يترأسون نصف عدد الوزارات التي ترأسها الشيعة.

وفي غياب الإجماع حول من يجب أن يدير وزارات الدفاع والداخلية والأمن الوطني المرغوبة بشدة، تولى المالكي مسؤولية هذه الوزارات على أساس مخصص. وبعد أن أصبح الإجماع بعيد المنال أصبح وزير الدفاع والداخلية ووزير الدولة للأمن القومي بحكم الأمر الواقع. وبوصفه القائد الأعلى الذي كان يرأس القيادة الوطنية العراقية، فقد تجاوز التسلسل القيادي، وجعل جميع القادة يتبعونه مباشرة. وفي المحصلة: كان مكتب رئيس الوزراء المالكي يسيطر بشكل مباشر على القوات العسكرية وشبه العسكرية، ووكالات الاستخبارات، والعناصر الوطنية للشرط، وقد قام رئيس الحكومة العراقية آنذاك بأمور منها إلغاء القسم الإيراني من جهاز المخابرات الوطني، مما أنهى قدرة حكومته على مراقبة جارتها الشرقية الكبيرة.[99]

لقد بدد آمال الإدارة الأمريكية في أن يجري استيعاب جميع أعضاء مجالس الصحوة السُّنية في قوات الأمن في الدولة لتقديم المساعدة الحاسمة في تجنب حرب طائفية كاملة. وواصلت حكومته سياسة مصادرة الأسلحة من أعضاء سابقين في مجلس الصحوة السنية على أساس أنهم لا يملكون تصاريح، وعلاوة على ذلك، ووفقاً للبنتاغون، فإن أغلب هؤلاء المقاتلين، البالغ عددهم 40 ألفاً والذين عرض عليهم العمل بحلول خريف عام 2010، وجدوا وظائف مؤقتة وضيعة، وانتهى الأمر بحوالي 9000 شخص فقط للعمل في قوات الأمن. وقد أدى ذلك إلى انجراف بعضهم نحو الجماعات الإسلامية المتمردة التي دُفعت لهم رواتب جيدة.[100]

وقد أثار احتكار المالكي المتزايد بشكل حاد للسلطة قلق صنّاع القرار السياسي وكذلك علاوي. وبما أن المجلس الوطني للسياسات الإستراتيجية لم يظهر في الدستور، فقد كان

(*) يمثّل معتنقو التشيّع في العراق حوالي 60-62 % من أبناء الشعب بحسب تقديرات، معظمهم من العرب [المركز].

من الضروري تعديله وفقاً لذلك، أو يمكن أن يمرر البرلمان قانوناً منفصلاً، أما الخيار الأول، فقد كان لا بد من موافقة ثلثي الوزراء المبدئيين قبل طرح التعديل للاستفتاء للموافقة عليه بأغلبية بسيطة.[101] وقد سمح ذلك للمالكي بالمماطلة، وهو ما فعله لأشهر عِدّة، أما فما يتعلق بالخيار الثاني، فقد ظهرت خلافات كبيرة بين ائتلاف دولة القانون بزعامة المالكي وقائمة العراقية بزعامة علاوي. وجادل فصيل المالكي بأن المجلس الوطني لدعم المواطنين كان في الأساس هيئة استشارية، وإلا تحولت إلى حكومة داخل الحكومة، ولم توافق العراقية على ذلك. ثانياً: نقضاً للوعد الذي جرى التعهد به في أربيل، أصر ائتلاف دولة القانون على أن يُنتخَب رئيس المجلس الوطني للسياسات الإستراتيجية من قبل أعضائه التسعة عشر.[102] في المقابل، دعت قناة العراقية إلى انتخاب رئيس المجلس الوطني للسياسات الاستراتيجية من قبل البرلمان. ونتيجة لذلك لم يتقدم مشروع قانون إنشاء المجلس الوطني لدعم السياسات منذ قراءته الأولى في البرلمان في 12 آب-أغسطس 2011.[103] وبشعور من الاشمئزاز استسلم علاوي في 7 تشرين الأول- أكتوبر 2011. وأعلن: أنه «ليس هناك شراكة في بلدنا» وأضاف: «على العكس من ذلك، هناك احتكار للسلطة».[104]

وبحلول ذلك الوقت كان الشرق الأوسط يهتز بفعل الأصوات الثورية المطالبة بالديمقراطية، حيث استخدم المتظاهرون وسائل التواصل الاجتماعي كأداة فعالة للغاية، فيما انهمكت المملكة العربية السعودية بالتواطؤ مع قوى محلية في منع وصول المد الثوري إلى أراضيها.

الملاحظات

1 Scott Peterson, Christian Science Monitor, 17 July 2014. «Covert war against Iran's nuclear scientists: a widow remembers, » www. thetruthseeker. co. uk/?p=100935

2 Ibid

3 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, pp. 410–411

4 Khidhir Hamza, «Inside Saddam's secret nuclear program. » Bulletin of the Atomic Scientists September 1998, p. 29, https://books. google. co. uk/books/about/Bulletin_ of_the_Atomic_Scientists. html?id=rwsAAAAAMBAJ

5 Dr Hamid Hussain, «Arab-Pakistani Security Cooperation. » http://brownpundits. blogspot. co. uk/201504//arab-pakistani-security-cooperation. html

6 Shashank Joshi, The Permanent Crisis: Iran's Nuclear Trajectory, Routledge, Abingdon and New York, 2015, p. 109

7 Barbara Crossette, New York Times, 14 August 1990, «Pakistanis Agree to Join Defense of Saudi Arabia. » http://www. nytimes. com/199014/08//world/confrontation-in-the- gulf-pakistanis-agree-to-join-defense-of-saudi-arabia. html

8 Cited in Adrian Levy and Catherine Scott-Clark, Deception: Pakistan, the United States and the Global Nuclear Weapons Conspiracy, Atlantic Books, London, 2007, p. 151. The Observer paid Kuldip Nayar a miserly £350 ($500) for his sensational exclusive story

9 Levy and Scott-Clark, Deception, p. 151

10 Sharon Squassoni, Arms Control Today, «Closing Pandora's Box:

Pakistan's Role in Nuclear Proliferation. » https://www. armscontrol. org/act/2004_04/Squassoni

11 Mohammed Al Khilewi: «Saudi Arabia Is Trying to Kill Me, » Middle East Quarterly, September 1998, pp. 66–77. http://www. meforum. org/409/mohammed-al-khilewi- saudi-arabia-is-trying-to. ki

12 The CIA funnelled money to the Afghan Mujahedin via the ISI in cash in order not to leave a paper trail

13 Joshi, The Permanent Crisis, p. 110

14 Jane Perlez, New York Times, 10 July 1999, «Saudi's Visit to Arms Site in Pakistan Worries US. » http://www. nytimes. com/199910/07//world/saudi-s-visit-to-arms-site-in-paki- stan-worries-us. html

15 Farhan Bokhari, Stephen Fidler, and Roula Khalaf, Financial Times, 5 August 2004, «Saudi oil money joins forces with nuclear Pakistan». http://www. ft. com/cms/s/033019/f30- e67c-11d89-bd800000-e2511c8. html#axzz2pYUMP2Wc

16 Alexander's Gas & Oil Connections, 7 November 2003, «Pakistan and Saudi Arabia extend crude oil deal. » http://www. gasandoil. com/news/200311//nts34828

17 Jane Perlez, New York Times, 10 July 1999, «Saudi's Visit to Arms Site in Pakistan Worries US. » http://www. nytimes. com/199910/07//world/saudi-s-visit-to-arms-site-in-paki- stan-worries-us. html

18 Simon Henderson, «The Nuclear Handshake, » Washington Institute for Near East, November 8, 2013. http://www. washingtoninstitute. org/policy-analysis/view/the- nuclear-handshake

19 Gulf News, 2 July 2001, «The Steel mill will get a loan of SR122 million from Riyadh», http://gulfnews. com/news/uae/general/sharifs-likely-to-set-up-steel-mill-in-saudi-ara- bia-1. 420631; and http://www. mesteel. com/cgi-bin/w3-msql/company. htm?id= hillmetalsest

20 The Hindu, 26 May 2002, «Pak. test-fires Ghauri missile. » http://www. thehindu. com/200226/05//stories/2002052603660100. htm

21 Devin T. Hagerty, South Asia in World Politics, Rowman & Littlefield, Lenham, MD, 2005, p. 63

22 Iran's Strategic Weapons Programmes: A Net Assessment, The International Institute for Strategic Studies, London, 2005, p. 16

23 وتتألف الدورة النووية من تعدين خام اليورانيوم) الذي تكون فيه سبع ذرات فقط من أصل 1000 ذرة يورانيوم هي النظائر الانشطارية الأخف وزناً U235، والباقي هو اليورانيوم الأثقل (U238، ومعالجته إلى أكسيد اليورانيوم (الكعكة الصفراء)، وتحويله إلى غاز رباعي فلوريد اليورانيوم ($UF)، ثم سادس فلوريد اليورانيوم(UF6) ، ثم تخصيب سادس فلوريد اليورانيوم بدرجات متفاوتة من نقاء اليورانيوم 235: 3. من 5 إلى 4 في المائة للاستخدام في مفاعلات الطاقة النووية، ومن 10 إلى 20 في المائة لمفاعلات البحوث، وأكثر من 90 في المائة للأسلحة النووية

24 Hamshahri (Tehran), 23 June 2002, - «Iran's Uranium Reserves, 44 Billion Barrels of Crude Oil.» http://www. parstimes. com/business/uranium_ reserves. html

25 BBC News, 27 November 2003, «Timeline: Iran Nuclear Crisis. » http:// news. bbc. co. uk/1/hi/world/middle_east/3210412. stm

26 Ewen MacAskill and Ian Traynor, Guardian, 18 September 2003, «Saudis consider nuclear bomb. » https://www. theguardian. com/world/2003/ sep/18/nuclear. saudiara- bia

27 BBC News, 27 November 2003, «Timeline: Iran Nuclear Crisis. » http:// news. bbc. co. uk/1/hi/world/middle_east/3210412. stm

28 Global Security: «Saudi Arabia Special Weapons. » https://www. globalsecurity. org/wmd/ world/saudi/index. html

29 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 416

30 Khaled Almaeena, Arab News, 3 August 2005, «King Fahd Laid to Rest. » http://www. arabnews. com/node/270970

31 BBC News, 24 September 2005, «Timeline: Iran Nuclear Crisis. » http:// news. bbc. co. uk/1/hi/world/middle_east/4134614. stm

32 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 416.

33 Ibid., p. 275

34 Iraqi parliamentary election, December 2005. https://ipfs. io/ipfs/ QmXoypizjW3 WknFiJnKLwHCnL72vedxjQkDDP1mXWo6uco/wiki/ Iraqi_parliamentary_ election %2C_December_2005. html

35 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 416

36 Ibid., p. 228

37 Ibid., pp. 401–402

38 Public Library of US Diplomacy, Secret: Counterterrorism Adviser Brennan's Meeting With Saudi King Abdullah, Ref: Riyadh 427; 22 March 2009. https://wikileaks. org/ plusd/cables/09RIYADH447_a. html

39 ABC News/AFP, 22 July 2006, «Iraq announces national reconciliation commission. » http://www. abc. net. au/news/2006–07–22/iraq-announces-national-reconciliation- commission/1808110?pfmredir=sm

40 Dafna Linzer and Thomas E. Ricks, Washington Post, 28 November 2006, «Anbar Picture Grows Clearer. » http://www. washingtonpost. com/wp-dyn/content/article/2006/ 1127//AR2006112701287. html

41 At the local government level, of the fifty-one members elected in the January 2005 election, only one member was Sunni

42 Sabrina Tavernise, New York Times, 23 December 2006. «District by District, Shias Make Baghdad Their Own. » http://www. nytimes. com/200623/12//world/middleeast/ 23Shias. html?mcubz=1

43 The White House, Office of the Press Secretary, 10 January 2007, «Fact Sheet: The New Way Forward in Iraq. » https://2001–2009. state. gov/p/ nea/rls/78567. htm

44 President Bush Delivers State of the Union Address, January 23, 2007. https://web. archive. org/web/20130507084817/http://georgewbush-whitehouse. archives. gov/ news/releases/20072–20070123/01/. html

45 Arwa Damon, CNN, 1 May 2007, «Shadowy Iraq office accused of sectarian agenda. » http://edition. cnn. com/2007/WORLD/meast/0501// iraq. office/

46 BBC News, 2 February 2007, «Elements of 'civil war' in Iraq. » http:// news. bbc. co. uk/1/hi/world/middle_east/6324767. stm

47 BBC News, 4 March 2007, «Mid-East vow to curb sectarianism. » http:// news. bbc. co. uk/1/hi/world/middle_east/6415605. stm

48 AFP, 16 October 2007, «US buys 'concerned citizens' in Iraq, but at what price?» https://web. archive. org/web/20080907015324/http://afp. google. com/article/ ALeqM5iMzKGlyT_ahqRjtyXrAUrKIQLncA

49 Stephen Biddle, Jeffrey A. Friedman and Jacob Shapiro, 12 July 2012, «Testing the Surge: Why Did Violence Decline in Iraq in 2007?» http:// www. mitpressjournals. org/ doi/10. 1162/ISEC_a_00087

50 Public Library of US Diplomacy, Secret: Counterterrorism Adviser Brennan's Meeting With Saudi King Abdullah, Ref: RIYADH 427; 22 March 2009. https://wikileaks. org/ plusd/cables/09RIYADH447_a. html

51 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 402

52 US embassy cable—09BAGHDAD2562 (original version), «The Great Game, in Mesopotamia: Iraq and its Neighbors, Part I, » Created: 24 September 2009. http:// cables. mrkva. eu/cable. php?id=226620

53 WikiLeaks publishes the Saudi Cables, 19th June 2015. https://wikileaks. org/saudi- cables/press

54 Ramananda Sengupta, The Rediff Special, 18 May 2006, «What are Benazir and Nawaz Sharif up to?»http://www. rediff. com/news/2006/may/18ram. htm

55 Dawn, 20 May 2011, « Nawaz Sharif feared arrest after deportation in ’07.» http:// www. dawn. com/news/630373/nawaz-sharif-feared-arrest-after-deportation-in-07

56 Human Rights Watch, New York, 10 September 2007, «Pakistan: Musharraf Illegally Forces Sharif Back Into Exile. »https://www. hrw. org/legacy/english/docs/200710/09// pakist16832. htm

57 Guardian, 1 December 2010, «US embassy cables: Saudi influence in Pakistan, » 20 November 2007. https://www. theguardian. com/world/us-embassy-cables-docu- ments/130876

58 Stockholm International Peace Research Institute, SIPRI Yearbook, 2008: Armaments, Disarmament and International Security 2008, Oxford University Press, Oxford, 2008, p. 348

59 Abu Zainab, Arab News, 10 Dec 2007, «GCC aims for Greater Integration.» http://sus- ris. com/articles/2007/ioi/071210-gcc-summit. html

60 Ibid

61 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 417

62 Ibid

63 Richard A. Oppel Jr. and Ahmad Fadam, New York Times, 3 March 2008, «Ahmadinejad, in Iraq, Chides Bush on Iran Criticism. » http://www. nytimes. com/200803/03// world/middleeast/03iraq. html

64 Guardian, 28 November 2010. «US embassy cables: Saudi king urges US strike on Iran. » https://www. theguardian. com/world/us-embassy-cables-documents/150519

65 Declan Walsh, Guardian, 1 December 2010, «WikiLeaks cables: Saudi Arabia wants mil-itary rule in Pakistan. » https://www. theguardian. com/world/2010/dec/01/saudis-dis- trust-pakistan-embassy-cables

66 CNN. com: «2009 Iran presidential elections. » http://edition. cnn. com/2009/WORLD/ meast/0616//iran. elections. timeline/index. html

67 Neil MacFarquhar, New York Times, 18 June 2009, «Shadowy Iranian Vigilantes Vow Bolder Action. » http://www. nytimes. com/200919/06// world/middleeast/19Baseej. html?_ r=1&ref=global-home

68 CNN. com: 2009 Iran presidential elections. http://edition. cnn. com/2009/ WORLD/ meast/0616//iran. elections. timeline/index. html

69 Financial Times, 11 June 2010, «Timeline: Iran's post election protests. » https://www. ft. com/content/533d966e-755a-11df-a7e2–00144feabdc0

70 BBC News, 11 August 2009, «Iran admits 4, 000 June detention. » http:// news. bbc. co. uk/1/hi/world/middle_east/8195586. stm

71 BBC News, 1 May 2009, «Iran 'leading terrorist sponsor'. » http://news. bbc. co. uk/1/ hi/world/americas/8028064. stm

72 Arms Control Association: History of Official Proposals on the Iranian Nuclear Issue. https://www. armscontrol. org/factsheets/Iran_Nuclear_ Proposals

73 BBC News, 10 June 2010, «Ahmadinejad: New UN Iran sanctions 'fit for dustbin'. » http://www. bbc. co. uk/news/10280356

74 Ibid

75 Hiro, Blood of the Earth, p. 350, citing AP, 25 February 2006

76 Delinda C. Hanley, Washington Report on Middle East Affairs, May–June 2007 «Saudi Arabian King Abdullah Challenges Arab League to Solve Mideast Conflicts. » http:// www. wrmea. org/2007-may-june/ saudi-arabian-king-abdullah-challenges-arab-league- to-solve-mideast-conflicts. html

77 Ewen MacAskill and Julian Borger, Guardian, 16 September 2004, «Iraq war was ille-gal and breached UN charter, says Annan. » https://www. theguardian. com/world/2004/ sep/16/iraq. iraq

78 Muslim Matters, 18 September 2007, «Shaykh Salman al-Oudah letter to

Osama bin Laden. http://muslimmatters. org/200718/09//shaykh-salman-al-oudahs-ramadan-let- ter-to-osama-bin-laden-on-nbc/

79 Bruce Riedel and Bilal Y. Saab, The Washington Quarterly, Spring 2008, pp. 33–46, «Al Qaida's Third Front: Saudi Arabia. » https://muse. jhu. edu/article/232365

80 Sherifa Zuhur, Saudi Arabia, ABC-CLIO, Santa Barbara, CA, 2012, p. 70; and Bruce Riedel and Bilal Y. Saab, The Washington Quarterly, Spring 2008, pp. 33–46, «Al Qaida's Third Front: Saudi Arabia. » https://muse. jhu. edu/article/232365

81 Lacey, Inside the Kingdom, p. 257

82 Bruce Riedel and Bilal Y. Saab, The Washington Quarterly, Spring 2008, pp. 33–46, «Al Qaida's Third Front: Saudi Arabia. » https://muse. jhu. edu/article/232365

83 From Peter Bergen, CNN, 30 September 2009, «Saudi investigation: Would-be assas-sin hid bomb in underwear;» http://edition. cnn. com/2009/WORLD/meast/0930// saudi. arabia. attack/index. html?iref=24hours; and Karen Elliot House, On Saudi Arabia, p. 193

84 Public Library of US Diplomacy, Secret: Counterterrorism Adviser Brennan's Meeting With Saudi King Abdullah, Ref: Riyadh 427; 22 March 2009. https://wikileaks. org/ plusd/cables/09RIYADH447_a. html

85 Sherifa Zuhur, Saudi Arabia, ABC-CLIO, Santa Barbara, CA, 2012, p. 70

86 Public Library of US Diplomacy, Secret: Counterterrorism Adviser Brennan's Meeting With Saudi King Abdullah, Ref: Riyadh 427; 22 March 2009. https://wikileaks. org/ plusd/cables/09RIYADH447_a. html

87 Jeff Zeleny and Helene Cooper, New York Times, 3 June 2009, «Rival Messages as Obama Lands in the Mideast. » http://www. nytimes. com/200904/06//world/middleeast/ 04prexy. html?mcubz=1

88 WikiLeaks 15, «Gates: Saudis always want, » 8 February, 2010. http:// friday-lunch- club. blogspot. co. uk/201012//wikileaks-15-gates-saudis-always-want. html

89 Daily Telegraph, 29 Sept 2010, «Computer virus forces Iran to delay production of nuclear energy. » http://www. telegraph. co. uk/news/ worldnews/middleeast/iran/8033 452/Computer-virus-forces-Iran-to-delay-production-of-nuclear-energy. html

90 William Yong and Robert F. Worth, New York Times, 29 Nov 2010, «Bombings Hit Atomic Experts in Iran Streets. » http://www. nytimes. com/201030/11//world/ middleeast/30tehran. html?mcubz=1

91 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 24

92 لقد أطلق آية الله روح الله الخميني، مؤسس الجمهورية الإسلامية الإيرانية، على آخر جمعة في شهر رمضان اسم "يوم تحرير القدس". ولا يزال هذا الأمر مستمراً. كان الهدف طويل الأمد لقوة النخبة في الحرس الثوري الإسلامي هو تحرير القدس من الاحتلال الصهيوني. وفي الوقت نفسه، كانت مهمة وحدة القدس التابعة لها هي المساعدة في تحرير الدول الإسلامية في المنطقة من الأنظمة العلمانية أو الموالية للغرب

93 Martin Chulov. Guardian, 17 October 2010, «Iran brokers behind-the-scenes deal for pro-Tehran government in Iraq. » https://www. theguardian. com/world/2010/oct/17/ iraq-government-iran-tehran-deal

94 Al Jazeera, 19 October 2010, «Iraqi PM courts Iran during visit, » http:// www. aljazeera. com/news/middleeast/201020101018546581318830/10/. html

95 Ibid

96 VOA, 20 October 2010, «Iraqi PM Meets With Turkey's Leaders.» https://www. voanews. com/a/iraqi-pm-meets-with-turkeys-leaders-105457303172395/. html

97 Ben Van Heuvelen, Atlantic, 16 June 2011, «Iraqi Prime Minister Accused

of Plot to Frame Opposition Leader as Terrorist. » https://www. theatlantic. com/international/ archive/201106//iraqi-prime-minister-accused-of-plot-to-frame-opposition-leader-as- terrorist/240543/

98 House of Commons Library, Ben Smith, 19 January 2011, «Iraq at the creation of its new government. » http://researchbriefings. files. parliament. uk/documents/SN05834/ SN05834. pdf

99 Anthony H. Cordesman and Sam Khazal, Iraq in Crisis, Rowman & Littlefield, Lanham, MD, 2014, p. 221

100 Timothy Williams and Duraid Adnan, New York Times, 16 October 2010, «Sunnis in Iraq Allied With US Rejoin Rebels. » http://www. nytimes. com/201017/10//world/ middleeast/17awakening. html

101 Amendment to the Constitution of Iraq. https://en. wikipedia. org/wiki/ Amendment_ to_the_Constitution_of_Iraq

102 وكان أعضاء المجلس الوطني للسياسات الاستراتيجية المقترح هم رئيس الجمهورية ونائباه، ورئيس مجلس الوزراء ونائباه، ورئيس مجلس النواب ونائباه، ورئيس منطقة الحكم الذاتي الكردية، ورئيس مجلس القضاء الأعلى، وعضوان من كل كتلة من الكتل البرلمانية الأربع الكبرى

103 RFE/RL, 12 August 2011, «Iraqi Parliament Debates New 'Strategic Policy Council. » https://www. rferl. org/a/iraq_strategic_policy_ council/24294945. html

104 AK News, «Allawi renounces Iraq national strategic policy council, » 7 October 2011. http://aknews. com/en/aknews/4265701//

الفصل الثاني عشر

ربيع عربي تقابله ثورة مضادة بدعم سعودي

بعد إطاحة النظامين الدكتاتوريين التونسي والمصري استخدم المنشقون السعوديون وسائل التواصل الاجتماعي لإعلان يوم 11 آذار-مارس 2011، يوم جمعة، "يوم غضب". وحرصاً منها على إجهاض مثل هذه المظاهرات في الرياض أصدرت الحكومة تأشيرات دخول للصحفيين الأجانب. وقال مراسل هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) نيوزنايت، الراحل سو لويد روبرتس: «استقللت سيارة أجرة من فندقنا في منتصف ليل الخميس لأجد سيارات الشرطة تومض بأضوائها متوقفة على مسافة خمسة أمتار في جميع الشوارع الرئيسية في الرياض». لقد أوقفتني الشرطة لمجرد التصوير على هاتفي المحمول. واستيقظت المدينة يوم الجمعة على رؤية عدد من رجال الشرطة في الشوارع أكبر من عدد الناس، وكان الجو متوتراً. كان من المفترض أن تبدأ مسيرات "يوم الغضب" المناهضة للحكومة التي تدعو إلى إصلاحات ديمقراطية -وليس الثورة- في المملكة العربية السعودية الغنية بالنفط بعد صلاة الظهر، لكن الناس ظلوا بعيداً. «لم يكن الأمر مفاجئاً نظراً لأنه كانت هناك تحذيرات في الصحف خلال الأيام القليلة الماضية من العقوبات التي يمكن أن يتوقعها المتظاهرون: الجلد والسجن. ثم هناك المراقبة والترهيب». وتابع روبرتس: ومع ذلك «ورد أن الشرطة فتحت النار على الاحتجاجات في المحافظات الشرقية –موطن الأقلية الشيعية– مساء الخميس. ذهبنا إلى مدينة الدمام الشرقية للقاء عائلات السجناء السياسيين، الذين ظل بعضهم محتجزاً دون محاكمة لمدة تصل إلى 16 عاماً. ويقول نشطاء المعارضة: إن هناك نحو 30 ألف سجين سياسي في المملكة العربية السعودية؛ في حين تقدر الحكومة الرقم بثلث ذلك». وتابع روبرتس: لم نكن نعلم أن قوات الأمن كانت تلاحقنا، وبعد أن انتهينا من التصوير قُبِض علينا، وأخذت الأشرطة منا. الرسالة واضحة: لا ينبغي للناس أن يحتجوا، وإذا فعلوا، فلا ينبغي للصحفيين أن يبلغوا عن ذلك. وكان من المقرر أن أقابل في يوم الجمعة [11 آذار- مارس]، أحد منظمي المظاهرة الذي قال: إنه سيرافقني لمشاهدة الاحتجاجات، ولكن قبل ساعة من

بدء التجمع، تلقيت رسالة نصية تقول: «إن بريدي الإلكتروني وهاتفي المحمول مراقبان؛ لا أستطيع مقابلتك. أنا آسف. هذا يوم حزين للسعودية».

تدعي الحكومة أن الناس ليسوا بحاجة إلى التظاهر لأن لديهم طريقة حكم ناجحة، لكن أحد المتحدثين باسم المعارضة وصف بلاده لي بأنها «دولة بوليسية تتنكر في هيئة دولة دينية». لقد جرى اقتيادنا -نحن الصحفيين- إلى الحافلات يوم الجمعة، ونقلنا لرؤية الحدث غير المتعلق بـ "يوم الغضب". وحلقت المروحيات في سماء المنطقة، وكانت هناك حواجز على الطرق وسيارات يجري تفتيشها، ومئات من سيارات الشرطة، وآلاف من رجال الشرطة، ولكن لم يكن هناك متظاهر في الأفق. فجأة، وبينما كنا جميعاً نشعر بالملل من تصوير بعضنا لبعض، اقترب منا رجل في الأربعينيات من عمره يرتدي قميصاً غير رسمي على الطراز الغربي وسروال جينز، وصاح: «نريد الحرية. نريد الديمقراطية»، فسألته: «لماذا تقول هذا أمام كل الشرطة؟»، فأجاب وهو يرتجف من التوتر والإحباط: «سأذهب إلى السجن. أعلم ذلك»، وأردف قائلاً: «لكن البلد كله عبارة عن سجن. كان علي أن أتكلم».

وفي غضون دقائق قليلة، أحاط بالرجل عشرات الصحفيين أو أكثر، وكان الوحيد في الرياض يوم الجمعة الذي عقد مؤتمراً صحفياً. كان هناك عدد كبير جداً منا [الصحفيين]، ولم يكن بوسع رجال الشرطة أن تفعل شيئاً سوى التحدث بعصبية عبر هواتفهم المحمولة ثم إعادتنا جميعاً إلى حافلاتنا، ولكنني رفضت الذهاب، ورافقت الرجل إلى سيارته. لقد طلبت رقم هاتفه، وسأتصل به في المنزل، لكنني لا أتوقع أن يجيب.[1]

جاء "يوم الغضب" في أعقاب النجاح الذي حققه المتظاهرون السلميون في موجة الانتصارات السابقة التي تحققت بعد احتجاجات الشوارع في تونس في منتصف كانون الأول-ديسمبر 2010. وقد انتهك هذا التطور غير المتوقع الاتفاق الذي أبرمته الحكومة السعودية مع قادة حركة الصحوة.

تحييد قوى مدّ الربيع العربي

كان الملك عبد الله يتعافى من عمليتين جراحيتين كبيرتين أجريتا على الحبل الشوكي في نيويورك في أواخر عام 2010 -في البداية في فندق فخم في المدينة- عندما أُجبر الرئيس التونسي الدكتاتوري زين العابدين بن علي على الفرار عقب أسابيع من الاحتجاجات الحاشدة، عرض عبد الله على بن علي اللجوء إلى المملكة السعودية على الفور، فهرب إلى جدة.

وسافر عبد الله بعد أسبوع إلى مدينة الدار البيضاء المغربية لمواصلة فترة النقاهة.

وبحلول ذلك الوقت، وبتشجيع من نجاح الاحتجاجات الشعبية في تونس، كثف المتظاهرون في مصر حملتهم السلمية ضد الرئيس الاستبدادي حسني مبارك.

ومع تصاعد المظاهرات المؤيدة للديمقراطية في ميدان التحرير الشاسع بالقاهرة اتصل عبد الله هاتفياً بمبارك في 29 كانون الثاني- يناير2011. وقال: «لا يمكن لأي عربي أو مسلم أن يتسامح مع أي تدخل في أمن مصر العربية والإسلامية واستقرارها من قبل أولئك الذين تسللوا إلى الشعب باسم حرية التعبير، واستغلالها لبث الكراهية المدمرة في صفوفهم». «إن المملكة العربية السعودية، إذ تدين هذا [التسلل]، تعلن وشعبها أنها تقف بكل مواردها مع حكومة مصر وشعبها».

ورداً على ذلك أكد له مبارك أن الوضع تحت السيطرة.[2] وبينما خرج مئات الآلاف من المصريين في مسيرة سلمية في القاهرة يوم 4 شباط-فبراير للمطالبة بإنهاء حكم الرئيس مبارك الذي دام ثلاثين عاماً، قال مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ عبد العزيز آل الشيخ: «إن هذه الفوضى تأتي من أعداء الإسلام وأولئك الذين يؤيدونهم» مضيفاً أن المظاهرات أدت إلى سفك الدماء والسرقة.[3]

وعندما فقد مبارك ثقة القيادة العسكرية العليا، تنحى على مضض في 11 شباط-فبراير، فعرض عليه عبد الله اللجوء إلى قصر سعودي، وهو ما رفضه بأدب، واختار التقاعد في القصر الرئاسي في منتجع شرم الشيخ المصري.

ولخيبة أمله، أخفق عبد الله في الحصول على دعم إجماعي لموقفه في المملكة؛ فعلى سبيل المثال، اختلف الشيخ سلمان العودة مع السياسة الرسمية، وأيد علناً حركة الربيع العربي؛ ونتيجة لذلك عُدَّ مرتداً عن الإسلام في برنامج تلفازي على النت.

وفي 9 شباط-فبراير قام تسعة أساتذة ومحامين وناشطين اجتماعيين بتشكيل حزب الأمة الإسلامي عازمين على المشاركة في الحركة الإقليمية السلمية الجارية من أجل الإصلاح السياسي، وقد سرد المؤسسون أهدافهم: الانتخابات المباشرة للبرلمان، والقضاء المستقل، والفصل بين السلطات، وتعزيز حقوق الإنسان، بما في ذلك حرية التعبير والحق في الاحتجاج السلمي، وتعزيز حقوق الإنسان، ودور المجتمع المدني والقيم الإسلامية في السياسات الداخلية والخارجية. وتقدموا بالتماس إلى الديوان الملكي للحصول على ترخيص. وبعد أسبوع اعتُقل سبعة من الموقعين.[4]

وفي الوقت نفسه تقريباً ظهرت عريضة بعنوان "نحو دولة الحقوق والمؤسسات" تحتوي على بيان حزب الأمة الإسلامي نفسه، وكان الفارق الرئيسي هو أن حوالي ثلاثين مثقفاً من

مجموعات سياسية مختلفة، كان الإسلاميون هم أكبرهم، وكان من بينهم (العودة) ووليد أبو الخير، وهو محامٍ بارز في مجال حقوق الإنسان.[5]

وتصرف العاهل السعودي فور عودته إلى الرياض في 22 شباط-فبراير، وأعلن حزمة بقيمة 37 مليار دولار لمساعدة موظفي الدولة والشباب والفقراء، وقد وفّر هذا المبلغ زيادة في الأجور بنسبة 15 % لجميع موظفي الحكومة -حوالي ثلثي القوى العاملة من المواطنين السعوديين- و10 مليارات و700 مليون دولار لصندوق التنمية السعودي الذي يقدّم قروضاً بدون فوائد للسعوديين الذين يرغبون في بناء منازل أو الزواج أو بدء أعمال تجارية صغيرة؛ وأموال إضافية للضمان الاجتماعي وأولئك الذين يدرسون في الخارج.[6] ويُعتقد أن الادعاء الرسمي بأن 60 % من المواطنين السعوديين يمتلكون منازلَ هو ضعف الرقم الفعلي. وفي حزمته، رفع عبد الله القروض المقدمة من صندوق التنمية العقارية من 300 ألف إلى 500 ألف ريال، في حين بلغ متوسط سعر المنزل في الرياض مليوناً و23000 ريال.[7]

وبحلول هذا الوقت كان العديد من الشباب السعوديين قد تواصلوا مع نشطاء مصريين وعرب آخرين عبر فيسبوك وتويتر؛ وهكذا، وللمرة الأولى، يأتي الدفع نحو الإصلاح السياسي من خارج الدائرة الفكرية السعودية الضيقة. وبدأت صفحة ائتلاف الشباب الأحرار بالإشارة إلى الحركة باسم ثورة حُنين، في إشارة إلى معركة حُنين التي هزم فيها النبي محمد قبيلة هوازن بعد فتح مكة.[8] وأعربت الحكومة عن انزعاجها من الدعوات التي أُطلقت على فيسبوك لجعل يوم الجمعة 11 آذار-مارس موعداً ليوم الغضب في الرياض. وبعيداً عن العاصمة، كانت احتجاجات الشيعة في المنطقة الشرقية، المستوحاة من المظاهرات السلمية المؤيدة للإصلاح التي نظمها الشيعة في البحرين المجاورة، تكتسب زخماً منذ منتصف شباط-فبراير.

وقد وضع النظام إستراتيجية شاملة لمواجهة هذا التحدي؛ إذ حَشدت المؤسسةَ الدينية ووسائل الدعاية الخاصة بها، فضلاً عن نشر أجهزتها الأمنية والاستخباراتية لإحباط المظاهرة المقترحة في العاصمة، وأعلن مجلس كبار العلماء في 6 آذار-مارس أن «هناك طرقاً مشروعة للنصح والإصلاح تعود بالنفع وتدفع المفاسد، وكتابة العرائض بهدف التخويف وإثارة الفرقة... ليست منها»، وأضاف المجلس: «إن الإصلاح والمشورة ينبغي ألا يكونا من خلال المظاهرات وغيرها من الطرق التي تعزز الفوضى والانقسام في المجتمع... فالتظاهرات محرمة شرعاً».[9]

وقام جهاز المخابرات العامة بتدمير صفحات عِدّة على فيسبوك واختراق صفحات أخرى، مضيفاً إشارات شيعية إلى محتوى الصفحات المؤيدة ليوم الغضب لإظهار أن الشيعة هم الذين كانوا وراء التظاهرة. كما زعمت مصادر رسمية أن حركة المعارضة جزءٌ من مؤامرة إيران

لزعزعة استقرار المملكة. في حين قام الأمير نايف بترهيب العناصر الإسلامية غير المؤسسة، التي عادة ما تكون صريحة، وإجبارها على الصمت. ونُشر الحرس الوطني على البلاد، مع إيلاء اهتمام إضافي للمنطقة الشرقية. وقد نجحت هذه التكتيكات؛ وتلاشى التأييد لمظاهرة 11 آذار-مارس الاحتجاجية بعد صلاة الظهر.

وأتبع عبد الله عمله القمعي الشامل بمسكِّن آخر لرعاياه، ففي خطاب تلفازي نادر أعلن حزمة مذهلة تبلغ 93 مليار دولار تضمنت راتب شهرين كمكافأة لجميع موظفي الدولة، وإدخال الحد الأدنى للأجور في الوظائف الحكومية، وتعيين 60 ألف موظف إضافي في الأجهزة الأمنية، و66 ألف معلم وعامل صحي.[10] وكانت هناك زيادة في دعم الوقود والغذاء والمرافق، وإدخال إعانات البطالة بقيمة 2000 ريال سعودي شهرياً، وهو الأمر الذي قاومته الحكومة في وقت سابق.[11] ومن الجدير بالذكر أن هذه الحزمة تضمنت ملياراً و200 مليون لرعاية المؤسسة الدينية. وبالقدر نفسه من الأهمية اتخذ النظام خطوة منسقة لزيادة عدد المواطنين السعوديين في القطاع الخاص، وهي خطة تعرف باسم السعوَدة. وكجزء من إصلاحاته السياسية، أعلن عبد الله أن الانتخابات المحلية التي أُجِّلت كثيراً ستجرى في أيلول-سبتمبر، مع اقتصار التصويت على البالغين الذكور. وفي ذلك الشهر وعد بتوسيع حق الامتياز ليشمل النساء في الاقتراع التالي بعد أربع سنوات.[12] وفي كانون الثاني-يناير 2013 قام بتعيين ثلاثين امرأة في مجلس الشورى، المعروف محلياً باسم مجلس الشورى.

الدور الحاسم للسعوديين في الانقلاب العسكري في مصر

وبعد هزيمة خطط الداعمين السعوديين للربيع العربي واصل الملك عبد الله حملته المضادة للثورة، ورفض قبول تطور الأحداث في مصر ما بعد مبارك. وفي القاهرة، ما إن تولى المجلس الأعلى للقوات المسلحة، المكون من 21 عضواً، بقيادة المشير محمد حسين طنطاوي، السلطة من الرئيس المخلوع مبارك في 11 شباط-فبراير 2011، حتى قام بتعيين لجنة لتقديم توصيات تعديل الدستور لضمان إجراء انتخابات حرة ونزيهة للبرلمان والرئيس، وجرت المصادقة على هذه التعديلات في استفتاء أجري في أواخر شهر آذار-مارس. وعندما تباطأ المجلس الأعلى للقوات المسلحة في تحديد مواعيد الانتخابات، تزايدت ضغوط الشارع، ثم وعد المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإجراء انتخابات رئاسية في حزيران-يونيو 2012.

وفي المدة التي سبقت الجولة الثانية من هذا الاستطلاع كان أمام الناخبين خيار اختيار محمد مرسي، زعيم جماعة الإخوان المسلمين الذي يتمتع بسجل حافل في معارضة استبداد

حسني مبارك وأسلافه، أو أحمد شفيق، قائد القوة الجوية ووزير الطيران في عهد مبارك الذي قام بترقيته إلى رئيس الوزراء خلال الأيام الأخيرة من رئاسته. ولذلك، لم يكن من المستغرب أن يحظى شفيق بدعم قادة قوات الأمن وإنفاذ القانون، الذين أمروا صفوفهم شفهياً بالتصويت لصالحه. وفي المنطقة، دعمه الملك عبد الله سراً.

ومع ذلك، في أول انتخابات حرة في تاريخ مصر الجمهورية الذي يبلغ ستين عاماً، والتي أجريت في 16-17 حزيران-يونيو 2012، هزم مرسي شفيق، وحصل على 51.73 % من الأصوات مقابل 48.27 % لشفيق.[13] وفي غضون ساعات من هزيمته هرب شفيق إلى أبو ظبي مع عائلته، خوفاً من الملاحقة القضائية بتهمة تلقي الرشوة أثناء توليه منصب وزير الطيران.

فمن منتصف الخمسينيات إلى التسعينيات كانت المملكة العربية السعودية الداعم المالي والأيديولوجي الرئيس لجماعة الإخوان المسلمين التي نشأت في مصر عام 1928، وقد وفّرت لهم ملاذاً عندما قام الرئيس جمال عبد الناصر بقمعهم بعد نجاتهم من محاولة اغتيال على يد خلية الإخوان في عام 1954. في المملكة العربية السعودية، قاموا بتصميم نظام التعليم وإدارته إلى حد كبير في مجتمع ذي أمية عامة تقريباً. وقد توقف دعم الرياض للإخوان المسلمين في المملكة وأماكن أخرى عندما عارض قادتها تمركز القوات الأمريكية على الأراضي السعودية عشية الحملة العسكرية التي شنها التحالف بقيادة الولايات المتحدة لطرد العراقيين المحتلين من الكويت في كانون الثاني-يناير1991، ومنذ ذلك الحين، نبذ الإخوان المسلمون العنف، وشاركوا في السياسة البرلمانية في مصر، معتقدين أنه يمكن تطبيق الشريعة الإسلامية في دولة عربية من خلال الاقتراع. إن المزج بين الديمقراطية والإسلام السياسي هو ما جلب لجماعة الإخوان المسلمين العداء المستمر من أفراد العائلة المالكة في آل سعود، لأنه يقوّض شرعية الحكم الوراثي حيث لا يكون للمواطنين أي دور أو مشاركة فيه.

وفي القاهرة، وفي غضون أسبوعين من توليه الرئاسة، توجه مرسي إلى جدة حيث عقد اجتماعات مثمرة مع الملك عبد الله وولي العهد الأمير سلمان، وبدا أن العائلة المالكة السعودية قررت احترام الخيار الديمقراطي للمصريين، ولكن سيظهر أن هذا لم يكن إلا سراباً.

وبشكل عام، تماشياً مع البيان الانتخابي لجماعة الإخوان المسلمين، كان مرسي مستعداً لإعطاء اتجاه جديد لسياسة مصر الخارجية، وأن يكون أكثر استقلالية من سلفه. وبدلاً من جعل واشنطن أول عاصمة أجنبية له يزورها خارج المنطقة، سافر إلى بكين سعياً للحصول على مساعدة مالية. وفي طريق عودته، حضر قمة حركة عدم الانحياز في طهران في آب-

أغسطس 2012 لأنه كان من المقرر أن تتولى مصر رئاسة حركة عدم الانحياز للسنوات الثلاث المقبلة من إيران.

وخلال فترة حكم مبارك الطويلة ظلت علاقات القاهرة مع طهران مجمّدة، بينما نجح مبارك في تقديم نفسه على أنه حصن ضد النفوذ الإيراني في العالم العربي، الأمر الذي حظي بموافقة متحمسة من أفراد العائلة المالكة السعودية. وفي طهران اتفق مرسي ونظيره الإيراني محمود أحمدي نجاد على تطوير علاقاتهما الدبلوماسية الثنائية، التي أُعيد تأسيسها بعد انقطاع دام ثلاثين عاماً، مباشرة بعد تنحي مبارك، من خلال إعادة تخصيص مقر سفارتيهما[14] وعلى العكس من ذلك، شعر السعوديون بالإحباط عندما استقبل مرسي نظيره الإيراني على السجادة الحمراء عند وصول الأخير إلى القاهرة لحضور قمة منظمة التعاون الإسلامي في شباط-فبراير 2013. وقال علي أكبر صالحي، وزير الخارجية الإيراني المرافق للرئيس: «إن مصر دولة مهمة للغاية في المنطقة وتعتقد جمهورية إيران الإسلامية أنها إحدى الدول ذات الوزن الثقيل في الشرق الأوسط»، وأضاف: «نحن مستعدون لتعزيز العلاقات بشكل أكبر».

ومن جانبه التقى أحمدي نجاد بالشيخ محمد سيد طنطاوي، عميد جامعة الأزهر، مقر أعلى هيئة علمية سنية، والتي لا تقبل الطلاب الشيعة.[15] وفي وقت لاحق، عندما وبّخ متحدث باسم الأزهر أحمدي نجاد لاستخدامه لغة طائفية مثيرة للانقسام، اعترض أحد مساعديه، قائلاً: «لم نتفق على هذا»، عندما أومأ القائد برأسه وأجاب: «اتفقنا على الوحدة والأخوة».[16]

ونظراً للعداء الذي أظهره عبد الله تجاه إيران، فإن تراجع مرسي عن معارضة مبارك القوية للجمهورية الإسلامية أزعجه، وأزعج ولي العهد الأمير سلمان؛ ونتيجة لذلك حوّل رئيس مخابراتهم الأمير مقرن بن عبد العزيز انتباهه إلى زعزعة استقرار حكومة مرسي التي كانت مستهدفة أيضاً من قبل العناصر المناهضة للثورة في مصر. وعلى الرغم من اختياره الإمارات العربية المتحدة منفىً له، أصبح شفيق الرئيس المدني الرمزي لهذه القوات المصرية، وحصل على دعم رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، الذي كان كذلك معارضاً لبرنامج الإخوان المسلمين للمطالبة والمشاركة في انتخابات ديمقراطية في العالم العربي.

في ذلك الوقت تقريباً بدأ الأمير مقرن مع خالد التويجري، رئيس الديوان الملكي وحارس بوابة الملك السعودي -المكلف بتنفيذ سياسة المملكة تجاه مصر- في التخطيط لإطاحة مرسي بالاشتراك مع الجنرال عبد الفتاح السيسي، القائد الأعلى للقوات المسلحة ووزير الدفاع المصري.

لم يتصالح السيسي مع رئاسة مرسي التي كسرت سلسلة الحكم العسكري منذ تأسيس الجمهورية في عام 1952. ومع ذلك فقد توصل هو وزملاؤه الجنرالات إلى أنه سيكون من الذكاء السياسي القيام بانقلاب عسكري. وفي أعقاب الاحتجاجات المناهضة لمرسي في الشوارع. ولتحقيق هذه الغاية، في أواخر نيسان-أبريل، ظهرت منظمة شعبية تسمى تمرد، وحثت المواطنين على التوقيع على عريضة تطالب مرسي بالاستقالة. وسرعان ما اخترقها أنصار مبارك السابقين وعملاء المخابرات الذين يُطلق عليهم بشكل جماعي المخابرات، ويعملون تحت قيادة وزير الداخلية محمد إبراهيم الذي كان متحالفاً مع السيسي.

وكان من المقرر أن تصل المظاهرات المنسقة بعناية في الشوارع إلى ذروتها في 30 حزيران-يونيو 2013، أي الذكرى السنوية الأولى لحكومة مرسي، وكانت هناك شائعات واسعة النطاق بأن المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة تمولانهم. وفي مقابلة حصرية مع صحيفة الغارديان رفض مرسي الكشف عن أسماء الدول التي تتدخل في شؤون مصر، لكنه أكد أن ذلك يحدث بالفعل. وعندما «سئل عما إذا كان يشير إلى المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، أجاب مرسي: "لا. أنا أتحدث بعبارات عامة. إن أي ثورة لها أعداء وهناك من يحاول عرقلة طريق الشعب المصري نحو الديمقراطية. أنا لا أقول إنه مقبول، ولكننا نلاحظه في كل مكان"».[17] على ما يبدو، ولأسباب دبلوماسية وغيرها، لم يكن مرسي راغباً في إلقاء اللوم علناً على المملكة السعودية أو الإمارات العربية المتحدة.

وظهرت أدلة على قيام الإمارات بتوجيه الأموال لدعم المظاهرات المناهضة لمرسي في آذار-مارس 2015 في شكل تسجيل صوتي لمحادثات هاتفية بين كبير مساعدي السيسي، اللواء عباس كامل، واللواء صدقي صبحي، رئيس أركان الجيش، بشأن حساب مصرفي يسيطر عليه كبار مسؤولي الدفاع والذي استخدمته تمرد.

وقال كامل لصبحي: «سيدي، سنحتاج غداً إلى 200 من حساب تمرد، كما تعلم_ الجزء القادم من الامارات الذي جرى تحويله». ولم يتسن سماع ما قاله صبحي، لكنه ذكر أجهزة المخابرات أو الاستخبارات، فأجاب كامل: «ماذا تقصد بالمخابرات يا سيدي؟ أتقصد رجال المخابرات؟». «هل تتذكر الحساب الذي خُصص لحركة تمرد؟»، ثم قال لصبحي: «سنحتاج منها 200 فقط، نعم 200 ألف [جنيه مصري، 30 ألف دولار]».[18]

وجه السيسي ضربته في 3 تموز-يوليو، واعتقل مرسي، واحتجزه بمعزل عن العالم الخارجي، مما أسعد الملك عبد الله لأنه كان كانتصار كامل للثورة المضادة في مصر. وسارع هو والشيخ صباح الأحمد الصباح، رئيس دولة الكويت، إلى تهنئة السيسي ووضع حزمة

مساعدات لدعم نظام السيسي قيمتها 12مليار دولار، أي أربعة أضعاف المنح العسكرية والاقتصادية المقدمة من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي مجتمعين.[19]

أطلق المجلس العسكري العنان لقمع وحشي ضد أنصار مرسي الذين يعملون تحت مظلة الائتلاف الوطني لدعم الشرعية، والذين يطالبون بإعادته إلى الرئاسة، من خلال اعتصامات سلمية في ساحتين عامتين. بلغت وحشيتها ذروتها في 14 آب-أغسطس عندما قامت قوات وزارة الداخلية بفض الاعتصام في ميدان رابعة بالقاهرة، مما أسفر عن مقتل 814 شخصاً وإصابة ما يقرب من 4000 آخرين. ووفقاً لمنظمة هيومن رايتس ووتش، كانت مذبحة ميدان رابعة «واحدة من أكبر عمليات قتل المتظاهرين في العالم في يوم واحد في التاريخ الحديث».[20]

وقال الملك عبد الله: «ليعلم العالم أجمع أن المملكة العربية السعودية شعباً وحكومة وقفت، وما زالت تقف اليوم، مع أشقائنا في مصر ضد الإرهاب والتطرف والفتنة وضد كل من يحاول التدخل في شؤون مصر الداخلية». وكان تصريح عبد الله بمنزلة توبيخ غير مباشر لقطر التي دعمت رسمياً، وعبر قناة الجزيرة الفضائية، جماعة الإخوان المسلمين وكذلك مظاهرات الربيع العربي. ومن ناحية أخرى، كان لديه سبب للإشارة باستحسان إلى حقيقة أنه على الرغم من الوعود المتكررة من قبل الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني بإجراء انتخابات لبرلمان منتخب جزئياً، فإن الإمارة لم تتقدم إلى ما بعد الانتخابات البلدية. ولم يُظهر الشيخ تميم بن حمد آل ثاني، الذي خلف والده في عام 2013، أي ميل نحو إضفاء الطابع الديمقراطي على نظامه.

اشتباك الرياض وطهران في البحرين

وفي موقفٍ مخالف تماماً لمعارضة الملك عبد الله الشديدة للربيع العربي، أشاد المرشد الأعلى الإيراني آية الله علي خامنئي بتلك التحولات واصفاً إياها بأنها امتداد للثورة الإسلامية في إيران، وأطلق عليها اسم "الصحوة الإسلامية". ووصلت تفسيراتهم المتباينة إلى ذروتها في مملكة البحرين، الجزيرة الصغيرة، التي تحكمها عائلة آل خليفة السُّنية منذ عام 1783. ومنذ عام 1986 تاريخ افتتاح جسر فهد الذي يبلغ طوله ستة عشر ميلاً بين المملكة العربية السعودية والبحرين، التي أصبحت مستقلة في عام 1971، صارت المملكة الجزيرة مرتبطة بالمملكة العربية السعودية بطرق عدة.

وفي البحرين، احتجت المعارضة، التي تمثل معظم الشيعة، وتشكِّل 70 % من المواطنين، لسنوات عديدة ضد التمييز وهجرة العرب السُنّة والباكستانيين. وكان الشيعة يشغلون 13 %

فقط من المناصب العامة الرفيعة المستوى. وفي نهاية تشرين الأول-أكتوبر 2009، اصطفت سلسلة بشرية يبلغ طولها ميلين تضم أكثر من 2000 شيعي على الواجهة البحرية الشرقية للعاصمة المنامة احتجاجاً على "التجنس السياسي"، ومنح الجنسية لعناصر أجنبية، وخاصة السُّنّة من العرب وجنوب آسيا، في القوات العسكرية والأمنية.[21]

مستلهمة الآن نجاح المتظاهرين السلميين في ميدان التحرير بالقاهرة في خلع مبارك في 11 شباط-فبراير 2011، دعت المعارضة البحرينية، بقيادة حزب الوفاق، إلى مظاهرة في 14 شباط-فبراير في دوار اللؤلؤة المركزي في المنامة. لقد كان نجاحاً كبيراً، إذ رفض المتظاهرون مغادرة الساحة حتى تلبى مطالب الوفاق بحكومة منتخبة وملكية دستورية. وفي 17 شباط-فبراير، استعادت قوات الأمن السيطرة على دوار اللؤلؤة باستخدام قنابل الغاز المسيل للدموع والرصاص المطاطي، مما أسفر عن مقتل أربعة مدنيين. وبينما اتخذت الدبابات والجنود مواقعها حول المنامة، استقال جميع البرلمانيين المنتخبين من جمعية الوفاق، أكبر مجموعة في مجلس النواب بالبرلمان. وبعد تشييع جنازة كبيرة للقتلى من المتظاهرين رضخت السلطات، وسمحت للمتظاهرين بالاعتصام في دوار اللؤلؤة.

وفي 22 شباط-فبراير، يوم الشهداء، ارتفع عدد المتظاهرين الذين كانوا يهتفون: "الشعب يريد إسقاط النظام"! ففي مظاهرة، رعاها ائتلاف من سبع جماعات معارضة وصل عدد المشاركين في المسيرة من المول إلى دوار اللؤلؤة إلى 150 ألف شخص في بلد يبلغ عدد سكانه مليوناً ومئتي ألف نسمة، منهم 525 ألف مواطن فقط.[22] واستجابة للضغوط الشعبية أطلق الملك حمد بن عيسى آل خليفة سراح السجناء السياسيين. وهكذا، طالب عشرات الآلاف من المتظاهرين، في 3 آذار-مارس، باستقالة رئيس الوزراء المتشدد خليفة بن سلمان آل خليفة، الذي تولى منصبه منذ الاستقلال عام 1971. وفي اليوم التالي خيم المتظاهرون خارج الحي المالي.

وبتشجيع من الأحداث التي وقعت في البحرين، ودعوات رجال الدين غير المؤسسيين في المملكة العربية السعودية، تظاهر الشيعة في القطيف في 24 شباط-فبراير للمطالبة بالإفراج عن الشيعة المحتجزين دون تهمة منذ تفجير الخُبر عام 1996. وبعد ثلاثة أيام، قام ما يقرب من 3000 شيعي محلي بتسجيل أسمائهم على ثلاثة التماسات منفصلة تدعو إلى إقامة ملكية دستورية، وبرلمان منتخب يتمتع بسلطة تشريعية كاملة، ومراجعة القانون الأساسي.[23] وكان هذا كافياً لإثارة قلق السلطات في الرياض، التي ألقت باللوم في المظاهرات المؤيدة للديمقراطية كما فعلت نظيرتها في المنامة، على "دولة أجنبية"، في إشارة مقنّعة إلى إيران.

وقبل ذلك بيومين، في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، وبعد صلاة الجمعة، قام مئات من المتظاهرين الشيعة، وهم يلوّحون بأعلام المملكة العربية السعودية والبحرين، بمسيرة في القطيف، وصفوى، والعوامية، وأماكن أخرى، مطالبين بالإفراج عن "السجناء المنسيين"، وشدد العديد من الناشطين الشيعة على أن هذه المظاهرات كانت مستقلة عن يوم الغضب الذي أعلن عنه مجهولون على وسائل التواصل الاجتماعي في أماكن أخرى من المملكة. ومع ذلك، جرى تفريق المتظاهرين من قبل قوات الأمن المسلحة ببنادق "ستين" (Sten guns)[24] ومن الواضح أن الاضطرابات في البحرين كانت تؤثر في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

في 8 آذار-مارس دعت ثلاث مجموعات شيعية متشددة إلى إلغاء النظام الملكي وتأسيس جمهورية ديمقراطية بالوسائل السلمية، وبعد ثلاثة أيام منعت قوات الأمن مسيرة أنصارهم إلى الديوان الملكي في الرفاع، ثاني أكبر مدينة [في لبحرين]، بينما شارك عشرات الآلاف في موكب الوفاق في المنامة. وكررت الحكومة ادعاءها بأن إيران كانت وراء الانتفاضة السلمية، لكنها لم تقدم أي دليل؛ ولذلك لم يكن من المستغرب أن يحث النظام السعودي الملك حمد على استخدام أقصى قدر من القوة لسحق المطالبة بحكومة ديمقراطية في ظل ملكية دستورية، خوفاً من أن تنتقل عدوى الديمقراطية إلى المنطقة الشرقية، مما يهدد مستقبل آل سعود. واستجاب الملك حمد لمطالبه، وناشد مجلس التعاون الخليجي المساعدة في 13 آذار-مارس، وهو اليوم الذي أطلقت فيه شرطة مكافحة الشغب الغاز المسيل للدموع والرصاص المطاطي لإبعاد المتظاهرين من دوار اللؤلؤة والحي المالي.

وفي اليوم التالي خطط مجلس التعاون الخليجي لإرسال قوات إلى البحرين تحت رعاية قوة درع الجزيرة، التي شُكِّلت لمساعدة الدول الأعضاء ضد العدوان الخارجي. وعلى الفور، قدّمت الرياض 1000 جندي مثبتين على ناقلات جند مدرعة لهذه المهمة. ودخلت هذه القوات البحرين من البر الرئيسي السعودي عبر الجسر، وتبعتها لاحقاً وحدات رمزية من الإمارات العربية المتحدة والكويت، ظاهرياً "لتأمين المنشآت الرئيسية" في المملكة الجزيرة.

ولضمان وصول الرسالة إلى المتظاهرين البحرينيين أعلن مسؤول سعودي أن «هذه هي المرحلة الأولية، وستحصل البحرين على كل ما تحتاجه من مساعدة. إنها مفتوحة». على الجانب الآخر، قال البيان الصادر عن جماعات المعارضة البحرينية: «إننا نَعُدّ دخول أي جندي أو آلية عسكرية إلى أجواء مملكة البحرين الجوية أو البحرية أو البرية احتلالاً سافراً».[25]

وبغض النظر عن التفسيرات الحزبية، فلا جدال في أن هذا التدخل يمثل المرة الأولى التي تطلب فيها حكومة عربية المساعدة العسكرية الأجنبية، وتتلقاها خلال الربيع العربي.

وفي إيران شبّه الرئيس أحمدي نجاد التحرك العسكري السعودي بغزو صدام حسين للكويت في آب-أغسطس 1990 والذي أدى فيما بعد إلى سقوطه، وقال أثناء ظهوره على شاشة التلفاز الرسمي: «إن ما حدث [في البحرين] سيء وغير مبرر وغير قابل للإصلاح»، وأضاف: «يجب احترام مطالب الشعب بالتغيير».[26]

وبدعم من القوات السعودية المدرعة أعلن الملك حمد حالة الطوارئ؛ وبينما سار الآلاف إلى السفارة السعودية في المنامة احتجاجاً على تدخل دول مجلس التعاون الخليجي، وقعت اشتباكات بين الجنود البحرينيين المدججين بالسلاح والمتظاهرين. في صباح يوم 16 آذار-مارس تقدمت القوات البحرينية وشرطة مكافحة الشغب، مدعومة بالدبابات والمروحيات، خلف سحب الغاز المسيل للدموع، وأشعلت النار في خيام المتظاهرين البيضاء في دوار اللؤلؤة وسط دخان أسود كثيف، فقُتل ثلاثة متظاهرين، وأصيب المئات بالذخيرة الحية والرصاص المطاطي. وفرضت السلطات حظر التجول من الساعة الرابعة عصراً حتى الرابعة صباحاً في معظم أنحاء البلاد، وقامت بالتشويش على الهواتف المحمولة عندما دخل الجنود القرى الشيعية خارج المنامة.[27] وشملت حملة القمع المستمرة اعتقال أكثر من 1000 متظاهر، من بينهم سبعة من زعماء المعارضة.

وخلال الانتفاضة، التي استمرت شهراً، ظل الملك حمد واثقاً من أن إدارة أوباما لن تفعل شيئاً أكثر من القلق إلى جانب كلمات التحذير والحاجة إلى المماطلة؛ فلا عجب إذاً أنه عندما وصل جيفري فيلتمان، مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأدنى، إلى المنامة في 14 آذار-مارس بتفويض للتوصل إلى حل وسط بين الجانبين، وجد صعوبة في الاجتماع مع المسؤولين الحكوميين، ناهيك بإقناعهم بالتفاوض مع المعارضة.[28] إن الحقيقة البارزة هي أن الإستراتيجية الإقليمية للبنتاغون اعتمدت على احتفاظه بالمنامة كقاعدة بحرية له؛ فمنذ عام 1971 وسّع حكام البحرين استخدام البنتاغون لأرصفة المنامة بموجب عقود وسندات عِدّة. وفي عام 1995، وبعد إعادة إطلاق البحرية الأمريكية لأسطولها الخامس بعد ثمانية وخمسين عاماً، اختارت المنامة في البحرين لتكون قاعدتها من أجل دعم نشاطها البحري.[29] وبالنظر إلى هذه العوامل، والارتباط المادي للبحرين بالمملكة السعودية، كان من المحتم تقريباً أن تسود إرادة آل سعود في الجزيرة التي يحكمها السُنّة، وتمنح الرياض نصراً واضحاً على طهران ومع ذلك، كانت هناك معركة أثقل وأطول بكثير بين المملكة العربية السعودية وإيران في سورية.

معركة طويلة الأمد في سورية

كانت الأحداث التي وقعت في مدينة درعا بجنوب سورية بالقرب من الحدود الأردنية هي التي استحوذت على مخيلة المتظاهرين على الصعيد الوطني؛ ففي 6 آذار-مارس 2011 ألقت الشرطة المحلية القبض على خمسة عشر تلميذاً في سن المراهقة لقيامهم بكتابة الشعار الذي شاهدوه على شاشات التلفاز على جدران مدرستهم: «الشعب يريد إسقاط النظام!» فتعرضوا للتعذيب أثناء الاحتجاز. وفي 15 آذار-مارس نظمت أسرهم وآخرون مسيرة للمطالبة بالإفراج عنهم، وبعد ثلاثة أيام تصاعدت المواجهة بعد صلاة الجمعة خارج المسجد العمري عندما استخدمت قوات الأمن خراطيم المياه والغاز المسيل للدموع، أعقبتها الذخيرة الحية، مما أسفر عن مقتل أربعة أشخاص، لتفريق الحشد[30]؛ وسرعان ما ألهم هذا الحدث المتظاهرين المناهضين للنظام في أماكن أخرى لترديد شعار: «بالروح بالدم نفديك يا درعا».

وفي 20 آذار-مارس أشعلت حشود غاضبة في درعا النار في مكاتب حزب البعث الحاكم، وطالبت بالإفراج عن السجناء السياسيين وكذلك إنهاء قانون الطوارئ الذي فرضه القادة البعثيون بعد استيلائهم على السلطة في عام 1963. فـقام الرئيس بشار الأسد، وهو عضو في أقلية علوية ضمن الإسلام الشيعي، بإرسال مسؤولين كبار إلى درعا لطمأنة زعماء القبائل المحلية بأنه ملتزم بتقديم الذين أطلقوا النار إلى العدالة، وأقال المحافظ المحلي ورئيس الأمن، وأمر بالإفراج عن الطلاب المحتجزين الذين أثارت علامات التعذيب الظاهرة على أجسادهم حفيظة آبائهم وأصدقائهم.

وفي 24 آذار-مارس أمرت الحكومة بخفض الضرائب وزيادة رواتب الدولة. وفي اليوم التالي، الجمعة، خرج عشرات الآلاف لجنازة القتلى، فأطلقت قوات الأمن النار لتفريقهم، فقتلت خمسة عشر شخصاً آخرين. وقامت مجموعة من المتظاهرين الغاضبين بتحطيم تمثال حافظ الأسد، والد بشار، الذي حكم سورية من عام 1970 إلى عام 2000، والذي اعتمد على تعيين العلويين، الذين يشكلون حوالي 13% من السكان، كرؤساء للجيش والشرطة ووكالات المخابرات. وقال بشار الأسد، في خطابه في 30 آذار-مارس: إن مطالب الإصلاح والمظالم الاقتصادية قد طغى عليها عدد صغير من المخربين الذين سعوا إلى نشر الفتنة بين السوريين، كجزء من مؤامرة خارجية، لتقويض استقرار سورية.[31]

وفي الشهر التالي أقال الأسد الحكومة، وألغى قانون الطوارئ المعمول به منذ عام 1963، والذي بموجبه قامت قوات الأمن باعتقال الأشخاص وتعذيبهم مع الإفلات من العقاب، ولكن تصاعدت حملة القمع ضد المتظاهرين بعد أيام. وفي أيار-مايو نُشر جنود، تدعمهم الدبابات،

في المدن المضطربة لمحاربة "العصابات الإجرامية المسلحة". وبحلول منتصف أيار-مايو وصل عدد القتلى إلى 1000 شخص، من بينهم العشرات من أفراد الأمن.[32]

وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلتها الدولة، وتعهدات الأسد بإطلاق "حوار وطني" حول الإصلاح، استمرت الانتفاضة المدنية بلا هوادة في كل جزء من سورية تقريباً، وحمل أنصار المعارضة السلاح، في البداية دفاعاً عن النفس ثم لطرد القوات الموالية من مناطقهم. ونفى الأسد إصدار أوامر للجيش بالقتل أو استخدام الوحشية في حملته ضد المتظاهرين المناهضين للنظام، مدعياً أن قواته استخدمت الذخيرة الحية فقط عندما أُطلق النار عليهم.

ومن بين الزعماء الإقليميين الذين وافقوا على تفسير الأسد الملك السعودي عبد الله؛ ولأنه متمسك بالوضع الراهن وقف إلى جانب نظام الأسد، لكنه تراجع عن موقفه في 8 آب-أغسطس، وسحب سفير المملكة العربية السعودية من دمشق، وقال: «ما يحدث في سورية شي لا يمكن للسعوديين أن يقبلوه»، وأضاف: «يجب على سورية أن تصدر وتسنّ إصلاحات لا تكون مجرد وعود، بل إصلاحات فعلية».[33] وبعد عشرة أيام أيّد الرئيس الأمريكي باراك أوباما دعوة عبد الله. ومن المثير للاهتمام أنه في 27 آب-أغسطس نُقل عن وزير الخارجية الإيراني علي أكبر صالحي قوله: «ينبغي على الحكومة أن تستجيب لمطالب شعبها، سواء كان ذلك في سورية أو اليمن أو بلدان أخرى. إن شعوب هذه الدول لديها مطالب مشروعة، وعلى الحكومات أن تستجيب لهذه المطالب في أسرع وقت ممكن».[34]

لكن السياقات في الحالتين كانت مختلفة تماماً، وكانت سورية قد عززت علاقاتها الودية التاريخية مع إيران في سلسلة من الاتفاقيات والمواثيق بين عامي 2004 وآذار-مارس 2007.

وكانت الدولتان قد وقعتا اتفاقية تعاون إستراتيجي عقب غزو العراق في آذار-مارس 2003. وفي نهاية الزيارة التي قام بها رئيس الوزراء السوري ناجي العطري إلى طهران، في شباط- فبراير 2005، أعلن هو ونائب الرئيس الإيراني محمد رضا عارف أن بلديهما قد شكلا اتفاقاً مشتركاً للدفاع عن النفس للدفاع عن حدودهما الوطنية ومواجهة التهديدات الداخلية.[35] وفي حزيران-يونيو 2006 وقّع الطرفان اتفاق تعاون عسكري أعقبه اتفاق آخر في آذار-مارس 2007.[36]

وعرضت طهران الدعم الفني على دمشق لمراقبة الاتصالات عبر الإنترنت عندما وجدت نظام الأسد يواجه تهديداً وجودياً، فضلاً عن تقديم المشورة بشأن أساليب السيطرة على الحشود، وتزويدها بالهراوات وخوذات شرطة مكافحة الشغب. وخلف الكواليس قدمت قوة

القدس الإيرانية، الذراع الخارجية للحرس الثوري الإسلامي، الدعم الفني والمادي لحملة القمع السورية على المتظاهرين، لكن المساعدة الإيرانية لم تُحدث سوى القليل من الفارق.

وبحلول نهاية العام كان الأسد قد ألغى الاحتكار الدستوري لحزب البعث للسلطة، وأجرى انتخابات محلية على أساس متعدد الأحزاب. ومن ناحية أخرى تجاوز عدد القتلى بحلول ذلك الوقت 5000 شخص، في حملة القمع المستمرة، وفقاً للأمم المتحدة. وفي خطابه المتلفز الطويل في 10 كانون الأول-يناير 2012 قارن الأسد بين التفجيرات الأخيرة في العاصمة والثورة الإسلامية التي قامت بها جماعة الإخوان المسلمين، التي وصل كفاحها المسلح ضد النظام الذي يهيمن عليه العلويون إلى ذروته بمحاولة فاشلة لاغتيال الرئيس حافظ الأسد في حزيران-يونيو 1980، وحينها أصدر البرلمان بقيادة حافظ الأسد قانوناً يجعل العضوية في جماعة الإخوان جريمة يعاقب عليها بالإعدام، وانطلقت قوات الأمن في حالة من الهياج مسلحة بهذا القانون الصارم، محققة بذلك نوعاً من العدالة المتجزأة؛ ونتيجة لذلك تلاشى التمرد الإسلامي. والآن أدان ابنه بشار المتمردين السوريين، وهم من السُنّة على الدوام، الذين يشكلون 70% من السكان السوريين، ووصفوهم بالإرهابيين والخونة. وأعلن أنه «لا يمكن التساهل مع الإرهاب، ويجب ضربه بقبضة من حديد»، وأضاف: «لا تسامح مع الإرهاب أو مع أولئك الذين يستخدمون الأسلحة للقتل».[37] وكان هذا بمنزلة المرحلة التالية من الاضطرابات العنيفة في سورية، مع تدخل القوى الإقليمية بنشاط من خلال الوكلاء.

تدخل القوى الإقليمية

وخلال الاحتجاجات الشعبية في تونس ومصر دعمت قطر، وقناتها الفضائية الجزيرة ذات النفوذ الكبير، الإخوان المسلمين أو من يمثلهم. ولما كان معظم الجماعات المتمردة المحلية في سورية فروعاً لجماعة الإخوان المسلمين المحظورة في عام 1982، فقد بدأت قطر بتزويدهم بالأسلحة التي تُرسَل عبر تركيا، التي كان رئيس وزرائها الإسلامي رجب طيب أردوغان صديقاً لجماعة الإخوان المسلمين، وقد هبطت أول شحنة من الأسلحة والمعدات التي تحملها طائرات النقل الضخمة من طراز C-130 التابعة للقوات الجوية القطرية من قاعدة العديد الجوية في مطار إسنبوغا بالقرب من أنقرة في 3 كانون الثاني-يناير 2012. واستُؤنف الجسر الجوي السري بعد الانتخابات الرئاسية في تشرين الثاني-نوفمبر في الولايات المتحدة، التي ساعد ضباط وكالة مخابراتها المركزية قطر في شراء الأسلحة. وقد عمل أولئك الذين نُشِروا في تركيا مع نظرائهم في المخابرات التركية للمساعدة في تحديد الجماعات المتمردة التي ستتلقى الأسلحة. وكيلا تُرى متخلفة عن جارتها الصغيرة قطر، لجأت المملكة

العربية السعودية إلى توفير الأسلحة والمعدات عبر الأردن وتركيا للجماعات المناهضة للأسد التي تعمل تحت اسم الجيش السوري الحر، بقيادة ضباط منشقين عن الجيش السوري، منذ تشرين الثاني-نوفمبر 2012 فصاعداً، وبحلول آذار-مارس 2013 هبط أكثر من 160 رحلة شحن عسكرية لطيارين أردنيين وسعوديين وقطريين في مطارات في تركيا والأردن. وقال هيو غريفيث، من معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام: «إن التقدير المتحفظ لحمولة هذه الرحلات سيكون 3500 طن من المعدات العسكرية»، مضيفاً: لقد كانت «عملية لوجستية عسكرية سرية جيدة التخطيط والتنسيق».[38]

وفقاً لوثيقة سرية للغاية لوكالة الأمن القومي الأمريكية جرى الوصول إليها من قبل المخبر إدوارد سنودن، فإن الهجمات الصاروخية على القصر الرئاسي، ومطار دمشق الدولي، ومجمع أمني حكومي في 18 آذار-مارس 2013، في الذكرى الثانية للحرب الأهلية، وقعت بأمر شخصي من الأمير سلمان بن سلطان، نجل وزير الدفاع الذي خدم لفترة طويلة. وكان قد اشترى 120 طناً من المتفجرات والأسلحة الأخرى للجيش السوري الحر، وأمره بـ "إشعال دمشق" و"تسوية" المطار.[39]

وفي أماكن أخرى كثف المتمردون، مدعومين بإمدادات وفيرة، حملتهم من الكمائن والقنابل المزروعة على الطرق والهجمات على المواقع الاستيطانية المعزولة لطرد قوات الأسد من أجزاء كبيرة من ريف سورية، وفي الوقت نفسه قال القادة المناهضون للأسد والعديد من المسؤولين والمشرعين الأمريكيين: إن تسريع شحنات الأسلحة السرية إلى المتمردين كان ضرورياً بسبب الأسلحة التي تزود بها إيران وروسيا الحكومة السورية، ولكن السياقات كانت متباعدة.

وبموجب معاهدة الدفاع عن النفس لعام 2005 كان مطلوباً من الجمهورية الإسلامية مساعدة الأسد في مواجهة التهديدات الداخلية. ومن الناحية اللوجستية، وكان سهلاً على إيران إرسال أسلحة ومعدات عسكرية أخرى إلى سورية في تحدٍّ لقرار مجلس الأمن الدولي رقم 1929، فقد سمحت الحكومة العراقية برئاسة نوري المالكي لإيران برحلات جوية تحمل إمدادات عسكرية إلى نظام الأسد، وسمحت بشحن النفط بنصف سعر السوق إلى نظام الأسد الذي يعاني من ضائقة مالية.[40] لاحقاً سمحت بالتدفق الحر للمتطوعين الشيعة العراقيين، الذين درّبهم ضباط فيلق القدس الإيراني، إلى سورية، لحماية ضريح السيدة زينب، حفيدة النبي محمد، في إحدى ضواحي دمشق[41]

أما في معسكر المعارضة، فقد كان من السهل على المتمردين السوريين لوجستياً شراء

أو الحصول على الأسلحة والذخائر والمتفجرات مجاناً من رجال القبائل السُّنّية والمسلحين في العراق المجاور عبر الحدود التي يسهل اختراقها. بالإضافة إلى ذلك، واصل تنظيم القاعدة السُّنّي المتشدد في بلاد ما بين النهرين (AQIM) إنشاء فرعه السوري الخاص، والذي أطلق عليه اسم جبهة النصرة.[42]

إن علاقات روسيا مع سورية لها جذور عميقة تاريخياً، فقد ظلت سورية خارج الفلك الأميركي خلال الحرب الباردة نظراً لروابطها العسكرية مع الاتحاد السوفييتي منذ عام 1956. وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي، عام 1991، أصبح الحفاظ على العلاقات الودية مع موسكو أمراً معتاداً بالنسبة لدمشق، مع استمرار الكرملين في كونه المورد الرئيسي للأسلحة إلى سورية. وفي الآونة الأخيرة، بعد خسارة منشآتها البحرية في ميناء بنغازي الليبي في آذار-مارس 2011، حرصت موسكو على الاحتفاظ بمنشآتها البحرية في موقع طرطوس السوري، والتي يعود تاريخها إلى الحرب الباردة، من أجل الحفاظ على وجود بحري على سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وللوفاء بعقودها الحالية قامت روسيا بشحن صواريخ أرض جو متطورة من طراز SA-17 إلى سورية، وصواريخ قصيرة المدى، وقالت موسكو، في رفضها للضغوط الغربية: إنها ستحترم عقدها المتفق عليه سابقاً والذي يتضمن صواريخ سام المتطورة من طراز S-300.[43]

وإدراكاً منها لكيفية إساءة استخدام القوى الغربية لقرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في آذار-مارس 2011 بإقامة مناطق حظر طيران في ليبيا لحماية المدنيين وإطاحة نظام معمر القذافي، استخدمت روسيا، بدعم من الصين، حق النقض (الفيتو) ضد القرارات التي رعاها الغرب بشأن سورية في المجلس.

ومن خلال اللعب على إحباط الدول الغربية الثلاث الدائمة العضوية في المجلس، واصلت المملكة العربية السعودية وقطر ودول عربية أخرى موالية لواشنطن الضغط على الرئيس أوباما لإلغاء قراره ضد التدخل العسكري في سورية؛ وقد خلق هذا قلقاً كبيراً لدى الحكومة السورية، ووصل التوتر الرسمي إلى ذروته عندما وقع هجوم انتحاري بسيارة في 18 تموز-يوليو 2012 في عملية استهدفت مقر الأمن الوطني بدمشق، وأدت إلى مقتل وزير الدفاع داود راجحة وعدد من رؤساء أجهزة المخابرات. في 23 تموز-يوليو قال جهاد مقدسي، المتحدث باسم وزارة الخارجية السورية، في مؤتمر صحفي متلفز: «إن أي مخزون من أسلحة الدمار الشامل أو الأسلحة غير التقليدية التي يمتلكها الجيش السوري لن تُستخدم أبداً ضد الناس أو المدنيين السوريين خلال هذه الأزمة، تحت أي ظرف من الظروف؛ فقد صُمِّمت

هذه الأسلحة لاستخدامها بشكل صارم وفقط في حالة وقوع عدوان خارجي على الجمهورية العربية السورية». وقد قدّم من خلال ذلك تأكيداً مباشراً لما قالته وكالة المخابرات المركزية في تقريرها لعام 2011 إلى الكونغرس، فقد ذكر التقرير أن «سورية تمتلك برنامج أسلحة كيميائية منذ سنوات عديدة، ولديها مخزون من عوامل الأسلحة الكيميائية التي يمكن إطلاقها بواسطة القنابل الجوية والصواريخ الباليستية وصواريخ المدفعية»، وجاء في التقرير أيضاً: «نحن نقدِّر أن سورية لا تزال تعتمد على مصادر أجنبية للعناصر الرئيسية لبرنامج الأسلحة الكيميائية، بما في ذلك المواد الكيميائية الأولية». وكانت وكالة المخابرات المركزية قد ذكرت قبل خمس سنوات أن ترسانة الأسلحة الكيميائية السورية تشمل «غاز الأعصاب السارين، الذي يمكن إطلاقه بواسطة الطائرات أو الصواريخ الباليستية». وفي وقت سابق من تموز-يوليو 2012، وفي اجتماع خاص أخبر الأسد كوفي أنان، المبعوث الخاص للأمم المتحدة إلى سورية والأمين العام السابق للأمم المتحدة، أن أي أسلحة كيميائية هي مخزنة في مكان آمن، ولم تُخلَط للاستخدام، وأنه لن تُنشَر إلا في حالة الغزو الأجنبي.[44]

وبعد أربعة أسابيع، قال الرئيس أوباما في مؤتمر صحفي مرتجل في البيت الأبيض: «لقد كنا واضحين للغاية لنظام الأسد، وكذلك للاعبين الآخرين على الأرض، إن الخط الأحمر بالنسبة لنا هو أن نبدأ في رؤية مجموعة كاملة من الأسلحة الكيميائية تتحرك أو تُستخدَم، وهذا من شأنه أن يغير حساباتي، ويغير معادلتي. نحن نراقب هذا الوضع بعناية شديدة، وقد قمنا بتجميع مجموعة من خطط الطوارئ».[45]

وبحلول أوائل عام 2013 ساعدت قوة القدس التابعة للحرس الثوري الإيراني في تحويل المئات من اللجان الشعبية المحلية الموالية للحكومة في سورية إلى قوات دفاع وطني جيدة التنظيم قوامها 60 ألف جندي من رجال الميليشيات الذين يتقاضون رواتباً كمساعدين للجيش النظامي. وسوف ترتفع قوتهم إلى 100.000. وكانوا يحرسون نقاط التفتيش، ويقومون بدوريات، ويساعدون في عمليات مكافحة التمرد. وقد دُرِّب المجندون الواعدون على حرب العصابات في المدن، ليس فقط من قبل ضباط فيلق القدس ولكن أيضاً من حزب الله اللبناني في قواعد في سورية ولبنان وإيران. وكانت ميليشيا حزب الله، التي تشكلت عام 1985، قد شاركت في الحرب الأهلية اللبنانية التي انتهت عام 1990.

لقد لعبت إيران دوراً حاسماً في إنشاء حزب الله، إذ كان السفير الإيراني في سورية هو الذي عمل كمحفز لاندماج العديد من الجماعات الشيعية التي قاومت [كيان] إسرائيل أثناء غزوها للبنان عام 1982. ومع تصعيد حزب الله لهجماته على أهداف إسرائيلية في

جنوب لبنان تلقى مساعدات عسكرية متزايدة من طهران تُرسل عبر سورية. وبحلول ربيع عام 1987 كان مستودع أسلحة جناحها العسكري –المسمى المقاومة الإسلامية– يضم مدافع بالإضافة إلى صواريخ مضادة للدبابات والطائرات، وفي عام 1991 كان لديها 3500 من رجال الميليشيات المتمركزين في جنوب لبنان.[46] كما أصبحت أيضاً المتلقي اللبناني الرائد للمساعدة المالية من إيران، التي مولت خدمات الصحة والتعليم وغيرها من الخدمات العامة. وفي السياسة الداخلية، حصل على ثمانية مقاعد من أصل 27 مخصصة للشيعة في الانتخابات البرلمانية اللبنانية عام 1992. ونتيجة لتحالفه مع حركة أمل، وهي جماعة شيعية معتدلة، فاز حزب الله بجميع المقاعد الشيعية، باستثناء مقعد واحد، في الانتخابات العامة عام 1996. وقد كثف أنشطته الفدائية ضد [كيان] إسرائيل التي تحتل جنوب لبنان إلى درجة أن إسرائيل انسحبت من المنطقة في أيار-مايو 2000 كما هو مطلوب بموجب قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في عام 1978. وبعد سنوات عديدة تورطت في الحرب الأهلية السورية لأسباب طائفية.

بعد التنازل عن معظم مدينة حلب، أكبر مدينة والمركز التجاري والصناعي في سورية، لقوات المعارضة في تموز-يوليو 2013، قررت الحكومة السورية طرد مقاتلي الجيش السوري الحر المتمردين من أجزاء من دمشق. وبعد تحقيق هذا الهدف قررت فرض عقوبات جماعية على سكان الضواحي السُّنّية حول العاصمة، والتي أصبحت معاقل للجيش السوري الحر.

الأسلحة الكيميائية و"الخط الأحمر" لأوباما

ركز الجيش السوري على الغوطة -وهي منطقة سُنية محافظة تقع على بعد حوالي 6 كيلومترات (3.7 ميل) شرق وسط دمشق- وهي مسرح للاشتباكات المستمرة منذ أكثر من عام، حيث شن الجيش هجمات صاروخية متكررة لطرد المسلحين المتمردين. وفي الساعات الأولى من يوم 21 آب-أغسطس تعرضت أحياء عين ترما وزملكا والمعضمية في الغوطة لصواريخ أرض-أرض تحمل رؤوساً حربية من غاز أعصاب السارين.

ومن بين 3600 شخص ظهرت عليهم أعراض السم العصبي المرتبطة بغازات الأعصاب الكيميائية توفي 502، وفقاً للمرصد السوري لحقوق الإنسان، وهو مجموعة مقرها لندن ولها شبكة من المخبرين في سورية.[47]

وعلى الفور زعمت المعارضة أن الجيش هو من شن الهجوم الكيميائي، مشيرة إلى موقعين انطلقت منهما الصواريخ. لقد كان الغرض من هذا الهجوم إضعاف المتمردين قبل

شن هجوم تقليدي كبير بالدبابات وناقلات الجنود المدرعة والطائرات الهجومية. وقد نفت الحكومة مسؤوليتها، وزعمت، بشكل غير مقنع، أن سوء تعامل المتمردين مع الغاز السام هو الذي أدى إلى وقوع المأساة. واتهم المسؤولون الروس المتمردين بشن الهجوم من أجل إثارة التدخل العسكري الدولي.

وفي مقابلته مع شبكة سي إن إن، في 23 آب-أغسطس، قال أوباما: إنه عندما يجري استخدام الأسلحة الكيميائية، «فإن ذلك يبدأ في التأثير على بعض المصالح الوطنية الأساسية للولايات المتحدة». وفي 28 آب- أغسطس صرح بأنه «يجب أن تكون هناك عواقب دولية»، واقترح بعد يومين إمكان القيام بعمل عسكري «محدود وضيق»، وأمر البنتاغون بإعداد قوائم الأهداف. وكانت خمس مدمرات أمريكية في البحر الأبيض المتوسط جاهزة لإطلاق صواريخ كروز على أهداف سورية.

وقد لقيت تصريحات أوباما ترحيباً حاراً من قبل المملكة العربية السعودية، التي تفوقت منذ أيار-مايو 2013 على قطر بوصفها الجهة الأولى التي تدفع الأموال للأسلحة والذخيرة للمعارضة. وأخبر عادل الجبير، السفير السعودي لدى الولايات المتحدة، أصدقاءه ورؤساءه في الرياض أن أوباما أصبح أخيراً مستعداً لضرب نظام الأسد، وقال الجبير لأحد محاوريه في واشنطن: «بعد أن اكتشف مدى أهمية ذلك، فإنه سيضرب بالتأكيد».[48] وكيلا تتفاجأ نقلت الحكومة السورية، بحلول 28 آب-أغسطس، مقر قيادة الأركان العامة من وسط دمشق إلى مخابئ في سفوح جبال لبنان الشرقية شمال العاصمة، ونقلت مختلف القيادات إلى المدارس والمخابئ تحت الأرض، وأُخليت الثكنات والمجمعات السكنية لوحدات النخبة في الجيش المتمركزة في ريف دمشق، ونُقلت القوات وعائلاتهم إلى داخل العاصمة.[49]

أما في البيت الأبيض، فقد كان المسؤولون منشغلين ببناء قضية مفادها أن الأسد قد ارتكب جريمة ضد الإنسانية. لكن في 29 آب-أغسطس، رفض البرلمان البريطاني رئيس الوزراء ديفيد كاميرون تأييده لهجوم محتمل على سورية بأغلبية 285 صوتاً مقابل 272 صوتاً. وقال كاميرون انه سيحترم قرار البرلمان.[50]

وكانت الانتكاسة غير المتوقعة التي تعرض لها كاميرون، الذي أدان الأسد مراراً وتكراراً لقتله شعبه، سبباً في دفع أوباما إلى إعادة التفكير؛ ففي خطابه الافتتاحي، في كانون الثاني-يناير 2009، ألزم الولايات المتحدة بالتعددية، وهو ما تجاهله سلفه جورج دبليو بوش، الذي تصرف بشكل أحادي في العراق، وفي وقت لاحق أخبر أوباما جيفري جولدبرج من مجلة أتلانتيك أنه وجد نفسه يتراجع عن فكرة شن هجوم عسكري لا يقره القانون الدولي أو

الكونغرس الأمريكي؛ لذلك أعلن في 31 آب-أغسطس أنه سيطلب من الكونغرس الإذن بشن ضربة قبل شنِّها.[51] وجاء قراره مفاجئاً لبعض مستشاريه، وخيب أمل ملوك الخليج، وقال منتقدو أوباما في الداخل: إنه بدأ يفقد أعصابه، ويتجاوز الخط الأحمر للمسؤولية.

وبعد بضعة أيام توجه وزير الخارجية جون كيري إلى أوروبا، وسافر أوباما إلى سان بطرسبرج برفقة مستشارته للأمن القومي سوزان رايس، لحضور قمة مجموعة العشرين، حاملين أجندة مشتركة. وسوف يحشدون الدعم من الحلفاء لإصدار بيان يدين الهجوم الكيميائي الذي وقع في 21 آب-أغسطس، ويلوم الأسد عليه، ويدعو إلى رد غير محدد، وهذا ما لم يتحقق.

وفي سان بطرسبرج كان من بين أولئك الذين عارضوا الضربات العسكرية ضد سورية، دون تفويض من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، قوى البريكس الخمس القوية -البرازيل، وروسيا، والهند، والصين، وجنوب أفريقيا- إلى جانب إندونيسيا، أكبر دولة إسلامية في العالم، والأرجنتين.[52] وأخبرته المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، الزعيمة الأوروبية التي يجلُّها أوباما أكثر من غيرها، أن ألمانيا لن تشارك في حملة سورية. ومن بين أولئك الذين أيدوا فكرة الضربات العسكرية كانت المملكة العربية السعودية، فهي الأكثر حماساً، تليها فرنسا.

وخلال محادثتهما الثنائية، التي جرت في الخامس من أيلول-سبتمبر في سان بطرسبرج، سأل الرئيس فلاديمير بوتين أوباما عما إذا كانت سورية قد عرضت تسليم مخزوناتها من الغاز السام إلى المجتمع الدولي، فرد أوباما بأنه يتعين عليهم بعد ذلك إصدار تعليمات لكبار دبلوماسييهم بدراسة العرض.

وبعد عودتها إلى واشنطن، قدّمت سوزان رايس إحاطة بالأمر إلى كيري الذي كان آنذاك في لندن، من أجل حوار مع نظيره الروسي سيرغي لافروف. وعندما سأل أحد الصحفيين كيري: هل بإمكان سورية تجنب الضربات العسكرية، أجاب كيري بالإيجاب بشرط أن يقوم الأسد بتسليم أسلحته الكيميائية على الفور، وأضاف قائلاً: «إنه ليس على وشك القيام بذلك، ولا يمكن القيام به». وأشار لافروف خلال محادثتهما الهاتفية إلى تصريحات كيري. وأشار كيري إلى أن ذلك كان نقطة للنقاش أيضاً. ومع ذلك، قال لافروف: إنه يعتزم تقديم اقتراح علني مفاده أن سورية يجب أن تسمح للمراقبين الدوليين بالسيطرة على الأسلحة الكيميائية والتخلي عنها في نهاية المطاف، وأجاب كيري: إنه إذا كان هذا اقتراحاً جدياً فإن إدارة أوباما ستدرسه.[53]

في 10 أيلول-سبتمبر لاحظ المسؤولون في البيت الأبيض بفزع نتيجة استطلاع للرأي

أجرته صحيفة وول ستريت جورنال/إن بي سي مفاده أن 33 % فقط من الأمريكيين يؤيدون العمل العسكري ضد سورية، مما يشير بوضوح إلى أن الرأي العام الأمريكي أصبح حذراً بشكل متزايد من التورطات الأجنبية، ويشكك في أن ذلك الهجوم سيفيد أمريكا.[54] وانعكاساً للرأي العام من غير المرجح أن يعطي الكونغرس الأمريكي الضوء الأخضر لأوباما. وكما كان مقرراً من قبل ألقى الرئيس خطاباً متلفزاً ليلة 10 أيلول-سبتمبر. وبعد تقديم خلفية لقراره النظر في هجوم عسكري محدود على نظام الأسد، ثم طلب الإذن من الكونغرس، كشف أن سورية وافقت على التوقيع على اتفاقية الأسلحة الكيميائية لعام 1997، وهي معاهدة للحد من الأسلحة التي تحظر إنتاج الأسلحة الكيميائية وتخزين واستخدام الأسلحة الكيميائية وموادها الأولية، وأكد قائلاً: «لقد أمضيت أربع سنوات ونصف في العمل على إنهاء الحروب، وليس على إشعالها»[55]، وأضاف: إنه طلب من زعماء الكونغرس تأجيل التصويت على التفويض باستخدام القوة ريثما تنتهج إدارته طريق الدبلوماسية التي تقدّمها روسيا.[56]

وبعد يومين من المفاوضات في جنيف توصل كيري ولافروف إلى اتفاق، في 13 أيلول-سبتمبر، حدد "الوصول الفوري وغير المقيد" لمفتشي منظمة منع الأسلحة الكيميائية المزودين بقائمة شاملة من الأسلحة القادمة من سورية. وسيجري وضع الأسلحة تحت المراقبة الدولية وإزالتها أو تدميرها في عملية تبدأ في غضون أسبوع، وتكتمل بحلول منتصف عام 2014. (في حالتنا هذه أكمل المفتشون مهمتهم في حزيران- يونيو 2014). وأوضح لافروف أنه سيجري إخطار مجلس الأمن بأي انتهاكات قد ترتكبها سورية عبر مجلس اتفاقية الأسلحة الكيميائية قبل النظر في فرض عقوبات، باستثناء استخدام القوة.[57]

ورغم أن كيري أكد أنه بما أن الرئيس الأمريكي، بوصفه القائد الأعلى، له الحق في الدفاع عن الولايات المتحدة ومصالحها بغض النظر عما يحدث في الكونغرس، فإن التهديد باستخدام القوة ظل مفتوحاً أمام أمريكا، في موازاة اتفاق جنيف الذي دعمه الكرملين، فهو يضع أي هجوم أمريكي بحزم على الموقد الخلفي، كما أنه جعل مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، الذي تجنبه البيت الأبيض في عهد أوباما في وقت سابق، في مركز الصدارة بوصفه الوكالة الرئيسية لتنفيذ الاتفاق والإشراف عليه. كما استطاعت موسكو من خلال الاتفاق تجنيب نظام الأسد تدهور قدراته العسكرية الذي كان سينجم عن ضربات البنتاغون وإضعاف قدراته في محاربة المسلحين.

وكان لدى البيت الأبيض في عهد أوباما سبب وجيه للأخذ في الحسبان مصالح الكرملين، لأن روسيا كانت واحدة من القوى الست الكبرى المنخرطة في التفاوض مع إيران بشأن

برنامجها النووي. وفي أيلول-سبتمبر 2013 انخرط مسؤولو أوباما في محادثات سرية للغاية مع نظرائهم الإيرانيين في عُمان للتوصل إلى تفاصيل حول كيفية إعفاء طهران من العقوبات الخانقة مقابل خفض أنشطتها في المجال النووي.

الضغوط الاقتصادية التي يمارسها أوباما على إيران تؤتي ثمارها

بعد وقت قصير من تنصيبه رئيساً، في كانون الثاني-يناير 2009، تبادل أوباما الرسائل مع المرشد الأعلى الإيراني آية الله علي خامنئي، ولكن لم ينجم شيء من هذا على الرغم من أن الرئيس وضع على الرف بهدوء المشروع الأمريكي لتخريب إيران، وهو المشروع الذي بدأه الرئيس جورج دبليو بوش بعد توليه منصب الرئيس بعد فترة وجيزة من توليه منصب الرئيس حين أدرج إيران كأحد الأعضاء الثلاثة في «محور الشر».

وفي تموز- يوليو 2009 ألقت إيران القبض على ثلاثة متنزهين أمريكيين بالقرب من الحدود العراقية، واتهمتهم بالتجسس. وبينما كان البيت الأبيض يحاول تأمين إطلاق سراحهم، تطوع السلطان قابوس بن سعيد، سلطان عُمان، الذي يتمتع بعلاقات ودية مع طهران، للمساعدة. أُطلق سراح الأمريكية سارة شورد في أيلول-سبتمبر 2010 بكفالة قدرها 500 ألف دولار مودعة في بنك إيراني في العاصمة العُمانية مسقط، وسُمح لها بالعودة إلى الولايات المتحدة عبر عُمان[58] وأُطلق سراح المتنزهين الآخرين: شين باور وجوشوا فتال، اللذين حوكما، وحكم عليهما بالسجن لمدة ثماني سنوات، بعد عام من دفع عُمان كفالة قدرها 930 ألف دولار.

وفي حزيران-يونيو 2011 قال فريدون عباسي دواني، رئيس وكالة الطاقة الذرية الإيرانية: «هذا العام، وتحت إشراف الوكالة الدولية للطاقة الذرية، سنقوم بنقل التخصيب بنسبة 20 % من موقع نطنز إلى موقع فوردو، وسنزيد الطاقة الإنتاجية ثلاث مرات».[59] ولم تؤكد إيران وجود مصانع فوردو في سفح جبل بالقرب من مدينة قم المقدسة إلا في أيلول-سبتمبر في 2009، وهو أمر سيجعلها محصنة ضد الضربات الجوية الأميركية أو الإسرائيلية. وكان قرارها الأخير مفتوحاً لتفسيرين: أنها كانت عازمة على المضي قدماً نحو الحصول على اليورانيوم المخصب بنسبة 90 % اللازم لصنع قنبلة ذرية، أو أنها تخطط لاستخدام هذه الحقيقة على الأرض لتعزيز قوتها التفاوضية في أي محادثات جديدة مع القوى العالمية الست.

وبينما كان الرئيس الأمريكي والكونغرس ينظران في خطة لخنق شريان الحياة النفطي الإيراني، صرح وزير النفط السعودي علي النعيمي، ثالث أكبر مصدِّر للنفط في العالم، مراراً

وتكراراً أن المملكة «ستستخدم طاقتها الإنتاجية الفائضة لتزويد سوق النفط بأي كميات إضافية مطلوبة» لتعويض خسارة الصادرات الإيرانية.[60] وقد تضمّن قانون تفويض الدفاع الوطني الأمريكي للسنة المالية 2012، الذي وقّعه أوباما ليصبح قانوناً في 31 كانون الأول-ديسمبر 2011، عقوبات ضد البنك المركزي الإيراني أيضاً، والبنك المركزي، وغرفة المقاصة لصادرات النفط الإيرانية. ويعاقب هذا البند، الذي دخل حيز التنفيذ بدءاً من 1 حزيران-يونيو، المؤسسات المالية الأجنبية التي تتعامل مع البنك المركزي، مما يجبر شركاء إيران التجاريين على الاختيار بين شراء النفط منه أو استبعادهم من أي تعاملات مع الشركات الأمريكية.[61]

وخلال زيارته لفنزويلا، في 10 كانون الثاني-يناير 2012، تجاهل أحمدي نجاد المخاوف الغربية بشأن قرار إيران ببدء أعمال تخصيب اليورانيوم بنسبة 20% في محطة فوردو، ووصفه بأنه «مبالغ فيه، وله دوافع سياسية».[62] وفي 23 كانون الثاني-يناير 2012 أعلن وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي أن إيران «أخفقت في استعادة الثقة الدولية في الطبيعة السلمية البحتة لبرنامجها النووي»؛ ولذلك، قرر الاتحاد الأوروبي حظر استيراد النفط الخام، والمنتجات النفطية الإيرانية، وشراءها، ونقلها، وكذلك التمويل والتأمين المتعلق بها. وسيجري التخلص التدريجي من العقود الحالية بحلول 1 تموز-يوليو. وينطبق الحظر أيضاً على الاستثمار، وتصدير المعدات، والتكنولوجيا الرئيسية لقطاع البتروكيماويات الإيراني.[63]

وجاءت الضربة الأكثر قسوة التي تلقتها طهران في شهر آذار-مارس، عندما فُصِلت البنوك الإيرانية عن "سويفت" (جمعية الاتصالات المالية العالمية بين البنوك). وتُستخدَم سويفت، ومقرها في لاهولبي، إحدى ضواحي بروكسل الخارجية، في جميع أنحاء العالم لنقل المدفوعات وخطابات الاعتماد عبر الحدود من خلال النظام المصرفي.[64] وقد أدى استبعاد إيران من "سويفت" إلى الإضرار بشدة بقدرتها على إجراء التجارة الخارجية وتحويل الأموال.

لقد ثبت أن التهديد الإيراني بالانتقام من خلال إغلاق مضيق هرمز، الذي يمر عبره حوالي ثلث صادرات النفط العالمية يومياً، كان مجرد تهديد فارغ. وبالفعل، استأنفت المحادثات الدبلوماسية مع القوى العالمية الست في نيسان-إبريل 2012 في إسطنبول. واعتمد المفاوضون عملية تدريجية مع إجراءات متبادلة من أجل خلق الزخم نحو حل طويل الأجل، لكن الجولتين التاليتين من المحادثات أثبتتا عدم جدواهما. وألحقت العقوبات الغربية المفروضة على صادرات النفط الإيرانية ضرراً شديداً بالبلاد، إذ انخفضت عائدات طهران النفطية بأكثر من 40 مليار دولار في عام 2012، مع انخفاض صادراتها بنسبة 40% عن أرقام

عام 2011.[65] وفي انعكاس لهذا التراجع، انخفضت قيمة السوق الحرة للريال الإيراني بمقدار النصف من 13500 ريال إلى دولار أمريكي واحد في عام 2011 إلى 26100 في العام التالي.

وكان المستفيد الرئيسي من مشاكل طهران الاقتصادية المملكة العربية السعودية التي زادت حصتها في سوق النفط على حساب إيران. والأهم أن الدول المتفاوضة مع إيران كانت قد تبنت ضمنياً أجندتها لحرمان طهران من القدرة على تصنيع سلاح نووي في المستقبل منذ أن خلصت وكالات استخباراتها إلى أن المرشد الأعلى الإيراني خامنئي قرر عدم بناء قنبلة ذرية.

أدى الانكماش الاقتصادي في إيران إلى خلق انقسام بين الحكومة وعامة الناس، وفي حين حافظ أحمدي نجاد على موقف متحدٍّ من خلال إبلاغ الوكالة الدولية للطاقة الذرية في كانون الثاني-يناير 2013 أنه يعتزم تحديث أجهزة الطرد المركزي لتخصيب اليورانيوم، وبالتالي تنقية اليورانيوم بمعدل أسرع، فإن الاقتصاد المتعثر المقترن بارتفاع التضخم جعل الرأي العام يميل إلى الحذر بشأن هذا الموضوع؛ وهذا ما أجبر حكومة أحمدي نجاد على العودة إلى طاولة المفاوضات. وعُقدت محادثات إيران مع الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة وألمانيا (مجموعة 5+1)، برئاسة المنسقة العليا للسياسة الخارجية في الاتحاد الأوروبي كاثرين أشتون، في العاصمة الكازاخستانية ألماتي في 26-27 شباط-فبراير 2013.

ومن بين القوى الست الكبرى كانت الولايات المتحدة هي التي حظيت بأكبر قدر من الاهتمام. وكان المطلوب حينها هو إجراء مفاوضات بين إيران وأمريكا، وكان لا بد من إجرائها خلف الكواليس، نظراً للعداء التاريخي بينهما. وكان هذا هو المكان الذي رحب فيه الطرفان بوساطة السلطان قابوس. وبتفويض شخصي من الرئيس أوباما قام ويليام بيرنز، نائب وزير الخارجية، وجيك سوليفان، كبير مستشاري السياسة الخارجية لنائب الرئيس جو بايدن، بقيادة فريق صغير من الخبراء الفنيين في رحلتهم إلى مسقط في منتصف آذار-مارس، والتقوا هناك بفريق إيراني من الدبلوماسيين ومساعدي الأمن القومي وخبراء تقنيين نوويين، وزار كيري العاصمة العُمانية في أيار-مايو للدفع ظاهرياً نحو إبرام عقد عسكري مع السلطنة.

وفي 14 حزيران-يونيو فاز حسن روحاني، رجل الدين المعتدل الذي قاد الفريق النووي من عام 2003 إلى عام 2005 في عهد الرئيس محمد خاتمي، بالانتخابات الرئاسية بشكل مباشر بنسبة 50.7 % من الأصوات. لقد قام بحملته الانتخابية على أساس برنامج تخفيف العقوبات الاقتصادية الخانقة، ووضع حد لعزلة إيران عن الغرب، وهو الأمر الذي كان على دراية به منذ حصوله على الدكتوراه من جامعة جلاسكو. ونتيجة لذلك تسارعت وتيرة المحادثات الأميركية

الإيرانية السرية وزادت كثافتها. وبعد أن تولى روحاني الرئاسة في أوائل آب-أغسطس عُقدت أربعة اجتماعات سرية للغاية خلال الأشهر الثلاثة التالية.

ومن المثير للاهتمام أن خامنئي، وافق على استخدام «المرونة البطولية» في الدبلوماسية، وذلك في خطاب عامّ ألقاه في 17 أيلول-سبتمبر. وفي كلمته أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عرض روحاني إجراء محادثات "محدودة زمنياً وموجهة نحو تحقيق النتائج" بشأن المسألة النووية.[66] وفي 28 أيلول-سبتمبر تحدث أوباما هاتفياً مع روحاني الذي كان في نيويورك لإلقاء كلمة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة حيث التقى كيري على هامشها بنظيره الإيراني محمد جواد ظريف[67]؛ فلا عجب إذن أن يُعقد اجتماعان سريان بين مسؤولين إيرانيين وأميركيين في عُمان في تشرين الأول-أكتوبر.

وفي المحادثات المستأنفة بين إيران ومجموعة 5+1، في تشرين الأول-أكتوبر 2013 في جنيف، ترأس الوفد الإيراني الجديد وزير الخارجية ظريف. وبعد جولتين إضافيتين خلال أشهر عدة، وقع ظريف على خطة عمل مشتركة مع كاثرين أشتون تحدد خريطة طريق للاتفاق النهائي. ووافقت إيران على الحد من تخصيب اليورانيوم بنسبة أعلى من 5 % ومنح مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية وصولاً أفضل مقابل الإفراج عن سبعة مليارات دولار من أصول إيران المجمدة في الخارج. وبينما تزايدت احتمالات تخفيف التوترات بين إيران والقوى العالمية، كمقدمة للتسوية النهائية للقضية النووية، أصبح المزاج السائد في الرياض قاتماً.

وعلى الرغم من الصمت الذي حافظت عليه الأطراف الثلاثة المعنية تجاه المحادثات من قبل الخصوم السابقين، فإن تقارير غير مؤكدة عن هذه المفاوضات بدأت تنتشر في منطقة الخليج في الصيف. وكانت المملكة العربية السعودية و[كيان] إسرائيل من أكثر المتابعين اهتماماً بالقضية المثيرة للجدل التي طال أمدها والمتعلقة بالبرنامج النووي الإيراني، ولأسباب مختلفة كان كلاهما مصممين على ضمان عدم قيام إيران بتصنيع قنبلة ذرية، وكانت إستراتيجيتهما الأفضل تتمثل في ممارسة الضغط على واشنطن للتعامل بالقوة مع إيران لمنعها من أن تصبح دولة نووية، وقد خلصتا إلى أن هذا يمكن تحقيقه بشكل أكثر فعالية إذا كان من الممكن بناء حجة موثوقة لإظهار أنه إذا حصلت إيران على سلاحها النووي الخاص، فإن المملكة العربية السعودية ستحذو حذوها بمساعدة نشطة من حليفتها التقليدية باكستان.

لذا، وكما لو كان ذلك في إشارة، فإن برنامج نيوزنايت على تلفاز هيئة الإذاعة البريطانية

(BBC)، والذي استضافه مارك أوربان في السادس من تشرين الثاني-نوفمبر 2013، أعلن أن المملكة العربية السعودية قادرة على الحصول على قنابل نووية "حسب الرغبة" من باكستان، وقال أوربان: «في وقت سابق من هذا العام، أخبرني أحد كبار صانعي القرار في الناتو أنه شاهد تقارير استخباراتية تفيد بأن الأسلحة النووية المصنوعة في باكستان نيابة عن المملكة العربية السعودية جاهزة الآن للتسليم»، وأضاف: «وفي الشهر الماضي، قال عاموس يادلين، الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، في مؤتمر في السويد: إنه إذا حصلت إيران على القنبلة النووية، فإن "السعوديين لن ينتظروا شهراً واحداً. لقد دفعوا بالفعل ثمن القنبلة، وسوف يذهبون إلى باكستان ويحضرون ما يحتاجون إليه"». وفي وقت لاحق من البرنامج قال أوربان: إن المعلومات التي قدّمها مسؤول الناتو يعتقد أنها مصدرها [كيان] إسرائيل. إن توقيت هذه المعلومات التي زرعها الكيان، بينما كان من المعتقد أن المحادثات بشأن البرنامج النووي الإيراني تحرز تقدماً جيداً، بدا ملائماً على نحو مثير للريبة.[68] والحقيقة الواضحة هي أن الاتفاق النووي المكتوب بين الرياض وإسلام آباد لم يجرِ تأكيده أبداً، ولم يتم توضيح كيفية تنفيذه، إذا كان موجوداً.

وبعد إجراء محادثات فنية تحضيرية في جنيف، يومي 7 و8 تشرين الثاني-نوفمبر، التقت إيران ومحاوروها الستة على مستوى وزراء الخارجية هناك في وقت لاحق من ذلك الشهر. وبعد خمسة أيام من المفاوضات المكثفة، أعلنوا اتفاقاً بعنوان خطة العمل المشتركة، المعروفة باسم اتفاق جنيف المؤقت، وكان من المقرر أن يصبح ساري المفعول في 20 كانون الثاني-يناير 2014.

وقد وافقت إيران على ما يلي: سيجري تخفيف كل اليورانيوم المخصب بنسبة تتجاوز 5 % أو تحويله إلى أكسيد اليورانيوم، ولن يضاف يورانيوم جديد عند مستوى تخصيب نسبته 3.5 % إلى مستواه الحالي، وسيترك 50 % من أجهزة الطرد المركزي في نطنز و75 % في فوردو غير صالحة للعمل. وبالإضافة إلى ذلك ستتيح إيران لمفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية الوصول اليومي إلى محطتي نطنز وفوردو، وسيكون للوكالة الدولية للطاقة الذرية أيضاً إمكانية الوصول إلى مناجم اليورانيوم الإيرانية ومرافق إنتاج أجهزة الطرد المركزي، وستقوم طهران بالرد على أسئلة الوكالة الدولية للطاقة الذرية فيما يتعلق بالأبعاد العسكرية المحتملة لبرنامجها النووي، وستقدم البيانات المصاحبة كجزء من بروتوكول إضافي. وفي المقابل، ستحصل إيران على إعفاء من العقوبات يبلغ نحو 7 مليارات دولار، ولن يُفرض المزيد من العقوبات، وسيسمح الاتفاق لإيران بشراء قطع غيار لأسطولها الجوي القديم. كما ستُعلق

العقوبات المفروضة على صناعة السيارات وتلك المتعلقة بالخدمات المرتبطة بها.[69] وقد حدد الاتفاق إطاراً زمنياً مدته ستة أشهر لاتفاق متابعة أكثر شمولاً بين إيران ومجموعة 5+1.

وفيما بين إيران والولايات المتحدة أكد كل جانب على أنه يتفوق على الآخر، وقال ظريف: إن التهديد بشن ضربات عسكرية أمريكية انتهى، وقد خالفه كيري، وقال ظريف: إن الاتفاق يعترف صراحة بحق إيران في تخصيب اليورانيوم، وكذلك لم يوافق كيري على ذلك، رغم أنه فعل ذلك ضمناً. وبوصفها دولة موقعة على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية كان من حق إيران الحصول على الطاقة النووية، وقد تلخص النزاع الطويل الأمد في كيفية ممارسة إيران لهذا الحق.

ومن الناحية السياسية كان على صانعي الصفقات الإيرانية أن يحموا أنفسهم ضد أي هجوم مضاد من قبل المتشددين في الداخل. وفي خطابه المتلفز أمام طلاب جامعة الشهيد بهشتي، في كانون الأول-ديسمبر، قال روحاني: «إن الطاقة النووية هي حقنا المطلق. نعم؛ ولكن التقدم والتنمية وتحسين معيشة الناس ورفاهيتهم هي أيضاً حقنا الأكيد». وكان خامنئي قد رحب بالاتفاق وقال: إن المفاوضين «يستحقون التقدير والشكر».

وأظهر أحدث استطلاع للرأي أجرته رويترز- إبسوس في الولايات المتحدة تأييداً لاتفاق جنيف بهامش 2 إلى 1، حيث يؤيد 20 % فقط العمل العسكري ضد إيران إذا فشل الاتفاق. وفي أوائل كانون الأول- ديسمبر أنهى ظريف جولة سريعة استغرقت أربعة أيام في عواصم الكويت، وقطر، وعُمان، والإمارات العربية المتحدة لإطلاعهم على الاتفاق وتهدئة المخاوف، وكتب في منشوره على فيسبوك أنه مستعد للمفاوضات مع السعودية عندما تكون الرياض مستعدة، وأضاف أن المحادثات ستكون «مفيدة لكلا البلدين والمنطقة والعالم الإسلامي». وفي وقت سابق كان مجلس الوزراء السعودي قد قال: «إذا توفرت حسن النية، فإن هذا الاتفاق يمكن أن يمثل خطوة أولية نحو حل شامل للبرنامج النووي الإيراني».[70] ومن غير المستغرب أن المملكة العربية السعودية لم تقبل عرض ظريف. وظلّت طهران والرياض عالقتين في صراع مرير في سورية.

وفي نيسان-أبريل 2014 قالت الوكالة الدولية للطاقة الذرية: إن إيران قامت بتحييد نصف مخزونها من اليورانيوم المخصب بنسبة 20 % على النحو المتفق عليه في وقت سابق. وبعد أربعة أشهر بدأت الجولة السادسة والأخيرة من المفاوضات النووية بين إيران ومجموعة 5+1 في فيينا، لكنها أخفقت في الوفاء بالموعد النهائي في تشرين الثاني-نوفمبر 2014 للتوصل إلى الاتفاق النهائي.

الحرب الأهلية السورية، 2014

أصبحت الحرب الأهلية السورية المستمرة أكثر تعقيداً في عام 2014 مع ظهور تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وسورية (المعروف أيضاً باسم الدولة الإسلامية في العراق والشام، داعش) كلاعب رئيس. وبعد أن استولى تنظيم داعش على عاصمة محافظة الرقة -التي تقع على بعد 230 ميلاً شرق دمشق- من المتمردين السوريين الآخرين في 14 كانون الثاني-يناير أعلنها عاصمته.

كان داعش هو أحدث تجسيد لتنظيم القاعدة في بلاد ما بين النهرين، بعد أن تطور من تنظيم الدولة الإسلامية في العراق في نيسان-أبريل 2013 تحت قيادة أبو بكر البغدادي، الذي خلف أبو عمر البغدادي بعد وفاة الأخير في أيار-مايو 2010. وأبو بكر البغدادي، من مواليد بغداد (1971) حصل على الدكتوراه في الدراسات القرآنية من جامعة صدام في العاصمة، واعتقلته القوات الأمريكية في شباط-فبراير 2004، واسمه إبراهيم عوض إبراهيم البدري، وهذا اسمه عند الولادة. وأُطلق سراحه في كانون الأول-ديسمبر بعد أن تم تصنيفه "كسجين قليل الخطورة". وفي قيادة الدولة الإسلامية في العراق شغل منصب رئيس اللجنة الشرعية حتى ترقيته إلى المنصب الأعلى، ثم قام بتوسيع الأنشطة العنيفة لمنظمته إلى سورية مستغلاً الحرب الأهلية فيها. وفي نيسان-إبريل 2013 أعلن تشكيل تنظيم داعش.

تشترك كلٌ من أيديولوجية داعش والإسلام الوهَّابي في عدائهما العميق والمتجذر تجاه الشيعة، الذين عُدّوا مرتدين بسبب ممارستهم الصلاة عند أضرحة الأولياء، والذين كانت مساجدهم وتجمعاتهم أهدافاً متكررة للتفجيرات الانتحارية. ومن النقاط الأيديولوجية المشتركة الأخرى مع الوهَّابية الالتزام بمبدأ الحسبة، وهو مرادف لـ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وهو يحدد الواجب الرئيسي للمسلمين لتشجيع إخوانهم المؤمنين على الالتزام بتعاليم الإسلام ومعاقبة أولئك الذين لا يفعلون ذلك. وجاء في المنشورات التي وزعها تنظيم داعش في الموصل، أنه وفقاً للشريعة الإسلامية يجب على النساء البقاء في منازلهن، وأن يرافقهن أحد أفراد الأسرة الذكور عند الخروج، وأنه سيجري قطع أيدي اللصوص.[71] وفي وقت لاحق، كررت داعش القيود التي فُرضت في مستعمرات الإخوان التي أنشأها عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في عشرينيات القرن الماضي، وكان ذلك يعني حظر التدخين، والغناء، والرقص، والاستماع إلى الموسيقى، وارتداء الذهب أو الحرير، إلى جانب أداء الشعائر الإسلامية الإلزامية.

وفي صراعه المسلح المكثف ضد حكومة رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي، استولى

تنظيم داعش على أهم مواقع محافظة الأنبار: مدينتي الفلوجة والرمادي بحلول أوائل عام 2014، وهذا وضع المالكي في موقف دفاعي. وفي خطابه العلني، في منتصف شباط-فبراير، ادعى أن المملكة العربية السعودية وقطر تعرضان أموالاً لتجنيد مقاتلين في الفلوجة لكسب المزيد من الأراضي لصالح داعش. وذكرت صحيفة واشنطن بوست نقلاً عن محللين ومسؤولين أمريكيين لم تذكر أسماءهم، أنه، على مدار العامين الماضيين، ساهم مواطنون في المملكة العربية السعودية والكويت بهدوء بمبالغ ضخمة من المال، وانضموا إلى صفوف داعش والجماعات الجهادية الأخرى التي تقاتل نظام الأسد في سورية.[72]

وذهب المالكي إلى أبعد من ذلك. وقال في مقابلته مع تلفاز فرانس 24 في 8 آذار-مارس: «أتهمهما [السعودية وقطر] بالتحريض على الحركات الإرهابية وتشجيعها. وأتهمهما بدعمها سياسياً وإعلامياً، ودعمها بالمال، وشراء الأسلحة لها». كما ألقى باللوم على المملكة العربية السعودية وقطر في شن الحرب الأهلية في سورية من خلال الجماعات المرتبطة بتنظيم القاعدة والتي تعمل الآن على جانبي الحدود العراقية السورية، فقال: «إنهم يهاجمون العراق عبر سورية بشكل غير مباشر. لقد بدؤوا الحرب في العراق بالتأكيد، وبدؤوا الحرب في سورية». وعلى حد قوله فإن تنظيم الدولة الإسلامية كان من أكبر القوى المقاتلة في الحرب الأهلية السورية.[73]

وقد حقق تنظيم داعش هذه المكانة من خلال التغلب على الجماعات الجهادية الأقل تطرفاً التي تقاتل الجيش السوري. وقد صبّ هذا في صالح نظام الأسد إلى حد ما. وفي أيار-مايو 2014 استعاد الجيش السوري السيطرة على المناطق التي كانت تحت سيطرة المتمردين في حمص، كما حقق مكاسب في حلب، وعزز سيطرته على غربي حلب.

وأجرت الحكومة السورية الانتخابات الرئاسية بموجب الدستور الجديد في المناطق الخاضعة لسيطرتها في 3 حزيران-يونيو، كما أدلى آلاف السوريين المقيمين في الخارج، والذين يحق لهم التصويت، بأصواتهم. ووفقاً لمصادر رسمية، بلغت نسبة إقبال الناخبين 73.4 %، حيث حصل الأسد على 10,319,723 بطاقة اقتراع، أو 88.7 % من المجموع، وحصل منافساه على 7.5 %. وتجوّل وفد المسؤولين من أكثر من ثلاثين دولة، بينهم مشرّعون وشخصيات بارزة من إيران وروسيا وفنزويلا، في مراكز الاقتراع. وقد وصف كيري الانتخابات بأنها «صفر كبير». في المقابل، جاء في بيان مشترك أصدرته الوفود الزائرة، وقرأه علاء الدين بروجردي، رئيس لجنة الأمن القومي بالبرلمان الإيراني، أن «هذه الانتخابات جرت بطريقة... ديمقراطية شفافة... هذه الانتخابات في سورية تمهد الطريق لمرحلة جديدة من الاستقرار

والوفاق الوطني في هذا البلد بعد أكثر من ثلاث سنوات من الحرب التي فرضتها أطراف خارجية».[74]

وتراجعت حدة الابتهاج اللاحق في طهران بإعادة انتخاب الأسد بشكل حاد في 9 حزيران-يونيو، عندما استولى تنظيم داعش على الموصل، ثاني أكبر مدينة في العراق، واستولى على ترسانة ضخمة من الأسلحة والذخيرة الأمريكية الصنع بالإضافة إلى 429 مليون دولار نقداً من البنك المركزي. وتحركت قوات داعش بسرعة باتجاه الجنوب، مسلحة بأسلحة متطورة، وقد حرص ضباطهم على تصوير صفوفهم وهم يطلقون النار على أسرى الحرب الشيعة، ثم قاموا بتحميل الصور.[75] وكان هذا تكتيكاً مهماً لقادة داعش لإحباط معنويات عدوهم.

وفي الرياض كانت هناك شماتة بين الملك عبد الله وكبار الأمراء الذين كانوا سعداء برؤية ظهور قوًى سُنّية قوية لتحدي إدارة المالكي التي يهيمن عليها الشيعة، بعد عامين ونصف من انسحاب الولايات المتحدة من العراق.

وجاء النصر الدراماتيكي الذي حققه تنظيم داعش في وقت تشهد فيه بغداد تقلبات سياسية في أعقاب الانتخابات العامة التي جرت في 30 نيسان-أبريل، وأظهرت النتائج التي أُعلنت في منتصف شهر أيار-مايو فوز ائتلاف دولة القانون بـ 92 مقعداً من أصل 328 مقعداً. واختار أعضاء حزب الدعوة، أكبر مكونات ائتلاف الدولة، حيدر العبادي رئيسا للحزب بدلاً من المالكي، وقال العبادي في مقابلته مع صحيفة هافينغتون بوست: «نحن ننتظر من الأميركيين أن يقدّموا لنا الدعم. إذا حدثت غارات جوية أمريكية، فلن نحتاج إلى ضربات جوية إيرانية، وإذا لم يفعلوا ذلك، فقد نحتاج إلى ضربات إيرانية».[76] وانتخب البرلمان محمد فؤاد معصوم، الزعيم الكردي، رئيساً، وتولى منصبه في 24 تموز-يوليو وسط أزمة عسكرية في العراق.

وعندما حاصرت ميليشيا داعش سامراء، على بعد خمسة وستين ميلاً شمال بغداد، دقت أجراس الإنذار ليس فقط في طهران، بل في واشنطن أيضاً، وقال أوباما في خطاب متلفز: إن داعش «يمكن أن تشكّل في نهاية المطاف تهديداً للمصالح الأمريكية أيضاً»، لكنه تعهد بعدم «الانجرار مرة أخرى إلى وضع نسيطر فيه على الأمور هناك، ينتهي الأمر بالناس، بمجرد عدم وجودنا هناك، إلى التصرف بطرق لا تؤدي إلى استقرار وازدهار البلاد على المدى الطويل بعد تضحيات هائلة من جانبنا».[77] وسيرسل قريباً مئات عدة من أفراد القوات المسلحة الأمريكية إلى العراق لتقييم أفضل السبل التي يمكن للبنتاغون أن يدعم بها قوات الأمن العراقية.

وعلى النقيض من ذلك أرسلت الحكومة الإيرانية الجنرال قاسم سليماني من فيلق القدس

التابع لها إلى بغداد للمساعدة في الدفاع عن العاصمة، والتقى بقادة الميليشيات الشيعية،(*) الحريصة على الانضمام إلى الحملة المناهضة لداعش، وزعماء العشائر السنية التي تسيطر على الممرات الغربية من بغداد.

وفي مواجهة التهديد الوجودي من تنظيم داعش، وبتشجيع من سليماني، تجمعت ميليشيات شيعية مختلفة في العراق تحت مظلة قوات الحشد الشعبي التي يبلغ قوامها 140 ألف جندي، وتشرف عليها وزارة الداخلية. وبدأت إيران بتحليق طائرات بدون طيار فوق العراق لمساعدة الحكومة في بغداد. ونقلت وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية التي تديرها الدولة عن الجنرال حسين سلامي من الحرس الثوري الإيراني قوله: إن قواته «في حالة استعداد قتالي كامل» للانضمام إلى القتال في العراق إذا لزم الأمر.(78)

وبحلول نهاية تموز-يوليو زاد الحرس الثوري الإيراني إمداداته من الأسلحة والأموال إلى الجماعات الشيعية الوكيلة، وانتشر المقاتلون الشيعة الذين يعملون كقوات الحشد الشعبي جنوباً من سامراء إلى بغداد وصولاً إلى المجتمعات الزراعية جنوب العاصمة.(79)

وبالإضافة إلى ذلك قدّمت إيران المساعدة لوزارة الدفاع العراقية. وأظهرت دراسة وثيقة للقطات فيديو لطائرات الهجوم الأرضي الروسية الصنع من طراز سوخوي سو-25 "فروجفوت" نشرتها السلطات العراقية في أوائل تموز-يوليو، أن هذه الطائرات كانت في الأصل مملوكة للحرس الثوري الإيراني الذي جرى تمويه شارتها وأرقامها التسلسلية. وكانت سبع طائرات حربية من هذا النوع جزءاً من القوات الجوية العراقية في عهد صدام حسين، ونُقلت جواً إلى إيران لحفظها خلال حرب الخليج عام 1991. ولم تجرِ إعادتها بعد الحرب، وأصبحت جزءاً من القوات الجوية للحرس الثوري الإيراني.(80)

أعلن تنظيم داعش، في 24 حزيران-يونيو، بعد سلسلة من الانتصارات العسكرية الدراماتيكية، إنشاء خلافة عالمية مع البغدادي، المسمى بالخليفة إبراهيم، كخليفة له، وجرى تغيير اسم داعش نفسه إلى الدولة الإسلامية (لكن في وسائل الإعلام الشعبية بقي اسم داعش راسخاً إلى حد كبير، بينما في العالم العربي كان يُعرف بداعش، أي اختصاراً للدولة الإسلامية في العراق والشام، ويشكل في اللغة العربية فعلاً يعني: خلق الفرقة والانقسام). في أول جمعة من شهر رمضان، الذي صادف يوم 4 تموز-يوليو، أصدر داعش شريط فيديو مدته 22 دقيقة لخطبة البغدادي من منبر الجامع الرئيسي في الموصل. وبعد الترحيب بتأسيس الدولة

(*) يتم استخدام مصطلح "ميليشيات" في الكتاب أحياناً للإشارة إلى الجماعات المسلحة أو ما يُطلق عليها في مصادر (فصائل المقاومة) التي انضوى معظمها رسمياً وقانونياً ضمن القوات الأمنية العراقية [المركز].

الإسلامية قال: «إن تعيين القائد واجب على المسلمين، وقد أُهمل منذ عقود»، وأضاف: «أنا قائدكم ولست بخيركم، فإذا رأيتم أنني على حق، فانصروني، وإذا رأيتم أنني على خطأ، فانصحوني».[81]

في 7 آب-أغسطس سمح أوباما بضربات جوية مستهدفة ضد داعش في العراق، إلى جانب إسقاط المساعدات جواً للاجئين. وبعد أربعة أيام، عيّن الرئيس العراقي معصوم العبادي رئيساً للوزراء المكلف. واعترض المالكي، رافضاً التنحّي من منصبه، ونكث بوعده بعدم الترشح لولاية ثالثة. وبحلول ذلك الوقت كان جنود فيلق القدس الإيراني يحرسون ضريح اثنين من الأئمة الشيعة ذوي القبة الذهبية في سامراء، ويقاومون قوات داعش في أماكن أخرى. وقد أعطى الصراع على السلطة في بغداد لطهران المزيد من النفوذ لتشكيل السياسة العراقية، وهي حقيقة لوحظت بخوف في الرياض. وعندما فضّلت إيران العبادي، أخلى المالكي منصبه في 13 آب-أغسطس، ووعد بدعم منافسه السابق. وفي وقت لاحق من ذلك الشهر قام داعش بقطع رأس مواطنين أمريكيين، ونشر مقطع فيديو في كل حالة.

وبحلول الوقت الذي توصل فيه أوباما إلى إستراتيجية شاملة ضد داعش، وشرحها في خطاب متلفز في 10 أيلول-سبتمبر -بعد يومين من أداء "حكومة الإنقاذ الوطني" التي يرأسها العبادي اليمين- كان البنتاغون قد شن 154 غارة جوية في العراق، ونشر أكثر من 1100 من القوات والمستشارين في أدوار غير قتالية. وقال أوباما: «إذا تُرك هؤلاء الإرهابيون [داعش] دون رادع، فقد يشكلون تهديداً متزايداً خارج تلك المنطقة، بما في ذلك الولايات المتحدة»، وأضاف: «على الرغم من أننا لم نكتشف بعد أي مؤامرة محددة ضد وطننا، فقد هدد قادة داعش أمريكا وحلفائنا». وبعد أن صرح بأن الولايات المتحدة ستشن حملة ممنهجة من الضربات الجوية ضد هؤلاء الإرهابيين، قال: «لن أتردد في اتخاذ إجراءات ضد داعش في سورية وكذلك في العراق». وأعلن أنه سيرسل 475 جندياً إضافياً إلى العراق للمساعدة في تحديد أهداف داعش في العراق وسورية باستخدام طائرات بدون طيار ومروحيات أمريكية.[82]

وكما كان الحال من قبل كان أوباما عازماً على جعل هذه الحملة مشروعاً متعدد الأطراف؛ ففي قمة الناتو التي عُقدت في ويلز، من 4 إلى 5 أيلول-سبتمبر، كان لأسلوبه مع حلفاء الناتو استجابة جيدة، كما سعى إلى التعاون النشط في منطقة الخليج أيضاً بدءاً بالمملكة العربية السعودية، واتصل بالملك عبد الله قبل أن يلقي خطابه التلفازي، ويطلب مشاركة مملكته.[83] وهكذا، تألفت الحملة الجوية ضد داعش بقيادة الولايات المتحدة من 15 مشاركاً: ثمانية أعضاء في الناتو، بما في ذلك تركيا ومصر، وست ممالك خليجية، بما في ذلك المملكة العربية

السعودية. ومن بين طائراتها المقاتلة البالغ عددها 305 طائرات، وضعت الرياض اثنتي عشرة طائرة تحت قيادة البنتاغون.

من الآن فصاعداً تعامل أوباما مع تنظيم داعش بوصفه العدو الأول للولايات المتحدة. ووفقاً لوكالة المخابرات المركزية فإن تنظيم داعش، الذي يسيطر على ثلث العراق وربع سورية، كان يقود ما يتراوح بين 20 ألف إلى 31500 مقاتل، وهو رقم أعلى بكثير من تقديراته السابقة البالغة 10000 مقاتل.[84] ومع ذلك، أصبح إسقاط الأسد قضية ذات أولوية منخفضة بالنسبة لواشنطن، خلافاً للحال في المملكة العربية السعودية.

ودفعت الضربات الجوية التي تقودها الولايات المتحدة على تنظيم الدولة الإسلامية وجماعات جهادية أصغر حجماً قادة جبهة النصرة وأحرار الشام وغيرهما من جماعات المعارضة السورية لاستكشاف احتمال توحيد صفوفها لمواجهة خطر مشترك في 1 تشرين الثاني-نوفمبر 2014، ولكن هذه المحادثات أخفقت. وقد ساعدت الانقسامات المستمرة داخل المعسكر الجهادي الواسع الحكومة السورية؛ فعلى سبيل المثال: استعادت السيطرة على حقلي جهار ومهر للغاز بالقرب من حمص من تنظيم داعش الذي كان يستفيد من هذه الحقول مالياً.

وفي منتصف كانون الأول-ديسمبر أعلن الجنرال جيمس تيري، قائد قوة المهام المشتركة في العراق، أن 1361 غارة جوية نُفِّذت ضد داعش حتى الآن.[85] ونتيجة لهذه الغارات الجوية، أخفقت داعش في الاستيلاء على المزيد من الأراضي سواء في سورية أو العراق منذ أوائل أيلول-سبتمبر. وفي الوقت نفسه تقريباً أُفيد بأن إيران شنت غارات جوية ضد قوات داعش على طول حدودها مع العراق في محاولة لإظهار نفوذها العسكري المتزايد في المنطقة في مواجهة دور واشنطن المتجدد.[86] وأكدت المصادر الإيرانية والأمريكية على حد سواء أنه لم يكن هناك تنسيق بين الجانبين أو تبادل المعلومات الاستخبارية. ومن بين أمور أخرى طمأن هذا السعوديين الذين كانوا يخشون مثل هذا الاحتمال حتى لو اتُّفِق عليه بشكل مؤقت. وشهد اليوم الثالث والعشرون من العام التالي وفاة عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، ملك المملكة الصحراوية ووصيها لمدة عشرين عاماً، بسرطان الرئة. ومن شأن خليفته، سلمان بن عبد العزيز آل سعود، أن يقلب آل سعود رأساً على عقب بأكثر من طريقة أثناء تصعيد التنافس مع إيران.

الملاحظات

1 Sue Lloyd Roberts, BBC Newsnight, 11 March 2011, «Saudi Arabia show of force stifles 'day of rage' protests. » http://news. bbc. co. uk/1/hi/programmes/newsnight/942 2550. stm

2 David Batty and Alex Olorenshaw, Guardian, 29 Jan 2011, «Egypt protests—as they happened. » http://www. theguardian. com/world/2011/jan/29/egypt-protests-govern- ment-live-blog

3 Reuters, 5 February, 2011, «Saudi top cleric blasts Arab, Egypt protests: report. » http://www. reuters. com/article/201105/02//us-egypt-saudi-idUSTRE71410L2011 0205

4 Human Rights Watch, «Saudi Arabia: Free Political Activists: Secret Police Crackdown on Founders of First Political Party, » https://www. hrw. org/news/201119/02//saudi- arabia-free-political-activists

5 Human Rights Watch: «Saudi Arabia: Drop Charges Against Human Rights Lawyer. » https://www. hrw. org/news/201111/09//saudi-arabia-drop-charges-against-human- rights-lawyer

6 BBC News, 23 February 2011, «Saudi king offers benefits as he returns from treat-ment. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-12550326

7 Elliot House, On Saudi Arabia, p. 176

8 Stéphane Lacroix, «Saudi Islamists and the Arab Spring. » http://eprints. lse. ac. uk/567251//Lacroix_Saudi-Islamists-and-theArab-Spring_2014. pdf

9 Ibid

10 Elliot House, On Saudi Arabia, p. 160

11 Ibrahim Elbadawi and Hoda Selim, Understanding and Avoiding the Oil Curse in Resource-rich Arab Economies, Cambridge University Press, Cambridge, and New York, July 2016, p. 179

12 Martin Chulov, Guardian, 25 September 2011, «Saudi women to be given right to vote and stand for election in four years. » https://www. theguardian. com/world/2011/ sep/25/saudi-women-right-to-vote

13 Muhammad Morsi garnered 13. 23 million votes and Shafiq 12. 347 million

14 Madhyamam. com/IANS, 5 February 2014, «Iran President Ahmadinejad begins historic Egypt visit. » http://www. madhyamam. com/en/node/8826

15 تأسس الجامع الأزهر والجامعة الأزهرية في عام 977م في القاهرة عندما كانت عاصمة الخلافة الفاطمية (969-1171م) التي ادعى حكامها أنهم ينحدرون من فاطمة بنت النبي محمد زوجة الإمام علي مؤسس الإسلام الشيعي. لذلك كان رفض جامعة الأزهر لقبول الشيعة كطلاب غير مبرر.

16 Kareem Fahim and Mayye el Shaikh, New York Times, 5 February 2013, «Ahmadinejad Visits Egypt, Signaling Realignment.» http://www. nytimes. com/201306/02//world/ middleeast/irans-president-visits-egypt-in-sign-of-thaw. html?_r=0

17 David Hearst and Patrick Kingsley, Guardian, 30 June 2013, «Egypt's Mohamed Morsi remains defiant as fears of civil war grow. » http://www. guardian. co. uk/world/2013/ jun/30/egypt-mohamed-morsi-defiant-civil-war

18 David D. Kirkpatrick, New York Times, 1 March 2015, «Recordings Suggest Emirates and Egyptian Military Pushed Ousting of Morsi. » http:// www. nytimes. com/201502/03// world/middleeast/recordings-suggest-emirates-and-egyptian-military-pushed-ousting- of-morsi. html

19 David Hearst, Guardian, 20 August 2013, «Why Saudi Arabia is taking a risk by back-ing the Egyptian coup. » https://www. theguardian. com/ commentisfree/2013/aug/20/ saudi-arabia-coup-egypt

20 Human Rights Watch, 12 August 2014, «Egypt: Rab'a Killings Likely Crimes against Humanity. » https://www. hrw. org/news/201412/08// egypt-raba-killings-likely-crimes- against-humanity

21 Digby Lidstone, Financial Times, 9 November 2009, «Shia population: Fed up with immi-gration and discrimination. » https://www. ft. com/ content/2a4a99be-ccbd-11de-8e30– 00144feabdc0

22 Sarah A. Topol, AOL News, 22 February 2011, «Thousands Join Bahrain Protests; King to Free Some Political Prisoners. » https://web. archive. org/ web/20110425023326/ http://www. aolnews. com/201122/02//thousands-join-bahrain-protests-king-to-free- some-political-pri/

23 Timeline of Unrest in Eastern Province from Jan 2006—Dec. 2011. https:// wikileaks. org/gifiles/attach/1414872/_Timeline %20of %20Un. doc

24 Ibid

25 Ethan Browner and Michael Slackman, New York Times, 14 March 2011, «Saudi Troops Enter Bahrain to Help Put Down Unrest. » http://www. nytimes. com/201115/03// world/middleeast/15bahrain. html

26 Patrick Cockburn, The Independent, 17 March 2011, «Bahrain protesters driven out of Pearl Square by tanks and tear gas. » http://www. independent. co. uk/news/world/mid- dle-east/bahrain-protesters-driven-out-of-pearl-square-by-tanks-and-tear-gas-2244165. html

27 Ibid

28 Marina Ottaway, Carnegie Endowment, 4 April 2011, «Between the United States and Saudi Arabia. » http://carnegieendowment. org/201104/04// bahrain-between-united- states-and-saudi-arabia-pub-43416

29 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 403

30 Hugh Macleod and a reporter in Syria, Global Post, 25 April 2011, «Syria: How it all began. » https://www. pri. org/stories/2011–04–23/syria-how-it-all-began

31 Ibid

32 BBC News, 21 October 2015, «Syrian President Bashar al-Assad: Facing down rebel-lion. » http://www. bbc. co. uk/news/10338256

33 Al Jazeera, 8 August 2011, «Saudi Arabia calls for Syrian reforms. » http:// www. aljazeera. com/news/middleeast/201120118721392218476l/08/. html

34 Nada Bakria, New York Times, 27 August 2011, «Iran Calls on Syria to Recognize Citizens' Demands. » http://www. nytimes. com/201128/08// world/middleeast/28syria. html

35 Ewen MacAskill and Duncan Campbell, Guardian, 17 February 2005, «Iran and Syria confront US with defense pact. » http://www. theguardian. com/world/2005/feb/17/ usa. syria

36 Mona Yacoubian, US Institute of Peace, 1 May, 2007, «Syria's alliance with Iran. » http:// www. usip. org/publications/syria-s-alliance-iran

37 Anthony Shadid, New York Times, 10 January 2012, «Syrian Leader Vows 'Iron Fist' to Crush 'Conspiracy. '» http://www. nytimes. com/201211/01// world/middleeast/syr- ian-leader-vows-to-crush-conspiracy. html

38 C. J. Chivers and Eric Schmitt, New York Times, 25 March 2013, «Arms Airlift to Syria Rebels Expands, With Aid From CIA. » http://www. nytimes. com/201325/03//world/ middleeast/arms-airlift-to-syrian-rebels-expands-with-cia-aid. html

39 Murtaza Hussain, Intercept, 24 October 2017, «NSA Document says Saudi Prince directly ordered coordinated attack by Syrian Rebels on Damascus.» https://theinter-cept. com/201724/10//syria-rebels-nsa-saudi-prince-assad/

40 European Council on Foreign Relations, 24 June 2013, «Syria: the view from Iraq. » http://www. ecfr. eu/article/commentary_syria_the_view_ from_iraq136

41 Dilip Hiro, YaleGlobal Online, 13 December 2016, «Fall of Eastern Aleppo Marks Turning Point for Syrian Civil War. »http://yaleglobal. yale. edu/ content/fall-eastern- aleppo-marks-turning-point-syrian-civil-war

42 BBC News, 14 June 2013, «Who is supplying weapons to the warring sides in Syria?» http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-22906965

43 Ibid

44 Neil MacFarquhar and Eric Schmitt, New York Times, 23 July 2012, «Syria Threatens Chemical Attack on Foreign Force, » http://www. nytimes. com/201224/07//world/ middleeast/chemical-weapons-wont-be-used-in-rebellion-syria-says. html?pagewanted=all

45 James Ball, Washington Post, 20 August 2012, «Obama issues Syria a 'red line' warning on chemical weapons. » https://www. washingtonpost. com/world/national-security/ obama-issues-syria-red-line-warning-on-chemical-weapons/201220/08//ba5d26ec-eaf7– 11e1-b811-09036bcb182b_story. html

46 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 243

47 BBC News, 24 September 2013, «Syria chemical attack: What we know. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-23927399

48 Jeffrey Goldberg, Atlantic, April 2016, «The Obama Doctrine. » http://www. theatlan-tic. com/magazine/archive/201604//the-obama-doctrine/471525/

49 Khaled Yacoub Oweis, Reuters, 28 August 2013, «Syria evacuates most army buildings in Damascus: residents. »http://www. reuters. com/ article/us-syria-crisis-army-prepara- tions/syria-evacuates-most-army-buildings-in-damascus-residents-idUSBRE97R0R 320130828

50 BBC News, 20 August 2013, «Syria crisis: Cameron loses Commons vote on Syria action. » http://www. bbc. co. uk/news/uk-politics-23892783

51 Michael Crowley, Politico. com, 11 October 2016, «Obama's 'red line' haunts Clinton, Trump. » http://www. politico. com/story/201609// obama-clinton-syria-red-line-228585

52 Dilip Hiro, TomDispatch. com, 29 September 2013, «The Mystery of Washington's Waning Global Power. http://www. tomdispatch. com/blog/175753/tomgram %3A_ dilip_hiro, _the_mystery_of_ washington %27s_waning_global_power/

53 Peter Baker and Michael R. Gordon, New York Times, 10 September 2013, «An Unlikely Evolution, From Casual Proposal to Possible Resolution.» http://www. nytimes. com/201311/09//world/middleeast/Syria-An-Unlikely-Evolution. html

54 Neil King Jr., Wall Street Journal, 10 September 2013, «Poll Finds Support Fading for Syria Attack. » http://online. wsj. com/article/SB100014241278 873235950045790652 84261448614. html

55 Syria did so on 13 September 2013. That reduced the number of non-signatories to the Chemical Weapons Convention in the Middle East to two: Israel and Egypt

56 BBC News, 10 September 2013, «Transcript: Obama's address to the nation on Syria. »https://www. cbsnews. com/news/transcript-obamas-address-to-the-nation-on- syria/

57 Conal Urqhart, Guardian, 14 Sept 2013, «Syria crisis: US and Russia agree chemical weapons deal. » https://www. theguardian. com/world/2013/ sep/14/syris-crisis-us-rus- sia-chemical-weapons-deal

58 Jeremy Jones and Nicholas Ridout, Oman, Culture and Diplomacy, Edinburgh University Press, Edinburgh, 2013, pp. 178–179

59 Robin Pomeroy and Mitra Amiri, Reuters, 8 June 2011, ««Defiant Iran plans big rise in nuclear enrichment. » http://www. reuters. com/article/ us-iran-nuclear-enrichment/ defiant-iran-plans-big-rise-in-nuclear-enrichment-idUSTRE7572R620110608

60 Thijs Van de Graaf, Middle East Policy Council Journal, Fall 2013, Volume XX, Number 3, «The 'Oil Weapon' Reversed? Sanctions Against Iran and U. S. -EU Structural Power. » http://www. mepc. org/oil-weapon-reversed-sanctions-against-iran-and-us-eu-structural- power?print

61 Carol E. Lee and Keith Johnson, Wall Street Journal, 4 January 2012, «US Targets Iran's Central Bank. » http://www. wsj. com/articles/SB10001424052970204720204577132923798499772

62 Michael Theodoulou, The National, 11 January 2012, «Ahmadinejad makes light of fears over Iran's uranium enrichment. » https://www. thenational. ae/world/mena/ahmadine- jad-makes-light-of-fears-over-iran-s-uraninium-enrichment-1. 579421

63 BBC News, 23 January 2012, «Iran: EU oil sanctions 'unfair' and 'doomed to fail'. » http://www. bbc. co. uk/news/world-europe-16693484

64 Reuters Staff, 12 Feb 2016, «Iranian banks reconnected to SWIFT network after four-year hiatus. » https://www. reuters. com/article/us-iran-banks-swift/iranian-banks-recon- nected-to-swift-network-after-four-year-hiatus-idUSKCN0VQ1FD

65 Van de Graaf, «The 'Oil Weapon' Reversed?»

66 BBC News, 20 December 2016, Iran Profile—Timeline. http://www. bbc. co. uk/news/ world-middle-east-14542438

67 BBC News, 28 September 2013, «Iran nuclear: Obama and Rouhani speak by phone. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-24304088

68 Mark Urban, «Saudi nuclear weapons 'on order' from Pakistan, » BBC Newsnight, 6 November 2013, http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-24823846»; and Julian Borger, «Does Pakistan have nuclear weapons ready to ship to Saudi Arabia?», Guardian, 7 November 2013. https://www. theguardian. com/world/julian-borger- global-security-blog/2013/nov/07/pakistan-saudi-nuclear-proliferation?CMP=twt_gu

69 BBC News, 24 November 2013, «Iran agrees to curb nuclear activity at Geneva talks. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-25074729

70 Dilip Hiro, YaleGlobal Online, January 21, 2014, «Will the Iran Nuclear Deal Thrive or Wither?» http://yaleglobal. yale. edu/content/will-iran-nuclear-deal-thrive-or-wither

71 Martin Chulov, Guardian, 13 June 2014, «Iranian general visits Baghdad to assist with defense of Iraq capital. » https://www. theguardian. com/world/2014/jun/13/iran-gen- eral-assists-with-preparing-baghdad-defence-from-insurgents-isis

72 Abigail Hauslohner, Washington Post, 13 June 2014, «Jihadist expansion in Iraq puts Persian Gulf States in a tight spot. »https://www. washingtonpost. com/world/jihadist- expansion-in-iraq-puts-persian-gulf-states-in-a-tight-spot/201413/06//e52e90ac-f317– 11e3-bf76447-a5df6411f_story. html?utm_term=. c12f2fc2cab6

73 Reuters Staff, 9 March 2017, «Iraqi PM Maliki says Saudi, Qatar openly funding vio-lence in Anbar. » https://www. reuters. com/article/us-iraq-saudi-qatar/iraqi-pm-maliki- says-saudi-qatar-openly-funding-violence-in-anbar-idUSBREA2806S20140309

74 Staff writer, Al Arabiya News, 4 June 2014, «Assad wins landslide 88. 7 % election vic-tory. » http://english. alarabiya. net/en/News/middle-east/201404/06//Assad-readies- for-Syria-vote-count-victory-. html

75 Babak Dehghanpisheh, Reuters Insight, 3 August 2014, «Iran's elite Guards fighting in Iraq to push back Islamic State. » http://uk. reuters. com/article/uk-iraq-security-iran- insight/insight-irans-elite-guards-fighting-in-iraq-to-push-back-islamic-state-idUKK- BN0G30GG20140803

76 Mehdi Hassan, Huffington Post, 30 June 2014, «Haider Al-Abadi: Bomb Isis, Or We'll Ask Iran To Do It, Top Iraqi Politician Warns United States.» http://www. huffington-post. co. uk/201430/06//iraq-haider-al-abadi-isis-iran-airstrikes-unites-states_ n_5543252. html

77 Spencer Ackerman and Paul Lewis, Guardian, 13 June 2014, «Obama 'urgently' con-sidering air assault on targets in Syria and Iraq» https:// www. theguardian. com/ world/2014/jun/13/obama-urgent-air-assault-isis-syria-iraq

78 Hauslohner, «Jihadist expansion in Iraq puts Persian Gulf States in a tight spot

79 Dehghanpisheh, «Iran's elite Guards fighting in Iraq to push back Islamic State. »

80 Jonathan Marcus, 2 July 2014, «'Iranian attack jets deployed' to help Iraq fight Isis. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-28125687

81 BBC News, 5 July 2014, «Isis chief Abu Bakr al-Baghdadi appears in first video. » http:// www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-28177848

82 Dan Roberts and Spencer Ackerman, Guardian, 11 September 2014, «Barack Obama authorizes air strikes against Isis militants in Syria.» https://www. theguardian. com/ world/2014/sep/10/obama-speech-authorise-air-strikes-against-isis-syria

83 Arab News, 11 Sept 2014, «King Abdullah receives call from President Obama. » http:// www. arabnews. com/saudi-arabia/news/628521

84 Richard Spencer and Peter Foster, Daily Telegraph, 11 Sept 2014, «10 Arab states join the US in battle against ISIL. » http://www. telegraph. co. uk/news/worldnews/middleeast/ saudiarabia/1109079910/-Arab-states-commit-to-share-US-led-fight-against-ISIL. html

85 Chloe Sommers, CNN, 19 Dec 2014, «Pentagon has a new name for ISIS.» http://edi- tion. cnn. com/201418/12//politics/pentagon-now-calls-isis-daesh/?cid=ob_ articlesidebarall&iref=obinsite

86 Dion Nissenbaum, Benoît Faucon and Matt Bradley, Wall Street Journal, 3 December 2014, «Iran Attacked Islamic State Forces in Iraq, US Not

Coordinating With Tehran on Airstrikes. » https://www. wsj. com/articles/pentagon-officials-believe-iran-attacked- islamic-state-forces-in-iraq-1417623790

الفصل الثالث عشر

حرب باردة متعددة الجبهات بين الرياض وطهران

سلمان البالغ من العمر تسعة وسبعين عاماً، حزين العينين، ذو شارب أسود مصبوغ حسب الضرورة ولحية قصيرة، طوله كطول ابن سعود، ويشبه والده أكثر من أي من إخوته الأشقاء وغير الأشقاء. وقد عمل سلمان، بصفته حاكماً للرياض لمدة ثمانية وأربعين عاماً (1963-2011)، كوسيط في العائلة المالكة السعودية المتوسعة إلى حد كبير، والتي تمزقها شبكة معقدة من الفصائل المتنافسة أثناء تقاتلها من أجل السيطرة على الوزارات والمحافظات المهمة؛ وقد منحه هذا فهماً فريداً للمناورات السياسية داخل آل سعود. ومضى في نشرها لتغيير الطريقة التقليدية التدريجية والحذرة التي كانت تدار بها المملكة منذ إنشائها. وعند اعتلائه العرش، وكانت ثروته الصافية 17 مليار دولار، أصبح ثالث أغنى ملك في العالم بعد بوميبول أدولياديج، ملك تايلاند، وحسن البلقية، سلطان بروناي؛ فإلى جانب راتبه الملكي السخي وممتلكاته المالية المربحة في صناعة النفط في المملكة ورث نسبة كبيرة من ثروة الملك الراحل عبد الله البالغة 18 مليار دولار.[1]

"صراع العروش" في مملكة الصحراء

كان سلمان أحد إخوة الدم السبعة الذين ولدوا لحصة السديري.[2] نظراً للولاء المتبادل بين السديريين السبعة، وتفوقهم من حيث الحجم مقارنة بأي مجموعة أخرى من إخوة الدم، فقد كان لديهم قوة العائلة المالكة.

ولم يكن سلف سلمان، الملك عبد الله، ابناً لفهدة الشريم، ولم يكن جزءاً من هذه الأخوّة الدموية؛ ومع ذلك، مع مراعاة الأقدمية الصارمة، عيّن اثنين من السديريين الباقين على قيد الحياة -السلطان المعروف بنظره الثاقب ونايف ذي الوجه المترهل- وليّين للعهد على التوالي، ولم يلبثا أن يموتا في تشرين الأول-أكتوبر 2011 وحزيران-يونيو 2012 على التوالي، والأخير نتيجة لمرض السكري وضعف الدورة الدموية.[3] بعد استطلاع رأي كل عضو من

أعضاء هيئة البيعة المكونة من 37 عضواً بشكل منفصل، في آذار-مارس 2014، عيّن عبد الله الأمير مقرن بن عبد العزيز، ذا العينين الواسعتين والشاربين والوجه القمري (غير السديري)، ولياً لولي العهد سلمان بن عبد العزيز، وهو المنصب الذي مُنح له في حزيران-يونيو 2012.

ثبت أن قلب بروتوكول الأسرة الحاكمة الذي أنجزه الملك سلمان خلال أول 100 يوم من حكمه كان بمنزلة رفع الستار عن الفصل الأخير في "صراع العروش" الواقعية في المملكة العربية السعودية في 21 حزيران-يونيو 2017. وفي أحد الأيام قام الملك سلمان، في القصر الملكي بمكة، بترقية ابنه محمد إلى ولي العهد على حساب ابن عمه الأكبر محمد بن نايف، الذي جُرِّد أيضاً من منصبه كوزير للداخلية. وكان خليفته أحد أبناء أخيه، عبد العزيز بن سعود بن نايف، البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً. وبما أنه كان يفتقر إلى الخبرة في مسائل إنفاذ القانون، والاستخبارات، ومكافحة الإرهاب، قام الملك سلمان بعد فترة وجيزة بتقليص اختصاص وزارة الداخلية لتشمل الغرامات المرورية، وإنفاذ قوانين المخدرات، ومراقبة الجوازات، وإنشاء منظمة جديدة تسمى رئاسة أمن الدولة لرفع التقارير إليه مباشرة.[4] في هذه الأثناء أظهر ولي العهد الجديد وابن عمه المخلوع عرضاً للتضامن أمام كاميرات التلفاز الحكومي، حيث ركع بن سلمان أمام الأمير الأكبر سناً، وتعهد قائلاً: «لن نتخلى عن أخذ توجيهاتكم ونصائحكم». وفي المقابل قال بن نايف: «أنا راضٍ».[5] وقد كان هذا ادعاءً من الطراز الأول.

وعندما عاد بن نايف إلى قصره في جدة وجد أن الحراس الموالين له قد استُبدل بهم من يدينون بالولاء لابن سلمان، ومُنِع من السفر إلى الخارج.[6] كان الهدف الرئيس لــ بن سلمان هو منعه من السفر إلى واشنطن -حيث كانت لديه اتصالات رفيعة المستوى- والكشف عن كيفية تخطيط بن سلمان ووالده لخلعه، مما يوفر رؤًى قيمة حول الخداع السياسي داخل الدائرة الداخلية السعودية المبهمة.

لقد أصبح أفراد العائلة المالكة، الملتزمون بإظهار الوحدة في آل سعود، أساتذة سابقين في التظاهر وخلق الخدع لإخفاء حقيقة مشاعرهم ودوافعهم، وبالتالي إخفاء المنافسات المستمرة التي كانت موجودة بين مختلف فروع الأسرة الحاكمة، والتي كانت متجذرة في العديد من الزوجات التي حصل عليها ابن سعود. بعد أن عُيِّن محمد بن سلمان ولياً لولي العهد من قبل والده، في 15 نيسان-أبريل 2015، أخبر أحد محاوريه أنه لا يتوقع أن يصبح ملكاً حتى يبلغ الخامسة والخمسين من عمره، وهو تقريباً عمر ولي العهد الأمير محمد بن نايف.[7] لكن ما حدث كان خلاف ذلك تماماً؛ فمنذ اللحظة التي أصبح فيها بن سلمان وليا لولي العهد، تواطأ مع والده لتقويض بن نايف.

"الأمير" بين الأمراء

قائماً أمام مكتبه الواسع مرتدياً قميصاً فضفاضاً يصل إلى الكاحل، يُسمى الثوب، ولكنه مجرد من غطاء الرأس العربي -وهو وشاح قطني مربع الشكل مربوط بحبل أسود مستدير يشبه أنبوب الخرطوم، يُسمى عقالاً- كان محمد بن سلمان (المعروف في الأوساط الدبلوماسية بـ MBS) بلحيته السوداء الكثّة وشعره الساقط باكراً يبدو أكبر من عمره. وبحسب قوله هو نفسه، كان والداه شديدي الصرامة ومطالبين جداً؛ فألزمه والده أن يقرأ كتاباً في الأسبوع، وكانت والدته، فهدة بنت فلاح بن سلطان الحثلين -التي كانت تصغر زوجها بحوالي عشرين عاماً عندما تزوجته كزوجته الثالثة والأخيرة في عام 1984- قد جعلت موظفيها يرتبون دورات خارج المنهج الدراسي وزيارات ميدانية له وكذلك جلسات مع مرشدين فكريين. وعلى عكس إخوته الأربعة غير الأشقاء، الذين التحقوا بالجامعات الغربية، حصل على شهادة البكالوريوس في القانون، عام 2007، عن عمر يناهز 22 عاماً، من جامعة الملك سعود بالرياض، حيث لغة التدريس هي اللغة العربية، باستثناء الطب والهندسة، اللتين تدرسان باللغة الإنجليزية، ومع ذلك فإن وحدة اللغات توفر دعم اللغة الإنجليزية على جميع المستويات. وبالنظر إلى إشارات بن سلمان إلى كتابات السير ونستون تشرشل، في مقابلته مع مجلة الإيكونوميست[8] في كانون الثاني-يناير 2016، يبدو أنه استفاد من هذه التسهيلات. لقد وصف نفسه بفخر بأنه شخص ينتمي إلى الجيل الذي نشأ وهو يلعب ألعاب الفيديو وأصبح فيما بعد مستخدماً متعطشاً لمنتجات شركة (Apple Inc).

بعد تخرجه، وبناءً على طلب والده، انضم إلى مكتب المستشار القانوني لمجلس الوزراء، فوجد البيروقراطيين خاملين ومختبئين للغاية عندما حاول تغيير قوانين وقواعد معينة في الشركة. عندما أخفق في الفوز بترقية بعد عامين، غادر للعمل مع والده الذي كان آنذاك أمير الرياض. وبصفته حارساً لمكتب والده فقد أزعج الحرس القديم الذي اشتكى إلى الملك عبد الله. وفي تشرين الأول-أكتوبر 2011 توفي ولي العهد الأمير سلطان بن عبد العزيز، البالغ من العمر أربعة وثمانين عاماً، والذي أدار وزارة الدفاع لمدة ثمانية وأربعين عاماً، بسبب السرطان ومرض الزهايمر، وعَين عبد الله الأمير سلمان وزيراً للدفاع لكنه استبعد وجود نجله محمد في الوزارة؛ ولذلك، واصل الأمير الشاب المضطرب إعادة تنظيم مؤسسة والده لبناء منازل بأسعار معقولة.

وفي حزيران-يونيو 2012، وبعد وفاة ولي العهد الأمير نايف، ورث الأمير سلمان منصبه، فقام ولي العهد الجديد بتعيين ابنه المفضل: محمد، رئيساً لديوانه، مما مهد الطريق للأمير

الشاب للتقرب من الملك عبد الله المريض البالغ من العمر تسعة وثمانين عاماً. وفي أيام احتضاره أمر الملك محمد بن سلمان بتطهير وزارة الدفاع التي كانت مليئة بالفساد.

ومن خلال العمل مع شركتين استشاريتين إداريتين أمريكيتين غيّر بن سلمان إجراءات شراء الأسلحة، من خلال وضع الإدارة القانونية في مقعد القيادة، فقد أدى تهميش هذه الإدارة إلى توقيع عقود خاطئة، مما أدى إلى انتشار الفساد على نطاق واسع. وأعاد بن سلمان عشرات العقود للمراجعة، وواصل إنشاء مكتب منفصل لتحليل صفقات الأسلحة. وفي وقت لاحق، أثناء إحاطته للصحفيين من بلومبرج بيزنس ويك، قال المدير العام لمكتب وزير الدفاع: فهد العيسى: «لقد صُوِّر العديد من مشتريات الأسلحة بشكل خاطئ، وفُحصت بشكل غير مناسب، دون أي غرض واضح. نحن رابع أكبر دولة من حيث الإنفاق العسكري في العالم، ولكن عندما يتعلق الأمر بالجودة، فنحن بالكاد بين العشرين الأوائل».[9]

عند توليه العرش، في كانون الثاني-يناير 2015، سلّم سلمان وزارة الدفاع إلى محمد. وبحسب ما ورد كان سلمان مصاباً بالخرف، مما تسبب له في فقدان الذاكرة بشكل دوري، وكان قادراً على التركيز لبضع ساعات فقط في اليوم. وقد ساعده ابنه من خلال عمله كحارس بوابة صارم. وبعد أسبوع عيّنه الملك رئيساً لمجلس الشؤون الاقتصادية والتنموية (CEDA) الذي جرى تكليفه، ليحل محل اللجنة الاقتصادية العليا السابقة، بتنسيق الإصلاحات الاقتصادية لمعالجة انخفاض أسعار النفط. وبعد شهرين قرر مجلس وزراء الملك سلمان نقل صندوق الاستثمارات العامة من وزارة المالية إلى مجلس الشؤون الاقتصادية والتنموية، وعين مجلس إدارة جديداً برئاسة بن سلمان. ومع ذلك كان من المقرر وضع المزيد من الصلاحيات في يدي الأمير الشاب في الأول من أيار-مايو. ففي ذلك اليوم قام الملك بحلِّ المجلس الأعلى لشؤون البترول والمعادن وإنشاء المجلس الأعلى لشركة أرامكو السعودية المكون من عشرة أعضاء، والذي انفصل عن وزارة النفط. ومن غير المستغرب أن يرأس الهيئة الجديدة محمد بن سلمان. وكان الهدف، وفقاً لكبار المسؤولين، هو التأكد من أن شركة النفط العملاقة تخضع للمراقبة والتدقيق والإدارة بشكل أفضل كجزء من الإصلاحات الاقتصادية الجذرية.

في منتصف نيسان-أبريل 2016، خلال إحاطته الإعلامية لبلومبرج بيزنس ويك، سلط بن سلمان الضوء على الحكم المبهم حتى الآن في المملكة العربية السعودية «منذ الاثنتي عشرة ساعة الأولى [من حكم سلمان] صدرت القرارات، وفي الأيام العشرة الأولى، أُعيدت هيكلة الحكومة بأكملها».[10] وبعد يوم من اعتلائه العرش أمر الملك سلمان بدمج ديوانه مع ديوان

ولي العهد الأمير بن نايف، مع لجنة يرأسها نجله محمد لتنفيذ مرسومه[11]؛ وهذا يعني أنه كان على ولي العهد الاعتماد على حسن نية وليّ وليّ العهد لرؤية الملك.

لقد بقي بن نايف مغيباً بشأن مسائل ذات أهمية حيوية، فعندما قاد بن سلمان، في 26 آذار-مارس 2015، حملة جوية في اليمن المجاورة لطرد المتمردين الحوثيين من العاصمة صنعاء، بعد تشكيل تحالف من ممالك خليجية عدة ومصر، أبقى بن نايف خارج الحلقة. وبالمثل، تجاهل الأمير متعب بن عبد الله: وزير الحرس الوطني، الذي كان آنذاك خارج البلاد.

عندما دعاه الرئيس باراك أوباما لحضور قمة ملوك الخليج في كامب ديفيد في أيار- مايو 2015 لإطلاعه على المحادثات بين إيران والقوى العالمية الست حول برنامج طهران النووي، أوفد الملك سلمان بن نايف للحضور مع [ولده] بن سلمان. وعندما قال أوباما، في مقابلته مع قناة العربية المملوكة للسعودية: إن الأمير الأصغر محمد كان «حكيماً يفوق عمره»، فقد عزز غرور بن سلمان المتضخم على حساب ابن عمه الأكبر سناً بكثير.[12] وعلى الرغم من نفيه، أصبح التنافس بين بن سلمان وولي العهد الأمير بن نايف موضوعاً للقيل والقال بين الطبقات الثرثارة في المملكة وبقية العالم العربي. ومع ذلك كان هذا الصراع على السلطة من جانب واحد لأن الشاب محمد قد تفوق تماماً على ابن عمه الذي يحمل الاسم نفسه، والذي كان أكبر منه بستة وعشرين عاماً.

عندما التقى سلمان بأوباما في البيت الأبيض، في 4 أيلول-سبتمبر 2015، لم يكن برفقته ولي العهد بل ابنه وليّ وليّ العهد محمد. مستمتعاً بالإطراء الذي قدّمه أوباما للأمير الشاب، انتهك بن سلمان البروتوكول الدبلوماسي عندما ألقى حديثاً خاص حول إخفاقات السياسة الخارجية الأمريكية خلال اجتماع المكتب البيضاوي.[13]

وبعد وقت قصير من عودته إلى الرياض أقال الملك سلمان سعد الجابري: وزير الدولة الذي كان كبير مستشاري بن نايف. ووفقاً لموقع ويكيليكس، كان الجبري بمنزلة الرجل الرئيس لـ بن نايف منذ عام 2006 على الأقل، وكان جهة الاتصال الاستخباراتية الرئيسة للمملكة مع الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى. وكانت خطيئة الجبري هو أنه شكك في تكتيكات بن سلمان في اليمن التي أدت إلى زيادة قوة تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية هناك، وخلقت ضغوطاً جديدة من اللاجئين والمتمردين اليمنيين على طول الحدود السعودية.[14] وبينما كان ابن نايف من الناحية النظرية مفوضاً لإدارة الشؤون السياسية والأمنية، فإن سلطته في الواقع لم تتجاوز وزارة الداخلية، التي شملت مديرية المباحث العامة، والمعروفة باسم الشرطة السرية.

ومن أجل إرضاء غرور بن نايف المكلوم، أرسله الملك إلى نيويورك لإلقاء خطاب في الجمعية العامة للأمم المتحدة في 21 أيلول-سبتمبر، وفي رحلة عودته قام ولي العهد بزيارة رسمية إلى أنقرة. وإذا كانت تلك المهام الرسمية طمأنت بن نايف إلى حد ما، فإن هذا الشعور اختفى قبل نهاية العام؛ ففي 15 كانون الأول-ديسمبر، أعلن بن سلمان أن أربعاً وثلاثين دولة إسلامية قد انضمت إلى التحالف العسكري الذي تقوده السعودية لمحاربة الإرهاب، وأن مركز عمليات مشتركة سيُنشأ في الرياض لمواجهة التطرف في أفغانستان، ومصر، والعراق، وليبيا، وسورية. وباستثناء مصر لم تظهر أي من هذه الدول في القائمة. أما التحالف، فقد كان 23 من المشاركين فيه من الدول الأفريقية، وجميعهم كانوا متلقين للمساعدات المالية السعودية.[15] ومن غير المستغرب أن إيران لم تكن عضواً في هذا التحالف، وكذلك إندونيسيا، أكبر دولة إسلامية في العالم.

وفي المملكة العربية السعودية كانت مكافحة الإرهاب من اختصاص الأمير بن نايف منذ عام 2003، لكن الهيئة الجديدة التي أنشاها بن سلمان حديثاً لم تترك له أو لوزارة الداخلية المتمرسة أي دور. ووجد بن نايف أن هذا الرفض غير مقبول، لكنه لم يكن قادراً على الوصول المباشر إلى الملك حيث يمكنه التعبير عن مشاعره على انفراد، فغادر المملكة مع عائلته إلى فيلته في الجزائر، وهو مجمع مترامي الأطراف يقع على بعد ساعة بالسيارة شمال الجزائر العاصمة. وعلى الرغم من أنه كان معتاداً على أخذ إجازة صيد قصيرة سنوياً في الجزائر، فقد بقي هذه المرة بعيداً لمدة ستة أسابيع، بمعزل عن العالم الخارجي بشكل أساسي، وغالباً ما أخفق في الرد على رسائل المسؤولين السعوديين والمقربين في واشنطن. وحتى جون برينان: مدير وكالة المخابرات المركزية، الذي كان يعرفه منذ سنوات عديدة، واجه صعوبة في الوصول إليه.[16] لم يحدث أي من هذا أي فرق في خطة سلمان وابنه المفضل لتقويض بن نايف، حتى عندما تحولت حرب بن سلمان ضد الحوثيين الشيعة، كما كان يخشى، إلى طريق مسدود باهظ الثمن ومحرج.

تدخل الرياض العسكري في اليمن

خلال اضطرابات الربيع العربي التي أدت إلى تنحي الرئيس اليمني علي عبد الله صالح في شباط-فبراير 2012، بعد اثنين وثلاثين عاماً في السلطة، تضخم المتمردون الشيعة الزيديون الموالون لعبد الملك الحوثي. وكان هؤلاء المنشقون، المتمركزون في شمالي غربي اليمن، على خلاف مع الحكومة المركزية منذ عام 2004، مما أدى إلى عدة جولات من القتال بينهم وبين الجيش. وخلال أطول فترة من القتال، من آب-أغسطس 2009 إلى شباط-فبراير 2010،

انضم الجيش السعودي إلى الجيش اليمني لكبح جماح المتمردين. وعندما بدأت الاحتجاجات المؤيدة للديمقراطية بعد عام، شارك فيها الحوثيون. وفي الاضطرابات التي عمت البلاد بعد ذلك تضخم حجم الحوثيين المسلحين وغير المسلحين إلى 120 ألفاً، وقاموا بتوسيع سيطرتهم التقليدية على محافظة صعدة إلى محافظتي حجة وعمران ذات الأغلبية الزيدية على طول الحدود السعودية، الأمر الذي أثار قلق الرياض.[17]

وكجزء من الاتفاق الذي وقعه صالح مع وساطة مجلس التعاون الخليجي، خلف نائب الرئيس عبد ربه منصور هادي -وهو سُنّي- صالح بعد الانتخابات الرئاسية التي كان هو المرشح الوحيد فيها. وتماشياً مع الاتفاق الذي توسطت فيه دول مجلس التعاون الخليجي، أنشأ مؤتمر الحوار الوطني كمنتدى لحل المشاكل السياسية في البلاد من أجل إنشاء أساس لدستور جديد وانتخابات جديدة قبل نهاية فترة انتقاله التي تستغرق عامين. وقد ثبت أن هذه مهمة شاقة بالنسبة لهادي غير الكفء سياسياً. ومع ذلك مدد البرلمان مدة ولايته لمدة عام في كانون الثاني-يناير 2014، وهذا لم يكن مقبولاً لدى الحوثيين، فتقدموا نحو العاصمة صنعاء، حيث ابتهج صالح المخلوع بهدوء بالتهديد الذي يشكلونه على هادي الذي أخفق في كسب ولاء الجيش. ونتيجة لخفض الدعم الحكومي، في آب-أغسطس، ارتفعت أسعار الوقود بشكل حاد، وأدى ذلك إلى مظاهرات مناهضة لهادي في العاصمة. وفي هذه الظروف، حاصر المتمردون الحوثيون صنعاء في 21 أيلول-سبتمبر، ولم يواجهوا أي مقاومة من الجيش المحبط والمفكك، أو من السياسيين الساخطين. ومع ذلك، قرر قادتهم التوقيع على اتفاق مع هادي، بوساطة ممثل الأمم المتحدة: جمال بن عمر، لتشكيل حكومة وحدة وطنية وصياغة دستور جديد. ومع ذلك، استمرت المفاوضات اللاحقة لأسابيع عدة.

بعد شعورهم بالإحباط، في 22 كانون الثاني-يناير 2015، أجبر قادة الحوثيين هادي على الاستقالة، واستولوا على القصر الرئاسي بعد أسبوع، ووضعوا هادي تحت الإقامة الجبرية فعلياً. وفي مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، واستجابة لضغوط مجلس التعاون الخليجي، طرحت الأردن وبريطانيا قراراً بشأن اليمن. وقد أُقِر بالإجماع في 15 شباط-فبراير، حيث شجب قرار الحوثيين بحل البرلمان والاستيلاء على إدارة اليمن، ودعا الميليشيا إلى الانسحاب من المؤسسات الحكومية.[18] وتجاهل قادة الحوثيين القرار، لكنهم سمحوا لهادي بالهروب من اعتقاله.

فرّ هادي إلى مسقط رأسه في عدن، وسحب استقالته، وندد باستيلاء الحوثيين على السلطة، ووصفه بأنه انقلاب غير دستوري. وقام الحوثيون بتعيين لجنة ثورية لتولي سلطات

الرئاسة إلى جانب حزب المؤتمر الشعبي العام، وهو حزب سياسي ينتمي إليه صالح وهادي. وقد افتتحت اللجنة الحاكمة رحلات جوية مباشرة بين صنعاء وطهران، وعرضت تسهيلات في الموانئ على إيران، ووقعت صفقة نفطية مربحة مع شركة النفط الوطنية الإيرانية.[19]

ويبدو أن هذا دليل كافٍ للمسؤولين ووسائل الإعلام السعودية لبدء وصف الحوثيين الشيعة بأنهم وكلاء لإيران. وفي الواقع تختلف الطائفة الزيدية التي يتبعها الحوثيين ضمن الإسلام الشيعي عن الطائفة الاثني عشرية عند الإيرانيين؛ وقد سُميت بهذا الاسم بسبب عدد أئمة الشيعة الذين يقدسهم أعضاء هذه المجموعة. تبدأ القائمة بالإمام علي، وتنتهي بمحمد القاسم، الذي اختفى عندما كان رضيعاً في مدينة سامراء العراقية عام 837م.(*) يشترك الزيديون في الأئمة الأربعة الأوائل من الاثني عشرية، لكنهم يتبعون خطاً مختلفاً مع زيد، ابن محمد بن الحنفية الذي كان الأخ غير الشقيق للإمام الحسين: الإمام الثالث.[20](**) وتاريخياً لم تكن هناك اتصالات دينية أو سياسية بين الشيعة في اليمن وأولئك الذين يعيشون في إيران.

آنذاك، في أوائل آذار-مارس 2015 شعرت الحكومة السعودية بالقلق عندما قام صالح -وهو شيعي من الطائفة الزيدية وذو قدرة على على التلاعب بزعماء القبائل السُّنّية المتنافسة من خلال المحسوبية والإكراه للاحتفاظ برئاسته لمدة اثنين وثلاثين عاماً، والسيطرة على معظم نخبة الحرس الجمهوري- بالانضمام إلى معسكر الحوثيين. وبدأت هذه القوات معاً بالسير جنوباً نحو عدن.

في 25 آذار-مارس فرّ هادي من عدن على متن قارب، ووصل إلى الرياض حيث حشدت وزارات الدفاع من مصر وست دول عربية أخرى لشن عملية عاصفة الحزم ضد القوات المناهضة لهادي في اليوم التالي. وباستثناء عُمان استجاب الأعضاء الآخرون في مجلس التعاون الخليجي بشكل إيجابي لدعوة بن سلمان، كما فعلت أربع من الدول العربية المتلقية للمساعدات السعودية: مصر، والأردن، والمغرب، والسودان. وأثناء بقائه خارج التحالف سمح له السلطان قابوس: سلطان عُمان، باستخدام المجال الجوي العُماني، وأغلق حدود عُمان مع اليمن. وخلافاً لتوقعات بن سلمان بأن الصدمة والرعب من الهجوم الجوي للتحالف الذي تقوده السعودية من شأنه أن يدفع تحالف الحوثي-صالح إلى الفرار من صنعاء، فقد أظهر

(*) هو الإمام محمد أبو القاسم المهدي عليه السلام، وُلد سنة 869م وغاب عن الأنظار في غيبته الاولى سنة 874م [المركز].

(**) الشهيد زيد هو ابن الإمام علي بن الحسين زين العابدين بن الإمام علي عليهم السلام وليس ابن محمد بن الحنفية كما ذكر المؤلف [المركز].

خصومه قوة بقاء ملحوظة. وبالفعل، شنوا هجمات بالمدفعية وقذائف الهاون عبر الحدود على المراكز الحضرية السعودية في منطقة عسير، وقاموا بتوغلات برية صغيرة. كما واصلوا مسيرتهم للاستيلاء على عدن.

وتبين لاحقاً أن الاستعدادات لهجوم واسع النطاق ضد تحالف الحوثي-صالح قد بدأت قبل أسابيع عدة. في أوائل شهر آذار-مارس قام عادل بن أحمد الجبير: السفير السعودي لدى الولايات المتحدة، بزيارة الرئيس أوباما، طالباً مساعدته العاجلة لحرب جديدة في الشرق الأوسط، وزعم أن إيران تساعد المتمردين الحوثيين في اليمن، الذين كانوا يحاولون إنشاء مواقع للصواريخ الباليستية في نطاق المدن السعودية. وكانت المملكة مع جيرانها في الخليج على وشك شن هجوم لدعم الحكومة اليمنية الضعيفة بقيادة هادي، وهي حملة من المرجح أن تكون قصيرة. وبما أن أوباما لم يرَ أن الحرب الأهلية في اليمن تهدد الأمن القومي الأمريكي، فقد سمح لمستشاريه المقربين بمناقشة هذه القضية.

وسوّغ أولئك الذين عارضوا التعاون مع السعوديين موقفهم بأن الحملة التي تقودها الرياض ستكون طويلة ودموية وغير حاسمة، وقال أولئك الذين قدّموا الحجة المضادة: إن البيت الأبيض بحاجة إلى استرضاء الملك سلمان، بينما يتجه نحو استكمال الاتفاق النووي مع طهران. وسعياً منه لإطفاء غضب سلمان، أصدر أوباما تعليمات إلى البنتاغون بدعم وتأييد الهجوم العسكري القادم الذي تقوده السعودية دون نشر قوات على الأرض، وانتهى الأمر بتزويد التحالف بالاستخبارات المحمولة جواً، والمراقبة والاستطلاع، والتخطيط العملياتي، والحظر البحري، والدعم الطبي، والتزود بالوقود الجوي.[21]

ولخيبة أملها الكبيرة أخفقت المملكة العربية السعودية في استمالة باكستان في خطتها العسكرية؛ ففي 5 آذار-مارس خرج الملك سلمان ليستقبل رئيس الوزراء الباكستاني نواز شريف في مطار الرياض الدولي المطار مع حكومته الكاملة، ودعا خلال لقائه شريف إلى مشاركة السفن الحربية والطائرات والقوات البرية الباكستانية في التدخل العسكري الذي كان يخطط للقيام به في الحرب الأهلية الدائرة في اليمن لهزيمة المتمردين الحوثيين، وقد وافق شريف على عرض الطلب على الجمعية الوطنية.

وبعد خمسة أيام من النقاش، في 10 نيسان-أبريل، أيد البرلمانيون بالإجماع القرار الذي ينص على أنه «يجب على باكستان أن تحافظ على الحياد في الصراع اليمني». ورأى العديد من المشرعين الخطوة السعودية جزءاً من سياستها المناهضة للشيعة وتنافسها المستمر مع إيران في المنطقة. ومع ملاحظة أن الجهاديين السُّنّة المتطرفين استمروا في استهداف

التجمعات الشيعية في باكستان، مما أسفر عن مقتل المئات، بقي المشرعون في إسلام آباد خارج التحالف الذي تقوده السعودية من أجل عدم تعميق الانقسام بين السُّنّة والشيعة في بلادهم، التي تضم ثاني أكبر عدد من السكان المسلمين في العالم.

ومن اللافت للنظر أنه خلال النقاش، وصل وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف إلى إسلام آباد والتقى برئيس الوزراء وقائد الجيش الجنرال رحيل شريف. ونظراً للحملة العسكرية لمكافحة الإرهاب ضد طالبان الباكستانية والتوترات مع الهند، وجد رحيل شريف يديه مقيدتين، مما جعله غير قادر على مساعدة الرياض. وفي معرض تأكيده قرار البرلمان، أعرب رئيس الوزراء عن تفضيله للحل الدبلوماسي للصراع اليمني[22]؛ لقد فاز ظريف وخسر بن سلمان. وكان من الصعب على الملك سلمان قبول الرفض من إسلام آباد، وهو ما يعني تفويت فرصة نشر جنودها المتمرسين في القتال. وكان عليه أن يعزي نفسه بفرض حصار بحري على اليمن من قبل مصر والولايات المتحدة.

وأعطت الحكومة السعودية الولايات المتحدة إنذاراً قبل بضع ساعات فقط من بدء حملة القصف في 26 آذار-مارس. ومع ذلك، اصطفت واشنطن بسهولة مع فرنسا وبريطانيا في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة من أجل التوصل إلى قرار بشأن اليمن، وهو القرار 2216 الذي أُقرَّ تحت الفصل السابع في 14 نيسان-أبريل، بأغلبية 14 صوتاً مقابل لا شيء، مع امتناع روسيا عن التصويت، ودعا الحوثيين إلى الانسحاب من جميع المناطق التي استولوا عليها خلال الصراع الأخير، والتخلي عن الأسلحة التي استولوا عليها من المؤسسات العسكرية والأمنية، ووقف جميع الإجراءات الواقعة حصرياً على عاتق سلطة الحكومة اليمنية الشرعية، والتنفيذ الكامل لقرارات المجلس السابقة. ودعا جميع الأطراف اليمنية إلى استئناف عملية الانتقال السياسي التي تجري بوساطة الأمم المتحدة.[23] وقد عزز هذا القرار اليد الدبلوماسية للمملكة العربية السعودية. وبالإضافة إلى ذلك منحت الشرعية لأفراد عسكريين أمريكيين وبريطانيين يعملون مع القيادة السعودية ومركز التحكم للغارات الجوية للتحالف. لكن لم يكن لها تأثير فوري يذكر على القتال البري.

العواقب غير المقصودة للهجوم السعودي على اليمن

وبعد أن تدخل على عجل في الحرب الأهلية اليمنية الطويلة والمعقدة، وجد بن سلمان نفسه دون إستراتيجية واضحة أو خطة خروج[24]، ولكن حين سألته مجلة الإيكونوميست حول هذا الموضوع، في كانون الثاني-يناير 2016، أجاب بأن قرار المضي قدماً في التدخل قد اتخذ

من قبل مجلس الوزراء ومجلس الشؤون الأمنية والسياسية، ووافق عليه الملك سلمان، وأن كل ما فعله كوزير للدفاع هو تنفيذه[25]، وتعارض تصريحه مع حقيقة أن الأمير متعب بن عبد الله: قائد الحرس الوطني البالغ قوامه 100 ألف جندي، كان خارج البلاد في أواخر آذار-مارس، ولم يستشره بن سلمان، أو يبلغه سابقاً.

في البداية استبعد بن سلمان إرسال قوات سعودية إلى الأرض في اليمن. لقد أخفق في تعلم المبدأ الأساسي للإستراتيجية العسكرية: للسيطرة على الأراضي من العدو، يجب أن يتبع الحملةَ الجوية هجوم البري. ونتيجة لذلك فقد أدى تدخله العسكري في أفقر دولة في العالم العربي، حيث يبلغ نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي السنوي 1340 دولاراً، إلى تحولها إلى مستنقع وحشي يستنزف من الخزينة السعودية 6 مليارات دولار شهرياً.

كان بن سلمان واثقاً للغاية من تحقيق هدفه المعلن المتمثل في هزيمة تحالف الحوثي-صالح في غضون ستة أشهر، لدرجة أنه ذهب في أواخر حزيران-يونيو في إجازة مخطط لها سابقاً لمدة أسبوعين في جزر المالديف. وواجه أشتون كارتر، وزير الدفاع الأمريكي، الذي وافق على دعم الحملة التي تقودها السعودية في اليمن، صعوبة في الوصول إليه لأيام عدة خلال جزء من مدة إقامته.[26] استأجر بن سلمان جزيرة فيلا[*] الخاصة حصرياً مع فندقها الفاخر ذي النجوم الست، كما خصص جزيرة مجاورة كقاعدة لموظفيه الموسعين وفريق الدعم المكون من الحراس الشخصيين والمستشارين. وللترفيه ورد أنه استدعى مشاهير من الدرجة الأولى مثل شاكيرا، وريهانا، وجنيفر لوبيز، وقُدرت تكلفة إجازته المسرفة بمبلغ 8 ملايين دولار.[27]

وفي اليمن، وبعد أربعة أسابيع من الضربات الجوية المتواصلة، زعمت وزارة الدفاع السعودية أن تحركات التحالف «نجحت في القضاء على التهديد» الذي يهدد أمن المملكة والذي تشكله الصواريخ الباليستية والأسلحة الثقيلة التي يستخدمها الحوثيون وحلفاؤهم بقيادة صالح. تدخل السفن الحربية المصرية في منطقة عدن الحاسمة أعطى القوات الموالية لهادي ميزة لا رجعة فيها على الحوثيين وحلفائهم. ومع ذلك، في 27 نيسان-أبريل، أدت غارة جوية سعودية على قرية الشعف، على بعد عشرين ميلاً جنوب صعدة في شمال اليمن، إلى إسقاط قنبلة CBU-105 قاتلة مقدمة من الولايات المتحدة، وهي وحدة قنابل عنقودية تحتوي على 10 ذخائر فرعية شديدة الانفجار، مصممة للاستخدام على الأهداف العسكرية

(*) جزيرة فيلا (Velaa Private Island) هي منتجع فخم جداً يقع في أتول نونو في جزر المالديف، شمال العاصمة ماليه، ويمكن الوصول إليه بطائرة بحرية خلال نحو 45 دقيقة [المركز].

حصرياً، وعند سقوطها تنقسم هذه القنبلة إلى 10 ذخائر فرعية شديدة الانفجار تنتشر على مساحة كبيرة، وتنفجر عند ارتطامها بالأرض. وقد قامت منظمة هيومن رايتس ووتش -ومقرها نيويورك- بالتحقيق في تسجيل فيديو لبقايا القنبلة العنقودية المنشورة على موقع يوتيوب، وحددت موقعها بدقة.[28] ولاحقاً حذر الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون من أن استخدام القنابل العنقودية يمكن أن يرقى إلى مستوى جريمة حرب.

وبعد أن قصفت جميع الأهداف العسكرية والأمنية تقريباً، بدأت طائرات التحالف الحربية في ضرب المطارات المدنية، وقد دفع ذلك مكتب تنسيق الشؤون الإنسانية (أوتشا) إلى حث التحالف على وقف استهداف المطارات والموانئ البحرية لتسهيل وصول المساعدات الإنسانية إلى اليمن، ولكن النداء وقع على آذان صماء.

سياسياً ودبلوماسياً أصبح من الضروري للسعوديين وحلفائهم إعادة هادي إلى عدن؛ وهنا تدخل الجيش الإماراتي، بأمر من ولي العهد محمد بن زايد آل نهيان، في الخرق. وخططت بالتعاون مع وزارة الدفاع السعودية، لهبوط برمائي للواء إماراتي مجهز بالدبابات والمدفعية وطائرات الهليكوبتر الهجومية على طول شواطئ عدن. في 14 تموز-يوليو 2015 -وهو اليوم الذي وُقِّع فيه الاتفاق النووي الإيراني في فيينا- هبط السعوديون والإماراتيون على شواطئ عدن، ونجحوا في أقل من أسبوع، إلى جانب القوات المحلية الموالية لهادي والمجهزة في وقت سابق بأسلحة ملقاة جواً، في طرد معظم القوات المناهضة لهادي من عدن. وفي 22 تموز-يوليو كانت أول طائرة وصلت إلى مطار عدن المعاد فتحه هي طائرة نقل عسكرية سعودية تحمل مساعدات وأسلحة.[29] وبحلول 26 تموز-يوليو سيطر التحالف الذي تقوده السعودية على عدن بأكملها.

ومن قبيل الصدفة قاد الملك سلمان في ذلك اليوم فرقة مكونة من 1000 من أقاربه، والموظفين، والمسؤولين العسكريين، وعائلاتهم لقضاء عطلة مدتها ثلاثة أسابيع بتكلفة 100 مليون دولار، وكانت وجهته شاطئ فالوريس الرملي على طول البحر الأبيض المتوسط في جنوبي فرنسا. وبينما كانت الدوائر الداخلية لسلمان وابنه المفضل محمد تشغل قصر الملك الضخم المطل على البحر، أقام حوالي 700 ضيف في فنادق فخمة في مدينة كان، وأغلقت السلطات الفرنسية الشاطئ للسماح للملك سلمان وولي ولي العهد بقضاء إجازة على انفراد. ومُنع أفراد الجمهور من الاقتراب لمسافة 300 متر (985 قدماً) من فيلا الملك عن طريق البحر. ووقعت عين بن سلمان من خلال مسح البحر، دون عائق، باستخدام منظاره العالي القوة، على يخت يبلغ طوله 440 قدماً على مسافة بعيدة، فأعجب به على الفور، وأرسل

مساعداً لشرائه، واسمه سيرين، ومملوك ليوري شيفلر: قطب الفودكا الروسي. وتمت الصفقة في غضون ساعات، بسعر 420 مليون يورو (494 مليون دولار)، وفقاً لتقرير استقصائي أجرته صحيفة نيويورك تايمز في كانون الأول-ديسمبر 2017. كان مصدرها كنزاً من السجلات من 13.4 مليون ملف، سُرِّبت في 5 تشرين الثاني-نوفمبر 2017، نشأت مع شركة أبليبي، وهي شركة محاماة في إقليم برمودا البريطاني فيما وراء البحار، تسمى أوراق الجنة. كشفت هذه الأسرار الخفية لبعض أغنى الأفراد والشركات في العالم. وعلى وجه التحديد، من بين أمور أخرى، أظهرت هذه الملفات كيف عملت مجموعات من المحامين والمصرفيين والمحاسبين في ألمانيا وبرمودا وجزيرة مان بسرعة لنقل ملكية اليخت إلى شركةEight Investment (Company Limited). وكان يديرها بدر العساكر: رئيس مؤسسة بن سلمان الشخصية.[30] قام البائع الروسي بحزم أمتعته وغادر بعد فترة وجيزة. وكان هذا مثالاً دراماتياً على طبيعة بن سلمان المندفعة، وشهيته الكبيرة لأسلوب الحياة الفاخر الفاحش.

وبينما كان مهندسو الهجوم العسكري الذي تقوده السعودية ينغمسون في خيالاتهم على الشواطئ المعتدلة في جنوبي فرنسا، تحول تركيز القتال البري في اليمن إلى محافظة تعز الجنوبية الغربية على طول البحر الأحمر، حيث تطل أقصى نقطة في الجنوب على مضيق المندب الإستراتيجي، أو باب المندب (في العربية: بوابة الدموع)، ومحافظة مأرب الغنية بالنفط شرق صنعاء.

في الوقت نفسه، وباستخدام الطرق البرية من المملكة العربية السعودية، قام التحالف ببناء إمدادات عسكرية في صافر في أقصى نهاية محافظة مأرب على شكل خنجر. وفي آب-أغسطس استعد معسكرها العسكري الضخم هناك لاستخدام مأرب كنقطة انطلاق لطرد الحوثيين من صنعاء، ولكن خططها أخفقت في الرابع من أيلول-سبتمبر، ففي ذلك اليوم ضرب الحوثيون، الذين يسيطرون على خمس المحافظة، معسكر صافر التابع للتحالف بصاروخ باليستي قصير المدى يعود إلى الحقبة السوفيتية، ودمروا مستودع الأسلحة، مما أسفر عن مقتل خمسة وأربعين إماراتياً وعشرة سعوديين وخمسة جنود بحرينيين.[31] فردت حكومة الإمارات العربية المتحدة الغاضبة بسلسلة من الهجمات العقابية على أهداف العدو، لكن التحالف قرر عدم إحياء خططه السابقة.

يتناقض تدفق الأسلحة والذخيرة من قبل السعوديين والإماراتيين والكويتيين إلى معسكر هادي بشكل حاد مع الطرق السرية التي اتبعتها إيران لتجديد الترسانات الأصغر بكثير للقوات المناهضة لهادي، حيث حُظِرت شحنات الأسلحة بموجب قرار مجلس الأمن الدولي

رقم 2216. ولجأت إلى استخدام المسارات الصحراوية في عُمان لإرسال أسلحة لحلفائها بعد أن هُرِّبت عبر مضيق هرمز الضيق بواسطة السفن البحرية الصغيرة، أو المراكب الشراعية، إلى الأراضي العُمانية.

انتهت مهلة ستة الأشهر التي ذكرها بن سلمان لطرد تحالف الحوثي-صالح من صنعاء في منتصف أيلول-سبتمبر 2015 دون أي علامة على النجاح في الأفق. وحتى وصول هادي إلى عدن خلال ذلك الشهر تبين أنه مجرد محطة توقف في طريقه إلى نيويورك لإلقاء كلمة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة التي اعترفت به كرئيس للدولة اليمنية، ولم يعد إلى عدن، بل إلى الرياض، حيث توقف بن سلمان، الذي كان يتباهى في البداية بقيادته العسكرية من خلال لقاء الجنرالات في الميدان مع الصحافة، عن القيام بذلك.

لقد شجع إخفاق بن سلمان في اليمن أفراد العائلة المالكة، كباراً وصغاراً، الذين رفضوا أسلوب حياته الفاخر بشكل فاضح، ولخص أحدهم أفكاره باللغة العربية، ونشرها على الإنترنت في شكل رسائل مفتوحة. ومن بين عشرات الآلاف الذين قرؤوا هذه الوثائق كان الصحفي هيو مايلز المقيم في القاهرة، والذي يجيد اللغة العربية، قد نشر ملخصاً في صحيفة الغارديان في 28 أيلول- سبتمبر. وزعمت الرسالة الأولى أن «الملك ليس في حالة مستقرة وفي الواقع ابن الملك [محمد بن سلمان] هو الذي يحكم المملكة»، وأشارت إلى أساليب التبذير التي ينتهجها بن سلمان وسياسته الخارجية المتهورة، والتي تضمنت شن غارات جوية «ضد شعب أعزل» في اليمن. ودعت أبناء ابن سعود الثلاثة عشر الباقين على قيد الحياة -وتحديداً الأمراء طلال، وتركي، وأحمد- إلى الاتحاد وإزالة القيادة في انقلاب القصر، قبل اختيار حكومة جديدة من داخل العائلة المالكة. وكشفت الوثيقة الثانية أن «أربعة أو ربما خمسة من أعمامي [أي أعمام صاحب البلاغ] سيجتمعون قريباً لمناقشة الرسائل. إنهم يضعون خطة مع الكثير من أبناء الإخوة وهذا سيفتح الباب. الكثير من أفراد الجيل الثاني [من آل سعود] قلقون للغاية». وادعى الكاتب الملكي أنه تلقى دعماً واسع النطاق من داخل العائلة المالكة والمجتمع ككل. ومع ذلك، لم يستمر سوى فرد واحد آخر من أفراد العائلة المالكة في تأييد دعوته علناً للقيام بانقلاب في القصر.[32]

وفي نهاية المطاف ثبت أن نشر رسائل الاحتجاج عبر الإنترنت كان ممارسة عقيمة. إذ إن عزل الملك الجالس عن العرش كان بمثابة مهمة صعبة للغاية حتى عندما كان الملك وولي عهده منخرطين في صراع شامل على السلطة كما كان الحال مع الملك سعود وولي العهد الأمير فيصل، كما روينا في فصل سابق.[33] وقبل أربعة أيام، في 24 أيلول-سبتمبر تحول انتباه

العالم إلى أسوأ حادث تدافع على الإطلاق أثناء شعيرة رجم الشيطان أثناء موسم الحج في منى.

أسوأ كوارث الحج تغذي غضب إيران

أودى التدافع بحياة 2411 شخصاً -كما ذكرت وكالة أسوشيتد برس، استناداً إلى تقارير إعلامية وتعليقات رسمية من ست وثلاثين دولة من أصل أكثر من 180 دولة أرسلت مواطنيها للحج- وهذا الرقم يساوي أكثر من ثلاثة أضعاف الرقم الرسمي البالغ 769.[34] وقد حدث التدافع عندما اصطدمت موجتان من الحجاج المسافرين في اتجاهين متعاكسين، وأدى إخفاق السلطات في تقديم تفسير موثوق للحادث إلى ظهور تكهنات مستنيرة. وقال محمد الجعفري: مستشار شركة الحج والعمرة، ومقرها لندن، في مقابلته مع هيئة الإذاعة البريطانية (BBC): «بالحديث مع الحجاج على الأرض أمس، فالسبب الرئيس لهذا الحادث هو أن الملك في قصره بمنًى كان يستقبل كبار الشخصيات [المحلية والأجنبية]، ولهذا السبب أغلقوا مدخلين يؤديان إلى مكان الرجم». وأضاف الجعفري: «لم يتمكن الناس من المضي قدماً في هذين الطريقين. لديك سيل من الناس يدخلون، وإذا أوقفت هذا التدفق، وتزايد عدد السكان، فسيقع حادث في النهاية. إنه خطأ الحكومة السعودية لأنه في كل مرة يأتي فيها أمير يقومون بإغلاق الطرق، ولا يفكرون في الكارثة التي تنتظر الحدوث». وضمت الأمواج المتصادمة حجاجاً من إيران ومالي ونيجيريا ومصر.[35]

فقدت إيران أعلى عدد من الوفيات، وهو 464 حالة، تليها مالي (312)، فنيجيريا (274)، فمصر (190). ودعت طهران على الفور إلى تشكيل لجنة إسلامية دولية لتقصي الحقائق بشأن هذه المأساة، ولكن الملك سلمان تجاهل هذا الاقتراح، وبدلاً من ذلك أمر بن نايف بإجراء تحقيق وتقديم تقرير، ففعل ذلك في الوقت المناسب. لكن هذه الوثيقة ستظل سراً من أسرار الدولة مثل كثير من الأسرار الأخرى. وعندما طرحت إيران فكرة نقل إدارة المدن المقدسة في مكة والمدينة من المملكة العربية السعودية إلى شكل ما من أشكال الإشراف الإسلامي الدولي، سارعت الرياض إلى رفضها.[36]

وفي أيار-مايو 2016 أعلنت الحكومة السعودية أنه سيمنع الإيرانيون من أداء فريضة الحج المقررة في أيلول-سبتمبر لأن إيران أخفقت في التوقيع على مذكرة تفاهم بشأن الحج بشأن الخدمات اللوجستية والأمن، وقالت الرياض: إن هناك اتفاقاً على إصدار تأشيرات إلكترونية في غياب البعثات الدبلوماسية السعودية في إيران، مضيفة أن طهران قدّمت مطالب «غير

مقبولة»، بما في ذلك الحق في تنظيم تظاهرات «من شأنها إحداث الفوضى». وعشية موسم الحج أصدر آية الله علي خامنئي إدانة شديدة اللهجة لآل سعود على موقعه على الإنترنت. وكتب: «حكام السعودية... أناس مخزيون ومضللون يعتقدون أن بقاءهم على عرش القمع يعتمد على الدفاع عن قوى العالم المتغطرسة، وعلى التحالفات مع الصهيونية والولايات المتحدة». واتهمهم بتحويل أنفسهم إلى «شياطين صغيرة وضئيلة»، وذكر أنهم «يرتجفون خوفاً من تعريض مصالح الشيطان الأكبر (أمريكا) للخطر»، وأضاف: «بسبب السلوك القمعي لحكام السعودية تجاه ضيوف الله يجب على العالم الإسلامي أن يعيد النظر بشكل جذري في إدارة الحرمين الشريفين ومسألة الحج... يجب على العالم الإسلامي، بما في ذلك الحكومات والشعوب الإسلامية، أن يتعرف على الحكام السعوديين، وأن يفهم بشكل صحيح طبيعتهم المادية الكفيفة وغير المؤمنة والتابعة».[37] وقد عززت حدة هجوم خامنئي أيدي المتشددين بين صناع السياسة السعوديين، مثل بن سلمان.

وعلى عكس كارثة الحج الأخير فقد ثبت أن كارثة عام 2016 كانت كذلك قضية هادئة. وبوصفه وزيراً للداخلية كان بن نايف يشعر بالفخر الذي يستحقه على أمل أن يساعد أداؤه في تثبيت منصبه كوريث للعرش.

أصداء الاحتجاجات الشيعية السعودية في إيران

ومن غير المستغرب أنه، عند التفكير في شن ضربات جوية على الحوثيين الشيعة في اليمن، لم يفكر أي من المنافسين على القمة في الرياض، بوصفهما وهّابيين مخلصين، في تداعيات التدخل العسكري السعودي في اليمن على الشيعة في المملكة. وقد أدان الشيعة السعوديون في المنطقة الشرقية الحرب الخاطفة التي قادتها السعودية، والتي أُطلق عليها اسم عملية عاصفة الحزم، على الحوثيين، وتراجعت احتجاجاتهم السابقة، التي أشعلتها الأحداث التي وقعت في البحرين المجاورة في شباط-فبراير وآذار-مارس 2011. وبعد بضعة أشهر بدأت الحكومة في اعتقال الناشطين الشيعة؛ وهو ما أثار المشاعر بين الشيعة. وفي أوائل تشرين الأول-أكتوبر أطلقت قوات الأمن السعودية الذخيرة الحية لتفريق المتظاهرين في العوامية، وهي مستوطنة تضم 30 ألف شيعي يقودهم الشيخ نمر باقر النمر ذو اللحية الكثيفة والعمامة البيضاء، والذي كان يحمل لقب آية الله في التسلسل الهرمي الديني الشيعي. وبينما أدان استخدام الأسلحة النارية ضد المدنيين العزل، أعلن أن «سلاح الكلمة أقوى من قوة الرصاص»، وقرن انتقاداته لآل سعود بالمطالبة بإجراء انتخابات برلمانية. وخرجت مسيرات احتجاجية أسبوعية بعد صلاة الجمعة في القرى الشيعية بمنطقة القطيف.

وفي أواخر تشرين الثاني-نوفمبر وأوائل كانون الأول-ديسمبر قتلت قوات الأمن بالرصاص أربعة شبان من الشيعة، وتحولت جنازاتهم إلى أكبر مظاهرات شهدتها المنطقة الشرقية منذ ثلاثة عقود. وفي أوائل كانون الثاني-يناير ندد النمر بقائمة تضم 23 ناشطاً مزعوماً نشرتها وزارة الداخلية، وحذر من أن الحكومة ستُطاح إذا واصلت حملتها القمعية المستمرة منذ شهر ضد المتظاهرين.[38]

وضعت السلطات النمر تحت المراقبة على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع، حيث كانت سيارة الشرطة تتعقب أي مركبة يستقلها. وفي 6 تموز-يوليو، عندما كان النمر في طريقه من مزرعته إلى منزل شقيقه في القطيف، حاولت الشرطة اعتقاله هو ورفاقه من الركاب، فأصيب النمر برصاصة في ساقه في المشاجرة التي تلت ذلك، وجرى اعتقاله. ونشر نشطاء صوراً على الإنترنت لرجل ذي لحية رمادية عرفوا أنه نمر داخل سيارة، وكان مغطًى بما يبدو أنه ملاءة بيضاء ملطخة بالدماء. وفي المظاهرة الاحتجاجية اللاحقة قُتل اثنان من المشاركين برصاص الشرطة. وفي 11 تموز-يوليو خرج آلاف الشيعة لحضور جنازات القتلى، وحمل المتظاهرون الأعلام البحرينية، وهتفوا «القطيف والبحرين شعب واحد»، و«يسقط آل سعود»، و«يسقط محمد بن فهد»، في إشارة إلى أمير المنطقة الشرقية.[39]

احتُجز النمر لمدة ثمانية أشهر قبل أن يُتهم بثلاث وثلاثين جريمة، بما في ذلك «عصيان ولي الأمر» و«التحريض على الفتنة الطائفية» و«تشجيع المظاهرات وقيادتها والمشاركة فيها». وفي 23 كانون الأول-ديسمبر 2013 أبلغ محاميه المحكمة الجنائية الخاصة أن المتهم لم يتمكن من الرد على التهم الموجهة إليه لأنه لم يكن لديه قلم وورقة. لم يُبلغ محاميه ولا عائلته قبل الجلسة الأخيرة للمحكمة في 22 نيسان-أبريل 2014. وحُكم على النمر، في 15 تشرين الأول-أكتوبر 2014، بالإعدام بتهمة «السعي إلى "التدخل الأجنبي" في [المملكة العربية السعودية]، و"عصيان" حكامها وحمل السلاح في مواجهة القوات الأمنية». وبعد أن رُفض استئنافه أمام محكمة الاستئناف في آذار-مارس في عام 2015، أدان كبار الشخصيات الدينية الشيعية من العراق وإيران ولبنان حكم الإعدام.

ونظّم المسلمون الشيعة في جميع أنحاء العالم مسيرات سلمية، وقدموا التماسات إلى الأمين العام للأمم المتحدة لمنع إعدام النمر، وخرجت مظاهرات في الشوارع في المملكة العربية السعودية، والبحرين، وإيران، والهند، والعراق، ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح! وفي 25 تشرين الأول-أكتوبر 2015 أيدت المحكمة الدينية العليا في المملكة العربية السعودية حكم الإعدام الصادر بحق النمر، وينطبق حكمها أيضاً على ستة نشطاء شيعة

آخرين. وكان من المقرر قطع رؤوسهم، إلى جانب إرهابيي القاعدة، في ساحة عامة. وحذر نائب وزير الخارجية الإيراني: حسين أمير عبد اللهيان، في مقابلة على التلفاز الرسمي من أن «إعدام الشيخ نمر سيعني أن السعودية ستواجه تكلفة باهظة».[40] وقد تُرك الآن للملك سلمان تخفيف حكم إعدام النمر. ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا صدرت توصية بهذا المعنى من وزير الداخلية الأمير محمد ابن نايف، وكان ذلك غير مرجح البتة لأنه في تنافسه الكامن، ولكن الحقيقي، مع بن سلمان لم يكن بإمكانه أن يُنظر إليه على أنه وهابي أقل حماسة من ابن عمه الأصغر.

وارتفعت التوترات الإقليمية بشكل حاد في 2 كانون الثاني-يناير 2016 عندما أضافت الحكومة السعودية النمر وثلاثة معارضين شيعة آخرين إلى مجموعة من ثلاثة وأربعين من مقاتلي القاعدة الذين ارتكبوا أعمالاً إرهابية عنيفة، وقُطعت رؤوس الإرهابيين، كما أعدم المنشقّون الشيعة، وقد دفنوا جميعاً في قبور مجهولة. وغرّد خامنئي الغاضب قائلاً: «هذا العالِم المضطهد لم يدعُ الناس إلى الحركة المسلحة، ولم يشارك في مؤامرات سرية. إن الشيء الوحيد الذي قام به الشيخ نمر كان انتقاداً علنياً»، مضيفاً أن «أن عواقب إراقة دم هذا الشهيد المظلوم ظلماً ستحلّ بسرعة، وأن الانتقام الالهي سيطال الساسة السعوديين». وبينما أدان الحرس الثوري الإسلامي "العمل الوحشي" الذي ارتكبته المملكة العربية السعودية، والذي ينتمي إلى "العصور الوسطى"، بإعدام النمر، توقّع "سقوط" النظام الملكي السعودي، لذا استدعت وزارة الخارجية الإيرانية القائم بالأعمال السعودي في طهران احتجاجاً على ذلك. وتقدمت وزارة الخارجية السعودية بشكوى إلى المبعوث الإيراني في الرياض بشأن "تدخل طهران السافر" في الشؤون الداخلية للمملكة.

ونددت الصحف الإيرانية بشدة بإعدام النمر، فقد عبرت صحيفة الشرق الإصلاحية عن خشيتها من أن يؤدي هذا العمل "غير المسؤول" إلى تفاقم التوترات الطائفية في المنطقة، ونصحت الحكومة الإيرانية بعدم الانجرار إلى "لعبة الرياض الخطيرة". وعلى الجانب الآخر، أعلنت الرياض أنه لا يجوز التهاون مع «التحريض على الأذى أو الفتنة» بغض النظر عن انتماءات الجاني.

ووصف آية الله العظمى علي السيستاني، من العراق، عملية الإعدام بأنها "عدوان ظالم". وفي بيروت إتهم حسن نصر الله: زعيم حركة حزب الله، آل سعود بمحاولة إثارة حرب أهلية بين المسلمين السُنّة والشيعة في جميع أنحاء العالم. وفي واشنطن، وفي انعكاس لآراء الرئيس أوباما، ناشد المتحدث باسم وزارة الخارجية جون كيربي الحكومة السعودية احترام

وحماية حقوق الإنسان، وضمان إجراءات قضائية عادلة وشفافة، وحثها على السماح بالتعبير السلمي عن المعارضة ومضاعفة الجهود، جنباً إلى جنب مع القادة الآخرين في المنطقة، للحد من التوترات الإقليمية.[41]

لقد خسرت إيران أي أرضية أخلاقية صُلبة اكتسبتها بسبب عناد المملكة السعودية عندما هاجم حشد غاضب في طهران السفارة السعودية، ونهبوها وأضرموا النار في جزء منها. ورداً على ذلك قطعت الرياض علاقاتها الدبلوماسية مع إيران، في حين لجأت حكومة حسن روحاني إلى تحديد الأضرار، وأقالت الجنرال حسن عربسورخي: قائد القوات الخاصة في الشرطة في طهران، وصفر علي باراتلو، وهو مسؤول أمني كبير، لإخفاقهما في وقف نهب السفارة السعودية، واعتقلت على الفور أربعين من مثيري الشغب المشتبه بهم، وارتفع العدد الإجمالي إلى 100 في وقت لاحق.[42]

وبحلول ذلك الوقت كان وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل قد توفي، وجرت ترقية عادل الجبير، وهو من عامة الناس، ليخلفه في تموز-يوليو 2015؛ وقد وفّر ذلك لـ بن سلمان نفوذاً أكبر في تحديد السياسة التي يجب على المملكة اتباعها في الحرب الأهلية في سورية. لقد اختار رفع المخاطر ضد بشار الأسد.

تحرك بن سلمان في سورية يحث بوتين على دعم الأسد

ما إن وصف أوباما تنظيم الدولة الإسلامية بأنه العدو الأول لأمريكا في حزيران-يونيو 2014، حتى تضاءل اهتمام إدارته بإطاحة الأسد، وحث دول الخليج على مساعدة الحكومة العراقية بإرسال قوات مقاتلة إلى العراق، ولكنهم تجاهلوا دعوته. وبحلول أواخر عام 2014 اتضح لصانعي السياسة الأمريكيين أن البديل الواقعي الوحيد للأسد هو نظام يهيمن عليه المتطرفون الجهاديون؛ فلا عجب إذن أن برنامج أوباما، الذي تبلغ تكلفته 500 مليون دولار لتدريب مقاتلي المعارضة الملتزمين بإنشاء نظام سياسي ديمقراطي في سورية، والذي جرى تصوره في منتصف عام 2014، لم يحرز تقدماً يذكر. وكان عدد المتطوعين، الذي تم فحصه بعناية، قليلاً، حيث أصرت وزارة الخارجية على قتال داعش بوصفه العدو الرئيسي، وكانت هذه أخباراً مخيبة لآمال السعوديين الذين اشتكوا من أن البيت الأبيض في عهد أوباما، الذي يحتاج إلى دعم إيران ضد داعش في العراق، ويأمل في التوصل إلى اتفاق بشأن برنامجها النووي، يفقد اهتمامه بإزالة النظام العميل لإيران في دمشق.

وفي المنطقة وافق الزعيم التركي رجب طيب أردوغان على تفسير الرياض خلال اجتماعه

مع الملك سلمان في الرياض في 2 آذار-مارس 2015، وقررا أن مبادرة قوية ومنسقة يجب أن تأتي من القوى الإقليمية لإطاحة الأسد. وكان بن سلمان على استعداد تام لمنح الرياض دوراً معززاً في الحرب الأهلية السورية؛ وكانت النتيجة إنشاء جيش الفتح، أو جيش النصر -وهو هيكل قيادي لسبع جماعات جهادية في سورية- في 24 آذار-مارس تحت قيادة رجل الدين السعودي عبد الله المحيسني، وكان من بينها جبهة النصرة، التابعة لتنظيم القاعدة، وأحرار الشام التي تشترك في الفكر السلفي لتنظيم القاعدة. وقد ساهمت هاتان المجموعتان معاً بحوالي 90 % من مقاتلي جيش الفتح. وقد أثبت هذا التحالف فعاليته الكبيرة.

وموّلت الرياض شراء صواريخ تاو المضادة للدبابات التي اشترتها وكالة المخابرات المركزية، والتي غذت إلى حد كبير هجوم المتمردين ضد الأسد في الصيف. وحقق جيش الفتح توغلاً في الأراضي التي يسيطر عليها النظام، واستولى على إدلب وبلدات وقرًى أخرى في المحافظة المجاورة لتركيا. وقدّمت جبهة النصرة أكثر من 3000 مقاتل متمرسين في القتال للهجوم، الأمر الذي جعل المتمردين في وضع يسمح لهم بشن هجوم على اللاذقية، معقل نظام الأسد[43]؛ وهذا الأمر أثار قلق الحكومة في دمشق.

وفي مواجهة ضربات المعارضة المكثفة وجد الجيش السوري والميليشيات المساعدة له: قوات الدفاع الوطني، أنفسهم يفتقرون بشكل متزايد إلى القوة البشرية، وأصبح التهرّب من الاستدعاء أمراً شائعاً، حيث يقدِّر المرصد السوري لحقوق الإنسان عدد الغائبين بـ 70 ألفاً. وأدت الوفيات والانشقاقات والتهرب من التجنيد إلى تقليص عدد الجيش السوري، الذي كان قوامه 300 ألف جندي، في آذار-مارس 2011، إلى النصف. ومن بين ما يقدر بنحو 230 ألف شخص قتلوا في الحرب، كان أكثر من ثلثهم من الجنود ورجال الميليشيات الداعمين لهم. وكانت هذه هي الخلفية التي اعترف فيها الأسد في خطاب متلفز أمام جمهور مختار في العاصمة في 25 تموز-يوليو 2015 بأن جيشه اضطر إلى التخلي عن بعض المناطق من أجل الاحتفاظ بمناطق أخرى في الحرب.[44] ومن الواضح أن التعزيزات التي أرسلتها إيران وحزب الله اللبناني أثبتت أنها غير كافية لتغطية النقص في القوة البشرية، فناشد الأسد روسيا تقديم مساعدة عسكرية عاجلة، وكذلك فعلت الحكومة الإيرانية. وكان الرئيس الروسي فلاديمير بوتين قد عقد العزم على ألا يسمح بانهيار النظام السوري، كيلا يفقد الكرملين موطئ قدمه الأخير على ساحل البحر الأبيض المتوسط في طرطوس. وقرر المخططون العسكريون الروس ملء الفجوة الهائلة التي خلفتها القوات الجوية السورية المتهالكة، وتعزيز دفاعاتها الجوية، وتعزيز ترسانتها المستنفدة من الدبابات والمركبات المدرعة. وللقيام بذلك حولوا أحد مواطئ

قدم روسيا على أرض أجنبي: قاعدة حميميم الجوية بالقرب من ميناء اللاذقية، إلى قاعدة عمليات أمامية، في منتصف أيلول-سبتمبر، وشحنوا إليها طائرات حربية، ومروحيات هجومية، ودبابات، وطائرات حربية، وسلاح مدفعية، وناقلات جنود مدرعة، كما نشر الكرملين أيضاً صواريخ أرض جو الأكثر تقدماً من طراز إس-400 هناك.[45] ولكن بوتين استبعد إرسال قوات قتالية إلى سورية. وبدأ التدخل العسكري الروسي رسمياً في الحرب الأهلية السورية في 30 أيلول-سبتمبر 2015. وبلغ ذروته، حيث شارك فيه حوالي 5000 من أفراد القوات الجوية الروسية.

وقصفت الطائرات الحربية الروسية، بالتنسيق مع القوات البرية الموالية للأسد، أهدافاً لتنظيم داعش والعناصر الجهادية التابعة لجيش الفتح. وبحلول نهاية عام 2015 بدأ مشهد ساحة المعركة يتحول لصالح الأسد، ويرجع ذلك أساساً إلى افتقار مقاتلي المعارضة إلى الصواريخ المضادة للطائرات. ولم يتمكن داعموهم الأجانب من تزويدهم بهذه الأسلحة في مواجهة المعارضة المتواصلة من أوباما الذي سوغ معارضته بأنه إذا حصلت فصائل المتمردين السوريين على هذه الصواريخ، فإنها قد تقع في أيدي الإرهابيين الجهاديين الذين سينتهي بهم الأمر باستهداف الطائرات المدنية مما يؤدي إلى تأثير مدمر.

على مدى السنوات القليلة الماضية أخفقت محاولة الأمم المتحدة لصنع السلام في سورية؛ ويرجع ذلك أساساً إلى استبعاد إيران من المحادثات المتعددة الأطراف، وذلك بإصرار من المملكة العربية السعودية. وبعد انهيار مؤتمرين من هذا القبيل في جنيف كان من المقرر عقد مؤتمر السلام الثالث برعاية الأمم المتحدة في جنيف في 29 كانون الثاني-يناير 2016. ومن أجل تشكيل جبهة قوية مناهضة للأسد عقد بن سلمان، بالتعاون مع الجبير، مؤتمراً ضم جماعات المعارضة كلها باستثناء جبهة النصرة، في 10 كانون الأول-ديسمبر، واستقبل الملك سلمان الوفود في الرياض. وبعد يومين أصدر الحاضرون بياناً دعا فيه الأسد إلى التنحي مع بداية "فترة انتقالية". ودعم البيان «آلية ديمقراطية من خلال نظام تعددي يمثل جميع شرائح الشعب السوري لا يميز على أساس ديني أو طائفي أو عرقي». وانسحب مندوبو أحرار الشام -وهي ميليشيا إسلامية قوامها 20 ألف مقاتل- عندما رفض معظم الفصائل السياسية المشاركة رأيهم بأنه لا يمكن أن تكون هناك تسوية نهائية دون أن تعتمد دولة ما بعد الأسد على الشريعة الإسلامية.[46] وعلى أية حال، أخفق مؤتمر السلام اللاحق الذي رعته الأمم المتحدة في جنيف عندما رفض مندوبو الحكومة السورية فكرة تنحي الأسد قبل تشكيل سلطة انتقالية.

وفي التحليل النهائي تعكس المحادثات على طاولة المفاوضات توازن القوى في ساحة المعركة. وهناك، وبدعم من التدخل العسكري الروسي العلني إلى جانب الدعم المتزايد للمشاة السورية من قبل إيران وحزب الله اللبناني، حققت حكومة الأسد مكاسب مطردة. وبحلول أيلول-سبتمبر 2016 عادت معظم المدن السورية الكبرى إلى أيدي الحكومة، وتعرض شرق حلب الذي يسيطر عليه المتمردون للهجوم.

وعلى الجبهة الدبلوماسية، في أعقاب التدخل الروسي القوي في سورية، تحول ميزان القوى في المنطقة. وفي الفترة بين تشرين الأول-أكتوبر 2015 وآب-وأغسطس 2016 أجرى كبار المسؤولين من المملكة العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، وقطر، والبحرين، وتركيا محادثات مع بوتين. وأول من فعل ذلك، في تشرين الأول-أكتوبر، كان بن سلمان، إذ التقى بوتين في منزل الرئيس الروسي في منتجع سوتشي على البحر الأسود. واتفق الاثنان على أنهما يتقاسمان الهدف المشترك المتمثل في منع «الخلافة الإرهابية [داعش] من أن تكون لها اليد العليا». وعندما عبّر الجبير عن قلقه بشأن الجماعات المتمردة التي يستهدفها الروس، أعرب بوتين عن استعداده لتبادل المعلومات الاستخبارية، وهو ما يعني التعاون المستقبلي بين جيوشهما وأجهزتهما الأمنية.[47] في وقت لاحق من ذلك اليوم زار الشيخ محمد آل نهيان: نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة الإماراتية، بوتين، وقال: «أستطيع أن أقول: إن روسيا تؤدي دوراً جدياً للغاية في شؤون الشرق الأوسط»، مضيفاً أنه «ليس هناك شك في أن لدينا علاقة مميزة [معها]». وذهب حاكم قطر، الأمير تميم بن حمد آل ثاني، إلى أبعد من ذلك بعد لقائه مع بوتين في الكرملين في كانون الثاني-يناير 2016 إذ قال: «تلعب روسيا دوراً رئيسياً عندما يتعلق الأمر بالاستقرار في العالم». وإلى جانب الأردن كانت قطر تزود وكالة المخابرات المركزية بقواعد لتدريب المتمردين المناهضين للأسد وتسليحهم.

وبعد شهر كان الزعيم الخليجي التالي الذي زار بوتين في سوتشي هو الملك حمد بن عيسى آل خليفة، ملك البحرين، الذي استضاف الأسطول الخامس للبحرية الأمريكية منذ عام 1971، وقدّم "سيف النصر" من الفولاذ الدمشقي للزعيم الروسي. وبعد محادثاتهما أفاد وزير الخارجية سيرغي لافروف أن البلدين اتفقا على تعزيز العلاقات الاقتصادية والعسكرية.[48]

وفي 9 آب-أغسطس توجه الرئيس التركي أردوغان إلى سان بطرسبرج لزيارة "صديقي العزيز" بوتين؛ وكانت علاقاتهما قد تدهورت إلى أدنى مستوياتها عندما أسقط الأتراك طائرة حربية روسية فوق شمال سورية في تشرين الثاني-نوفمبر 2015، ولكن في 15 تموز-يوليو التالي كان بوتين أول زعيم أجنبي يتصل بأردوغان لتهنئته على إجهاض محاولة انقلاب عسكري،

وهو أمر لم يفعله أي زعيم غربي. وأوضح بوتين بعد ثلاث ساعات من المحادثات مع أردوغان: «نحن نعارض دائماً بشكل قاطع أي محاولات للقيام بنشاط مخالف للدستور».[49] ومن خلال قيامه بذلك قدّم عن غير قصد تفسيراً لدعمه غير المشروط السابق لحكومة الأسد السورية الدستورية. واتفق أردوغان وبوتين على إصلاح علاقاتهما الاقتصادية المتوترة. وفي انعكاس لافت للنظر توقف أردوغان عن دعوة الأسد إلى التنحي. ولكن، من الناحية العملية، لم يكن لهذه اللفتة أي أهمية بالنسبة للرئيس السوري. وكما حدث، في هذا الوقت تقريباً كان يخطط لخطوة جريئة في الحرب.

استعادة الأسد لشرق حلب، نقطة تحول

وفي أوائل أيلول-سبتمبر قررت حكومة الأسد استعادة السيطرة على شرقي حلب الذي يسيطر عليه المتمردون، والذي يضم ربع مليون مدني (مقارنة بـ 1.5 مليون في غربي حلب الذي تسيطر عليه الحكومة)، بالتنسيق مع العراق وإيران. ومن أجل ذلك سافر أكثر من 1000 مقاتل شيعي عراقي من العراق إلى ضواحي حلب للانضمام إلى 4000 مقاتل شيعي آخرين، دربتهم إيران، وكانوا هناك بالفعل، وقد شكلوا معاً نصف القوة البرية لنظام الأسد التي يبلغ قوامها 10 آلاف جندي.[50] وبدأ هجوم الجيش السوري في 22 أيلول-سبتمبر، وذلك بالتنسيق مع القوات الجوية الروسية، واستولى على نحو سدس شرقي حلب.

ومع تصميمهم على الاحتفاظ بسيطرتهم على منطقة حلب الحضرية ذات الرمزية العالية، منع قادة المتمردين المدنيين من الفرار تحت وطأة الموت من أجل منع الغارات الجوية المدمرة التي تشنها الطائرات الحربية الروسية، ولكن الأسد كان عازماً على استعادة شرقي حلب. وفي مقابلته مع داريا أسلاموفا من صحيفة كومسومولسكايا برافدا[51] -ومقرها موسكو- في 12 تشرين الأول-أكتوبر، تحدث عن "تطهير" حلب المحاصرة، وقال: «ستكون نقطة انطلاق، كمدينة كبيرة، للانتقال إلى مناطق أخرى، لتحرير مناطق أخرى من الإرهابيين. هذه هي أهمية حلب الآن». وأضاف أن ذلك سيوفر مكاسب سياسية وإستراتيجية مهمة لنظامه. وكشف أن السعوديين قالوا له في وقت مبكر: «إذا ابتعدت عن إيران، وأعلنت قطع جميع أنواع العلاقات معها، فسوف نساعدك. بسيطة جداً ومباشرة جداً إلى هذه النقطة».[52]

وقد أظهر ذلك أموراً منها إخفاق حكام السعودية في فهم طول العلاقات بين دمشق وطهران وعمقها التي يعود تاريخها إلى ثورة 1979 في إيران؛ فقد كانوا معتادين على ممارسة دبلوماسية دفاتر الشيكات إلى الحد الذي جعلهم غير قادرين على إدراك وجود ولاءات معينة قائمة على مصالح وطنية عميقة الجذور، ولا يمكن شراؤها بالمال.

وفي شرقي حلب كان المقاتلون المتمردون، الذين يُقدر عددهم بـ 8000 إلى 10000، يتراجعون أو يستسلمون بسهولة أكبر مما كان متوقعاً، ولم تتمكن المملكة العربية السعودية وقطر من إنقاذهم بالأسلحة والذخيرة لأسباب لوجستية ودبلوماسية. وقطعت القوات السورية خطوط إمدادهم، واتخذت تركيا موقفاً محايداً في الحرب الأهلية. ولا عجب أن القوات الحكومية اخترقت الخطوط الدفاعية للعدو وتقدمت بسرعة للاستيلاء على شرقي حلب بالكامل باستثناء 5 % بحلول 13 كانون الأول-ديسمبر 2016.

وأعلنت الأمم المتحدة وقف إطلاق النار للسماح بإجلاء المدنيين والمتمردين. لكن ذلك لم يصمد إلا ليوم واحد فقط. ثم أُعيد إحياؤه في 15 كانون الأول-ديسمبر. وخلال الأسبوع التالي، نُقل 34 ألف مدني ومقاتل متمرد بالحافلات إلى الأراضي التي يسيطر عليها المتمردون في ريف غرب حلب وفي محافظة إدلب. وفي 22 كانون الأول-ديسمبر أعلن الجيش السوري أنه استعاد السيطرة الكاملة على حلب، وجاء في بيان الجيش أن «هذا النصر يمثل تغييراً إستراتيجياً ونقطة تحول في الحرب ضد الإرهاب من جهة، وضربة ساحقة لمشروع الإرهابيين من جهة أخرى». وفي موسكو أعلن وزير الدفاع سيرغي شويغو أنه، منذ أيلول-سبتمبر 2015، نفذت طائراتها الحربية 18800 طلعة جوية، و«صفّت 725 معسكر تدريب، و405 مصانع وورش أسلحة، و1500 قطعة من المعدات الإرهابية، و35 ألف مقاتل».[53]

وقال الأسد في كومسومولسكايا برافدا: «ما تابعناه مؤخراً خلال الأسابيع القليلة الماضية، وربما الأشهر القليلة الماضية، يشبه أكثر من مجرد حرب باردة (بين روسيا والغرب). لا أعرف ماذا أسميه، لكنه شيء لم يكن موجوداً مؤخراً، لأنني لا أعتقد أن الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، قد أوقف حربه الباردة، حتى بعد انهيار الاتحاد السوفييتي».[54] وملاحظة الأسد كانت غير دقيقة؛ فأفضل وصف للعلاقة بين روسيا والغرب هو التنافس في بعض المجالات والتعاون في مجالات أخرى، فعلى سبيل المثال: عملت روسيا باستمرار مع الغرب بشأن قضية المشروع النووي الإيراني، واتفقت بشكل كامل على ضرورة عدم السماح لطهران ببناء قنبلة ذرية. وكانت إلى جانب القوى العالمية الخمس الأخرى قد تركت للولايات المتحدة التفاوض على النقاط الشائكة مع إيران مع الاستمرار في استكمال عقدها مع الجمهورية الإسلامية لبناء محطة مدنية للطاقة النووية تحت إشراف الوكالة الدولية للطاقة الذرية. وكانت النتيجة النهائية هي التوقيع على خطة العمل الشاملة المشتركة المكونة من 109 صفحات في 14 تموز-يوليو 2015. ومع ذلك، فقد استغرق تنفيذها وقتاً طويلاً للغاية.

خطة العمل الشاملة المشتركة

وفي نيسان-أبريل 2014 أعلنت الوكالة الدولية للطاقة الذرية أن إيران قامت بتحييد نصف مخزونها من اليورانيوم المخصب بنسبة 20 % على النحو المتفق عليه في خطة العمل المشتركة في تشرين الثاني-نوفمبر 2013. وبعد أربعة أشهر انعقدت الجولة السادسة والأخيرة من المفاوضات النووية بين إيران ومجموعة 5+1. فبدأت في فيينا، لكنها أخفقت في الوفاء بالموعد النهائي في نوفمبر 2014 للتوصل إلى الاتفاق النهائي. وكشفت المفاوضات الموسعة عن خلافات بين الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة؛ فمالت روسيا نحو إيران، بينما أصرت فرنسا على صفقة قوية مع ضوابط تفصيلية. وحثت الصين جميع الأطراف على الالتقاء معاً في منتصف الطريق. وبعد أن هددت الولايات المتحدة بالانسحاب في 30 آذار-مارس 2015 إذا فشلت المفاوضات الحالية في التوصل إلى اتفاق إطار سياسي، عادت مرة أخرى إلى قلب المحادثات.

وكان الهدف الأساسي بالنسبة للولايات المتحدة وخمس قوى أخرى -بريطانيا والصين وفرنسا وألمانيا وروسيا- هو إبقاء إيران على بعد عام واحد على الأقل من القدرة على إنتاج ما يكفي من الوقود النووي لصنع سلاح نووي واحد. وكان العام الواحد يُعد في القياسات العالمية مدة كافية للتحذير، لمنع سباق إيراني لإنتاج قنبلة ذرية من خلال إعادة فرض ضغوط اقتصادية شديدة، أو، إذا لزم الأمر، قيام البنتاغون ببعض الغارات الجوية.

لقد تمحورت المساومة الصعبة التي ميزت المفاوضات الرفيعة المستوى، على مدى أيام عدة في منتجع لوزان السويسري بشكل رئيسي، حول ثلاث نقاط خلافية: طول القيود المفروضة على برنامج طهران النووي ضمن الاتفاق العام، ووتيرة أو طريقة رفع عقوبات الأمم المتحدة على إيران، وعقوبة إيران في حالة عدم امتثالها للبروتوكول المتفق عليه. أرادت إيران أن يكون عمر الاتفاق عشر سنوات، مع تطبيق القيود على برنامجها النووي خلال تلك الفترة، في حين فضلت القوى العالمية الست خمسة عشر عاماً، وأعربت عن رغبتها في تمديد القيود المفروضة على طهران لمدة خمس سنوات أخرى على افتراض أنه إذا توفرت أجهزة طرد مركزي متقدمة لإيران، فإن الوقت اللازم لإنتاج قنبلة ذرية سينخفض. ورفض زعماء إيران فرض قيود طويلة الأمد على تطوير أجهزة الطرد المركزي، معتبرين أن ذلك سيجعل بلادهم تعتمد على التكنولوجيا الأجنبية.

وفيما يتعلق بطريقة رفع عقوبات الأمم المتحدة عن إيران أوضح آية الله خامنئي موقفه، في 30 آذار-مارس، في رسالته على موقعه الإلكتروني التي تقول: «يجب رفع العقوبات

دفعة واحدة، وليس نتيجة لتصرفات إيرانية مستقبلية». ويبدو أنه أخذ في الحسبان الرسالة المفتوحة التي وجهها إليه 47 عضواً جمهورياً في مجلس الشيوخ الأمريكي في 9 آذار-مارس، محذرين من أن «الرئيس القادم [بعد باراك أوباما] يمكن أن يلغي مثل هذا الاتفاق التنفيذي بجرة قلم، ويمكن للكونغرس المستقبلي أن يعدّل شروط الاتفاق في أي وقت». ووصف وزير الخارجية محمد ظريف، رئيس فريق التفاوض الإيراني، الرسالة بأنها حيلة دعائية، مضيفاً أن إلغاءها من قبل الإدارة الأمريكية المستقبلية سيكون انتهاكاً للقانون الدولي، ومع ذلك، فإن هذا سيحدث عندما رفض الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، في 13 تشرين الأول-أكتوبر 2017، التصديق على أن إيران ملتزمة بجميع شروط الاتفاق، وهو شرط سابق لتعليق واشنطن العقوبات، وهو أمر كان مطلوباً منه القيام به كل 120 يوماً وفقاً للقانون الأمريكي.[55]

وفي ربيع عام 2015 وجد الرئيس أوباما أنه من "المفارقة إلى حد ما" رؤية بعض أعضاء الكونغرس الأمريكي يشكلون "تحالفاً غير عادي" لقضية مشتركة مع المتشددين في إيران. في الواقع، كان هؤلاء المتشددون هادئين، مشيرين إلى دعم خامنئي المتكرر للمفاوضين الإيرانيين.

ووفقاً لآخر استطلاع للرأي أجرته صحيفة واشنطن بوست وشبكة ABC الإخبارية، أيد 59 % اتفاقاً رفعت بموجبه الولايات المتحدة وشركاؤها المفاوضون العقوبات الاقتصادية الكبرى مقابل فرض قيود على برنامج إيران النووي، حيث عارض 31 % الاتفاق.[56]

وإدراكاً منه جيداً للقلق الذي تشعر به المملكة العربية السعودية وأعضاء مجلس التعاون الخليجي الآخرين بشأن رفع العقوبات عن إيران، استضاف أوباما قمة مجلس التعاون الخليجي التي استمرت يوماً واحداً في كامب ديفيد في 14 أيار-مايو 2015، وقدّم لهم نظرة سابقة على الاتفاقية الدولية التي وُضعت اللمسات النهائية عليها في سويسرا، وتعهد بمواصلة تعاون واشنطن في التصدي لأنشطة طهران المزعزعة للاستقرار في المنطقة، وأكد مجدداً أن واشنطن ستقف إلى جانب شركائها في مجلس التعاون الخليجي ضد أي هجوم خارجي، كما أكد لحكام الخليج أن إدارته تسعى فقط إلى "صفقة" مع طهران بشأن القضية النووية وليس إلى "تقارب أوسع". كما عرض مساعدة نشطة في تشكيل منطقة على مستوى المنطقة لنظام دفاع مضاد للصواريخ تحت القيادة المركزية لإحباط الهجمات الصاروخية الإيرانية.[57]

وبشكل منفصل، وبعد أسبوع، أصدر مجلس النواب الأمريكي ذو الأغلبية الجمهورية قراراً يرضي السعوديين، يمنع أوباما من التنازل أو تعليق العقوبات الأمريكية على إيران حتى نهاية فترة ولايته في 20 كانون الثاني-يناير 2017.[58]

وفي الوقت نفسه فإن المساومة الصعبة بين إيران والقوى العالمية الست التي أعقبت ذلك في لوزان تجاوزت الموعد النهائي في 30 حزيران-يونيو لتنتهي بعد أسبوعين بالتوصل إلى اتفاق، ليصبح ساري المفعول في 18 تشرين الأول-أكتوبر. ووقّع يوكيا أمانو، المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية، اتفاقاً منفصلاً لـ "خريطة طريق" مع طهران، يتطلب من الوكالة حل أي مخاوف معلقة بحلول نهاية عام 2015.

ومن بين ما يقرب من 20.000 جهاز طرد مركزي تُستخدم لفصل النظائر الانشطارية U-235في منشآتها في نطنز وفاردو، سُمح لإيران بتشغيل 5.060 فقط من أقدم الأجهزة وأقلها كفاءة في نطنز لمدة عشر سنوات. وكان من المقرر تخفيض مخزون إيران الحالي من اليورانيوم بنسبة 98 % إلى 300 كجم (660 رطلاً) لمدة خمسة عشر عاماً، وكان عليها أن تُبقي مستوى التخصيب عند 3.67 % مناسباً كوقود لمحطات الطاقة النووية. ولن يُسمح بالبحث والتطوير إلا في نطنز لمدة ثماني سنوات. وستُحوَّل منشأة فاردو إلى مركز نووي وفيزيائي وتكنولوجي، وستنتج أجهزة الطرد المركزي البالغ عددها 1044 نظائر مشعة لاستخدامها في الطب والزراعة والصناعة والعلوم. أما محطة آراك للمياه الثقيلة التي هي قيد الإنشاء، فبعد تفكيكها، وافقت إيران على عدم إعادة تصميم مفاعلها على النحو الذي يسمح له بإنتاج الوقود اللازم لصنع الأسلحة. وسيُشحن جميع الوقود المستهلك إلى خارج الجمهورية الإسلامية خلال عمر المفاعل.

وفيما يتعلق بالمسألة المثيرة للجدل للغاية والمتعلقة بوصول الوكالة الدولية للطاقة الذرية إلى المواقع العسكرية، فقد كان هناك حل وسط، إذ سيكون بمقدور مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية طلب زيارة هذه المواقع بشرط عدم ضمان الوصول إليها وإمكانية تأخيرها. وفي المقابل، ستتوقف القيود المفروضة على البنوك الإيرانية كافة، فيفرج عن أصول إيران الخارجية البالغة 100 مليار دولار، والمحتفظ بها بشكل رئيسي في بنوك في الصين، والهند، واليابان، وكوريا الجنوبية، وتركيا، والمجمدة منذ عام 2012 بموجب العقوبات، بعد أن تغلق الوكالة الدولية للطاقة الذرية ملف إيران بشكل مُرض، وسيُرفَع الحظر النفطي، والقيود المالية، والقيود التجارية التي تفرضها الأمم المتحدة (ولكن ليس الولايات المتحدة)، وسينتهي حظر الأسلحة الذي تفرضه الأمم المتحدة بعد خمس سنوات، وستتوقف معظم القيود المفروضة على الأنشطة النووية الحالية لطهران بعد عام 2025.[59] وقد قبلت إيران بإعادة فرض العقوبات إذا قررت لجنة مكونة من ثمانية أعضاء بأغلبية الأصوات أنها تنتهك الاتفاق.[60]

ومن المقرر أن يجري الإغلاق النهائي لملف الوكالة الدولية للطاقة الذرية بشأن التحقيق النووي الذي أجرته بشأن إيران منذ عقد من الزمن في 15 كانون الأول-ديسمبر 2015.

لقد لقيت النهاية السلمية للمواجهة التي دامت اثني عشر عاماً بشأن البرنامج النووي الإيراني، والتي كانت بمنزلة معلم دولي، ترحيباً فورياً في عواصم العالم، باستثناء تل أبيب والرياض. وأعلن التلفاز الرسمي الإيراني أن خامنئي أعرب عن «تقديره، وشكر المفاوضين النوويين الإيرانيين على جهودهم الصادقة والدؤوبة».[61]

ومع وصول أنباء الاتفاق النهائي إلى طهران، في وقت مبكر من يوم 14 تموز-يوليو، أقيمت احتفالات عامة في الشوارع، وقبل ذلك أمضى العديد من الإيرانيين ساعات ملتصقين أمام أجهزة التلفاز التي كانت تبث خطابات روحاني وأوباما. وقال ماهين، وهو مدرس متقاعد يبلغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً: «فجأة رأينا باراك أوباما على محطة تلفاز الجمهورية الإسلامية في بث مباشر». «فقط تخيل أن إيران تبث خطاباً مباشراً لرئيس الشيطان الأكبر». وقارن صادق زيبا كلام، وهو عالم سياسي بارز، خطة العمل الشاملة المشتركة بثلاث نقاط تحول سابقة في تاريخ الجمهورية الإسلامية: احتلال السفارة الأمريكية في طهران عام 1979، وبداية حرب العراق عام 1980، وانتخاب الرئيس الإصلاحي محمد خاتمي عام 1997، الذي حفز المطالبة العامة بمزيد من الحريات الاجتماعية والسياسية.[62]

وفي نيويورك صادق مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة على خطة العمل الشاملة المشتركة في 22 تموز-يوليو 2015. وبعد تسعين يوماً، جاء تاريخ الاعتماد الرسمي في 18 تشرين الأول-أكتوبر. وعلى الصعيد العالمي، كان الفائزون الرئيسون هم روحاني، وأوباما، وبوتين، وكان الخاسرون الأكبر هم سلمان، وبنيامين نتنياهو، وأبو بكر البغدادي الذي أعلن نفسه خليفة.

وادّعى روحاني أن حق بلاده في تطوير الطاقة النووية السلمية قد ضمن الاعتراف الدولي، وأن عُزلتها عن الغرب قد انتهت. وقال أوباما: «إن هذا الاتفاق يظهر أن الدبلوماسية الأمريكية يمكن أن تحقق تغييراً حقيقياً وهادفاً»، وأضاف: «دعونا لا نتفاوض بدافع الخوف. دعونا لا نخف من التفاوض».

وقد أثبت خطة العمل الشاملة المشتركة صحة ما رآه الكثيرون تكريماً سابقاً لأوانه بجائزة نوبل للسلام في عام 2009. وأشاد الأسد بالاتفاق بوصفه "نقطة تحول رئيسة" في تاريخ إيران والمنطقة والعالم، ووصفه بأنه "نصر عظيم". وكان الموقع الإقليمي المعزز لطهران في أعقاب هذا الاتفاق يهدف إلى تعزيز مطالبتها بالاعتراف بها كلاعب رئيسي في الشرق الأوسط، بما

في ذلك المفاوضات حول مستقبل سورية. وأعلن بوتين أن العالم "تنفس الصعداء" عندما أبرم الاتفاق.[63]

وفي تناقض حاد أشار صمت الرياض في البداية بشأن خطة العمل الشاملة المشتركة إلى قلق عميق بشأن التقارب بين واشنطن وطهران. ووفقاً لرئيس الوزراء نتنياهو، فإن رفع العقوبات «منح إيران الفوز بالجائزة الكبرى، وهي منجم نقدي بمئات المليارات من الدولارات، مما سيمكّنها من مواصلة عدوانها والإرهاب في المنطقة وفي العالم». وفي عاصمة داعش، يخشى البغدادي من زيادة الضغط على قواته بعد خيارات جديدة للتعاون بين أمريكا وإيران.[64]

وقبل خمسة أيام من تاريخ اعتماد خطة العمل الشاملة المشتركة أقر البرلمان الإيراني مشروع القانون بالموافقة عليها، وجاء التصويت، الذي أجري بعد خلافات حادة بين الأطراف المتعارضة، بأغلبية 161 صوتاً مقابل 59 صوتاً مع امتناع 13 عضواً عن التصويت.[65] وبعد شهادة الوكالة الدولية للطاقة الذرية بأن إيران فعلت ما هو مطلوب بموجب الاتفاق في 15 كانون الأول-ديسمبر 2015، كان من المقرر أن يتبنى الاتحاد الأوروبي لائحة لرفع العقوبات، وأن يصدر الرئيس أوباما إعفاءات من العقوبات؛ وهذا ما سيحدث في 22 كانون الأول-يناير 2016.

والتزاماً بكلمته للعاهل السعودي خلال اجتماعهما في أيلول-سبتمبر 2015 وافق الرئيس أوباما على بيع صواريخ أرض جو PAC-3 (باتريوت المتقدمة ذات القدرة) إلى المملكة العربية السعودية، وكانت هذه الخطوة مطلوبة بموجب قانون أقره الكونغرس في عام 2008 لضمان استمرار [كيان] إسرائيل في الحفاظ على "التفوق العسكري النوعي" على خصومها التقليديين في الشرق الأوسط. ولذلك جرى تقييم مبيعات الأسلحة كافة إلى الشرق الأوسط على أساس مدى تأثيرها في التفوق العسكري الإسرائيلي.[66] خلصت إدارة أوباما إلى أنه بما أن دول الخليج، مثل[كيان] إسرائيل، ترى أن إيران تمثل تهديداً لبقائها، فإن السماح لها بشراء أسلحة أمريكية متقدمة ساعد في أمن إسرائيل. وفي تشرين الأول-أكتوبر وقّعت الحكومة السعودية اتفاقية مع إدارة أوباما لشراء 320 صاروخ باتريوت باك-3 من إنتاج شركة لوكهيد مارتن.[67] وفي الشهر التالي، سمحت الولايات المتحدة ببيع المملكة العربية السعودية ذخائر دقيقة بقيمة مليار و29 مليون دولار تهدف على وجه التحديد إلى تجديد المخزونات المستخدمة في اليمن[68]؛ لقد كانت إدارة أوباما حريصة على تقليل الخسائر في صفوف المدنيين في الحملة العسكرية التي تقودها السعودية في اليمن.

إستراتيجية الحل السريع التي اتبعها السعوديون في اليمن تتعثر

أدى القصف العشوائي الذي شنّه التحالف الذي تقوده السعودية على أهداف مدنية إلى إلحاق أضرار بـ 39 مستشفًى، بما في ذلك مستشفًى تديره (منظمة أطباء بلا حدود)، في محافظة صعدة في 27 تشرين الأول-أكتوبر 2015، وقال حسن بوسنين رئيس بعثة المنظمة في اليمن: «هذا الهجوم هو مثال آخر على التجاهل الكامل للمدنيين في اليمن حيث أصبحت التفجيرات روتيناً يومياً».[69]

كانت هذه هي الخلفية التي نُقِل على أساسها الرئيس هادي جواً إلى عدن في منتصف تشرين الثاني-نوفمبر وأقام في القصر الرئاسي. وفي اشتباكات مكثفة بين الجانبين في محافظة تعز المجاورة، في 14 كانون الأول-ديسمبر، ضرب الحوثيون معسكراً للجيش السعودي، كما ذكرنا أعلاه.[70] وذكر تقرير صادر عن يونايتد برس إنترناشونال (UPI) أن القتلى كان من بينهم خمسة عشر إلى أربعين موظفاً في بلاك ووتر(Blackwater)، وهي شركة أمنية خاصة أمريكية أُعيدت تسميتها إلى أكاديمي (Academi) منذ عام 2011.[71] وبحلول ذلك الوقت، كانت الإمارات العربية المتحدة قد استأجرت 400 مرتزق إريتري و450 مرتزقاً معظمهم من الكولومبيا، كقوة حماية لقواتها القتالية في عدن بعد تدريبهم على التعامل مع قاذفات القنابل اليدوية والمركبات المدرعة[72]، وكانت هذه واحدة من العواقب العديدة غير المقصودة للتدخل العسكري السعودي في اليمن.

ووقع الهجوم الصاروخي المميت قبل يوم واحد من بدء وقف إطلاق النار لمدة أسبوع بين الأطراف المتحاربة، الذي ورد أنه جرى خلاله تبادل مئات الأسرى، عشية محادثات السلام.[73] وقد عُقدت هذه الاجتماعات في قرية ماكولين السويسرية بالقرب من برن برئاسة المبعوث الخاص للأمم المتحدة إلى اليمن، إسماعيل ولد الشيخ أحمد. وبعد وقت قصير من الجلسة الافتتاحية قال متحدث باسم القوات الموالية لصالح: إن ميناء الحديدة تعرض للقصف من قبل السفن البحرية التابعة للتحالف خلال وقف إطلاق النار المتفق عليه لمدة أسبوع. وفي 18 كانون الأول-ديسمبر أعلن مندوبو الحوثي وصالح أنهم لن يستأنفوا المحادثات إلا بعد أن أدانت الأمم المتحدة انتهاك حكومة هادي للهدنة، وهذا ما لم يحدث، وقد دفع ذلك أحمد إلى "تعليق" المحادثات إلى أجل غير مسمى.[74]

في كانون الثاني-يناير 2016 أفاد فريق الخبراء المعين من قبل الأمم المتحدة أن التحالف الذي تقوده السعودية استهدف المدنيين بغارات جوية بطريقة "واسعة النطاق ومنهجية". وقد وثقت 119 طلعة جوية للتحالف انتهكت القانون الدولي، وتضمن الكثير منها ضربات

متعددة على أهداف مدنية مثل المدارس، والمرافق الصحية، وحفلات الزفاف، ومخيمات النازحين. بالإضافة إلى ذلك وجدت أن المدنيين الفارين من الغارات الجوية للتحالف تعرضوا للمطاردة وإطلاق النار من قبل المروحيات، وخلصت إلى أن المدنيين يتعرضون للتجويع عمداً كتكتيك حرب، ودعت إلى إجراء تحقيق في انتهاكات التحالف لحقوق الإنسان.[75]

وفي 27 شباط-فبراير أصابت غارة جوية للتحالف سوقاً مزدحمة في خلكوت نهم، على بعد عشرين ميلاً شمال صنعاء، مما أسفر عن مقتل ثلاثين شخصاً، وقد أظهرت لقطات فيديو عرضت آثار الهجوم جثثاً محترقة، بينها أطفال، إلى جانب الأغنام الميتة والركام. وقال شاهد عيان: إنه لم يكن هناك هدف عسكري واضح في السوق أو بالقرب منه.[76]

ولم يكن السعوديون قريبين من تحقيق أهدافهم المتمثلة في طرد قوات الحوثي-صالح من صنعاء، وتسليم العاصمة إلى هادي، واحتواء الحوثيين في الشمال. وعلى العكس من ذلك، كان المتمردون متجذرين بقوة في العاصمة لدرجة أنهم دعوا المراسلين الغربيين ليروا بأنفسهم. وقالت أورلا غيرين من هيئة الإذاعة البريطانية (BBC): «في مركز للشرطة في صنعاء، عرض مسؤولون أمنيون يمنيون وحدة قنابل عنقودية أمريكية الصنع للعرض». «ويزعمون أنها أُسقِطت على الضواحي الغربية في كانون الثاني-يناير 2016، مما أدى إلى تناثر قنابل صغيرة قاتلة فوق منطقة مدنية. لقد أنتجوا عدة [قنبلات] من كيس تسوق بلاستيكي وردي اللون. ونفى التحالف استخدام الأسلحة التي حظرتها أكثر من 100 دولة».[77]

في هذا الوقت تقريباً، قدّم اثنان من مراسلي صحيفة نيويورك تايمز تفسيراً لسبب استمرار الغارات الجوية للتحالف في ضرب المواقع المدنية. خوفاً من نيران العدو الأرضية، طار الطيارون السعوديون عديمي الخبرة على ارتفاعات عالية لتجنب التعرض للضرب. لكن هذا قلل من دقة قصفهم وزاد من الأضرار التي لحقت بممتلكات المدنيين وأرواحهم. وقال الجنرال كارل إي موندي، نائب قائد مشاة البحرية في الشرق الأوسط: «نحن نقدّم لهم التدريب [على الطيران على ارتفاع منخفض ولكن بأمان]، ولكن في النهاية هذه هي عمليتهم».[78]

وظل التوتر مرتفعاً على طول الحدود اليمنية السعودية، وعندما تعرضوا لغارات جوية عقابية من قبل طائرات التحالف، رد أنصار الحوثي-صالح بقصف عشوائي للأراضي السعودية المتاخمة لليمن، مما جعل المنطقة غير آمنة للمدنيين. وقد دفع هذا زعماء القبائل على جانبي الحدود إلى التخفيف من الوضع الذي لا يطاق على نحو متزايد، وتمكنوا باستخدام هيبتهم في مجتمعاتهم من العمل كوسطاء بين الحوثيين والحكومة السعودية، وقاموا بترتيب عملية تبادل سبعة سجناء حوثيين مقابل ضابط سعودي أسير في 8 آذار-مارس، بعد أسبوع

من المحادثات التحضيرية السرية. ولم يُعترف رسمياً في الرياض بتقارير وفود الحوثيين التي وصلت إلى المملكة العربية السعودية لمناقشة عمليات تبادل أكبر للأسرى، ولكن هذه الأمور مكّنت بن سلمان والجبير من طمأنة وزير الخارجية الأميركي جون كيري خلال لقائهما حيث أكدا معه في مدينة الملك خالد العسكرية أن حكومتهم تدعم جهود المبعوث الخاص للأمم المتحدة لجمع الأطراف كلها على طاولة المفاوضات سعياً لتحقيق انتقال سياسي سلمي في اليمن.[79] وكما كان الحال من قبل، اتفقت المعسكرات المتحاربة على وقف إطلاق النار لمدة أسبوع ابتداءً من 10 نيسان-أبريل قبل بدء المحادثات بوساطة الأمم المتحدة، وهذه المرة في الكويت، التي ظلت جزءاً من التحالف الذي تقوده السعودية. وفي وقت سابق أفادت منظمة الصحة العالمية أنه خلال الصراع الذي دام عاماً كاملاً قُتل أكثر من 6200 شخص، وجُرح 30 ألفاً، وأن أكثر من 21 مليون يمني –82 % من السكان- كانوا بحاجة إلى مساعدات إنسانية.[80]

واستمرت المفاوضات التي رعتها الأمم المتحدة لأكثر من ثلاثة أشهر، وكانت النتيجة الملموسة الوحيدة هي موافقة المساعدين على تسليم نصف السجناء المحتجزين لديهم. ونتيجة لذلك، تبادل الحوثيون والقوات الموالية لهادي ما يقرب من 200 أسير في تعز في منتصف حزيران-يونيو.[81] لقد أثبتت معظم المناقشات غير الحاسمة بين الأطراف المتحاربة، والتي ركزت على نوع الحكومة التي ستدير اليمن خلال الفترة الانتقالية، أنها عقيمة، وكان العائق الرئيس هو وضع هادي الذي أصر على الاحتفاظ بالرئاسة حتى إجراء انتخابات جديدة بموجب دستور جديد.

وبسبب شعورهم بالإحباط بسبب تعثر المحادثات أعلن معسكر الحوثي-صالح في 28 تموز-يوليو تشكيل حكومة بديلة تحت عنوان المجلس السياسي الأعلى، وكان يتألف من عشرة أعضاء مناصفة بين الحوثيين والمؤتمر الشعبي العام لإدارة شؤون البلاد في المجالات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والإدارية كافة على أساس الدستور القائم. وحتى الآن كان الحوثيون يشرفون على المناطق التي سيطروا عليها من خلال لجنة ثورية بمشاركة المؤتمر الشعبي العام. وأعلن المبعوث الخاص للأمم المتحدة أن هذه الخطوة تنتهك قرار مجلس الأمن رقم 2216، الذي دعا الحوثيين إلى «الامتناع عن المزيد من الإجراءات الأحادية التي يمكن أن تقوض عملية الانتقال السياسي في اليمن».[82] وكانت هذه المحاولة الفاشلة الثالثة من قبل الأمم المتحدة لإنهاء الحرب الأهلية في اليمن.

بشكل عام كان تحالف الحوثي-صالح يدير معظم النصف الشمالي من اليمن، بينما

تقاسمت قوات هادي السيطرة على الباقي مع الانفصاليين الجنوبيين والقبائل المختلفة مع جهاديي القاعدة في جزيرة العرب الناشطين في الجنوب الشرقي مع الإفلات من العقاب بسبب العنف المكثف بين الخضمين الرئيسين. لجميع الأغراض العملية عادت الحالة الإقليمية إلى ما كانت عليه قبل توحيد شمال اليمن وجنوبه في عام 1990.

الرياض تزيد حصيلة الضحايا المدنيين في اليمن

قام تقرير صادر عن مشروع بيانات اليمن، وهو مجموعة من الأكاديميين ونشطاء حقوق الإنسان، بتحليل 8600 هجوم جوي بقيادة السعودية بين آذار-مارس 2015 ونهاية آب-أغسطس 2016. ومن بين هذه الهجمات، أدرج 3577 هجوماً جوياً على أنها ضربت مواقع عسكرية و3158 موقعاً غير عسكري، مثل المدارس، والمستشفيات، والأسواق، والمساجد، والمراكز الثقافية، ومخيمات النازحين، ومزارع الدواجن، والجسور، ومحطات الطاقة، والمطارات، والموانئ البحرية، ومصانع إنتاج رقائق البطاطس واللبن والشاي والمناديل الورقية والسيراميك والأسمنت، وكوكا كولا. وأدرج 1,882 حادثة على أنها "مجهولة" عندما لا يمكن تصنيف الموقع المستهدف على أنه عسكري أو مدني. وأورد المسح 942 هجوماً على المناطق السكنية، و114 على الأسواق، و34 على المساجد، و147 على المباني المدرسية، و26 على الجامعات، و378 على وسائل النقل. وأظهرت السجلات المحدثة حتى نهاية أيلول-سبتمبر 356 غارة جوية استهدفت المزارع، و174 ضربة جوية، و61 ضربة جوية استهدفت مواقع تخزين المواد الغذائية.[83]

ورداً على الاستطلاع الأكثر شمولاً الذي أجرته هيئة مستقلة، قال الجبير: إن الحوثيين «حولوا المدارس والمستشفيات والمساجد إلى مراكز قيادة وسيطرة. لقد حولوها إلى مستودعات أسلحة بحيث لم تعد أهدافاً مدنية». ولم يتمكن بيانه من تفسير سبب تعرض مبنى مدرسة في ذباب بمحافظة تعز للقصف تسع مرات، وسوق في صرواح بمحافظة مأرب أربعاً وعشرين مرة، حسبما أفاد مشروع بيانات اليمن. [84]

وفي 8 تشرين الأول-أكتوبر سجلت الغارة الجوية التي شنها التحالف على قاعة عزاء تستضيف جثمان علي الرويشان، والد وزير الداخلية المعين من قبل الحوثيين جوال الرويشان في صنعاء، رقماً قياسياً، إذ أدت إلى مقتل أكثر من 140 شخصاً وإصابة 525 آخرين. ومن بين الضحايا مسؤولون عسكريون وأمنيون كبار في تحالف الحوثي-صالح. وقال مراد توفيق، أحد رجال الإنقاذ الذين يجمعون في أكياس مئات الأشلاء المتناثرة داخل المبنى وحوله: «لقد

تحول المكان إلى بحيرة من الدماء». وقد أثارت المذبحة إدانة قوية، ليس من الأمم المتحدة فقط، بل من الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة أيضاً. ومع الاعتراف بمسؤولية التحالف الذي تقوده السعودية عن الهجوم الجوي المميت، عزا المتحدث باسمها ذلك إلى «معلومات استخباراتية خاطئة».[85]

وقد أدت الفظائع التي وقعت في قاعة العزاء إلى تحول موقف واشنطن عن الدعم القوي لحملة التحالف واستعادة هادي للرئاسة نحو نهج أكثر دقة، وقال نيد برايس: المتحدث باسم مجلس الأمن القومي: «إن التعاون الأمني الأمريكي مع السعودية ليس شيكاً على بياض»، وأضاف: «في ضوء هذا وغيره من الأحداث الأخيرة بدأنا مراجعة فورية لدعمنا، المنخفض بشكل كبير بالفعل، للتحالف الذي تقوده السعودية، ونحن على استعداد لتعديل دعمنا بحيث يتماشى بشكل أفضل مع المبادئ والقيم والمصالح الأمريكية، بما في ذلك تحقيق الأهداف ووضع حد ونهاية فورية ودائمة للصراع المأساوي الدائر في اليمن». وربما كانت إشارته إلى الدعم الأمريكي "المنخفض بشكل كبير" للرياض تشير إلى انسحاب العديد من الأفراد الأمريكيين المعينين في خلية التخطيط الأمريكية السعودية المشتركة التي أُنشئت لتنسيق تقديم الدعم العسكري والاستخباراتي للحملة في حزيران-يونيو.

وفي توضيح للموقف الحالي قال السكرتير الصحفي للبيت الأبيض جوش إرنست في 12 تشرين الأول- أكتوبر: «إن هذه المساعدة [الأمريكية] التي نقدمها هي في المقام الأول دعم لوجستي. نحن نتشارك معهم بعض المعلومات الاستخبارية، لكن الولايات المتحدة لا تقوم بتحديد الاهداف لهم».[86] وكان من المهم بالنسبة للبيت الأبيض تأكيد أنه لا علاقة له بسلسلة من الأهداف التي تنتهك القانون الدولي بشكل واضح.

قبل أسبوع من مناقشة مجلس الأمن الدولي لليمن، في 31 تشرين الأول-أكتوبر، قدّم مبعوث الأمم المتحدة إلى اليمن، إسماعيل ولد الشيخ أحمد، خريطة طريق للسلام تمثلت في تحويل الرئاسة إلى منصب شرفي، وتشكيل حكومة وحدة وطنية، والإزالة التدريجية لقوات الحوثي-صالح من المدن التي استولت عليها في عامي 2014 و2015 تحت إشراف الأمم المتحدة، والتحرك تدريجياً نحو الانتخابات الرئاسية والبرلمانية. ومما أثار انزعاج واشنطن أن هادي رفض الخطة لأنها تتطلب تنازله الفعلي عن السلطة. من جانبه، سعى تحالف الحوثي-صالح إلى استقالة هادي فوراً وتشكيل حكومة وحدة يكون لها دور مهم. وطالبت الرياض تحالف الحوثي-صالح بتسليم أسلحته الثقيلة إلى طرف ثالث، وطلبت ضمانة بأن حكومة الوحدة الوطنية ستحظر نشر الأسلحة التي يمكن أن تهدد الأراضي السعودية أو الممرات المائية الدولية.[87]

في أواخر تشرين الثاني-نوفمبر قدّم بن هوبارد من صحيفة نيويورك تايمز رواية شاهد عيان عن الدمار الذي لحق بالبنية التحتية المدنية اليمنية في المناطق التي يسيطر عليها الحوثيون وصالح، من قبل التحالف الذي تقوده السعودية. وتحدث الجنرال شرف لقمان، المتحدث باسم الوحدات العسكرية المتحالفة مع الحوثيين، إلى هوبارد في سيارته لأن مقر وزارة الدفاع تعرض للقصف. «لقد فقدنا كل شيء، البنية التحتية لدينا، ولم يعد لدينا ما نخسره»، وأضاف: «والآن هي حرب استنزاف طويلة».

لقد تعرضت العديد من مباني الوزارات لأضرار بالغة على يد التحالف، وكانت المباني التي لا تزال قائمة فارغة تقريباً، حيث بقي موظفوها في منازلهم. لقد فعلوا ذلك خوفاً من القصف، وأيضاً لأنهم لم يتلقوا رواتبهم منذ أيلول-سبتمبر. ولمعالجة المشكلة لجأ الحوثيون إلى تعيين نشطائهم كمشرفين على موظفي الخدمة المدنية ورجال الشرطة الذين يحضّرون أعمالهم. وكانت الأراضي التي يديرها تحالف الحوثي-صالح تضم أفراداً من العديد من القبائل السُنّية. ويبدو أن التدخل العسكري للرياض ساعد في توحيد العناصر اليمنية المتنوعة ضد عدو مشترك. «ما الذي جمع الجيش [المتعدد الطوائف] مع أنصار الله [أنصار الله]؟» تساءل طارق محمد، شرطي في مدينة حَجة، مستخدماً الاسم الرسمي للحوثيين، وقال: «العدوان على البلد هو ما جعلنا نجتمع يداً واحدة». وبالنظر إلى ذلك، كان الموالون للحوثيين وصالح يسيطرون بشكل كبير على المنطقة التي استولوا عليها. وقال هوبارد: «خلال رحلتنا التي استغرقت 10 أيام إلى صنعاء والمحافظات المجاورة، كان من الواضح أن الحوثيين هم المسؤولون»، وأضاف: «أصدرت سلطاتهم تأشيراتنا، وحددت المواقع التي يمكننا زيارتها وخصصت لنا مرافق للتأكد من التزامنا بالبرنامج. انتشرت نقاط التفتيش الحوثية على الطرق، وكانت المسافة بينها في بعض الأحيان أقل من ميل واحد... وبينما أدى هذا إلى تباطؤ حركة المرور، وضعت الإجراءات الأمنية الحوثية حداً للتفجيرات الانتحارية والاغتيالات التي كانت تتكرر في العاصمة، وربما كان ذلك أعظم إنجاز لهم في الحكم».[88]

لقد كانت الإستراتيجية الشاملة للتحالف بين الحوثي وصالح دفاعية في جوهرها، للبقاء على قيد الحياة رغم كل الصعاب، مع جعل صنعاء مرغوبة بشدة كعاصمة لهذا التحالف. وقد واجه أزمة مصرفية حادة عندما أمر هادي، في 18 أيلول-سبتمبر، محافظ البنك المركزي بنقل البنك من صنعاء إلى عدن بعد اتهام تحالف الحوثي-صالح بإضافة آلاف من رجال الميليشيات إلى رواتب وزارة الدفاع، مما أدى إلى استهلاك 100 مليون دولار شهرياً من الاحتياطيات الأجنبية. وطوال فترة الاضطرابات، التي يعود تاريخها إلى أوائل عام 2011، كان البنك المركزي،

القادر على تحقيق الاستقرار في الاقتصاد وتلقي العملات الأجنبية، يعمل بشكل طبيعي؛ لقد دفع الرواتب بانتظام لـمليون و200 ألف موظف مدني وجندي، وبالتالي دعمت ربع السكان. وبعد نقل البنك، وعدت حكومة هادي بتغطية رواتب الموظفين العموميين الذين كانوا يعملون قبل أيلول-سبتمبر 2014 عندما استولى الحوثيون على صنعاء. ولكن، عملياً، هذا لم يحدث.

وعلى الجانب الآخر، ولمواجهة الأزمة المالية، أنشأت حكومة الحوثي-صالح بنكاً مركزياً خاصاً بها، وأمرت السلطات في المناطق التي تسيطر عليها بإرسال عائداتها من الضرائب والرسوم إليه، وخفض رواتب موظفيها إلى النصف، وناشدت المواطنين التبرع بالأموال للبنك مع إنشاء نظام يمكن من خلاله للناس التبرع بالريال اليمني عن طريق الرسائل النصية من هواتفهم المحمولة.[89]

وفي الوقت نفسه بدأ تزايد الوفيات بين المدنيين في اليمن يلقي بثقله على إدارة أوباما. وفي منتصف كانون الأول-ديسمبر 2016 منعت شركة رايثيون من بيع حوالي 16 ألف مجموعة ذخيرة موجهة، تستخدم لتطوير القنابل الغبية إلى قنابل ذكية يمكنها ضرب الأهداف بشكل أكثر دقة. بالإضافة إلى ذلك قرر البيت الأبيض الحد من تبادل بعض المعلومات الاستخبارية مع الرياض، مما قد يؤدي إلى سقوط المزيد من الضحايا بين المدنيين.[90] وشعرت الرياض بالارتياح من حقيقة أن القوات البحرية للعديد من الدول الغربية اعترضت واردات الأسلحة المتجهة إلى تحالف الحوثي-صالح. وقال مسؤولون أمريكيون في تشرين الأول-أكتوبر 2015: إن سفن البحرية الأمريكية اعترضت خمس شحنات أسلحة إيرانية متجهة إلى اليمن. وفي أواخر شباط-فبراير اعترضت سفينة أسترالية مركباً شراعياً متجهاً إلى ميناء كالولا الصومالي الذي يستخدم كنقطة عبور للشحنات المتجهة إلى اليمن. وتضمنت حمولتها 2000 بندقية هجومية من طراز AK-47 ورشاشات مختلفة. وكشف اعتراض آخر قامت به سفينة فرنسية في 20 آذار-مارس عن شحنة تضم أكثر من 2000 بندقية هجومية. وبعد ثمانية أيام اعترضت السفينة يو إس إس سيروكو مركباً شراعياً يحمل 1500 بندقية هجومية و200 قاذفة صواريخ، وأظهر مخطط خط أنابيب الأسلحة الذي أعدته مؤسسة (Conflict Armament Research)، ومقرها لندن، بتمويل من الاتحاد الأوروبي، تدفقات من إيران إلى عدد قليل من موانئ الشحن الصغيرة في منطقة بونتلاند التي تتمتع بحكم شبه ذاتي على ساحل الصومال. ومن هذه الموانئ، تُلتقط البضائع المهربة بواسطة سفن صغيرة متجهة إلى موانئ أخرى في الصومال أو اليمن.[91]

وأشار البيان الصحفي الصادر عن البحرية الأمريكية بتاريخ 5 نيسان-أبريل 2016 إلى أنه، في الأسابيع الأخيرة وللمرة الثالثة، صادرت القوات البحرية الأمريكية وغيرها من القوات البحرية الدولية العاملة في بحر العرب شحنات غير مشروعة من الأسلحة مصدرها إيران لتسليمها إلى قوات الحوثي-صالح في اليمن عبر الصومال. وتضمنت مخابئ الأسلحة بنادق هجومية من طراز AK-47 وبنادق قنص ورشاشات متعددة الأغراض وقاذفات قذائف صاروخية وأنابيب هاون وصواريخ مضادة للدبابات.[92] ولم يكن لإنكار إيران وزن كبير.

ومع ملاحظة أن تحالف الحوثي-صالح يتعرض للضغط على جبهات مختلفة، فقد كان لزاماً على طهران سياسياً أن تظهر أنها تقف إلى جانب القوى المناهضة للسعودية في ساعة حاجتها الماسة. ومما يبعث على الرضا أن المملكة العربية السعودية واجهت انتقادات دولية مكثفة بسبب التدخل العسكري المستمر في اليمن بقيادتها. فإلى جانب التقارير المستمرة عن وقوع ضحايا ونزوح في صفوف المدنيين، فقد كان اليمنيون العاديون هناك يعانون من نقص مستمر في الغذاء، والدواء، والمياه، والقدرة العالية غير المتوقعة لتحالف الحوثي-صالح، والتقدم الذي أحرزه تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية والفرع المحلي لتنظيم داعش.

الملاحظات

1 Bill Treadway, «Ranking The Net Worth Of Saudi Royalty From Lowest To Highest. » http://www. rantnow. com/201529/11//ranking-the-net-worth-of-saudi-royalty-from- lowest-to-highest-2/

2 Hassa al Sudairi gave birth to thirteen children

3 وكان الملك عبد الله قد اتبع بروتوكول استشارة هيئة البيعة التي أنشأها عام 2007، والمكونة من أبناء ابن سعود الثمانية عشر الباقين على قيد الحياة و19 آخرين من أبناء المتوفين من الآباء الذين تم اختيارهم من قبل مجموعات من أبناء المتوفين لتمثيل الوالد الذكر المتوفى. وعند اعتلائه العرش، كان على الملك الجديد أن يقدّم ترشيحه لولاية العهد إلى المجلس الذي يمكن أن يرفضه ويقدّم بديلاً عنه. لاسي، داخل المملكة ص 270.

4 The Hindu/AP, 15 September 2017, «Saudi Arabia cracks down on critics of crown prince. » http://www. thehindu. com/news/international/saudi-arabia-cracks-down-on- critics-of-crown-prince/article19689934. ece

5 Daily Telegraph, 21 June 2017, «Saudi king upends royal succession and names son Mohammed bin Salman as first heir to throne. » http://www. telegraph. co. uk/ news/201721/06//saudi-king-upends-royal-succession-names-son-mohammed-bin- salman/

6 Ben Hubbard, Eric Schmitt and Mark Mazzetti, New York Times, 29 June 2017, «Deposed Saudi Prince Is Said to Be Confined to Palace. » https:// www. nytimes. com/2017/ 0628//world/middleeast/deposed-saudi-prince-mohammed-bin-nayef. html

7 Cited in David Ignatius, Washington Post, 13 October 2105. «A Storm Brews in Saudi Arabia. » https://www. washingtonpost. com/opinions/a-

storm-brews-in-saudi-arabia/ 2015886328/13/10/c071-e111-e59-cbb-790369643cf9_story. html

8 The Economist, 6 January 2016, «Transcript: Interview with Muhammad bin Salman. » http://www. economist. com/saudi_interview

9 Staff Writers, Bloomberg Businessweek, 25 April 2016, «The $2 Trillion Project to Get Saudi Arabia's Economy Off Oil. » http://www. bloomberg. com/news/features/ 201621-04-/the-2-trillion-project-to-get-saudi-arabia-s-economy-off-oil

10 Staff Writers, Bloomberg Businessweek, 25 April 2016, «The $2 Trillion Project to Get Saudi Arabia's Economy Off Oil. » http://www. bloomberg. com/news/features/ 201621-04-/the-2-trillion-project-to-get-saudi-arabia-s-economy-off-oil

11 Staff writer, Al Arabiya News, 1 May 2015, «Saudi king orders merging of royal courts, » http://english. alarabiya. net/en/News/middle-east/201501/05//Saudi-king-orders-to- merge-royal-courts. html

12 David Kirkpatrick, New York Times, 6 June 2015, «Surprising Saudi Rises as a Prince among Princes. »http://www. nytimes. com/201507/06//world/middleeast/surprising- saudi-rises-as-a-prince-among-princes. html?_r=0

13 Mark Mazzetti and Ben Hubbard, New York Times, 15 October 2016, «Rise of Saudi Prince Shatters Decades of Royal Tradition. » https://www. nytimes. com/201616/10// world/rise-of-saudi-prince-shatters-decades-of-royal-tradition. html

14 David Ignatius, Washington Post, 13 October 2105, «A Storm Brews in Saudi Arabia. » 2015886328/13/10/c0–71e1–11e5–9cbb-790369643cf9_story. html

15 BBC News, 15 Dec 2015, «Saudis announce Islamic anti-terrorism coalition. »http:// www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-35099318

16 Mark Mazzetti and Ben Hubbard, New York Times, 15 October 2016, «Rise of Saudi Prince Shatters Decades of Royal Tradition. »*https://www. nytimes. com/201616/10// world/rise-of-saudi-prince-shatters-decades-of-royal-tradition. html

17 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, pp. 249–250

18 Michelle Nicholas, Reuters, 15 February 2015 «UN council demands Houthis with-draw, end Yemen violence. » http://www. reuters. com/ article/us-yemen-crisis-un/ u-n-council-demands-houthis-withdraw-end-yemen-violence-idUSKBN0LJ14E20150215

19 Bruce Riedel, Brookings, 29 April 2015, «Yemen's war shakes up the Saudi palace. » https://www. brookings. edu/blog/markaz/201529/04//yemens-war-shakes-up-the- saudi-palace/

20 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 732

21 Mark Mazzetti and Eric Schmitt, New York Times, 13 March 2016, «Quiet Support for Saudis Entangles US in Yemen. » https://www. nytimes. com/201614/03//world/mid- dleeast/yemen-saudi-us. html

22 Bruce Riedel, Al Monitor, 13 April 2015, «Why Pakistan said no to King Salman. » http://www. al-monitor. com/pulse/originals/201504//yemen-conflict-parliament-res- olution. html

23 Security Council 7426TH Meeting, 14 April 2015. «Security Council Demands End to Yemen. » https://www. un. org/press/en/2015/sc11859. doc. htm

24 Besides Saudi Arabia, the coalition contained four other Gulf Cooperation Council members: Jordan, Egypt, Sudan and Morocco

25 The Economist, 6 January 2016, «Transcript: Interview with Muhammad bin Salman. » http://www. economist. com/saudi_interview

26 Mark Mazzetti and Ben Hubbard, New York Times, 15 October 2016,

«Rise of Saudi Prince Shatters Decades of Royal Tradition. » https://www. nytimes. com/201616/10// world/rise-of-saudi-prince-shatters-decades-of-royal-tradition. html

27 Breaking Island News, 9 July 2015, «Maldives: Saudi Prince celebrates in Style with $8 million Private Party. » http://www. privateislandnews. com/ maldives-saudi-prince- celebrates-in-style-with-8-million-private-island-party/

28 Human Rights Watch, May 3, 2015, «Yemen: Saudi-Led Air Strikes Used Cluster Munitions. » https://www. hrw. org/news/201503/05//yemen-saudi-led-air strikes-used- cluster-munitions

29 The Economist, 25 July 2015, «The kingdom fears a resurgent Iran as sanctions come off. » http://www. economist. com/news/middle-east-and-africa/21659759-kingdom- fears-resurgent-iran-sanctions-come-proxies-and-paranoia

30 Nicholas Kurlish and Michael Forsythe, New York Times, 16 December 2017, «World's Most Expensive Home? Another Bauble for a Saudi Prince. » https://www. nytimes. com/201716/12//world/middleeast/saudi-prince-chateau. html

31 Hakim Almasmari, The National, 8 September 2015, «Why Marib province is crucial to coalition victory in Yemen. » http://www. thenational. ae/ world/middle-east/why- marib-province-is-crucial-to-coalition-victory-in-yemen

32 Hugh Miles, «Saudi royal calls for regime change in Riyadh, » Guardian, 28 September 2015. http://www. theguardian. com/world/2015/sep/28/ saudi-royal-calls-regime- change-letters-leadership-king-salman

33 See pp. 35–38

34 US News, 10 December 2015, «AP Count: Over 2, 400 killed in Saudi Hajj stampede crush. » http://www. usnews. com/news/world/

articles/201510/12//ap-count-over- 2400--killed-in-saudi-Hajj-stampede-crush

35 Gianluca Mezzofiore, «Mecca hajj stampede: Road closures for Saudi Arabia King Salman blamed for Eid-al-Adha catastrophe, » IB Times, September 25, 2015. http://www. ibtimes. co. uk/mecca-hajj-stampede-road-closures-saudi-arabia-king-salman-blamed-eid- al-adha-catastrophe-1521183

36 The Economist Intelligence Unit, 2 October 2015, «Saudi-Iranian hajj dispute is war by other means. » http://country. eiu. com/article. aspx?articleid=953556479&Country =Iran&topic=Politics_1

37 Dawn/AFP, 5 September 2016, «Khamenei calls for ending Saudi Arabia's control over Hajj. » https://www. dawn. com/news/1282226

38 Toby Matthiesen, Guardian, 23 January 2012. «Saudi Arabia: the Middle East's most under-reported conflict. » https://www. theguardian. com/commentisfree/2012/jan/23/ saudi-arabia-shia-protesters

39 Al Jazeera English, 12 July 2012, «Saudi Shia protesters mourned by 'thousands'. » http://www. aljazeera. com/news/middleeast/2012201271252423623334/07/. html

40 Guardian/Reuters, 25 October 2015, «Saudi Arabia Supreme Court upholds death sen-tence on Shia cleric. » https://www. theguardian. com/world/2015/oct/25/saudi-ara- bia-supreme-court-upholds-death-sentence-on-shia-cleric

41 BBC News, 3 January 2016, «Iran: Saudis face 'divine revenge' for executing al-Nimr. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-35216694

42 CBS News/AP, 24 January 2016, «Iran arrests 100 people over attack on Saudi embassy. »https://www. cbsnews. com/news/iran-arrests-100-people-over-attack-on- saudi-embassy/

43 Kim Sengupta, Independent, 12 May 2015, «Turkey and Saudi Arabia alarm

the West by backing Islamist extremists the Americans had bombed in Syria. » http://www. inde-pendent. co. uk/news/world/middle-east/syria-crisis-turkey-and-saudi-arabia-shock-west-ern-countries-by-supporting-anti-assad-jihadists-10242747. html

44 BBC News, 26 July 2015, «Syria: President Assad admits army strained by war. » http:// www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-33669069

45 Dilip Hiro, Tomgram, «Unipolar No More. » http://www. tomdispatch. com/ post/176196/tomgram %3A_dilip_hiro %2C_unipolar_no_more/v

46 Alastair Dawber, Independent, 10 December 2015, «Meeting of Syrian rebel groups in Saudi Arabia ends in chaos as Islamist militia Ahrar al-Sham walk out. » http://www. independent. co. uk/news/world/middle-east/meeting-of-syrian-rebel-groups-in-saudi- arabia-ends-in-chaos-as-islamist-militia-ahrar-al-sham-walk-a6768566. html

47 RT. com, 11 October 2015, «Putin and Saudi defence minister meet in Russia, agree on common goals in Syria. »https://www. rt. com/news/318324-putin-saudi-goals-syria/

48 Dilip Hiro, Tomgram, 11 October 2016, «Unipolar No More. » http://www. tomdis-patch. com/post/176196/tomgram %3A_dilip_hiro %2C_unipolar_no_more/

49 Shaun Walker and Jennifer Rankin, Guardian, 9 August 2016, «Erdogan and Putin dis-cuss closer ties in first meeting since jet downing. » https://www. theguardian. com/ world/2016/aug/09/erdogan-meets-putin-leaders-seek-mend-ties-jet-downing-russia- turkey

50 Fox News/Wall Street Journal, 6 October 2016, «Iraqi militia fighters pour into Syria to support Assad. » http://www. foxnews. com/world/201606/10//iraqi-militia-fight- ers-pour-into-syria-to-support-assad. html

51 Komsomol is the abbreviation of the kommunisticheskiy soyuz molodyozhi, Communist Youth Organization; Pravda means Truth

52 Daria Aslamova, Komsomolskaya Pravda, 12 October 2016, «President Bashar Al-Assad's interview given to Russia's Komsomolskaya Pravda. https://www. kp. ru/daily/26594/ 3609878/

53 BBC News, 22 December 2016, «The Syrian army says it has retaken full control of Aleppo, following the evacuation of the last group of rebels. » http://www. bbc. co. uk/ news/world-middle-east-38408548

54 Daria Aslamova, Komsomolskaya Pravda, 12 October 2016, «President Bashar Al-Assad's interview given to Russia's Komsomolskaya Pravda. https://www. kp. ru/daily/26594/ 3609878/

55 Mark Landler and David E. Sanger, New York Times, 13 October 2017, «Trump Disavows Nuclear Deal, but Doesn't Scrap It. » https://www. nytimes. com/201713/10//us/pol- itics/trump-iran-nuclear-deal. html

56 Scott Clement and Peyton M. Craighil, Washington Post, 30 March 2015, «Poll: Clear majority supports nuclear deal with Iran. » https://www. washingtonpost. com/world/ national-security/poll-2-to-1-support-for-nuclear-deal-with-iran/201530/03// 9a5a5ac8-d72011-e4-ba28-f2a685dc7f89_story. html?utm_term=. ed39bac6ee94

57 Reuters, 15 May 2015, «Obama vows to 'stand by' Gulf allies amid concern over Iran threat. » http://www. arabianbusiness. com/obama-vows—stand-by-gulf-allies-amid-con- cern-over-iran-threat-592848. html?tab=Articlm. Nothing came of the region-wide anti-missile defence system because of the simmering differences between GCC states regarding territorial disputes along their borders which inhibited them from compro-mising their exclusive control over defence

58 Siobhan Hughes, The Wall Street Journal, 11 September 2015, «U. S. House Votes Against Approving Iran Nuclear Deal. » http://www. wsj. com/articles/u-s-house-votes-against- approving-iran-nuclear-deal-1441993085

59 BBC News 14 July 2015, «Iran nuclear talks: Historic' agreement struck» http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-33518524; and Michael R. Gordon and David E. Sanger, New York Times, 14 July 2015, «Deal Reached on Iran Nuclear Program; Limits on Fuel Would Lessen With Time. » http://www. nytimes. com/201515/07//world/ middleeast/iran-nuclear-deal-is-reached-after-long-negotiations. html?_r=0

60 BBC News, 14 July 2015, «Iran nuclear crisis: Six key points. » http://www. bbc. co. uk/ news/world-middle-east-32114862

61 Claire Phipps, Matthew Weaver and Raya Jalabi, Guardian, 14 July 2015, «Agreement to end 12-year standoff over Iran's nuclear program. » https:// www. theguardian. com/ world/live/2015/jul/14/iran-nuclear-talks-deal-historic-vienna-live-updates

62 Tehran Bureau correspondent, Guardian, 16 July 2015, «Warning from Iran's hardlin-ers mars celebrations of nuclear deal. » https://www. theguardian. com/world/iran- blog/2015/jul/16/iran-judiciary-warning-nuclear-deal-celebrations

63 Ian Black, Guardian, 14 July 2015, «Iran nuclear deal: the winners and losers, » https:// www. theguardian. com/world/2015/jul/14/iran-nuclear-deal-the-winners-and-losers

64 Ibid

65 Saeed Kamali Dehghan, Guardian, 13 October 2015, «Iranian parliament passes bill approving nuclear deal. » https://www. theguardian. com/ world/2015/oct/13/iranian- parliament-passes-bill-approving-nuclear-deal

66 Mark Mazzetti and Helene Cooper, New York Times, 18 April 2015, «Sale of U. S. Arms Fuels the Wars of Arab States. » https://www. nytimes. com/201519/04//world/mid- dleeast/sale-of-us-arms-fuels-the-wars-of-arab-states. html

67 Andrea Shalal, Reuters, 14 October 2015, «Saudi Arabia signs deal for 320 PAC-3 mis-siles—Lockheed. » https://www. reuters. com/article/usa-saudi-lockheed/saudi-arabia- signs-deal-for-320-pac-3-missiles-lockheed-idUSL1N12E20K20151014

68 Warren Strobel and Jonathan Landay, Reuters, 10 October 2016, «Exclusive: As Saudis bombed Yemen, US worried about legal blowback. » https://www. reuters. com/arti- cle/us-usa-saudi-yemen/exclusive-as-saudis-bombed-yemen-u-s-worried-about-legal- blowback-idUSKCN12A0BQ

69 Associated Press, 28 October 2015, «Doctors Without Borders says Saudi-led airstrikes bomb Yemen hospital. » http://www. foxnews. com/world/201528/10//doctors-with- out-borders-says-saudi-led-airstrikes-bomb-yemen-hospital. html

70 BBC News, 14 December 2015, «Yemen conflict: Gulf commanders 'killed in missile strike. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-35091675

71 Fred Lambert, UPI, 15 December 2015, «Saudi, Emirati military commanders, doz-ens others killed in Houthi rocket strike in Yemen. » http://www. upi. com/Top_News/ World-News/201515/12//Saudi-Emirati-military-commanders-dozens-others-killed- in-Houthi-rocket-strike-in-Yemen/2061450200128/

72 Emily Estelle, Critical Threats, 3 December 2015, «2015 Yemen Crisis Situation Report: December 2. » http://www. criticalthreats. org/yemen/yemen-crisis-situation-reports- december-2–2015

73 BBC News, 16 December 2015, «Yemen conflict: Warring parties 'exchange prison-ers. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-35110869

74 Guardian, 18 December 2015, «Yemen's UN-sponsored peace talks suspended after ceasefire violation. » https://www. theguardian. com/world/2015/dec/18/yemens-un- peace-talks-suspended-ceasefire-violation

75 BBC News, 27 January 2016, «Yemen conflict: Saudi-led coalition targeting civilians, UN says. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-35423282

76 Shuaib Almosaw and Kareem Fahim, New York Times, 27 February 2016. http://www. nytimes. com/201628/02//world/middleeast/yemeni-civilians-killed-by-Air strike-on- market-witnesses-say. html

77 Orla Guerin BBC News, 26 March 2016, «A year of war that has set Yemen back decades. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-35901321

78 Mark Mazzetti and Eric Schmitt, New York Times, 13 March 2016. «Quiet Support for Saudis Entangles U. S. in Yemen. » http://www. nytimes. com/201614/03//world/mid- dleeast/yemen-saudi-us. html?ref=topics

79 Al Arabiya News/AFP, 11 March 2016, «Kerry holds talks on Syria, Yemen in Saudi Arabia. » http://english. alarabiya. net/en/News/middle-east/201611/03//Kerry-heads- to-Saudi-France-for-Syria-and-regional-talks. html

80 Nick Gladstone, New York Times, 28 March 2016, «Saudis Announce Prisoner Swap With Houthis in Yemen Conflict. » http://www. nytimes. com/201629/03//world/middlee- ast/saudis-announce-prisoner-swap-with-houthis-in-yemen-conflict. html

81 Reuters, 19 June 2016, «Yemen, warring sides swap 194 prisoners in Taiz. » https:// www. reuters. com/article/US-yemen-security-taiz-idUSKCN0Z409I

82 Reuters, 28 July, 2016, «Houthi-led bloc says to set up body to run Yemen with peace talks stalled. » http://www. reuters. com/article/us-yemen-security-presidency-idUSKCN 1081SC

83 Iona Craig, Guardian, 12 December 2017, «Bombed into famine: how Saudi air cam-paign targets Yemen's food supplies.»

84 Ewen MacAskill and Paul Torpey, Guardian, 16 September 2016, «One in three Saudi air raids on Yemen hit civilian sites, data shows. » https:// www. theguardian. com/ world/2016/sep/16/third-of-saudi-air-strikes-on-yemen-have-hit-civilian-sites-data- shows

85 BBC News, 9 October 2016, «Yemenis protest after funeral hall attack» http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-37603795; and Nadia Khomami, Guardian, 8 October 2016, «Airstrikes on Yemen funeral kill at least 140 people, UN official says. » https://www. theguardian. com/ world/2016/oct/08/saudi-led-coalition-airstrike-hit- yemen-funeral-officials-say

86 Jeremy M. Sharp, Eurasia Review, 12 December 2016, «Yemen: Civil War And Regional Intervention—Analysis. » http://www. eurasiareview. com/12122016-yemen-civil-war- and-regional-intervention-analysis/

87 Jeremy M. Sharp, Eurasia Review, 12 December 2016, «Yemen: Civil War And Regional Intervention—Analysis. » http://www. eurasiareview. com/12122016-yemen-civil-war- and-regional-intervention-analysis/

88 Ben Hubbard, New York Times, 26 Nov 2016, «Plight of Houthi Rebels Is Clear in Visit to Yemen's Capital, » http://www. nytimes. com/201626/11// world/middleeast/houthi- rebels-yemen. html

89 Nasser al Sakkaf, Middle East Eye, 19 October 2016. «Yemen's Dim Economy: Two Central Banks, No Pay, » http://www. middleeasteye. net/ news/yemen-s-dim-economy- two-central-banks-no-pay-735673393; and Jeremy M. Sharp, Eurasia Review, 12 December 2016, «Yemen: Civil War And Regional Intervention—Analysis. » http:// www. eurasiareview. com/12122016-yemen-civil-war-and-regional-intervention-analy- sis/

90 Helene Cooper, New York Times, 13 December 2016, «U. S. Blocks Arms Sale to Saudi Arabia Amid Concerns Over Yemen War. » https://www. nytimes. com/201613/12// us/politics/saudi-arabia-arms-sale-yemen-war. html

91 Wargeyska Saxafi, 9 December 2016, «The Iran-Houthi arms pipeline. » https://wargeys-kasaxafi. wordpress. com/201609/12//report-iranian-arms-sent-to-yemen-via-somalia/

92 US Institute of Peace, 5 April 2016, «US Navy Seizes Iranian Arms Shipment. » http:// iranprimer. usip. org/blog/2016/may/23/us-navy-seizes-iranian-arms-shipment

الفصل الرابع عشر

ترامب يغذّي الحرب الباردة بين خصومه في الخليج

افتَتح عامُ 2017 فصلاً تحول فيه اهتمام من يعيشون في أمريكا وأماكن أخرى إلى خليفة الرئيس باراك حسين أوباما، دونالد جون ترامب.[1] ولأول مرة في التاريخ الأمريكي، كان رئيسها التنفيذي في واشنطن رجل أعمال، وقطب عقارات، ولم يسبق له أن شغل منصب مسؤول منتخب من قبل، وكان مبتدئاً في الشؤون العامة، وخاصة في مجال العلاقات الدولية. وقد تبين أنه غير منضبط في منصبه تماماً، ولا يتمتع بالصبر أو الاهتمام بالتعلم، ويرفض قراءة الأوراق الموجزة، ويطلق تغريدات على تويتر، ويتنقل بعنف من موضوع إلى آخر، ومن نزاع إلى آخر، اعتماداً على ما رآه في نشرات الأخبار على القنوات الفضائية.[2]

شعبوي ديماغوجي يفوز بالبيت الأبيض

في 7 كانون الأول-ديسمبر 2015 دعا دونالد ترامب إلى «المنع التام والكامل لدخول المسلمين إلى الولايات المتحدة حتى يتمكن ممثلو بلادنا من معرفة ما يجري»، وكان قد اقترح في وقت سابق مراقبة المساجد، وقال: إنه منفتح على فكرة إنشاء قاعدة بيانات لجميع المسلمين الذين يعيشون في أمريكا. وقال مدير حملته كوري ليفاندوفسكي لشبكة:CNN إن الحظر لن ينطبق فقط على الأجانب المسلمين الذين يتطلعون إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة، ولكن أيضاً على المسلمين الذين يتطلعون لزيارة الولايات المتحدة كسائحين. "الجميع."

وجاء اقتراح ترامب الكاسح في أعقاب حادث إطلاق النار المميت، في سان برناردينو في كاليفورنيا، على يد متعاطفين يُشتبه أنهم مع تنظيم داعش، وفي اليوم التالي لطلب الرئيس أوباما من الأمة عدم "انقلاب بعضهم ضد بعض" بسبب الخوف.[3]

وقال ترامب، في خطاب ألقاه أمام تجمع انتخابي في بلوفتون بولاية ساوث كارولينا، في 16 شباط-فبراير 2016: «لم يكن العراقيون هم من هدموا مركز التجارة العالمي، لا. لم يكن

العراقيون. سوف تكتشف من الذي هدم مركز التجارة العالمي حقاً، لأن لديهم أوراقاً سرية للغاية هناك. قد تجد أنهم السعوديون، حسناً؟ لكنك سوف تكتشف ذلك». وقال في صباح اليوم التالي في برنامج فوكس آند فريندز: «من الذي فجر مركز التجارة العالمي؟ لم يكن العراقيون؛ لقد كانت السعودية! ألقِ نظرة على المملكة العربية السعودية، وافتح الوثائق». وكان يشير إلى الصفحات الـ 28 التي نُقِّحت من التحقيق المشترك الرسمي لعام 2002 في هجمات 11 أيلول-سبتمبر. ويُعتقد على نطاق واسع أن تلك الصفحات تشير إلى تورط النخب السعودية في تمويل الهجمات.[4]

بعد أن أقرّ مجلس الشيوخ الأمريكي، بتصويت شفهي، قانون محاسبة رعاة الإرهاب (جاستا JASTA)، الذي يسمح لعائلات ضحايا 11 أيلول-سبتمبر بمقاضاة الحكومة السعودية، وبعد اسبوع من تصويت مجلس النواب عليه شفهياً في 16 أيلول-سبتمبر 2016، استخدم أوباما حق النقض ضده في 23 أيلول- سبتمبر، وقال: إن قانون جاستا يمكن أن يعرض الولايات المتحدة، ودافعي الضرائب، وأفراد خدمتها، ودبلوماسييها إلى "خطر كبير" إذا جرى تبني قانون مماثل من قبل دول أخرى. وأدان ترامب حق النقض الذي استخدمه أوباما، ووصفه بأنه "مخز... [سوف] يُعد أحد أسوأ نقاط رئاسته"، مضيفاً أنه كرئيس سيوقع التشريع.[5] ولكن يحوجه شيء إلى فعل ذلك.

في 28 أيلول-سبتمبر أبطل مجلس الشيوخ حق النقض بأغلبية 97 صوتاً مقابل صوت واحد، ومجلس النواب بأغلبية 348 صوتاً مقابل 77 صوتاً. ودخل قانون جاستا حيز التنفيذ بعد يومين. ونتيجة لذلك قام 1500 ناجٍ مصاب و850 فرداً من عائلات ضحايا 11 أيلول-سبتمبر برفع دعوى جماعية ضد المملكة العربية السعودية في 20 آذار-مارس 2017، زاعمين أن الحكومة السعودية كانت على علم سابق بأن بعض مسؤوليها وموظفيها كانوا من عناصر تنظيم القاعدة أو المتعاطفين معه.

وقدّم ترامب شكوى ضد مملكة الصحراء بشأن قضية أخرى؛ ففي وقت مبكر من حزيران-يونيو 2015 غرد قائلاً: «يجب على المملكة العربية السعودية أن تدفع للولايات المتحدة مليارات الدولارات مقابل دفاعنا عنها، فلولانا، لكانت تلاشت!»[6] وبعد تسعة أشهر أُتيحت له الفرصة للتعامل مع الموضوع بإسهاب خلال المقابلات التي أجراها مع ماجي هابرمان وديفيد إي. سانجر، والتي نُشرت في صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ 26 آذار-مارس 2016، وقال: إنه، بدون حماية الولايات المتحدة، ستختفي المملكة العربية السعودية من الوجود، ولأنها "آلة نقدية"، يجب عليها أن تعوض واشنطن عن المبلغ الذي أنفقه البنتاغون لحماية المملكة.[7]

ولم يكن لدى صناع السياسة السعوديين أي نية للتورط في الشؤون الداخلية لأمريكا، ومع ذلك، خلال زيارته لواشنطن في تموز-يوليو، رفض وزير الخارجية السعودي عادل الجبير تعليقات ترامب قائلاً لشبكة CNN: إن المملكة السعودية "تتحمل ثقلها" كحليف.[8] الحقائق المجردة كانت تتحدث عن نفسها. إذ كانت المملكة العربية السعودية، الدولة التي يبلغ عدد سكانها 30 مليون نسمة، تمتلك ثالث أعلى ميزانية دفاعية في العالم، بعد أمريكا والصين في عام 2015.[9]

لكن ترامب أصرّ. وفي كانون الثاني-يناير2017، بعد ثلاثة أشهر من توليه الرئاسة، اشتكى من أن السعودية لا تتعامل مع الولايات المتحدة بشكل عادل، وأن واشنطن تخسر "كمية هائلة من المال" في الدفاع عن المملكة.[10]

وسعى مراسلو صحيفة نيويورك تايمز للحصول على آراء ترامب بشأن الاتفاق النووي بين إيران والقوى العالمية الست، فقال: إن الصفقة "لم تكن طويلة بما فيه الكفاية"، وأكد أنه لم يكن ليعيد أبداً 150 مليار دولار إلى طهران.[11]

وكان مدقق الحقائق في صحيفة نيويورك تايمز أو أي منظمة إعلامية أمريكية أخرى سيشير إلى ثلاث حقائق بارزة لترامب: كانت أمريكا واحدة من القوى العالمية الست التي تتفاوض مع إيران، وكان على الست أن يتفقوا على كل نقطة من النقاط العديدة قيد المناقشة. وكان المبلغ في المفاوضات 100 مليار دولار، وليس 150 مليار دولار؛ والأهم، بما أن أصول إيران الخارجية البالغة 100 مليار دولار كانت محفوظة بشكل رئيسي في بنوك في الصين والهند واليابان وكوريا الجنوبية وتركيا وجُمدت منذ عام 2012 بموجب العقوبات، فأن إلغاء تجميد هذا المبلغ ليس له أي علاقة بواشنطن.

المنعطفات المذهلة لترامب

في 27 كانون الثاني-يناير نشر البيت الأبيض الأمر التنفيذي للرئيس ترامب بعنوان "حماية الأمة من دخول الإرهابيين الأجانب إلى الولايات المتحدة". وفرض بموجبه حظراً لمدة تسعين يوماً على دخول مواطني إيران، والعراق، وسورية، واليمن، والسودان، وليبيا، والصومال، إلى الولايات المتحدة. لقد فاجأ الكثيرون غياب المملكة العربية السعودية عن قائمة الدول المحظورة، بعد أن أشار إليها ترامب في وقت سابق بإصبع الاتهام فيما يتعلق بهجمات 11 أيلول-سبتمبر. وعندما سأل ديفيد موير، على قناة (ABC News)، عن سبب عدم إدراج أفغانستان، وباكستان، والمملكة العربية السعودية في القائمة المحظورة، أجاب ترامب:

«سنجري تدقيقاً شديداً في جميع الحالات، وأعني المتطرفة».[12] وكان المعنى الضمني هو أن المملكة العربية السعودية كانت في المنطقة الرمادية. وقد منع الأمر التنفيذي خطط سفر حوالي 60 ألف مسلم من حاملي تأشيرات الولايات المتحدة، وجرى الطعن فيه على الفور في المحاكم الأمريكية.

وفي 14 شباط-فبراير أوقف قاضٍ اتحادي الأمر الأصلي في فرجينيا لأنه ربما كان دافعه "التحيز الديني" وليس "مخاوف تتعلق بالأمن القومي العقلاني"، وهو ما ينتهك التعديل الأول للدستور الذي يضمن حرية العبادة. ودعماً للحكم استشهد القاضي بدعوة المرشح ترامب في 7 كانون الأول-ديسمبر 2015 لفرض حظر شامل على دخول جميع المسلمين إلى الولايات المتحدة، وكذلك تعليقات مستشاري ترامب قبل الانتخابات وبعدها، كدليل. وجاء في الحكم أن «حظر المسلمين كان محور حملة الرئيس لأشهُرٍ عِدّة، وكان البيان الصحفي الذي يدعو إلى ذلك لا يزال متاحاً على موقعه على الإنترنت بدءاً من يوم تقديم هذا الرأي في المذكرة»[13] ونتيجة لذلك أصدر ترامب أمراً تنفيذياً جديداً، وهو أمر أكثر تفصيلاً وأضيق نطاقاً، ينطبق على ستة بلدان ذات أغلبية مسلمة، بعد استبعاد العراق. ولا يزال الأمر مفتوحاً أمام الطعن القضائي.

ومن المثير للاهتمام أنه في حين احتدم الجدل حول حظر ترامب لسفر المسلمين في أمريكا، اختارت الحكومة السعودية عدم ممارسة الضغوط من أجل عقد قمة طارئة لمنظمة التعاون الإسلامي. وفي أجندتها كانت المصالح الضيقة للمملكة السعودية أكثر أهمية بكثير من حقوق السكان المسلمين الأوسع في جميع أنحاء العالم. وكانت السعودية لاحظت باستحسان كبير قرار ترامب التراجع عن إنجازات السياسة الخارجية لأوباما الذي تراجعت شعبيته لدى الرياض، خاصة بعد اتفاق واشنطن النووي مع إيران، وتدقيق إدارة أوباما في استهداف الرياض المتكرر للمواقع المدنية في اليمن، ورأت ذلك أرضية مشتركة كافية لتحديد موعد لقاء بين ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان وترامب في واشنطن. وجرت ترقية الترتيب الأصلي إلى غداء عمل بين الاثنين بناءً على توصية جاريد كوشنر، صهر ترامب وكبير مستشاريه. وكُلف كوشنر، وهو يهودي أرثوذكسي وقطب عقارات، بمهمة التوفيق بين الإسرائيليين والفلسطينيين. وتصور أن تساعد المملكة العربية السعودية في هذه العملية رغم أن المملكة لم تعترف بإسرائيل. ومع ذلك، فإن غداء العمل بين ترامب وبن سلمان ومساعديهما المقربين في البيت الأبيض سار على ما يرام، حيث ورد أن ترامب وعد برفع تعليق حوالي 16 ألف مجموعة من الذخائر الموجهة التي فرضتها الإدارة السابقة لتعزيز دعم

واشنطن للرياض في حملتها العسكرية في اليمن. لقد مهّد ذلك الطريق أمام المملكة العربية السعودية لتصبح الوجهة الخارجية الأولى لترامب كرئيس، وكان من الصعب التوفيق بين هذا القرار والحكم الذي أصدره قاض في ولاية فرجينيا قبل شهر تقريباً بأن قرار ترامب بحظر السفر في 27 كانون الثاني-يناير كان مبنياً على التحيز الديني ضد المسلمين.

ومع تأكيد خطط سفر ترامب استعد الملك سلمان وابنه المفضل للترحيب بالرئيس الأمريكي بطريقة مذهلة. لقد بذلوا قصارى جهدهم لتدليك غرور ترامب النرجسي بالإطراء المفرط، ولتأكيد مؤهلاتهم المناهضة للتطرف في عيون الإدارة الجديدة في واشنطن، ولبناء جبهة مناهضة لإيران بين الدول الإسلامية.

وكعرض تمهيدي للترحيب الفخم الذي كان ينتظر الرئيس والوفد المرافق له في الرياض، عرضت إدارة فندق الريتز كارلتون صورة بارتفاع خمسة طوابق لترامب على واجهته، وأرفقتها بصورة ضخمة ومبهجة مماثلة للملك سلمان.[14] وعند وصول الضيوف الأمريكيين إلى الرياض، في 20 أيار- مايو، وجدوا أن بأعلام الولايات المتحدة والسعودية تصطف بالتناوب على طول أميال في شوارع العاصمة، وبالإضافة إلى ذلك، امتلأت المدينة بلوحات إعلانية تحمل صور ترامب وسلمان تحت شعار "معاً ننتصر". ولكن ضد من؟ لقد ترك ذلك لخيال المشاهد.

وبعد محادثة فردية بين ترامب وسلمان وقّع الزعيمان وثائق تتضمن صفقة أسلحة وصفها البيت الأبيض بأنها تبلغ قيمتها 350 مليار دولار على مدى العقد المقبل. وقبل يوم واحد، قال مسؤولون في البنتاغون لوكالة أسوشيتد برس: تبلغ قيمة "البيع الفوري" 110 مليارات دولار، ويشمل «دبابات أبرامز، وسفناً قتالية، وأنظمة دفاع صاروخية، ورادارا، وتكنولوجيا الاتصالات والأمن السيبراني».[15] ولكن حتى الرقم الأدنى البالغ 110 مليار دولار تبين أنه مبالغ فيه للغاية.

وقد جرى بالفعل عرض العديد من العناصر المدرجة كجزء من الحزمة على الرياض خلال إدارة أوباما، بما في ذلك نظام الدفاع الصاروخي باتريوت، والمقاتلات السطحية المتعددة المهام، وطائرات الهليكوبتر الهجومية، وأنظمة المدفعية. وبالتالي فإن ما أُعلن على أنه صفقة جديدة كان في الواقع مزيجاً من العروض

كانت الولايات المتحدة قد قطعت وعوداً بها بالفعل، ولم تفِ بها بعد.[16] وكان الغرض النهائي من ذكر الأرقام المرتفعة للأسلحة الأمريكية، التأكيد على دعم إدارة ترامب غير المشروط للرياض، وعدائها لطهران، وتركيزها على "الوظائف، الوظائف، الوظائف". كما استمر ترامب في الترويج لذلك.

وقبل أن يتناول عشاءه لوّح ترامب ذو المظهر الغريب بالسيف في رقصة السيف التي شارك فيها الذكور فقط، وهي إحدى مميزات المملكة الصحراوية [السعودية]. وكانت ذروة زيارة ترامب هي الكلمة التي ألقاها أمام القمة العربية الإسلامية. ودعت الحكومة السعودية رؤساء 57 دولة عضو في منظمة التعاون الإسلامي باستثناء إيران وسورية والسلطة الفلسطينية. ومن بين الدول الأربع والخمسين التي حضرت القمة في الرياض في 21 أيار-مايو، كانت أذربيجان والبحرين والعراق دولاً ذات أغلبية شيعية.[17]

وقال ترامب لجمهوره: «يجب أن نكون متحدين في السعي لتحقيق الهدف [الشامل] الوحيد... وهو التغلب على التطرف وقهر قوى الإرهاب»، وأضاف: « إن الخسارة الحقيقية لداعش والقاعدة وحزب الله وحماس والعديد من الجماعات الأخرى لا يُقاس بعدد القتلى فقط. بل يجب أن يُقاس أيضاً بأجيال من الأحلام التي تبخرت... مستقبل أفضل لا يمكن أن يكون ممكناً إلا إذا طردت دولكم الإرهابيين والمتطرفين». ثم التفت إلى الهدف المحدد الذي كان يدور في ذهنه فقال: «ومن لبنان إلى العراق إلى اليمن تقوم إيران بتمويل وتسليح وتدريب الإرهابيين والميليشيات وغيرها من الجماعات المتطرفة التي تنشر الدمار والفوضى في جميع أنحاء المنطقة. لقد غذّت إيران نيران الصراع الطائفي والإرهاب لعقود من الزمن... وكان تدخلها في سورية من بين الأكثر مأساوية وزعزعة للاستقرار». واختتم إدانته للجمهورية الإسلامية على النحو التالي: «إن ضحايا النظام الإيراني الأطول معاناة هم شعبه. تتمتع إيران بتاريخ وثقافة غنية، لكن شعب إيران تحمل المشقة واليأس في ظل سعي قادته المتهور إلى الصراع والإرهاب».[18]

لقد حدث أن المواطنين اليائسين والذين يعانون في إيران مارسوا حقهم في اختيار زعيمهم للسنوات الأربع القادمة في 19 أيار-مايو. وفي الواقع، كانت هذه هي المرة الثانية عشرة التي يُمنح فيها هؤلاء الإيرانيون المضطهدون الفرصة لانتخاب رئيسهم التنفيذي منذ الثورة الإسلامية عام 1979. والآن، أعادوا انتخاب حسن روحاني رئيساً بفارق 57 إلى 39 %، متفوقاً على منافسه المحافظ إبراهيم رئيسي. وكانت أربع جولات من المناظرات المتلفزة بين المتنافسين قد سبقت الاقتراع.[19]

وبعد الكلمات جاء افتتاح المركز العالمي لمكافحة الفكر المتطرف، وقد جرى ذلك، بشكل رمزي، بمشهد يجمع سلمان وترامب والرئيس المصري عبد الفتاح السيسي وهم يلمسون جرماً سماوياً متوهجاً مستقبلياً. وبعد ذلك عقد ترامب سلسلة من الاجتماعات الثنائية التي حظيت بتغطية إعلامية كبيرة مع القادة العرب، بدءاً بالسيسي. وقال السيسي عبر مترجم

لترامب: «أنت شخصية فريدة قادرة على فعل المستحيل». وأجاب ترامب مبتسماً ابتسامة عريضة: «أنا أوافق!».[20]

وقد التقط القادة العرب حقيقة أن ترامب كان لديه شهية لا تنضب لتمجيد الذات، فقد وجدوا أنه من السهل تملقه لأنهم كانوا هم أنفسهم في كثير من الأحيان محاطين بالمتملقين.

المتغطرس بن سلمان يُلقي التحدي على إيران

وأعرب الملك سلمان ووليُّ وليّ العهد عن سعادتهما بتعيين ترامب للجنرال المتقاعد من مشاة البحرية الأمريكية جيمس ماتيس وزيراً للدفاع؛ فقد كان ماتيس مناهضاً بشدة لإيران، واصفاً الجمهورية الإسلامية بأنها «التهديد الأكثر ديمومة للاستقرار والسلام في الشرق الأوسط». وفي آب-أغسطس 2010 سأل الرئيس أوباما ماتيس، القائد المعين حديثاً للقيادة المركزية الأمريكية (CENTCOM)، عن أولوياته، فأجاب: "إيران، وإيران، وإيران". وتنبع كراهيته من حقيقة أن مشاة البحرية الأمريكية، المتمركزين في العراق بعد عام 2003، قد تكبدوا العديد من الضحايا بسبب جهاز فتاك إيراني الصنع، يُعرف باسم العبوة النافذة الخارقة (EFP)، الذي يطلق رصاصة من النحاس المصهور قادرة على اختراق الدروع، تستخدمها القوات الشيعية المحلية. ولا عجب أنه، عندما كان وزير الدفاع ماتيس، اختار تقديم دعم أكثر قوة للتدخل الذي تقوده السعودية في اليمن، بما في ذلك المساعدة الإضافية في التخطيط والمزيد من تبادل المعلومات الاستخبارية.

وقد اشتد عداء ترامب تجاه إيران بمجرد أن تشرب وجهة نظر مستشاره الأول للأمن القومي، مايكل فلين، وهو جنرال سابق آخر. لقد خلط بين التطرف الشيعي المدعوم من طهران والجهادية السُنّية، متجاهلاً الصراع العقائدي بين السُنّة والشيعة، لأنه يناسب موقفه المتعصب المناهض لإيران. في خطابه أمام القمة العربية الإسلامية، جمع ترامب إيران والجهاديين السُّنّة معاً كجزء من شرّ الإرهاب نفسه.[21]

وقد شجعت هذه العوامل بن سلمان على اتخاذ موقف علني مناهض لإيران بقوة، وجاء ذلك في 1 أيار-مايو 2017 في مقابلته التي استمرت لمدة ساعة على قناة العربية التلفازية المملوكة للسعودية ومقرها دبي، والتي بُثَّت في وقت واحد على العديد من الشبكات الفضائية المملوكة للسعودية. ونظراً لادعاءاته المتكررة بأن الحوثيين في اليمن هم من الجراء فقد سُئل عما إذا كان يرى إمكانية لإجراء محادثات مباشرة مع طهران. فأشار في رده إلى اعتقاد الشيعة الاثني عشرية بانتظار وصول الإمام الثاني عشر الغائب -الذي اختفى حوالي

عام 873م- باسم المهدي، أو المسيح، لتحقيق العدالة للعالم، متسائلاً بطريقة خطابية: «كيف يمكنني أن أصل إلى التفاهم مع شخص أو نظام لديه عقيدة راسخة مبنية على أيديولوجية متطرفة؟». ومضى يقول: «نحن هدف أساسي للنظام الإيراني»، واتهمه بالسعي للاستيلاء على الأماكن المقدسة الإسلامية في السعودية، وقال: «لن ننتظر حتى تكون المعركة في السعودية. وبدلاً من ذلك، سنعمل على أن تكون المعركة لديهم في إيران».[22]

وفي غضون أسابيع، سيُترجم ذلك إلى سحق الحكومة السعودية بوحشية للاحتجاجات الشيعية المحتدمة في العوامية، مسقط رأس آية الله نمر النمر، الذي أُعدم في كانون الثاني-يناير 2016. وفي المقابلة نفسها، وفي محاولة منه لإظهار الشجاعة، رغم مغامرته المكلفة في اليمن، ادعى بن سلمان أن القوات السعودية يمكن أن تقتلع المتمردين "في غضون أيام قليلة"، لكن القيام بذلك سيقتل الآلاف من القوات السعودية والعديد من المدنيين. وأضاف أن التحالف ينتظر أن يتعب المتمردون. واختتم: «إن الوقت في صالحنا».[23]

أثار هجوم ترامب العنيف على إيران في القمة العربية الإسلامية سلسلة من الأحداث التي ستؤدي على مدى الأشهر القليلة المقبلة إلى نتائج تتعارض مع الأهداف المعلنة لابن سلمان والرئيس الأمريكي.

في 23 أيار-مايو حضر أمير قطر تميم بن حمد آل ثاني حفل تخرج عسكري في الدوحة، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم نقلت وكالة الأنباء القطرية (QNA) التي تديرها الدولة تصريحات للحاكم حول العديد من القضايا الإقليمية الحساسة وعلاقة قطر مع ترامب. ونُقل عن الأمير تميم قوله: «ليس هناك حكمة في العداء تجاه إيران»، وإن علاقته مع إدارة ترامب كانت "متوترة" على الرغم من اللقاء الودي الذي أجراه مع الرئيس الأمريكي في الرياض قبل يومين. وقبل الحديث قال ترامب: «إن أحد الأشياء التي سنناقشها هو شراء الكثير من المعدات العسكرية الجميلة لأنه لا أحد يصنعها مثل الولايات المتحدة»، مضيفاً: «وبالنسبة لنا هذا يعني الوظائف، ويعني أيضاً، بصراحة، أن هناك قدراً كبيراً من الأمن هنا، وهو ما نريده».[24] وقد كانت هذه إشارة إلى بيع قطر ما يصل إلى 72 طائرة مقاتلة من طراز بوينغ F-15 مقابل 21 مليار ومئة مليون دولاراً. كانت إدارة أوباما قد وافقت عليها في تشرين الثاني-نوفمبر.[25]

والآن نُقل عن الأمير تميم نفسه قوله: إنه لا يعتقد أن ترامب سيستمر لفترة طويلة في منصبه. وقد وصف علاقات قطر مع [كيان] إسرائيل بأنها "جيدة"، وأعرب عن أمله في المساعدة في التوسط في اتفاق سلام في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. ونسبت وكالة الأنباء

القطرية تصريحات الأمير تميم الإيجابية بشأن حزب الله، وحماس، وكذلك جماعة الإخوان المسلمين. وقد التقطت هذه التصريحات العديد من وسائل الإعلام والمذيعين الآخرين في العالم العربي، مما أثار ردود فعل معادية في المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، فحجبت حكوماتهم الموقع الرئيسي لقناة الجزيرة القطرية، التي عدّوها لفترة طويلة منتقدة لهما.[26]

كان التناقض بين استضافة قطر لحزب الله، وحماس، وكذلك جماعة الإخوان المسلمين، والحفاظ في الوقت نفسه على علاقات ودية مع [كيان] إسرائيل فاضحاً للغاية لدرجة أنه كان ينبغي عَدّ قصة وكالة الأنباء القطرية المفترضة مزيفة على الفور. وقالت السلطات القطرية ذلك من خلال زعمها أن موقع وكالة الأنباء القطرية قد جرى اختراقه. ولم يكن هناك شك في أن الأمير تميم قد أدلى بكل هذه التصريحات المزعومة لأنه لم يلقِ كلمة في حفل التخرج. ولم يكن ذلك مهماً بالنسبة لوسائل الإعلام السعودية والإماراتية. لقد استخدموا القصة المزيفة لمهاجمة قطر. وصرخت صحيفة عكاظ اليومية ومقرها جدة: «قطر تقسم الصف، وتنحاز إلى أعداء الأمة»، وذكرت صحيفة عرب نيوز الصادرة في الرياض أن التعليقات أثارت "الغضب" بين دول الخليج الأخرى.[27]

ومن خلال الاستفادة من الحرب الإعلامية اختار بن سلمان وولي عهد الإمارات العربية المتحدة محمد بن زايد آل نهيان البحرين ومصر للتحرك ضد قطر، وقطعا العلاقات الدبلوماسية مع قطر في 5 حزيران-يونيو، وأغلقا جميع الحدود والممرات البحرية والمجال الجوي أمام قطر، ومنعا مواطنيها من السفر إلى قطر، ومنعا جميع المقيمين القطريين من السفر إلى بلدانهم. وزعم السعوديون على وجه الخصوص أنهم يركزون على دور قطر المزعوم في تمويل الجماعات الإرهابية في المنطقة؛ وقد أذهلت هذه الخطوة المسؤولين وسكان الإمارة الصغيرة.

وعلى النقيض من ذلك قبل ترامب المتهور، الذي لم يكن على علم بالموضوع، على الفور الخطوة السعودية بقيمتها الاسمية، حتى إنه ذهب إلى الحصول على الفضل في ذلك إذ قال في تغريدة له: «خلال رحلتي الأخيرة إلى الشرق الأوسط ذكرت أنه لم يعد من الممكن تمويل الأيديولوجية الراديكالية. وأشار القادة إلى قطر، انظروا!».[28]

إن الاستنتاج المتسرع الذي توصل إليه ترامب، والذي استند إلى ذاكرة معيبة، ويكاد يصل إلى عدم الكفاءة، لم يكشف عنه البنتاغون في اليوم نفسه. وفي 6 حزيران-يونيو جدد المتحدث باسمه الثناء على قطر لاستضافتها قاعدة جوية أمريكية حيوية و"لالتزامها الدائم

بالأمن الإقليمي".[29] والحق أن التعاون العسكري بين الدوحة وواشنطن كان قد بدأ في أوائل عام 1992 في أعقاب حرب الخليج عام 1991، ففي عام 1996 بنيت قطر قاعدة العديد الجوية على بعد 25 ميلاً جنوب غربي الدوحة، بتكلفة تزيد على مليار دولار، وسمح أمير قطر حمد آل ثاني للبنتاغون، عبر اتفاق سري، باستخدام هذه القاعدة في حملته الجوية ضد تنظيم القاعدة وطالبان بعد هجمات 11 لأيلول-سبتمبر. ولم يُعرف هذا الأمر إلا في شهر آذار-مارس 2002 حين توقف نائب الرئيس الأميركي ديك تشيني هناك خلال رحلة إلى المنطقة بصحبة مجموعة من المراسلين. وفي عام 2003 تحسنت العلاقات العسكرية القطرية الأميركية بشكل كبير عندما بدأت إدارة بوش الاستعداد لغزو العراق. ورفض الحاكم الفعلي للمملكة العربية السعودية في ذلك الوقت، ولي العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز، السماح للبنتاغون باستخدام منشأة العمليات المتطورة في قاعدة الخرج الجوية التي كانت قد أعدتها لشن ضربات جوية ضد العراق، فجاء الأمير القطري لنجدة واشنطن، وسمح للبنتاغون بنقل جميع معداته من الخرج إلى قاعدة العديد الجوية[30]، التي ستصبح المقر الرئيسي للقيادة المركزية الأمريكية، وهي المنشأة الرئيسية للبنتاغون في المنطقة. وفي حزيران-يونيو 2017 كانت قاعدة العديد تضم ما لا يقل عن 10 آلاف جندي أمريكي، و100 طائرة حربية، ونحو 100 من أفراد القوات الجوية الملكية البريطانية، وقد نفذوا ضربات جوية على أهداف لتنظيم الدولة الإسلامية في أفغانستان وسورية والعراق.[31]

وفي مقاومة الاعتراف بالخطأ أو الهزيمة واصل ترامب اتباع القيادة السعودية بشكل أعمى. وفي 10 حزيران-يونيو اتهم قطر بأنها "ممولة للإرهاب على مستوى عالٍ للغاية"، وطالب بقطع هذا التدفق النقدي حتى تتمكن قطر من الانضمام مرة أخرى إلى دائرة الدول المسؤولة.

وفي الدوحة، أعادت دانا شل سميث، سفيرة الولايات المتحدة في قطر، نشر بيان من وزارة الخزانة الأمريكية يشيد بقطر لقمعها تمويل المتطرفين. والآن أعربت قطر عن استعدادها للتوقيع على المقترحات الجديدة التي تقوم وزارة الخزانة بصياغتها لتعزيز الضوابط ضد تمويل الجماعات المسلحة.[32]

وظلت المواقف المتناقضة لإدارة ترامب تسير على نفس النهج، ففي 15 حزيران-يونيو وقّع وزير الدفاع الأمريكي ماتيس مع نظيره القطري خالد العطية صفقة بقيمة 12 مليار دولار لتزويد قطر بما يصل إلى 36 طائرة مقاتلة من طراز بوينج إف-15، وقال مسؤول قطري في الدوحة «هذا بالطبع دليل على أن المؤسسات الأمريكية معنا، لكننا لم نشك في ذلك أبداً»، وأردف قوله: «إن جيوشنا مثل الإخوة».[33]

في 21 حزيران-يونيو أحدث الملك سلمان زلزالاً دبلوماسياً في الخليج عندما عزل محمد بن نايف من منصب ولي العهد، وعين بدلاً عنه ابنه المفضل محمد، مصمماً على التزام الهدوء والعقلانية، وأرسل أمير قطر تميم البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً برقية تهنئة إلى العاهل السعودي، «بمناسبة اختيار صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان آل سعود وليا للعهد»، معرباً عن أمله في «علاقات أخوية بين البلدين الشقيقين»، وهي رسالة أوردتها وكالة الأنباء القطرية التي تديرها الدولة، ونُشرت على وسائل التواصل الاجتماعي.[34]

واعتلى الأمير تميم العرش في حزيران-يونيو 2013 بعد التنازل الطوعي لوالده حمد عن العرش، وهو حدث فريد من نوعه في تاريخ شبه الجزيرة العربية. لكن بن سلمان، مهندس الحملة المناهضة لقطر، كان يسير على مسار محدد سابقاً. وتنفيذاً لخطة متفق عليها سلفاً أصدر المحور المناهض لقطر، في 22 حزيران-يونيو، قائمة تضم ثلاثة عشر مطلباً شاملاً يجب أن تقبلها قطر في غضون عشرة أيام مقابل التخلي عن الحظر الدبلوماسي والتجاري.

بن سلمان يكشف عن عقليته المناهضة لإيران

ومن الجدير بالملاحظة أن القائمة تصدّرها مطلب «الحد من العلاقات الدبلوماسية مع إيران وإغلاق بعثاتها الدبلوماسية». إن محاولة دق إسفين بين قطر وإيران كان محكوماً عليها بالفشل لأسباب اقتصادية صرفٍ؛ إذ تشترك قطر في حقل غاز الشمال مع إيران، ويعد هذا الحقل، الذي تبلغ مساحته 3750 ميلاً مربعاً، أكبر حقل من نوعه في العالم، حيث يقع في منطقة جنوب بارس، التي يبلغ حجمها حوالي ثلث إجمالي الحقل، ضمن المياه الإقليمية الإيرانية، ويعادل إجمالي احتياطيات الغاز القابلة للاستخراج في هذا الحقل 230 مليار برميل من النفط، وهو في المرتبة الثانية بعد احتياطيات المملكة العربية السعودية من النفط التقليدي. ويزود الدخل من الغاز والنفط قطر بأكثر من ثلاثة أخماس ناتجها المحلي الإجمالي وسبعة أثمان دخلها من الصادرات. ومع عدد سكان يبلغ مليونين و400 ألف نسمة فقط، منهم 300 ألف مواطن فقط[35]، كان نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي في قطر، البالغ 74.667 دولاراً، هو الأعلى على هذا الكوكب؛ وما دام كان الأمر كذلك لا تستطيع الدوحة أن تصبح خصماً لإيران.

وجاء في المطلب الثالث: «إغلاق قناة الجزيرة والمحطات التابعة لها». لقد أثارت قناة الجزيرة منذ فترة طويلة أعصاب المملكة العربية السعودية وغيرها من الأنظمة الملكية العربية الاستبدادية، وتبث باللغتين العربية والإنجليزية، وهي متاحة في 100 دولة، مما يمنح

قطر مكانة بارزة ووصولاً إلى ما هو أبعد من العالم العربي. وكانت قناة الجزيرة من بنات أفكار أمير قطر حمد بن خليفة آل ثاني الذي استولى على السلطة في انقلاب غير دموي في حزيران-يونيو 1995 بينما كان والده الأمير خليفة بن حمد في سويسرا. وفي خطوة منسقة ألغى الأمير حمد وزارة الإعلام، وخفف الرقابة على وسائل الإعلام وخصص 140 مليون دولار على مدى السنوات الخمس المقبلة لإنشاء قناة تلفازية فضائية مستقلة تبث على مدار 24 ساعة.

بدأت قناة الجزيرة البث باللغة العربية في تشرين الثاني-نوفمبر 1996، ثم بدأت قناتها الإنجليزية في البث بعد عشر سنوات. ومنذ البداية كان طاقم التغطية الصحفية يتكون بالكامل تقريباً من الصحفيين المدربين في هيئة الإذاعة البريطانية الذين فقدوا وظائفهم قبل سبعة أشهر عندما ألغت قناة أوربت التلفازية، ومقرها روما، والمملوكة لأمير سعودي، عقدها لإنتاج الأخبار باللغة العربية لهيئة الإذاعة البريطانية. لقد حطمت الجزيرة القالب الشرق أوسطي للأخبار التلفازية المرتبطة بوكالات المعلومات والاستخبارات المحلية. وناقش برنامجان نقاش أسبوعيان -الاتجاه المعاكس والرأي الآخر- مواضيع مثيرة للجدل بما في ذلك الدين، والسياسة، والعلاقات العربية مع [كيان] إسرائيل، ودور الملوك في العالم العربي. وخلال انتفاضات الربيع العربي عام 2011 كانت الجزيرة المصدر الرئيسي للأخبار الموثوقة. وقد دفعت الشعبية المتزايدة لقناة الجزيرة العديد من الحكومات العربية إلى السماح بمساحة أكبر لوسائل الإعلام التي تسيطر عليها الدولة أو الموجهة في بلدانها. ومع ذلك، ظلت قناة الجزيرة شوكة في خواصر الأنظمة الاستبدادية، وخاصة في مصر والمملكة العربية السعودية.

إن قائمة المطالب التي تقودها السعودية لا تمثل تحدّياً لسيادة قطر فحسب، بل لسيادة تركيا أيضاً. وكان على رأس قائمة المطالب «الإنهاء الفوري للوجود العسكري التركي في قطر، وإنهاء أي تعاون عسكري مشترك مع تركيا داخل قطر». ووصف وزير الدفاع التركي فكري إشيق هذا الإنذار بأنه تدخل غير مقبول في علاقات أنقرة مع الدوحة. لقد استُهدفت تركيا من قبل المحور المناهض لقطر لأنها برزت، تحت حكم رجب طيب أردوغان، زعيم حزب العدالة والتنمية الإسلامي منذ عام 2003، كمؤيد قوي لجماعة الإخوان المسلمين العابرة للحدود الوطنية؛ فقد فاز مرشحها، محمد مرسي، بأول انتخابات رئاسية حرة ونزيهة في التاريخ المصري في حزيران-يونيو 2012. وقد أشادت الرياض بإطاحة الجنرالات له بعد عام، وأعلنت حزمة إنقاذ بقيمة 12 مليار دولار للنظام العسكري. وعلى النقيض من ذلك أدانت طهران الانقلاب العسكري ضد الرئيس المنتخب شعبياً.

وفي آذار-مارس 2014 أعلنت السعودية جماعة الإخوان المسلمين منظمة إرهابية؛ وينبع عداؤها ضدها من حقيقة مفادها أن زعماء الجماعة الأخيرة أثبتوا في مصر أن حكم الشريعة يمكن ترسيخه في بلد مسلم عن طريق صناديق الاقتراع، وأكدوا من جديد أن السلطة المطلقة تقع في أيدي الشعب، وليس الأسرة الحاكمة. ومن الجدير بالذكر أن جماعة الإخوان المسلمين لم تكن على قائمة واشنطن للمنظمات الإرهابية.[36] وبينما اصطفت تركيا مع قطر، ظلت معظم الدول الإسلامية على الحياد. ودعت إندونيسيا، أكبر دولة إسلامية من حيث عدد السكان، إلى الحوار بين الرياض والدوحة لنزع فتيل الأزمة، وكذلك فعلت باكستان على الرغم من حقيقة أن رئيس الوزراء نواز شريف حافظ على علاقات وثيقة مع العائلة المالكة السعودية لسنوات عديدة. وحتى داخل دول مجلس التعاون الخليجي الست، ظلت الكويت وعُمان فوق النزاع. فعلت الكويت ذلك لأن 30 % من مواطنيها البالغ عددهم مليوناً و23 ألف نسمة هم من الشيعة، كما أن لديها برلماناً منتخباً منذ عام 1962 حيث يجري التعبير عن الآراء بحرية. أما عُمان، فإنها لا تستطيع أن تتحمل استعداء إيران لأن مياهها الإقليمية تتداخل مع مياه إيران في مضيق هرمز الإستراتيجي.

وبصرف النظر عن أمريكا لم تدعم أي دولة غربية أخرى التحرك المناهض لقطر من قبل الرياض وحلفائها العرب الثلاثة. ويمتلك صندوق الثروة السيادية في الدوحة، الذي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً، والذي يعمل باسم جهاز قطر للاستثمار، أصولاً بقيمة 335 مليار دولار. وقد استُثمر ثلث هذه الاستثمارات في الإمارة، بينما كان الجزء الأكبر منتشراً في جميع أنحاء العالم.[37] وهي تمتلك شركة ميراماكس، ومقرها سانتا مونيكا، وهي شركة لإنتاج وتوزيع الأفلام. وكانت رابع أكبر مستثمر في المساحات المكتبية في الولايات المتحدة، وخاصة في نيويورك ولوس أنجلوس، وتستحوذ على ما يقرب من 10 % من مالكي مبنى إمباير ستيت، شركة إمباير ستيت ريالتي ترست. ويمتلك جهاز قطر للاستثمار أيضاً أطول مبنى في لندن، شارد، ومتاجر هارودز الشهيرة، وربع العقارات في حي مايفير الراقي. وقد فاز نادي باريس سان جيرمان لكرة القدم الذي تملكه بالكامل بأربعة ألقاب في الدوري الفرنسي لكرة القدم. وكانت أكبر مساهم في شركة فولكس فاجن الألمانية. وفي أكبر صفقة مكتبية في سنغافورة بقيمة ملياري دولار ونصف، واستحوذت على برج آسيا سكوير المرموق للغاية. بشكل عام، اندفع الأعضاء الأربعة في المحور المناهض لقطر إلى اتخاذ إجراء جذري ضد الدوحة دون إجراء تقييم موضوعي لقوتها الجيوسياسية والاقتصادية وكذلك علاقاتها العسكرية مع واشنطن، والقوة الناعمة كما تمارسها قناة الجزيرة. ولمساعدتها في التغلب على عواقب المقاطعة التي تقودها السعودية، في غضون أسبوع، من المقرر أن تبحر ثلاث سفن إيرانية تحمل 350 طنا

من الفواكه والخضروات من ميناء الداير إلى الدوحة.[38] هذا بالإضافة إلى أن خمس طائرات شحن إيرانية، محملة بـ 450 طناً من المواد الغذائية القابلة للتلف، وصلت إلى الدوحة.

داعش يستهدف الشيعة في إيران والمملكة العربية السعودية

بعد أسابيع قليلة من خطابه أمام القمة العربية الإسلامية، انهارت أطروحة الرئيس ترامب المتمثلة في الخلط بين التطرف الشيعي المدعوم من إيران والجهادية السُّنّية لتشكيل شر الإرهاب نفسه؛ ففي 7 حزيران-يونيو هاجم ستة مسلحين وانتحاريين من داعش، يرتدون زي نساء محجبات، مجمع البرلمان وضريح آية الله روح الله الخميني، مؤسس جمهورية إيران الإسلامية، في طهران، مما أسفر عن مقتل ما لا يقل عن سبعة عشر شخصاً وإصابة أكثر من خمسين. وقبل ثلاثة أشهر نشر عناصر تنظيم الدولة الإسلامية في شرقي العراق شريط فيديو باللغة الفارسية على شبكات التواصل الاجتماعي الخاصة بهم، تضمن تهديداً قائلاً: «سوف نغزو إيران، ونعيدها إلى السيطرة السنية». وقد كال هذا الفيديو الإساءات للمرشد الأعلى الإيراني خامنئي، وأدان نظامه لحماية ما يقرب من 9000 يهودي، الذين يحق لهم الحصول على عضو واحد في البرلمان. وقال المعلق: «إيران أطلقت شعارات ضد أمريكا وإسرائيل من أجل خداع أهل السُّنّة، بينما يعيش يهود إيران في أمان تحت حماية الدولة الإيرانية».[39]

وبعد أقل من أسبوعين أطلقت إيران ستة صواريخ باليستية من طراز ذو الفقار من محافظاتها الغربية على مركز قيادة داعش ومنشأة لتصنيع السيارات المفخخة في مدينة دير الزور شرقي سورية، على بعد 370 ميلاً، فوق المجال الجوي العراقي، وقد نسقت الهجوم مع العراق وسورية وروسيا.[40]

وفي غضون أشهر من إعلان الخلافة في الموصل بالعراق، في حزيران-يونيو 2014، حاول عناصر داعش العبور إلى إيران بعد تجنيد أتباع من بين الأقلية الكردية السُّنّية في إيران. وقبل فترة طويلة من استعداد إدارة أوباما لمساعدة الحكومة في بغداد في محاربة داعش[41]، قامت إيران بتدريب وتمويل الشيعة العراقيين وتسليحهم لمحاربة داعش المناهضة للشيعة ومن المثير للاهتمام أن مقطع فيديو داعش باللغة الفارسية أظهر إعدام أسرى من المجموعات الشيعية العراقية.

ومن الجدير بالذكر أنه عندما يتعلق الأمر باختيار الأهداف في المملكة العربية السعودية، اختار فرع داعش في تلك الدولة المساجد الشيعية؛ فوقع أول هجوم انتحاري لداعش في 22 أيار-مايو 2015 في قرية القديح بالمنطقة الشرقية أثناء صلاة الجمعة، وأدى الانفجار إلى

مقتل ما لا يقل عن واحد وعشرين شخصاً وإصابة أكثر من ثمانين. وقال بيان تنظيم الدولة الإسلامية على الإنترنت إن "جنود الخلافة" هم المسؤولون، وتوقعوا "أياما قاتمة مقبلة" على الشيعة.[42]

وبعد التقدم السريع لـ بن سلمان في هرم الأسرة الحاكمة تعرض الشيعة في المملكة لخطابات تحريضية من قبل الدعاة الوهَّابيين. فعلى سبيل المثال: في 31 آذار-مارس 2015 في تسجيل صوتي عبر الإنترنت، تحت عنوان "إمام المسجد الحرام في مكة يدعو إلى حرب شاملة ضد الشيعة"، قال الشيخ عبد الرحمن السديس: «حربنا مع إيران... هي حرب طائفية حقاً... ولو لم تكن طائفية لجعلناها طائفية... لن يزول خلافنا مع الرافضة [مصطلح آخر للشيعة]، ولا انتحارنا لقتالهم... ما داموا على وجه الأرض».[43]

وبرزت العوامية -مسقط رأس آية الله نمر النمر الذي أُعدم في كانون الثاني-يناير 2016- كنقطة اشتعال دائمة بين الحكومة والأقلية الشيعية السعودية، حيث كان ينتمي لها معظم الـ 51 شيعياً الذين قُتلوا في الفترة ما بين آذار-مارس 2011 وأيار-ومايو 2017.[44] وقد أصبح حي البلدة الذي يرجع تاريخه إلى أربعمائة عام، والذي تحده مسورة -أي سور قوي بُني للحماية من المغيرين- معقلاً للمقاتلين الشيعة المستعدين لمقاومة الدولة بقوة السلاح إذا لزم الأمر، وتشكل المنازل والشوارع الضيقة المتعرجة بيئة مثالية لذلك. وخلص صنّاع السياسة في الرياض إلى ضرورة هدم المسورة لحرمان المتمرّدين الشيعة من ملاذهم الآمن، ولكن لإخفاء دوافعهم الحقيقية أعلنوا أن العديد من المباني الـ 480 في المسورة كانت غير آمنة، وأن الحي القديم يحتاج إلى إعادة تطوير. وكان السكان المحليون متشككين. ومع تطويق بلدتهم بنقاط التفتيش، منذ المظاهرة المؤيدة للديمقراطية في عام 2011، تزايد اغترابهم عن الدولة بسرعة.

وتحركت قوات الأمن، في 10 أيار-مايو، لإخلاء سكان المسورة من منازلهم بدعوى أن الحي أصبح ملاذاً لمرتكبي الأعمال الإرهابية، وأنهم يبيعون الأسلحة والمخدرات. واندلع العنف عندما أبدى نشطاء شيعة مقاومة، وكان بعضهم مسلحين. وقامت قوات الأمن بدوريات في شوارع البلدة بعربات مدرعة لحماية نفسها من نيران المسلحين الذين اتهموها بإطلاق النار بشكل عشوائي على المنازل والسيارات خلال مواجهتها مع مسلحين في المنطقة. وأشار نشطاء محليون إلى أن النيران أُضرمت في العديد من المنازل والمتاجر، أو تضررت على يد قوات الأمن. وشعر سكان البلدة بالغضب عندما فرضت الحكومة عقاباً جماعياً من خلال قطع التيار الكهربائي والمياه بشكل متكرر.

لقد أصبحت العملية الأمنية الجارية في العوامية، والتي تجري بعيداً عن وسائل الإعلام المحلية والأجنبية، ضمن اختصاص الأمير عبد العزيز بن سعود في 21 حزيران-يونيو عندما أقال الملك سلمان الأمير محمد بن نايف من منصب وزير الداخلية. وكان بديله البالغ من العمر 31 عاماً مخلصاً لولي العهد الجديد الأمير بن سلمان. وبهذا تكثفت حملة إخلاء حي المسورة وهدم مبانيه. وتسبب القصف بقذائف الهاون في مقتل مدنيين، مما أدى إلى تسوية مبانٍ بأكملها بالأرض، وتزايدت نيران القناصة بشكل مطرد. وفي أواخر تموز-يوليو عززت القوات عناصر الأمن التي كانت قد انتشرت في وقت سابق. وبذلك وصل القتال بين الحكومة والمسلحين الشيعة إلى ذروته، وانتصرت الدولة، وفرّ آلاف الأشخاص الذين يعيشون خارج سور حي المسورة.

وفي 2 آب-أغسطس جرى اصطحاب الصحفيين، برفقة القوات الخاصة في المركبات المدرعة، إلى العوامية، وشهدوا تحول حي المسورة إلى منطقة حرب، وعثروا على سيارات صدئة ملقاة نصف مسطحة بجوار المنازل المدمرة المليئة بمئات من ثقوب الرصاص. ورغم عدم نشر أرقام الضحايا، قال ممثل لوزارة الداخلية: إن ثمانية من أفراد فريق الرد السريع التابع للشرطة وأربعة من القوات الخاصة لقوا حتفهم خلال الحملة الأخيرة. ووفقاً للناشطين الشيعة قُتل خمسة مقاتلين وثلاثة وعشرون مدنياً في القتال، وفرّ أكثر من 20 ألفاً أو جرى إجلاؤهم إلى مدن وقرى أكثر أماناً. وقد لاحظ المراسلون ملصقات آية الله النمر في جميع أنحاء العوامية. وألصقت صور "الشهداء" على أعمدة الإنارة والمباني، وكتب على أحد الجدران في أحد الشوارع التي تناثر فيها الركام «إن الأرض التي اختلطت بدماء الشهداء استقت بما يكفي من نور الله لهزيمة الأقوياء».[45] وقال القائم بأعمال رئيس البلدية عصام عبد اللطيف الملا لمراسلة هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) سالي نبيل بعد أسبوعين: «لقد هُدم 80 منزلاً، ولا يزال أمامنا حوالي 400 منزل آخر».[46]

لكن نجاح بن سلمان السريع في القضاء على آخر بقايا المقاومة الشيعية في المملكة تناقض بشكل حاد مع الجمود المستمر في اليمن الذي استثمر فيه قدراً كبيراً من المال والعضلات العسكرية وهيبته.

انقسام في التحالف الذي تقوده السعودية في اليمن

بدأ الصراع في اليمن، مثَله مثَل كل الصراعات المسلحة الطويلة الأمد، يؤدي إلى عواقب غير مقصودة، وظهرت خلافات بين ولي العهد السعودي وحليفه الرئيس ولي عهد الإمارات

بن زايد آل نهيان حول وضع الرئيس هادي، فعندما طار هادي المقيم في الرياض إلى عدن، العاصمة المؤقتة لحكومته المنفية، في أوائل شباط-فبراير 2017، لم يسمح قائد المطار الدولي لطائرته بالهبوط، وكان من الذين عيّنتهم حكومة الإمارات العربية المتحدة التي كانت قواتها ومرتزقتها هي القوة المهيمنة في جنوب اليمن. وبالإضافة إلى ذلك حصلت دولة الإمارات العربية المتحدة على دعم القبائل في الجنوب التي أرادت التراجع عن توحيد اليمن الشمالي والجنوبي عام 1990. وبسبب عدم رغبتهم في قبول الفيتو الإماراتي حارب الموالون لهادي القوات الإماراتية في المطار، وهي المواجهة التي انتهت بوساطة المملكة العربية السعودية. وبناء على طلب من بن سلمان، سافر هادي إلى أبو ظبي في أواخر شباط-فبراير للقاء الأمير بن زايد لتسوية من يسيطر على مطار عدن، وانتهى اجتماعهما القصير بحدة، حيث أخبر هادي محاوره أن الإماراتيين يتصرفون «كقوة احتلال في اليمن وليس كقوة تحرير». وبعد عودته إلى الرياض أقال اثنين من المسؤولين المقربين من الإمارات: محافظ عدن، وقائد قوات الحزام الأمني الذي تديره الإمارات[47]، وقد حاول بن سلمان عبثاً المصالحة بين الأطراف المتناحرة في جنوب اليمن، ورفعت الانقسامات في المعسكر السعودي معنويات تحالف الحوثي-صالح في صنعاء.

وقرر هادي تأكيد سلطته بالعودة إلى عدن في آب-أغسطس، لكن مطار الرياض الدولي منعه من ذلك. وفي الواقع، ومن أجل إبقاء الإمارات العربية المتحدة في صف الرياض في اليمن، منع بن سلمان هادي، وأبناءه، والوزراء، وضباط الجيش من العودة إلى وطنهم، وكان السبب الرسمي هو استمرار العداء بين الموالين لهادي والقوات الإماراتية. وأصبح فرض الحظر الرسمي معروفاً في 6 تشرين الثاني-نوفمبر عندما نشرت وكالة أسوشيتد برس تقريراً من مصادر جيدة حول هذا الموضوع.[48]

وقد أدى التدخل العسكري للتحالف الذي تقوده السعودية في اليمن منذ عامين ونصف إلى خلق أزمة إنسانية غير مسبوقة؛ فمن بين 28 مليون يمني يحتاج 17 مليون إلى المساعدات الغذائية، ويواجه 7 ملايين خطر المجاعة، كما فقد ثلاثة ملايين منازلهم.[49] وكان أكثر من ثلثي السكان يفتقرون إلى إمكان الوصول إلى المياه النظيفة والصرف الصحي. وبسبب انهيار الخدمة الصحية، الذي تفاقم بسبب إضراب عمال الصرف الصحي الذين لم يتلقوا رواتبهم لأشهر عدة، عانى اليمن من أسوأ تفشي للكوليرا سجلته منظمة الصحة العالمية منذ عام 1949. وفي حين استغرق الأمر هايتي سبع سنوات -من 2010 إلى 2017- لتسجل 815 ألف حالة إصابة بالكوليرا، تجاوزت اليمن هذا الرقم خلال ستة أشهر. وقال تامر كيرلس،

مدير اليمن لمنظمة إنقاذ الطفولة غير الحكومية، في تشرين الأول-أكتوبر 2017: «ليس هناك شك في أن هذه أزمة من صنع الإنسان»، وأضاف: «تطل الكوليرا برأسها فقط عندما يكون هناك انهيار كامل وكلّي في الصرف الصحي».[50]

وفي 11 تشرين الأول-أكتوبر سمح السعوديون لفريق طبي روسي بالهبوط في مطار صنعاء لإجراء عملية جراحية لعلي عبد الله صالح البالغ من العمر خمسة وسبعين عاماً الذي أصيب بجروح خطيرة في محاولة اغتيال فاشلة قبل ست سنوات لم يشف منها بالكامل. وصرخت الصحافة السعودية قائلة «التحالف الذي تقوده السعودية يتدخل لإنقاذ حياة صالح الذي يعاني من مرض خطير!» مشيرة إلى أنها المرة الثانية التي تفعل فيها الرياض ذلك.[51] ولكن لماذا؟ كان بن سلمان ووالده يأملان في كسر التحالف بين الحوثي وصالح على خلفية سيطرة الحوثيين المنضبطين والمسلحين تسليحاً جيداً بشكل منهجي على قواعد صالح ومقاتليه. وقد شعر صالح بالغضب من الخسارة، لكنه لم يتمكن من فعل الكثير لعكس هذا الاتجاه.

البداية المشؤومة لتشرين الثاني-نوفمبر 2017

وفي 1 تشرين الثاني-نوفمبر أدت غارة جوية سعودية على سوق في صعدة إلى مقتل 25 شخصاً[52]؛ ورداً على ذلك أطلق تحالف الحوثي-صالح، في 3 تشرين الثاني-نوفمبر، صاروخاً معدلاً من طراز سكود أرض-أرض على الرياض، اعترضه أثناء طيرانه صاروخ باتريوت الذي قدّمته الولايات المتحدة.

وفي اليوم التالي فاجأ سعد الحريري، رئيس وزراء لبنان السُّنّي، الذي استدعاه بن سلمان إلى الرياض، العواصم الإقليمية بإعلان استقالته عبر الفيديو من العاصمة السعودية احتجاجاً على نفوذ إيران غير المبرر في السياسة اللبنانية، مضيفاً أنه يخشى الاغتيال.[53] وفي اليوم نفسه أذهل الملك سلمان الجماهير المحلية بإنشاء لجنة عليا بين عشية وضحاها للتحقيق في الفساد العام، برئاسة بن سلمان. ووكل إليها القيام بـ «تحقيقات، وإصدار مذكرات توقيف، ومنع من السفر، والكشف عن حسابات مصرفية وتجميدها، وتتبع الأموال». وبحسب بيان صادر بعد شهر عن المدعي العام، سعود المعجب، جرى استدعاء 320 شخصاً وتجميد الحسابات المصرفية لـ 376 شخصاً منهم 159 من قادة الأعمال، بما في ذلك أحد عشر فرداً من العائلة المالكة، واحتجزوا في فندق ريتز كارلتون من فئة الخمس نجوم في الرياض حيث مُنعوا من الاتصال بمحاميهم.[54] ومن بين الذين رأوا أن حساباتهم المصرفية مجمدة كان بن

نايف، ولي العهد السابق، الذي يعتقد أن ثروته الصافية تبلغ حوالي 6 مليارات دولار، وبعض أقاربه المباشرين.[55]

وزعم الجبير، وزير الخارجية السعودي في مقابلته مع شبكة سي إن إن في 6 تشرين الثاني-نوفمبر أن الصاروخ الذي استهدف الرياض جرى تهريبه إلى اليمن على أجزاء، وهناك أعاد تجميعه عناصر من حزب الله والحرس الثوري الإيراني، وأطلقه فنيون من حزب الله من الأراضي اليمنية. ووصف إطلاق هذا الصاروخ بأنه "عمل حربي" من جانب إيران. وأضاف: «لا يمكن لإيران إطلاق الصواريخ على المدن والبلدات السعودية، ثم تتوقع منا عدم اتخاذ خطوات»[56]، ولكن طهران نفت هذا الاتهام.

وردّ التحالف الذي تقوده السعودية على الهجوم بصواريخ سكود في 3 تشرين الثاني-نوفمبر بقصف صنعاء بغارات جوية متكررة، مما أدى إلى مقتل أكثر من 8670 يمنياً وإصابة ما يقرب من 50000 آخرين في الحرب.[57] وفي 6 تشرين الثاني-نوفمبر أعادت فرض حصارها على الموانئ والمطارات في الأراضي التي يسيطر عليها تحالف الحوثي-صالح، مما أدى إلى تفاقم الأزمة الإنسانية الحادة بالفعل.

وفي 9 تشرين الثاني-نوفمبر دعا مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة إلى رفع الحصار محذراً من أنه إذا لم يحدث ذلك فإن اليمن سيواجه "أكبر مجاعة شهدها العالم منذ عقود"، ولم تبدِ الرياض أي ردة فعل على ذلك. وبعد أسبوع أشار رؤساء برنامج الأغذية العالمي، واليونيسف، ومنظمة الصحة العالمية إلى أن الإمدادات، بما في ذلك الأدوية واللقاحات والمواد الغذائية، كانت في انتظار دخول اليمن. وحذروا من أنه «بدونها، سيموت آلاف لا حصر لها من الضحايا الأبرياء، من بينهم العديد من الأطفال». ومن دون الوقود المستورد أيضاً ستنهار شبكات المياه والصرف الصحي في اليمن في الوقت الذي تكافح فيه البلاد وباء الكوليرا. وضغطت القوى الغربية وراء الكواليس على المملكة العربية السعودية، حيث دعت بريطانيا على وجه التحديد إلى إعادة فتح الحديدة، نقطة دخول 80% من المساعدات التي تصل إلى البلاد، فردت الرياض بالادعاء بأن الحديدة كانت قناة لشحنات الأسلحة إلى المتمردين الحوثيين. وطالبت بضمانات بأن يقوم مفتشو الأمم المتحدة بوقف شحنات الأسلحة كشرط سابق لإعادة فتح الحديدة. وبعد مراجعة الأمم المتحدة والسعودية لإجراءات التفتيش أعلنت الرياض في 22 تشرين الثاني-نوفمبر أنها سترفع الحصار عن الإمدادات الإنسانية، ولكن ليس عن السفن التجارية.[58] وقد أدت الأزمة الأخيرة إلى تفاقم معاناة الشعب اليمني البائس، وزاد حقدهم على الحوثيين، خاصة عندما أخفقت الحكومة التي تعاني من ضائقة مالية في

دفع الرواتب المخفّضة بالفعل لموظفي الدولة. وتصاعدت التوترات بين الحوثيين وأنصار صالح، والتي كانت تتراكم على مدى أشهر، إلى قتال في صنعاء في 29 تشرين الثاني-نوفمبر، وتحولت شوارع المدينة إلى ساحة معركة، ولزم السكان منازلهم تفادياً للإصابة أو الموت. وكثّف التحالف الذي تقوده السعودية غاراته الجوية على اليمن، حيث استهدفت عشرات الغارات الجوية مواقع الحوثيين داخل صنعاء وفي المحافظات الشمالية الأخرى.

وفي 2 كانون الأول-ديسمبر أدان صالح، في مقابلته مع قناة اليمن اليوم التلفازية التابعة لمعسكره، الحوثيين ووصفهم بأنهم "ميليشيا انقلابية"، ثم رفع غصن الزيتون المشروط قائلاً: «أدعو الأشقاء في دول الجوار والتحالف أن يوقفوا عدوانهم، ويرفعوا الحصار، ويفتحوا المطارات، ويسمحوا بالمساعدات الغذائية وإنقاذ الجرحى؛ وسنفتح صفحة جديدة بفضل حسن الجوار». وأضاف: «سنتعامل معهم بطريقة إيجابية، ويكفي ما حدث لليمن».[59] وفي الرياض أشاد هادي بالتحول الدراماتيكي لصالح، لكن النشوة التي سادت التحالف الذي تقوده السعودية أثبتت أنها عابرة، إذ تبين أن مقابلة صالح كانت آخر خطاب علني له. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، عندما استولى جنود الحوثيين على منزله في العاصمة، لم يعثروا عليه. وما إن علم قائدهم أن وجهة صالح هي قريته بيت الأحمر، حتى نصب كميناً صحراوياً لموكبه؛ لقد قُتل صالح ورفاقه في 4 كانون الأول-ديسمبر، وألقيت جثته في الجزء الخلفي من شاحنة صغيرة، وعُرض المشهد في مقطع فيديو على الإنترنت. وفي خطاب متلفز قال عبد الملك الحوثي، زعيم الحوثيين: إن صالح قُتل لأنه كان خائناً. وأضاف: «اليوم هو يوم سقوط مؤامرة الخداع والخيانة»، و«إنه يوم مظلم بالنسبة لقوات التحالف [الذي تقوده السعودية]».[60]

وقد خلفت الاشتباكات التي استمرت خمسة أيام ما لا يقل عن 230 قتيلاً وآلاف الجرحى. واحتفل الحوثيون بموت صالح علناً، كما أدى هذا الحدث إلى القضاء على الإستراتيجية السعودية المتمثلة في كسر تحالف المتمردين بين صالح والحوثيين. وبالصدفة فإن خطة بن سلمان لصد نفوذ طهران في لبنان، الذي مارسه وكيلها حزب الله على مدى العقود الثلاثة الماضية، لم تسفر عن شيء في الوقت نفسه تقريباً.

الصعود المتنامي لحزب الله

وقد شهدت الانتخابات العامة التي جرت في أيار-مايو وحزيران-يونيو 2005 على شعبية حزب الله المتزايدة بين الشيعة، وهم أكبر طائفة مسلمة في لبنان. وكجزء من تحالف أمل وحزب الله، الذي يُسمى كتلة المقاومة والتنمية، حصل الحزب على أربعة عشر مقعداً من

أصل سبعة وعشرين مقعداً شيعياً. وجرت الدعوة إلى هذا التصويت في أعقاب اغتيال رفيق الحريري، قطب البناء ورئيس الوزراء (السُّنّي) السابق، في بيروت، الذي تسبب بزلزال سياسي، وقد وُجهت أصابع الاتهام إلى حزب الله، المتحالف مع سورية، بوصفه العقل المدبر وراء الهجوم. وكان ذلك واحداً من الأسباب التي حملت الولايات المتحدة على إعادة إدراج حزب الله على قائمتها للجماعات الإرهابية بعد أن قامت بإزالته بعد إدانة حزب الله لهجمات 11 أيلول-سبتمبر.

وبلغت سلسلة من المظاهرات المناهضة لسورية ذروتها في مظاهرة ضخمة في بيروت في 14 آذار-مارس 2006، إذ طالب تحالف 14 آذار-مارس الوليد بسحب 14.000 من القوات السورية وعملاء المخابرات الذين كانوا هناك منذ عام 1976، وأيدت القوى الغربية الطلب كما فعلت المملكة العربية السعودية. وفي 27 نيسان-أبريل سحب الرئيس السوري بشار الأسد جنوده وعملاءه.

وفي وقت سابق أدت مظاهرة وتجمع قامت بهما مختلف الجماعات المؤيدة لسورية في بيروت في 8 آذار-مارس إلى تشكيل تحالف 8 آذار-مارس، وشكرت سورية على إنهاء الحرب الأهلية التي دارت رحاها بين عامي 1975 و1990، وعلى دعم المقاومة اللبنانية للاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان. وكان حزب الله جزءاً من هذا التحالف المدعوم من إيران. وتضمنت هذه الكتلة أيضاً التيار الوطني الحر، وهو حزب مسيحي أسسه ميشال عون، الجنرال السابق في الجيش، والذي فاز في عام 2005 بـ 31 مقعداً من أصل 58 مقعداً مسيحياً في البرلمان. وفي شباط-فبراير 2006 وقع عون مذكرة تفاهم مع زعيم حزب الله حسن نصر الله، حول العلاقات بين الطرفين تتمحور حول إستراتيجية دفاعية لحماية لبنان من التهديد الإسرائيلي.[61] وفاز تحالف 8 آذار بـ 56 مقعداً في الانتخابات العامة الوشيكة التي أشرفت عليها الأمم المتحدة. لكن تحالف 14 آذار المنافس، الذي تموله الرياض بسخاء، حصل على 72 مقعداً، وقام بتشكيل الحكومة.

وكجزء لا يتجزأ من المحور المناهض لإسرائيل بقيادة إيران، قام حزب الله بتحصين شريط عرضه ثلاثة أميال على طول الحدود الإسرائيلية اللبنانية بالعديد من المخابئ، والأفخاخ المتفجرة، والألغام الأرضية، وكاميرات الدوائر التلفازية المغلقة لمراقبة قوات العدو. وخلال حربه مع [كيان] إسرائيل في تموز-يوليو وآب-أغسطس 2006 أطلق حزب الله من هذه المخابئ صواريخه المضادة للدبابات على المدرعات الإسرائيلية. وقد أدى قتاله الحماسي مع [كيان] إسرائيل إلى رفع مكانته لدى الجمهور اللبناني على الرغم من الأضرار الواسعة النطاق

التي لحقت بالبنية التحتية والممتلكات المدنية في لبنان. وانبرى أمير قطر حمد لتقديم المساعدة المالية لجميع الذين فقدوا منازلهم وأعمالهم، بغض النظر عن انتماءاتهم الطائفية. وسارعت إيران إلى تجديد ترسانة حزب الله المتضائلة، والذي ظهر كمدافع قوي عن الحقوق الفلسطينية، وهو الأمر الذي أخفق العاهل السعودي الملك عبد الله في تعزيزه في تعامله مع الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش. واستخدم الأمير حمد حُسن النية الذي اكتسبه في عام 2006 عندما تحول المأزق السياسي في وسط بيروت بشأن انتخاب خليفة لإميل لحود، والذي بدأ في تشرين الأول-أكتوبر 2007، وتحول في 6 أيار-مايو إلى أعمال عنف واشتباكات بين الجانبين في أنحاء البلاد أودت بحياة 200 شخص. ولتجنب انزلاق لبنان إلى حرب أهلية كاملة دعا الأمير حمد المنافسين إلى الدوحة، فكان الاتفاق الذي توصلوا إليه في 21 أيار-مايو لصالح حزب الله، إذ سُمح له بمواصلة حمل السلاح كوسيلة لحماية لبنان من المخططات العسكرية الإسرائيلية وللحفاظ على نظام الاتصالات الخاص بها.[62]

ومنذ ذلك الحين، وخلال الأزمات الدورية التي تشهدها المنطقة، أصبح موقف حزب الله منيعاً. وقد طاردته المحكمة الخاصة بلبنان، التي أنشأها مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، للتحقيق في مقتل الحريري وتقديم المذنبين إلى العدالة.

وقد حصل تحالف 14 آذار، بقيادة الملياردير سعد الحريري، الذي يحمل الجنسيتين اللبنانية والسعودية، على 71 مقعداً في الانتخابات العامة التي جرت في حزيران-يونيو 2009 مقارنة بـ 57 مقعداً حصل عليها تحالف 8 آذار، الذي يقوده حزب الله الآن. ولكن حزب الأغلبية حصل على 44.5 % فقط من الأصوات الشعبية، وحزب الأقلية على 55.5 %.[63] وبصفته ابناً لرفيق، الذي كوّن ثروته كقطب بناء في المملكة العربية السعودية، كان سعد منخرطاً بشكل وثيق في الأعمال التجارية في المملكة الصحراوية، وكان قريباً من آل سعود. والآن، وبعد أن أدرك انخفاض الأصوات الشعبية لتحالف 14 آذار، اختار تشكيل حكومة وحدة وطنية ناجمة عن اتفاق الدوحة. وفي تشرين الثاني-نوفمبر قاد حكومة جديدة مؤلفة من خمسة وعشرين وزيراً، عشرة منهم من تحالف 8 آذار، وخمسة عيّنهم الرئيس ميشال سليمان، الذي يُعد محايداً بين الكتلتين المتنافستين. وعندما رفض الحريري عقد اجتماع لمجلس الوزراء لمناقشة لوائح الاتهام المحتملة التي ستصدرها المحكمة الخاصة بلبنان، استقال وزراء تحالف 8 آذار، وسقطت حكومته في كانون الثاني-يناير 2011.[64] واعتمدت حكومة نجيب ميقاتي اللاحقة على حُسن نية حزب الله. لقد كانت هذه حبة دواء مريرة يجب على الحكومة السعودية أن تبتلعها، فقد أمضى المهزوم سعد الحريري ثلاث سنوات في المنفى الاختياري،

مقسِّماً وقته بين السعودية وفرنسا، ثم عاد إلى بيروت قادماً من الرياض في آب-أغسطس 2014.

وبحلول ذلك الوقت أصبح لبنان متورطاً في الحرب الأهلية في سورية؛ وبعد إنكارهم في البداية أن ميليشياتهم تعمل بنشاط مع نظام الأسد كان على قادة حزب الله أن يعترفوا بذلك في حزيران-يونيو 2013. وقد أدى مقاتلوهم دوراً رئيساً في استعادة الحكومة السورية السيطرة على بلدة القصير الحدودية التي كانت تُستخدم كنقطة عبور للأسلحة إلى المتمردين في سورية من شمال شرقي لبنان الذي يهيمن عليه السُّنّة.[65] وفي ذلك الوقت كان لدى حزب الله 7000 جندي و20000 جندي احتياطي. وبالإضافة إلى اختراق الجيش والأجهزة الأمنية، أصبح له حلفاء في معظم الوزارات الحكومية والشركات التي تملكها الدولة. ويتراوح دخله السنوي بين 800 مليون دولار ومليار دولار، يأتي 70 إلى 90 % منه من طهران، والباقي من مانحين شيعة من القطاع الخاص، وشبكات الأعمال في لبنان. وقد دفع رواتب ما بين 60 إلى 80 ألف شخص يعملون في جمعياته الخيرية ومدارسه وعياداته ومؤسسات أخرى إلى جانب أجهزته العسكرية والأمنية.[66]

ومع صعود الأمير محمد بن سلمان، تخلّت الرياض عن سياستها التقليدية المتمثلة في التنافس مع طهران خلف الكواليس، واستخدمت سلاحها النقدي بحرية، واختارت موقفاً عدوانياً صريحاً. ودعت الحكومة اللبنانية إلى إدانة إيران وحزب الله اللذين، كما زعمت، يمارسان نفوذاً لا مبرر له في سياسة لبنان الخارجية وأمنه القومي. لقد كان هذا الطلب غير واقعي إلى حد كبير، وقد جرى تجاهله. ثم ألغت المملكة العربية السعودية مساعدتها التي تعهدت بها بقيمة 4 مليارات دولار لبيروت، منها 3 مليارات دولار مخصصة للجيش اللبناني لإنهاء "قبضة حزب الله الخانقة على الدولة". وفي 2 آذار-مارس 2016 توّجت الرياض ضغوطها على بيروت بإعلانها حزب الله منظمة إرهابية. وبحلول ذلك الوقت كان 8000 جندي من حزب الله قد خدموا في سورية في عمليات انتشار قصيرة.[67] وقد وضع القرار السعودي سعد الحريري في مأزق، فبوصفه سياسياً على اتصال بالواقع على الأرض، فقد كان يعلم أنه لا يمكن تجاهل حزب الله، ودعا إلى الحوار معه.[68]

وفي الوقت نفسه، تعثرت جهوده لدعم سليمان طوني فرنجية كمنافس لعون، وكان ذلك على النقيض من تعزيز العلاقات بين عون ونصر الله اللذين كانا يجتمعان بانتظام لمراجعة الأحداث في لبنان وسورية. ومن أجل إرضاء نصر الله لجأ عون إلى تكييف تصريحاته بما يتناسب مع مصالح إيران الإقليمية. وعلى الجانب الآخر، عندما أنهى سفير السعودية في

بيروت فترة ولايته في ذلك الصيف، لم تسمِّ الرياض خليفة له، ولكن مع تزايد الزخم لرئاسة عون أرسل السعوديون مبعوثاً رفيع المستوى إلى بيروت لمناقشة حل وسط: لقد عرضوا موافقة ضمنية على عون كرئيس إذا وافق على مطالبة الحريري بتشكيل الحكومة المقبلة. وما إن وافق نصر الله على العرض السعودي، حتى اجتمع النواب في 31 تشرين الأول-أكتوبر، وانتخبوا عون رئيساً من خلال الإدلاء بأغلبية 83 صوتاً لصالحه في الاقتراع الثاني. وقوبلت هذه الأنباء بمظاهرات مؤيدة لعون في الضاحية الجنوبية لبيروت، معقل حزب الله، وكذلك في شوارع دمشق، حيث التقى الأسد بعون ثلاث مرات في دمشق شكلت دعماً قوياً لمحاولته الفوز بالرئاسة.[69]

لقد كانت هذه لحظة فاصلة في تاريخ حزب الله لأنها أضفت عليه الشرعية كحزب قومي، يحظى بدعم من مختلف الطوائف، وهو خروج عن الوصف التقليدي له كمنظمة طائفية. وفي السياق الإقليمي، كان هذا فوزاً واضحاً لطهران على الرياض. وكما وعد الحريري، شكّل حكومة وحدة وطنية كان اثنان من الوزراء الشيعة الخمسة فيها من حزب الله، والباقي من حركة أمل.

ولمساعدة الحريري على تعزيز موقفه أرسل الملك سلمان الأمير خالد الفيصل، أمير مكة، إلى بيروت. وأظهر المبعوث السعودي، من خلال لقائه عون والحريري ومسؤولين حكوميين آخرين، دعم المملكة للدولة اللبنانية. وفي أوائل كانون الثاني-يناير 2017 قام عون بزيارة رسمية إلى الرياض لتخفيف التوترات اللبنانية السعودية بشكل أكبر، ووافق الملك سلمان على إرسال سفير جديد إلى بيروت.[70]

وفي مقابلته التلفازية في القاهرة خلال زيارته للمدينة، في شباط-فبراير 2017، ألقى عون باللوم على [كيان] إسرائيل في الإحواج إلى دعم حزب الله في «دور مكمل للجيش اللبناني... وما دام الجيش اللبناني ليس قوياً بما يكفي لمحاربة [كيان] إسرائيل ... فإننا نشعر بالحاجة لوجوده».[71] وفي عام 2016 كان عدد قوات حزب الله العاملة، البالغ 20 ألف جندي، على الورق أقل من ثلث قوة الجيش اللبناني البالغة 65 ألف جندي. لكن حزب الله كان لديه 25 ألف جندي احتياطي، وكان هؤلاء الأفراد المسلحون متحمسين للغاية ومجهزين بأسلحة أكثر حداثة من الجنود النظاميين. ولم تشمل ترسانة حزب الله آلاف الصواريخ المضادة للدبابات فحسب، بل شملت أيضا أكثر من 120 ألف صاروخ وقذائف أرض-أرض، فضلاً عن عشرات الطائرات بدون طيار.[72]

إن تورط حزب الله المتزايد في الحرب الأهلية السورية، خاصة عندما بدأ نظام الأسد في

السيطرة على المعارضة، المدعومة بقوة من المملكة العربية السعودية، كان يُنظر إليه على أنه تحدٍّ من قبل الأمير بن سلمان. وتماشياً مع طبيعته المتهورة استدعى الحريري، وضغط عليه للاستقالة في 4 تشرين الثاني-نوفمبر 2017، ولم يكلف نفسه عناء إطلاع فرنسا أو الولايات المتحدة على خطوته، وهو إخفاق من شأنه أن يؤدي، في جملة أمور، إلى هزيمته الدبلوماسية؛ لقد أخفق في ملاحظة أن هذه القوى الغربية كانت حريصة على عدم زعزعة استقرار لبنان، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن الدولة التي يبلغ عدد سكانها أربعة ملايين و300 ألف نسمة فقط، استقبلت أكثر من مليون لاجئ سوري.

وفي خطابه المتلفز من الرياض على قناة العربية انتقد الحريري إيران وحزب الله لتدخلهما في الشؤون العربية، معلناً أن «أذرع إيران في المنطقة ستُقطع». واتهم طهران بنشر الفوضى والصراع والدمار في المنطقة. ومضى في التعبير عن خوفه على حياته، وادعى أن الأجواء في لبنان كانت مماثلة لتلك التي كانت سائدة قبل اغتيال والده رفيق الحريري في عام 2005.[73] وقد نفت طهران بشدة هذه التهمة. وفي اليوم التالي، أصدر الجيش اللبناني بياناً قال فيه: إن المعلومات الاستخباراتية التي بحوزته وتحقيقاته الجارية لم تكشف عن «وجود أي مخطط لاغتيالات في البلاد».[74] وعندما أخفق الحريري في العودة إلى لبنان، ادعى كثيرون أنه محتجز في الرياض رغماً عنه، وأنه بثّ خطابه المتلفز تحت الإكراه. ودعا الرئيس اللبناني عون الحريري إلى تقديم استقالته شخصياً. وفي هذه الأثناء، عندما وصل الوزير السعودي ثامر السبهان إلى واشنطن بعد أيام قليلة من استقالة الحريري المفاجئة، انتقده مسؤولو وزارة الخارجية الأميركية لقيامه بعمل متهور من شأنه أن يزعزع استقرار لبنان.[75] ومع ذلك، فإن الخطأ يقع على عاتق صانع القرار النهائي في الرياض، الأمير بن سلمان؛ فقد أتت تكتيكات ذراعه القوية بنتائج عكسية؛ إذ إن زعماء فصائل مختلفة وحتى بعض أفراد عائلة الحريري اعترضوا على قيام السعوديين بإبدال السياسيين اللبنانيين حسب الرغبة. وقال نهاد المشنوق، وزير الداخلية وحليف الحريري: «نحن لسنا قطعان غنم، ولا قطعة أرض يمكن نقل ملكيتها من شخص إلى آخر»، وأضاف: «الأمور في لبنان تحدث عبر الانتخابات، وليس عبر الولاءات» في إشارة إلى الممارسة المعتادة في المملكة العربية السعودية. وقد حظي موقف الزعماء اللبنانيين بدعم الحكومات الغربية والعربية بقيادة فرنسا ومصر، مما أدى إلى إنهاء الإقامة الجبرية الافتراضية التي فرضها الحريري لمدة أسبوعين في الرياض.

وبعد توقف قصير في القاهرة وباريس، عاد [الحريري] إلى بيروت في الوقت المناسب للاحتفال بيوم استقلال لبنان (عن فرنسا) في 22 تشرين الثاني-نوفمبر. وكشف بعد لقائه

عون أنه سيؤجل استقالته للسماح بالحوار مع القادة السياسيين الآخرين. وأضاف أن الحوار سيركز على مبدأ أن لبنان يجب أن يبقى بعيداً عن الصراعات في المنطقة. وبعد اجتماع مجلس الوزراء في 5 كانون الأول-ديسمبر، أعلن الحريري أن الحكومة تعهدت مجدداً بالنأي «عن أي خلاف وصراعات أو حروب، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية، حفاظاً على العلاقة بين لبنان وأشقائه العرب»، وسحب استقالته. والحق أن سياسة "النأي بالنفس" عن الصراعات الإقليمية كانت قد اعتُمدت لأول مرة في عام 2013 لعزل لبنان عن الحرب في سورية، ولكن حزب الله تجاهل هذا الموقف الرسمي كما فعل حزب الحريري، تيار المستقبل، الذي دعم المتمردين في سورية.[76] الآن، بعد تحرير سورية بالكامل من قوات داعش، لم يكن الأسد بحاجة إلى مساعدة تذكر من حزب الله، هذا إنْ احتاجها على الإطلاق. وهكذا، انتهت الحلقة التي استمرت لمدة شهر مع تسجيل الأمير بن سلمان فشلاً لا جدال فيه في سلسلة مغامراته المتهورة في السياسة الخارجية.

واستمر الجمود في حرب اليمن، وظلت العلاقات السعودية القطرية مجمدة. وفي سورية، تراجعت المملكة العربية السعودية إلى حد أنها لم تعد لديها أي مساهمة ملحوظة. وما أثار إحباطها المستمر هو أن إيران ظلت لاعباً مهماً في سورية.

كذبة السعوديين يوازنها إنكار الإيرانيين غير المقنع

تبين أن ادعاء المملكة العربية السعودية بإسقاط صاروخ سكود أطلقه الحوثيون على مطار الرياض الدولي، في 4 تشرين الثاني-نوفمبر، هو كذبة. وكان ترامب، الذي أدمن عادته في التمسك بقصة نجاح، قد غرد قائلاً: «لقد أسقط نظامنا الصاروخ من الجو. إلى هذا الحد نحن بارعون! لا أحد يصنع ما نصنعه، ونحن الآن نبيعه في جميع أنحاء العالم». لكن التحليل الجنائي للصور ومقاطع الفيديو الخاصة بالضربة المتاحة على وسائل التواصل الاجتماعي من قبل فريق بحث في برنامج شرق آسيا لمنع انتشار الأسلحة النووية التابع لمعهد ميدلبري للدراسات الدولية بقيادة جيفري لويس -والذي جرت مشاركته مع صحيفة نيويورك تايمز- يتناقض مع وقاحة ترامب. فالصاروخ، الذي ظهر في الفيديو الذي نشره الحوثيون، كان من طراز برقان-2، وهو نوع من صاروخ سكود المستخدم في جميع أنحاء الشرق الأوسط، ويبلغ مداه 600 ميل، وحمولة رأس حربي تزن 1400 رطل. وللتغلب على الضغوط الناجمة عن رحلته الطويلة، صُمِّم الصاروخ لينقسم إلى قطعتين عندما يقترب من هدفه، إذ يسقط الأنبوب، الذي يدفعه في معظم مساره، ويستمر الرأس الحربي الأصغر، الذي يصعب إصابته، نحو الهدف. وخلص فريق البحث إلى أن الرأس الحربي للصاروخ طار دون عوائق فوق

بطاريات باتريوت الدفاعية التي زودتها بها الولايات المتحدة، وكاد أن يضرب المطار. وفي الواقع، انفجرت القنبلة بالقرب من المحطة المحلية لمطار الملك خالد الدولي، مما أدى إلى قفز العملاء من مقاعدهم. وأظهرت دراسة للحطام المتناثر في وسط مدينة الرياض، على بُعد اثني عشر ميلاً من المطار، أن بطاريات الدفاع الصاروخي إما أخطأت الصاروخ القادم أو أصابت قسمه الخلفي غير المؤذي. لقد كان الدليل على الاعتراض الناجح الذي قدّمه السعوديون على الأرجح هو أن الصاروخ أخرج أنبوبه على النحو المقصود.[77]

وبالمثل، تبين أن نفي طهران بشأن تزويد الحوثيين بصواريخ سكود غير صحيح، فقد خلص تقرير سري أعدته لجنة مراقبي العقوبات التابعة للأمم المتحدة، والذي قدّم في 24 تشرين الثاني-نوفمبر، إلى أن دراستهم لبقايا صواريخ سكود الأربعة التي أطلقها الحوثيون بين 19 أيار-مايو و4 تشرين الثاني-نوفمبر على المملكة العربية السعودية، خلص إلى أن إيران هي التي صممتها وصنَّعتها. ومع ذلك، فقد أخفقوا في تقديم دليل على هوية الوسيط أو المورِّد للصواريخ. وأشارت اللجنة إلى أن «خصائص التصميم وأبعاد المكونات التي فحصتها اللجنة تتفق مع تلك التي أُبلِغ عنها بالنسبة لصاروخ قيام-1 المصمم والمصنع إيرانياً»، وقالت: إنها جمعت أدلة على أن الصواريخ نُقلت إلى اليمن على شكل قطع، وجرى تجميعها هناك من قبل مهندسي الصواريخ الذين يعملون مع حلفاء الحوثي-صالح، وأضافت أنه من المرجح أن الصواريخ هُرِّبت إلى اليمن على طول «الطرق البرية من عُمان أو الغيضة ونشطون في محافظة المهرة بجنوب اليمن بعد نقلها من السفينة إلى الشاطئ إلى مراكب شراعية صغيرة، وهو طريق شهد بالفعل مصادرة محدودة من الأسلحة المضادة للدبابات».[78]

وأثناء تقديم تقرير اللجنة إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قال الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش: إن هناك أدلة على أن إيران كانت تزود المتمردين الحوثيين بالصواريخ الباليستية في تحد لقرار الأمم المتحدة رقم 2231 الصادر في 20 تموز-يوليو 2015 الذي دعا إيران إلى عدم القيام بأي نشاط يتعلق بالصواريخ الباليستية المصممة لتكون قادرة حمل أسلحة نووية، والتي تحقق فيها الأمم المتحدة. وأشار إلى قرار الرئيس ترامب في 13 تشرين الأول-أكتوبر بعدم التصديق على الاتفاق النووي الإيراني بموجب القانون الأميركي، الأمر الذي خلق «قدراً كبيراً من عدم اليقين» بشأن مستقبله، لكنه أضاف: «أنا مطمئن أن الولايات المتحدة أعربت عن التزامها بالعمل بـ[الاتفاق]». وكان المسؤولون البريطانيون يشعرون بقلق عميق من أمور منها أنه إذا قررت واشنطن الضغط من أجل فرض عقوبات أوسع على طهران بسبب انتهاكها لقرارات الأمم المتحدة المتعلقة باليمن، فقد يؤدي ذلك إلى تعريض الاتفاق النووي لعام 2015 للخطر، مما يدفع إيران إلى الانسحاب من الاتفاق.[79]

حزب الله – السعودية – [كيان] إسرائيل

ومع عمل خبراء الحرس الثوري الإيراني مع الحوثيين لتجميع أجزاء سكود التي زودتهم بها إيران، وتشغيل الصاروخ، لم تكن هناك حاجة لإشراك حزب الله في المشروع. ولذلك بدا تجاهل الجبير لحزب الله كأنه مناورة تهدف إلى تشجيع [كيان] إسرائيل، الذي يراقب عن كثب حزب الله في شماله، على اتخاذ خطوة عدوانية ضد هذه الجماعة المسلحة. وقد أضاف هذا مصداقية إلى الشائعات المستمرة بأن [كيان] إسرائيل والمملكة العربية السعودية أقامتا اتصالات سرية. في 19 تشرين الثاني-نوفمبر كشف يوفال شتاينتز، عضو المجلس الأمني لرئيس الوزراء الإسرائيلي، في مقابلته مع إذاعة الجيش، أن [كيان] إسرائيل أجرى اتصالات سرية مع الرياض. وقال شتاينتس: «عندما ناضلنا من أجل التوصل إلى اتفاق نووي أفضل مع إيران، بنجاح جزئي فقط، كانت هناك بعض المساعدة من الدول العربية المعتدلة في مواجهة الولايات المتحدة والقوى الغربية لمساعدتنا في هذه المسألة». وأضاف: «وحتى اليوم، عندما نضغط على القوى العالمية لعدم الموافقة على إنشاء قاعدة عسكرية إيرانية في سورية على حدودنا الشمالية، فإن العالم العربي السني يساعدنا».[80]

وقبل أيام قليلة إدّعى قائد الجيش الإسرائيلي، الفريق غادي آيزنكوت، في مقابلة مع صحيفة إيلاف الإلكترونية المملوكة للسعودية، أن إيران كانت "أكبر تهديد للمنطقة"، وأنها كانت تسعى إلى "السيطرة على الشرق الأوسط. وأضاف أن [كيان] إسرائيل مستعد لتبادل "المعلومات الاستخباراتية" مع السعودية لأن لبلديهما مصلحة مشتركة في الوقوف في وجه إيران.[81] وذهب أفيغدور ليبرمان، وزير الدفاع الإسرائيلي، إلى أبعد من ذلك، ودعا على صفحته على فيسبوك في 18 تشرين الثاني-نوفمبر إلى تشكيل تحالف من "الدول المعتدلة" في الشرق الأوسط ضد إيران على غرار التحالف المناهض لتنظيم داعش بقيادة الولايات المتحدة.[82]

على الجانب الدبلوماسي، نشرت صحيفة الأخبار ومقرها بيروت، في منتصف تشرين الثاني-نوفمبر، رسالة مسربة من الجبير إلى بن سلمان حدد فيها الشروط التي يجب استيفاؤها لإقامة علاقات دبلوماسية طبيعية بين الرياض وتل أبيب. وقد شملت هذه، في جملة أمور، "التكافؤ العسكري" بين الدولتين. وبما أن [كيان] إسرائيل هو الدولة الوحيدة التي تمتلك أسلحة نووية في الشرق الأوسط، فيجب على المملكة أن تمتلك هذا الردع أو تسعى إلى إزالة سلاح [كيان] إسرائيل. كما تقترح المملكة وضع القدس تحت السيطرة الدولية التي تديرها الأمم المتحدة.[83] ومن غير المرجّح أن يجري استيفاء أي من هذه الشروط. أما مع الجارة الأقرب قطر، فلم يكن هناك احتمال أن يحقق بن سلمان نجاحاً أيضاً.

قطر ترسّخ علاقاتها مع تركيا وإيران

وبعد وساطة من الرئيس ترامب، أجرى أمير قطر تميم وبن سلمان محادثة هاتفية في 8 أيلول-سبتمبر، وفقاً لما ذكرته وسائل الإعلام الحكومية في كلا البلدين، وذكرت وكالة الأنباء السعودية (واس) «أن أمير قطر أبدى خلال الاتصال رغبته في الجلوس إلى طاولة الحوار ومناقشة مطالب الدول الأربع بما يضمن مصالح الجميع». لكن في اليوم التالي نقلت وكالة الأنباء السعودية عن متحدث باسم وزارة الخارجية السعودية قوله: «إن ما نشر في وكالة الأنباء القطرية هو استمرار لتشويه السلطة القطرية للحقائق. تعلن المملكة العربية السعودية تعليق أي حوار أو تواصل مع السلطة في قطر لحين صدور بيان واضح يوضح موقفها علناً».[84]

وقال الأمير تميم، في كلمته أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك في 19 أيلول-سبتمبر: «إن الدول التي فرضت الحصار على دولة قطر تتدخل في الشؤون الداخلية للعديد من الدول، وتتهم كل من يعارضها في الداخل والخارج بالإرهاب، ومن خلال القيام بذلك فإنهم يلحقون الضرر بالحرب على الإرهاب. لقد رفضنا الخضوع لإملاءات الضغط والحصار». وقد عقد لاحقاً اجتماعاً مع ترامب حرص فيه على التأكيد على قوة العلاقة القطرية الأميركية، وقال الأمير تميم في مؤتمرهما الصحفي المشترك: «كما قلت سيدي الرئيس، لدينا مشكلة مع جيراننا»، مضيفاً أنه مع تدخل ترامب «نأمل أن نتمكن من إيجاد حل لهذه المشكلة». وكانت فرص المصالحة ضئيلة. وقال مسؤول من أحد أعضاء المحور المناهض لقطر: «من المؤسف أن يستمر الأمير تميم في الحديث عن الحصار، حتى في الوقت الذي أقر فيه في الخطاب نفسه بأن ممراته الملاحية مفتوحة».[85]

وبينما ظلت العلاقات السعودية القطرية مجمدة، ازدهرت علاقات قطر وإيران وتركيا. وقد سُلِّط الضوء على أهمية إيران الإستراتيجية في 27 تشرين الثاني-نوفمبر عندما وقعت تركيا وإيران وقطر اتفاقية نقل تجاري، مع تسمية إيران كدولة عبور للتجارة بين قطر وتركيا.[86] وساعدت هذه الخطوة على تحييد جهود الرياض لعزل قطر اقتصادياً.

وبوصفها الرئيس الدوري لمجلس التعاون الخليجي، دعت الكويت قطر لحضور القمة السنوية لمجلس التعاون الخليجي التي تستمر يومين في 5 كانون الأول-ديسمبر. وقد حضر الأمير تميم، وهو الحاكم الوحيد الذي قام بذلك إلى جانب الأمير المضيف صباح الأحمد الصباح. وأرسل أعضاء آخرون وزراء خارجيتهم. وانتهى الاجتماع المغلق بعد جلسة قصيرة في 5 كانون الأول-ديسمبر، وأدان بالإجماع قيام الحوثيين بقتل علي عبد الله صالح، ودعا اليمنيين

إلى «التخلص من ميليشيات الحوثي التابعة والمدعومة من إيران». وأدان «كافة الأعمال الإرهابية التي تقوم بها إيران وتدخلاتها المستمرة في الشؤون الداخلية للدول العربية».[87]

وعلى النقيض من سلسلة إخفاقاته في السياسة الخارجية، مضى بن سلمان قدماً في تعزيز سلطته في الداخل. وقد حصل على شعبية متزايدة بين الشباب، نظراً للتركيبة السكانية لثلثي المواطنين السعوديين تحت سنّ الثلاثين، وذلك من خلال تحرير بعض الجوانب الاجتماعية والثقافية للحياة اليومية. وتضمنت خطواته إعادة فتح دور السينما التي أُغلقت منذ أوائل الثمانينيات، والسماح بالحفلات الموسيقية، ورفع الحظر المفروض على قيادة النساء، ليس فقط السيارات، ولكن أيضاً الشاحنات، وإنهاء صلاحيات الاعتقال التي تتمتع بها الشرطة الدينية المروعة. وقد سارت هذه الإجراءات جنباً إلى جنب مع تقليصه للحقوق المدنية والسياسية المحدودة بالفعل للمواطنين.

بن سلمان يقمع المعارضين الدينيين والعلمانيين

خلال صيف عام 2017، وفي اجتماع سري للغاية ورفيع المستوى لكبار أمراء العائلة المالكة، أشار بن سلمان إلى وجود مقاومة لمستمرة لترقيته كولياً للعهد، وقرر هو والملك سلمان قمعها، وجاء مؤشر على ذلك من خلال طريقة تعامل الحكومة مع تعليق الشيخ سلمان العودة، الذي رحب في تقرير يُشير إلى إمكانية حل الخلاف بين قطر والسعودية، وقال في تغريدة لمتابعيه البالغ عددهم 14 مليوناً: «اللهم ألِّف بين قلوبهم لما فيه خير شعبهم». وقد حققت تغريدته ما يقرب من 2000 رد، و15000 إعجاب، و13000 إعادة تغريد. وعقب ساعات من هذا المنشور جرى اعتقاله.[88] وكان من بين المعتقلين الآخرين عوض القرني، وهو داعية معروف آخر مُنع من الكتابة على تويتر في آذار-مارس 2017 على أساس أنه كان ينشر محتوى على وسائل التواصل الاجتماعي من شأنه أن يعرّض النظام العام للخطر. وقد أعرب، إلى جانب العودة، عن دعمه للمصالحة مع قطر.[89] وقد جرى تمييزهم من بين كبار علماء الإسلام بسبب تعاطفهم المستمر مع جماعة الإخوان المسلمين. وخلال حملة القمع اللاحقة، اعتُقل ثلاثون شخصاً، يُنظر إليهم على أنهم من منتقدي بن سلمان كان من بينهم أدباء وشاعر ومثقفون وامرأتان وفقاً للقوائم التي يتداولها الناشطون السعوديون على وسائل التواصل الاجتماعي. ويبدو أن الاعتقالات قد تأكدت في بيان غامض نشرته وكالة الأنباء الحكومية في 12 أيلول-سبتمبر. وقال البيان: إن الاعتقالات جرت بعد قيام رئاسة أمن الدولة بمراقبة أنشطة مجموعة من الأشخاص يعملون «لصالح جهات خارجية ضد أمن المملكة ومصالحها». وسارع المجلس الرسمي لكبار العلماء إلى دعم الحكومة، وقال على حساب على

تويتر: إن السعودية تأسست على قول النبي محمد وأفعاله؛ «فلا مكان للأحزاب السياسية أو الأيديولوجيات».[90] وكانت هذه هي الخلفية التي هاجم فيها ولي العهد بن سلمان ووالده، في أوائل تشرين الثاني-نوفمبر، نخبة رجال الأعمال التي من المرجح أن تتحدى سيادة بن سلمان بعد وفاة والده.

اعتقالات منتصف الليل في الرياض

كان التفسير الحميد لنوايا بن سلمان هو أنه بحاجة إلى أن يكون أكثر استبدادية مع المزيد من مركزية السلطة لرؤية التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التي يرغب في تنفيذها في المجتمع السعودي. وقال لتوماس فريدمان من صحيفة نيويورك تايمز في أواخر تشرين الثاني-نوفمبر: «إن الحياة قصيرة للغاية، ويمكن أن تحدث أشياء كثيرة»، وأضاف: «وأنا حريص حقاً على رؤية التغيير بأم عيني، ولهذا السبب أنا في عجلة من أمري».[91] وكان للمطلعين المتشككين وجهة نظر مختلفة حول هذا الأمر. ونظراً لأنه لا يمكن لأحد أن يكون متأكداً تماماً مما سيحدث بعد وفاة الملك سلمان، فقد أراد هو وابنه المفضّل أن يصعد بن سلمان إلى العرش خلال حياة الملك؛ وهذا يعني تنازل سلمان عن العرش لصالح ولي عهده، ومن هنا جاءت العجلة غير اللائقة.

وفي مقابلته الطويلة مع فريدمان قال بن سلمان: إن أحد الإجراءات الأولى التي قام بها والده -الذي يفترض أنه غير ملوث بتهم الفساد- كان إصدار أمر لفريقه سراً بجمع كل المعلومات حول الفساد في القمة. وفي نهاية تحقيق دام عامين، أنتج الفريق قائمة تضم نحو 200 اسم. وما إن جرى التحقق من الأدلة، حتى تحرك النائب العام سعود المعجب في 4 تشرين الثاني-نوفمبر خلال ساعات من إنشاء لجنة مكافحة الفساد، وقال: «سنعرض عليهم [المحتجزين] جميع الملفات التي لدينا، وبمجرد رؤيتهم لها، سيوافق حوالي 95% منهم على التسوية»، وهو ما يعني التوقيع على تحويل أموال نقدية أو أسهم من أعمالهم إلى خزانة الدولة السعودية. وأضاف: «إن حوالي 1% قادرون على إثبات أنهم نظيفون، ويجري إسقاط قضيتهم على الفور، بينما يقول حوالي 4%: إنهم ليسوا فاسدين ويريدون مع محاميهم الذهاب إلى المحكمة. وبموجب القانون السعودي فإن المدعي العام مستقل، فلا يمكننا أن نتدخل في وظيفته، ويستطيع الملك إقالته، لكنه يقود العملية... إن لدينا خبراء يتأكدون من عدم إفلاس أي شركة في هذه العملية» لتجنب التسبب في البطالة. وسأل فريدمان: «ما مقدار المبلغ الذي سيستردونه؟»، فأجاب بن سلمان: بحسب المدعي العام، «قد تصل التسويات في النهاية إلى نحو 100 مليار دولار».[92]

كان الفساد على مستوى عالٍ موجوداً بأشكال مختلفة، لكنه كان يتمحور حول العقود الحكومية الخاصة بالإمدادات أو مشاريع البنية التحتية. وفي أغلب الحالات حصل كبار رجال الأعمال، بما في ذلك أفراد العائلة المالكة، على تخفيضات كبيرة في العقود في القطاعين العام والخاص، أو أصدروا فواتير أعلى بكثير من التكلفة الفعلية للمشروع، واستولوا على الفارق. وفي حالات أخرى، وقّعت الحكومة عقوداً للأشغال العامة مع شركات خاصة، ودفعت لهم رواتبهم حتى عندما كان المشروع غير مكتمل.[93]

وجادل المعجبون بـ بن سلمان بأن تصرفاته كانت تهدف إلى طمأنة المستثمرين الأجانب المحتملين بأن أيام الحصول على عقود سعودية مربحة عن طريق رشوة الأمراء أو رجال الأعمال ذوي النفوذ للعمل كوسطاء قد ولت، ومن الآن فصاعداً ستكون جميع التعاملات مع القطاع العام السعودي فوق الجميع. لكن منتقديه أشاروا إلى أن ضربته الاستباقية خلقت حالة من عدم اليقين بين النخبة الغنية، مما أدى إلى هروب رؤوس الأموال. وأياً يكن، فقد سارعت هيئة كبار العلماء لتأييد الملك وبن سلمان بشأن الاعتقالات، وقالت: إن «الشريعة أمرتنا بمحاربة الفساد، ومصلحتنا الوطنية تتطلب ذلك».[94]

ويبدو أن كبار العلماء قد استيقظوا من سبات طويل، فالفساد له تاريخ طويل في المملكة، وقد ارتفع بعد التأميم الكامل لشركة أرامكو، مما مكن آل سعود وأتباعهم من استغلال شركة أرامكو السعودية التي أعيدت تسميتها لمصلحتهم الشخصية. وكانت الطريقة الأكثر ربحية هي تأمين عمولات على مبيعات النفط. فعلى سبيل المثال: أمرت الحكومة السعودية أحد المكونات السابقة لشركة أرامكو ببيع النفط بسعر 32 دولاراً للبرميل إلى شركة بترومونت، وهي شركة يابانية باعته بعد ذلك إلى مصفاة يابانية بسعر 34 دولاراً و63 سنتاً، يزيادة دولارين و63 سنتاً في البرميل تذهب إلى بترومونت كعمولة. وتبين بالتحقيق أن شركة بترومونت هي شركة مقرها لندن، ويملكها الأمير محمد بن فهد، نجل ولي العهد آنذاك، ولها أرقام الهاتف والتلكس الخاصة بصحيفة البلاد نفسها.[95]

ولكن تبين أن هذا كان أمراً تافهاً مقارنةً بما حدث عندما نُشرت البرقيات السرية الصادرة عن السفارة الأمريكية في الرياض على الملأ عبر موقع ويكيليكس؛ ففي البرقية المؤرخة في 30 تشرين الثاني-نوفمبر 1996، أشار كاتبوها إلى "حفنة من كبار الأمراء"، الذين يسيطرون على مليارات عدة من النفقات السنوية في برامج "خارج الميزانية" بعيداً عن رقابة أو ضوابط وزارة المالية، واستندت هذه المعلومات إلى ما كشفه الأمير العصامي (غير السديري) الأمير الوليد بن طلال للسفير الأميركي، موضحاً أنه «من خلال هذه البرامج خارج الميزانية يتحكم

خمسة أو ستة أمراء في إيرادات مليون برميل يومياً من إنتاج المملكة من النفط الخام البالغ 8 ملايين برميل يومياً».[96] ويبدو أن أولئك الذين حصلوا على هذا الكنز الثمين كانوا من إخوة فهد الأشقاء (السديريين)، وأن هذه الممارسة المخادعة بدأت في الأيام الأولى لشركة أرامكو السعودية المؤممة. وفي مقابلته مع صحيفة وول ستريت جورنال، في تشرين الثاني-نوفمبر 2013، نفى الوليد بن طلال الشائعات المستمرة بأن شركته "المملكة القابضة" كانت واجهة استثمارية لأفراد آخرين من العائلة المالكة السعودية الحريصين على الحفاظ على سرية هويتهم.[97]

وقد بدأت البرقية السرية المرسلة من السفارة الأمريكية في الرياض في تشرين الثاني-نوفمبر 1996 بالعبارة التالية: «إن الأمراء والأميرات السعوديون، الذين يوجد منهم الآلاف، معروفون بقصص ثرواتهم الهائلة وميلهم إلى تبديدها». وتوضّح الوثيقة أن الآلية الأكثر شيوعاً لتوزيع ثروة المملكة العربية السعودية على أفراد العائلة المالكة هي نظام الرواتب الشهرية المدرج في الميزانية الذي يتلقاه أفراد عائلة آل سعود. وكانت الرواتب الملكية، التي يديرها "مكتب القرارات والقواعد" التابع لوزارة المالية، والذي يعمل كنوع من مكتب الرعاية الاجتماعية للعائلة المالكة السعودية، تتراوح في منتصف التسعينيات من حوالي 800 دولار شهرياً لـ "أصغر عضو في الفرع البعيد من العائلة [الملكية]" إلى 200.000 - 270.000 دولار شهرياً لأحد أبناء عبد العزيز بن سعود الباقين على قيد الحياة.[98] وتابعت البرقية « تتوافر مدفوعات إضافية (مكافآت) للزواج وبناء القصور»، التي قَدّرت أن هذا النظام كلف الحكومة، التي كان يبلغ حجم ميزانيتها السنوية 40 مليار دولار في ذلك الوقت، نحو ملياري دولار سنوياً.[99]

"في النهاية"، كما أشار مؤلفو البرقية، «لا يزال أفراد العائلة المالكة يبدون أكثر مهارة في تبديد الثروة من تجميعها. وعلى الرغم من الصدقات، فإن عدد الملياردیرات العاديين أكبر من عدد الملياردیرات الملكيين في المملكة. إن أغنى أفراد العائلة المالكة وثرواتهم الشخصية حسب تقديراتنا هم الوليد بن طلال بن عبد العزيز، 13 مليار دولار، فالملك فهد 10مليارات دولار، فوزير الدفاع الأمير سلطان بن عبد العزيز 10 مليارات دولار، فخالد بن سلطان بن عبد العزيز 2 مليار دولار».[100]

وإجمالاً، فإن إسراف أفراد العائلة المالكة من الأعلى إلى الأدنى وجشعهم وعدم كفاءتهم كل ذلك تسبب في هدر عشرات المليارات من الدولارات من دخل النفط على مدى العقدين الماضيين. ومن ناحية أخرى، انخفض دخل الفرد في المملكة، بين عامي 1981 و2001، بمقدار ثلاثة أرباع، من 28 ألف دولار إلى 6800 دولار.[101]

وبوصفه واحداً من الأشخاص القلائل المطلعين على خفايا النظام الملكي، كان لكلمة بن سلمان بشأن اعتقال العشرات من كبار رجال الأعمال والأمراء وزن كبير، ولكن السؤال الرئيس الذي لم يُطرح عليه هو: لماذا أوائل تشرين الثاني-نوفمبر 2017؟ ومن الجدير بالذكر أنه أثناء تشكيل لجنة مكافحة الفساد، أجرى الملك سلمان تعديلاً وزارياً، ليحل أحد الموالين لـ بن سلمان: الأمير خالد بن عبد العزيز بن محمد آل سعود محل الأمير متعب بن عبد الله الذي تدرب في ساندهيرست كوزير للحرس الوطني، المكون حصرياً من القبائل الموالية لآل سعود؛ وبذلك أحكم الثنائي الأب والابن قبضتهما على كافة المؤسسات الأمنية والمخابرات: الدفاع والحرس الوطني، والداخلية، ورئاسة أمن الدولة.

لقد أصبح بن سلمان يعتقد أنه بدعم من إدارة ترامب -"الشخص المناسب في الوقت المناسب" على حد تعبيره - فإن المملكة العربية السعودية وحلفائها العرب يقومون تدريجياً ببناء تحالف لتحدي إيران، وقد اختتم هوسه المناهض لإيران بتفسير غريب للتاريخ الأوروبي الحديث، وأخبر فريدمان: «أن المرشد الأعلى لإيران هو هتلر الجديد في الشرق الأوسط». وأضاف: «لكننا تعلمنا من أوروبا أن الاسترضاء لا يجدي نفعاً. إننا لا نريد أن يكرر هتلر الجديد في إيران ما حدث في أوروبا في الشرق الأوسط». والأكثر أهمية لـ بن سلمان، بحسب فريدمان، هو ما فعلته الحكومة السعودية محليّاً لتعزيز قوتها واقتصادها.[102]

وكان من المقرر إعادة هيكلة الاقتصاد وفقاً لوثيقة رؤية 2030 التي نشرها بن سلمان وسط ضجة كبيرة، فلقد تصورت أن تُفطَم البلاد عن اعتمادها شبه الكامل على النفط، وخلق الملايين من فرص العمل للمواطنين السعوديين الشباب، وبناء صناعة الدفاع المحلية من قاعدة منخفضة للغاية. وكل هذا سيستغرق عشر سنوات على الأقل.

وفي الوقت نفسه، وبتكرار سلوكه السابق في الشؤون الخارجية، تصرف بن سلمان عن غير قصد بطريقة مماثلة محلياً. وبينما كان يقود في العلن حملة قمع كبيرة ضد الفساد والإثراء الذاتي من قبل النخبة، تبين أنه قام بعملية شراء فنية خلسة حطمت الأرقام القياسية، وفقاً لتحقيق أجرته صحيفة نيويورك تايمز في 7 كانون الأول-ديسمبر، فعبر صديق مقرب وابن عم بعيد، الأمير بدر بن عبد الله بن محمد بن فرحان آل سعود، دفع بن سلمان 450.3 مليون دولار في لوحة ليوناردو دافنشي ليسوع المسيح "سلفاتور موندي"، وكان هذا المبلغ أكبر من ضعف الرقم القياسي السابق الذي كان 179.4 مليون دولار مقابل لوحة لبابلو بيكاسو في مزاد علني، ولم تفصح دار كرستيز عن اسم مشتريها.[103]

وفي اليوم نفسه أعلن فرع متحف اللوفر في أبو ظبي، الذي افتتح في تشرين الثاني-

نوفمبر، أنه سيعرض لوحة "سلفاتور موندي" لليوناردو دون أن يذكر ما إذا كانت اللوحة هدية أم إعارة، أو جرى الحصول عليها على أساس الإيجار.[104] والرجل الذي كان وراء مشروع متحف اللوفر في أبو ظبي هو ولي العهد محمد بن زايد، الحليف المقرب من بن سلمان.

وكان لهذا الكشف المحرج بعدٌ ديني في سلالة حاكمة تابعة للمذهب الوهَّابي الإسلامي المتشدد، وكان من المرجح أن يضر بمكانة بن سلمان حتى بين رجال الدين في المؤسسة؛ فـ "سلفاتور موندي" هو تقديم تبجيلي ليسوع المسيح الذي يُعد أحد الأنبياء، وليس مخلّص العالم. علاوة على ذلك، فإن تصوير نبي، بما في ذلك محمد، ممنوع منعاً باتاً في الإسلام.

وفي حين أن التداعيات الكاملة لشراء بن سلمان لوحة للنبي كان لا بد من الشعور بها لدى قطاعات مختلفة من المواطنين السعوديين، فقد تصرف ترامب بطريقة مشابهة لابن سلمان. فحتى الآن يبدو أن عملية بناء الثقة التي قام بها ترامب في الشرق الأوسط تسير على المسار الصحيح. ومن خلال زيارته الخارجية الأولى إلى المملكة العربية السعودية قام ببناء علاقات جيدة مع الدول السُّنّية، وحافظ على علاقات وثيقة مع [كيان] إسرائيل، وكان يحرز تقدماً حتى مع المتشككين في السلطة الفلسطينية. وبعد ذلك، في السادس من كانون الأول-ديسمبر، هدم كل شيء بإعلانه المتسرع عن الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل.

قنبلة ترامب في القدس تقوض مكانة الرياض الإسلامية

ومن خلال قيامه بذلك، أضفى ترامب الشرعية على ضم القدس الشرقية واستعمارها منذ الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967، في انتهاك للقانون الدولي. وفي عام 1947، عندما صوتت الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية، اعتُرف بالقدس على أنها كيان منفصل تحت إشراف دولي. وفي الحرب العربية الإسرائيلية 1948-1949، تم تقسيم المدينة إلى قطاعين، غربي وشرقي، تحت السيطرة الإسرائيلية والأردنية على التوالي. وفي الحرب العربية الإسرائيلية، في حزيران-يونيو 1967، استولى [كيان] إسرائيل على الجانب الشرقي من المدينة، ووسعت حدود المدينة وضمّها في عام 1980، وهو العمل الذي رفضه مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. وقد حافظت واشنطن طوال الوقت على الحياد الصارم بشأن هذا الموضوع. وبعد قيام منظمة التحرير الإسرائيلية الفلسطينية، في أيلول-سبتمبر 1993، وقبولها بحل الدولتين لفضّ الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، فإن الوضع النهائي للقدس سيقرره الطرفان. وفي تشرين الأول-أكتوبر 1995، أقرّ الكونغرس الأمريكي قانون نقل السفارة إلى القدس، وسمح للرئيس بإصدار تنازل كل ستة أشهر لإبقاء السفارة في تل أبيب حفاظاً

على الأمن القومي. وقد وقع الرئيس باراك أوباما على آخر تنازل من هذا القبيل في الأول من كانون الأول-ديسمبر 2016، وقد حذا ترامب حذوه مرة واحدة فقط.

وتعرض قرار ترامب لانتقادات من الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريس وكذلك من الاتحاد الأوروبي. وبوصفها الرئيس الدوري لمنظمة التعاون الإسلامي دعت تركيا إلى عقد قمة طارئة لمنظمة التعاون الإسلامي في إسطنبول، وحضر المؤتمر أكثر من خمسين رئيس دولة أو حكومة، كان من بينهم الأمير القطري تميم آل ثاني والرئيس اللبناني ميشال عون المسيحي، لكن خادم الحرمين الشريفين، الملك السعودي سلمان لم يحضر، ولا ولي عهده الحازم، وبدلاً من ذلك مثّل المملكة العربية السعودية وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ. وقال محمود عباس، رئيس السلطة الفلسطينية: «إن القدس كانت، وستظل إلى الأبد عاصمة الدولة الفلسطينية»، وأضاف: «لا نقبل أي دور للولايات المتحدة في العملية السياسية من الآن فصاعداً، لأنها منحازة تماما لإسرائيل». وفي خطابه، قال الرئيس الإيراني حسن روحاني: إن السبب الوحيد الذي جعل ترامب يجرؤ على الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل هو أن البعض في المنطقة كانوا يسعون إلى إقامة علاقات مع [كيان] إسرائيل، في إشارة مقنعة إلى المملكة العربية السعودية. وأعلن البيان الختامي القدس الشرقية «عاصمة لدولة فلسطين»، ودعا «جميع الدول إلى الاعتراف بدولة فلسطين والقدس الشرقية عاصمة محتلة لها»، ووصف خطوة ترامب بأنها «إعلان انسحاب الإدارة الأمريكية من دورها كراعٍ للسلام» في الشرق الأوسط، ووصفها بأنها «لاغية وباطلة» من الناحية القانونية و«تقويض متعمد لجميع جهود السلام» من شأنها أن تعطي "التطرف والإرهاب" زخماً.[105]

وفي 18 كانون الأول-ديسمبر استخدمت الولايات المتحدة حق النقض في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ضد مشروع قرار يطالب إدارة ترامب بالتراجع عن قراراتها المتعلقة بالاعتراف بالقدس عاصمةً لإسرائيل ونقل السفارة الأمريكية إليها، بدعم من أربعة عشر عضواً من أصل خمسة عشرً. وكعضو في مجلس الأمن، دعت مصر إلى عقد جلسة طارئة للجمعية العامة للأمم المتحدة في 21 كانون الأول-ديسمبر. وهدد دونالد ترامب بقطع المساعدات المالية عن أولئك الذين أيدوا القرار الذي رعته تركيا واليمن. ووصف المجلس خطوة ترامب بأنها "باطلة وفارغة"، وأكد من جديد عشرة قرارات لمجلس الأمن بشأن القدس، يعود تاريخها إلى عام 1967، بما في ذلك مطالبات بأن يحدد الوضع النهائي للمدينة في مفاوضات مباشرة بين [كيان] إسرائيل والفلسطينيين، وطالبت «جميع الدول بالالتزام بقرارات مجلس الأمن

المتعلقة بمدينة القدس الشريف، وعدم الاعتراف بأية أعمال أو إجراءات تتعارض مع تلك القرارات». ومن بين الأعضاء الـ 193، صوت 128 لصالح القرار، مقابل تسعة ضده، وامتناع 35 عن التصويت. وتضمنت قائمة أولئك الذين أيدوا القرار دولاً إسلامية رئيسية متلقية للمساعدات الأمريكية مثل مصر وأفغانستان.[106] وبذلك مات احتمال تحقيق بن سلمان لخطته الكبرى المتمثلة في قيام المملكة العربية السعودية وحلفائها العرب ببناء تحالف قوي بشكل مطرد لمواجهة إيران.

الملاحظات

1 في حادثة مماثلة خلال الانتخابات الرئاسية الأمريكية في نوفمبر 2000، حصل المرشح الديمقراطي آل غور على 544 ألف صوت أكثر من المرشح الجمهوري جورج دبليو بوش.

2 Peter Baker, New York Times, 5 January 2018, «For Trump, Book Raises Familiar Questions of Loyalty and Candor. » https://www. nytimes. com/201805/01//us/poli- tics/trump-fire-fury-book-loyalty. html

3 Jeremy Diamond, CNN, 8 December 2015, «Donald Trump: Ban all Muslim travel to US. » http://edition. cnn. com/201507/12//politics/ donald-trump-muslim-ban-immi- gration/

4 Eric Levitz, New York Magazine, 17 February 2016, «Donald Trump Suggested Saudi Arabia Was Behind 911/ Multiple Times Wednesday. » http://nymag. com/daily/intel- ligencer/201602//donald-trump-suggests-the-saudis-did-911. html

5 Laura Smith-Spark, CNN, 10 November 2016, «What Trump has said about the world. » http://edition. cnn. com/201609/11//politics/donald-trump-world-view/

6 Ibid

7 Maggie Haberman and David E. Sanger, New York Times, 26 March 2016; «Transcript: Donald Trump Expounds on His Foreign Policy Views.» http://www. nytimes. com/201627/03//us/politics/donald-trump-transcript. html

8 Stephen J. Adler, Jeff Mason and Steve Holland, Reuters, 17 April 2017, «Exclusive: Trump Complains Saudis Not Paying Fair Share for U. S. Defense», 27 April, 2017.

9 SIPRI, 5 April 2016, «World military spending resumes upward course»

10 Stephen J. Adler, Jeff Mason and Steve Holland, Reuters, 17 April 2017, «Exclusive: Trump Complains Saudis Not Paying Fair Share for U. S. Defense», 27 April, 2017

11 Maggie Haberman and David E. Sanger, New York Times, 26 March 2016; «Transcript: Donald Trump Expounds on His Foreign Policy Views.» http://www. nytimes. com/201627/03//us/politics/donald-trump-transcript. html

12 Anwar Iqbal, Dawn, 27 January 2017, «Pakistan, Afghanistan visa applicants to face extreme vetting: Trump. » https://www. dawn. com/news/1311028

13 Anthony Zurcher, BBC News, 6 March 2017, «Will Trump's new travel ban be halted again in court?. » http://www. bbc. co. uk/news/world-us-canada-39149052

14 Anna Giaritelli, Washington Examiner, 19 May 2017, «Ritz-Carlton in Riyadh projects five-story portrait of Trump on side of hotel. » http://www. washingtonexaminer. com/ ritz-carlton-in-riyadh-projects-five-story-portrait-of-trump-on-side-of-hotel/arti- cle/2623669

15 Bornie Kristian, The Week, Trump Travels Abroad, 20 May 2017. «Trump signs largest arms deal in American history with Saudi Arabia. http://theweek. com/speed- reads/700428/trump-signs-largest-arms-deal-american-history-saudi-arabia

16 Defense One, May 2017, «There's Less than Meets the Eye in Trump's Saudi Arms Deal. » http://www. defenseone. com/ideas/201705//theres-less-meets-eye-trumps- saudi-arms-deal/138055/

17 Fuad Masum, the president of Shia-majority Iraq, was an ethnic Kurd belonging to the Sunni sect

18 The White House, Office of the Press Secretary, 21 May 2017,. «President Trump's Speech to the Arab Islamic American Summit. » https://www. whitehouse. gov/the-press- office/201721/05//president-trumps-speech-arab-islamic-american-summit

19 Dilip Hiro, YaleGlobal Online, 25 May 2017, «Saudi Arabia Plays Trump on Iran to Tilt Middle East Balance. » http://yaleglobal. yale. edu/content/saudi-arabia-plays-trump- iran-tilt-middle-east-balance

20 David Martosko, Mail Online, 21 May 2017, «Trump shows off buddy act with Mideast leaders as he praises the Egyptian president's shoes—while promising 'beautiful mili-tary equipment' to Qatar. » http://www. dailymail. co. uk/news/article-4527130/Trump- praises-al-Sisi-s-shoes-promises-arms-Qatar. html

21 Christopher de Bellaigue, New York Times, 11 June 2017, «Will Iran Descend Into Chaos?» https://www. nytimes. com/201711/06//opinion/will-iran-descend-into-chaos. html

22 لم يكن هناك رد معروف من السلطات الإيرانية على ادعاء الأمير بن سلمان. وكان من المبرر لهم أن يشيروا إلى أن ما قاله المرشد الأعلى آية الله علي خامنئي بعد منع الإيرانيين من الحج في سبتمبر 2016 لم يكن أكثر من »يجب على العالم الإسلامي أن يعيد النظر في إدارة الحرمين الشريفين وقضية الحج«

23 Ben Hubbard, New York Times, 2 May 2017, «Dialogue With Iran Is Impossible, Saudi Arabia's Defense Minister Says. » https://www. nytimes. com/201702/05//world/mid- dleeast/saudi-arabia-iran-defense-minister. html

24 Gregory Korte, USA Today, 21 May 2017, «In speech to Muslim leaders, Trump con-demns 'Islamic extremism'. » https://www. usatoday. com/story/news/politics/2017/ 0521//trump-muslim-world-speech-saudi-arabia-terrorism/101976694/

25 Dilip Hiro, TomDispatch. com, 6 July 2017, «Two Impulsive Leaders

Fan the Global Flames. » http://www. tomdispatch. com/blog/176303/ tomgram %3A_dilip_hiro %2C_ two_impulsive_leaders_fan_the_global_ flames/

26 Bethan McKerrran, Independent, 24 May 2017, «Qatar's state news agency blames hack-ers for fake news story praising Israel and criticizing allies. »http://www. independent. co. uk/news/world/middle-east/qatar-news-agency-fake-news-israel-praise-criticise- allies-middle-east-sheikh-donald-trump-a7753026. html

27 Maha El Dahan and William Maclean, Reuters, 24 May, 2017, «Gulf rift reopens as Qatar decries hacked comments by emir. » https://www. reuters. com/article/us-qatar- cyber/gulf-rift-reopens-as-qatar-decries-hacked-comments-by-emir-idUSKBN18K02Z_

28 Reuters Staff, 6 June 2017, «Trump says Mideast leaders pointed to Qatar as financ-ing radicalism. »https://www. reuters. com/article/us-gulf-qatar-trump/trump-says-mid- east-leaders-pointed-to-qatar-as-financing-radicalism-idUSKBN18X1I6

29 Phil Stewart, Reuters, 6 June 2017, «US military praises Qatar, despite Trump tweet. »https://www. reuters. com/article/us-gulf-qatar-usa-pentagon/u-s-military- praises-qatar-despite-trump-tweet-idUSKBN18X2G2

30 Dilip Hiro, TomDispatch. com, 6 July 2017, «Two Impulsive Leaders Fan the Global Flames. » http://www. tomdispatch. com/blog/176303/ tomgram %3A_dilip_hiro %2C_ two_impulsive_leaders_fan_the_global_ flames/

31 Christina Lamb, Sunday Times, 11 June 2017, «Under siege in the gilded cage of Qatar. » https://www. thetimes. co. uk/article/what-is-life-like-during-qatar-blockade-6jljvhthq

32 Dilip Hiro, TomDispatch. com, 6 July 2017, «Two Impulsive Leaders Fan the Global Flames. » http://www. tomdispatch. com/blog/176303/

tomgram %3A_dilip_hiro %2C_ two_impulsive_leaders_fan_the_global_ flames/

33 Peter Beaumont, Guardian, 15 June 2017, «US signs deal to supply F-15 jets to Qatar after Trump terror claims. » https://www. theguardian. com/ world/2017/jun/15/us- signs-deal-to-supply-f-15-jets-to-qatar-after-trump-terror-claims

34 غير مُلمّ بالبروتوكول الدبلوماسي، هنأ الرئيس الأمريكي دونالد ترامب الأمير محمد بن سلمان على ترقيته، متجاوزاً الملك سلمان، المحرك الرئيسي

35 Wikipedia, the free encyclopedia, https://en. wikipedia. org/wiki/ Economy_of_Qatar

36 Tom Gjelten, All Things Considered, NPR, 24 March 2017, «Push To Name Muslim Brotherhood a Terrorist Group Worries US Offshoots. » http://www. npr. org/2017/ 03520299701/24//push-to-name-muslim-brotherhood-a-terrorist-group-worries-u-s- offshoots

37 Muhammad Sergie, Bloomberg. com, 11 January 2017, «The Tiny Gulf Country With a $335 Billion Global Empire. » https://www. bloomberg. com/news/articles/2017- 0111-/qatar-sovereign-wealth-fund-s-335-global-empire

38 Foreign Staff, Daily Telegraph, 11 June 2017, «Iran sends five planes of vegetables to help Qatar after five Arab nations cut ties over 'extremism' links. » http://www. tele-graph. co. uk/news/201711/06//iran-sends-five-planes-vegetables-qatar/

39 Christopher de Bellaigue, New York Times, 11 June 2017, «Will Iran Descend Into Chaos?» https://www. nytimes. com/201711/06//opinion/ will-iran-descend-into-chaos. html

40 Independent, 19 June 2017, «Iran calls missile attack on Syria militants a wider warning. » http://independent. ie/world-news/iran-calls-attack-on-syria-militants-a-wider-warn- ing-35840917. html

41 Dilip Hiro, YaleGlobal Online, 25 May 2017, «Saudi Arabia Plays Trump on Iran to Tilt Middle East Balance. » http://yaleglobal. yale. edu/content/saudi-arabia-plays-trump- iran-tilt-middle-east-balance

42 BBC News, 22 May 2015, «Saudi Arabia attack: Islamic State claims Shia mosque bomb-ing. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-32843510

43 Riyadh Muhammad, Fiscal Times, 2 April 2015, «Muslim Cleric Calls All Out War. » http://www. thefiscaltimes. com/201502/04//Muslim-Cleric-Calls-All-Out-War

44 The New Arab, 27 June 2017, «Violence erupts following Saudi demolition of the his-toric Shia homes. »https://www. alaraby. co. uk/english/News/201727/6//Violence- erupts-following-Saudi-demolition-of-historic-Shia-homes

45 Noah Browning and Katie Paul, Reuters, 2 August 2017, «Saudi security forces flatten old quarter of Shia town. »https://www. reuters. com/article/us-saudi-security-awamiya/ saudi-security-forces-flatten-old-quarter-of-shiite-town-idUSKBN1AP21S?il=0

46 Sally Nabil, BBC News, 16 August 2017, «Awamiya: Inside Saudi Shia town devastated by demolitions and fighting. »http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-40937581

47 Middle East Eye, 12 May 2017, «Yemen President says UAE acting like occupiers. » http://www. middleeasteye. net/news/exclusive-yemeni-president-says-emiratis-acting- occupiers-1965874493

48 Maggie Michael and Ahmed Al-Haj, Associated Press, 6 November 2017, «Saudi barred Yemeni president from going home, officials say. » https://www. apnews. com/4e4a659 cc61d479d96e9591c80ef13d3

49 David D. Kirkpatrick, New York Times, 6 November 2017, «Saudi Arabia Charges Iran With ‘Act of War, ’ Raising Threat of Military Clash. »

https://www. nytimes. com/201706/11//world/middleeast/yemen-saudi-iran-missile. html

50 Kate Lyons, Guardian, 12 October 2017, «Yemen's cholera outbreak now the worst in history as millionth case looms. » https://www. theguardian. com/global-development/ 2017/oct/12/yemen-cholera-outbreak-worst-in-history-1-million-cases-by-end-of-year

51 Bruce Riedel, Al Monitor, 18 Oct 2017, «Why did Saudi Arabia save Yemen's ex-pres-ident again?»https://www. al-monitor. com/pulse/originals/201710//saudi-arabia- yemen-save-ali-abdullah-saleh-russia. html

52 Shuaib Almosawa and Nour Youssef, New York Times, 1 November 2017, «Airstrike Kills at Least 25 at Market in Yemen. » https://www. nytimes. com/201701/11//world/mid- dleeast/yemen-saudi-airstrike. html

53 David D. Kirkpatrick, New York Times, 6 November 2017, «Saudi Arabia Charges Iran With 'Act of War, ' Raising Threat of Military Clash. » https://www. nytimes. com/201706/11//world/middleeast/yemen-saudi-iran-missile. html

54 Martin Chulov, Guardian, 5 December 2017, «Saudi purge sees 159 business leaders held in Riyadh hotel. » https://www. theguardian. com/world/2017/dec/05/saudi- purge-sees-159-business-leaders-held-in-riyadh-hotel

55 Al Jazeera and News Agencies, 9 November 2017, «Saudi 'freezes bank accounts' of Muhammad bin Nayef. » http://www. aljazeera. com/news/201711//saudi-freezes-bank- accounts-Muhammad-bin-nayef-171108210630650. html

56 David D. Kirkpatrick, New York Times, 6 November 2017, «Saudi Arabia Charges Iran With 'Act of War, ' Raising Threat of Military Clash. » https://www. nytimes. com/201706/11//world/middleeast/yemen-saudi-iran-missile. html

57 BBC News, 30 November 2017, «Yemen war: Fighting breaks out among allied reb-els. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-42179313

58 Patrick Wintour, Guardian, 24 Nov 2017, «Saudi Arabia still barring aid to Yemen despite pledge to lift siege. » https://www. theguardian. com/world/2017/nov/24/saudi- arabia-continues-to-block-humanitarian-aid-to-yemen

59 Reuters, 2 December 2017, «Yemen's Saleh says ready for 'new page' with Saudi-led coalition. » https: //www. reuters. com /article/us-yemen-security/yemens-saleh-says- ready-for-new-page-with-saudi-led-coalition-idUSKBN1DW08P

60 Shuaib Almosawa and Ben Hubbard, New York Times, 4 December 2017, «Yemen's Ex-President Killed as Mayhem Convulses Capital. » https:// www. nytimes. com/2017/ 1204//world/middleeast/saleh-yemen-houthis. html

61 William Harris, Lebanon: A History, 600–2011, Oxford University Press, Oxford, 2012, p. 274

62 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 244

63 Ibid., pp. 160, 178

64 في كانون الثاني/يناير 2011، قدّم المدعي العام للمحكمة الخاصة بلبنان قرار اتهام مختوم إلى قاضي الإجراءات التمهيدية دانيال فرانسين لتأكيده. وبعد أن تم ذلك، قدّمت المحكمة الخاصة بلبنان أربع مذكرات توقيف سرية إلى الحكومة اللبنانية في 30 حزيران/يونيو. ويُعتقد أن هذه المذكرات تتضمن أسماء أربعة من كبار أعضاء حزب الله. وقد شكك زعيمه حسن نصر الله في شرعية المحكمة الخاصة بلبنان. ولم يكن بالإمكان تنفيذ المذكرات لأن الأشخاص الذين وردت أسماؤهم مفقودون.

- See Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 233

65 BBC News, 14 June 2013, «Who is supplying weapons to the warring sides in Syria?» http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-22906965

66 Samia Nakhoul, Reuters, 26 September 2013, «Special Report: Hizbollah gambles all in Syria. » https://www. reuters. com/article/us-syria-hezbollah-special-report/special- report-hezbollah-gambles-all-in-syria-idUSBRE98P0AI20130926

67 Sam Dagher, Wall Street Journal, «Iran 'Foreign Legion' Leads Battle in Syria's North. » https://www. wsj. com/ar ticles/iran-foreign-legion-leads-battle-in-syrias- north-1455672481

68 Anne Bernard, New York Times, 2 March 2016, «Saudi Arabia Cuts Billions in Aid to Lebanon, Opening Door for Iran. » https://www. nytimes. com/201603/03//world/ middleeast/saudi-arabia-cuts-billions-in-aid-to-lebanon-opening-door-for-iran. html

69 Martin Chulov, Guardian, 31 October 2016, «Iran ally Michel Aoun elected as presi-dent of Lebanon. » https://www. theguardian. com/world/2016/oct/31/michel-aoun- elected-president-lebanon-iran-tehran-saudi-arabia

70 The National/AFP, 10 January 2017, «Lebanese president Aoun travels to Riyadh. » https://www. thenational. ae/world/lebanese-president-aoun-travels-to-riyadh-1. 11457

71 Times of Israel, 13 February 2017, «Lebanon needs Hezbollah to counter Israel Threat. » https://www. timesofisrael. com/lebanon-needs-Hizbollah-to-counter-israel-aoun/

72 Yaakov Lappin, Jerusalem Post, 16 June 2016, «Analysis: Ten Years After War Hezbollah Powerful But More Stretched Than Ever. » http://www. jpost. com/Arab-Israeli-Conflict/ Analysis-Hezbollah-powerful-but-more-stretched-than-ever-457035

73 Zeina Karam, Independent, 4 November 2017, «Lebanon Prime Minister Saad Hariri announces surprise resignation over 'assassination plot'». http://www. independent. co. uk/news/world/middle-east/lebanon-prime-minister-saad-hariri-resignation-resigns- quits-future-movement-surprise-latest-a8037266. html

74 Press TV, 5 November 2017, «Lebanese army says it has not uncovered any assassina-tion plans. » http://www. presstv. com/Detail/2017541104/05/11// Lebanese-army- says-it-has-not-uncovered-any-assassination-plans

75 Ben Hubbard and Hwaida Saad, New York Times, 25 Nov 2017, «Lebanon's Vanishing Prime Minister Is Back at Work: Now What?». https://www. nytimes. com/201725/11// world/middleeast/lebanon-saad-hariri-iran-saudi-arabia. html

76 Anne Bernard, New York Times, 5 December 2017, «It's Official: Lebanese Prime Minister Not Resigning After All. » https://www. nytimes. com/201705/12//world/middleeast/ lebanon-hariri-saudi. html

77 Max Fisher, Eric Schmitt, Audrey Carlsen and Malachy Brown, New York Times, 4 December 2017. «Did American Missile Defense Fail in Saudi Arabia?» https://www. nytimes. com/interactive/201704/12//world/middleeast/saudi-missile-defense. html

78 Michele Nichols, Reuters, 30 November 2017, «Exclusive: Yemen rebel missiles fired at Saudi Arabia appear Iranian—U. N. » https://www. reuters. com/article/us-yemen- security-un-exclusive/exclusive-yemen-rebel-missiles-fired-at-saudi-arabia-appear-ira- nian-u-n-idUSKBN1DU36N

79 Julian Borger and Patrick Wintour, Guardian, 14 December 2017, «US gives evidence Iran supplied missiles that Yemen rebels fired at Saudi Arabia. » https://www. theguard-ian. com/world/2017/dec/14/us-gives-evidence-iran-supplied-missiles-that-yemen-reb- els-fired-at-saudi-arabia

80 Press TV, 19 November 2017, «Israel minister discloses covert ties with Saudi Arabia for first time. » http://www. presstv. com/Detail/2017542784/19/11// Israel-Saudi- Arabia-Iran-Energy-Minister-Yuval-Steinitz-Army-Radio-covert-contacts

81 Jeffrey Heller, Stephen Kalin, Reuters, 19 November 2017, «Israeli minister reveals covert contacts with Saudi Arabia. » https://af. reuters. com/article/worldNews/idAFK- BN1DJ0R3

82 Press TV, 19 November 2017, «Israel minister discloses covert ties with Saudi Arabia for first time. » http://www. presstv. com/Detail/2017542784/19/11//Israel-Saudi- Arabia-Iran-Energy-Minister-Yuval-Steinitz-Army-Radio-covert-contacts

83 The New Arab, 14 Nov 2017, «Saudi Arabia plans 'official ties with Israel', leaked doc-ument reveals. » https://www. alaraby. co. uk/english/News/201714/11//Saudi-Arabia- plans-official-ties-with-Israel-leaked-document

84 Guardian/Reuters, 9 September 2017, «Saudi Arabia suspends dialogue, saying Qatar 'distorting facts'. » https://www. theguardian. com/world/2017/sep/09/saudi-arabia- suspends-dialogue-saying-qatar-distorting-facts

85 Yara Bayoumy and Jeff Mason, Reuters, 19 September 2017, «Qatar Emir again urges dialogue, Trump says dispute to be resolved quickly. » https://www. reuters. com/article/us-un-assembly-qatar/qatar-emir-again-urges-dialogue-trump-says-dispute-to- be-resolved-quickly-idUSKCN1BU2IB

86 Dilip Hiro, YaleGlobal Online, 7 December 2017, «Expanding Russia-Iran-Turkey Alliance puts the US on Back Foot. » https://yaleglobal. yale.edu/content/expanding- russia-iran-turkey-alliance-puts-us-back-foot

87 Times of Israel/Agencies, 6 December 2017, «Two-day Gulf summit ends in minutes as Qatar is snubbed. » https://www. timesofisrael. com/two-day-gulf-summit-ends-in- minutes-as-qatar-snubbed/

88 The Hindu/AP, 15 September 2017, «Saudi Arabia cracks down on critics of crown prince. » http://www. thehindu. com/news/international/saudi-arabia-cracks-down-on- critics-of-crown-prince/article19689934. ece

89 Ibid

90 Ibid

91 Thomas L. Friedman, New York Times, 23 November 2017, «Saudi Arabia's Arab Spring, at Last. »https://www. nytimes. com/201723/11// opinion/saudi-prince-mbs-arab- spring. html

92 Ibid

93 Martin Chulov, the Guardian, 5 December 2017, «Saudi purge sees 159 business lead-ers held in Riyadh hotel. » https://www. theguardian. com/ world/2017/dec/05/saudi- purge-sees-159-business-leaders-held-in-riyadh-hotel

94 Ben Hubbard, New York Times, 5 November 2017, «Saudi Prince, Asserting Power, Brings Clerics to Heel. » https://www. nytimes. com/201705/11// world/middleeast/ saudi-arabia-wahhabism-salafism-mohammed-bin-salman. html

95 Wall Street Journal, May 1, 1981

96 Saudi Royal Wealth: Where do they get all that money, 1996, November 30, 96RIYADH4784_a. https://wikileaks. org/plusd/cables/96RIYADH4784_a. html

97 Matthew Kaminski, Wall Street Journal, 22 November 2013, «Prince Al-Waleed bin Talal: An Ally Frets About American Retreat. » http://www. wsj. com/articles/SB100 01424052702304337404579211742820387758

98 Christopher Helman, «Report Details How Saudi Royals Cream Off Oil Revenue, » Forbes, 1 March 2011. http://www. forbes. com/sites/ christopherhelman/201103// 01/report-details-how-saudi-royals-cream-off-oil-revenue/

99 Simon Robinson, «Special Report: U. S. cables detail Saudi royal welfare program, » Reuters, 28 February 2011. http://uk. reuters. com/article/us-wiki-saudi-money-idUSTRE71R2SA20110228.

- وبما أن هذه الرواتب كانت تبدأ عند الولادة، فقد وفرت أيضاً حافزاً لأفراد العائلة

المالكة للإنجاب. وبالنظر إلى النمو السنوي الذي بلغ 3 في المائة، لذا تضاعف عدد الأمراء والأميرات كل 20 إلى 26 سنة

- Anthony H. Cordesman, Saudi Arabia Enters the 21st Century (Vol. 1): The Political, Foreign Policy, Economic, and Energy Dimensions, Praeger, Westport, Conn, 2003, p. 143

100 Saudi Royal Wealth: Where do they get all that money, 1996, November 30, 96RIYADH4784_a. https://wikileaks. org/plusd/cables/96RIYADH4784_a. html

101 Hiro, Blood of the Earth, p. 140

102 Thomas L. Friedman, New York Times, 23 November 2017, «Saudi Arabia's Arab Spring. at Last. » https://www. nytimes. com/201723/11// opinion/saudi-prince-mbs-arab- spring. html

103 David D, Kirkpatrick, Mark Mazzetti, and Eric Schmitt, New York Times, 7 December 2017, «Saudi Crown Prince Was Behind Record Bid for a Leonardo. » https://www. nytimes. com/201707/12//world/middleeast/ saudi-crown-prince-salvator-mundi. html.

- وفي وقت سابق، كان الأمير بدر قد عمل وكيلاً لبن سلمان في تنفيذ مشروع منتجع فاخرلأخوته الخمسة الأشقاء. بالإضافة إلى ذلك، قام ولي العهد بتعيين الأمير بدر مسؤولاً عن شركة إعلامية سعودية يسيطر عليها فرع سلمان من آل سعود

104 Stanley Carvalho, Reuters, 7 December 2017, «Louvre Abu Dhabi to display Leonardo's 'Salvator Mundi'. https://www. reuters. com/article/us-emirates-louvre/ louvre-abu-dhabi-to-display-leonardos-salvator-mundi-idUSKBN1E11IO

105 Peter Beaumont, Guardian, 13 December 2027, «Palestinians no longer accept US as mediator, Abbas tells summit. » https://www. theguardian. com/world/2017/dec/13/ recep-tayyip-erdogan-unite-muslim-world-trump-east-jerusalem

106 Peter Beaumont, Guardian, 21 December 2017, «UN votes resoundingly to reject Trump's recognition of Jerusalem as capital. » https://www. theguardian. com/ world/2017/dec/21/united-nations-un-vote-donald-trump-jerusalem-israel

الفصل الخامس عشر

الاستنتاجات

لفهم العلاقات المتغيرة بين المملكة العربية السعودية وإيران بشكل كامل، من المهم ملاحظة تاريخهما، فالآثار المدوّنة في إيران تعود إلى العصور القديمة، وإذا تقدمنا سريعاً إلى عام 1501، نجد الشاه إسماعيل الصفوي قد قام، بعد الاستيلاء على تبريز في أذربيجان، ببسط نطاق سيطرته من بغداد إلى هرات في أفغانستان، واعتماد الإسلام الشيعي الاثني عشري كدين للدولة؛ وهكذا فإن الهوية الإيرانية المعاصرة تعود إلى عام 1501.

وعلى النقيض من ذلك، تأسست الدولة السعودية الأولى، التي تسمى إمارة الدرعية، عام 1744، ولم تظهر المملكة العربية السعودية الأخيرة على الكشّاف الإيراني/الفارسي إلا في عام 1924 عندما استولى عبد العزيز بن عبد الله(*) آل سعود، (المعروف أيضاً باسم ابن سعود)، على مكة والمدينة بعد تفكك الإمبراطورية العثمانية.

المنظور التاريخي

قبل مدة طويلة من هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى، أصبحت بريطانيا القوة الغربية المهيمنة في شبه الجزيرة العربية وإيران، وقد اكتسبت هذا الدور من أجل حماية الممرات البحرية المؤدية إلى مستعمرتها الهندية. وكانت بريطانيا أول دولة غربية تعترف بابن سعود كجزء من معاهدة جدة الموقعة في أيار-مايو 1927، إذ قبل العاهل السعودي بريطانيا بوصفها "حامية" للإمارات العربية في الخليج وعُمان. وبحلول ذلك الوقت كانت شركة النفط الأنجلو-فارسية، المملوكة للحكومة البريطانية، قد أصبحت راسخة في إيران، وكان رضا شاه بهلوي هو العاهل منذ عام 1925. وحافظت إيران على علاقات دبلوماسية طبيعية مع أمريكا.

(*) هو عبد العزيز بن عبد الرحمن وليس عبد العزيز بن عبد الله [المركز].

وفي عام 1928، رفضت الولايات المتحدة طلب ابن سعود الاعتراف به كملك مستقل، ثم تراجعت عن قرارها في عام 1931، ووقعت معاهدة أساسية للصداقة والملاحة مع المملكة العربية السعودية في تشرين الثاني-نوفمبر 1933، بعد ستة أشهر من منح ابن سعود امتياز النفط لشركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا (سوكال). ومرت سبع سنوات قبل أن تعين واشنطن قنصلها غير المقيم لدى المملكة العربية السعودية.

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية في عام 1939، وما نتج عنها من انخفاض حاد في عدد الحجاج المسلمين إلى مكة وكذلك في إنتاج النفط، أصبح الوضع المالي للملك السعودي مرهِقاً. وقد ساعدته شركة كالتكس الأمريكية للنفط، من خلال دفع سُلف مالية له مقابل عائدات مستقبلية التي كانت بمعدل سنوي قدره مليوني دولار قبل الحرب. كما ناشدت الرئيس فرانكلين روزفلت المساعدة في حل أزمته المالية. وقد نشأت هذه الإمكانية مع إقرار قانون الإعارة والتأجير الأمريكي في آذار-مارس 1941؛ إذ سمح هذا القانون للرئيس ببيع المعدات العسكرية، أو تبادلها، أو إقراضها، أو تأجيرها، أو تسليمها إلى الدول الصديقة التي تتعرض لهجوم من قبل دول المحور. ولم تقع المملكة العربية السعودية ضمن هذه الفئة. وجاءت فرصة ابن سعود عندما وافق الكونغرس الأمريكي على قرض بقيمة 425 مليون دولار لبريطانيا في تموز-يوليو. وأصدر روزفلت تعليماته لمدير وكالة القروض الفيدرالية بأن «يخبر البريطانيين [بأنه] آمل أن يتمكنوا من رعاية ملك المملكة العربية السعودية». ونتيجة لذلك ارتفعت مدفوعات بريطانيا إلى المملكة العربية السعودية أربعين ضعفاً في ثلاث سنوات: من 403.000 دولار في عام 1940 إلى 16 مليوناً و600 ألف دولار في عام 1943.[1] والأهم بكثير أنه، في 18 شباط-فبراير 1943، وقع روزفلت وثيقة تقول: «أجد بموجب هذا أن الدفاع عن المملكة العربية السعودية أمراً حيوياً للدفاع عن الولايات المتحدة».[2]

ومنذ ذلك الحين جرت الموافقة على هذا البيان من قبل جميع الرؤساء المتعاقبين، سواء كانوا ديمقراطيين أو جمهوريين. وفي كانون الثاني-يناير 2009، خلال اجتماعه الخاص مع خليفته باراك أوباما في البيت الأبيض، نصح الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش أوباما بإيلاء المملكة العربية السعودية اهتماماً خاصاً؛ وقد فعل أوباما ذلك خلال فترة ولايته الأولى، ولكنه، في ولايته الثانية، بدأ يشكك في عقيدة وزارة الخارجية هذه، كما كشف جيفري غولدبرغ في مقالته الطويلة المكونة من 19500 كلمة، بعنوان "عقيدة أوباما"، استناداً إلى مقابلات عِدّة مع أوباما، نُشرت في مجلة "The Atlantic" في نيسان-أبريل 2016. وأشار غولدبرغ إلى أن «إحباط أوباما من السعوديين يشكِّل تحليله لسياسات القوة في الشرق الأوسط». وقال: «في

وقت ما لاحظت أنه أقل ميلاً من الرؤساء السابقين إلى الوقوف بشكل بديهي إلى جانب المملكة العربية السعودية في نزاعها مع خصمها اللدود إيران؛ ولم أكن مخطئاً».

وقال الرئيس: «إن إيران، منذ عام 1979، كانت عدواً للولايات المتحدة، وانخرطت في الإرهاب الذي ترعاه الدولة، وتشكل تهديداً حقيقياً لإسرائيل والعديد من حلفائنا، وتشارك في جميع أنواع السلوك المدمر». وأضاف: «ووجهة نظري لم تكن قط هي أننا يجب أن نلقي بحلفائنا التقليديين -السعوديين- في البحر لصالح إيران». لكن أوباما ذهب إلى القول: إن السعوديين بحاجة إلى "تقاسم" الشرق الأوسط مع خصومهم الإيرانيين حيث قال: «إن المنافسة بين السعوديين والإيرانيين -والتي ساعدت في تغذية الحروب بالوكالة والفوضى في سورية والعراق واليمن- تتطلب منا أن نقول لأصدقائنا وكذلك للإيرانيين: إنهم بحاجة إلى إيجاد طريقة فعالة لتقاسم الجوار وإقامة نوع من السلام البارد»، وأردف قائلاً: «إن النهج الذي يقول لأصدقائنا: "أنتم على حق، إيران هي مصدر كل المشاكل، وسوف ندعمكم في التعامل مع إيران" يعني بشكل أساسي أنه مع استمرار احتدام هذه الصراعات الطائفية وشركائنا في الخليج، إن الأصدقاء التقليديين لا يملكون القدرة على إطفاء النيران بمفردهم أو تحقيق النصر الحاسم بمفردهم، وهذا يعني أنه يتعين علينا أن نبدأ في التدخل واستخدام قوتنا العسكرية لتصفية الحسابات. وهذا لن يكون في مصلحة الولايات المتحدة ولا في مصلحة الشرق الأوسط».[3]

ومن المؤكد أن المشكلة لم تكن من ذات جانب واحد؛ فقد نشأت في المملكة السعودية تحديات خطيرة للنظام على أسس أيديولوجية إما من الوهَّابيين المتشددين الذين يعملون خارج المؤسسة الدينية التي ترعاها الدولة، أو نتيجة لتأثير حركة ديمقراطية إقليمية غير عنيفة مثل الربيع العربي عام 2011. وباللجوء إلى التمرد المسلح كما حدث في عام 1979، أو الإرهاب، بدءاً من عام 2005، سلط المتعصبون الدينيون الوهَّابيون الضوء على ضعف الأسرة المالكة. وحتى بخلاف ذلك، وعلى الجبهة الأيديولوجية، فإن التحدي الرئيسي الذي يواجه آل سعود هو تبرير لقب خادم الحرمين الشريفين، وهو ما يعني ضمناً قيادته الروحية للإسلام كله، ودوره الذي اكتسبه ذاتياً في حماية الإسلام، ونشر الدين الحقيقي الوحيد الذي يُعَد شاملاً. إن آل سعود حساسون للغاية تجاه أي تحدٍّ على هذه الجبهة، ويحدث ذلك بشكل كبير عندما يتجاوز زعيم ديني وهابي غير مؤسسي الخط الأحمر، ويشكك في الشرعية الإسلامية للعائلة المالكة، ولو بشكل غير مباشر.

لقد رُسِمت الخطوط الحمراء بشكل حاد، وفُرِضت بشراسة، وليس ثمة تسامح مع انتقاد

آل سعود أو الأسرة الحاكمة في دول الخليج العربية الأخرى. وينطبق هذا أيضاً على مواقع الإنترنت التي تنظم معارضة سياسية، أو تشكك في مفهوم الأسرة الحاكمة عن الإسلام، وهو المفهوم الذي يؤيده في الأوقات الحرجة مجلس كبار العلماء المعيّن من قبل الدولة، وجميعهم وهابيون.

وفي الوقت نفسه فإن متطلبات إدارة دولة حديثة معقدة جداً ومتنوعة بحيث لا يمكن تصميمها لتلبية القواعد الصارمة لعقيدة تأسست في القرن السابع. إن المهمة الصعبة المتمثلة في الإبحار في هذا المسار المحفوف بالمخاطر هي تحدٍّ متأصل في وجود آل سعود واعتمادهم على أمريكا -وهي دولة ذات أغلبية مسيحية، ولها دستور علماني- بوصفها الضامن النهائي لأمنها الخارجي، وبالتالي بقائها. وتجد الأسرة الحاكمة صعوبة متزايدة في التوفيق بين تحالفها مع الولايات المتحدة والحفاظ على صورتها الإسلامية في الداخل. وليس من المستغرب أنه عندما يصبح التحالف العسكري مع واشنطن واضحاً بشكل علني، كما هو الحال في الوجود المستمر للقوات الأمريكية على الأراضي السعودية، يصبح احتجاج رجال الدين غير المؤسسيين عنيفاً.

حامي السعوديين، و"الشيطان الأكبر" لإيران

إن روابط الرياض الحميمة مع واشنطن وضعتها على خلاف مع الجمهورية الإسلامية، التي اعتمدت مبدأ "لا شرق ولا غرب" كمبدأ توجيهي لسياستها الخارجية. وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي في عام 1991، تعاملت إيران مع الاتحاد الروسي اللاحق بوصفه جاراً، ولم يعد ملحداً، وبالتالي يستحق تنميته. وعلى النقيض من ذلك، فإن موقف طهران العدائي تجاه أمريكا، الذي خُفف إلى حد ما بعد وفاة آية الله روح الله الخميني، الذي كان يطلق على أمريكا بشكل روتيني اسم "الشيطان الأكبر"، ظل قائماً.

لقد كان من الثابت بين زعماء إيران أن الدولة غير الإسلامية -مهما كانت قوتها- لا ينبغي أن يكون لها دور في الدفاع عن أي من الدول الإسلامية المطلة على الخليج في منطقة الخليج. وتلخص هذا الأمر في معادلة المجموع الصفري بين طهران وواشنطن. وما كان إيجابياً بالنسبة للولايات المتحدة كان سلبياً بالنسبة لإيران؛ والعكس صحيح. لقد تمسكت الجمهورية الإسلامية بهذا المبدأ من حيث المبدأ طوال فترة وجودها، ودفعت ثمن عنادها فيما يتعلق بالعقوبات الاقتصادية، ولكن هذه الإجراءات، إلى جانب الحرب الطويلة مع العراق، أجبرت إيران على أن تعتمد على ذاتها؛ ونتيجة لذلك حدثت طفرة في صناعاتها

المدنية والعسكرية، كما انخفضت مساهمة النفط والغاز في الناتج المحلي الإجمالي إلى 15 % فقط، أي حوالي ثلث الرقم الحالي للمملكة العربية السعودية.

إن الروابط الحميمة التي تربط الرياض بالولايات المتحدة تعرضها للتحدي الأيديولوجي الذي تفرضه الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وهي تحاول مواجهة ذلك من خلال تسليط الضوء على إيران بوصفها دولة الشيعة، وهم أقلية بين دول العالم: مليار و600 مليون مسلم. ومن الجدير بالذكر أن المادة 12 من الدستور الإيراني، التي تصف الإسلام والمذهب الجعفري الاثني عشري بوصفهما الدين الرسمي للبلاد، تمنح "الاحترام الكامل" للمذاهب الحنفية، والشافعية، والمالكية، والحنبلية، وكذلك المذاهب الزيدية (الشيعية)؛ فلأتباع تلك المذاهب الحرية في التصرف وفق فقههم الخاص في أداء شعائرهم الدينية.

وبوصفهم أتباع المدرسة الوهَّابية ضمن الفقه الحنبلي المتشدد في الإسلام السني، فإن أفراد العائلة المالكة السعودية معادون بشكل خاص تجاه الشيعة في الداخل والخارج. وعلى النقيض من نظرائهم السعوديين، يؤكد القادة الإيرانيون ما يوحّد الشيعة والسُّنّة، وليس ما يفرقهم. وفي تنافسهم مع المملكة السعودية يمتنعون عن الإشارة إلى انتمائهم الطائفي. وتحتفل إيران كل عام بأسبوع الوحدة الإسلامية الذي يسد الفجوة بين عيدي ميلاد النبي محمد: أحدهما مقبول عند علماء السُنّة، والآخر عند نظرائهم الشيعة.

إن سجل طهران يتحدث عن نفسه؛ وبالأموال والأسلحة ساعدت حماس، وهي منظمة سُنّية بحتة لأنه لا يوجد شيعة في قطاع غزة أو الضفة الغربية. وقد حافظت على علاقات ودية مع جماعة الإخوان المسلمين العابرة للحدود الوطنية، وهي حركة إسلامية نشأت عام 1928 في مصر السُّنّية التي كانت ذات طابع عالمي تقريباً. ومن الناحية الأيديولوجية، تشترك الجمهورية الإسلامية في النزعة الجمهورية مع جماعة الإخوان المسلمين. وكانت الحكومة السعودية، التي كانت ذات يوم الداعم المالي والأيديولوجي الرئيسي للإخوان، قد اختلفت مع قيادتها في عام 1991 عندما عارضت الأخيرة تمركز القوات الأمريكية على الأراضي السعودية عشية حرب الخليج عام 1991.

إن فرصة إيران للتدخل في السياسة الفلسطينية، وهو أمر يثير حفيظة صناع السياسة السعوديين، جاءت بسبب فشل حجة السعوديين القائلة: إن البقاء في المعسكر الأميركي هو وحده الذي يمكنهم من التأثير في السياسة الأميركية في الشرق الأوسط. وقد أصبح ذلك واضحاً خلال الانتفاضة الفلسطينية الثانية (2000-2005) عندما أثبتت جهود الضغط التي مارسها الملك عبد الله في البيت الأبيض في عهد بوش عدم جدواها.

لقد شعرت الحكومة السعودية بالغضب من المكاسب الدبلوماسية المرموقة التي حققتها طهران من خلال توفير الأموال والأسلحة لحماس، وهو ما لم تستطع القيام به منذ أن أدرجت الولايات المتحدة حماس على قائمة المنظمات الإرهابية.

الحرب الباردة بين الرياض وطهران

بدأت المنافسة الدبلوماسية بين المملكة العربية السعودية وإيران في عام 1975، وتصاعدت إلى حرب باردة بعد تأسيس جمهورية إيران الإسلامية بعد أربع سنوات؛ وكان الملك فيصل هو الذي ركب موجة الدولارات النفطية الناجمة عن تضاعف أسعار النفط أربع مرات في الفترة 1973-1974، وبدأ حملة منسقة ليكون له بصمة في الدول الإسلامية خارج الشرق الأوسط العربي، وقد نجح في باكستان.

وفي حملة مماثلة اكتسب محمد رضا شاه بهلوي نفوذاً في أفغانستان المجاورة باستخدام المال كوسيلة رئيسية لتحقيق ذلك. وبعد إطاحته سعت الجمهورية الإسلامية إلى تحقيق هدف اكتساب النفوذ في الدول الإسلامية في الشرق الأوسط وجنوب آسيا باستخدام مجموعة متنوعة من الوسائل باستثناء الصدقات النقدية. وتضمنت القائمة دعاية خطابية من خلال وسائل الإعلام التي تسيطر عليها الدولة، ونداءات للتضامن الإسلامي بهدف القضاء على النفوذ الغربي، وتعزيز النزعة الجمهورية في ممالك الخليج (آية الله روح الله الخميني حكم بأن الملكية غير إسلامية)، وتعزيز التطرف بين أوساط الفلسطينيين في صراعهم المستمر مع [كيان] إسرائيل. إن إدراجها من قبل الولايات المتحدة كدولة ترعى إرهاب الدولة منذ عام 1985 جعلها حرة في دعم حماس مالياً وعسكرياً.

وإجمالاً، كررت الحرب الباردة الطويلة الأمد بين الرياض وطهران، عن غير قصد، نمط الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي؛ إذ تعاونت القوتان العظميان للتوقيع على معاهدة الحد من الأسلحة الإستراتيجية الأولى في أيار-مايو 1972 مع استمرار تنافسهما للفوز بالدول المحررة حديثاً في آسيا وأفريقيا. وفي العالم الإسلامي كان هذا يعني أن المملكة العربية السعودية وإيران تتنافسان على النفوذ في الشرق الأوسط وخارجه.

وفي عام 2017 كانت لإيران اليد العليا في الشرق الأوسط العربي على الرغم من حقيقة أنه بعد الانفراج بين البلدين الإسلاميين الثقيلين، من أيار-مايو 1993 إلى كانون الأول-ديسمبر 2001، كثفت المملكة العربية السعودية جهودها لمواجهة النفوذ الإيراني في المنطقة. وحققت طهران مكاسب لأسباب مختلفة؛ فإلى جانب نشر ترسانة من التكتيكات كانت تتمتع

بمزايا جيوسياسية وديموغرافية، ولها حدود برية مع ست دول في جنوبي آسيا، والقوقاز، والشرق الأوسط، ولها حدود نهرية مع روسيا في بحر قزوين.

وعلى الرغم من أن الشيعة لا يشكلون سوى 15% من السكان المسلمين في جميع أنحاء العالم، إلا أنه في المنطقة التي تغطي الدول المطلة على الخليج، واليمن، وبلاد الشام (سورية ولبنان)، والأردن، وفلسطين، يبلغ إجمالي عدد الشيعة حوالي 116 مليوناً، فأعدادهم الإجمالية أكبر قليلاً من أعداد السُنّة من حيث إجمالي عدد السكان البالغ 226 مليون نسمة، بما في ذلك 6 ملايين مسيحي؛ إذ إنهم يشكلون أغلبية واضحة في إيران والعراق والبحرين. وقد حققت إيران مكاسب بشكل افتراضي في أعقاب غزو واشنطن الكارثي للعراق في عام 2003، ونتيجة للحصار الدبلوماسي والتجاري الذي قادته المملكة العربية السعودية على قطر في عام 2017.

وبشكل عام، اكتسبت إيران في الحرب الباردة متعددة الجبهات اليد العليا في العراق، وسورية، ولبنان، وقطر. أما في الحرب الأهلية الطويلة الأمد في اليمن بين المتمردين الحوثيين المدعومين من إيران، الذين يحتلون العاصمة صنعاء، وحكومة الرئيس عبد ربه هادي ومقرها الرياض، فلا يزال الوضع غامضاً. ومع ذلك هناك اتفاق عام على أن تحقيق نصر عسكري واضح لجانب واحد هو أمر غير مرجح على الإطلاق؛ فمن الصعب أن نرى كيف يمكن استبعاد الحوثيين، في الاتفاق السياسي المؤقت الذي يؤدي إلى انتخابات تحت إشراف الأمم المتحدة، فقد أثبتوا أن لديهم قوة بقاء أكبر بكثير من جميع الأطراف الأخرى في الحرب الأهلية وذلك كما توقعت القوى الخارجية.

وبدعم من الرئيس الأمريكي دونالد ترامب المناهض بشدة لإيران حاول ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان مواجهة تفوّق طهران، دون نجاح يذكر حتى الآن. لقد تحول تدخله العسكري في اليمن إلى مستنقع باهظ الثمن، وثبت أن تحركه المتسرع لمعاقبة قطر على الحفاظ على علاقات طبيعية مع إيران من خلال إقناع الإمارات، والبحرين، ومصر بقطع العلاقات التجارية والدبلوماسية مع الدوحة قد أدى إلى نتائج عكسية. وقد أدت هذه الخطوة إلى إلقاء قطر في أحضان إيران الترحيبية وتعزيز التعاون العسكري مع تركيا، الدولة السُنّية الرائدة. ولا تزال خطط قطر لاستضافة بطولة كأس العالم لكرة القدم 2022 في الدوحة تسير على الطريق الصحيح، حيث تؤدي العديد من شركات البناء التركية الكبرى دوراً مهماً في بناء الملاعب.

وأخفق ولي العهد السعودي في محاولته زعزعة استقرار لبنان الذي تحكمه حكومة وحدة

وطنية تضم وزراء من حزب الله الموالي لإيران؛ لم يستوعب بن سلمان بعد القاعدة الأساسية للدبلوماسية: قبل أن تحاول إخضاع حكومة أجنبية لإرادتك، يتعين عليك أن تحسب نقاط القوة والضعف لديها بكل نزاهة.

لقد كان العيب الأساسي في الدبلوماسية السعودية طوال الوقت هو اعتمادها شبه الكامل على المساعدات النقدية؛ ولكن الحوافز المالية لا تكون فعالة إلا إلى حد معين. وخير مثال على ذلك هو باكستان، فمع الحفاظ على علاقات وثيقة مع الرياض رفض الرئيس الباكستاني الجنرال ضياء الحق استبعاد الجنود الشيعة من الوحدات التي وافق على إرسالها إلى المملكة السعودية في الثمانينيات، وقد صرح بوضوح أنه لا يستطيع التمييز بين الجنود السُّنّة والشيعة في جيش بلاده.

عندما حاول بن سلمان بناء تحالف قوي للتدخل في اليمن، في آذار-مارس 2015، تواصل هو والملك سلمان مع باكستان، ولكن، بعد إدراكهم أن تحرك الحكومة السعودية كان مدفوعاً بالكراهية المرضية للشيعة، رفض المشرِّعون في إسلام آباد الدعوة السعودية، وكانوا يدركون جيداً تأثير الأقلية الشيعية في المؤسسات الوطنية، فضلاً عن الهجمات المتكررة للجماعات الجهادية المحلية السنية المسلحة على الأهداف الشيعية الناعمة.

وقد رفضت الكويت، البلد الأقرب، الانضمام إلى حملة بن سلمان ضد قطر للحفاظ على علاقات طبيعية مع طهران في حزيران-يونيو 2017، لأن حاكمها كان مدركاً لحقيقة أن 30 % من المواطنين الكويتيين كانوا من الشيعة.[4] لكن النظرة العامة التي يكنها أفراد العائلة المالكة السعودية للشيعة مشوهةً إلى حد كبير، وهم يرون هلالاً شيعياً خطيراً ينشأ وسط منطقة سُنّية.

شبح الهلال الشيعي

خلال اجتماعه في آذار-مارس 2009 مع جون برينان، مستشار الرئيس أوباما لشؤون مكافحة الإرهاب، أشار الملك عبد الله إلى أن «البعض يقول: إن الغزو الأمريكي قدّم العراق لإيران على طبق من فضة؛ لكن الحقيقة هي أن هذا ليس صحيحاً»، وهذا بعد أن قاتلنا صدام حسين[5]؛ إن تسليم الشيء هو عمل متعمد، أما ما حدث في أعقاب الغزو الكارثي الذي شنّه الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش على العراق في آذار-مارس 2003، فقد كان نتيجة غير مقصودة للحرب.

ومن الجدير بالذكر أن بوش، في خطابه عن حالة الاتحاد، في كانون الثاني-يناير 2002،

أدرج إيران إلى جانب العراق كجزء من محور الشر. لقد غزا بوش العراق على أساس أن صدام كان يصنع أسلحة الدمار الشامل. ومن خلال القيام بذلك -عن علم أو عن غير قصد- عزز أجندة [كيان] إسرائيل، عازماً على ضمان عدم امتلاك العراق أو إيران لسلاح نووي على الإطلاق. وبعد العراق جاء دور إيران في تغيير النظام بالعنف. لكن المشاكل في أعقاب الإطاحة الدموية لصدام حسين أثبتت أنها كانت ساحقة جداً، حتى إن إدارة بوش اضطرت إلى الاكتفاء بتشديد العقوبات الاقتصادية على إيران.

سياسياً أخفق بوش وفريقه في إدراك أنه ما إن تجري انتخابات حرة ونزيهة في عراق ما بعد صدام، حتى تحصل الأغلبية الشيعية -التي قُمِعت منذ عام 1638، عندما ضم الأتراك العثمانيون السُّنّة العراق إلى إمبراطوريتهم- على السلطة من خلال الاقتراع. وباختصار: وجدت إيران حكومة صديقة يهيمن عليها الشيعة في بغداد ما بعد صدام، بسبب خطأ إستراتيجي خطير ارتكبه الرئيس الأمريكي، الذي لم يكن صادقاً مع الرأي العام الأميركي بشأن هذا الموضوع. ومن الجدير بالذكر هنا أن محاولة آية الله روح الله الخميني في أواخر السبعينيات لحشد الشيعة في العراق لإطاحة نظام صدام حسين قد باءت بالفشل.

ولا يزال هناك مثال آخر على النتيجة غير المقصودة للعمل العسكري الذي تستفيد منه طهران، وهذه المرة كان الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان في نيسان-أبريل 1978؛ ففي أعقاب هذا الغزو عمل سفير إيران لدى سورية، علي أكبر محتشمي، كمحفز للعديد من الجماعات الشيعية لتأسيس حزب الله بعد أربع سنوات. وقد أصدر قادتها ميثاق منظمتهم في عام 1985. أما التحالف الإستراتيجي الطويل الأمد بين طهران ودمشق، فلم يجرِ تأكيده من خلال الانتماء الطائفي المشترك للإسلام الشيعي فحسب، بل أيضاً من خلال الأيديولوجية المناهضة للإمبريالية.

وفي أواخر السبعينيات كان الرئيس السوري حافظ الأسد أول زعيم عربي يعترف بالجمهورية الإسلامية الإيرانية. وقد وُلِد الأسد في أسرة فلاحية علوية فقيرة، ونشأ كاشتراكي، وطوّر علاقات وثيقة مع الاتحاد السوفييتي بينما بقي حذراً من الولايات المتحدة، وفي عام 1979 عدّ نظام ما بعد الشاه في طهران مناهضاً للإمبريالية بحق. وقد تعززت العلاقات بين طهران ودمشق خلال الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات؛ فقد قدّمت سورية لإيران معلومات استخباراتية حيوية عن العراق، وباعت الجمهورية الإسلامية النفط بأسعار مخفضة إلى سورية. وكما أوضحنا في فصل سابق[6] فإن الاتفاقيات الرسمية بين البلدين لا تغطي المساعدة في حالة العدوان الأجنبي فحسب، بل تشمل أيضاً التهديدات الداخلية

الخطيرة لبقاء النظامين المعنيين. وفي حالة اليمن كان التدخل العسكري من قِبَل التحالف الذي تقوده السعودية هو الذي جمع بين الحوثيين -وهم الشيعة الزيديين وليسوا الاثني عشرية- وإيران.

إن سلسلة الانتكاسات التي سجلتها الرياض في السياسة الخارجية تناقض السلاسة التي تمتع بها بن سلمان حتى الآن في إصلاح الحياة الاجتماعية والثقافية للمواطنين السعوديين.

بن سلمان يتألق في بيته

وفي نيسان-أبريل 2016 أيّد بن سلمان، عند كشفه عن رؤيته لـ 2030، الحظر الذي فرضته المملكة على قيادة المرأة، وزعم أن "المجتمع السعودي" لم يكن "مقتنعاً بقيادة المرأة للسيارة". وقال: «إن قيادة المرأة للسيارة ليست قضية دينية بقدر ما هي قضية تتعلق بالمجتمع نفسه الذي يقبلها أو يرفضها». ولم يقدم أي دليل –مثل استطلاع رأي جميع السعوديين، ذكوراً وإناثاً– لدعم تصريحه[7]، ولكن في الوقت نفسه تقريباً، كان حرمان هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (المطوعين) من سلطة الاعتقال أمراً شائعاً للغاية، خاصة بين الشباب. وفي أيلول-سبتمبر 2017، بناءً على طلب بن سلمان، أصدر الملك سلمان مرسوماً برفع الحظر، ليصبح ساري المفعول بعد تسعة أشهر.[8]

ومع ذلك لم تكن هناك أي علامة علنية على أي تغيير في الرأي بشأن هذه القضية من قبل أعلى سلطة دينية وقانونية في البلاد، المفتي العام الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ الذي قال: «السماح للنساء بقيادة السيارات قد يفتح بوابات لا يمكن السيطرة عليها»، وأضاف: «إن السماح لهن بالقيادة قد يعني أيضاً أنه يمكن للنساء مغادرة منازلهن بمفردهن والذهاب إلى أماكن دون علم عائلاتهن، وهذا قد يعني بالطبع شروراً عديدة».[9] وقد بدا المفتي الأعمى الملتحي البالغ من العمر خمسة وسبعين عاماً خجولاً جداً لدرجة أنه لم يتمكن من القول صراحةً: إن المرأة التي تقود سيارتها بمفردها ستكون حرة في ممارسة الجنس خارج إطار الزواج. والحق أن سلفه المفتي عبد العزيز بن عبد الله بن باز كان قد قال في "حكم قيادة النساء للسيارات": «إن السماح للمرأة بقيادة السيارة يساهم في سقوط المجتمع» من خلال تشجيع الاختلاط بين الجنسين و"الزنا الذي" هو السبب الرئيس لحظر هذه الممارسات. وقد سُجلت فتواه على موقع الفتاوى الرسمي[10]www.alifta.com، وكان التركيز بشكل أساسي على تثبيط الزنا الذي يحدث، في رأي هؤلاء العلماء، عندما يختلط الرجال والنساء غير المرتبطين اجتماعياً.

وتوقّياً لمعارضة من قبل كبار فقهاء الوهَّابية المتعصبين، نفذ بن سلمان "ضربة استباقية"، على حد تعبير رجل دين لم يذكر اسمه، سُجّل كلامه خلال مقابلته الهاتفية مع صحيفة نيويورك تايمز في أوائل تشرين الثاني-نوفمبر. «لقد قُبض على كل من فكّر في قول لا للحكومة».[11] ولم تتضح أسباب هذه الاعتقالات. ولكن مرة أخرى، كان التعسف جزءاً لا يتجزأ من الملكية المطلقة. وأضاف رجل الدين نفسه الذي لم يذكر اسمه: «ليس الأمر وكأنهم أجروا استفتاءً وقالوا: هل تريدون السير في هذا الاتجاه أم ذاك؟».[12]

وفي مقابلته مع توماس فريدمان من صحيفة نيويورك تايمز أشار ولي العهد إلى زمن النبي محمد عندما كانت الموسيقى تُعزف، ويختلط الجنسين بحرية، إذ قال: «إن أول قاضٍ تجاري في المدينة المنورة كان امرأة».[13] ولأنه على مثل هذه الأرضية الصلبة كان بإمكانه أن يختار مناقشة هذه القضية مع رجل دين متشدد من خارج المؤسسة على شاشة التلفاز لعرض قضيته على الملأ.

على عكس إيران، حيث يتمتع آيات الله العظمى الشيعة بمصدر دخل مالي اقتصادي مستقل، ناتج عن تلقّي خُمس أرباح التجارة من أتباعهم، فإن رجال الدين في دولة سُنّية، مثل المملكة العربية السعودية، يعتمدون على الدولة في معيشتهم. ونظراً لهذا التقليد لم يكن مفاجئاً أن تصبح هيئة كبار العلماء الرسمية في المملكة العربية السعودية خادمة للنظام الملكي. لقد جُرّدت فعلياً من أي مساهمة في سياسات الدفاع والأمن القومي للمملكة، أو حتى التعبير عن الشكوك حول الموقف الرسمي، والآن تُحرَم من حقها في أن يكون لها رأي في المسائل الاجتماعية والثقافية، فلم يكن أمامها خيار سوى الإذعان. وكانت في الماضي قد أعلنت مراراً وتكراراً أن معارضة الحاكم ترقى إلى مستوى الفتنة، وهو أمر غير شرعي في الإسلام.

في المحصلة: لا يمكن تفسير التغيرات الاجتماعية والثقافية الأخيرة في المملكة العربية السعودية على أنها النسخة السعودية من الربيع العربي، فقد نظّم الملايين من العرب العاديين مظاهرات سلمية للمطالبة بالحقوق السياسية والمدنية في أوائل عام 2011، وهي ظاهرة غير مسبوقة. ومع ذلك، في حالة بن سلمان، سار تحرير النظام الاجتماعي جنباً إلى جنب مع تقليص الحقوق المدنية وحقوق الإنسان، كما يتضح من اعتقاله الشامل لرجال الدين الوهَّابيين الذين من المحتمل أن يختلفوا معه. وفي وقت سابق كان قد استخدم يداً من حديد لسحق آخر بقايا أي مقاومة من قبل الشيعة السعوديين في المنطقة الشرقية. لقد أظهر أنه لا يتسامح البتة مع النقد، المباشر أو غير

المباشر. كما أن كراهيته الشديدة لإيران أعمته عن بعض الأحداث الفظيعة في المملكة. ففي مقابلته مع صحيفة الغارديان، في أواخر تشرين الأول-أكتوبر 2017، ألقى بن سلمان باللوم على الثورة الإسلامية عام 1979 في إيران بسبب القالب المحافظ للغاية للدولة والمجتمع السعودي[14]، وقد أظهر هذا عدم فهمه للتاريخ الحديث لبلاده. وكان السبب الرئيس لتبني الاتجاه المحافظ المتشدد هو الاستيلاء على المسجد الحرام في مكة في رأس السنة الهجرية 1400، 20 تشرين الثاني-نوفمبر 1979. وكان ذلك أخطر تحدٍ أيديولوجي محلي للنظام الملكي السعودي في تاريخه؛ وكما وضحنا سابقاً[15] فبعد سحقها للتمرد المسلح رأت الحكومة السعودية أنه من السياسي دراسة الانتقادات التي وجهها إليها جهيمان العتيبي، والتي أيّد معظمها بحذاقة المفتي العام عبد العزيز بن عبد الله بن باز، كما لاحظت الرأي العام السائد على نطاق واسع بأن الله قد تدخل في اليوم الأول من العام الهجري 1400 لإنهاء الانتشار غير الإسلامي لصور البشر في المملكة.[16]

وضمن حرصه على رسم نفسه بألوان تشرشل أطلق بن سلمان على آية الله علي خامنئي لقب "هتلر الجديد"، وتعهد بعدم استرضاء إيران التوسعية بل مواجهتها.[17] وكان من المفارقة أن تجد ولي عهدٍ مُنح سلطةً وراثيةً مطلقة، وهو يصف قائد الجمهورية الإسلامية الأعلى، الذي جرى اختياره لفترة ولاية مدتها ثماني سنوات من قبل مجلس الخبراء المنتخب شعبياً، بصفاتٍ تنال من شرعيته.

قبل تصعيد الرهان في الحرب الباردة الحالية مع إيران بشكل أكبر سيكون من الأفضل لـ بن سلمان إعادة تشكيل الملف الاجتماعي والاقتصادي للمملكة على النحو المتصور في رؤيته لـ 2030 التي كشف عنها في نيسان-أبريل 2016، وتتضمن هذه الرؤية خططاً لبيع أسهم في أرامكو السعودية إلى المملكة لإنشاء أكبر صندوق ثروة سيادية في العالم. وبعد عام ونصف، أعلن بن سلمان، بصفته رئيس صندوق الاستثمارات العامة، عن خطط لبناء مدينة ضخمة بقيمة 500 مليار دولار، اسمها: نيوم، بمساحة 26500 كيلومتر مربع، على ساحل البحر الأحمر في المملكة العربية السعودية، المتاخمة للأردن ومصر بحلول عام 2025. ومع التركيز على الطاقة، والمياه، والتكنولوجيا الحيوية، والغذاء، والتصنيع المتقدم، والترفيه، ستكون مدينة للروبوتات ومصادر الطاقة المتجددة.[18] وكان صندوق الاستثمارات العامة في المملكة يحاول إغراء الشركات الأجنبية للاستثمار في مشاريعه الضخمة. ومع ذلك، فإن تنفيذ هذه الخطط المفرطة في الطموح ورفع درجة حرارة الحرب الباردة مع إيران هما هدفان متعارضان. وحتى أدنى تلميح إلى أي تدهور إضافي في العلاقات بين الرياض وطهران سوف

يخيف المستثمرين الأجانب الذين يترددون حالياً بشأن القيام باستثمارات كبيرة في المملكة الصحراوية.

أما بن سلمان الشخص، ولي العهد البالغ من العمر 32 عاماً، فمن المقرر أن يعتلي العرش ليحكم مدة خمسة عقود، إلا إذا اغتيل أو وتعرض لحادث مميت. وعلى هذا النحو، فمن غير المرجح أن يهدأ مستوى العداء الحالي بين القوتين الإسلاميتين –المملكة العربية السعودية وجمهورية إيران الإسلامية– في المستقبل القريب.

الملاحظات

1 Hiro, Inside the Middle East, p. 338

2 Hiro, Blood of the Earth, p. 86

3 Jeffrey Goldberg, «The Obama Doctrine, » The Atlantic, April 2016. http://www. the-atlantic. com/magazine/archive/201604//the-obama-doctrine/471525/

4 Hiro, A Comprehensive Dictionary of the Middle East, p. 373

5 Guardian, 28 November 2010, «US embassy cables: Saudi king's advice for Barack Obama. » US Riyadh Embassy cable dated 22 March 2009, SECRET RIYADH 000447. https://www. theguardian. com/world/us-embassy-cables-documents/198178

6 See p. 298 تحديد الصفحة بعد اكتمال النسخة النهائية للطباعة

7 Jess Staufenberg, «Saudi Arabia is 'not ready' for women drivers, says deputy crown prince, » The Independent, 28 April 2016. http://www. independent. co. uk/news/world/ middle-east/saudi-arabia-is-not-ready-for-women-drivers-says-deputy-crown-prince- mohammed-bin-salman-a7004611. html

8 Martin Chulov, Guardian, 26 September 2017, «Saudi Arabia to allow women to obtain driving licenses. » https://www. theguardian. com/world/2017/sep/26/saudi-arabias- king-issues-order-allowing-women-to-drive

9 Gulf News, 10 April 2016, Saudi Grand Mufti says women should not drive». http:// gulfnews. com/news/gulf/saudi-arabia/saudi-grand-mufti-says-women-should-not- drive-1. 1708022

10 See «Ruling on Female driving cars, » at www. alifta. com, Part 3, p. 351

11 Ben Hubbard, New York Times, 5 November 2017, «Saudi Prince, Asserting Power, Brings Clerics to Heel. » https://www. nytimes. com/201705/11// world/middleeast/saudi- arabia-wahhabism-salafism-mohammed-bin-salman. html

12 Ibid

13 Thomas L. Friedman, New York Times, 23 Nov 2017, «Saudi Arabia's Arab Spring, at Last. » https://www. nytimes. com/201723/11//opinion/ saudi-prince-mbs-arab-spring. html

14 Martin Chulov, Guardian, 24 October 2017, «I will return Saudi Arabia to moderate Islam, says crown prince. » https://www. theguardian. com/ world/2017/oct/24/i-will- return-saudi-arabia-moderate-islam-crown-prince

15 See pp. 83–85 تحديد الصفحة بعد اكتمال النسخة النهائية للطباعة

16 Elliot House, On Saudi Arabia, p. 47

17 Thomas L. Friedman, New York Times, 23 Nov 2017, «Saudi Arabia's Arab Spring, at Last. » The crown prince has big plans for his society. https:// www. nytimes. com/2017/ 1123//opinion/saudi-prince-mbs-arab-spring. html

18 Alicia Buller, Arab News, 24 October 2017, «Saudi Arabia announces $500 billion city of robots and renewables, » http://www. arabnews. com/ node/1182501/saudi-arabia

الفصل السادس عشر

الخاتمة

إن الشهادات التي قدّمها لمراسلي نيويورك تايمز أكثر من اثني عشر من المعتقلين في الرياض كجزء من حملة مكافحة الفساد، في أوائل تشرين الثاني-نوفمبر 2017، بالإضافة إلى أفراد عائلاتهم، تقدم رواية موثوقة ومتماسكة عن الحدث الأكثر استثنائية في التاريخ السعودي.

إضراب مبالغ فيه ضد الكسب غير المشروع: حساب واضح

انتهى الأمر بمعظم المعتقلين إلى أن يكونوا "ضيوفاً" اسميين في فندق ريتز كارلتون الرياض الفخم، في نهاية خطة سرية نُفِّذت بدقة. ودُعي البعض إلى حفل عشاء أقامه الملك سلمان؛ واستُدعي آخرون للقاء ولي العهد محمد بن سلمان، ثم قُيِّدت أيدي الأقل حظاً في منازلهم، واقتيدوا مثل المجرمين إلى السيارات التي كانت تنتظرهم في الخارج.

وخُصِّص لكل معتقل حارس مسلح متمركز خارج باب غرفته المفتوح، وكان بإمكانه الوصول إلى التلفاز، أما إلى الإنترنت أو هواتفه، فلا، والأمر الأكثر إثارة للقلق هو أنه مُنع من الاتصال بمحاميه أثناء احتجازه بمعزل عن العالم الخارجي لأيام عِدّة. ولكن سُمح له في وقت لاحق بطمأنة عائلته من خلال مكالمات هاتفية قصيرة ومراقبة. وجُرِّدت غرفته من أسلاك الستائر وأبواب الاستحمام الزجاجية لمنع أي محاولة انتحار. ولما كان العديد من المعتقلين يعانون من زيادة الوزن، أو يعانون من مشاكل صحية، فقد استُدعي طبيب. وبعد مدة وجيزة وصل خياط لأخذ قياسات ملابسهم الجديدة.

وشملت المخالفات المزعومة التي ارتكبها المعتقلون دفع العمولات وقبولها، وتضخيم العقود الحكومية، والابتزاز، والرشوة. وأشار مسؤولو الديوان الملكي، مسلحين بالملفات، إلى الأصول التي زُعم أن أولئك سرقوها من الحكومة. ولم يتمكن المتهم من الدفاع عن نفسه بالشكل المناسب أو التفاوض بحرية بسبب منعه من إحضار محاميه، وأوضح جمال خاشقجي،

الصحفي السعودي الذي يعيش في المنفى اختيارياً: «إن الأمر يشبه لعبة المونوبولي مع مجموعة من الرجال»، وأضاف: «لكنك مسؤول عن كل شيء، ويمكنك تغيير القواعد، وعلى الجميع البقاء على الطاولة واللعب معك».[1]

وقضية الأمير الوليد بن طلال، بثروة صافية قدرها 17ملياراً و400 مليون دولار، بما في ذلك أسهم في أبل وتويتر ونيوزكورب، قدّمت تفاصيل مذهلة صدمت دوائر الأعمال الدولية. وفي ساعة ما قبل فجر يوم 4 تشرين الثاني-نوفمبر، عندما كان نائماً في معسكر صحراوي، استدعاه الديوان الملكي لرؤية الملك. ولدى عودته إلى قصره بالرياض لم يجد حراسه، وأُخذت هواتفه منه، ونُقل إلى فندق ريتز كارلتون. وقال مسؤول سعودي لرويترز: إن الاتهامات الموجهة ضد بن طلال تشمل غسل الأموال والرشوة وابتزاز المسؤولين.[2]

ومع بداية اليوم جذبت دعوات مماثلة لرؤية الملك سلمان أو ولي العهد عشرات الشخصيات السعودية، وكان من بينهم بعض أغنى الرجال في المملكة وأقواهم، مثل الأمير متعب بن عبد الله، وخالد التويجري، رئيس الديوان الملكي السابق، وبكر بن لادن، رئيس مجلس إدارة مجموعة بن لادن السعودية العملاقة للإنشاءات، وفواز الحكير، الذي كان يمتلك امتيازات زارا، وذا جاب، وعشرات المتاجر الأخرى في البلاد. وقد أصيب أقاربهم بالذعر، بينما قام مديرو شركاتهم البعيدة بوضع خطط طوارئ لمواصلة العمليات غير متأكدين من المدة التي سيغيب فيها رؤساؤهم.

وحين ذكرت هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) أن بن طلال احتُجز في زنزانة تشبه السجن خارج الفندق، وتعرض لمعاملة سيئة، رتّب مكتب بن سلمان لمكتب رويترز في الرياض لتصوير مقابلة معه بالفيديو، وقد أجرت المقابلة مراسلتها كاتي بول ذلك في 27 كانون الثاني-يناير في "مكتب" الأمير في جناحه الفاخر. بدا أنحف وذا لحية شعثاء، وأشار إلى غرفة طعامه، وأمسك بعلبة بيبسي دايت قبل أن يرتشف رشفة، وقال بخجل: «أنا مرتاح جداً لأنني في بلدي»، ثم أضاف: «أنا في مدينتي؛ لذلك أشعر بأنني في بيتي. إنها ليست مشكلة على الإطلاق. كل شيء على ما يرام». وادعى أن اعتقاله كان بسبب "سوء الفهم" الذي سيتضح قريباً، وأضاف: «كونوا مطمئنين إلى أن هذه عملية نظيفة لدينا ونحن نجري مناقشات مع الحكومة حول مسائل مختلفة لا أستطيع الكشف عنها الآن. لكن كونوا على يقين أننا وصلنا إلى نهاية القصة بأكملها». وهذا ما كان؛ فبعد ساعات قليلة أُطلِق سراحه، وعاد إلى قصره في الرياض ليجده تحت حراسة مسلحة. وعلى العموم ظل صامتاً بشأن ما حدث له بالفعل في فندق ريتز كارلتون، وقال أحد زملائه: «إنه شيء يريد أن ينساه». ومع ذلك، كان يُعتقد

على نطاق واسع أنه من أجل الحصول على حريته، قام بتسليم حصة عادلة من ثروته الهائلة للدولة.[3]

وقد تعرض العديد منهم للإكراه أثناء احتجازهم، وحُرم عدد أقل من النوم، وتعرضوا للمعاملة الخشنة، واستُجوبوا ورؤوسهم مغطاة، بينما كان المحققون يضغطون عليهم للتوقيع على أصول كبيرة. وبذلك يصل المبلغ الإجمالي الذي جُمِع من 326 معتقلاً، وفقاً للمدعي العام الشيخ سعود المعجب، إلى 106 مليارات و600 مليون دولار، وهي تشمل العقارات، وأسهم الشركات، والنقد، والأصول الأخرى. وأُدخِل ما لا يقل عن سبعة عشر محتجزاً إلى المستشفى نتيجة للانتهاكات الجسدية، وتوفي أحدهم، وهو اللواء علي القحطاني، وهو ضابط في الحرس الوطني يبلغ من العمر ستين عاماً. وقال أولئك الذين رأوا جثته: إن رقبته كانت ملتوية بطريقة تشير إلى أنها مكسورة، وإن جسده كان مصاباً بكدمات شديدة ومنتفخة، وظهرت عليه علامات من بينها علامات الحروق الناجمة عن الصدمات الكهربائية. وتكمن قيمته بالنسبة للمحققين في حقيقة أنه كان أحد كبار مساعدي الأمير تركي بن عبد الله، الحاكم السابق للرياض، وأنه يمكنه تقديم معلومات ضارة عن ابن الملك السابق عبد الله بن عبد العزيز. وكان أفراد عائلتي القحطاني وعبد الله يخشون مناقشة وفاة القحطاني علناً خوفاً من المزيد من الانتقام[4]، وكان خوفهم مبرراً.

وقد أُجبر المعتقلون المفرج عنهم على ارتداء أساور الكاحل حتى يمكن تتبع تحركاتهم، ووضع على بيوتهم حراس لا يتبعون لهم. وامتد الحظر على سفرهم إلى زوجاتهم وأطفالهم، كما مُنعوا من الوصول إلى حساباتهم المصرفية. وقد أصيب معتقل سابق لم يُذكر اسمه بالاكتئاب عندما انهار عمله، وقال أحد أفراد أسرته لصحيفة نيويورك تايمز: «لقد وقّع للتنازل عن كل شيء، حتى المنزل الذي يعيش فيه».[5]

دوافع بن سلمان المتعددة

قدّم المسؤولون السعوديون التحرك القمعي الأوسع نطاقاً ضد أصحاب النفوذ والأقوياء على أنه حملة منسّقة للقضاء على الكسب غير المشروع، وكان هذا صحيحاً جزئياً فقط؛ إذ كانت لدى الملك سلمان وولي العهد دوافع متعددة لفعل ما فعلوه في ضربة مدمرة خُطِّط لها ونُفِّذت بدقة عسكرية.

وكان أحد الأسباب الرئيسة تسوية الخلاف العائلي بشكل نهائي، والقضاء على مركز قوة منافس، وسحق أي فرصة لأحفاد الملك السابق عبد الله لاعتلاء العرش. وكان الملك سلمان

قد تحرك بسرعة لإقالة الأمير مشعل بن عبد الله والأمير تركي بن عبد الله، محافظي مكة والرياض. وبذلك ترك الأمير متعب بن عبد الله قائداً للحرس الوطني. ومن غير المستغرب أنه وجد نفسه حبيساً داخل فندق ريتز كارلتون. وقد استمرت محنته ما يزيد قليلاً عن ثلاثة أسابيع، وبعد إطلاق سراحه قال مسؤول سعودي: إن الأمير متعب توصل إلى "اتفاق تسوية مقبول". ويعتقد أن المبلغ الذي دفعه، والذي لم يكشف عنه، يعادل أكثر من مليار دولار. وقد شملت الاتهامات الموجهة إليه الاختلاس، وتوظيف موظفين غير موجودين، ومنح عقود لشركاته الخاصة، بما في ذلك صفقة بقيمة 10 مليارات دولار لأجهزة اتصال لاسلكية ومعدات عسكرية مضادة للرصاص للحرس الوطني.[6]

وكان الهدف الأساسي الآخر هو إجراء تعديل جذري على الجهات الاقتصادية الرئيسة الفاعلة من أجل تأمين الدور القيادي لـ بن سلمان؛ وهذا ما يفسّر اعتقال بكر بن لادن، رئيس شركة إنشاءات ضخمة: مجموعة بن لادن السعودية، يعمل بها 100 ألف موظف، ويبلغ حجم مبيعاتها السنوية 30 مليار دولار، إلى جانب العديد من أفراد الأسرة. وبعد اعتقال خمسة من إخوة بن لادن، الذين قادوا الشركة، سيطرت الحكومة فعلياً على مجلس إدارتها من خلال إجبارهم على تحويل جزء كبير من ممتلكاتهم إلى الدولة في تسوية مع المدعي العام. وقد أُطلق سراحهم في 14 كانون الثاني-يناير، وطُلب منهم تقديم تقرير إلى لجنة عيّنتها الحكومة.[7]

ويبقى دافع آخر وراء تصرفات بن سلمان هو احتكار وسائل الإعلام، التي يهيمن عليها مركز إذاعة الشرق الأوسط (MBC)، المملوك إلى حد كبير لرئيسه وليد الإبراهيم، ومقره في دبي. وكانت أكبر شبكة تلفازية عربية مجانية تضم قنوات عِدّة، وتمتلك 50 % من حصة السوق في المملكة العربية السعودية، ويبلغ جمهورها 140 مليوناً في العالم العربي. وبينما لم تكن قناة (MBC) مربحة للغاية، فإن شبكتها الواسعة مكنتها من التأثير في الرأي العام العربي.

وفي عام 2015 سعى الأمير بن سلمان لشراء قناة (MBC)، فطلب إبراهيم 3 مليارات إلى 3 مليارات ونصف، بينما عرض ولي العهد عند ملياري دولار ونصف كحد أقصى، ولما تعثرت المفاوضات، قام بن سلمان بتعيين شركة المحاسبة (PwC UK) ومكتب المحاماة (Clifford Chance) لصياغة وثيقة المبيعات. وفي تشرين الأول-أكتوبر 2017 وصل فريق من محاسبي شركة (PwC) في المملكة المتحدة إلى المكتب الرئيسي لـ (MBC) لفحص دفاتر الشركة؛ ويبدو أن هذا علامة على التقدم. ولذلك، عندما دعا أحد المقربين من بن سلمان إبراهيمَ

إلى الرياض في نهاية ذلك الشهر، افترض رئيس (MBC) أن الصفقة النهائية كانت في الأفق، فوصل إلى العاصمة السعودية على متن طائرته الخاصة ليجد أن اجتماعه مع ولي العهد أُلغي. وعندما حاول العودة إلى دبي، أبلغه المسؤولون في المطار أن طائرته متوقفة، وأن الرحلات الجوية التجارية إلى دبي غير متاحة. ولكن في 5 تشرين الثاني-نوفمبر، جرى تأكيد لقاء إبراهيم مع بن سلمان مرة أخرى، ولكن بدلاً من إتمام الصفقة، وجد إبراهيم نفسه حبيساً داخل أفخم سجن في العالم، وكذلك كان مصير معظم المساهمين الآخرين وأعضاء مجلس إدارة مجموعة (MBC).

وفي شبكته التلفزية كان إبراهيم بمنزلة حاجز فعال ضد تدخل الحكومة السعودية بسبب صلاته العائلية بالعائلة الحاكمة، وكانت شقيقته جوهرة متزوجة من الملك فهد. ونتيجة لذلك عندما أنشأ(MBC)، عام 1991 في لندن، حصل على قروض حكومية من المملكة. وقد انطلقت (MBC) بعد أن نقلت قاعدتها من لندن إلى دبي في عام 2002. وفي وقت لاحق أصبح ابن أخيه الأمير عبد العزيز بن فهد أحد المساهمين في(MBC) ولكن، في حملة مكافحة الفساد، لم يساعد ذلك إبراهيم لأن الأمير عبد العزيز كان معتقلاً أيضاً.

وعلى الرغم من إطلاق سراح إبراهيم في 26 كانون الثاني-يناير، لم يسافر عائداً إلى دبي. وفي الرياض، اجتمع ممثلو (MBC) مع محامي كليفورد تشانس لوضع اللمسات الأخيرة على اتفاق لخفض حصة إبراهيم في الشركة إلى 40% فقط، تمهيداً لإقالته من منصب المدير.[8] وهكذا كان من المقرر أن تتبع قناة (MBC) مصير مجموعة بن لادن السعودية التي استحوذت عليها الدولة.

ومع الصعود السريع لـ بن سلمان، الذي أثار استياء العديد من كبار الأمراء، وُضعت أجهزة الاستخبارات في حالة تأهب قصوى، وجاء الدليل الصارخ على فعاليتها في 4 كانون الثاني-يناير عندما اعتقلت أجهزة الأمن أحد عشر أميراً بعد رفضهم مغادرة قصر الحكم التاريخي في الرياض القديمة، وجرى احتجازهم في سجن الحائر الشديد الحراسة في انتظار محاكمتهم. وكانوا قد اجتمعوا في هذا القصر للاعتراض على مرسوم يأمر الحكومة بالتوقف عن دفع فواتير الكهرباء والماء للأمراء. وبعد أيام قليلة، شكك الأمير عبد الله بن سعود، في رسالته الصوتية عبر تطبيق "WhatsApp"، في صحة التهم الموجهة إلى الأمراء المعتقلين، معتبراً أن جميعهم يتمتعون «بقدرات مالية كبيرة، بعيدة كل البعد عن المخاوف والمشاكل المالية، وقد نشؤوا على يد آبائهم ليكونوا مطيعين للملك»، وأوضح أنه عندما وصل الأمراء إلى القصر القديم، منعهم الحراس من الدخول بطريقة استفزازية، وأن بعضهم "تغلبت عليهم

إثارة الشباب"، مما أدى إلى شجار بالأيدي. وأنهى الأمير عبد الله رسالته بالإشادة بقيادة الملك سلمان وولي العهد، وانتقد «محاولات البعض خلق الفرقة والانقسام داخل العائلة المالكة». وعندما انتشرت رسالته الصوتية، أُقيل من رئاسة اتحاد الرياضات البحرية بقرار من رئيس الهيئة العامة للرياضة تركي آل الشيخ.[9]

وقد أعلن [سعود] المزهو عن التفاصيل النهائية لحملة مكافحة الكسب غير المشروع في 29 كانون الأول- يناير. ومن بين الـ 381 شخصاً المحتجزين في فندق ريتز كارلتون، كان هناك 55 شاهداً، وأُطلِق سراح الباقين جميعاً، باستثناء ستة وخمسين، بعد تجريدهم بالكامل أو تسليم أصول كبيرة للحكومة. واختار أولئك الذين لديهم قضايا لم تجرِ تسويتها الدفاع عن أنفسهم في المحكمة مع محاميهم، ونُقلوا إلى زنازين السجن[10]، وهم يشكلون 17 % من المعتقلين، وكان عددهم أربعة أضعاف نسبة الـ 4 % من المجموع الذي ذكره بن سلمان في مقابلته مع توماس فريدمان من صحيفة نيويورك تايمز قبل شهرين.[11]

وعزا المعجبون بـ بن سلمان حملة مكافحة الفساد إلى محاولته استرضاء المواطنين السعوديين العاديين الذين كانوا يتحملون وطأة الإجراءات التقشفية، ودفع ضريبة بنسبة 100 % على منتجات التبغ ومشروبات الطاقة، وضريبة بنسبة 50 % على المشروبات الغازية منذ منتصف العام 2017. وقد لجؤوا إلى الشكوى سراً وعلى وسائل التواصل الاجتماعي من عدم وجود تقليص مماثل للامتيازات التي يتمتع بها أفراد العائلة المالكة. ولم يكن هناك شك في أن تحرك الحكومة ضد الأغنياء والأقوياء قد أُستقبل بحرارة من قبل الشخص العادي، على الرغم من أنه في غياب استطلاعات الرأي العام، لم يكن من الممكن قياس معدل الموافقة.

ومن ناحية أخرى، أدت إستراتيجية الحكومة المخصصة في الحملة القمعية إلى تدمير الثقة في نظام الحكم مقارنة بالقطاع الخاص، وكان من غير المرجّح أن تُستعاد في المستقبل القريب. وفي حين كان من المنعش رؤية الدولة تُلزم النخب أخيراً بسيادة القانون، كان من المفيد استخدام أساليب قسرية، وربما غير قانونية، لتطبيق القانون الذي جرى سَنُّه على عجل.

وبشكل عام، في سعيه المتواصل لاحتكار السلطة –السياسية، والأمنية، والاستخباراتية، والاقتصادية، والإعلامية– كان بن سلمان يحوِّل النظام الاستبدادي للعائلة المالكة إلى نظام شمولي. ومع ذلك، كانت الدول الغربية في أفضل الأحوال صامتة مع رفضها لأسلوب حكم بن سلمان، إذ كانوا حريصين على الحفاظ على علاقات ودية مع الوريث الواضح الذي يستعد لتولي العرش، ومن بين الزعماء الغربيين كان الرئيس الأمريكي دونالد ترامب مؤيداً متحمساً

لولي العهد. ونظراً لكراهية بن سلمان العميقة لإيران لم يكن من المستغرب أن يقدم ترامب دعمه للاحتجاجات التي اندلعت فجأة في الجمهورية الإسلامية في 28 كانون الأول-ديسمبر 2017.

الاضطرابات في إيران متجذرة في الاقتصاد المشوّه

وفي سلسلة من التغريدات دعا ترامب الحكومة الإيرانية إلى "احترام حقوق الناس"، والسماح لهم بحرية التعبير، والتوقف عن تقييد الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، محذراً إياها من أن "العالم يراقب" وأن "الوقت قد حان للتغيير"، وتوج هذه التصريحات، في 3 كانون الثاني-يناير، بالتعهد بدعم الإيرانيين الذين يحاولون "استعادة" حكومتهم قائلاً بشكل كاسح: «سترون دعماً كبيراً من الولايات المتحدة في الوقت المناسب!».[12]

إن تدخل ترامب العدواني في الاحتجاج الإيراني يتناقض مع الاستجابة المدروسة للدول الأوروبية الكبرى؛ فقد دعت تلك الدول حكومة طهران، في بيانات منفصلة، إلى السماح بالاحتجاجات السلمية والامتناع عن تنفيذ اعتقالات جماعية، وقاومت ضغوط ترامب للتوقيع على بيان مشترك مع الولايات المتحدة لإدانة إيران.[13] وكانت كراهية ترامب المَرَضيّة لإيران والإيرانيين معروفة على نطاق واسع في الجمهورية الإسلامية، حتى إن تغريداته السريعة المؤيدة للاحتجاجات قدمت ذخيرة للنظام للادعاء بأن المتظاهرين المحتجين كانوا يتصرفون كعملاء لحكومة أجنبية. والحقيقة هي أن المظالم الاقتصادية للطبقات العاملة والطبقات الوسطى الدنيا، والتي ترجع جذورها إلى ارتفاع معدلات التضخم ونقص الوظائف، كانت تتراكم منذ سنوات عِدّة، إذ سمحت السلطات بانخفاض قيمة العملة الإيرانية، الريال، على مدى الأشهر الستة الماضية؛ وأدى ذلك إلى تضخم السلع الأساسية مثل البيض بنسبة 40 %. وكان السبب وراء احتجاجات الشوارع هو نشر مشروع الميزانية للسنة المالية التي تبدأ في 21 آذار-مارس 2018، وقد نوقشت على نطاق واسع على تطبيق "تيليجرام"، وسيلة التواصل الاجتماعي الأكثر استخداماً في البلاد. وقد اقترحت الميزانية أموراً منها إنهاء الدعم النقدي الشهري البالغ 12 دولاراً لكل 30 مليون شخص ورفع أسعار الوقود بنسبة 50 %، وفي تناقض حاد كان الاقتراح بتخصيص مبلغ 15 مليون دولار لحفيد آية الله روح الله الخميني، مؤسس الجمهورية، لنشر أعمال جَدّه.[14]

بدأت الاحتجاجات في 28 كانون الأول-ديسمبر في مشهد، المدينة التي يبلغ عدد سكانها مليوني نسمة، والتي كانت معقلاً للمتشددين. وتَجمَّع مئات للتنديد بالارتفاعات الأخيرة

في الأسعار، وسوء حالة الاقتصاد، واتساع فجوة عدم المساواة، والفساد. وفي غضون أيام، وبمساعدة وسائل التواصل الاجتماعي، اندلعت مظاهرات احتجاجية في العديد من المدن الإقليمية وكذلك في طهران، وتحولت هذه الاحتجاجات إلى سياسية بشكل متزايد، إذ هتف المتظاهرون بشعارات مناهضة للحكومة مثل: «أطلقوا سراح السجناء السياسيين» و«اهتموا بنا واتركوا فلسطين».

ولم يكن الرئيس الإيراني حسن روحاني منزعجاً في البداية، وفي 31 كانون الأول-ديسمبر قال: «إن الناس أحرار تماماً في توجيه الانتقاد وحتى الاحتجاج»، وأرفق ذلك بتحذير من خلق الفوضى في هذه العملية.[15] لكن حركة الاحتجاج اكتسبت زخماً خاصاً بها، وامتدت إلى ثمانين مدينة وبلدة. لقد أعطى المعارضين الأيديولوجيين للنظام فرصة لتعزيز أجندتهم. وعلى حد تعبير إسحاق جهانغيري، النائب الأول للرئيس، فإن «الذين يطلقون التحركات السياسية في الشوارع قد لا يكونون هم الذين سيضعون حداً لها، لأن آخرين قد يركبون الموجة التي بدؤوها، وعليهم أن يعلموا أن أفعالهم سوف تأتي بنتائج عكسية عليهم».[16]

وفرضت الحكومة قيوداً على إنستغرام، إحدى أدوات التواصل الاجتماعي المستخدمة لحشد المتظاهرين، وعلى تيليغرام الذي يستخدمه ما يقدر بنحو 40 مليون إيراني، ولكن، عندما لم تهدأ حركة الاحتجاج، نفذت إستراتيجية ذات مسارين كانت قد تحولت إليها سابقاً: نشر قوات الحرس الجمهوري الإسلامي (IRGC) وكذلك صفوف ميليشيا الباسيج، وتنظيم المؤيدين لـ مظاهرات النظام، وأرسلت وحدات من الحرس الثوري الإيراني إلى المحافظات الأكثر تضرراً من الاضطرابات. وبحلول 7 كانون الثاني-يناير قال السكان في مختلف المراكز الحضرية الذين اتصلت بهم رويترز: إن احتجاجات الشوارع قد هدأت.[17]

إن ما ميّز نوبة الاحتجاج هذه عن تلك التي اندلعت في منتصف عام 2009 في أعقاب انتخابات رئاسية مزورة، والتي سُميت بالحركة الخضراء، هو أنها كانت عفوية ومتفرقة، وتفتقر إلى القيادة المركزية.

ولتأكيد شعبية النظام بشكل عام أظهر التلفاز الذي تديره الدولة مسيراتٍ مؤيدةً للحكومة في الأهواز، عاصمة إقليم خوزستان الجنوبي الغربي، وإيلام في الغرب، وفي مدينتي أراك وشهر بوسط إيران. أما في إقليم كردستان، فكان مئات الأشخاص في شهر كردستان يمسكون بالمظلات وسط تساقط الثلوج بكثافة، وهم يهتفون "الموت لأمريكا"، و"الموت لإسرائيل"، و"الموت لمثيري الفتنة". لقد أخذوا إشارة من ادعاء المرشد الأعلى آية الله علي خامنئي بأن «كل أولئك الذين هم على خلاف مع الجمهورية الإسلامية استخدموا وسائل مختلفة، بما في

ذلك المال والسلاح والسياسة وأجهزة الاستخبارات، لخلق مشاكل للنظام الإسلامي والجمهورية الإسلامية والثورة الإسلامية».[18]

وفي 7 كانون الثاني-يناير أعلن قائد الحرس الثوري الإيراني محمد علي جعفري "انتهاء الفتنة". وقد أودت الاشتباكات العنيفة بين المتظاهرين المحتجين وقوات الأمن بحياة 22 شخصاً، معظمهم من المتظاهرين، والبقية من حراس الأمن. وأُطلِق سراح معظم المعتقلين البالغ عددهم 1000 شخص، بينما أمر القضاء بحبس قادة الاضطرابات. ورفعت السلطات القيود المفروضة على إنستغرام، ولكن مسؤولي الأمن والمشرعين قرروا أن الوصول إلى تطبيق تيليجرام سيظل مقيداً حتى توافق خدمة المراسلة على حظر «القنوات المعادية والمناهضة لإيران التي تروج للاضطرابات». وقد تمكن العديد من الإيرانيين من الوصول إلى (Telegram) باستخدام الشبكات الخاصة الافتراضية وأدوات أخرى لتجاوز التصفية الحكومية للإنترنت.[19]

وفي الضوء البارد لعودة الحياة الطبيعية أدركت الحكومة أنها أخفقت في معالجة الأداء المتهالك للمؤسسات المالية الذي أدى إلى إفقار العديد من المستثمرين. ويواصل خامنئي الاعتراف بالمسؤولية عن العدد المتزايد من ضحايا هذه الكيانات، ويذكر أنه «يجب التعامل مع هذه النداءات والاستماع إليها. أنا نفسي مسؤول؛ ويجب علينا جميعا أن نتبع هذا النهج».[20]

ومع ذلك، فإن السبب الجذري للضيق هو تشويه الاقتصاد الناجم عن الحرب الطويلة مع العراق وعقود من العقوبات المتفاوتة الشدة. وقد برزت المؤسسات الدينية التي يرأسها كبار رجال الدين والحرس الثوري الإيراني والجيش والشرطة كلاعبين كبار في اقتصاد البلد الذي يبلغ عدد سكانه 80 مليون نسمة، ويحتل ناتجه المحلي الإجمالي المرتبة السابعة والعشرين في العالم.

وبعد الثورة الإسلامية عام 1979 قام النظام بتأميم البنوك إلى جانب العديد من الصناعات الأخرى، كما أُنشأت مجموعة من الشركات القابضة شبه الرسمية التابعة للمرشد الأعلى، أو كبار رجال الدين، أو القادة العسكريين الرفيعي المستوى. وعلى مدى العقود القليلة التالية تطور العديد من هذه الكيانات الاقتصادية إلى تكتلات مترامية الأطراف ذات حضور كبير في القطاع الخاص؛ وقد حدث هذا بسبب سهولة الوصول إلى رأس المال، والإعفاءات الضريبية، والعلاقات السياسية التي تمتعوا بها. ويقدر أن أكبر هذه المناطق التي يسيطر عليها المرشد الأعلى تشكل ما بين 15 إلى 20 % من الاقتصاد، ويمثل الحرس الثوري الإيراني حوالي ثلث

الإجمالي.[21] (وفقاً لمؤسسة الدفاع عن الديمقراطيات، ومقرها واشنطن، سيطر الحرس الثوري الإيراني على 20 إلى 40 % من الاقتصاد من خلال حصص كبيرة في 229 شركة). إن المعاملة التفضيلية للدولة جعلت هذه الشركات القابضة عرضة لسوء الإدارة وعدم الكفاءة، بالإضافة إلى التعاملات الداخلية وغيرها من أشكال الفساد.

وفي أعقاب الحرب الإيرانية العراقية الأولى في الثمانينيات، سمحت الحكومة للحرس الثوري الإيراني بدخول القطاع الخاص، وأنشأت شركة بناء تسمى خاتم الأنبياء قامت ببناء الطرق والموانئ، وانخرطت في صناعة الدفاع. وخلال الإدارة الثانية للرئيس الأميركي باراك أوباما، ونتيجة للعقوبات التي فرضتها الولايات المتحدة على الجمهورية الإسلامية بسبب برنامجها النووي المثير للجدل، وجدت إيران نفسها معزولة عن الائتمان الدولي. ومع مغادرة الشركات الأجنبية وعدم رغبة البنوك الأجنبية في تمويل التجارة أو الاستثمار في إيران، لجأت الحكومة إلى الحرس الثوري الإيراني لإبقاء الاقتصاد واقفاً على قدميه. وقد استحوذ الحرس الثوري الإيراني على مشاريع النفط من شركات أجنبية مثل شركة رويال داتش شل، وتمكن من بيع النفط لبعض الدول الراغبة، ومن خلال استخدام وسائل معقدة، قام بتوجيه العملات الصعبة التي كانت الحاجة إليها ماسة إلى إيران. كما تولى الحرس الثوري الإيراني مهمة إدارة شبكات الاتصالات. ونتيجة لذلك، ارتفع عدد القوى العاملة في شركة خاتم الأنبياء إلى 135.000 شخص.[22]

وخلال رئاسة الإصلاحي محمد خاتمي فتحت الحكومة القطاع المصرفي، وسمحت للمؤسسات الدينية بإنشاء كيانات ادخارية وقروض منظمة بشكل فضفاض لخدمة الفقراء، وكانت خطوتها التالية هي السماح بإنشاء بنوك خاصة والبيع الجزئي لأسهم البنوك الحكومية. وكان القطاع المالي المتوسع إلى حد كبير سبباً في زيادة حدة المنافسة، وشجع بعضهم على المقامرة بأموال المودعين أو إدارة أنظمة بونزي [عمليات احتيال استثماري]. وقد مرت مثل هذه الأنشطة دون رادع لأن الشركات القابضة كانت تقودها مؤسسات دينية، أو الحرس الثوري الإيراني، أو صناديق الاستثمار شبه الرسمية الأخرى التابعة للدولة. وقام العديد منهم بتوجيه أموالهم إلى سوق العقارات المتضخم، أو منحوا القروض لأصدقاء ذوي نفوذ، أو انتزعوا أسعار فائدة مرتفعة من المقترضين اليائسين. وعندما أعقب ذلك الانفجارُ الحتمي لبالون العقارات، خسر مئات الآلاف من المودعين أموالهم. ووجه المنظمون العديد من الشركات الفاشلة إلى عمليات اندماج مع بنوك أكبر لمحاولة استيعاب خسائرها، وهذا بدوره أثقل كاهل القطاع المصرفي بالقروض المعدومة والأصول المبالغ في تقدير قيمتها.

وفي كانون الثاني-ديسمبر 2017 حذر صندوق النقد الدولي من أن البنوك والمقرضين الإيرانيين بحاجة إلى إعادة هيكلة وإعادة رسملة عاجلة، ودعت إلى شطب الأصول المبالغ في قيمتها ووقف القروض المقدمة للمطلعين على بواطن الأمور. وذكر أن ضخامة المشكلة بلغت إلى أن الأموال اللازمة لدعم البنوك ستؤدي إلى ارتفاع كبير في الدين العام.[23]

ومع تنفيذ الاتفاق النووي الإيراني مع القوى العالمية الست، في كانون الثاني-يناير 2016، وإنهاء عقوبات الاتحاد الأوروبي، كانت هناك طفرة في التجارة بين إيران والاتحاد الأوروبي؛ وقد قلل هذا من حاجة الحكومة إلى الاعتماد على الحرس الثوري الإيراني لأسباب اقتصادية، وعزز أيدي روحاني. وفي تموز-يوليو 2017 أُعلن أن الحكومة قررت خفض الميزانية السنوية لشركة خاتم الأنبياء وأنه سيتعين عليها في المستقبل التنافس مع المقاولين من القطاع الخاص، وبعد ثلاثة أشهر أخفقت في الفوز بمشروعين رئيسين للنفط والشحن لأن عطاءاتها كانت أعلى من تلك المقدمة من الشركات الفرنسية والكورية الجنوبية المتنافسة.[24]

وللحد من السلطة والامتيازات التي اكتسبها الحرس الثوري الإيراني على مدى عقود، سعى روحاني للحصول على دعم خامنئي الذي كان يشعر بالقلق إزاء الفساد السائد، ونجح في مسعاه، وقد انتقد المسؤولين لأنهم سمحوا للفساد بالنمو على جميع مستويات النظام السياسي، وأصدر تعليماته للسلطة التنفيذية بالتواصل مع الدول الأجنبية للحصول على استثمارات ومشاريع جديدة. وكانت هذه هي الخلفية لاعتقال وكالة استخبارات الحرس الثوري الإيراني للعديد من ضباط الحرس الثوري السابقين للاشتباه في تورطهم في الفساد خلال صيف عام 2017.[25]

وبعد ثلاثة أسابيع من أول احتجاج في الشارع في مشهد صرح وزير الدفاع الجنرال أمير حاتمي لصحيفة إيران اليومية التي تديرها الدولة باللغة الإنجليزية أن آية الله خامنئي أمر الجيش النظامي والحرس الثوري الإيراني بالانسحاب من الشركات التي لا ترتبط بشكل مباشر بواجباتها. مما أثار احتمال خصخصة هذه المؤسسات بعض ممتلكاتها الواسعة. وأضاف حاتمي أن البدء بهذه العملية سيعتمد على "ظروف السوق".[26] ويبدو أن هذا كان كبالون اختبار جزئياً لاسترضاء روحاني الذي كان يدعو إلى هذا النهج قبل الاضطرابات دون نجاح كبير.

حروب إيران بالوكالة

ظلت إيران منخرطة بشكل كامل في الحروب في سورية واليمن من خلال وكلائها، ونُشِر مستشارون من فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني في القواعد العسكرية السورية، مع

وصول قادتهم إلى الخطوط الأمامية لقيادة المعارك. وبشكل عام عمل ضباط فيلق القدس، كمدربين أو مشرفين، على ميليشيات مختلفة، بلغ عدد أفرادها في أوائل عام 2018 20 ألفاً، بينهم 6000 من حزب الله.

وواصلت طهران تزويد حزب الله بصواريخ متطورة وعالية الدقة فوق الأرض لاستهداف البنية التحتية الحساسة لإسرائيل. وكان [كيان] إسرائيل يقصف القوافل الإيرانية كل شهر تقريباً؛ ومن أجل تجنب مثل هذه الضربات لجأت إيران إلى استخدام بعض شحنات المساعدات الإنسانية ظاهرياً لتزويد حزب الله بالأسلحة. وبشكل عام اتبعت الجمهورية الإسلامية وحلفاؤها إستراتيجية المسار المزدوج: تعزيز ممر بري من إيران إلى البحر الأبيض المتوسط عبر العراق وسورية ولبنان، وإنشاء أعمال تحت الأرض في سورية وجنوبي لبنان لإنتاج صواريخ عالية الدقة. وفي إشارة إلى التهديد الذي تشكله هذه الأسلحة وفتح جبهة إسرائيلية جديدة على طول جنوب سورية، قال يعقوب أميدرور، مستشار الأمن القومي الإسرائيلي السابق: «كل واحدٍ منهم يمثل مشكلة؛ معاً، هم مدمرون».[27] كما أدخلت إيران تقنيات جديدة في سورية مثل الطائرات بدون طيار للمراقبة وحتى لمهاجمة العدو. وعندما حلقت طائرة إيرانية بدون طيار في المجال الجوي الإسرائيلي في أوائل شباط-فبراير 2018، انتهى التصعيد الناتج بسرعة، مع تدمير الطائرة بدون طيار وإسقاط طائرة إسرائيلية بعد قصف مواقع في سورية في 10 شباط-فبراير.[28]

ولم يخف القادة الإيرانيون خطتهم لتعزيز محور المقاومة ضد [كيان] إسرائيل وأمريكا؛ فمن خلال إقامة روابط مع القوى المحلية التي شاركتها أهدافها وحصلت على أموالها وخبراتها، عززت نفوذها في العالم العربي، في حين أدركت التهديد الذي تتعرض له قواتها وأراضيها. ومن غير المستغرب أن يسبب هذا الكثير من القلق في أمريكا، و[كيان] إسرائيل، والمملكة العربية السعودية، الذين أخفقوا في وضع إستراتيجية شاملة لمواجهته.

ومع ذلك كان هناك منطق مختلف تماماً يحرك سياسة طهران، وهذا ما صرح به رئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي في مقابلة مع صحيفة الإندبندنت في تشرين الأول-أكتوبر 2017، إذ قال: «إن الإيرانيين لديهم انطباع بأن الآخرين يريدون إطاحتهم، وهذا أمر مفهوم»، وأضاف: «لحماية أنفسهم عليهم القتال خارج حدودهم».[29] وواصل الإيرانيون إستراتيجيتهم من خلال وكلائهم والتلاعب البارع بالقوات المحلية، وقد نشأت الحاجة إلى ممارسة مهاراتهم في المراوغة في أعقاب الانتخابات البرلمانية التي جرت في العراق في أيار-مايو 2018، إذ تراجعت قوة ائتلاف دولة القانون الذي يتزعمه نوري المالكي، الذي كان يعدّ ألدّ أعداء

العائلة المالكة السعودية، من 92 في الانتخابات السابقة إلى 25. وحصل تحالف فتح، الذي أُنشئ حديثاً بقيادة هادي العامري الموالي لطهران، على 47 مقعداً، وهو في المرتبة الثانية بعد تحالف سائرون بقيادة مقتدى الصدر. وحصل تحالف التيار الصدري والحزب الشيوعي على 54 مقعداً، مقارنة بـ 34 مقعداً فاز بها التيار الصدري بمفرده في السابق. أما التحالف الثالث من حيث الحجم، حيث بلغ 42 عاماً، فكان تحالف النصر بقيادة رئيس الوزراء العبادي. وحصل الحزبان الكرديان فيما بينهما على 43 مقعداً. وكان ظهور التحالف الذي يرأسه الصدر كأكبر كتلة مفاجأة للجميع، وانتكاسة لإيران.

وبوصفه رجل دين متحمس قاوم الصدر بعنف الاحتلال الأمريكي للعراق بعد حرب عام 2003. وفي وقت أقرب إلى الزمن الحاضر، ومن خلال اعتراضه على التدخل الإيراني في الشئون الداخلية لبلاده، أكد على قوميته العراقية. وكان أيضاً من أبرز منتقدي الفساد السائد والمتفشي. وفي شباط-فبراير 2018، بينما كان يفكر في تشكيل تحالف مع الحزب الشيوعي على أساس نظام حكم خالٍ من الكسب غير المشروع وعدم تدخل الغرباء في شؤون العراق الداخلية، أصدر علي أكبر ولايتي تحذيراً، وهو القيادي البارز ومستشار السياسة الخارجية لخامنئي، وقال في خطابٍ ألقاه في العراق: «لن نسمح لليبراليين والشيوعيين بأن يحكموا في العراق».[30] ولم يكن مقتدى، وهو ابن لآية الله العظمى، ليبرالياً على الإطلاق. وقد أثبت هذا التدخل الصارخ من جانب إيران، الذي بلغ حد الغطرسة، نتائج عكسية. ومع ذلك، وعلى الرغم من دعوة رئيس الجمهورية رئيسَ تحالف سائرون في البرلمان إلى تشكيل الحكومة، فإن فرصه في تشكيل ائتلاف تدعمه الأغلبية المطلوبة البالغة 165 نائباً كانت ضئيلة. وكان لا بد أن يكون العامري هو الخيار الثاني للرئيس. وبما أن الأحزاب الكردية كانت ودية مع إيران لعدة عقود، فقد كانت لديه فرصة أفضل لاستمالتها في ائتلافه المقترح، ولا سيما إذا وافق على السماح للعبادي -المقبول لدى محور واشنطن والرياض- بالبقاء رئيساً للوزراء.

أما في اليمن الذي مزقته الحرب، فكانت الرصاصة، لا ورقة الاقتراع، هي التي شكلت مصير البلد البائس؛ فبعد اغتيال علي عبد الله صالح، في 4 كانون الثاني-ديسمبر 2017، عزز قادة الحوثيين قبضتهم على الأراضي التي كانوا يسيطرون عليها بالتحالف مع صالح، وشملت ميناء الحديدة الذي كان المدخل الرئيسي لواردات الغذاء والدواء والوقود. وكان اليمنيون يعتمدون على كل احتياجاتهم من الوقود والأدوية، و90% من طعامهم على الإمدادات الأجنبية؛ ولذلك فإن العديد من المراقبين عَدّوا حصار التحالف، الذي تقوده السعودية بدءاً من 6 تشرين الثاني-نوفمبر فصاعداً، لميناء الحديدة، بمنزلة استخدام التجويع كتكتيك للحرب، وقد أدى

ذلك إلى احتجاجات دولية. وقد رضخت الرياض في الأسبوع الثالث من كانون الأول-ديسمبر. وادعى السعوديون، في 27 كانون الأول-ديسمبر، أن خمس سفن محملة بالوقود دخلت الحديدة وأن قوات التحالف منحت عشرة تصاريح لنقل المساعدات الإنسانية إلى اليمن عبر المعابر البرية. ومع ذلك فقد ضاع الكثير من حُسن النية الذي اكتسبته الرياض عندما تبين أنه في ذلك اليوم بالذات، أسفرت غارتان جويتان شنهما التحالف المناهض للحوثيين عن مقتل 68 مدنياً، إذ ضربت الأولى سوقاً مزدحماً في محافظة تعز، مما أسفر عن مقتل 54 مدنياً، بينهم ثمانية أطفال، أما الثانية، فضربت في محافظة الحديدة، مما أسفر عن مقتل 14 شخصا.[31]

وبعد ذلك بوقت قصير واجهت حكومة الرئيس عبد ربه منصور هادي (المنفي اختياريا في الرياض)، ومقرها عدن، تحديات مالية وسياسية ملحة، وكان مصرفها المركزي يكافح لدفع رواتب القطاع العام بسبب تضاؤل احتياطيات النقد الأجنبي. وناشد رئيس الوزراء أحمد عبيد بن دغر المساعدة، فأمر الملك سلمان مؤسسة النقد العربي السعودي بإيداع ملياري دولار في البنك المركزي اليمني؛ وسمح ذلك لدغر بتقديم أول موازنة منذ عام 2014 في 21 كانون الثاني-يناير، مشيراً إلى أنها تشمل رواتب العسكريين والمدنيين في اثنتي عشرة محافظة من أصل إحدى وعشرين محافظة.[32] لكن خمساً من المحافظات الاثنتي عشرة كانت تحت سيطرة المجلس الانتقالي الجنوبي المنافس بقيادة اللواء عيدروس الزبيدي. وكان هادي قد أقاله من منصب محافظ عدن، في نيسان-أبريل 2017، بسبب ولائه للحركة الجنوبية الانفصالية التي أرادت التراجع عن توحيد شمالي اليمن مع جنوبيه عام 1990. وفي 26 كانون الأول-ديسمبر دعا المجلس الوطني الجنوبي الذي يضم 303 أعضاء، والذي اجتمع في عدن، حكومة دغر إلى التنحي، وعندما رفض ذلك، أعلن المجلس الانتقالي الجنوبي في 21 كانون الثاني- يناير، أنه سيطيح حكومة هادي-دغر في غضون أسبوع.

وفي القتال اللاحق، من 28 إلى 30 كانون الثاني-يناير، استولى المجلس الانتقالي الجنوبي على عدن بأكملها، واحتجز دغر في القصر الرئاسي. وبينما ابتهج الحوثيون بتطور الأحداث، دقت أجراس الإنذار في الرياض، وتوسط التحالف الذي تقوده السعودية للتوصل إلى تسوية سريعة بين الخصمين بشروط لم يُكشف عنها، وقام المجلس الانتقالي الجنوبي بتسليم عدن إلى حكومة هادي خلال الأسبوع المقبل.[33] وسمح المجلس الانتقالي الجنوبي لدغر، في 16 شباط-فبراير، بالسفر إلى الرياض للانضمام إلى هادي في المنفى. وبحلول ذلك الوقت كان اليمن قد انقسم إلى ثلاث دويلات وجيوب عِدّة لتنظيم القاعدة الإرهابي في شبه الجزيرة

العربية، ناهيك بالموالين المتشددين لصالح في الحرس الجمهوري النخبوي الذي سيشكل نواة مجلس المقاومة الوطنية بقيادة ابن شقيق الرئيس السابق، العميد الركن طارق صالح.

ومن بين المسؤولين الأجانب الذين تابعوا الوضع عن كثب كان المبعوث الأممي إسماعيل ولد الشيخ أحمد هو الأهم، ففي الإحاطة التي قدمها إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، في 27 شباط-فبراير، ألقى باللوم في إخفاق الجولة الأخيرة من السلام على عدم رغبة الحوثيين في تقديم تنازلات بشأن الترتيبات الأمنية المقترحة. وكانت روسيا قد استخدمت، قبل يوم واحد، حق النقض (الفيتو) ضد قرار رعته بريطانيا في المجلس يدين إيران لانتهاكها حظر الأسلحة المفروض على اليمن، وطالبت باتخاذ إجراءات إضافية ضد طهران. وبعد ذلك مباشرة اعتمد المجلس بالإجماع مشروع القرار الذي صاغته روسيا بشأن تمديد نظام العقوبات على اليمن لمدة عام واحد، وقد تضمنت العقوبات تجميد أصول أفراد وكيانات محددة وحظر السفر.[34]

ومع عدم إظهار الحرب الأهلية في اليمن أي علامة على تراجع التصعيد، ومع ظهور فرص قاتمة للتسوية السياسية، بدأ صبر المشرعين الأمريكيين ينفد؛ فحاول أعضاء مجلس الشيوخ، في خطوة نادرة، تفعيل قانون صلاحيات الحرب لعام 1973، ودعوا ترامب إلى سحب أي قوات أمريكية في اليمن، أو التأثير في اليمن، خلال ثلاثين يوماً. وقال زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ، الجمهوري ميتش ماكونيل: إن تفعيل قانون صلاحيات الحرب كان فكرة خاطئة لأن دعم واشنطن للتحالف الذي تقوده السعودية لم يتضمن إدخال قوات أمريكية. ولم يفعل البنتاغون شيئاً أكثر من تقديم معلومات استخباراتية مستهدفة لحملة القصف التي نفذها التحالف، والمساعدة في تزويد قاذفاته بالوقود في الجو. على الجانب الآخر، قال السيناتور بيرني ساندرز، أبرز المنافسين على ترشيح الحزب الديمقراطي للرئاسة عام 2016: «إن الدستور واضح؛ الكونغرس الأمريكي هو الذي يقرر ما إذا كنا سنذهب إلى الحرب. ولا أشك في أننا نساعد في اشتعال الحرب من خلال مساعدة المملكة العربية السعودية بالطريقة التي نقوم بها». وبأغلبية 55 صوتاً مقابل 44، تمت إحالة الإجراء مرة أخرى إلى لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ لمزيد من المناقشة.[35] وبالصدفة جرت المناقشة في الذكرى الخامسة عشرة لغزو العراق خلال رئاسة جورج دبليو بوش.

وما لم يعرفه أعضاء مجلس الشيوخ هو أنه بعد إطلاق الحوثيين لصاروخ سكود معدل يزيد مداه عن 600 ميل على مطار الرياض الدولي، في 4 تشرين الثاني-نوفمبر 2017، جدد ولي العهد الأمير بن سلمان طلبه السابق بأن يرسل البيت الأبيض قوات للمساعدة،

وأن تتصدى قواته لتهديد الحوثيين. وفي أوائل كانون الأول-ديسمبر أصبح من المعروف أن ادعاء السعوديين بأن أفراد دفاعهم الجوي قد أسقطوا الصاروخ القادم في الجو بصاروخ باتريوت الذي زودتهم به الولايات المتحدة كان كاذباً؛ إذ أظهرت التحليلات الجنائية للصور ومقاطع الفيديو الخاصة بالضربة، التي نشرها فريق من خبراء الصواريخ في معهد ميدلبري للدراسات الدولية على وسائل التواصل الاجتماعي، أن الرأس الحربي للصاروخ طار دون عوائق فوق بطاريات الدفاع السعودية، وأنه انفجر بالقرب من المحطة المحلية بالمطار لدرجة أن المسافرين المنتظرين قفزوا من مقاعدهم.[36]

واستجابة لنداء بن سلمان الأخير أرسل البيت الأبيض، في عهد ترامب، فريقاً من قوات الكوماندوز التابعة للجيش الأمريكي، القبعات الخضراء، للمساعدة في تحديد مخابئ الصواريخ الباليستية ومواقع إطلاق الحوثيين وتدميرها. وقد نشرت القبعات الخضراء طائرات مراقبة أمريكية على طول الحدود السعودية اليمنية لجمع الإشارات الإلكترونية لتتبع أسلحة الحوثيين ومواقع إطلاقها.

كان هذا تصعيداً ملحوظاً لمساعدة البنتاغون ضد الحوثيين، الذين لم ينفذوا أي عمليات خارج اليمن، والذين لم تصنفهم وزارة الخارجية على أنهم ينتمون إلى منظمة إرهابية. وفي شهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، في 17 نيسان-أبريل، كشف روبرت س. كارم، مساعد وزير الدفاع لشؤون الأمن الدولي، أن الولايات المتحدة لديها حوالي خمسين عسكرياً في المملكة العربية السعودية.[37]

وكثّف الحوثيون هجماتهم بالصواريخ الباليستية انتقاماً من عمليات القتل المتكررة للمدنيين على يد التحالف الذي تقوده الرياض، وفي الأشهر الأربعة الأولى من عام 2018 أطلقوا أكثر من ثلاثين صاروخاً -وهو العدد نفسه تقريباً الذي أُطلق في عام 2017 بأكمله- ضد المطارات السعودية والمنشآت العسكرية والبنية التحتية النفطية بصفة رئيسة. وكان الحوثيون قد لجؤوا إلى تجميع أجزاء من الصواريخ التي تُهرَّب عبر الموانئ على طول الساحل الغربي. وكان على السعوديين والأميركيين تحديد المواقع التي تُخزَّن فيها الصواريخ؛ وهذا يتطلب بيانات استخباراتية كبيرة كانوا يفتقرون إليها. وكان ضرب مواقع الإطلاق أكثر صعوبة لأن قاذفات الصواريخ المتنقلة كانت مخبأة بسهولة داخل مياه الصرف الصحي أو تحت الجسور على الطرق السريعة، ويمكن نقلها بسرعة من موقع إلى آخر، وكانت مواجهة التهديد بشكل فعال تتطلب وجود نظام جيد التنظيم يشمل الأقمار الصناعية والقوات البرية والطائرات الهجومية، ولم يكن ذلك في الأفق.[38]

وبعد إخفاقهم في طرد الحوثيين من صنعاء ركز المخططون العسكريون في التحالف الذي تقوده السعودية على استعادة الحديدة التي يسيطر عليها الحوثيون والتي كان ميناؤها المدخل الرئيس للأجزاء المهربة للصواريخ الباليستية. وابتداءً من أوائل نيسان-أبريل، وفي خطوة منسقة، شنت قوات مجلس المقاومة الوطني الذي تموله الإمارات العربية المتحدة إلى جانب المقاتلين القبليين الموالين للرئيس هادي هجوماً على طول الساحل الغربي، وقد جعلهم تقدمهم المطرد على بعد عشرة أميال من الحديدة بحلول نهاية أيار-مايو، وقد خططوا لاختراق الطريق الذي يربط الحديدة بصنعاء، ومن ثم محاصرة المدينة الساحلية؛ وقد تكون خسارة الحوثيين للحديدة نقطة تحول في الحرب الأهلية، وفقاً للعديد من خبراء الدفاع. وفي الوقت نفسه حذر مارتن غريفيث، المبعوث الخاص للأمم المتحدة إلى اليمن، بعد وضع اللمسات الأخيرة على مقترح السلام بعد اجتماعه مع قادة جميع الفصائل اليمنية، من أن المعركة على الحديدة «ستزيل السلام من على الطاولة».

وأشارت طهران إلى تحسن موقف التحالف الذي تقوده السعودية؛ فبعد أن قاومت محاولات دول الاتحاد الأوروبي الكبرى لإشراك إيران في محادثات حول مشاركتها في سورية واليمن، قدمت تنازلاً. وفي مقابلته على القناة التلفزية التي تديرها الدولة كشف نائب وزير الخارجية الإيراني، سيد عباس عراقجي، في أواخر أيار-مايو، أنه «لأسباب إنسانية، وبسبب الأوضاع الصعبة التي يواجهها الشعب اليمني، دخلنا في محادثات مع أربع دول أوروبية: فرنسا، والمملكة المتحدة، وألمانيا، وإيطاليا».[39] ومع ذلك لم تكن هناك فرصة لإيران لوقف إمدادات الأسلحة إلى الحوثيين من خلال الاساليب اللوجستية غير المباشرة القائمة منذ مدة طويلة.

هجوم بن سلمان الباهظ الثمن على الغرب

على النقيض من ذلك سلط ترامب الضوء على المبيعات المفتوحة والمشروعة للأسلحة من قبل الولايات المتحدة إلى المملكة العربية السعودية في المكتب البيضاوي[*] في 20 آذار-مارس بينما كان ولي العهد الأمير بن سلمان يجلس إلى جانبه. وعرض ترامب صوراً يُدرج فيه طائرات عسكرية، تبلغ قيمتها 12 مليار دولار ونصفاً، وافقت إدارته على بيعها للمملكة العربية السعودية، وأضاف: «إن المملكة العربية السعودية دولة غنية جداً»، وأضاف: «وسوف

(*) المكتب البيضاوي هو مكتب العمل الرسمي لرئيس الولايات المتحدة، وهو جزء من المكتب التنفيذي للرئيس. يقع في الجناح الغربي للبيت الأبيض في واشنطن العاصمة [المترجم].

يمنحون الولايات المتحدة بعضاً من تلك الثروة، كما نأمل، على شكل وظائف، أو على شكل شراء أرقى المعدات العسكرية في أي مكان في العالم». وخلال غداء العمل مع كبار المسؤولين الأمريكيين، نُصح بن سلمان بتسوية نزاعه مع قطر، وتقليل الخسائر في صفوف المدنيين والمعاناة الإنسانية في حرب التحالف الذي تقوده السعودية في اليمن.[40] لم يُبلِغ المتحدث باسم البيت الأبيض عن رد على هذه النصيحة.

وفي وقت سابق، خلال زيارة بن سلمان إلى لندن، في أوائل آذار-مارس، كانت مبيعات الأسلحة البريطانية إلى الرياض هي النقطة المحورية للمحتجين، إذ باعت المملكة المتحدة المملكة العربية السعودية، منذ آذار-مارس 2015 طائرات، ومروحيات، وطائرات بدون طيار، وقنابل يدوية، وقنابل، وصواريخ، بقيمة 4 مليارات و600 مليون جنيه إسترليني (تعادل 6 مليارات و500 ألف دولار)، وفقاً للحملة ضد تجارة الأسلحة.[41] وتوقعاً للدعاية السلبية، شنّت السفارة السعودية في لندن حملة مكلفة مؤيدة لبن سلمان مع عدد من شاحنات الدعاية التي كانت تتجول في جميع أنحاء لندن وتعرض صورته وتروج لوسم #Welcome Saudi Crown Prince" بينما حملت اللوحات الإعلانية الرقمية على الطريق السريع M4 من مطار هيثرو رسالة تقول: «إنه يجلب التغيير إلى المملكة العربية السعودية».[42] لقد عاملته الحكومة البريطانية بوصفه الحاكم الفعلي لبلاده، ورتبت وجبة غداء مع الملكة إليزابيث الثانية. وحرص، في محادثاته مع رئيسة الوزراء البريطانية تيريزا ماي، على تأمين الخبرة السيبرانية البريطانية لمساعدته في مواجهة التهديد السيبراني القادم من إيران.[43]

واستغرقت زيارة بن سلمان الأولى لدولة غربية ثلاثة أيام، بينما كانت السفارة السعودية في واشنطن تضع اللمسات الأخيرة على تفاصيل جولته الطويلة في أمريكا والتي تستغرق أسبوعين. ومن خلال العمل جنباً إلى جنب مع ست شركات علاقات عامة وتأثير خُصِّص لها حوالي 7 ملايين دولار سنوياً[44]، أعدت قائمة رائعة من الشخصيات الأمريكية التي كان من المقرر أن يلتقي بها ولي العهد في خمس مدن بالإضافة إلى اجتماعات مع مجالس التحرير في المجلات: نيويورك تايمز، ووول ستريت جورنال، وواشنطن بوست، ولوس أنجلوس تايمز. وبعد مغادرته واشنطن تخلى عن لباسه السعودي التقليدي، وارتدى بدلة عمل مع قميص مفتوح العنق حتى لا يبدو غريباً بالنسبة للأميركيين. وقد قامت وسائل الإعلام السعودية المطبوعة والمسموعة بتغطية كاملة لجولته في الولايات المتحدة، ونُشِرت التقارير الرسمية الصادرة عن السفارة السعودية في واشنطن ووكالة الأنباء السعودية (واس). لقد وضعت السفارة الجمهور الدولي في الحسبان، بينما كانت وكالة الأنباء السعودية محلية. وقد التُقِطت

أساليبهم المختلفة من خلال الطريقة التي نقلوا بها اجتماع ولي العهد مع الزعماء الدينيين في نيويورك، الذين كان من بينهم اثنان من الحاخامات، وقد ذكرت النسخة الإنجليزية للسفارة هذا الأمر، ولكن في النسخة العربية فرضت وكالة الأنباء السعودية رقابة على أسماء المشاركين وانتماءاتهم، أو أن الاجتماع ضم حاخامات. وبُثَّت نسخة واس حرفياً من قبل قناة العربية التلفازية الحكومية والعديد من الصحف السعودية.[45]

وكانت صحيفة هآرتس الإسرائيلية هي التي أفادت، نقلاً عن نسخة مسربة من برنامج رحلة بن سلمان، أنه كان من المقرر أن يلتقي ولي العهد، في 30 آذار-مارس، بقادة يهود من لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية المؤيدة لإسرائيل، ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية، والاتحادات اليهودية في أمريكا الشمالية، واللجنة اليهودية الأمريكية.[46] وقد سلطت قناة بريس تي في (Press TV) الإيرانية التي تديرها الدولة الضوء على هذا الحدث.

وخلال لقائه مع محرري ومراسلي صحيفة نيويورك تايمز، في 27 آذار-مارس، قال بن سلمان: «نحن نعرف هدف إيران. إذا كان لديهم سلاح نووي، فهو درع لهم للسماح لهم بفعل ما يريدون في الشرق الأوسط، للتأكد من عدم مهاجمتهم، فإن هوجموا، استخدموا أسلحتهم النووية».[47]

في مقابلته مع ولي العهد، التي نُشرت في 2 نيسان-أبريل، سأل جيفري غولدبرغ من مجلة أتلانتيك عما إذا كان يعتقد أن «للشعب اليهودي الحق في إقامة دولة قومية في جزء على الأقل من وطن أجداده»، فأجاب بن سلمان: «أعتقد أن لكل شعب في أي مكان الحق في العيش في أمته المسالمة. أعتقد أن الفلسطينيين والإسرائيليين لديهم الحق في الحصول على أرضهم الخاصة، ولكن يجب أن يكون لدينا اتفاق سلام لضمان الاستقرار للجميع وإقامة علاقات طبيعية». وفي إشارة إلى المصالح التي يمكن أن تقرب بين السعودية و[كيان] إسرائيل أشار إلى أن هذا التعاون ضد إيران ليس سوى واحدة منها. يتمتع الكيان باقتصاد كبير مقارنة بحجمه «فهناك الكثير من المصالح التي نتقاسمها مع [كيان] إسرائيل، وإذا كان هناك سلام، فسيكون هناك الكثير من الاهتمام بين [كيان] إسرائيل ومجلس التعاون الخليجي ودول مثل مصر والأردن». وكرر هجومه الكاسح على آية الله خامنئي قائلاً: «أعتقد أن المرشد الأعلى الإيراني يجعل هتلر يبدو جيداً؛ لم يقم هتلر بما يحاول المرشد الأعلى أن يفعله؛ لقد حاول هتلر غزو أوروبا، ويحاول المرشد الأعلى غزو العالم».[48]

ولوضع الأمور في نصابها الصحيح، بحسب وكالة الأنباء السعودية، اتصل الملك سلمان

بترامب ليعيد تأكيد «موقف المملكة الثابت تجاه القضية الفلسطينية والحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني في دولة مستقلة وعاصمتها القدس»، والأهم أن الملك تحاشى ذكر [كيان] إسرائيل.[49]

ولتأكيد التزامه تجاه الفلسطينيين والقدس بوصفها مدينة مقدسة للمسلمين، وصف سلمان قمة الجامعة العربية التي عقدت في 15 نيسان-أبريل في الظهران[50] بأنها قمة "القدس". وقد انتقد الزعماء العرب قرار البيت الأبيض الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة الأمريكية إليها من تل أبيب. وبشكل ملحوظ، نشرت صحيفة الرياض المقربة من الديوان الملكي، عشية القمة، افتتاحية قالت فيها: «على العرب أن يدركوا أن إيران أخطر عليهم من [كيان] إسرائيل »، وإن «العرب ليس لديهم خيار آخر غير المصالحة مع [كيان] إسرائيل والتوقيع معها على اتفاق سلام شامل للتفرغ لمواجهة المشروع الإيراني في المنطقة».[51] وكان من غير المرجح أن يدفع قرار الظهران أي حكومة عربية إلى التحرك، على الأقل حكومة الرياض. وبسبب تركيزها على حملتها المناهضة لإيران فقد عقدت العزم على عدم مضايقة الرئيس ترامب خلال الفترة التي سبقت الموعد النهائي في 12 أيار-مايو عندما كان عليه أن يقرر ما إذا كان سيعيد تأكيد أن إيران ملتزمة باتفاقها النووي. وقد حظيت الضغوط الإسرائيلية المكثفة على البيت الأبيض من أجل حجب إعادة التصديق بدعم المملكة العربية السعودية.

وفيما يتعلق بجولة ولي العهد في أمريكا، التي انتهت في 9 نيسان-أبريل، كان السبب الرسمي لها، في المقام الأول، هو جذب استثمارات الشركات الأمريكية في مشاريع البنية التحتية في المملكة، وثانياً، إعادة تشكيل صورة المملكة العربية السعودية بين الأمريكيين. ولتحقيق هذه الغاية، أُنفقت عشرات الملايين من الدولارات من الخزينة السعودية. وجُهِّزت جميع الغرف في فندق بلازا الفاخر في نيويورك لاستيعاب حاشية ولي العهد، المكونة من فرقة كبيرة من أفراد الأمن، بتكلفة هائلة. وفي وقت لاحق شغل السعوديون فندق فور سيزونز في بيفرلي هيلز في لوس أنجلوس، بينما أقام بن سلمان في قصر خاص. وكانت التعرفة في هذا الفندق ذو الخمس النجوم، الذي يضم 285 غرفة وجناحاً فاخراً، تبدأ من 615 دولاراً في الليلة. كما استأجر الزوار السعوديون فندق فور سيزونز بالكامل في بالو ألتو على مقربة من مقر شركات جوجل وفيسبوك.[52]

كان من السهل إنفاق دولارات النفط في الفنادق الأمريكية، لكن تغيير الرأي العام الامريكي حول المملكة العربية السعودية كان أمراً صعباً، وأصبح هذا واضحاً في 29 آذار-

مارس؛ ففي ذلك اليوم حكم القاضي جورج دانيلز من المحكمة الجزئية الأمريكية للمنطقة الجنوبية من نيويورك بأن هناك أساساً معقولاً للسماح باتخاذ إجراءات قانونية تسعى للحصول على تعويضات بمليارات الدولارات من المملكة من قبل عائلات ما يقرب من 3000 قتيل وحوالي 25000 شخص جريح في هجمات 11 أيلول-سبتمبر. وقد رفعوا هم والشركات المتضررة وشركات التأمين 25 دعوى قضائية ضد السعوديين في عام 2017.

وقالت المملكة العربية السعودية: إن المدعين لم يتمكنوا من إثبات أن المملكة أو أي جمعيات خيرية تابعة للسعودية كانت وراء الهجمات، وادعت الحصانة السيادية. ومع ذلك، يرى دانيلز أن قانون محاسبة رعاة الإرهاب (جاستا)، الذي دخل حيز التنفيذ، في أيلول-سبتمبر 2016، قد ضيّق نطاق المبدأ القانوني للحصانة السيادية الأجنبية.[53] ومع انتظار استمرار القضية لبضع سنوات، كانت هناك فرصة ضئيلة لاختفاء السحابة المشؤومة التي تحيط بالعلاقات السعودية الأمريكية على المستوى الشعبي.

ومع ذلك يمكن لأفراد العائلة المالكة السعودية أن يشعروا بالارتياح لأن الصورة السلبية لإيران بين الأميركيين أصبحت راسخة؛ وقد أدى وصول ترامب إلى المكتب البيضاوي إلى تعزيز هذا الرأي حيث قام الرئيس بإلقاء الضوء على الجمهورية الإسلامية في كل فرصة.

بالإضافة إلى تمزيق الاتفاق النووي الإيراني بشكل فعال، في 8 أيار-مايو، أعلن ترامب عن إعادة فرض العقوبات الأمريكية التي كانت سارية قبل اتفاق نزع السلاح النووي الإيراني التاريخي لعام 2015، والذي يسمى رسمياً خطة العمل الشاملة المشتركة(JCPOA)، وقد غطت هذه الإجراءات قطاعات الطاقة والبنوك وغيرها من القطاعات في الجمهورية الإسلامية، مع بند لمعاقبة الشركات الأجنبية في جميع أنحاء العالم التي تتاجر مع إيران أو تستثمر فيها. وقد فعل ذلك في خطاب متلفز مدته إحدى عشرة دقيقة يشرح فيه قراره الذي تجاهل العديد من الحقائق البارزة. وكان من بينها مجموعة من عشرة تقارير ربع سنوية صادرة عن مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية تفيد بأن إيران ملتزمة بخطة العمل الشاملة المشتركة، وكان هناك سبب آخر يتمثل في إعادة تأكيد وزارة الخارجية الفرنسية أن «جميع الأنشطة المرتبطة بتطوير سلاح نووي محظورة بشكل دائم بموجب الاتفاق [خطة العمل الشاملة المشتركة]».[54] إجمالاً، احتوى خطاب ترامب على عشرة تصريحات كاذبة أو مضللة، كالادعاء بأن إيران «على حافة الحصول على أخطر الأسلحة في العالم».[55]

وقبل تحركه المتهور بشأن إيران، أثار ترامب غضب الدول الأعضاء الـ 28 في الاتحاد الأوروبي برفض منحه إعفاء من الرسوم الجمركية التي فرضها على واردات الصلب والألمنيوم

في مارس الماضي؛ ويحق للرئيس الأمريكي اتخاذ مثل هذا الإجراء لحماية الأمن القومي. وقد جادل مسؤولو الاتحاد الأوروبي بأن كتلتهم كانت حليفةً للولايات المتحدة، حيث إن جميع أعضاء الاتحاد الأوروبي، باستثناء دولة واحدة (السويد)، أعضاء في حلف شمال الأطلسي المؤلف من 29 دولة بقيادة واشنطن، ولكن دون جدوى.

قال دونالد تاسك، رئيس المجلس الأوروبي، عشية قمة الاتحاد الأوروبي في صوفيا، بلغاريا، في 16 أيار-مايو: «إننا نشهد اليوم ظاهرة جديدة: النزعة المتقلبة للإدارة الأمريكية»، أضاف: «بالنظر إلى القرارات الأخيرة للرئيس ترامب، يمكن للبعض أن يتساءلوا: "مع أصدقاء مثل هؤلاء، من يحتاج إلى أعداء؟"» وبعد القمة أعلن تاسك أن أعضاء الاتحاد الأوروبي وافقوا بالإجماع على البقاء في الاتفاق ما دامت إيران ملتزمة بالكامل: «بالإضافة إلى ذلك، حصلت المفوضية [الأوروبية] على الضوء الأخضر لتكون مستعدة للتحرك عندما تتأثر المصالح الأوروبية». وقال جان كلود يونكر، رئيس المفوضية الأوروبية، الذراع التنفيذية للاتحاد الأوروبي: إنه من أجل حماية شركات الاتحاد الأوروبي التي تتعامل مع إيران، سيلجأ إلى خطة استُخدمت آخر مرة لحماية الشركات الأوروبية العاملة في كوبا من العقوبات: «وهي ما يُعرف بـ«آلية قانون الحجب»، والتي تهدف إلى تحييد الآثار خارج الحدود الإقليمية للعقوبات الأمريكية في الاتحاد الأوروبي». وقد أعلن ذلك في 18 أيار-مايو. ويحظر قانون عام 1996 على شركات الاتحاد الأوروبي ومحاكمه الالتزام بقوانين العقوبات الأجنبية، وينص على أن أحكام المحاكم الأجنبية المستندة إلى هذه القوانين لاغية وباطلة في الاتحاد الأوروبي. وأضاف يونكر أن بنك الاستثمار الأوروبي سيوفر أيضاً مصدر تمويل للشركات العاملة في إيران.[56]

وكما حدث في 16 أيار-مايو وقعت شركة النفط الوطنية الإيرانية الجنوبية اتفاقية مع كونسورتيوم بيرجاس الدولي، ومقره لندن، لتطوير حقل كيرانج في محافظة خوزستان الغنية بالنفط على مدى العقد المقبل.[57]

كان انقسام الاتحاد الأوروبي مع ترامب بشأن خطة العمل الشاملة المشتركة بمنزلة أخبار سارة في طهران؛ ولذلك ليس من المستغرب، في أعقاب قرار ترامب، في 8 أيار-مايو، أن تكون بكين أول عاصمة أجنبية يزورها وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف مع كبار مسؤولي النفط. وبعد الاجتماع مع نظيره وانغ يي أعلن الجانبان أنهما سيستمران في خطة العمل الشاملة المشتركة.[58]

ونظراً للتعاون العسكري بين طهران وموسكو في سورية لم يكن هناك شك في انسحاب روسيا من خطة العمل الشاملة المشتركة. وفي الواقع، وبمساعدة نشطة من إيران وروسيا،

استعاد الرئيس السوري الأسد منطقة الغوطة الشرقية في ريف دمشق التي يقطنها 400 ألف شخص، في 14 نيسان-أبريل، بعد حملة استمرت شهرين، اشتملت على هجوم كيميائي مشتبه به على مدينة دوما الرئيسة في الجيب.[59] ورداً على الهجوم الكيميائي الذي شنته حكومة الأسد على دوما في 7 نيسان-أبريل أطلقت الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا صواريخ على مواقع الأسلحة الكيميائية المزعومة بعد أسبوع.

لقد لقيت أخبار الانقسام بين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة بشأن خطة العمل الشاملة المشتركة صدى سيئاً في المملكة العربية السعودية، التي انتعشت بخروج ترامب من الاتفاق الإيراني. وفي وقت سابق أبدت ترحيباً حاراً بتعيين جون بولتون مستشارا للأمن القومي لترامب. وقد عبر بولتون عن موقفه المتشدد ضد طهران بشكل مناسب في العنوان الرئيس لمقالته الافتتاحية لصحيفة نيويورك تايمز في 26 آذار-مارس 2015، حيث قال: «اقصفوا إيران لإيقاف قنبلتها».[60] ومضى يصف خطة العمل الشاملة المشتركة بأنها "واترلو الدبلوماسية". وسيأتي الدعم لموقفه المناهض بشدة لإيران من مايك بومبيو الذي أصبح وزيراً للخارجية في 26 نيسان-أبريل.

حظي تعيين بولتون وبومبيو في منصبين رفيعين في واشنطن بموافقة إسرائيلية شديدة، وخلال الأسبوع الذي أعقب تمزيق ترامب لخطة العمل الشاملة المشتركة انخرط [كيان] إسرائيل في نشاط دبلوماسي محموم تمحور حول افتتاح السفارة الأمريكية في القدس في 14 أيار-مايو 2018، في الذكرى السبعين لتأسيس [كيان] دولة إسرائيل، وحضر هذا الحدث التاريخي 800 ضيف، من بينهم ابنة ترامب، إيفانكا وزوجها جاريد كوشنر. في حين بقي معظم سفراء الاتحاد الأوروبي بعيداً. واختلط المسؤولون الأميركيون مع نظرائهم الإسرائيليين، وأثنى بعضهم على بعض على تفانيهم المتبادل من أجل السلام والاستقرار.

وفي تناقض صارخ، على بعد خمسين ميلاً جنوب القدس، قتل الجنود الإسرائيليون 62 متظاهراً فلسطينياً أعزلاً، وأصابوا 2400 آخرين، على طول الحدود مع غزة في استخدام سافر لسياسة القوة غير المقيَّدة للقضاء على أنصار حماس. وقد رفعت المذبحة التي وقعت في 14 أيار- مايو في ذكرى النكبة، عندما أُجبر 750 ألف فلسطيني على ترك منازلهم أثناء تأسيس [كيان] إسرائيل، إجمالي القتلى الفلسطينيين إلى 117 منذ انطلاق مسيرة العودة الكبرى في 30 آذار- مارس سعياً للحصول على حق العودة إلى ديارهم الأصلية.[61]

وقال وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف في تغريدة على تويتر: «إن النظام الإسرائيلي يذبح عدداً لا يحصى من الفلسطينيين بدم بارد أثناء احتجاجهم في أكبر سجن

مفتوح في العالم، وفي هذه الأثناء يحتفل ترامب والمتعاونون معه من العرب بهذه الخطوة لصرف الانتباه عن النقل غير الشرعي لسفارة الولايات المتحدة. إنه يوم العار الكبير».[62]

ولم يكن هناك شك في أن المملكة العربية السعودية كانت من بين "المتعاونين العرب" الذين لم تُذكَر أسماؤهم، ولكن بغض النظر عن الحالة السابقة للعلاقات بين الرياض وواشنطن خلال رئاسة ترامب، تحركت المملكة العربية السعودية بسرعة لدعم القضية الفلسطينية، فأدانت بشدة المذبحة التي ارتكبتها القوات الإسرائيلية بحق الفلسطينيين العزل. وبالإضافة إلى ذلك حث الملك سلمان الأمين العام لجامعة الدول العربية، أحمد أبو الغيط، على عقد اجتماع طارئ لوزراء الخارجية العرب في القاهرة، وترأس الجلسة وزير الخارجية السعودي عادل الجبير، الذي قال: «اجتماعنا اليوم يأتي في وقت بالغ الأهمية حيث نقلت الولايات المتحدة سفارتها إلى القدس»، وطالبت الجامعة العربية بإجراء تحقيق دولي في "الجرائم" التي ارتكبها [كيان] إسرائيل ضد الفلسطينيين.[63]

وقد جرى التعبير عن الغضب الدولي في الجلسة الخاصة التي عقدها مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة المؤلف من 47 عضواً في جنيف في 18 أيار-مايو، وأشار مديرها العام، زيد رعد الحسين، إلى أن العديد من الفلسطينيين الذين أُصيبوا، وقُتلوا في الاحتجاجات «كانوا عزلاً تماماً [و] أنهم أصيبوا بالرصاص في الظهر، والصدر، والرأس، والأطراف بالذخيرة الحية». وبأغلبية تسعة وعشرين صوتاً مؤيداً ومعارضة صوتين (أميركا و[كيان] إسرائيل)، أدان المجلس «استخدام قوات الاحتلال الإسرائيلي غير المتناسب والعشوائي للقوة ضد المدنيين الفلسطينيين»، وشكّل لجنة تحقيق للتوصل إلى التقرير النهائي بحلول آذار-مارس 2019.[64]

وكانت العاصمة الأجنبية الأولى التي زارها مايك بومبيو كوزير للخارجية هي الرياض، وحثّ هناك نظيره الجبير وولي العهد والملك على إنهاء خلافهم مع قطر. لقد فعل ذلك في وقت كانت فيه المملكة العربية السعودية تفكر في ترسيم حدودها مع قطر بخندق[65]، وكانت نصيحة بومبيو بعيدة كل البعد عن وصف ترامب لقطر بأنها ممولة للإرهابيين كما زعمت المملكة العربية السعودية وحلفاؤها في حزيران-يونيو. ومنذ ذلك الحين وقّعت قطر اتفاقيات مع الولايات المتحدة بشأن تبادل المعلومات حول الإرهابيين وتمويل الإرهاب. وفي الوقت نفسه أنفق حاكمها تميم آل ثاني ملايين الدولارات لتعزيز قائمته من جماعات الضغط في واشنطن، ودعوة وسطاء السلطة الأمريكيين ذوي النفوذ إلى الدوحة. ونتيجة لذلك، حصل على لقاء مع الرئيس الأمريكي في 9 نيسان-أبريل، عندها أعرب مضيفه عن دعمه القوي لإمارته.[66] وقد تجاهل ترامب بسهولة حقيقة أن قطر طورت علاقات قوية مع إيران في

أعقاب الحظر الذي فرضته السعودية عليها. وكانت هذه الخطوة مقدمة لتغيير النظام في الدوحة، بحسب ما قاله الأمير تميم في مقابلته مع شبكة سي بي إس الأمريكية في أواخر تشرين الأول-أكتوبر.[67]

ورأت إدارة ترامب أن الأزمة القطرية التي لم تُحَل، بمنزلة عقبة أمام وضع سياسة موحدة وحادة مناهضة لإيران من قبل مجلس تعاون خليجي موحَّد سيتم اعتمادها خلال القمة المرتقبة في واشنطن في شهر نيسان-أبريل. وأعلن بن سلمان وحليفه المقرب، ولي عهد الإمارات العربية المتحدة محمد بن زايد آل نهيان، أنهما سيرفضان مثل هذه الدعوة لأن شرطاً مسبقاً لعقد هذا الاجتماع كان يتمثل في إنهاء الحصار المفروض على قطر، وهو ما كان سيُعد بمثابة قبولٍ بالهزيمة أمام الدوحة. أما بن سلمان، فإن مواجهة الإخفاق في مشاريعه الخارجية في اليمن ولبنان كانت عنده شيئاً واحداً، ولكن قبول المصير نفسه في حالة الجار الصغير سيكون ذلاً مريراً.

ومع ذلك، فإن الخطاب الذي ألقاه بومبيو في مؤسسة التراث المحافظة في واشنطن في 21 أيار-مايو ساهم في تحسين الحالة المزاجية في الرياض؛ إذ أعلن أن الولايات المتحدة ستفرض إجراءات عقابية إضافية على إيران، وعدّد اثني عشر مطلباً يجب على الجمهورية الإسلامية تلبيتها، وينبغي لها أن تقدم شرحاً كاملاً لأعمالها السابقة المزعومة في مجال تطوير الأسلحة النووية، ووقف تخصيب اليورانيوم تماماً، ووقف إطلاق الصواريخ الباليستية ذات القدرة النووية، وإنهاء دعمها لحماس وحزب الله والجهاد الإسلامي الفلسطيني، وسحب جميع القوات الخاضعة للقيادة الإيرانية من سورية، ووقف دعم الحوثيين في اليمن.[68] وباختصار: يجب على إيران التنازل عن عناصر السيادة البارزة من أجل إرضاء إدارة ترامب. ويبدو أن بومبيو أخفق في رؤية أن مطالبه كانت مماثلة للمطالب الثلاثة عشر التي قدمها التحالف الذي تقوده السعودية إلى قطر قبل عام تقريباً. وكان من المفارقة أنه بعد أن انتقد كبار صناع السياسة في المملكة العربية السعودية على خلق أزمة غير مسبوقة في مجلس التعاون الخليجي، كان، عن غير قصد، يسير على خطاهم من خلال تقديم مطالب غير واقعية على الإطلاق لطهران.

ومع ذلك، في المشهد الداخلي للمملكة، كانت الأمور تسير على ما يرام لـ بن سلمان في سعيه لإصلاح التركيبة الاقتصادية والاجتماعية للنظام السياسي؛ ففي 18 نيسان-أبريل افتتحت المملكة العربية السعودية أول دار سينما لها منذ عام 1980 مع عرض خاص لفيلم النمر الأسود، الذي تدور أحداثه في دولة أفريقية خيالية، وكان العرض في قاعة الحفلات الموسيقية

التي حُوِّلت في العاصمة. وكان الفيلم يدور حول شاب ملكي يغيّر أُمة.[69] وكان الإيحاء لـ بن سلمان واضحاً للغاية بحيث لا يمكن إلا أن يُلتقَط. وقد شاهد الجمهور المختار نسخة خضعت لرقابة سعودية صارمة. ولم يقتصر الأمر على المخدرات والقمار فحسب، بل شمل أيضاً أي نوع من العلاقة الحميمة والحب بين الجنسين والتي تُعَد انتهاكاً للأخلاق الإسلامية. وعلى الرغم من أن الرقابة على الأفلام كانت هي القاعدة في الجمهورية الإسلامية منذ تأسيسها، فإن صرامة هذه الرقابة لم تكن متطرفة كما هو الحال في المملكة العربية السعودية.

وبشكل عام، ظل شغل السعوديين الشاغل هو موضوع حق المرأة في القيادة، فمع اقتراب 24 حزيران-يونيو، موعد رفع الحظر على قيادة المرأة للسيارة، ظهر الجانب المظلم لحملة بن سلمان الإصلاحية. وفي تكرار لما حدث يوم 26 أيلول-سبتمبر 2017 –يوم إعلان قرار قيادة المرأة للسيارة– أمرت السلطات الناشطات بعدم التحدث لصالح القرار. والتفسيران لهذه الخطوة كانا أن ولي العهد أراد احتكار الفضل في هذه الخطوة التحررية، وأن الحكومة كانت حذرة من إعطاء العلماء المحافظين فرصة للتعبير عن معارضتهم علناً. وكيلا تترك أي شيء للصدفة اعتقلت السلطات أحد عشر ناشطاً قبل حوالي شهر من 24 حزيران-يونيو، وجميع من اعتُقل، باستثناء اثنين، كنّ من النساء وكنّ في طليعة النضال من أجل حقوق المرأة إلا أنه أطلِق سراح أربع منهنّ، في حين قادت السبع المتبقيات التماساً لإلغاء الولاية على المرأة، الذي يعامل النساء البالغات كقاصرات قانونياً[70]، وهذا يتعارض مع الفتوى التي أصدرها مفتي السعودية الشيخ عبد العزيز آل الشيخ في أيلول-سبتمبر 2016، وقضت بأن إزالة نظام الولاية سيكون جريمة ضد تعاليم الإسلام، وأن التغريدات والوسوم الأخيرة التي تطالب بإلغائه كانت "دعوة شريرة"، وهو ما يخالف الشرع وأوامر النبي.[71] ورافق الاعتقال المستمر للناشطات في مجال حقوق المرأة حملة تشهير ضدهن في الصحف الموجهة من الدولة، واتهام الناشطات بالخيانة والإيحاء بأنهن حصلن على تمويل من قطر. ونشرت صحيفة عكاظ منشوراً على صفحتين يضم بعض المعتقلين. بالإضافة إلى وسم [هاشتاك] "#عملاء_السفارات"، وميزة رسومية لوجوه الناشطين نُشِرت عبر وسائل التواصل الاجتماعي.[72]

ومن الجدير بالذكر أن الوصاية في إيران الشيعية كان لها تطبيق محدود للغاية؛ فالأم هي الوصية على ابنها حتى يبلغ عامين، وعلى ابنتها حتى تبلغ سبعة أعوام، الأب هو الوصي على الابن بعد سن الثانية، والبنت غير المتزوجة فوق سن السابعة. وفي حالة زواج القاصر يكون الأب أو الجد هو الوصي.[73]

وبفضل اجتهاد المتعاطفين مع الناشطين في مجال حقوق المرأة، واستخدامهم المكثف

لموقع تويتر، أصبح العامة يعرفون مصير المعتقلات. وقد تابعت منظمة هيومن رايتس ووتش، ومقرها نيويورك، ومنظمة العفو الدولية، ومقرها لندن، قضيتهن عن كثب. على النقيض من ذلك، حتى هذه المنظمات القوية فقدت الاهتمام بمصير الثلاثين من رجال الدين والكتّاب والمثقفين السعوديين الذين أُلقي بهم خلف القضبان في صيف عام 2017 لجرأتهم على التعبير عن معارضتهم لسياسات الديوان الملكي، فباتوا الضحايا الأوائل للنظام الشمولي الذي ما زال في طور التكوين.

الملاحظات

1 Ben Hubbard, New York Times, 27 January 2018, «Billionaire Saudi Prince, Alwaleed bin Talal, Is Freed From Detention. » https://www. nytimes. com/201827/01//world/mid- dleeast/saudi-arabia-alwaleed-bin-talal. html

2 Rania El Gamal and Stephen Kalin, Reuters, 14 January 2018, «Saudi Prince Alwaleed in settlement talks with government—sources. » https:// uk. reuters. com/article/uk- saudi-arrest-alwaleed/saudi-prince-alwaleed-in-settlement-talks-with-government- sources-idUKKBN1F308I

3 Ben Hubbard, New York Times, 27 January 2018. «Billionaire Saudi Prince, Alwaleed bin Talal, Is Freed From Detention, » https://www. nytimes. com/201827/01//world/mid- dleeast/saudi-arabia-alwaleed-bin-talal. html

4 Ben Hubbard, David D. Kirkpatrick, Kate Kelly and Mark Mazzetti, New York Times, 11 March 2018, «Saudis Said to Use Coercion and Abuse to Seize Billions. » https:// www. nytimes. com/201811/03//world/middleeast/saudi-arabia-corruption-Muham- mad-bin-salman. html)

5 Ibid

6 Guardian/Reuters, 29 Nov 2017, «Saudi prince Mutaib bin Abdullah pays $1bn in cor-ruption https://www. theguardian. com/world/2017/nov/29/saudi-prince-miteb-bin- abdullah-pays-1bn-in-corruption-settlement

7 Rania El Gamal and Stephen Kalin, Reuters, 14 January 2018, «Saudi Prince Alwaleed in settlement talks with government—sources. » https:// uk. reuters. com/article/uk- saudi-arrest-alwaleed/saudi-prince-alwaleed-in-settlement-talks-with-government- sources-idUKKBN1F308I

8 Simeon Kerr, Financial Times, 26 January 2018, «Top Saudi broadcaster caught up in Riyadh's corruption shakedown. » https://www. ft. com/ content/a50075d2–0069–11e8– 9650–9c0ad2d7c5b5

9 Vivian Nereim and Glen Carey, Bloomberg, 8 January 2018, «Saudi-Prince Detainees Include Sons of Dairy Billionaire, Sources Say. » https://www. bloomberg. com/news/ articles/2018–01–08/saudi-princes-detained-are-said-to-include-sons-of-almarai-head

10 Martin Chulov, Guardian, 30 January 2018, «Saudi Arabia claims anti-corruption purge recouped $100bn. » https://www. theguardian. com/ world/2018/January/30/anti-cor- ruption-purge-nets-more-than-100bn-saudi-arabia-claims

11 Thomas L. Friedman, New York Times, 23 November 2017, «Saudi Arabia's Arab Spring, at Last. » https://www. nytimes. com/201723/11// opinion/saudi-prince-mbs-arab- spring. html

12 Saeed Kamali Dehghan and Patrick Wintour, Guardian, 3 January 2018, «Thousands of Iranians join counter-protests after week of unrest. » https://www. theguardian. com/ world/2018/January/03/iranians-counter-protests-week-unrest

13 Ibid

14 Thomas Erdbrink, David D. Kirkpatrick, and Nilo Tabrizyian, New York Times, 20 January 2018, «How Corruption and Cronyism in Banking Fueled Iran's Protests. » https:// www. nytimes. com/201820/01//world/ middleeast/iran-protests-corruption-banks. html

15 Azadeh Moaveni, Guardian, 1 January 2018, «Iran knows how to silence protests. If only it knew how to listen. » https://www. theguardian. com/ commentisfree/2018/ January/01/iran-silence-protests-learn-listen-young-people

16 Thomas Erdbrink, New York Times, 29 December 2017, «Scattered

Protests Erupt in Iran Over Economic Woes. » https://www. nytimes. com/201729/12//world/middleeast/ scattered-protests-erupt-in-iran-over-economic-woes. html

17 Michael Georgy, Reuters, 7 January 2018, «Iran Guards say quell unrest fomented by foreign enemies. » https://www. reuters. com/article/us-iran-rallies-guards/iran-guards- say-quell-unrest-fomented-by-foreign-enemies-idUSKBN1EW085

18 Sanam Vakil, Guardian, 4 January 2018, «How Donald Trump's tweets help Iran's supreme leader. » https://www. theguardian. com/commentisfree/2018/January/04/ donald-trump-tweets-iran-protesters-sanctions

19 Michael Georgy, Reuters, 7 January 2018, «Iran Guards say quell unrest fomented by foreign enemies. » https://www. reuters. com/article/us-iran-rallies-guards/iran-guards- say-quell-unrest-fomented-by-foreign-enemies-idUSKBN1EW085

20 Thomas Erdbrink, David D. Kirkpatrick, and Nilo Tabrizyian, New York Times, 20 January 2018, «How Corruption and Cronyism in Banking Fueled Iran's Protests. » https:// www. nytimes. com/201820/01//world/middleeast/iran-protests-corruption-banks. html

21 Ibid

22 Thomas Erdbrink, New York Times, 21 October 2017, «Iran Saps Strength of IRGC With Arrests and Cutbacks. » https://www. nytimes. com/201721/10//world/middleeast/ iran-revolutionary-guards. html

23 Thomas Erdbrink, David D. Kirkpatrick, and Nilo Tabrizyian, New York Times, 20 January 2018, «How Corruption and Cronyism in Banking Fueled Iran's Protests. » https:// www. nytimes. com/201820/01//world/middleeast/iran-protests-corruption-banks. html

24 Thomas Erdbrink, New York Times, 21 October 2017, «Iran Saps

Strength of IRGC With Arrests and Cutbacks. » https://www. nytimes. com/201721/10//world/middleeast/ iran-revolutionary-guards. html

25 Ibid

26 Daily Mail/Associated Press. 21 January 2018, «Iran's Guard may loosen grip on econ-omy. » http://www. dailymail. co. uk/wires/ap/article-5294025/ Iran-try-loosen-Revolu- tionary-Guards-grip-economy. html)

27 Ben Hubbard, Iabel Kershner and Anne Bernard, New York Times, 19 February 2018, «Iran, Deeply Embedded in Syria, Expands 'Axis of Resistance. '» https://www. nytimes. com/201819/02//world/middleeast/ iran-syria-israel. html)

28 Ibid

29 Patrick Cockburn, Independent, 16 January 2018, «Trump's escalating threats to Iran risk destabilizing the Middle East. »http://www. independent. co. uk/news/world/mid- dle-east/donald-trump-us-iran-nuclear-deal-middle-east-relations-diplomacy-hassan-rou- hani-weapons-syria-a8162241. html

30 Michael Gregory, Reuters, 14 May 2018, «Fiery cleric Sadr taps anger over Iran to lead Iraq poll. » https://www. reuters. com/article/us-iraq-election-sadr/fiery-cleric- sadr-taps-anger-over-iran-to-lead-iraq-poll-idUSKCN1IF2G8

31 Patrick Wintour, Guardian, 28 December 2017, «Saudi-led airstrikes kill 68 civilians in one day of Yemen's 'absurd' war. » https://www. theguardian. com/world/2017/dec/28/ saudi-led-airstrikes-yemen-war-united-nations

32 Reuters Staff, 21 January 2018, «Yemen sets first budget since 2014. » https://uk. reuters. com/article/us-yemen-security-budget/yemen-sets-first-budget-since-2014-idUKKBN1FA0IT

33 Katharine Zimmerman, «Critical Threats, Yemen Crisis Situation Report,»

18 May 2018. https://www. criticalthreats. org/briefs/yemen-situation-report/2018-yemen-crisis-sit- uation-report-may-18

34 Xinhua, 27 February 2018, «UN Security Council adopts Russian-drafted resolution on renewal of Yemen sanctions. » http://www. xinhuanet. com/english/201802-/ 27/c_137002111. htm

35 Nicholas Fandos, New York Times, 20 March 2018, «Senators Reject Limits on U. S. Support for Saudi-led Fight in Yemen. » https://www. nytimes. com/201820/03// us/politics/senate-yemen-military-support. html)

36 Max Fisher, Eric Schmitt, Audrey Carlsen and Malachy Brown, New York Times, 4 December 2017, «Did American Missile Defense Fail in Saudi Arabia?» https:// www. nytimes. com/interactive/201704/12//world/middleeast/saudi-missile-defense. html

37 Helene Cooper, Thomas Gibbons-Neff and Eric Schmitt, New York Times, 3 May 2018, »Army Special Forces Secretly Help Saudis Combat Threat From Yemen Rebels. » https://www. nytimes. com/201803/05//us/politics/green-berets-saudi-yemen-bor- der-houthi. html

38 Ibid

39 Patrick Wintour and Saeed Kamali Dehghan, Guardian, 31 May 2018, «Battle for rebel-held Yemen port may trigger humanitarian disaster. » https://www. theguardian. com/ world/2018/may/31/battle-for-rebel-held-yemen-port-may-trigger-humanitarian-di- saster

40 Mark Landler, New York Times, 20 March 2018, «Saudi Prince's White House Visit Reinforces Trump's Commitment to Heir Apparent. » https://www. nytimes. com/ 201820/03//us/politics/saudi-crown-prince-arrives-at-white-house-to-meet-with-trump. html

41 James Landale, BBC News, 7 March 2018, «Why Saudi Crown Prince Muhammad bin Salman's UK visit matters. » http://www. bbc. co. uk/news/world-middle-east-43235643

42 Joe Watts, Independent, 7 March 2018, «Muhammad Bin Salman: 'Bizarre' PR drive launched by Saudi Crown Prince's backers in face of UK protests over Yemen war. » https://www. independent. co. uk/news/uk/politics/ Muhammad-bin-salman-uk-visit- protests-pr-publicity-adverts-yemen-saudi-arabia-crown-prince-a8243486. html

43 James Landale, BBC News, 7 March 2018, «Why Saudi Crown Prince Muhammad bin Salman's UK visit matters. » http://www. bbc. co. uk/ news/world-middle-east-43235643)

44 Eli Clifton, Lobelog, 7 January 2016, «Washington's Multi-Million-Dollar Saudi PR Machine. »https://lobelog. com/washingtons-multi-million-dollar-saudi-pr-machine/

45 Glen Carey and Sarah Algethami, Bloomberg, 2 April 2018, «Saudi Prince's US Tour Plays Big at Home. »https://www. bloomberg. com/news/ articles/2018–04–03/saudi- prince-s-u-s-tour-plays-big-at-home

46 Haaretz, 28 March 2018, «Saudi Crown Prince's Full U. S. Itinerary Leaked Online and He Apparently Saved the Best for Last. » https://www. haaretz. com/middle-east-news/ saudi-crown-prince-s-full-u-s-itinerary-leaked-online-1. 5957103

47 Ben Hubbard, New York Times, 27 March 2018, «Saudi Crown Prince, on US Visit, Urges Tough Line on Iran. » https://www. nytimes. com/201827/03// world/middleeast/ Muhammad-bin-salman-saudi-prince-interview. html

48 Amir Tibon, Haaretz, 3 April 2018, «Saudi Crown Prince: We Share Common Interests With Israel, but There Must Be Peace With Palestinians. » https://www. haaretz. com/ middle-east-news/saudi-prince-israelis-have-the-right-to-have-their-own-land-1. 5974278

49 Ben Hubbard, New York Times, 3 April 2018, «Supported by Saudi Prince Says Israelis Have Right to 'Their Own Land. » https://www. nytimes. com/201803/04//world/ middleeast/saudi-arabia-Muhammad-bin-salman-israel. html

50 تم تغيير مكان انعقاد القمة من الرياض إلى الظهران في المنطقة الشرقية لتجنب الإحراج الناجم عن إصابة صاروخ أطلقه الحوثيون العاصمة السعودية خلال القمة.

51 Agence France-Presse, 17 April 2018, «Arab ire at US on Jerusalem move looks unlikely to spark action. » http://www. arabianbusiness. com/politics-economics/394 294-arab-ire-at-us-jerusalem-move-looks-unlikely-to-spark-action

52 Tim Arango, New York Times, 6 April 2018, «Supported by Oprah, Rupert Murdoch, Harvard: Saudi Prince's US Tour. » https://www. nytimes. com/201806/04//world/ middleeast/saudi-prince-Muhammad-bin-salman-us. html

53 European News, 29 March 2018, «US court allows 911/ victims' lawsuits claiming Saudi Arabia helped plan terror attack. » https://www. independent. co. uk/news/world/amer- icas/saudi-arabia-911--victims-lawsuit-us-court-allowed-twin-towers-terror-attack-sep- tember-a8279236. html

54 Patrick Wintour and Saeed Kamali Dehghan, Guardian, 1 May 2018, «Europeans cast doubt on Israel's claims about Iran nuclear breaches. » https://www. theguardian. com/ world/2018/may/01/europeans-cast-doubt-on-israel-claims-about-iran-nuclear-breaches

55 Guardian, 9 May 2018, «The Guardian view on Iran's nuclear deal: Trump creates a narrative for war. »https://www. theguardian. com/ commentisfree/2018/may/09/the- guardian-view-on-irans-nuclear-deal-trump-creates-a-narrative-for-war

56 Patrick Wintour and Daniel Boffey, Guardian, 17 May 2018. «EU sets course for US clash with law blocking Iran sanctions. » https://www. theguardian. com/world/2018/ may/17/maersk-tankers-pull-out-of-iran-in-blow-to-nuclear-deal

57 Reuters Staff, 16 May 2018, «Iran signs oil contract with Pergas to develop Keranj field.» https://uk.reuters.com/article/us-oil-iran-

contract/iran-signs-oil-contract-with-pergas-to-develop-keranj-field-idUKKCN1IH2NZ

58 Chen Aizhu, Reuters, 16 May 2018, «Exclusive: Iran asks Chinese oil buyers to main-tain imports after US sanctions—sources. »https:// www. reuters.com/article/us-iran- nuclear-china-oil-exclusive/exclusive-iran-asks-chinese-oil-buyers-to-maintain-imports-after-u-s-sanctions-sources-idUSKCN1IH0VL

59 First Post/ Agence France-Presse, 15 April 2018, «Syrian Army declares complete retake of rebel-held Eastern Ghouta; clean-up operation underway. » https://www. first-post. com/world/syrian-army-declares-complete-retake-of-rebel-held-eastern-ghouta-clean-up-operation-underway-4432305. html

60 John R. Bolton, New York Times, 26 March 2015, «To Stop Iran's Bomb, Bomb Iran. » https://www. nytimes. com/201526/03//opinion/to-stop-irans-bomb-bomb-iran. html

61 Al Jazeera News, 19 May 2018, «Gaza protests: All the latest updates. »https://www. aljazeera. com/news/201804//gaza-protest-latest-updates-180406092506561. html

62 Michael Lipin, VOA, 15 May 2018, «Iranian Dissidents Criticize Tehran's Response to Israeli-Palestinian Turmoil. »https://www. voanews. com/a/iranians-respond-to-gaza-vio- lence/4394307. html

63 The New Arab, 17 May, «Arab League calls for international probe against Israeli crimes in Gaza massacre. » https://www. alaraby. co. uk/english/news/201817/5//arab-league- calls-for-international-probe-against-israeli-crimes

64 Peter Beaumont, Guardian, 19 May 2028, «UN Human Rights Chief Rebukes Israel as Egypt Opens Gaza Crossing. » http://www. arabamerica. com/un-human-rights-chief- rebukes-israel-as-egypt-opens-gaza-crossing/

65 Gardiner Harris, New York Times, 28 April 2018, «Supported by Pompeo's Message to Saudis? Enough Is Enough: Stop Qatar Blockade. » https:// www. nytimes. com/201828/04//world/middleeast/mike-pompeo-saudi-arabia-qatar-blockade. html

66 Gardiner Harris and Mark Landler, New York Times, 9 April 2018, «Qatar Charm Offensive Appears to Have Paid Off, US Officials Say. » https:// www. nytimes. com/201809/04//us/politics/qatar-trump-embargo-charm-offensive. html)

67 Bel Trew, The Times, 31 Oct 2017, «Saudis want to topple me, says Sheikh Tamim bin Hamad al-Thani. » https://www. thetimes. co. uk/article/ saudis-want-to-topple-me-says- sheikh-tamim-bin-hamad-al-thani-9h9z07b2x

68 Julian Borger and Heather Stewart, Guardian, 21 May 2018, «Iran told: comply with US demands or face 'strongest sanctions in history'. » https:// www. theguardian. com/ us-news/2018/may/21/iran-nuclear-deal-mike-pompeo-us-sanctions

69 Agence France-Presse, 20 April 2018, «Saudi Arabia's first cinema in over 35 years opens with Black Panther. » https://www. theguardian. com/ world/2018/apr/20/saudi- arabias-first-cinema-in-over-35-years-opens-with-black-panther

70 Patrick Wintour, Guardian, 25 May 2018, «Saudi Arabia arrests key activist in human rights crackdown. » https://www. theguardian. com/ world/2018/may/25/saudi-arabia- arrests-human-rights-campaigner-mohammed-al-bajadi-women-right-drive

71 Jasmine Bager, Middle East Eye, 28 September 2016, «The camel in the room': Saudi women driving debate on end to guardianship rule. »http:// www. middleeasteye. net/ in-depth/features/camel-room-saudi-women-driving-debate-end-guardianship- rule-317043821

72 Patrick Wintour, Guardian, 25 May 2018, «Saudi Arabia arrests key activist in human rights crackdown. » https://www. theguardian. com/world/2018/may/25/saudi-arabia- arrests-human-rights-campaigner-mohammed-al-bajadi-women-right-drive

73 Law Learner, 2 Nov 2012, «Guardianship under Muslim law. inhttp://sanamurtaza. blogspot. com/201211//guardianship-under-muslim-law. htmlw

مركز الرافدين للحوار:(R.C.D)

مركز فكريٌّ مستقل (THINK TANK)، يعمل على تشجيع الحوارات في الشؤون التعليمية والثقافية والسياسية والاقتصادية بين النخب كافة؛ لتعزيز التجربة الديمقراطية، وتحقيق السلم المجتمعي، ورفد مؤسسات الدولة والمجتمع بالخبرات والرؤى الاستراتيجية؛ ابتغاء تفعيل دورها والارتقاء بأدائها، ويمثل المركز فضاءً حُرًّا للحوار يتسم بالموضوعية والحياد، ويوظِّف مخرجاته لمساعدة صُنَّاع القرار وتوجيه الرأي العام نحو بناء دولة المؤسسات.

يُعَدُّ مركزُ الرافدين للحوار من المراكز التفكير النوعية في العراق التي تجمعُ على منبرها النخبَ السياسيةَ والاقتصادية والأكاديمية الناشطة في توجيه الرؤى والمؤثرة في صناعة القرار والرأي العام. تم تأسيس المركز في 2014/2/2 في مدينة النجف الأشرف على شكل مجموعة افتراضية في العالم الالكتروني تضم عدداً من الأكاديميين والمثقفين والسياسيين، وقد تطورت الفكرة لاحقا ليتم إكسابها الصفة القانونية عن طريق تسجيل المركز في دائرة المنظمات غير الحكومية NGO التابعة للأمانة العامة لمجلس الوزراء العراقي.

الرؤية:

إن المركز هو محطة ثقافية تلتقي عندها آراء النخب وصناع القرار بجميع أطيافها السياسية والدينية والقومية، وبِمَا يوفره من بيئة حواريّة إيجابية تُحْسِّنُ إيجاد الفضاءات المشتركة بين تلك الآراء وتسهم في بناء بلدٍ مزدهر.

الرسالة:

تتمثل رسالة المركز بتشجيع وتنمية الحوارات الموضوعية والجادة بين النخب العراقية وصناع القرار بما يعزز التجربة الديمقراطية ويحقق السلم المجتمعي والتنمية المستدامة في العراق من خلال تحقيق **الأهداف** الآتية:

1. تعزيز السلم المجتمعي عبر الحوار البنّاء بين النخب العراقية.
2. تعزيز المسؤولية الوطنية ودعم التجربة الديمقراطية للدولة وبناء مؤسساتها.
3. مساعدة مؤسسات الدولة في حل المشكلات عبر تقديم الاقتراحات والاستشارات في مجالات مختلفة وعبر إصدارته المتنوعة وخبراءه المتنورين.
4. توسيع المشتركات بين الكيانات السياسية والاجتماعية عبر حوار محايد يعزز العلاقة بين المواطن والدولة.

الوسائل:

1. تنظيم الندوات والجلسات النقاشية في المجالات التي يُعنى بها المركز ومتابعة مخرجاتها في ظل تغطية إعلامية تعرِّف بها داخل العراق وخارجه.
2. إصدار الكتب والتقارير الاستراتيجية وإجراء الأبحاث والدراسات ونشرها ورقياً وإلكترونياً.
3. عقد شراكات مع مؤسسات محلية ودولية بحثية وأكاديمية ذات أهداف مشتركة.
4. التعاون مع جامعات عالية المستوى لإقامة الفعاليات العلمية والملتقيات الفكرية.
5. إنشاء دوائر بحوث ولجان متخصصة لتعزيز البحث العلمي.
6. عقد حوارات بين المختلفين لتعزيز الاندماج الاجتماعي.

هيكلية المركز

يتكون مركز الرافدين للحوار RCD من هيكلية إدارية متشكّلة وفقاً لنظامه الداخلي تتضمن: مجلس الإدارة الذي يتكون من السيد المؤسِّس **زيد الطالقاني** بوصفه رئيساً للمجلس وثمانية أعضاء، ومدير تنفيذي ونائبه، وهيأة مستشارين، وعدد من الأقسام العلمية والإدارية هي: قسم البحث والتطوير، وقسم الشؤون الإدارية والقانونية والمالية، وقسم المراسم والعلاقات العامة، إلى جانب مستشار الشؤون الثقافية والتعاون الدولي.

مثل أي مؤسسة معطاة ومثمرة، تعرّض مركز الرافدين للحوار الى عدد غير قليل من التحديات والمضايقات والاستهدافات التي حاولت النيل منه، إلا أنه أبى إلا أن تستمر مسيرته المؤزرة باستدامة العطاء وقوة الإرادة.

يُعنى المركز بعدة قضايا محلياً وإقليميا وعالمياً يُعالجها عبر إصداراته المتنوعة من خلال المجالات الآتية:

1. العلوم السياسية والعلاقات الدولية.
2. الاقتصاد والتنمية.
3. الاجتماع.
4. الشؤون الفكرية ومعالجة الظواهر الاجتماعية.
5. الشؤون الاستراتيجية والعسكرية.
6. التكنولوجيا والأمن السيبراني.
7. القضايا الدستورية والاجتماعية والقانونية.
8. الجغرافيا.
9. الدولة والمجتمع.
10. البيئة والتغيّر المناخي.
11. الذكاء الاصطناعي والتحولات الرقمية.

صلات المركز البحثية والعلمية محلياً وإقليمياً ودولياً

بوصفه مركزاً بحثياً يعمل على تعزيز الحوار مع الآخر، يحرص مركز الرافدين للحوار على مد جسور التعاون المعرفي والبحثي عبر عقد صلات مع مراكز ومؤسسات بحثية عربية وأجنبية حول العالم وذلك من خلال اتفاقيات تعاون مبرمة مع مؤسسات ومراكز على درجة من الأهمية على الصعيد العراقي والعربي والإقليمي والعالمي، منها «**معهد الخدمة الخارجية**» التابع لوزارة الخارجية العراقية، و«**مركز الدراسات المصرفية**» التابع للبنك المركزي العراقي، و«**جامعة صلاح الدين في أربيل**»، و«**مجموعة الأزمات الدولية (ICG)**»(بلجيكا)، و«**المعهد العالمي للمياه والبيئة والصحة**»(GIWEH) (سويسرا)، و«**المعهد الفرنسي للأبحاث وتحليل السياسة الدولية**»(CFRP)، «**معهد الصين للعلاقات الدولية المعاصرة**»(CICIR)، و«**مركز الإمارات للبحوث والدراسات الاستراتيجية**»، و«**مركز الشؤون الدولية الروسي**»(RIAC)، «**معهد السياسة والحكم**» (GPTT) (إيران)، و«**المعهد العربي للديمقراطية**» (تونس)، و«**مركز أفغانستان والشرق الأوسط وإفريقيا** (CAMEA) **في معهد الدراسات الاستراتيجية**(ISSI)، إسلام أباد (باكستان)، وغيرها من المؤسسات المهمة.

استطاع مركز الرافدين للحوار RCD أن يكون رائداً في عقد المتلقيات وذلك عبر ملتقاه السنوي الأكبر (مُلتقى الرافدين) وهو ملتقى دولي يعقده المركز سنوياً في العاصمة بغداد، يناقش أبرز المواضيع والمستجدات على الصعيد المحلي والإقليمي والعالمي، ويوفر فضاءً حُراً لمناقشة الآراء في المجالات التي يُعقد على أساسها بين النخب على الصعيد المحلي والدولي وعلى درجة عالية من الأهمية، ويُسخّر مخرجاته لصالح بناء الدولة ومؤسساتها وتعزيز ثقافة الحوار والتعايش على المستويات كافة.

يتمتع المركز بدعم وتمويل من المؤسسات الراعية له عبر اتفاقات علنية ووفقاً للضوابط والقوانين العراقية النافذة، ويحرص على الإعلان عن مصادر هذا الدعم والتمويل بشفافية ووضوح. ويتمثّل هذا الدعم لنشاطات المركز بإسهامات الهيأة الإدارية (مجلس الإدارة) والتبرعات والمنح والهبات والهدايا غير المشروطة الداخلية والخارجية، فضلاً عن المنح المالية من المنظمات الدولية، ووكالات الأمم المتحدة، والجهات المانحة العراقية والدولية، والهيئات الإنسانية والتنموية والشركات الخاصة مثل (البنك المركزي العراقي (CBI)، وزارة النفط العراقية، هيأة الاعلام والاتصالات، بعثة الاتحاد الأوروبي، شركة بريتش بتروليوم (BP)، المصرف العراقي للتجارة (TBI)، المجلس الاقتصادي العراقي (IEC)، شركة وادي الخير للاستثمارات الزراعية، مصرف الثقة الدولي،، شركة النافذة لخدمات الانترنت وتكنولوجيا المعلومات، مجلس الأعمال العراقي، شركة وجه القمر للاستثمارات والمقاولات، شركة مدينة المعالي للاستثمارات والمقاولات، منصة تعليم).

كما يتمتع المركز بدعم من مؤسسات عراقية رصينة مجازة قانوناً، أبرزها «الوطني من إيرثلنك» التي تعد الشركة الأولى والرائدة في العراق المتخصصة في مجال تقنية الألياف الضوئية (FTTH) وأكبر مجهز لخدمات الإنترنت في العراق، وشركة «آسياسيل» (AsiaCell) أول شركة اتصالات في العراق والمزود الرئيسي لخدمات الاتصالات النقالة والإنترنت عالية الجودة، وتملك قاعدة مشتركين وصلت إلى 19.7 مليون مشترك. و«مصرف العالم الإسلامي» أحد أهم المصارف العراقية في مجال التنمية الاقتصادية وهو شركة مساهمة خاصة أسسها نخبة من رجال الأعمال المعروفين محلياً وإقليمياً.

أولاً: الكتب المؤلفة

ت	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
1	الاقتصاد العراقي بعد عام 2003	زين العابدين محمد عبدالحسين صادق علي حسن	2018
2	أهوار العراق ثلاث دراسات في البيئة والحيوان والسياحة	عبد علي الخفاف حسين عليوي الزيادي خالد كاطع الفرطوسي	2019
3	محاضرات في الشأن العراقي	مجموعة خبراء	2019
4	بناء العراق الواقع والعلاقات الخارجية وحلم الديمقراطية	لقمان عبد الرحيم الفيلي	2020
5	الاقتصاد السياسي للتعليم في العراق	أ.د. كامل علاوي الفتلاوي أ.د. حسن لطيف الزبيدي	2020
6	بين جيلين.. مجموعة حوارات متسلسلة بين شاب عراقي وأخيه الأكبر	لقمان عبد الرحيم الفيلي	2021
7	البنك المركزي العراقي: الأدوار.. المهام.. وخيارات المستقبل	مجموعة مؤلفين	2021
8	العراق 2020: التقرير الاستراتيجي لمركز الرافدين للحوار	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. حسن لطيف الزبيدي أ.د. أحمد سامي المعموري أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض	2021
9	الوجيز في خلافة الدول: دراسة قانونية في ضوء أحكام الاتفاقيات الدولية	د. أبوطالب هاشم أحمد الطالقاني	2021
10	فلسفة أطر العلاقة البينية للايتيقيا والقانون: دراسة قانونية نقدية في الواقع وعالم ما بعد العلمانية	أ.د. إياد مطشر صيهود	2021
11	العقد الاجتماعي عند الشيخ النائيني في العراق	أ. المتمرس د. عبد الأمير زاهد	2022
12	رؤى جديدة لإدارة صناعة إستخراج النفط في العراق	أ د. جواد كاظم لفته الكعبي	2022
13	مشكلات عراقية معاصرة	أ.د. وليد عبد جبر	2022

ت	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
14	العراق 2021 التقرير الاستراتيجي لمركز الرافدين للحوار	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. حسن لطيف الزبيدي أ.د. أحمد سامي المعموري أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض	2022
15	الصين وشركات التكنولوجيا أذرع التجسس ومصادر التفوق والهيمنة الرقمية	أ.د. حسن لطيف الزبيدي د. كرار أنور البديري د. أحمد أمين	2022
16	الفَسادُ الماليُّ والإداريُّ في العراق رؤيةٌ جغرافيَّةٌ-سياسيَّةٌ	أ. د. حسين عليوي ناصر الزيادي	2023
17	انتهاكات داعش للقانون الدَّوليِّ الإنسانيِّ	د. فاضل عبد الزَّهرة الغراويّ	2023
18	مصادر الطاقة ومستقبل البشرية	د. حسين الشهرستاني	2023
19	دراسات في الحركات الاسلامية المعاصرة في العراق	مجموعة مؤلفين	2023
20	الوجود الإسلامي في اوربا ومستقبله: دراسة في ضوء المصادر الاستشراقية المعاصرة	هبة حسين الرماحي	2023
21	النجف الاشرف 2050 رؤية مستقبلية	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. حسن لطيف الزبيدي أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض	2023
22	تقويم عمل الحكومة العراقية خلال عامٍ كامل 2022-2023	مجموعة مؤلفين	2023
23	العراق عقدان ملتهبان: تناسل الازمات وامتناع الحلول (5 مجلدات)	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. حسن لطيف الزبيدي أ.د. أحمد سامي المعموري أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض م.م. عمّار كريم حميد	2024
24	كركوك العراقيَّة وصراع الهويَّات الفرعيَّة	د. دهام محمد العزاوي	2024
25	الأهمية الاقتصادية لميناء الفاو الكبير وانعكاسه على واقع التنمية المستدامة في العراق	أ.د. حميدة شاكر الإيدامي أ. م. د. أمجد راضي الزاهدي	2024
26	العراق 2022: التقرير الاستراتيجي لمركز الرافدين للحوار	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. حسن لطيف الزبيدي أ.د. أحمد سامي المعموري أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض أ.د. أسعد كاظم شبيب	2024
27	المؤسسة العسكرية العراقية 2003-2020	د. عماد هادي علو الربيعي	2024

ت	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
28	العراق 2023: التقرير الاستراتيجي لمركز الرافدين للحوار	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د. أحمد سامي المعموري أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض	2025
29	الانتفاضة الشعبية في العراق 1999 بعد استشهاد السيد الصدر (قدس): المقدمات، المسارات، النتائج	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د. مقدام عبد الحسن الفياض أ.د. أحمد سامي المعموري	2025
30	جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق: حقائق جديدة على أرضٍ قديمة	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د مقدام عبد الحسن الفياض م.م. عمّار كريم حميد	2025
31	السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط في عهدي ترامب وبايدن 2017 – 2024	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د مقدام عبد الحسن الفياض م.م. عمّار كريم حميد	2025
32	النجف قبل الإسلام: حفريات في ذاكرة المنطقة	عبد الأمير المؤمن	2025
33	العراق 2024: التقرير الإستراتيجي لمركز الرافدين للجوار	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د مقدام عبد الحسن الفياض م.م. عمّار كريم حميد	2025
34	السياسات الخضراء: إعادة تعريف التقدم في عصر الذكاء الاصطناعي	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د. عامر عبد زيد الوائلي	2025
35	دور إيران في محددات التوازن الاستراتيجي في الشرق الأوسط (البرنامج النووي انموذجاً)	مجموعة مؤلفين تحرير: أ.د. أسعد كاظم شبيب أ.د مقدام عبد الحسن الفياض	2025

ثانياً: الترجمات

ت	عنوان الترجمة	المؤلف	سنة النشر
1	حرب بلا نهاية: سياق حرب العراق	مايكل شوارتز	2019
2	مقدمة في الفلسفة السياسية	جيسون برينن	2019
3	ريع الموارد والنمو الاقتصادي	بيتر كازناتشيف	2019
4	العراق تاريخ سياسي من الاستقلال الى الاحتلال	عضيد داويشة	2019
5	المرجعية الدينية الموقف الوطني في العراق بعد 2003	كارولين مرجي الصايغ	2020
6	القاعدة والدولة الإسلامية وحركة الجهاد العالمية ما يحتاج الجميع الى معرفته	دانيال بايمن	2021
7	أوهام النصر صحوة الأنبار وصعود الدولة الإسلامية	كارتر مليكزيان	2021
8	شنّ حروب التمرد الدُّروسُ المُسْتَقَاةُ مِنْ حُروبِ التَّمرُّد بدْءًا مِنْ الفيت كونغ وُصُولًا إِلَى الدَّوْلَةِ الإسلاميَّةِ	سيث ج. جونز	2021
9	النظام الفيدرالي في العراق النشأة والأداء والأهمية	فرح شاكر	2021
10	الاتجاهات العالمية 2040	مجلس الاستخبارات الوطني الأمريكي	2021
11	الشيعة العرب .. المسلمون المنسيون	كراهام فولر رند الرحيم فرانك	2021
12	حكّام وعقائد وثروات لماذا أثرى الغرب دون الشرق؟	جارِد روبِن	2021
13	جنود ومواطنون التاريخ الشفوي لعملية "حرية العراق" من ساحة المعركة إلى البنتاغون	كارل ميرا	2021
14	الأمن في منطقة الخليج	فاطمة شايان	2021
15	بين الدولة واللادولة .. السياسة والمجتمع في كردستان العراق وفلسطين	مجموعة مؤلفين تحرير: گلستان گُرِيَ زابينه هوفمان فرهاد إبراهيم سَيدر	2022

ت	عنوان الترجمة	المؤلف	سنة النشر
16	الإسلام الشيعي والسياسة إيران والعراق ولبنان	جون أرمجاني	2023
17	فهم العنف الديني: اكتشاف الراديكالية والارهاب في الدين من خلال دراسة حالات نموذجية	مجموعة مؤلفين تحرير: جيمس دينگلي مارسيلو موليكا	2023
18	الاقتصاد السياسي لعلاقة الاتحاد الاوربي مع العراق وإيران-تقويم لعلاقة السلام عبر التجارة	أمير كامل	2023
19	نظرة جديدة في العلاقات التركية العراقية - معضلة التعاون الجزئي	محمد عاكف قومرال	2023
20	الحرب الخفية: كيف تمكنت الصين من السيطرة على غفلة من النخب الأمريكية	روبرت سبولدينغ سِث كوفمان	2023
21	الحرب والسلام السيبرانيان: الصراع الرقمي في الشرق الأوسط	مجموعة مؤلفين تحرير: مايكل سيكستون وإليزا كامبيل	2023
22	الركائز السبع: الأسباب الحقيقية لإضطراب الشرق الأوسط	مجموعة مؤلفين تحرير: مايكل سيكستون وإليزا كامبيل	2023
23	صعود روسيا: السياسة الخارجية لبوتين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا	مجموعة مؤلفين تحرير: مايكل سيكستون وإليزا كامبيل	2023
24	السفراء: الدبلوماسيون الأمريكيون على الخطوط الأمامية	بول ريكتر	2023
25	كيف أصبح العالم غنيًا؟"	مارك كوياما جارید روبین	2024
26	بناء المؤسسات في البلدان الضعيفة: أولوية السياسات المحلية	أندرو رادين	2024
27	المعلومات والسلطة والديمقراطية: الحرية من بنات المعرفة	نيكو شْتير	2024
28	منظمة أوبك في القرن العشرين: من الصعود إلى الانحدار	تحرير: جوليانو غارافاني	2024
29	العراق في مواجهة العالم: صدّام، والولايات المتّحدة الأمريكية، ونظام ما بعد الحرب الباردة	سامْيَوَل هلفونت	2025
30	العراق: السلطة والأنظمة والهويات	أندرو جيه فليبرت	2025
31	الجهاد في الاسلام دراسة تاريخية فقهية في مسألة الجهاد الابتدائي	آية الله الشيخ نعمة الله صالحي النجف آبادي	2025
32	الحربُ الباردَة في العالم الإسلامي	ديليب هيرو	2025

ثالثاً: سلسلة الرسائل والأطروحات الجامعية

ت	عنوان الرسالة / الأطروحة	الباحث/ة	سنة النشر
1	موقف إيران من الاجتياح العراقي للكويت 1990 – 1991 دراسة تأريخية	رماح سعد مرهون المعموري	2021
2	الأثر المترتب على مخالفة ضوابط تسبيب الحكم الجزائي في التشريع العراقي (دراسة مقارنة)	م. م. يوسف فاضل طه حرز الدين	2021
3	صناديق الثروة السيادية دراسة قانونية مقارنة	د. لنجة صالح حمه طاهر حمه أمين	2021
4	التنمية السياسية وأزماتها السياسية في العراق بعد عام 2003	د. فرزدق علي التميمي	2021
5	ديناميكيات القوى الصاعدة والمهيمنة في جنوب شرق آسيا دراسة تحليلية وفق نظرية توازن المصالح	م.م. عمّار كريم حميد	2021
6	الارهاب والنظام السياسي الدولي بعد أحداث 11 أيلول سبتمبر 2001 رؤية مستقبلية.	د. خالد محمد طاهر شبر	2022
7	الاستثمار الدولي باعتماد أنموذج ICAPM واستثمارات الشركات الدولية	د. علي عبد الأمير فليفل أ.د. حاكم محسن محمد الربيعي	2022
8	تمويل التنمية الاقتصادية في البلدان النامية "العراق أنموذجا"	أ.م.د. إبراهيم جاسم جبار الياسري	2022
9	المكان وأثره التنظيمي في القوى الاجتماعية والاقتصادية لمحافظة النجف الأشرف	د. عصام صباح إبراهيم	2022
10	عجز الموازنة العامة والتغير النقدي في العراق للمدة 1980 - 2015	أ.م.د. حسين شناوة مجيد	2023
11	الحراك الاحتجاجي في العراق حلم الديمقراطية: من النكوص الى الانبعاث	د. سيف حيدر الحسيني	2023
12	المحيط الاقليمي ومحاربة الإرهاب في العراق	د. باسم محمد يونس	2025
13	نقد الحداثة في الفكر السياسي العربي المعاصر	أحمد عباس فاضل جاسم	2025

رابعاً: الإصدارات القادمة

ت	عنوان الإصدار	فئة الإصدار	سنة النشر
1	صلاحيات رئيس الجمهورية في الأنظمة السياسية البرلمانية المعاصرة: النظام السياسي العراقي وفق دستور 2005 أنموذجاً	كتب مؤلفة	2025
2	مجلس الاتحاد العراقي: اشتراطات قانونية وتحديات عملية	كتب مؤلفة	2025
3	برامج الحكومات العراقية (2003 - 2025)	كتب مؤلفة	2025
4	حدود العراق الدولية: من خرائط النزاع الى بوابة التعاون	كتب مؤلفة	2025
5	الحماية الاجتماعية ومكافحة الفقر في العراق: مقاربات مع نماذج عالمية	كتب مؤلفة	2025
6	النظام الحزبي وصُنع السياسة العامة: دراسة مقارنة ألمانيا-العراق	رسالة جامعية	2025
7	الانتخابات البرلمانية في العراق 2025: ديناميات الوجود والتأثير واستشراف المسارات المستقبلية	كتب مؤلفة	2025
8	العراق 2025: التقرير الاستراتيجي لمركز الرافدين للحوار	كتب مؤلفة	2025
9	الدولة العربية المعاصرة والمشكلة الطائفية	كتب مؤلفة	2025

مركز الرافدين للحوار RCD

مركز الرافدين للحوار RCD

www.alrafidaincenter.com
009647826222246
alrafidaincent
alrafidaincenter.com
alrafidaincent
alrafidaincent
info@alrafidaincenter.com
مركز الرافدين للحوار RCD
النجف الاشـرف - حي الحـوراء - امتداد شارع الاسكـان
العاصمة بغداد - الجادرية - قرب تقاطع ساحة الحرية

يشغل التنافس السعودي الإيراني اهتمام الباحثين في السياسة الدولية، لما تركه من تداعيات إقليمية وعالمية، ما زالت قائمة بين هاتين الدولتين بوصفهما قطبين رئيسيين في العالم المسلم ولديهما طموحات ومشاريع متجددة في أنحاء مختلفة. ونظراً لذلك فأن هذا الكتاب يُشكّل أهمية بالغة في المكتبة العربية، ودافعاً أكيداً لمركز الرافدين للحوار R.C.D بأن يُقدِم على ترجمته ونشره. لأنه يركز على دراسة جذور ذلك التنافس طيلة العقود الأربعة الماضية وتداعياته على أمن المنطقة المضطربة أصلاً.

يمنحنا الكتاب خارطة طريق جديدة لفهم الصراع، وما الذي دفع جيران عاديين إلى التغاضي عن المشتركات الكثيرة بينهما كالجوار الجغرافي الأبدي والانتماء الديني الإسلامي والمصالح الاقتصادية المتقاربة، والتحوّل بدلاً عن ذلك نحو المفترقات. فبدأ المؤلف بالمقارنة بين تاريخ الدولتين، وأضاف إليه التنوع القومي (الفارسي-العربي) والمعتقدات المذهبية المختلفة. كما رصد كيف ساهمت صناعة النفط في صعود كلتا الدولتين كركنين أساسيين في عالم الاقتصاد، وما ولّده ذلك من عناصر جديدة للمنافسة حيناً والتعاون أحايين أخرى. ولا ريب فأن الاختلاف في هيئة النظامين السياسيين (الحكم الملكي الوراثي من جانب والدولة الدينية من جانبٍ ثان) قد عمّق التمايز بين الفريقين، وهذا ما اعتنى الكتاب بمناقشته كثيراً.

ISBN 978-9-9227721-3-4
9 789922 772134

www.alrafidaincenter.com
info@alrafidaincenter.com
00964782622246
ص.ب. 252
مركز الرافدين للحوار
Al-Rafidain Center For Dialogue
R.C.D
العراق - النجف الاشرف - حي الحوراء - امتداد شارع الاسكان
العراق - بغداد - الجادرية - تقاطع ساحة الحرية